نظريات الشخصية

البناء . الديناميات . النمو . طرق البحث . التقويم

الدكتور
جابر عبد الحميد جابر
أستاذ علم النفس
جامعة قطر

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

نظريات الشخصية

البناء . الديناميات . النمو . طرق البحث . التقويم

الدكتور
جابر عبد الحميد جابر
أستاذ علم النفس
جامعة قطر

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون: ٩٢٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي
ومحياي ومماتي
لله رب العالمين

قرآن کریم

((بسم الله الرحمن الرحيم))

تقــــــديم

نظريات الشخصية موضوع بالغ الأهمية في مجال الدراسات النفسية لشموله وتنوعه ولانه يلم بأطراف من تاريخ علم النفس وبالعديد من موضوعاته النظرية والتطبيقية ولا يخلو برنامج في الدراسات النفسية من تناول هـــذا الموضوع بالدراسة المتعمقة . ولقد شغلني هذا الموضوع تعلما وبحثا فترة طويلة من الزمان. وشعرت بحاجة المكتبة العربية الى كتاب يتناول اساسيات هذا المجال وعلمائه البارزين وخلاصة فكرهم ونبذة عن حياتهم .

بدات ادرس موضوع الشخصية في أواخر الاربعينات من هذا القرن وكنت طالبا بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، وكان استاذنا الدكتور مصطفى زيور يقسم زمن التعليم والتعلم الى جزئين ، اما احدهما فيتولاه بنفسه ، ويختص بالتحليل النفسي واما الآخر فيختص بعلم النفس الاكاديمي ، وكان يكلف بعض الطلاب باعداد هذه الدروس من مراجع انجليزية ، دروس في طرق البحث ، والادراك والتعلم والدوافع وغير ذلك . ولقد كان لمشـــاركة الطلاب في التعليم اثر باق في نفوسنا ، فما زلنا نذكر طرفا مما درسنا في هذه الموضوعات وبعض وقائعها .

وفي أوائل الخمسينات انتقلت الى مرحلة اخرى من مراحل طلب العلم فدرست على يد الدكتور اسحق رمزي وقد كان يدرس الشخصية ونظرياتها بالاعتماد على المصادر الأصلية ، فنظرية الانماط عنـــد كرتشمر تدرس من كتابه « الخلق والشخصية » ومثل هذا يصدق على نظريات يونج والبورت وفرويد وادلر ... الخ وكان اسلوبه في التعليم يقوم على مشاركة الطلاب وعلى النقاش . ولقد كانت مكتبة كلية التربيـــة بجامعة عين شمس آنذاك حافلة بهذه المصادر الأولية ، الأمر الذي قد لا نجد له نظـــيرا في كثير من الجامعات الآن .

ثم درست موضوع الشخصية للمرة الثالثة على يد الدكتـــور برونو بتلهيم الاستاذ بجامعة شيكاغو في نهاية الخمسينات وكانت له طريقة فريدة في التعليم . نتلقى في اول لقاء به قائمة بالقراءات تحتـــوى على عدد من البحوث والكتب والمقالات التي كتبها مفكرون مختلفون من أمثـــال افلاطون

وفرويد وآنا فرويد وليفين واريكسون وفروم وهورنى وسوليفان ، بل وتحتوى على مؤلفاته هو . وعلى الطلاب أن يدرسوا هذه القراءات معتمدين على أنفسهم ثم يفيدوا مما درسوا فى الاختبارات التى تطبق عليهم ولا تناقش هذه القراءات خلال دروسه . وكنا نلتقى بالاستاذ فى درسين فى الأسبوع يخصص أحدهما لمشاهدة فيلم يصور شخصا مشكلا ، وبعد عرضه يدور النقاش لتحليل الأنماط السلوكية لهذا الشخص وتفسيرها . أما الدرس الثانى فيقوم على دراسة أحداث نفسية يدلى بها بعض الطلاب خاصة بهم ، وكان هذا الدرس يملؤنا رهبة وخوفا لما يمكن أن نتعرض له من كشف عن الذات وخصوصياتها أمام جمهور من الطلاب والطالبات .

وقد جاء عملى بجامعة قطر بعد أربعة عشر عاما من التعليم لعلم النفس فى جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية والمنيا وبغداد والمستنصرية والأزهر . وقد أدى اضطلاعى بعمادة كلية التربية بجامعة قطر فى الفترة من ١٩٧٨ — ١٩٨٥ م الى انغماسى بشكل أعمق فى قضايا التعليم ، وكان لا بد أن تتشكل معظم اهتماماتى وتوظف لخدمة تطوير التعليم فاهتممت بأهداف التعليم وتحليل أعماله ودراسة التلاميذ وتقويمهم واعداد البرامج والاهتمام بالتربية العملية والمشاركة فى تنمية المشرفين عليها والاسهام فى حلقات النقاش الأسبوعية بكلية التربية . ولقد ظهرت بعض آثار هذه الاهتمامات فى أربعة كتب وهى : التعلم وتكنولوجيا التعليم ، واسلوب النظم بين التعليم والتعلم ، ومهارات التدريس ، والتقويم التربوى والقياس النفسى . كتبت بعضها بمفردى وشاركت بعض الزملاء فى كتابة البعض الآخر . وقد كتبت كلها فى محاولة للربط بين التنظير والتطبيق .

وبانتهاء هذه الفترة اقتضى الأمر أن أقوم بتدريس نظريات الشخصية لطلاب الدبلوم الخاصة فى التربية بجامعة قطر وكان لا بد أن أعود الى نوع من الدراسات النفسية الصرفة وأعكف على دراسة عدد من أصحاب الفكر المتميز فى هذا المجال . ولقد وقع اختيارى على النظريات الواردة فى هذا الكتاب فى ضوء معايير ثلاثة هى : **أولا** — اتفاق المؤلفين فى هذا المجال ، فالنظريات التى أقدمها هى أكثر النظريات شيوعا فى كتب الشخصية ونظرياتها ، **وثانيا** — تحقيق التوازن فى الكتاب أى تقديم عدد من المفكرين يمثلون الاتجاهات النظرية المختلفة ، أى : النظريات السيكودينامية ونظريات

السمات والعوامل ، والنظريات السلوكية ، والنظريات الانسانية . **وثالثا** — تأثير النظرية واثارتها للبحوث فى مجال الشخصية فى الماضى والحاضر .

ويبدو أن كثيرا من كتب علم النفس تفترض أن تعلم علم النفس معناه حفظ ما قدمه علماء النفس من مفاهيم ومبادىء ، اى انهم لا يفترضون أن يقوم الدارسون بالتفكير فيما يدرسون وفى نقده بل وفى الابداع فى هذا المجال . ولعل تأكيد الكتاب الحالى على طرق البحث التى استخدمت وبعض البحوث التى أجريت فى اطار كل نظرية ثم بيان نواحى قوتها ونواحى ضعفها يساعد على ايجابية الدارس فى تعلم مادة الكتاب .

ومن المعقول أن نتصور أن طلاب المرحلة الجامعية الأولى لا يستطيعون أن يتصدوا لدراسة الشخصية الانسانية ما لم يتقنوا اطرا فكرية تساعدهم على ذلك . غير أن هذا قد يصدق خارج نطاق علم النفس لان لدى كل منا نظريته عن الشخصية حتى دون أن ندرس الموضوع على نحو منهجى ، بل ان كثيرا من الأفكار التى سيدرسها الطلاب شائعة بين المثقفين .

ويبدأ كل فصل من فصول هذا الكتاب بنبذة عن سيرة صاحب النظرية ثم يتناول بناء الشخصية وديناميتها ونموها وطرائق البحث فيها وتقويمها . وتناول حياة صاحب النظرية بالدرس كثيرا ما يساعد على فهم اتجاهه الفكرى .

والمتوقع أن يدرس هذا الكتاب فى المقررات النفسية التى تتناول الشخصية ونظرياتها . وقد يستخدم فى مقررات علم نفس الشواذ والنمو النفسى والدوافع وفى قاعات البحث . ويستطيع الدارسون أن يفيدوا من مادته على اختلاف تخصصاتهم ، فى علم النفس التربوى ، وفى التربية الخاصة ، وفى علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية ، وفى التمريض والطب النفسى .

ودراسة نظريات الشخصية تتيح للدارس أن يخبر على نحو وثيق خصوبة علم النفس وثراءه ، لانه يدرس فى هذا المجال مفكرين متشددين فى منهجهم العلمى فى دراسة الانسان وآخرين أقرب الى المؤرخين والأدباء . وهو مجال يتيح للدارس فيه أن يجيب عن كثير من الاسئلة التى تشغل فكره من قبيل : لماذا تظهر الفروق الفردية بين البشر ؟ ولماذا يسلك الناس على

نحو ما يسلكون ؟ وما العلاقة بين الجسم والعقل ؟ وما مدى تأثر الشخصية بالعوامل الوراثية والبيولوجية والبيئة ؟ وما مدى حتمية السلوك الانسانى ؟ وهل حرية الارادة حقيقة أم خيال ؟ وفى هذا المجال يتعرض الدارس لتاريخ علم النفس منذ فرويد ويونج حتى يصل الى المعاصرين من أمثال روجرز وماسلو وباندورا وسكنر . انه مجال يدرس فيه الطالب ما يساعده على فهم نفسه وعلاقته بالآخرين ولا يوجد موضوع آخر تقريبا فى ميدان علم النفس بهذا الشمول والاتساع . ومعنى هذا انه اذا أراد الطالب ان يدرس مقررا واحدا فى علم النفس وجب أن يدرس مقررا فى نظريات الشخصية . والمفاهيم التى نعرضها فى نظريات الشخصية المختلفة ليست تجريدات اكاديمية عديمة المعنى وانما هى افكار حيوية لها علاقة وثيقة بأنماطنا السلوكية فى مجالات الحياة المختلفة وبخبراتنا المنوعة .

وقد يكون من الأمور المضللة البحث عن نظرية فى الشخصية هى النظرية الصحيحة ، ولعل الموقف الأفضل لفهم الشخصية ان ندرسها من وجهات نظر مختلفة ومن زوايا عديدة ، وهكذا فحين يدرس الطالب نظريات سيكودينامية ، ونظريات سمات وعوامل ونظريات سلوكية ونظريات انسانية فانه يدرس مداخل مختلفة تتساوى فى مصداقيتها من حيث تحقيق أهداف العلم وهى فهم الظاهرة والتنبؤ بها وضبطها .

وقد عرضت فى مقدمة الكتاب لعدد من القضايا عن طبيعة النظرية ووظائفها وغير ذلك من مسائل تختصم حولها النظريات وتتفق وتعرضت للأسس التى تقوم النظريات فى ضوئها ، كما انهيت الكتاب بفصل يلخص الموقف الحاضر ويقومه . وأثبت المراجع العربية والأجنبية التى افدت منها فى اعداد هذا الكتاب ، كما أثبت عددا من المصادر الأولية التى تتيح لطلاب الدراسات العليا على وجه الخصوص التعمق باستخدام المظان الأصلية .

وعلى الله قصد السبيل

جابر عبد الحميد جابر

الدوحة — قطر فى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

الفصل الأول

(١ ـ النظرية الشخصية)

مقـــدمة :

تحتوى النصول الآتية على تعريفات عديدة للشخصية ، ولكن التعريف الجيد لا بد أن يتضمن الاتساق الذى يساعد على تمكين الآخرين من التنبؤ بسلوكك ، ولا بد أن يضفى عليك أحساسا داخليا بالتماسك ولا بد لهـذا التعريف ان يفسر تفرد الفرد أو على الأقل تمايزه .

ان تعريفات علماء النفس للشخصية ـــ والتى تشتمل على تعـريف بيولجى اجتماعى وتعريف بيولوجى فيزيقى تجميعى وتعريف تكاملى ـــ نتيجة لوجهة نظر كل منظر فى بنية الشخصية الانسانية ووظيفتها .

وتوضع بعض النظريات لشرح ما هو موجود وهذه نظريات وصفية ، ويوضع البعض الآخر ليشرح كيف أصبحت الشخصية على هذا النحو أو ذاك وهذه النظريات وظيفية أو علية .

ويسلم صاحب النظرية بمسـلمات معينة وقد تكون هـــذه المسلمات فلسفية وهى التى يسلم بها المنظر وتتناول طبيعة الواقع أو الحقيقة ، وقد يسلم بمسلمات منهجية لها علاقة باجراءات دراسة الشخصية ، ومن أكثر هذه المسلمات شيوعا فى نظرية الشخصية أن السلوك الانسانى قانونى ، وان الزمن خطى ، وان السلوك له أسباب وعلل تحدده .

والقول بأن الموضوعية هى الأساس الوحيد لدراسة الشخصية مسلمة منهجية ، ويصدق هذا ايضا على تفضيل المنهج الذرى على المنهج الكلى أو العكس . بل ان قرار المنظر بدراسة جوانب معينة من الشخصية وتفضيلها على جوانب أخرى يتضمن مسلمة منهجية . وفى الحق أنه يستحيل التنظير دون التسليم بمسلمات . واحد أسباب وجود نظريات شخصية مختلفة أن المنظرين يختلفون فيما يتبنون من مسلمات .

وتتضمن النظرية مجموعة من المسلمات يتم التوصل اليها عن ظاهرة معينة أو حدث ، كما يتضمن ايضا مجموعة من التعريفات الامبيريقية التى

التى تربط النظرية المجردة بالملاحظات المحسوسة . وينبغى أن تكون مسلمات النظرية ملائمة لموضوع الدراسة ومتصلة بعضها بالبعض الآخر . وينبغى أن تكون التعريفات الامبيريقية دقيقة بقدر ما تسمح به المعلومات الحاضرة .

ولا تحتكر نظرية معينة الحقيقة كلها ، ذلك أن النظرية أداة تلائم عملاً معينـــا .

والوظيفة الأساسية للنظرية ان تكتشف علاقات مستقرة بين الوقائع والمتغيرات ، علاقات يمكن بيانها . وينبغى أن تؤدى النظرية الى الكشف عن بيانات جديدة وعلاقات بين البيانات ، وأن تقدر على تمثل النتائج الامبيريقية المعروفة فى اطار متسق بسيط بدرجة معقولة ، وأن تساعد الباحث على اختيار المسائل الهامة للدراسة ، وأن تمكنه من عزلها عن غيرها .

والفرق الرئيسى بين نظرية الشخصية والنظريات النفسية الأخرى يتمثل فى اختلاف مسار كل منهما ، فقد نمت الأولى من مجال الطب ومن الحاجة الى تطبيقات علاجية مباشرة ، ونمت الأخيرة من الاهتمامات الأكاديمية والاستقصاءات العلمية . ونتيجة لذلك نجد أن نظرية الشخصية أكثر وظيفية فى طبيعتها من علم النفس التجريبى ، وهى تعمل كقوة تحقق التكامل وتوحد النتائج التى تسفر عنها مجالات نفسية مختلفة وتحاول أن تزودنا بصورة موحدة لطريقة السلوك الشخصى ككل .

ولقد أدى بقاء نظرية الشخصية خارج التيار الأساسى لعلم النفس الأكاديمى الى تمتعها بحرية فى أن تتساءل وترفض مسلمات يشيع قبولها فى ميدان علم النفس العام ، وفى نفس الوقت فانها كثيرا ما قصرت عن الصرامة والدقة العلمية ، وكثيرا ما كان اهتمامها بالطرق العلمية التقليدية محدودا اذا قورنت بفروع علم النفس الأساسية الأخرى .

وعلى الرغم من أن من المعقول أن نعتقد أن العلم موضوعى موضوعية تامة وخلو من التحيز الشخصى ، الا أن الشواهد المتاحة تدلنا على أن القيم الشخصية تؤثر فى نظريات الشخصية وفى استراتيجيات البحث فيها . وهذه المواقف واضحة على وجه الخصوص فى المراحل المبكرة من نمو العلم .

وقد تساعد على فهم المواقف المتصارعة والمتباينة فيما يتصل بالمسائل ذات المغزى والأهمية . ولعل الوعى بتاريخ التقدم العلمى فى المجالات الأخرى يساعدنا على فهم وجود نظريات متنافسة فى مجال الشخصية فى الوقت الحاضر ، وعلى فهم ما يمكن أن تقدمه من امكانيات تساعد على التقدم العلمى فى المستقبل فى هذا المجال .

ونظرية الشخصية الشاملة ينبغى أن توضح وتفسر (١) بنية الشخصية ، وبالديناميات ما يتعلق بما يحرك الشخصية (فنظريات الدافعية الشخصية ، وبالديناميات ما تعلق بما يحرك الشخصية (فنظريات الدافعية نظريات عن الديناميات) ويقصد بالنمو الطريقة التى تكبر بها الشخصية وتتغير مع مضى الزمن . وتتناول قلة من النظريات هذه الجوانب الثلاث على نحو متوازن ، وكثير منها يركز على الديناميات على الأغلب .

ويرى البعض أن نظرية الشخصية الشاملة ينبغى أن تعالج الى جانب البنية والديناميات أو العملية والنمو جانبين آخرين هما النواحى المرضية وتغير الشخصية . وهذه الجوانب الخمسة بطبيعة الحال تمثل تجريدات تصورية ، فالشخص ليس بنية أو عملية ، وما يبدو بنية فى لحظة معينة قد يبدو عملية فى لحظة أخرى . فقد يقال عن فرد أن لديه ضميرا متشددا (بنية) يشعره بالاثم (عملية) . وهذه التصورات المجردة ما هى الا أدوات تساعدنا على فهم السلوك الانسانى وتفسيره وقد نجدها فى علم الأحياء كما نجدها فى علم النفس . وبالمثل فان النمو والتغير ليسا مستقلين عن البنية أو العملية ، بل أن الواحد منهما غير مستقل عن الآخر . أن النظرية تمثل جهدا للتوصل الى نمط السلوك الانسانى وانتظامه والى الطرق التى يتشابه بها الأفراد ويتمايزون . ان المفاهيم التى تضعها نظرية وتطورها تمثل جهودا نحو تفسير وتنظيم خصائص الشخصية والشروط أو الظروف التى تنمو فيها والعمليات التى تميز قيامها بوظيفتها .

ويمكن المقارنة بين النظريات وفهمها على نحو مفيد على أساس المسائل الآتية : —

(أ) — المحددات الشعورية واللاشعورية للسلوك .

٢ — نواتج التعلم أو المكتسبات أم عملية التعلم (أى التأكيد على الأبنية الثابتة فى وقت معين أم على عملية التغير اساسا) .

٣ — الوراثة مقابل البيئة .

٤ — الماضى مقابل الحاضر .

٥ — المدخل الكلى مقابل المدخل التحليلى أو الجزئى .

٦ — الشخص مقابل الموقف .

٧ — النظرة الغرضية مقابل النظرة الميكانيكية .

٨ — دوافع كثيرة أم دوافع قليلة .

٩ — سلوك سوى أم سلوك شاذ .

ويستخدم علماء نفس الشخصية اربعة طرق لجمع البيانات ولبناء نظرياتهم واختبارها .

١ — الطريقة الأولى :

هى التأمل الفلسفى ، أى أن يلاحظ الباحث نفسه ويلاحظ الآخرين ويدرس الأدب السيكولوجى باتقان ويستخدم تحليله العقلى للتوصل الى مجموعة متسقة ومترابطة من التعميمات التى تؤلف نظرية . وقد تكون هذه الطريقة من أفضل الطرق بالنسبة لذوى الفكر الخصب والبصيرة النافذة والعبقرية . وعيبها أنه لا تتوافر طريقة مقبولة بصفة عامة لتحقيق واختبار صحة هذه النظريات التى تستند الى التأمل الفلسفى .

٢ — الطريقة الثانية :

هى الملاحظة الكلينيكية ودراسة الحالة.وهنا نجد المعالجين النفسيين يفكرون ويتأملون فى ملاحظاتهم عن المرضى ، ويطورون نظرياتهم لترشيد ممارساتهم . ولقد أقام فرويد ويونج وأدلر وهورنى وأريكسون وروجرز

وكيلى نظرياتهم على أساس هذه الطريقة . واستخدم مورى والبورت فى الأساس نفس الأسلوب ولو انهما لم يعالجا عينة من المرضى .

ان مزايا هذه الطريقة تتمثل فى عمقها وبعدها النسبى عما هو مصطنع ومن عيوبها عدم وجود ضوابط تحول دون تأثير تحيز الملاحظ وعدم امكانية اعادة الملاحظات ، وخاصة حين يكون المفحوصون مرضى ، ولا تتوافر لأصحاب هذه الطريقة عينة ممثلة للانسان لتحول دون تعرض النظرية لعدم التوازن .

٣ — قياس الفروق الفردية :

وهذه الطريقة تفترض أن الشخصية تتألف من عدد من السمات أو العناصر التى يمكن قياسها بالاختبارات النفسية. والمنظرون الذين يستخدمون هذه الطريقة يقضون أوقات طويلة فى بناء الاختبارات وفى تحليل نتائجها باستخدام معاملات الارتباط والتحليل العاملى . ومن أمثلة أصحاب هذا الاتجاه كاتل وايزنك على الرغم من أن مورى والبورت وحتى يونج يستخدمون هذه الطريقة احيانا .

ومن مزايا هذه الطريقة انها علمية فالقياس دقيق وموضوعى وقابل للاعادة وتكميم الملاحظات يجعلها قابلة للتحليل الاحصائى . وهذه الطريقة علمية لانها تكشف عن المكونات العامة للشخصية .

غير أن هذه العناصر العامة فى الشخصية قد تكون بالغة التجريد وعقيمة ولا حياة فيها ، وقد تنقصها خصوبة دراسة الحالة الجيدة وعمقها . وفى الحق أن العناصر قد لا توجد الا كتجريد رياضى وان وجدت قد تتغير مع كل موقف جديد . ومما يبعث على الحيرة ان نجد المنظرين وقد اكتشفوا مجموعات مختلفة تماما من عناصر الشخصية باستخدام هذه الطريقة ، هذا فضلا عن أن الأساليب الارتباطية الناتجة عن استخدام هذه الطريقة تخفق فى الكشف عن العلاقات العلية .

٤ — الطريقة التجريبية :

وتقضى بتغيير شرط او ظرف مع ابقاء جميع الشروط الأخرى ثابتة ثم

تتبين ما اذا كان هذا التغيير يؤثر فى النتيجة أم لا يؤثر فيها . أى اننا نتناول المتغير المستقل ونلاحظ ما يطرأ على المتغير التابع من تغيرات . والمتغيرات التى نتناولها فى التجارب عادة ما تكون متغيرات موقفية يسهل تناولها وكثيرا ما يكون لها آثار قوية ، وباندورا وسكنر من اكثر الآخذين بهذه الطريقة .

والطريقة التجريبية تؤدى عملها وتمكننا من التنبؤ بالسلوك على نحو افضل من اى طريقة اخرى ، واكثر من هذا فانها تكشف الأسباب وبالتالى تزودنا بمقترحات مفيدة جدا لتغيير السلوك . هذا فضلا عن موضوعيتها .

غير نه يلاحظ أن سيكولوجية الشخصية علم حديث . ويرى بعض النقاد ان استخدام التجريب يعتبر نوعا من التسرع فى هذا المجال وانه ينبغى أن يؤجل حتى تتوافر لدينا قاعدة نظرية ارسخ مبنيـة على التأمل وعلى الملاحظة الطبيعية . ويذهب بعض النقاد الى ان التجريب لن يكون ملائما قط لانه يستخدم دائما مواقف مصطنعة وتكنيكات خادعة . وفضلا عن ذلك فان القيود التى تفرضها الطريقة التجريبية تؤدى الى دراسة ظواهر تافهة وقليلة الأهمية . ثم ان التركيز على المتغيرات الموقفية يؤدي بأصحاب هذا الاتجاه الى اغفال الشخص عند دراسة الشخصية . واخيرا فان البعض يتساءل : هل التنبؤ بالسلوك هو فهم الشخصية أم ان هذين امران مختلفان ؟

تقويم النظرية :

يمكن تقويم النظرية فى ضوء ستة أسس أو محكات نوجزها فيما يأتى : —

١ — القابلية للتحقيق :

نعتبر النظرية جيدة بمقدار قابلية مفاهيمها للاختبار التجريبى والتحقيق على يد باحثين مستقلين . وهذا يقتضى بأن تصاغ مفاهيم النظرية بوضوح وان تتحدد العلاقات بينها على نحو جلى وبهذه الطريقة يمكن استنباط النتائج الامبريقيـة منها بطريقة منطقية ووضع الفروض المتولدة موضع الاختبـار .

٢ — تنشيط البحث العلمى :

تختلف نظريات الشخصية من حيث قدرتها على تنشيط البحث العلمى. فبعض الصياغات النظرية للشخصية مثيرة للاهتمام كنظرية ماسلو عن تحقيق الذات ولكن البحوث التى تدعمها قليلة أو نادرة . ولعل ذلك يرجع الى عدم تمكن صاحب النظرية من تعريف مفاهيمها اجرائيا على نحو يجعلها ميسرة للاختبار الامبيريقى . وبطبيعة الحال قد تجد النظرية أتباعا وتلامذة يزيدون من قدرتها على اثارة البحوث العلمية الوثيقة الصلة بمفاهيمها الأساسية .

٣ — الاتساق الداخلى :

لا ينبغى أن تناقض النظرية نفسها . أى أن النظرية الجيدة تفسر الظواهر النفسية بطريقة متسقة . ونظريات الشخصية بصفة عامة تستوفى هذا الشرط على نحو مرض .

٤ — الاقتصـــــاد :

يمكن الحكم على النظرية فى ضوء عدد المفاهيم التى تحتاجها لتفسير الوقائع فى مجالها . والتفسير المفضل لظاهرة هو ذلك الذى يتطلب اقل عدد من المفاهيم فالنظرية التى تستخدم مفهوما مختلفا ليفسر كل جانب من جوانب السلوك نظرية ضعيفة .

٥ — الشـــــمول :

كلما ازداد شمول النظرية ازداد المجال السلوكى الذى تتناوله. ومنظرو الشخصية يؤكدون بدرجات متفاوتة على العوامل البيولوجية والانفعالية والمعرفية والاجتماعية والثقافية من حيث درجة تأثيرها فى السلوك . وكل مدخل من هذه المداخل اذا استخدم وحده يكون نوعا من تضييق وتحديد الطبيعة الشمولية للنظرية . وينبغى أن ننوه بأنه لا توجد فى الوقت الحاضر نظرية تفسر جميع أنواع السلوك الانسانى والوظائف الانسانية على نحو مرض . ولما كان من الصعب تحديد أهمية وحيوية ظاهرة معينة فى فهمنا

للسلوك الانســـانى ، فانه يصعب المفاضلة بين نظــرية وأخرى لاختلاف الجوانب التى تؤكد عليها كل منها .

٦ — الأهمية الوظيفية :

قد تقوم النظرية على أساس مدى نفعها وفائدتها فى مساعدتنا على فهم السلوك الانسانى فى الحياة اليومية . وغنى عن البيان أن الناس جميعا يهتمون بفهم أنفسهم وفهم الآخرين ممن يتعاملون معهم .

الفصل الثاني

سيجمند فرويد

ولد فرويد فى فريبرج عام ١٨٥٦ بالنمسا وهى الآ بتشيكوسلوفاكيا . وحين بلغ الرابعة من عمره صحب أسرته الى فيينا التى عاش فيها قرابة ثمانين عاما ، وكان أبوه تاجر صوف غير ناجح ، متسلطا صارما . وحين ولد فرويد كان أبوه قد بلغ الأربعين من عمره ، وكانت أمه هى الزوجة الثانية فى العشرين من عمرها . وكان فرويد الابن الأول لستة اطفال ولدوا لامه . وكان له أخوان من أبيه .

كان فرويد تلميذا متفوقا دائما ، احتل المرتبة الأولى فى صفه منذ التخرج ، ولم يكن مسموحا لأخوته وأخواته أن يدرسوا الآلات الموسيقية فى البيت لان هذا قد يزعج فرويد ويعوقه عن التركيز فى دراسته . والتحق بمدرسة الطب عندما بلغ السابعة عشرة من عمره ، ولكنه مكث بها ثمانى سنوات لكى ينهى الدراسة التى تستغرق عادة أربع سنوات ، ويرجع ذلك الى متابعته وانشغاله بكثير من الاهتمامات خارج مجال الطب . ولم يكن فرويد مهتما فى الحقيقة بأن يصبح طبيبا ولكنه رأى أن دراسة الطب هى الطريق الى الانغماس فى البحث العلمى .

وكان أمل فرويد أن يصبح عالما فى التشريح ونشر عددا من الأوراق العلمية فى هذا المجال . وسرعان ما أدرك أن التقدم فى مدارج العلم ومراتبه سيكون بطيئا بحكم انتمائه العرقى ، وادراكه هذا ، فضلا عن حاجته الى المال دفعاه الى الممارسة الكلينيكية الخاصة كمتخصص فى الأعصاب عام ١٨٨١ م .

وفى عام ١٨٨٦ تزوج مارتا برنيز Martha Bernays وأنجب منها ستة أطفال ثلاثة من البنين وثلاثا من البنات ، وأصبحت احدى بناته آنا طبيبة نفسية مشهورة فى علاج الاطفال فى لندن .

وقد بدأ فرويد عمله مع بروير Josef Breuer عام ١٨٨٠ تقريبا . وكان الأخير ناصحا لفرويد وصديقا ومقرضا للمال . وكان طبيبا ناجحا ، نجح فى استخدام طريقة جديدة لعلاج الهستريا . والهستريا لفظ يستخدم لوصف أعراض متنوعة كالشلل وفقدان الاحساس واضطرابات البصر والنطق . ولقد افترض فى الأصل ان الهستيريا مرض انثوى . ولقد وجد بروير أن مريضته وكانت تبلغ من العمر احدى وعشرين سنة وتسمى الآنسة آنا أو Anna O. حين عبرت عن مشاعرها وانفعالاتها اختفت بعض اعراضها اختفاء مؤقتا أو اختفاء دائما. وأطلق على التنفيس عن التوتر الناتج عن «حديث البرء talking cure التفريغ الانفعالى Catharsis . ولقد استخدم ارسطو فى الأصل اللفظ تفريغ لوصف الافصاح عن الانفعالات والمشاعر والتنفيس عنها ذلك الذى نجده عند جمهور النظارة عندما يتابعون دراما تراجيدية . ولقد اطلقت المريضة نفسها على هذا الاسلوب « حديث البرء » .

ولقد امكن تعلم عدة حقائق من طريقة بروير فى علاج هذه الفتاة . وكان من اهمها أن حالتها تحسنت الى حد ما عندما عبرت تعبيرا صريحا عن انفعالاتها . وهذه الملاحظة اثارت اهتمام بروير الى حد انه كان يلتقى بهذه الفتاة عدة ساعات فى اليوم الواحد لفترة تزيد عن السنة. وخلال تلك الفترة بدأت آنا تحول ما لديها من مشاعر نحو أبيها اليه وهذه الظاهرة التى تعنى أن المريض يستجيب للمحلل كما لو كان شخصا هاما فى حياته يطلق عليها ظاهرة التحويل transference . وبالمثل لقد أصبح بروير منغمسا انفعاليا مع آنا . ويطلق على هذه الظاهرة التحويل المضاد Counter transference . ولقد شعر بروير بأن هذا الانغماس الانفعالى يؤثر فى حياته الزوجية فتوقف عن العلاج .

ولا بد أن علاج بروير لآنا كان ناجحا جزئيا على الأقل لأنه اتضح فيما بعد أنها أصبحت الاخصائية الاجتماعية الأولى وأسست عدة مؤسسات لتدريب الطلاب .

وفى عام ١٨٨٥ تسلم فرويد منحة صغيرة أتاحت له ان يدرس مع طبيب نفسى فرنسى مشهور هو « جين شاركوه Jean Charcot الذى كان

يستخدم التنويم المغناطيسى فى علاجه للهستيريا . وكانت هذه الزيارة هامة لفرويد لسببين على الأقل . السبب الأول أن فرويد تعلم من شباركوه أن من الممكن علاج الهستيريا كاضطراب نفسى وليس كاضطراب عضوى . وكان فرويد يستخدم فى ممارسته العلاج الكهربائى ، أى يوجه صدمة كهربائية مباشرة الى العضو الذى يشكو منه المريض كالذراع المشلولة مثلا . والسبب الثانى : أن فرويد سمع شاركوه ذات مساء يؤكد بحماس أن أساس المشكلات التى يعانى منها أحد مرضاه جنسى . ولقد اعتبر فرويد هذه الملاحظة خبرة معلمة . ومنذ ذلك الحين عمد الى الالتفات الى امكانية أن تكون المشكلات الجنسية سببا فى الاضطراب الذى يعانى منه المريض .

وبعد ان قضى اقل من ستة شهور يدرس مع شاركوه فى باريس عاد فرويد الى فيينا والى تعاونه مع بروير . ولقد جرب فرويد التنويم المغناطيسى لفترة من الزمان ولم يقتنع بنتائجه لانها كانت مؤقتة ولانه لا يصل الى جذور المشكلة . وتركه كأسلوب للعلاج لانه وجد أن بعض المرضى لا يمكن تنويمهم . ولقد غضبت احدى مريضاته غضبا شديدا لمقاطعته لها أثناء الحديث وهو يحاول تنويمها . وعبرت عن رغبتها فى الا يقاطعها لتعبر عما فى نفسها .

وجرب فرويد بعد ذلك اسلوب ضغط اليد بدلا من التنويم . وكان يضع يده على جبهة المريض ويطلب منه ان يبدا الكلام حين يزول الضغط عن الجبهة . وعلى الرغم من ان هذا الاسلوب كان ناجحا الا أن فرويد تركه واستقر على استخدام التداعى الطليق الذى اعتبره القاعدة الرئيسية للتحليل النفسى .

ولقد عمل فرويد مع بروير فى دراسة وعلاج حالات هستيرية وفى عام ١٨٩٥ م نشر كتابا بعنوان « دراسات فى الهستيريا Studies in Hysteria والذى يعتبر عادة بداية حركة التحليل النفسى . وعلى الرغم من أن لهذا الكتاب مكانته البارزة ، الا انه قوبل من النقاد آنذاك باتجاهات سلبية . وبيع منه خلال ثلاثة عشر عاما ٦٢٦ نسخة . وسرعان ما انفصل الصديقان الحميمان وذلك لاصرار فرويد على ان الصراعات الجنسية هى

سبب الهستيريا . وكان هذا هو السبب الأول الذى أدى الى طرد فرويد من جمعية فيينا الطبية عام ١٨٩٦ م .

ولقد بدأ فرويد فى تحليل نفسه عام ١٨٩٧ م وبدأ فى ذلك لاسباب نظرية وشخصية . وعلى سبيل المثال لقد كان لديه خوف غير صحى من السفر بالقطار . وكانت اداته الوحيدة فى تحليله لنفسه تفسير احلامه . ولقد أدى هذا التحليل فى النهاية الى ما اعتبره الكثيرون اعظم كتب فرويد « تفسير الاحلام » The Interpretation of Dreams الذى نشر عام ١٩٠٠م ولقد لقى هذا الكتاب حظا مماثلا لحظ الكتاب الذى سبقه فلقى نقدا شديدا ، وبيع منه خلال ثمان سنوات ٦٠٠ نسخة حصل منها فرويد على ما يعادل مائتين من الدولارات تقريبا . وفى النهاية برزت أهمية الكتاب وعم نشره فى انحاء مختلفة من العالم وترجم الى لغات عديدة منها العربية . وهو كتاب عن الاحلام ، وعن دينامية العقل الانسانى ، ويتضمن الفصل الأخير منه نظرية فرويد فى العقل .

وبعد نشر هذا الكتاب بدأت حركة التحليل النفسى تأخذ قوتها الدافعة وجاء الاعتراف الدولى بها اخيرا حين دعا ستانلى هول فرويد لالقاء سلسلة من المحاضرات فى جامعة كلارك فى امريكا عام ١٩٠٩ م . وعلى الرغم من أن فرويد لم يهتم بأمريكا كثيرا ولم يعد اليها قط ، الا انه أعتبر زيارته لجامعة كلارك ذات مغزى كبير فى نمو حركة التحليل النفسى .

وفى عام ١٩٢٣ اكتشف أن فرويد مصاب بالسرطان فى فمه وقد ارتبط هذا بعادته فى تدخين عشرين سيجارا فى اليوم وهى عادة لم يتخلص منها حتى بعد اكتشاف مرضه . ومنذ عام ١٩٢٣ وحتى وفاته ١٩٣٩ اجريت له ثلاث وثلاثون عملية . وعلى الرغم من معاناته من الألم لانه كان يرفض أستخدام العقاقير المسكنة . فقد بقى يقظا واستمر يعمل حتى نهاية حياته .

ولم يشعر فرويد قط أن عمله قد انجز ، فقد كان يراجع نظرياته الأساسية وافكاره ويغيرها . ففى عام ١٩٢٠ مثلا — وكان فى السبعين من عمره — جدد نظريته فى الدافعية وغير نظريته فى القلق .

وعندما استولى النازيون على السلطة عام ١٩٣٣ أحرقوا كتب فرويد علنا فى برلين. معلنا احدهم «محاربة للمبالغة فى تقدير الحياة الجنسية التى تحطم الروح وخدمة لنبل الروح الانسانية أقدم كتابات سيجمند فرويد لالسنة اللهب ». ولقد قاوم فرويد ترك فيينا حتى بعد غزوها عام ١٩٣٨ م . ولكنه فى النهاية وافق وذلك بعد القاء القبض على آنا ابنته وبعد تعرض بيتها للتفتيش والاعتداء من قبل عصابات النازية . وذهب الى لندن ومات فيها فى ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩ .

نظرية الشخصية فى التحليل النفسى :

ليس هناك رواية واحدة لنظرية الشخصية عند أصحاب التحليل النفسى يمكن أن نقول انها الرواية الصحيحة . وذلك لان فرويد كثيرا ما ذهب الى انه مع التقدم التصورى والمنهجى والتكنولوجى حدثت تغيرات فى مفاهيم أساسية عنده . ولقد احدث فرويد بعض التغييرات الأساسية فى تفكيره فى ضوء خبراته الكلينيكية المتراكمة . ولسوء الحظ فانه فى حالات كثيرة لم يوضح بعد احداث التعديلات على بعض المفاهيم المبكرة ، هل ذلك رفض للمعانى القديمة ؟ أم أن المعانى الجديدة تكمل المعانى القديمة وتزيدها ثراء .

وعلى الرغم من ان هذه التعديلات والتجديدات لم تتناقض مع القديم الا انه نشأ مع ذلك بعض الخلط ، وترتب على ذلك فيما يبدو عدم وجود تكامل بين هذه التصورات فى النظرية ، وايها يعتبر العمدة أو المرجع . وما يزال بعض الكتاب يؤكدون على تقسيم العقل الى اللاشعور ، وقبل الشعور ، والشعور . بينما يرى آخرون ان هذا التقسيم غير هام وأن التطورات الأخيرة فى النظرية تخلصت منه . ولعل الايجاز فى عرض هذه النظرية مطلوب لكثرة ما يتوافر عن فرويد فى المكتبة العربية .

بنية الشخصية :

تتألف الشخصية من ثلاثة أجهزة رئيسية هى : الهو والآنا والآنا الأعلى وحين تعمل متعاونة تيسر لصاحبها سبل التفاعل مع البيئة على نحو مرضى

بحيث يتم اشباع حاجاته الأساسية ورغباته . اما اذا تنافرت وتشاحنت هذه الاجهزة ساء توافق الفرد وقل رضاه عن نفسه وعن العالم ونقصت كفـايته .

الهـــو Id

يستهدف الهو تخليص الفرد من كميات الاستثارة أو الطاقة التى تنبع داخله نتيجة للتنبيه الداخلى أو الخارجى ، أى أن الهو يستهدف تجنب الألم وتحقيق اللذة . ويلجأ الهو الى الأفعال المنعكسة التى تخلصه على نحو آلى من كل طاقة جسمية يستثيرها مثير ما ينعكس فعله فى عضو الحس . والنتيجة العامة هى استبعاد المثير ، فامتلاء العين بالدموع من شأنه أن يخرج منها الجسيمات المثيرة ولو أنه كان بالامكان التخلص من كل انواع التوتر عن طريق الأفعال المنعكسة لما كانت هناك حاجة الى أن يتطور الكائن الحى نفسيا . ولذلك يلجأ الهو الى العمليات الأولية التى تحاول التخلص من التوتر بتوحيد الادراك ، أى أن الهو يعد الصورة العقلية المبنية على التذكر مساوية للمدرك الحسى ومطابقة له . ومعنى هذا أن تذكر الطعام مساو ومطابق لعملية الطعام عند الهو ، أى أن الهو يعجز عن أن يميز بين الصورة المتذكرة وهى ذاتية وبين الادراك الحسى الموضوعى للشىء القائم فعلا . ومن أمثلة العمليات الأولية « الاحلام عند النوم » فالجائع يحلم بالطعام .

والهو هو المصدر الأولى للطاقة النفسية ومستقر الغرائز ، هو الصق بالجسم وبعملياته منه بالعالم الخارجى . وهو يحتاج الى التنظيم وطاقته غير مستقرة بحيث يتم التخلص منها او تحويلها من موضوع الى آخر ، والهو لا يتغير بمضى الزمن ولا بفعل الخبرة أو التجربة لانه لا يتصل بالعالم الخارجى ومع ذلك يمكن السيطرة عليه . والهو لا تحكمه قوانين العقل أو المنطق ولا القيم الأخلاقية ولا يدفعه الا تحصيل الاشباع للحاجات الغريزية وفقا لمبدأ اللذة (علم النفس عند فرويد : احمد سلامة وآخر، ص ١٩ — ٢٦).

الأنـــا The Ego

جهاز نفسى يسعى للتعبير عن رغبات الهو واشباعها وفقا لمقتضيات

الواقع ومطلب الأنا الأعلى . والأنا تكتسب بنيتها ووظائفها من الهو ، أى أنها تتطور عنه وتمضى لتقترض بعضا من طاقته لتستخدمها فى استجابتها للبيئة. وهكذا تضمن الأنا الأمن للكائن الحى وحفاظه على ذاته . والأنا وهى تخوض معركة البقاء ضد العالم الخارجى وازاء مطالب الهو الغريزية ينبغى ان تميز على نحو مستمر بين الأشياء كما يدركها العقل والاشياء فى العالم الخارجى الواقعى . فالجائع الذى يبحث عن الطعام على سبيل المثال ينبغى ان يميز بين الصورة العقلية للطعام والادراك الفعلى للطعام ، اذا أريد أن يتحقق انقاص التوتر . اى انه ينبغى ان يتعلم أن يتناول الطعام حتى يتم انقاص التوتر الناتج عن الجوع . ويتحقق هذا العمل من خلال استراتيجيات توافقية تمكن الهو من التعبير عن الحاجات الغريزية وفقا لمعايير المجتمع واخلاقياته . ومثل هذه الاستراتيجيات تتطلب من الفرد أن يتعلم ويفكر ويدرك ويتذكر ويتخيل ... الخ . وهذا يفسر لنا لماذا تعتبر وظائف الأنا عادة قدرات معرفية .

وفى مقابل سعى الهو الى تحقيق اللذة وسلوكها وفقا لمبدئها ، فاننا نجد ان الأنا يعمل وفقا لمبدأ الواقع ، وهى تستهدف المحافظة على سلامة الكائن الحى بتأجيل الاشباع الغريزى حتى يتوافر الموضوع المناسب أو الظروف البيئية الملائمة لهذا الاشباع . ومبدأ الواقع يمكن الفرد من كف طاقة الهو وتحويلها والافراج عنها تدريجيا بما يتلاءم مع القيود الاجتماعية ويتناسب مع ضمير الفرد . وعلى سبيل المثال فان التعبير عن الدافع الجنسى يُؤجل حتى يتوافر الموضوع والظروف الملائمة او المثالية ، عندئذ يتحقق مبدأ اللذة. والأنا تختلف عن الهو من حيث ان الأولى تميز الحقيقة من الخيال وتتحمل المقادير المعتدلة من التوتر ، وتتغير نتيجة للخبرة الجديدة وتنمى مهارات معرفية ادراكية . والغرض من المهارات المعرفية الادراكية او ما يطلق عليه تزويد عملية ثانوية هو تحديد مسارات مناسبة للفعل تشبع الحاجات الغريزية دون تهديد سلامة الفرد وسلامة الآخرين وأمنهم . فالأنا هى الجهاز التنفيذى للشخصية وهى مستقر العقل . واحد اهداف العلاج بالتحليل النفسى الاساسية تحرير قدر من طاقة الأنا بحيث يمكن بلوغ مستويات اعلى لحل المشكلات .

الآنا الأعلى Super - ego

التكوين الثالث فى بناء الشخصية هو الآنا الأعلى وهى تعمل على بلوغ الكمال وليس الواقع أو اللذة . انها تمثل النواحى الخلقية والقيمية والمعيارية لدى الفرد وهى تنشأ كجزء من الآنا يستقل نتيجة تمثل الطفل لمعايير والديه وبهذا يصبح قادرا على السيطرة على سلوكه وجعله مطابقا لرغبات والديه وبذلك يحظى بموافقتهم ورضاهم ويتجنب اعتراضهم وسخطهم . والطفل يظل متكلا على والديه فترة طويلة نسبيا مما ييسر تكون الآنا الأعلى .

والآنا الأعلى تتألف من جهازين فرعيين هما : الآنا المثالية والضمير وتنشأ الآنا المثالية نتيجة لاثابات الوالدين وهى تؤدى بالفرد الى تحديد الأهداف والمطامح التى تؤدى حين تتحقق الى الاحساس بتقدير الذات والفخر . فالطفل الذى يكافأ على تفوقه الدراسى يشعر بالفخار كلما أظهر انجازا أكاديميا . وينشأ الضمير من خلال استخدام الوالدين للعقاب على ما هو سيء من الوجهة الاخلاقية ويشتمل على القدرة على تقويم الذات تقويما معاقبا وعلى التحريمات الخلقية ؛ ومشاعر الاثم حين يخفق الفرد فى الارتقاء لمستوى ما هو مثالى . فالآنا المثالية والضمير وجهان لعملية أخلاقية واحدة .

والآنا الأعلى غير عقلانية كالهو . انها تطلب من الفرد بلوغ الكمال بدلا من أن تطلب منه أن يقوم بأفضل ما يستطيع . وهى تعاقبه بقسوة سواء قام بالعمل السيء أو حتى فكر فيـــه . أى أن التفكير فى التصرف أو الفعل والقيام به متساويان فى نظر الآنا الأعلى ولعل هذا يفسر كيف أن من الناس من يتمسك بالفضيلة فى حياته ومع ذلك يعانى من وخز الضمير ؛ لان آناه العليا تعاقبه على انشغاله بأفكار خبيثة ولو لم ينفذها . ولكن الآنا الأعلى تشبه الآنا من حيث أنها تحاول ضبط نزعات الهو الغريزية . وهى حين تقوم بوظائفها الأساسية — كف الهو ، واجبار الآنا على تحقيق الاهداف الخلقية والسعى لتحقيق الكمال — تعارض كلا من الهو والآنا وتحاول فرض وجهة نظرها على الشخصية .

ولا بد أن نتذكر دائما أن هذه الأجهزة الثلاثة الهو والآنا والآنا الاعلى

ليست الا مصطلحات تشير الى تكوينات وعمليات نفسية تعمل وفق مبادىء معينة . وانما تعمل كفريق فى ظل توجيه الآنا . وانه حين تنشأ صراعات بينها يظهر السلوك الشاذ وعدم التوافق .

ديناميات الشخصية :

كيف تعمل الهو والآنا والآنا الأعلى وكيف تتفاعل بعضها مع بعض ومع البيئة ؟

الطاقة النفسية :

الطاقة النفسية هى التى تحرك الأجهزة الثلاثة وهى تساعد على أداء العمل وتوفير امكانيات ادائه . وتؤدى اشـــكالا نفسية كالتفكير والادراك والتذكر وفى مقدورنا أن نتحدث عن تحول الطاقة النفسية الى طاقة جسمية، فنحن نفكر ثم نتصرف على نحو ما أو نقوم بأداء عمل معين .

الفـــــريزة :

والغرائز هى المصادر التى تستمد منها الشخصية ما يلزمها من طاقة لاداء اعمالها وهى التى توجه العمليات النفسية . ومصـــدر الطاقة النفسية مشتق من حالات الاثارة العصبية الفسيولوجية . وانه لدى كل فرد قدر محدود من هذه الطاقة متاح للنشاط العقلى . وان هدف السلوك الانسانى كله هو انتقاص التوتر الذى يخلقه تراكم الطاقة المؤلم بمضى الزمن . وعلى سبيل المثال اذا استخدمت طاقتك فى قراءة كلمات هذه الصـــفحة ، فان ما تبقى منها لاسباب النشاط العقلى الأخرى كأحلام اليقظة ومشاهدة البرامج التلفزيونية .. الخ يكون قليلا . وبالمثل فان السبب فى قراءتك لهذه الكلمات قد يكون انتقاص التوتر المرتبط باختبار يعتقد فى الاسبوع التالى .

وهكذا يصور فرويد الدافعية الانسانية باعتبارها قائمة كليـــة على الطاقة التى تستثيرها حاجات الانسجة الجسمية . ولقد اعتقد ان مقـــدار الطاقة النفسيـــة التى تشتق من حاجات الانسجة الجســـمية يستثمر فى الانشطة العقلية التى تسهم لانتقاص الاستثـــارة التى تخلقهـــا الحاجة .

والتمثيلات العقلية لهذه الاستثارات الجسمية تظهر فى صورة رغبات ويطلق عليها غرائز . فالغريزة اذن تشير الى حالة استثارة جسمية فطرية تسعى للتعبير وللتخلص من التوتر . ولقد رأى فرويد أن النشاط الانسانى كله يتحدد بالغرائز . وقد يكون تأثيرها على السلوك ملتويا ومقنعا . وقد يكون مباشرا وسافرا . فالناس يسلكون ويتصرفون لان التوتر الغريزى يدفعهم الى ذلك وسلوكهم وتصرفاتهم تنقص التوتر .

غريزة الحياة وغريزة الموت :

يرى فرويد وجود مجموعتين من الغرائز الأساسية : غرائز الحياة وغرائز الموت . المجموعة الأولى تشتمل على جميع القوى التى تعمل على الحفاظ على العمليات الحياتية الحيوية وبقاء النوع وتكاثره . وبسبب أهمية هذه الغرائز فى التنظيم النفسى للأفراد ، اعتبر فرويد الغرائز الجنسية أكثر غرائز الحياة بروزا فى نمو الشخصية . ويطلق على قوة الطاقة الكامنة وراء الغرائز الجنسية مصطلح الليبيدو Libide وهو مشتق من كلمة لاتينية بمعنى الرغبة . ويقصد بالطاقة الليبيدية طاقة غرائز الحياة بصفة عامة ، والطاقة النفسية التى تبحث عن اشباع من خلال الأنشطة الجنسية بصفة خاصة .

والفئة الثانية هى غرائز الموت وهى غرائز وراء مظاهر القوة والعدوان والانتحار والقتل . ولم يطلق فرويد اى اسم على طاقة غرائز الموت كما فعل بالنسبة للطاقة الليبيدية . وعلى أية حال فان فرويد اعتبر هذه الغرائز منغرسة أو متجذرة فى النواحى البيولوجية ولها اهمية مساوية لغرائز الحياة من حيث تحديد السلوك الفردى . وفضلا عن ذلك ، فقد رأى الأساس الامبيريقى لغريزة الموت فى مبدأ Entropy وهو قانون من قوانين الديناميكا الحرارية يقرر أن أى نظام للطاقة يبحث عن حالة من التوازن ، فغاية الحياة الموت . وقد قصد بذلك أن جميع الكائنات الحية مضطرة الى العودة الى حالة اللاحياة التى جاءت منها . اى أن فرويد اعتقد ان لدى كل شخص رغبة لا شعورية فى الموت .

ولكل غريزة مصدر وهدف وموضوع وقوة اندفاع . أما المصدر فهى

حاجات الجسم ونزعاته والحاجة عملية اثارة فى نسيج الجسم أو فى عضو من أعضائه من شأنها أن تطلق طاقة تختزن فى الجسم . فمثلا حاجة الجوع تنشط غريزة الجوع بأن تمدها بالطاقة . وهذه الطاقة توجه العمليات النفسية من ادراك وتفكير للبحث عن الطعام .

والهدف النهائى للغريزة هو التخلص من حاجة الجوع الجسمية ، فاذا تحقق يعود الفرد الى حالة السكينة . أما موضوع الغريزة فهو الشىء أو الوسيلة التى يتحقق به هدفها ، فموضوع غريزة الجوع هو تناول الطعام ومطلب غريزة الموت هو القتال . والموضوع أو الوسيلة اكثر جوانب الغريزة تغيرا . ويمكن لكثير من الموضوعات أن يقوم بعضها مقام البعض الآخر ويعتبر هذا احد المدارج الرئيسية لنمو الشخصية كما سنرى فيما بعد .

واما قوة اندفاع الغريزة فهو شدتها التى تتحدد بمقدار ما تملكه من طاقة فالجوع الشديد له قوة دفع اكبر على العمليات النفسية من الجوع الضعيف .

وكل فعل يتحدد او يشتق من عدة دوافع . فقد تعمل غريزة الحياة وغريزة الموت معا . ويحدث هذا على سبيل المثال فى تناول الطعام فهو يحفظ الحياة ولكنه يتضمن افعالا هدامة كالعض والمضغ والابتلاع وقد تحيد غرائز الحياة غرائز الموت ، فقد يستخدم الناس الاقتتال واجادة العمل لبلوغ الموضوعات التى يحبونها . وقد تتصارع الغريزتان كما يحدث حين يشعر الشخص بالحب لانسان ويالغضب منه فى آن واحد . وقد يصبح لغرائز الموت احيانا اليد العليا ، فيتخذ الحب شكلا ساديا .

وقد كتب فرويد (١٩٣٣) رسالة الى اينشتين عن الحرب والداعين لرفض حمل السلاح (دعاة السلام) يقترح فيها أن غرائز الحياة التى تتخذ شكل العلاقات والروابط الانفعالية بين الناس ينبغى ان توجه لمعارضة نزعة الانسان الى اقتتال وميله للحرب . ولكنه عبر عن شكه فى ان مثل هذه الروابط التى لم تنجح فى الماضى سوف تقدر على منع الصراع فى المستقبل . ولقد دل تشاؤمه على اعتقاده بعجز الناس عن ضبط نزعاتهم الغريزية وعن العثور على منافذ مقبولة للانفساح عنها .

كيف تتوزع الطاقة وتستخدم ؟

ان لفظ ديناميات الشخصية يشير الى الطريقة التى تتغير الشخصية بها وتنمو وبالتالى الى الطرقة التى تتوزع بها الطاقة النفسية وتستخدم من قبل الهو والآنا والآنا الأعلى . ومقدار الطاقة المتاح للشخصية محدود . وينبغى ان تتنافس الأجهزة الثلاث للحصول عليها . وهكذا فانه ما لم تضف طاقة جديدة للبنية الكلية ، تؤدى زيادة قوة جهاز الى ضعف الجهازين الآخرين .

طاقة الهو مرنة :

تتوافر فى البداية لدى الهو طاقة الشخصية كلهـا وتستخدمها فى الأفعال المنعكسة ، وفى اشباع الرغبات فى ظل توجيه العملية الاولية . ان الهو يستثمر الطاقة فى الأشياء التى يبدو انها تشبع حاجاته ، ولكن الهو لا يستطيع التمييز بين الذاتى والموضوعى ، ولذلك فان الطاقة مرنة — ويسهل ابدالها وازاحتها من موضوع الى آخر . فالوليد الجائع يضع فى فمه اى شىء يراه ويمسكه — أصابعه ، طرف الملاءة ، لعبة من البلاستيك . ولكن استثمار الطاقة فى هذه الأشياء حين يخفق فى اشباع حاجات الكائن العضوى كما فى حالة جوع الوليد ، يتحول من عمليات الهو الذاتية الى عمليات الآنا المنطقية والموضوعية .

تزايد رصيد الآنا من الطاقة :

تكتسب الآنا التى لا تتوافر لها طاقة خاصة بها تدريجيا قدرا يتزايد من طاقة الهو ، لانها اكثر نجاحا من الأخيرة فى انتقاص التوترات وبالتالى اشباع حاجات الكائن الحى . ويرجع نجاح الآنا الى قدرتها على استخدام ميكنزم هام هو التوحد الذى تقوم الآنا بواسطته بمزاوجة صورة عقلية لدى الهو بادراك فعلى . وبينما تعتقد الهو بأنه لا فرق بين صورة الشىء المرغوب فيه ، والشىء الفعلى . تعرف الآنا أن الصورة تختلف عن الشىء الحقيقى أو الواقعى وان الصورة ينبغى أن تتطابق مع الواقع وهى لا تغنى عنه .

ومفهوم التوحد له اهمية عظيمة لان جميع التقدم المعـرفى يتألف من تحويل التمثيلات العقلية للعالم الى صورة اكثر دقة له كما هو فى الواقع . وحين ينجح الوليد فى مطابقة صورته العقلية عن الطعام مع حلمة ثدى الأم المانحة للبن تتزايد قدرته على اشباع حاجاته تزايد عظيما .

وفى نهاية الأمر تحتكر الآنا الطاقة النفسية لانها فى كل مرة تنجح فيها فى الحصول على ما يشبع الحاجة تتحول الطاقة المستثمرة فى صورة ذلك الشىء الى الآنا . وبطبيعة الحال فى كل مرة تخفق الآنا فى اشباع الغرائز تعيد الهو تأكيدها لقوتها وسلطتها .

ولما كانت الآنا ذات كفاءة عالية فانها تجمع طاقة اضافية تسـتطيع استغلالها فى أشياء وانشطة منوعة . انها تكرس جزءا من طاقتها لتنميـة العمليات النفسية الأساسية كالادراك والتمييز والاستدلال . ولكن طاقة الآنا ينبغى أن تستخدم فى خلق قوى كابحة هى الشحنات المضادة وتستخدم هذه القوى عادة لتمنع الهو من الفعل المندفع غير العقلانى ، ولكن يمكن استخدامها ضد الآنا الأعلى ايضا اذا اصبحت مطالبها جائرة جدا . واذا هددت الهو او الآنا الأعلى بالخروج عن الجـادة او الشطط ، فان الآنا تستطيع حماية نفسها باستخدام الحيل الدفاعية .

والآنا هى الجهاز التنفيذى للشخصية تستخدم الطاقة لتنسيق الأنشطة التى تقوم بها الأجهزة الثلاثة جميعا . انها تحاول ان توجد انسجاما داخل الشخصية بحيث يصبح التعامل مع البيئة سلسا وفعالا .

الآنا الأعلى والطاقة :

تكتسب الآنا الأعلى شأنها شأن الآنا الطاقة عن طـريق التوحد . ويستثمر الوليد طاقة فى والديه منذ وقت مبكر جدا ، لانه يعتمد عليهما كلية لاشباع حاجاته ومع نمو الطفل ينقل الوالدان قيم المجتمع ، كما يفسرانها الى الطفل من خلال الاثابات والعقوبات . ولكى يحتفظ الطفل بحب الوالدين وتقبلهما يتعلم أن يتوحد معهما ، اى ان يزاوج ويضاهى سلوكه مع معايير الوالدين . انه يستثمر الطاقة فى مثلهم العليا وفى تحريماتهم . ان للوالدين

سلطات كبيرة فى عقاب الطفل واثابته ، ولهذا نجد للآنا الأعلى سلطة فرض العقاب ، ومنع الثواب . وتتولى الآنا المثالية الاثابة ويتكفل الضمير بالعقاب .

وتحريمات الضمير شحنات سالبة توقف استنفاذ الطاقة الغريزية فى صورة سلوك اشتهائى أو اندفاعى ، أى على نحو مباشر . كما توقف ذلك بصفة غير مباشرة عن طريق ميكنزمات الانا ، أى أن الضمير يقاوم كلا من الهو والآنا معا ويحاول أن يعطل مبدأ اللذة ومبدأ الواقع . فصاحب الضمير متيقظ دائما لما عنده من نوازع غير خلقية وهو بهذا يستهلك جانبا كبيرا من طاقته ضد الهو مما يعوقه عن الانتاج والشعور بالرضا . (كالفن هول : احمد سلامة وآخر ١٩٦٧ ، ص ٥٠) .

واذا كانت غالبية الطاقة تحت سيطرة الآنا الأعلى ، كان سلوك هذا الفرد اخلاقيا . أما اذا كانت هذه الغالبية فى حوزة الآنا ، كان سلوكه واقعيا . أما اذا كان الهو وهو مصدر الطاقة محتفظا بمعظمها ، فان سلوك الفرد يتسم بالاندفاع . وعن طريقه توزع الطاقة النفسية بين هذه الجوانب الثلاثة للشخصية يعبر الشخص عن نفسه .

القلق :

القلق متغير أساسى فى جميع نظريات الشخصية تقريبا وينتج عن الصراع وهو جانب من الحياة لا يمكن تجنبه ، وكثيرا ما يرى القلق باعتباره مكونا أساسيا فى ديناميات الشخصية . ولقد كان لتحليل فرويد للقلق سواء لدى الأسوياء أو غير الأسوياء اثر كبير على المنظرين اللاحقين ، وما يزال له تاثيره لدى الكلينيكيين .

ويتضمن اداء الشخصية لوظائفها فى كثير من الأحيان التعامل مع العالم الخارجى . وهذا العالم قد يزودنا بالطعام وقد يحرمنا منه ، وقد يوفر لنا الأمن أو يحمل لنا التهديد ، وقد يزعجنا وقد يرضينا ويحنا . وحينما لا نكون على استعداد لمواجهة هذه التهديدات قد يعترينا الخوف ويجتاحنا القلق .

ولقد ميز فرويد بين ثلاثة انواع من القلق تشترك كلها فى انها غير مريحة ومؤلمة ولكنها تختلف بحسب من حيث مصدر كل منها . ففى القلق الواقعى يكون مصدر الخوف المخاطر الواقعية فى العالم الخارجى ، كأن يخاف الفرد من ثعبان سام ، أو شخص مخمور . أما القلق العصابى فينشأ من خبرة طفلية مبكرة ، من قسوة سلوك الوالدين وتربيتهم أو عدم رعايتهم له . وحين نكون قلقين عصابيا فاننا نكون خائفين من عقاب متخيل سوف نتلقاه من والد متخيل او من سلطة أخرى نتيجة لاشباعنا لنزعاتنا الغريزية — وقد حدث أن عاقبنا الوالدان فى الماضى على مثل هذا الاشباع . ان التهديد فى القلق العصابى يكون كامنا فى موضوع اختيار غريزى للهو يخاف الشخص من ان يجتاحه دافع لا يقدر على التحكم فيه أو يعمل عملا يؤدى الى الاضرار به . وينشأ القلق الخلقى حين نخلف المعايير الوالدية متمثلة . وحين نقلق خلقيا فاننا نخاف من عقاب الأنا الأعلى أو الضمير .

وقد يتداخل القلق العصابى مع القلق الخلقى . ان الفرق يكمن اساسا فى درجة الضبط الذى يصدر عن الأنا . وكثيرا ما يكون الفرد فى القلق الخلقى عقلانيا وقادرا على التفكير فى المشكلة حتى النهاية . ويفرض الأنا الأعلى مطالبه ولكن الأنا يقدر على الصمود أمامها واتخاذ قرار يتصل بمسار العقل . اما فى القلق العصابى فكثيرا ما يكون الناس مبتئسين ، بل واحيانا فى فزع ولا يستطيعون التفكير بوضوح . ان الهو تمنعهم من التمييز بين الخيال والواقع . ويعتقد القلقون عصابيا ان ثمة قوة خارجية سوف تعاقبهم فعلا وانهم كثيرا ما يسلكون كما لو كانوا يعتقدون بصحة هذا . والقلقون خلقيا يعرفون عادة ان ما بداخلهم هو الذى يسبب تعاستهم ويحدث قلقهم .

والوظيفة الأساسية للقلق ان يكون بمثابة اشارة خطر أو انذار للأنا ، فاذا برزت هذه الاشارة فى الشعور وجب على الأنا ان يكون حذرا . والقلق مؤلم ، ولكنه يؤدى عملا ضروريا وهو انه ينبه الشخص بوجود اخطار مصدرها الهو ، او الأنا الأعلى . وهذه الاخطار داخلية . او مصدرها الواقع . واذا تنبه الشخص عمل على دفع الخطر . ان القلق اشارة تدل الأنا على وجود خطر ، وما لم تتخذ اجراء قد تنهزم . ان القلق يدفعنا لعمل شىء : « الهرب من الخطر الخارجى ، او كف النزعة الغريزية أو اطاعة

صوت الضمير » . واذا لم نستطع معالجة القلق بطريقة عقلانية فلا بد من استخدام أساليب دفاعية غير واقعية .

حيل الآنا الدفاعية :

تواجه الآنا الوانا من التهديد وأنواعا من الأخطار تثير القلق والاضطراب، فتحاول السيطرة عليها بطرق حل المشكلات واقعيا ، وقد تصطنع أساليب من قبيل انكار الحقيقة او تشويهها . وهذه الأساليب هى الحيل الدفاعية ونعرضها بإيجاز فيما يأتى : ـــ

١ ـــ الكبت :

حيلة دفاعية تستخدمها الآنا لمنع الأفكار المثيرة للقلق من الوصول الى الشعور ، وقد تكون هذه الأفكار جزءا فطريا من الهو وفى هذه الحالة يطلق على الكبت « كبت أصيل بدائى » وقد تكون ذكريات لخبرات مؤلمة حدثت خلال حياة الفرد ويطلق عليها فى هذه الحالة « كبت عادى » وفى الحالتين تعمل الآنا على ابقاء الأفكار المثيرة للقلق فى اللاشعور باستخدام شحنات مضادة كلما هددت هذه الأفكار باتخاذ طريقها نحو الشعور .

وللكبت أهمية كبيـــرة عند فرويد لان المادة المكبـــوتة تظل تؤثر فى الشخصية ، انها ببساطة غير متلجة ولا متوافرة للشعور . والغرض من عمليات تحليل الاحلام والتداعى الطليق والتنويم المغناطيسى وتحليل فلتات اللسان والنسيان ، الكشف عن المادة المكبوتة بحيث يمكن فهم تاثيرها فى الشخصية .

٢ ـــ الابـــدال :

قد تستبدل الآنا شيئا متاحا بشىء غير متاح ، أو موضوعا او نشاطا لا يثير القلق بموضوع أو نشاط يثيره .

ولقد بين فرويد فى كتابه « الحضارة وسخطها Civilization and Its Discontents » (١٩٣٠) أن الحضارة نفسها تعتمد على ابدال الطاقة الغريزية ونقلها من موضوع الى آخر . وحين يؤدى الابدال الى شيء يخدم الحضارة ويساعد على تقدمها فهو اعلاء كما يحدث حين تتحول النزعات الغريزية الى انشطة فى الفن والأدب والعمارة او الى الاجتهاد فى العمل . ان اعلاء الغريزة خاصية بارزة للتطور الثقافى ، وهذا هو الذى يجعل فى الامكان ان تؤدى العمليات العقلية العليا والأنشطة العلمية والفنية والأيديولوجية دورا هاما فى الحياة المتحضرة .

ويمكن ابدال النزعات الغريزية جميعا حتى المرتبطة بغرائز الموت ، وعلى سبيل المثال فالنزعة نحو هدم الذات يمكن ابدالها لتتجه الى هدم الآخرين . والنزعة العدوانية الموجهة نحو شخص يهددنا كالأب او الرئيس يمكن ابدالها لتتجه نحو اشياء اقل تهديدا لنا كسيارة فى الطريق او طفل فى البيت أو قطة ، وكثيرا ما تتجه هذه النزعة نحو فريق رياضى ينافس الفريق الذى نشجعه .

٣ — التوحـــد :

استخدم فرويد مصطلح توحد بطريقتين : الأولى هى ما يتم خلال العملية التى تقوم بها الأنا وتحاول مزاوجة الأشياء والاحداث فى البيئة للرغبات الذاتية للهو . والطريقة الثانية : ان يستخدم اللفظ لوصف الميل الى زيادة المشاعر بالقيمة والجدارة بتمثل خصائص فرد نراه ناجحا ، ومن أمثلة ذلك : « لقد فاز فريقنا » « ابنى فاز بالمرتبة الأولى على مجموعته عند التخرج » . ويتوحد الطفل مع والديه ، اى انه يتقبل قيمهم وبهذا يتجنب عقابهم وبهذه الطريقة تنمو الأنا الأعلى .

٤ — الاســـقاط :

الاسقاط هو ان نضفى على انسان او حيوان أو جماد الخصائص والمشاعر والمقاصد التى تنبع من ذواتنا . انه حيلة دفاعية تتيح لنا ان نزيح بعض جوانب شخصيتنا من داخلنا الى البيئة الخارجية . فتعامل

التهديدكما لو كان صادرا عن قوة خارجية . وهكذا يستطيع الفرد أن يعالج المشاعر الفعلية دون أن يقر بوعيه بأن هذا السلوك المخيف أو الفكرة المخيفة هى فكرته هو أو سلوكه . ونورد فيما يأتى مثالين للاسقاط ، والعبارة الموضوعة بين قوسين تمثل المشاعر اللاشعورية .

— لا أستطيع ان اثق فى أجنبى   (أريد ان استغل الأجانب)

— اعرف انك غاضب منى ومتضايق   (أنا غاضب منك ومغتاظ)

وحينما نصف شخصا او شيئا على أنه شرير او خطر او معيب .. الخ دون أن نعترف بأن هذه الخصائص قد تصدق علينا ، فاننا على الأغلب نسقط . والاسقاط بصفة عامة هو كبت الحقائق التى تتصل بذواتنا والمثيرة للقلق واضفاءها على الآخرين بدلا من ذلك .

٥ — التكوين العكسى :

ان الفرد اذا كره شخصا كراهية تبعث فى نفسه القلق اخذت الانا تيسر انسياب الحب نحوه لكى يخفف الكراهية . وتبقى مشاعر الكراهية قائمة فى اللاشعور . ويكون الحب بمثابة قناع يخفيها ويطلق على الحيلة الدفاعية التى تحجب عن الشعور نزعة غريزية معينة بما يناقضها تكوين عكسى .

واذا أردنا أن نميز بين الحب الناتج عن التكوين العكسى والحب « الحقيقى » فاننا نجد أن الحب الأول يتسم بالمبالغة والاسراف والاصطناع ويكون هذا الحب أيضا قسرى ، اى جامد لا يتكيف مع الظروف المتغيرة ، اى انه يختلف عن الانفعالات الأصيلة لان الفشل فى ابداء هذا الحب فى اى لحظة يؤدى الى ان يظهر الشعور المضاد ويطفو الى السطح .

ومن الأمثلة الدالة على التكوين العكسى خشونة بعض الرجال المبالغ فيها خوفا من ظهور امارات الطراوة فى تكوينهم . وحماية الأم الزائدة للأبناء التى تكون بمثابة تغطية لرغبتها اللاشعورية فى نبذهم . والمسايرة الزائدة لقواعد المجتمع ونظمه التى قد تكون قناعا يخفى دوافع التمرد والعداء .

٦ — التبـــرير :

باستخدام هذه الحيلة الدفاعية يسوغ الشخص سـلوكا وأفكارا أو مشاعر تثير قلقه بغير هذا التسويغ . فالأنا تسوغ نتائج معينة باستخدام المنطق (ولو انه منطق معوج) وهى نتائج تثير القلق اذا لم تبرر بطريقة او اخرى . فالعجز عن الوصول الى الهدف ، والقول بأنه لا يستحق السعى والجهد لبلوغه تسويغ شائع ، اى اننا اذا لم نستطع بلوغ العنب الجيد وقطف الثمار نقول انه حصرم . ومن امثلة التبريرات القول بانى تأخرت لان ساعة التنبيه لم تدق ، وانا ادخن لان الناس يدخنون وانا سعيد لانى لم اقبل بالجامعة فالتعليم الجامعى غير مفيد فى الحياة العملية .

٧ — النكـــوص :

قد يصل الفرد الى مرحلة معينة من النمو ثم يتراجع بسبب الخوف الى مرحلة سابقة عليها . فالشخص الذى يتعرض للآلام من العـالم الخارجى ينكص الى عالمه الخاص وأحلامه ، بل قد ينكص الاسوياء احيانا كما يحدث حين يقضم الانسان الراشد اظافره نتيجة لقلق او احباط . والطفل قد ينكص الى التبول اللاارادى حين يولد له اخ جديد . ومن امثلة ذلك ايضا عـودة الزوجة بعد احتدام الخلاف بينها وبين زوجها الى بيت والديها ، حيث تجد رعاية واشباعا لرغباتها .

٨ — التثبيت :

ينتقل الفرد السوى من مرحلة من النمو الى اخرى انتقالا سلسا ؛ غير أن هذا الانتقال قد يتوقف اذا تعلق الفرد بمرحلة من هذه المراحل لا يتعداها الى ما بعدها . والتثبيت حيلة دفاعية يستخدمها الأفراد فى مواجهة القلق وفى مواجهة أخطار المواقف الجديدة . ويؤدى التثبيت بالفرد الى التمسك بطريقة او اسلوب قديم من اسـاليب الحياة ، اى بما هو مألوف خوفا من الاخفاق أو العجز فى مواجهة مقتضيات الموقف الجديد ، كأن نجد طفلا فى السابعة من عمره ما يزال يمص اصبعه ويخـاف أن يذهب الى أى مكان بغير امه .

مراحل النمـــــو :

يعتقد فرويد أن كل طفل يمر بسلسلة من مراحل النمو المتتابعة وأن ما يخبره الطفل خلال هذه المراحل يحدد خصائص شخصيته كراشد . ولقد اعتقد فرويد أن شخصية الراشد تتشكل خصائصها الأساسية بنهـــاية السنة الخامسة من العمر ، أى أن السنوات الخمس الأولى تكون حاسمة فى تكوين الشخصية . ولكل مرحلة من مراحل النمو منطقة ترتبط بها وتكون أعظم مصدر للاثارة واللذة خلال تلك المرحلة .

ولكى ينتقل الطفل انتقالا سلسا من مرحلة نفسية جنسية الى التى تليها ينبغى الا يقل اشباعه لحاجاته فى تلك المرحلة والا يكون زائدا لان ايا منهما يؤدى الى تثبيت الطفل على تلك المرحلة . والتثبيت والنكوص يرتبط الواحد منهما بالآخر ، فحين ينكص الشخص فانه يميل الى أن ينكص الى تلك تلك المرحلة التى تثبت عليها .

المرحلة الفمية :

وتستمر قرابة العام الأول من حياة الفرد ويكون المصـــدر الرئيسى للذة مشتق من الفم عن طريق التنبيه اللمسى الناتج عن وضع الاشياء فى الفم ثم العض . والتنبيه اللمسى للفم والشفتين واللسان عن طريق المص والبلع يحدث لذة شبقية ، وأما العض فيحـــدث لذة عدوانيـــة فمية وتجىء اللذة العدوانية الفمية فى مرحلة تالية من النمو بعد ظهور الاسنان . وقد يكون تناول الطعام اليما عندما يكون مر المذاق أو غير مستساغ فيعمد الطفل الى التخلص منه بلبصق ، ويتعلم الطفل نتيجة لذلك تجنب الأشياء الكريهة . ويرى فرويد أن للفم خمسة انواع من الوظائف هى : الابتلاع ، والامساك والاصرار ، والعض ، واللفظ ، والاطباق ، وان كلا من هذه يمثل نمطا بدائيا أو نموذجا لعدد من سمات الشخصية .

ويتصـــد بالنمط البدائى اسلوب للتكيف ، ويميـــل الطفل الى نفس الاسلوب حين يواجه بعض المواقف المشابهة فيما بعد اثناء حياته ؛ فاذا كان الابتلاع مؤديا الى الاحساس باللذة فان الفرد ينغمس فى انشطة فمية

كثيرة كالاكل والشرب والتدخين ، والتهام المعرفة والحب والقوة حين يحس الفرد بالخواء . والابتلاع هو النمط البدائي لحب التملك ، كما أن الامساك والاصرار هو النمط البدائي للحرص والتصميم على حين أن العض والبصق والاطباق هي الانماط البدائية للتخريب والنبذ والاحتقار ثم الرفض . على أن نمو هذه السمات مرهون بما يخبره المرء من مشاعر الاحباط والقلق عند التعبير عن هذا النمط البدائي . والذى يثبت على المرحلة الفمية المتأخرة يستخدم بكثرة السخرية من الآخرين والجدال معهم .

وتتميز هذه المرحلة على وجه الخصوص بمشاعر الاتكال . فالوليد يعتمد كلية على الآخرين طلبا للرعاية والحماية . ومشاعر الاتكال تميل الى الاستمرار الى حد ما لدينا جميعا ، وتبرز لدينا فيما بعد حين نشعر بالقلق وعدم الامن .

المرحلة الشرجية :

تستغرق هذه المرحلة السنة الثانية من العمر تقريبا . ومن المعروف أنه بعد ان يتم هضم الطعام تتراكم المخلفات فى النهاية السفلى للقناة الهضمية لتطرد بواسطة الفعل المنعكس عندما يبلغ ضغطها على عضلات الشرج العاصرة مستوى معينا . وخلال هذه الفترة يتم تدريب الطفل على الاخراج حتى يتعلم تأجيل اللذة الناتجة عن ازالة مصدر الضيق والتوتر .

وهذا التدريب له آثار بعيدة المدى على الطفل ويتوقف هذا على الاتجاهات الوالدية نحو التدريب على الاخراج والطرائق المتبعة . فاذا بالغ الوالدان فى التشدد والصرامة فى التدريب ، فقد يتمرد الطفل ويمسك الفضلات . وهذا هو النمط البدائى لسمات البخل والعناد . أو قد يعبر الطفل عن غضبه بالاخراج فى أوقات غير ملائمة وتظهر سمات لدى الفرد فيما بعد من قبيل التدمير وعدم النظافة او القسوة والانغماس فى اللذات . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى اذا كانت الأم حنونة متسامحة فى التدريب فقد تتكون لدى الطفل فكرة قوامها ان النشاط الاخراجى بالغ الاهمية ، وهذا شكل من أشكال السلوك الذى يتم تعميمه فى مجالات حياة الفرد الأخرى فيكون منتجا خلاقا .

المرحلة القضيبية :

وتستغرق هذه المرحلة عادة الفترة من السنة الثالثة من العمر وحتى سن الخامسة . والمنطقة الشبقية فى هذه المرحلة هى العضو التناسلى .. وهى من اكثر مراحل النمو تعقيدا عند فرويد واكثرها اثارة للجدل . وخلال هذه المرحلة تتحدد انماط توافقاتنا اللاحقة مع افراد الجنس الآخر . والمرحلة القضيبية هى مرحلة الصراع الأوديبى وصراع الكترا . وحل هذين الصراعين له آثار عميقة فى حياة الراشد من الذكور والاناث .

والطفل الذكر يخبر عقدة اوديب ، وسميت كذلك اشارة الى مسرحية اغريقية كتبها سوفوكليس قتل فيها اوديب ملك طيبة اباه وتزوج امه. ولما علم بما حدث عاقب نفسه بفقأ عينيه. ولا يقصد فرويد ان احداث هذه الاسطورة تصدق على سلوك الأطفال حرفيا ، وانما يقصد أن هذه الاسطورة واحداثها تتسق مع فكرته عن وجود رغبة لا شعورية فى استحواذ الطفل على اهتمام وحب والده من الجنس المخالف واستبعاد منافسه وهو الوالد من نفس جنسه . ويرى فرويد انه فى البداية ينمى الأطفال الذكور منهم والاناث مشاعر ايجابية نحو الأم لانها تشبع حاجاتهم ، وهم يستاءون جميعا من الأب لانهم يعتبرونه منافسا لهم فى حب الام واهتمامها . وان هذه المشاعر تستمر لدى الذكر ولكنها تتغير لدى الانثى .

ويبدأ الذكر من الخوف من الأب باعتباره منافسا قويا ومسيطرا ويتحول هذا الخوف ليصبح قلق خصاء . ويؤدى القلق الى كبت الرغبة والحب نحو الأم والمشاعر السالبة نحو الاب ويتوحد الابن مع ابيه ويحقق اشباعا بديلا لمشاعره نو الام . وبمعنى من المعانى يصبح الذكر ابا ؛ وهذا هو الحل السليم لعقدة اوديب عند فرويد ، ى ان ينمو الذكر ليبحث عن زوجة تشبه الأم فى خصائصها .

ويختلف الموقف بالنسبة للأنثى ، فموقفها اكثر تعقيدا . وتخبر الانثى عقدة الكترا ، وسميت على اساس ما جرى فى مسرحية اخرى كتبها سوفوكليس ، حيث تدفع الكترا اخاها ليقتل امها جزاء ما فعلت حين قتلت اباها .

والاناث يبدان حياتهن بارتباط عاطفى بالأم ويقل هذا الارتبـاط أو الانجذاب حيث تكتشف الانثى أنها لا تملك العضو الثمين وتعتبر أمها مسئولة عن حرمانها منه . ونبذ الأم يقترن بالانجذاب نحو الاب ، غير أن مشاعرها الايجابية نحوه مختلطة بالغيرة والحسد لانه يملك ما لا تملك . ويرى فرويد أن لديها حسدا للتضيب ويترك فرويد الأنثى معلقة بين الام والاب بمشاعر موجبة وسالبة نحوهما معا . اى ان لديها تناقضا وجدانيا . ان الانثى تترك المرحلة القضيبية ولديها صراع اقدام احجام .

ويرى فرويد أن الأمل الوحيد للأنثى أن تنجب ولدا وبالتالى تعوض ما فقدته رمزيا .

ويعتقد أن الجنسية المثلية تحدث اذا انقلبت التوحدات السوية.وعلي سبيل المثال اذا توحد الطفل الذكر بأمه او ارتبطت الأنثى ارتباطا وجدانيا وتوحدت مع ابيها .

ويطلق على مراحل النمو الثلاث الأولى « المراحل قبل التناسلية » وهى أهم المراحل فى نمو الشخصية وتكوينها . ولقد شعر فرويد أن المقومات الرئيسية فى شخصية الراشد تكون قد تشكلت وصيغت بنهاية هذه المراحل .

مرحلة الكمـــــون :

وتمتد هذه الفترة عادة من سن السادسة حتى الثانية عشرة ، وتتميز بالهدوء النسبى من الناحية الدينامية . وتميل النزعات الغريزية فى هـذه الفترة الى البقاء فى حالة كبت . ويتم اعلاء الطاقة الغريزية وتوجيهها الى اهتمامات عقلية ورياضية والى العلاقات مع الاتراب . ويمكن النظر الى هذه المرحلة باعتبارها فترة اعداد للنمو الهام الذى سـوف يتحقق فى المرحلة الأخيرة من النمو النفسى . وانحسار الاهتمام الغريزى من وجهة نظر فرويد فى هذه المرحلة ظاهرة فسيولوجية بحتة . ومرحلة الكمون لا تعتبر مرحلة من مراحل النمو النفسى الجنسى لانه لا يرتبط معها بزوغ منطقة شبقية جديدة ، والنزعات الغريزية تكون كامنة . ولقد اولى فرويد اهتماما ضـئيلا بعمليات النمو التى تحدث خلال هذه المرحلة وهى حقيقة غريبة حين يلاحظ

الفـــرد أنها تشغل فترة زمنية تســـاوى ما تستغرقة مراحل النمو الثلاث السـابقة .

المرحلة التناسلية :

وهى المرحلة الأخيرة من مراحل النمو وهى تبدأ مع البلوغ وتنتهى قبيل الشيخوخة ، فهى أطول مراحل النمو زمنا . والمأمول ان يتحول الطفل ببلوغ هذه المرحلة من الأنانية والبحث عن اللذة والنرجسية الى الايثار والتطبيع الاجتماعى الواقعى والاهتمامات الجنسية الغيرية التى تؤدى الى الزواج والانجاب . وهى مرحلة نشأة الميل الجـــاد الى التقدم المهنى والاضطلاع بمسئوليات الراشد . اما اذا ادت الخبرات فى المراحل قبل التناسلية الى التثبيت ، فان ذلك يظهر فى حياة الراشد وشخصيته . والتحليل النفسى كأســـلوب فى العلاج يســـاعد الفرد على التخلص من بقايا مراحل النمو المبكرة وآثارها السيئة أو يساعده على مواجهتها وبالتالى ينقص تاثيرها فى حيـــاته .

والحق أن عملية التحليل النفسى يمكن النظر اليها باعتبارها وسيلة لاكتشاف الأفكار المكبوتة التى لها اثر سلبى على حياة الفرد والســـؤال المطروح هو : كيف يمكن للفرد أن يصل الى هذه الأفـــكار ويتناولها وهى نشطة فى اللاشعور ؟ والاجابة هى : بتحليل احلام الفرد ومن خلال استخدام أسلوب التداعى الطليق معه .

البحوث المميزة وطرق البحث :

لقد درب فرويد على مناهج البحث العلمى السائدة فى القرن التاســـع عشر ولقد أجرى بحوثا فى مجالات علم الأمراض العصبية وفى علم الانسجة العضوية وكان على دراية بالحركة التجريبية الجديدة فى علم النفس ؛ ومع ذلك فانه فى دراساته للعقل الانسانى لم يستخدم الأساليب المعملية ولم يحاول قط أن يختبر مفاهيمه ونظرياته فى بحوث امبيريقية تم ضبط متغيراتها . لقد قامت نظرياته على تحليل مكثف للبيانات التى تالفت اســـاسا من كلمات المرضى وافعالهم ، المرضى الذين عالجهم ليتخلصوا من مشكلاتهم النفسية .

ولقد التقى بهؤلاء المرضى لفترات طويلة من الزمن ولذلك فان البيانات التى توافرت له منهم مكثفة . وكان فرويد دقيقا وناقدا لذاته بدرجة عالية بحيث يتأكد فى دراسته لكل حالة من ان جميع البيانات أو العناصر يتسق بعضها مع بعض . وكان تحليله منطقيا ومتسقا اتساقا داخليا .

وسوف ننظر فى اهم الطرائق التى استخدمها : —

التداعى الحـــــر :

لقد طور فرويد هذه الطريقة الفريدة وهى التداعى الحر او الطليق من اسلوب توصل اليه صديقه وزميله يوسف بروير Josef Breuer فى علاجه للهستيريا (والهستيريا كلمة عامة تطلق على مجموعة من الاضطرابات النفسية يكون الكبت هو الحيلة الدفاعية المستخدمة فيها . ومن الأشكال الشائعة للهستيريا ان يخبر الفرد الما جسيما وعجزا رغم عدم وجــود إى اضطراب عضوى واضح) . ولقد طور بروير اسلوبه بمساعدة احد مرضاه حيث حكى له عن تفاصيل كيفية ظهور احد الاعراض التى يشكو منها لاول مرة ، وتبين للمريضة وللمعالج اختفاء العرض مما اثار دهشتهما.واستمرت فى وصف اصل أعراضها ، واطلقت على هذه الطريقة « حديث الشفاء أو البرء » . وحين علم فرويد من بروير بما حدث خلبت لبه الامكانيات الظاهرة لهذا الاسلوب .

ويختلف التداعى الحر عن حديث الشفاء من حيث ان الأول يتطلب من المرضى أن يتحدثوا عمـــا يرد لوعيهم أيا كان والا يقتصر الحــــديث على الأعراض المرضية ومنشـــأها . ان طريقة فرويد فى صـــورتها الكلاسيكية تتطلب ان يمتنع المحلل النفسى عن مقاطعة تدفق حديث المريض . ويعلق المحلل او يطرح اسئلة لتشجيع المريض فقط حين يتوقف او حين يبدو أنه معاق .

ويقوم هذا الاسلوب على ثلاث مسلمات اساسية . اولها : أن كل ما نقوله او ما نفعله له معنى . ليس ذلك فحسب بل يتصل بكل شىء آخر قلناه من قبل وفعلناه . وثانيا : أن المادة اللاشـــعورية يمكن استدعاؤها

بحيث نعيها على نحو له معنى بتشجيع التعبير الحر عن افكارنا عندما يتم ذلك . وثالثها : أن المادة اللاشعورية تؤثر فى سلوكنا . وهناك افتراض بأن هذا الاسلوب كفيل بالكشف عن المادة اللاشعورية المكبوتة ، من خلال دراسة الروابط بين الوقائع الحقيقية والصور العقلية (الذكريات وصور الاحلام) ، وهكذا فان التداعى الحر ليس حرا فى الحقيقة لانه يرتبط على نحو محدد ارتباطا عليا متسلسلا ، وان التدفق أو التداعى يتحدد بواسطة العمليات اللاشعورية النشطة داخل الشخص فى تلك اللحظة . ووفقا لما يراه فرويد ، على الرغم من أن المريض سوف يعرف موضوعات معينة ويحاول أن يتجنبها او يشوه أخرى فان سلاسل تداعى التفكير عند الشخص سوف تؤدى بالمستمع الى فهم صراعات الشخص العقلية والانفعالية .

ولكى ينشط فرويد التداعى الحر أو الطليق (وهو القاعدة الأساسية للتحليل النفسى) كان يلقى بالتعليمات على مرضاه : ـــ

« سوف تلاحظ وانت تروى عن الأشياء ، انه سيطرا على ذهنك افكار تود لو تنحيها جانبا على أسس انتقادات معينة واعتراضات . وسوف تميل الى أن تحدث نفسك بأن هذا أو ذاك لا صلة له بالموضوع ، أو غير هام بالمرة ، أو حمق وهــراء ولذلك فلا حاجة الى قــوله . لا ينبغى اطــلاقا أن ترضخ لهذه الانتقادات ، وانما ينبغى أن تحكيها بالرغم من هذا ـــ بل وان تحكيها بدقة لانك تنفر من فعل هذا . . . واخيرا لا تنسى قط انك وعدت أن تكون أمينا امانة مطلقة ، والا تترك شيئا لانه من المؤلم ان تتحدث عنه لهذا السبب او ذاك » (1913/1958, pp. 134 135)

والفكرة الأساسية وراء ذلك انهحتى التعبيرات الشعورية بالنسبة للملاحظ المتدرب تعتبر مؤشرات تدل على المحتوى اللاشعورى . وبطبيعة الحال فان مالا يقال هام بل قد يكون اكثر اهمية مما يقال . فالموضوعات التى تجد مقاومة قوية من المريض تزود المحلل بمؤشرات مفيـدة للمشكلات فى العقل اللاشعورى .

تحليل الاحلام :

استخدم فرويد أحلامه كمصدر اولى للبيانات فى تحليله لنفسه . ولقد رأى ان تفسير الاحلام هو الطريق الملكى لمعرفة اللاشعور . ومن خلال الاحلام يمكن التوصل الى محتوى اللاشعور حتى ولو كان هذا المحتوى مقنعا رمشوها .

وحين نستدعى حلما فاننا نصف محتواه الظاهر او ما يبدو عليه فى الظاهر . واهم من ذلك التوصل الى المحتوى الكامن للحلم . ولا يمكن للأفكار المكبوتة ان تصل الى الشعور بغير قناع حتى ولو كان ذلك اثناء النوم . ولا بد ان تكون على الاقل مموهة الى حد ما او جزئيا . ولقد سمى فرويد الميكنزمات التى تشوه المحتوى الحقيقى للحلم « عمل الحلم » Dream Work وعمل الحلم هو جميع العمليات التىتحول المواد الخام للحلم والمثيرات الجسمية وآثار اليوم السابق وافكار الحلم — بحيث ينتج الحلم الظاهر .

وقد يجىء تشويه الحلم على شكل تكثيف Condensation ؛ حيث تجد جزءا من شىء يرمز للشىء كله ، كان يرمز جزء من الزى على صاحبه ، او يرمز شارع للمدينة كلها ؛ او مصباح للمنزل الذى عاش فيه الحالم فترة من الزمان . وقد يحدث التاليف او التركيب حين تدل فكرة فى المحتوى الظاهر للحلم على افكار كثيرة مترابطة فى المحتوى الكامن كما يمثل القط أو حيوان منزلى اليف لاحدى الاسر الاسرة باكملها . وقد تستخدم الازاحة أو الابدال ويقصد بها ان تنسب فكرة غير مقبولة الى شىء مقبول ومكافىء رمزيا للشىء الأول فالصدور تصبح جبالا والاتصال الجنسى يصبح ركوب خيل .

وهناك عمليات اخرى تعمل عملها وتؤثر فى الحلم لتجعل المحتوى مقبولا بدرجة اكبر . ولكن يظل المعنى الكامن موجودا وعلى الملاحظ المدرب أن يكتشفه ويتوصل اليه . غير انه لما كانت الاحلام تحتوى دائما على ما يهدد ماديا ؛ فان على المريض والمعالج ان يعملا معا بسرعة على الكشف عنه حتى لا يتعرض هذا المحتوى للكبت مرة اخرى وللنسيان .

وبناء على تحليل فرويد للاحلام انتهى الى نظريته القائلة بأن وظيفة الحلم اشباع الرغبات المكبوتة وتعبير عن محتويات العقل الانسانى البدائية. وينشأ الحلم بعملية أولية . ذلك أن الآنا تصبح أثناء النوم ضعيفة نسبيا ، وتحاول النزعات والأفكار اللاشعورية أن تعبر عن نفسها . ولكن الآنا تستطيع أن تخفى هذه المادة ، وهذا هو السبب فى أن الرغبة التى يعبر عنها الحلم لا تكون واضحة دائما على نحو مباشر ، وفى أن تفسير الحلم وتحليله عمل صعب .

وفى اطار التحليل النفسى يساعد المعالج المريض فى تحليل احلامه لييسر استعادة المادة اللاشعورية . ولقد انتهى فرويد الى تعميمات معينة عن انواع معينة من الاحلام (ومنها أحلام السقوط واحلام الطيران واحلام العوم وأحلام الحريق) ولكنه يبين بوضوح أن هذه القواعد العامة قد لا تصدق على حالات خاصة وان تداعيات الفرد عن أحلامه اكثر اهمية من اى مجموعة من القواعد تم التوصل اليها لتفسير الاحلام .

دراسات الحالات :

أن المادة الأولية الهائلة التى تجمعت لدى فرويد واشتق منها نظريته لا يمكن معرفتها ولا الاحاطة بها . والحالات القليلة التى نشر عنها فرويد تمثل جانبا محدودا من الحالات التى عالجها . كما أن اخلاقه المهنية حالت دون الافاضة فى عرض هذه الحالات مخافة الكشف عنها والتعرف على هوياتها وفيما يلى عرض لعدد من هذه الحالات وقد عرضت لابراز وتوضيح مفاهيم تحليلية هامة وليس من المعروف ما اذا كانت هذه الحالات هى المصدر الامبيريقى الفعلى للمفاهيم التى توضحها أم انها امثلة جيدة لها . ومهما يكن من شىء فان هذه الدراسات تكشف عن نوع المادة التى جمعها فرويد والاساليب التى استخدمها والطريقة التى فكر بها . واذا اردت مزيدا من التفاصيل والاستقصاءات لهذا المجال فلا بد ان تعود الى مصادرها الأولية ؛ اى الى كتب فرويد نفسه التى عرض فيها لهذه الحالات .

حالة دورا ١٩٠٥ :

هذه الحالة تبين ان الأعراض الهستيرية ما هى الا انعكاسات للنزعة الجنسية المكبوتة ، وأن تحليل الحلم وتفسيره قد استخدم للكشف عن المادة المكبوتة .

ولقد كانت دورا شابة تبلغ من العمر ١٨ عاما تعانى من الاكتئاب ومن الانهاك ومن مشكلات جنسية . وكانت منغمســة فى شبكة معقــدة من انعلاقات تضمنت والديها ، وعلاقة ابيها برئيسة الخدم وبزوج الأخيرة الذى كان يغازل دورا . ويقدم فرويد تحليلا منصلا لحلمين من احلام دورا حيث يتضح مما روته دورا من تداعيات وتفسيراته لهذه التداعيات اسـلوبه فى تحليل الحلم على نحو جلى .

حالة هانز الصغير ١٩٠٩ :

هذه الحالة توضح مفهوم فرويد للنظرية الجنسية الطفلية بما فى ذلك عقدة اوديب ، والقلق المرتبط بالخصاء . وكان هانز يخاف من أن جوادا سوف يعضه لو غامر وخرج الى الشارع . وقد استطاع فرويد بواسطة المذكرات التى دونها والد الصبى والتى عرضها على فرويد ان يوجهه لعلاج الحالة . ولقد برهن فرويد على ان الخواف أو الفوبيا كانت تعبيـرا عن ديناميات المرحلة التنسيبية ، اى عن عقدة اوديب وعقدة الخصاء .

شريبر Schreber ١٩١١ :

توضح هذه الحالة العلاقة بين البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) والجنسية المثلية .

لقد كتب شريبر وهو قاضى سيرة ذاتية عن مرضه الذى شخصه على انه بارانويا . لقد اعتقد شريبر انه مخلص للبشرية ومنقذ لها وانه قد تحول الى امراة . ولقد استند تحليل فرويد لهذه الحالة على ما كتبه المريض والذى اظهر ان هذه هذاءاته يتصل بعضها بالبعض الآخر وان الدافع لها هـو الجنســية المثلية الكامنــة . ولقد افترض فرويد أن الصراع الرئيسى فى

البارانويا (على الأقل عند الذكور) هو الرغبة الجنسية المثلية . وعن طريق التكوين العكسى يحول الشخص هذه الرغبة المهددة الى كراهية مستطة ، وتصبح « انا أحبه » انا اكرهه اذن فهو يكرهنى ويضطهدنى .

الرجل الذئب Wolf man ١٩١٨ :

وتوضح هذه الحالة استجابة الطفل للمشهد الأول سواء اكان حقيقيا أم متخيلا ، واثر قلق الخصاء على الحياة اللاحقة للفرد .

والرجل الذئب شاب فى العشرينات من عمره تعرض للاصابة بمرض السيلان فاوقظ لديه قلق الخصاء الذى كبت لفترة طويلة . فاصبح مكتئبا وعاجزا عن القيام بأعماله ووظائفه بالاعتماد على نفسه . ولقد قام فرويد بتحليل العصاب الطفلى لدى هذا الشاب وفسر حلما مخيفا عن الذئاب خبره فى طفولته كرد فعل للمشهد الأول .

البحوث التحليلية النفسية المعاصرة :

لقد أجريت اختبارات تجريبية لكثير من مفاهيم التحليل النفسى منذ وفاة فرويد أسفرت بعضها عن نتائج تتسق مع هذه المفاهيم وتدعم صدقها ، وأسفرت أخرى عما يخالف ذلك .

تقويم النظرية والموقف الراهن :

بعض افكار فرويد مقبولة على نطاق واسع — افكاره عن اهمية الاحلام وحيوية العمليات اللاشعورية — وهناك افكار اخرى او جوانب أخرى من نظريته — العلاقة بين الآنا والهو والآنا الأعلى — تثير جدالا وخلافا كبيرا بين الدارسين . وهناك مجموعة ثالثة من الأفكار لقيت نقدا عاما يقترب من الرفض كتحليله للجنس عند الانثى ونظرياته فى اصل الحضارة .

والقارىء لكتابات فرويد والدارس لأفكاره يجد ان هناك اوقاتا فى حياته تبدو هذه الأفكار عن دور الشعور واللاشعور كما لو كانت تأملات ورؤى شخصية وانها توضح جانبا من خلقه وخلق الآخرين وتدفعه الى مزيد من القراءة والتأمل والمتابعة . وهناك اوقات أخرى تبدو فيها هذه الأفكار

بغير نفع تتسم بقدر كبير من المبالغة ولا ترتبط بخبراتنا ، بل هى غريبة عنها على نحو جلى .

وفى كلتا الحالتين يبرز فرويد شخصية متميزة تحملنا على التجاوب معه والاستجابة اليه على نحو شخصى . ولا يمكن أن نأخذه بخفة ، أى لا بد أن نأخذه مأخذ الجد حين نتفق معه وحين نختلف وذلك لانه يعالج مسائل حيوية تتصل بحياة كل منا وبخصوصياته .

وهناك كثير من العوائق التى تحول دون التقدير الموضوعى لنظريات فرويد ومن بينها اللغة التى عبر بها عن نظرياته وافكاره . لقد انغمس فرويد فى علوم القرن التاسع عشر . وتظهر كتاباته تأثرا كبيرا بهذا حين يشير بكثرة الى تصاعد التوتر الذى ينبغى تفريغه عن طريق مخرج أو آخر. وكثيرا ما يصعب تبين ما يقصده فرويد حين يستخدم مفاهيم واوصافا معينة هل المقصود هو معناها الحرفى أم معنى مجازى ، فالغموض والقصور فى الدقة كثيرا ما يستبعد التوصل الى تنبؤات قاطعة تساعد على وضع نظريته موضع الاختبار والتحقيق .

وهناك عوائق منطقية لبحث مفاهيم فرويد على نحو موضوعى ولعل اوضحها التكوين العكسى . ان هذه الحيلة الدفاعية تعنى أن الشخص الذى ينبغى عليه من الناحية النظرية ان يظهر النمط السلوكى (أ) يستجيب بنمط مخالف ومضاد . وهكذا فالشخص الذى ينبغى عليه بسبب احداث طفلية أن يكون هلوعا قد يظهر عدوانيا شديد المراس عن طريق التكوين العكسى. وهكذا يتحقق الفرض بغض النظر عما اذا كان الفرد قد وجد هلوعا أم عدوانيا .

وبالرغم من هذه الصعاب فان بعض المحللين النفسيين قد حاولوا أن يقدموا الشواهد الدالة على صدق دعاواهم . ومعظم هذه الشواهد مستقاة من حالات كان يعالجها المحللون ، وبالتالى فان النتائج معرضة لتحيز هؤلاء كملاحظين . وفضلا عن ذلك فان معظمها مواد كلينيكية مستقاة من جلسات العلاج بالتحليل النفسى ، ويندر ان يبحث هؤلاء المحللون عن شواهد مستقلة مستقاة من خارج الموقف الكلينيكى .

لقد راجع كلاين علم ١٩٧٢ م Kline عددا كبيرا من الدراسات التي تستهدف دعم النظرية الفرويدية.ولقد اصطنع معايير متشددة في نقد مناهج هذه الدراسات وانتهى الى القول بوجود قدر كبير من الشواهد التي تؤيد علميا كثيرا من أفكار فرويد . وأن الشواهد المتوافرة حاليا ترجح صدق نظرية التحليل النفسي في الشخصية . ويشير أيزنك عام ١٩٧٢ الى أن الدراسات التي لخصها كلاين ومحصها تدل فقط على وجود ظاهرات معينة كالكبت ، وأن هذا وحده لا يدعم بالضرورة النظريات الفرويدية .. وبعبارة اخرى هناك طرق عديدة لتفسير هذه النتائج . وعلى سبيل المثال ، لقد تمت البرهنة مرارا على أن الأفكار غير السارة والرغبات والذكريات يسهل تعرضها للنسيان ، وهذا يدعم مفهوم فرويد عن الكبت ، غير أن هناك مداخل اخرى كثيرة لتفسير نفس النتائج . ولقد بين موريس Moriss علم ١٩٧٣ م أن مبادىء نظرية التعلم يمكن أن تقدم لنا تفسيرا مناسبا للكبت دون حاجة الى مفاهيم فرويد عن الآنا والهو . وهذه التفسيرات البديلة ليست صادقة بالضرورة ولكنها تتساوى مع تفسير فرويد من حيث معقوليتها وطالما أن هناك بدائل ، فان اي عبارة تقرر أن مفاهيم فرويد قد تمت البرهنة على مصداقيتها دون منازع قول مبالغ فيه .

ان لافعالنا عند فرويد دوافع لاشعورية . واننا لانعى هذه الدوافع لأنها لاشعورية ، ومع ذلك فنحن مضطرون لاداء هذه الاعمال او الافعال ..

ولقد أنتهى فرويد الى هذه الفكرة نتيجة لممارساته في العلاج النفسي بالتنويم المغناطيسي ولمعالجته للمرضى الذين يعانون من الهستيريا التحولية. ولقراءته لكتاب هارتمان عن «فلسفة اللاشعور» ١٨٦٨م . لقد اقنعته هذه المصادر بوجود الدوافع اللاشعورية .

ولقد استطاع فرويد باستخدامه لهذه الفكرة أن يفسر ويوضح مدى متنوعا وعريضا من الخبرات الانسانية .لقد ذهب الى ان الاعصبة وبعض الوقائع اليومية كفلتات اللسان ونسيان المواعيد كثيرا ما ترجع الى صراع بين الدوافع اللاشعورية هذا فضلا عن ان الأحلام تمثل دوافع لاشعورية في صورة مقنعة . كما ان الاختيار المهني يستند الى الدوافع اللاشعورية التي اتخذت صورا مقبولة عن طريق الاعلاء .

ومما يؤكد فكرة الدافعية اللاشعورية انها سائغة ولها معقوليتها لدى كثير من الناس حين يتحدثون عن فلتات اللسان وماتكشفه من تفكير خبىء لديهم .

وان كثيرا من التجارب قد دعمت الدوافع اللاشعورية وان المعارضين للتحليل النفسى قد عجزوا عن دحض هذه الفكرة وهى أساس لعلاج نفسى ناجح . ذلك أن الأساليب التحليلية التى تكشف عن الدوافع اللاشعورية (تفسير الاحلام ، والتداعى الطليق وتفسير فلتات اللسان) قد شفت الكثيرين من اضطراباتهم النفسية وما تزال .

غير ان هذه الفكرة ايضا موضع نقد لأنها تفترض وجود عقل يعمل خارج العقل الشعورى العادى ، عقل لاشعورى وهذا تناقض منطقى لان ما هو خارج العقل لايمكن ان يكون عقليا ولابد أن يكون فيزيقيا . هذا فضلا عن ان تفسير الظاهرات على أسس الدوافع اللاشعورية ليس الا تفسيرا واحدا من بين عدة تفسيرات وجيهة . فالنظريات السلوكية ونظرية المعلومات تقدم لنا تفسيرات معقولة اخرى لفلتات اللسان والأحلام والحيل الدفاعية والقلق العصابى . هذا فضلا عن ان الدوافع اللاشعورية تنكر وجود الارادة الحرة ، فاذا كنا مجرد عبيد للاشعور فلا يمكن اعتبارنا مسئولين عن افعالنا . وعلى الرغم من ان العلاج النفسى الذى يستند الى هذه الفكرة فعال ، الا ان النظرية قد لاتكون صادقة بالضرورة ، ولدينا طرق اخرى للعلاج تستند الى نظريات اخرى وتؤدى عملها بنفس الكفاءة .

وقبل فرويد كانت النظرة السائدة أن الانسان كائن منطقى وعقلانى يسلك بطريقة مرضية وهو على وعى دائما بأسباب سلوكه . ولقد أدى تأكيدفرويد على الدوافع اللاشعوريةوتأثيرها الى هدمهذا الاعتقاد وبالتالى الى أن ننظر الى الانسان نفسه من منظور اكثر تواضعا .

ومن اسهامات فرويد البارزة فى دراسة الشخصية اصراره على ان سلوك الانسان مسبب ومعلول وانه لايحدث عشوائيا أو نتيجة لعوامل الصدفة . فالسلوك عند فرويد محتوم حتىولو بدا عند النظرة الأولىانه حادث عارض فانه يمكن فى التحليل النهائى اظهار انه انبثق أو صدر فى الأصل عن

اللاشعور وانه قابل للتفسير . وينبغى ان يسلم المرء بأن سلوك الانسان مسبب قبل أن نبدأ فحصه فى اطار علمى . ولقد لعب فرويد دورا أساسيا فى نشر هذه الفكرة .

ولعل من المناسب ان نختتم حديثنا عن فرويد بفقرة أوردها هول ولندزى فى كتابها «نظريات الشخصية» حيث يقولان :ـ

« الا ان الاسلوب الأدبى الجميل والموضوع المثير ليسا السببين الرئيسين للتقدير العظيم الذى يحظى به فرويد . بل الاحرى ان سبب ذلك هو أن افكاره مثيرة متحدية . وان تصوره للانسان شامل وعميق معا . ولأن لنظريته دلالتها فى عصرنا هذا . وربما لم يكن فرويد عالما دقيقا او واضع نظرية من الطراز الأول ، الا انه كان ملاحظا صبورا ومدققا ثاقب النظر ، ومفكرا جسورا ومنظما وشجاعا ومبتكرا . وبالاضافة الى هذا كله ، وأهم من جميع مزايا نظريته هذه الميزة الفريدة : انها محاولة لتصوير الشخص المكتمل الحى الذى يعيش جزئيا ـ فى عالم الواقع ـ وجزئيا ـ فى عالم من الوهم تحاصره الصراعات والتناقضات الداخلية ، وبرغم هذا فهو قادر على التفكير والعمل العقلى ، تحركه قوى لايعرف عنها الا القليل . وطموح لاطاقة له على بلوغه ، آنا تختلط الأمور عليه وآنا آخر يصفو ذهنه . ويتناوبه الاحباط والاشباع ، الامل والياس ، الاثرة والايثار . انه بايجاز كائن بشرى معقد » (ترجمة فرج وآخرين . ص : ٩٩) .

الفصل الثالث

كــارل جوســتاف يونــج

ولد كارل جوستاف يونج فى سويسرا فى ٢٦ يوليه عام ١٨٧٥ م ، وكان والده وبعض أقربائه من القساوسة ، ولهذا اهتم يونج منذ وقت مبكر من حياته بالمسائل الدينية والروحية .

ويبدو ان كارل يونج كان طفلا حالما ومنعزلا انفق قدرا كبيرا من وقته فى احلام اليقظة وفى التأمل والتفكير التخيلى فى العالــم . ولقد دخلت أمه المستشفى وهو فى الثالثة من عمره وبقيت بها عدة شهور . وبالرغم من هذا فقد كانت اقوى والديه من الناحية الجسمية أو من ناحية شخصيتها ، ويبدو ان اباه كان منهمكا فى عمله ومنشغلا بمهنته الدينية . ولقد توفــى وقد تجاوزكارل العشرين من عمره بقليل ، ولكن امه عاشت حتى بلغ الخمسين من عمره تقريبا ، وحتى فى هذا السن يبدو انها كانت قادرة على التأثير عليه تأثيرا قويا غامضا . ولقد اعتبر يونج امه ساحرة تستطيع ان تقرأ افكــاره وان تسيطر على افعاله وان تهدده بالأحلام المزعجة . ومن الصعب ان نميز فى هذه النقطة بين الحقيقة وخيال يونج الخصب وتصوراته . ويحتمل ان امه كانت غير متزنة انفعاليا ، أو لعل يونج نفسه قد تعرض لانهيــار عصبى . وعلى اية حال فان يونج انفرد برعاية امه له وحدهحتى بلغ التاسعة من العمر حين ولدت اخته الأولى .

وفى السنوات التالية التحــق بمدرسة ثوية فى بــــازل Basel (4) حيث اعتبر طفلا ريفيا فقيرا ، وقد عانى يونج فى مراهقته المبكرة من نوبات انفعالية وذلك بعد واقعة سقوطه على الأرض واصطدام راسه بها . وقد اعتبر مرضه فيما بعد عصابيا ، ولكن طبيبه فى ذلك الوقت شخصه تشخيصا مبدئيا على انه صرع . وتدارتبطت هذه النوبات بموضوعاتمدرسية وكانت تحدث كلما متع كتابا . هذا على الرغم من ان يونج احب الكتب،ولكنه كان يكره وضعه فى المدرسة . واذا صدقنا رواية يونج للاحداث ، فانه بعد عدة شهور من التأمل فى البيت شفى نفسه بقوة ارادته وعاد الى المدرسة وعمل بجد فى الدرس بحيث انه احتل المرتبة الأولى بين زملائه فى الصف فى الرياضيات .

وقد أضاع عاما من حياته غير ان هذا فيما يبدو أفاده لأنه ارتبط بجماعة أتراب جديدة كانت أكثر تقبلا له .

وكان المتوقع من فتى حالم كيونج ان يطيع احلامه فى اختيار مهنة يتعيش منها . وقد تحير يونج فى ضوء ولعه بالكتب . هل يتخصص فى الفلسفة أم فى التاريخ أم فى الانتروبولوجيا أم يصبح عالما طبيعيا . كما فكر فى التخصص فى علم الآثار وفى اللغات القديمة . ويبدو انه رأى رؤيا قبل تخرجه فى المدرسة الثانوية أوحت اليه بان يتعمق فى دراسة اسرار الطبيعة وذلك بالتخصص فى علم الحيوان . غير انه فى ضوء قلة امكانياته المادية ورغبته فى اعداد نفسه لمهنة يتكسب منها اختار الدراسة فى مدرسة الطب بمدينة بازل .

وفى عام ١٨٩٥ عندما بلغ يونج العشرين من عمره بدا دراسة الطب . ولقد ادى عثوره مصادفة على كتاب عن الروحانية Spiritualism الى تحويل اهتمامه فى هذا الاتجاه . ولقد استطاع قبيل انتهائه من دراساته الطبية ان يشبع هذا الاهتمام الجديد من خلال اختياره لموضوع رسالته . كما استطاع التوفيق بين الروحانيات والدراسات الطبية بالتخصص فى مجال الطب النفسى ، كما ظهر اهتمامه هذا فى حضوره لجلسات لاستحضار الارواح التى كانت تقوم فيها هيلين بريزورك H. Preis Werk بدور الوسيط . وقد اتم يونج تحت اشراف الاستاذ يوجين بلويلر Eugen Bleuler — الذى اشتهر بدراساته فى الفصام — دراسة حالة هيلين هذه فى رسالته للدكتوراه . ولقد كانت هيلين مصابة بالهستيريا ويحتمل انها كانت مصابة بتعدد الشخصية . وكان هذا هو تشخيص يونج لها . وبعد عامين من تخرجه من مدرسة الطب ، اى فى عام ١٩٠٢ م ذهب يونج الى باريس ليستزيد من دراسة الهستيريا على يد بيير جانيه P.Janet الذى جاء خلفا لشاركو .

ولكنه فى عام ١٩٠٠ م ؛ اى بعد تخرجه من مدرسة الطب مباشرة أصبح مساعدا فى مستشفى بورجولزى للطب النفسى بزيورخ والعيادة الطبية النفسية بزيورخ وكان بلويلر مديرا لها . وقد اكتشف يونج فى سنواته

المبكرة في هذه المستشفى ان اختبار تداعي الكلمات يمكن استخدامه للكشف عن المواد اللاشعورية كالتنويم المغناطيسي والتداعي الحر عند فرويد .

وفي عام ١٩٠٦ م بعد ان صدر كتاب عن بحوثه باستخدام اختبار تداعي الكلمات ارسل نسخة منه الى فرويد ، وبعد ذلك بعام ذهب لزيارته في فيينا وبدا ان كلا من الرجلين يشبع حاجة عميقة عند الآخر ، فقد كان فرويد في حاجة الى ابن يواصل عمله ، وكان يونج في حاجة الى اب ناصح . وقد حسنت الصحبة . وفي عام ١٩٠٩ صحب يونج فرويد في زيارته لأمريكا حيث حاضرا وتسلما درجات فخرية من جامعة كلارك . وفي السنة التالية استطاع فرويد رغم معارضة زملائه في فيينا ان يرتب ليونج ليصبح أول رئيس لرابطة التحليل النفسي الدولية . وعلى غير ماهو متوقع بدأت علاقاتهما تتدهور بعد ذلك بقليل . وبدأ يونج يبتعد تدريجيا وعلنا عن مواقف فرويد وافكاره . ورأى فرويد بدوره أن هذا الخروج عن مدرسته لايمكن تحمله . وفي عام ١٩١٣ اصبحت القطيعة نهائية . ويبدو ان هذه القطيعة اثرت في الرجلين تأثيرا شديدا وعميقا . ففي نفس العام اعتذر يونج عن عمله كمحاضر في جامعة زيورخ وكان مستمرا فيه منذ عام ١٩٠٥ م . وانسحب من كل نشاط ماعدا ممارسته الاكلينيكية الخاصة . ويذهب بعض المؤرخين الى أنه كان يصارع انهيارا عصبيا من نوع ما .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى الا وكان يونج قد خرج من ليلة الروحي الطويل ليعود الى نفسه . وعندئذ بدأنا نرى بدايات نظريته المتميزة في الشخصية . وعلى الرغم من أنه كان قد بلغ من العمر أواسط الاربعينات الا أنه لحسن الحظ عاش اربعين سنة اخرى ليتوفى علم ١٩٦١ م . وخلال النصف الأول من حياته بلور مفهومه عن اللاشعور الجمعي والانماط الاولية، وقام ببعثاته الأنثروبولوجية المختلفة لدراسة البدائيين الافريقيين ، والهنود الامريكيين ، كما مد مباراته في موضوعات متنوعة من الديانات التبتية القديمة Tibetan الى كيمياء العصور الوسطى . ولقد بلغت أعمال يونج العلمية عشرين مجلدا .

خصائص الشخصية المستمرة :

تتألف الشخصية من عدد من الأنظمة التى تعمل فى ثلاثة مستويات من الشعور . فالأنا تعمل فى المستوى الشعورى . والعقد والانماط الاولية تعمل عادة فى مستوى اللاشعور الشخصى واللاشعور الجمعى على التوالى . وتعمل الاتجاهات والوظائف فى المستويات الثلاث من الشعور . وبمضى الزمن يحدث تأليف بين الشعور واللاشعور داخل الشخص وذلك من خلال عمل الذات وهى اهم الأنماط الاولية على الاطلاق .

الأنــا :

الأنــا مركز الشعور وأحد الانماط الاولية الاساسية للشخصية . والأنا تزودنا باحساس بالاتساق والاتجاه فى حياتنا الشعورية . وتميل الى معارضة ما يمكن ان يهدد هذا الاتساق الشعورى الهش وتحاول ان تقنعنا أنه ينبغى علينا دائما أن نخطط ونحلل خبرتنا شعوريا .

ويرى يونج ان النفس تتألف فى البداية من اللاشعور فحسب ، وهو فى هذا يشبه فرويد من حيث أن الأنا تنشأ من اللاشعور وتجمــع الخبرات المختلفة والذكريات معا ، منمية التقسيم بين اللاشعور والشعور ولاتوجــد عناصر لاشعورية فى الانا ، وانما يوجد به محتويات شعورية مشتقة مــن الخبرة الشخصية . ونحن نعتقد ان الأنا هى العنصر المركزى فى النفس كلها ، وأننا نتجاهل النصف الآخر من النفس وهو اللاشعور .

اللاشعور الشخصى والعقد :

يتألف اللاشعور الشخصى من النزعات الطفلية المكبوتة والرغبــات والمدركات قبل الشعورية والخبرات المنسية التى لاحصر لها والتى تنتمى اليه وحــده .

وذكريات اللاشعور الشخصى لاتكون تحت سيطرة الارادة بأكملها ، واذا ضعف الكبت (كما فى حالة النوم) يمكن استرجاعها ، واحيانا تظهر دون استرجاع مقصود ، او يحدث لها تداعى بالصدفة مما يعيدها الى الضوء ،

وقد تبدو متنكرة فى الاحلام والخيالات ، واذا احدثت اضطرابات لدى الفرد كما هو الحال فى حالة العصاب فان استرجاعها يحتاج الى بذل الجهد .

ولقد استخدم يونج فى المراحل المبكرة من عملة اختبار تداعى الكلمات ليكشف عن هذه المشاعر . ولقد كشفت هذا الاختبار عن خاصية غريبة للبنية النفسية وهى ميل الأفكار الى الارتباط والتداعى حول نواة معينة وهذه النواة هى مايطلق عليه يونج العقدة complex . والنواة تعمل كنوع من المغناطيس النفسى له قدر من الطاقة ويجتذب على نحو آلى افكارا تتناسب مع طاقته . والنواة العقدة مكونان احدهما يتصل بالميل والنزعة dispositional والثانى بيئى . اى انها لاتتحدد نتيجة للخبرة وحدها ، وانما ايضا نتيجة لطريقة الفرد فى الاستجابة للخبرة .

وقد تكون العقدة شعورية ، اى اننا نعرفها ، وقد تكون شعورية جزئيا اى اننا نعرف شيئا عنها ونجهل اشياء ،وقد تكون لاشعورية ، وفى الحالتين الأخيرتين وخاصة حين تكون العقدة لاشعورية تسلك كما لو كانت مستقلة عن صاحبها . وسوف تخرج الافكار والوجدانات المرتبطة بها من الشعور وتعود اليه دون ضابط .وعلى الرغم من انه من الامور غير الطبيعية ان نميز تمييزا قاطعا فى وصفنا للمحتويات النفسية الا اننا نستطيع ان نقول ان هناك عقدا تنتمى الى اللاشعور الشخصى وأخرى تنتمى الى اللاشعور الجمعى ، وهو جانب من النفس مشترك بين أبناء الجنس البشرى كله . والانسان لايملك العقدة ، وانما العقدة هى التى تملكه . فاذا الحت فكرة معينة وتسلطت على شخص بحيث تدخلت فى ادائه السوى لوظائفه اليومية غدت هى المتحكمة وليس الشخص .

اللاشعور الجمعى :

يرى يونج اننا نولد ولدينا ارث سيكولوجى كالارث البيولوجى وكلاهما محددان هامان للسلوك والخبرة « وبما ان الجسم الانسانى يمثل متحفا من الاعضاء ، لكل منها فترة طويلة من التطور وراءه فاننا ينبغى ان نتوقع ان يكون العقل منظما بطريقة مشابهة . لايمكن ان يكون منتجا بغير تاريخ ومنفصلا عن البدن الذى يوجد فيه » (Jung, 1964 p. 67)

ان اللاشعور الجمعى يشتمل على مواد نفسية لاتجىء من الخبرة الشخصية . ويونج يسلم بأن عقل الوليد يمتلك بنية تشكل النمو التالى كله وتوجهه الى قنواته ، كما تشكل التفاعل مع البيئة . وهذه البنية الانسانية واحدة فى الإساس عند جميع الاطفال . هذا على الرغم من اننا ننمو جميعا على نحو مختلف . ونصبح افرادا متميزين كل له فرديته ، فاللاشعر الجمعى مشترك وعام لدى جميع الناس وكذلك فهو واحد ولعل ذلك يرجع الى تشابه بناء العقل بين جميع اجناس البشر . وهذا التشابه يرجع بالتالى الى التطور المشترك . « ان اللاشعور الجمعى يحتوى على الارث الروحى لتطور الانسانية ، يولد من جديد فى بنية مخ كل فرد ، وعقله الشعورى ظاهرة تنجز جميع التوافقات المؤقتة والتوجهات .... واللاشعور من ناحية اخرى هو مصدر القوى الغريزية للنفس .... وجميع اقوى الافكار فى التاريخ ترجع الى الانماط الاولية » (Jung in Compbell, 1971, p. 45)

ويمكن ان نفهم تناول يونج للاشعور الجمعى من الفقرة التالية من خطاب أرسله الى احد الذين يقوم بتحليلهم . « انت تثق فى لاشعورك كما لو كان ابا محبا . ولكنه الطبيعة ولايمكن استخدامه كما لو كان انسانا موثوقا به . انه غير انسانى وفى حاجة الى العقل الانسانى ليعمل على نحو مفيد لاغراض الانسان ..... انه يسعى دوما لتحقيق اغراضه الجماعية ، ولايسعى مطلقا لبلوغ نصيب الفرد وقدره . ان قدرك هو نتيجة للتعاون بين الشعور واللاشعور » (Jung, 1973 p. 283)

الأنماط الاولية :

توجد باللاشعور الجمعى بنيات نفسية او انماط اولية وهى اشكال ليس لها محتوى فى ذاتها ، وتنظم المادة النفسية وتوجهها فى قنواتها . انها أشبه مايكون بمجارى الأنهار الجافة التى تحدد بشكلها خصائص النهر متى بدأ ماؤه فى التدفق والجريان .

والانماط الاولية تشكل البنى التحتية للنفس . وهذه الانماط تشبه البلورات ؛ حيث لانجد بلورتين تتشابهان تماما . وبالمثل فان الخبرات النفسية

لكل فـــرد فردة من حيث المحتوى ، ولكن ثمة انماط عامة تحددها ولهذه الانماط معالم عامة ومبادىء مولدة .

ويطلق يونج على الأنماط الاولية صورا بدائية أو اصـــلية لانهـــا كثيرا ما تتماثل مع موضوعات اسطورية بتكرر ظهورها فى الحكايات الشعبية والاساطيرفى الازمنه والثقافات المختلفة . وسوف نجد التيمات والموضوعات فى احلام وخيالات ورؤى كثير من الافراد . ويرى يونج ان الانماط الاولية كعناصر بنائية فى اللاشعور تثير خيالات الفرد واساطير الجماعة وهى تبدو كمنظمات معينة تكرر انماطا معينة من المواقف والاشكال . ان مواقف الانماط الاولية تشتمل على ما يأتى : ضيف البطل ، ورحلة البحر الليلية ، ومعركة الولادة والانفصال عن الأم ؛ واشكال الانماط الاولية تشتمل على الطفـل المقدس ، والبديل ، والحكيم القديم والأم البدائية .

ولقد وضع كامبل J. Campbell وهو عالم على مذهب يونج كتابا اسماه « بطل بألف وجه » Hero With a thousand Faces لخص فيه الموضـوعـات النمطية الاولية الاسـاسية فى قصص الأبطال واساطيرهم التى وجدها فى ثقافات مختلفة عبر التاريخ . ومن امثلة هذه الموضوعات قصة أوديب فهـى مثال جيد لموقف النمط الأولى الذى يتناول حب الابن العميق لامه وصراعه مع ابيه . ويمكن ان نجد هذا الموقف الرئيسى فى كثير من الخرافات والاساطير كنمط سيكولوجى لدى كثير من الأفراد وهناك مواقف كثيرة تتصل بهذا الموقف كعلاقة الابنة بأبيها، وعلاقة الوالدين بأطفالهما والعلاقات بين الرجل والمرأة، وبين الاخوة وبين الاخوات وهلم جرا .

«وكثيرا ما يساء فهم لفظ النمـط الاولى باعتباره صـورة ميثولوجية أو فكرة سائدة ، ولكن هذه ليست اكثر من تمثيلات شعورية ... ان النمط الاولى هو ميل الى تكوين تمثيلات لفكرة سائدة — تمثيلات يمكن أن تتفاوت تفاوتا كبيرا فى التفاصيل دون ان تفقد نمطها الاصلى . وهناك على سبيل المثال كثير من تمثيلات للفكرة السائدة لكراهية الاخوة ؛ ولكن الفكرة تبقى كما هى » — (Jung, 1964, p. 67)

ويمكن ان ترتبط رموز متنوعة تنوعا كبيرا بنمط اولى معين . فنمط الام

الاولى على سبيل المثال لايشتمل على الأم الحقيقية لكل فرد ، بل على صور الأم ، وصور عطوفة اخرى ، وهذا يشتمل على النساء بصفة عامة ، وعلى الصور الاسطورية للنساء مثل فينوس ، ومريم والطبيعة الام ، والرموز المدعمة والعطوفة كالجنة . والنمط الأولى للأم لايشتمل فحسب على ملامح موجبة بل يتضمن أيضا ملامح سالبة كالتهديد والسيطرة والكبح . ولقد تبلور هذا الجانب فى العصور الوسطى على سبيل المثال فى صور الساحرة .

ولقد بين يونج ان محتوى الأنماط الاولية يمكن ان يتكامل فى الشعور ، أما الأنماط نفسها فلا يمكن التخلص منها عن طريق التكامل ، كما انه لايمكن التخلص منها برفض السماح لمحتوياتها بالدخول الى الشعور . وتبقى الأنماط الاولية مصدرا لتوجيه الطاقات النفسية خلال الحياة كلها ، وينبغى ان تعالج على نحــو مستمــر .

وكل بنية من البنيات الاساسية للشخصية نمط اولى . وهذه تشتمل على القناع والانا والظل والانيما عند الرجل والانيموس عند المراة والذات.

القنــاع :

ان القناع هو المظهر الذى نبديه للعالم . انه الخلق الذى نتخذه ومن خلاله نتصل بالآخرين . ويشتمل القناع على ادوارنا الاجتماعية والملابس التى نختار ارتداءها واساليبنا الفردية فى التعبير عن انفسنا . ان علينــا ان نرتدى شيئا يحدد أدوارنا لكى نقوم بوظائفنا الاجتماعية ، وحتى بالنسبة لاولئك الذين يحاولون نبذ أدواتنا التوافقية لايستطيعون الا ان يتخذوا احدى تمثل النبــذ .

وللقناع جوانبه الموجبة وجوانبه السلبية . فالقناع المسيطر يمكن ان يكتم أنفاس الفرد ، والذين يتوحدون مع قناعهم يميلون الى رؤية انفسهم على اساس ادوارهم الاجتماعية السطحية وواجهتهم . ويسمى يونج القناع ايضا النمط الاولى للمسايرة Conformity Archetype ومهما يكن من شىء فان القناع ليس كله سلبا لانه يفيد فى حماية الآنا والنفس من القوى الاجتماعية المختلفة ومن الاتجاهات التى تؤثر فيها . والقناع ايضا اداة قيمة فى التوصل.

ففى الدراما الاغريقية يتحدث الممثلون باقنعتهم الواضحة الى الجمهور كله حديثا واضحا ، وان كان احيانا على نحو نمطى جامد عن خلقهم واتجاهاتهم التى ترتبط بالدور الذى يلعبه كل منهم . ويستطيع القناع ان يلعب فى حالات كثيرة دورا قائدا فى نمونا الموجب . ومع بداية تمثلينا بطريقة معينة ولعبنا الدور الانا تدريجيا فى هذا الاتجاه .

وتشمل الرموز الذى يشيع استخدامها عن القناع الاشياء التى نستخدمها لتغطية انفسنا (كالملابس والحجاب) ورموز الدور المهنى (كالادوات والحقائب) ورموز المكانة (كالسيارة والمنزل والدبلوم) . وقد اتضح ان هذه الرموز تظهر كممثلات للقناع . وقد يظهر الشخص ذو القناع القوى فى الاحلام مبالغا فى التأنق فى ملابسه ، ومقيدا بكثير من الملابس التى يرتديها . وقد يظهر الشخص ذو القناع الضعيف عريانا مكشوفا .

ان القناع ضرورى لانه من خلاله نتصل بعالمنا وهو يبسط تفاعلاتنا لانه يبين ما الذى يمكن ان نتوقعه من الآخرين ، وبصفة عامة يجعلهم اكثر دماثة ، كما تجمل الملابس الجيدة الاجسام القبيحة .

الظــل :

الظل هو شكل من اشكال الانماط الاولية ويفيد كبؤرة للمادة التى كبتت وابعدت من الشعور . وهذه المحتويات تشتمل على الميــول والرغبــات والذكريات والخبرات التى نبذها الفرد لانها غير متسقة مع القناع ، وكلما ازداد توحدنا معه ، ازداد ، ازداد انكارنا للاجزاء الاخرى من انفسنا . ان الظل يمثل مانعتبره دونيا فى شخصيتنا ، وايضا ، وايضا ما اهملناه ومالم ننمه على الاطلاق فى شخصيتنا . وقد تبدو اشكال الظل فى الاحلام على هيئة حيوان او قزم أو متشرد او اى شكل او شخص من ذوى المكانة المتدنية .

ولقد وجد يونج ان المادة المكبوتة تنتظم وتنبنى حول الظل الذى يصبح ذاتا سلبية بمعنى من المعانى ، انه ظل الآنا . وكثيرا ما يخبر الظل فى الاحلام كشكل معتم بدائى ، عدائى منفر لان محتويات الظل قد دفعت عنوة خارج الشعور وتبدو مادية لوجهة النظر الشعرية . واذا سمح للمادة

ان تعود من الظل الى الشعور فانها تفقد كثيرا من طبيعتها المظلمة ومن اثارتها للخسوف .

وتزداد خطورة الظل حينما لانعترف به ولاندركه . وحينئذ فان الفرد يميل الى اسقاط خصائصه غير المرغوب فيها على الآخرين ، ويصبح خاضعا الظل الذى يسيطر عليه دون ان يتحقق من ذلك ، وكلما اصبحت مادة الظل اكثر شعورية قلت سيطرته . ولكن الظل جزء لايتجزأ من طبيعتنا ولايمكن مطلقا ان نتخلص منه ببساطة . والشخص الذى يبدو بغير ظل ليس فردا كاملا . وانما هو ذو بعدين ، وهو ينكر ان الخير والشر يمتزجان وان التناقض الوجدانى موجود فينا جميعا .

وكل جزء مكبوت من الظل يمثل جزءا من انفسنا . وبمقدار ما تبقى هذه المادة فى اللاشعور بمقدار ما نقيد انفسنا . وكلما اصبح الظل اكثر شعورية امتلكنا من جديد اجزاء سبق كبتها من أنفسنا . والظل ليس ببساطة قوة سالبة فى النفس ، انه خزانة لطاقة غريزية كبيرة التلقائية والحيوية وهو مصدر اساسى لطاقاتنا الخلاقة والظل مثله مثل جميع الأنماط الاولية متجذر فى اللاشعور الجمعى ويستطيع ان يتيح للفرد كثيرا من المواد اللاشعورية القيمة التى تنبذها الذات والقناع .

وحينما نعتقد اننا نفهم الظل فانه يظهر فى شكل آخر . ومعالجة الظل عملية تستمر طول الحياة قوامها النظر فى داخلنا والتفكير بأمانة فيما نراه .

الأنيما أو الانيموس :

ان اللاشعور يكمل الشعور ، اى ان لاشعور الرجل يشتمل على عنصر انثوى يكمله ، كما يحتوى لاشعور المراة على عنصر ذكرى . وهذا هو ما يطلق عليه يونج على الترتيب الأنيما والانيموس . وقد يبدو متناقضا ان نقول ان الرجل ليس رجلا بكليته ، وأن المراة ليست امراة بكليتها لاننا نجد فى الشخص الواحد بعض الخصائص الذكرية وبعض الخصائص الانثوية . واكثر الرجال ذكورة كثيرا مايظهرون رقة مدهشة مع الاطفال والضعفاء والمرضى . والرجال الاقوياء يفصحون عن انفعالاتهم دون سيطرة حين ينفردوا بانفسهم .

والشجعان من الرجال يفزعون أحيانا فى مواقف غير خطرة ، ولدى بعض الرجال حدس مدهش او قدرة على الاحساس بمشاعر الآخرين . والمفترض ان هذه كلها سمات انثوية. وهذه الانثوية الكامنة فى الرجل ماهى الاجانب واخذ من الروح الانثوية أو من الانيما - وهو صورة جماعية موروثة للمراة توجد فى لاشعور الرجل كما يقول يونج وبمساعدتها يستطيع ان يفهم المراة .

والرجل يفهم المراة كظاهرة عامة لان الصورة نمط أولى وهى تمثيل لخبرة الرجل عن المراة منذ القدم ، وعلى الرغم من ان كثيرا من النساء يتطابقن مع هذه الصورة على الاقل من الخارج وفى المظهر ، الا انها لاتمثل الخلق الحقيقى لامراة معينة كفسرد .

والصوره لاشعورية وتصبح شعورية وواقعية من خلال الاحتكاكات الفعلية التى يقوم بها الرجل مع المراة خلال مسار حياته . والخبرة الاولى والاكثر اهمية عن المراة تأتــى من خلال أمه وهى بالغة القوة فى تشكيله والتأثير عليه . وهناك رجال لم ينجحوا قط فى تحرير انفسهم من قوتهــا الاسرة . ولكن خبرة الطفل لها خاصية ذاتية واضحة ، فالمسالة ليست ليست كيف تسلك الأم ، بل كيف يشعر الطفل بسلوكها . وصورة الام التى نجدها لدى كل طفل ليست صورة دقيقة لها . ولكنها تتشكل وتتلون بالقدرة الداخلية التى تنتج صورة الام اى بالانيما .

وفيمــا بعــد يســقط الرجل الصورة على النساء على اختلافهن اللاتى يجتذبنه خلال حياته. وقد يؤدى هذا بطريبعة الحال الى سوعفهم لانهاية له . لان معظم الرجال لايعون انهم يسقطون صورهم الداخلية عن المراة على امراة مختلفة تماما ومعظم مسائل الحب التى لايمكن تفسيرها والزيجــات الفاشلة تنشأ بهذه الطريقة . ولسوء الحظ فان الاسقاط شىء لايمكن ضبطه بطريقة عقلانية . فالرجل لايتحكم فى الاسقاطات ، انها تحدث له .

والانيموس عند النساء هو الجزء المقابل للانيما عند الرجال ، ويبدو انه مشتق كالانيما من ثلاثة اصول : الصور الجماعية للرجل التى ترثها المراة ، وخبرتها بالذكورة التى تنشــأ عن الاحتكاكات التى تمت بينها وبين الرجال فى حياتها ، ومبدأ الذكورة الكامن لديها .

والمعتاد ان يكون تفكير المراة ومشاعر الرجل وانفعالاته منتمية للاشعور ان الأنيما تنتج حالات مزاجية ، والانيموس ينتج آراء تستند الى مسلمات لاشعورية بدلا من ان تستند الى تفكير شعورى مباشر .

ويمثل الاب صورة الانيموس بالنسبة للبنت ولهذا تاثير عميق وسحر باق على عقلها بحيث انها بدلا من ان تفكر وتتصرف لنفسها ، فانها كثيرا ما تقتبس أقوال الاب وتعمل اشياء بطريقته حتى وهى فى فترة متاخرة من حياتها .

وخلال النمو الطبيعى يصبح الانيموس مسقطا على كثير من الرجال وحين يحدث هذا الاسقاط تسلم المراة بان الرجل هو ماتراه ومن المستحيل ان تتبله على حقيقته . وهذا الاتجاه يمكن ان يخلق توترات ومشكلات فى العلاقات الشخصية التى يمكن أن تمضى فى نعومة ويسر طالما ان الرجل يتطابق مع مسلماتها عنه . ويمكن ان يتشخص الانيموس فى أية صورة ذكرية من اكثر الرجال بدائية الى اكثرهم روحانية ويتوقف هذا على حالة نمو المراة وتطورها ، بل وقد يظهر فى الأحلام كولد ، وكثيرا ما يسمع كصوت .

وهذا النمط الأولى من اقوى منظمات السلوك تاثيرا . انه يظهر فى الاحلام واحلام اليقظة والتخيلات ، ويعمل كوسيط بين العمليات اللاشعورية والعمليات الشعورية . انه يتوجه اساسا نحو العمليات الداخلية، كما يتوجه القناع نحو العمليات الخارجية . انه مصدر الاسقاطات ، ومصدر صنع الصور وباب من ابواب الابتكار فى النفس .

الـذات :

اذا استطاعت الانا ان تتنازل عن اعتقادها بقدرتها على كل شىء ، فان فى الامكان ان تجد موضعا بين الشعور بقيمة التى اكتسبها بصعوبة ومشقة واللاشعور بحيويته وقوته ، ويمكن فى هذه الحالة ان يبزغ مركز جديد للشخصية يختلف فى طبيعته عن الانا وهذا المركز الجديد للشخصية هو الـذات .

فانا لا يمكن النظر اليها على انها مركز للشعور ، واذا حاول ان يضيف الذاته محتويات لاشعورية (كمحتوى اللاشعور الجمعي وليس محتوى اللاشعور الشخصي أو الظل الذي ينتمي الى الانا) فانه يتعرض لخطر التدمير مثله في ذلك مثل الباخرة التي تغرق لضخامة حمولتها واجهادها . ويمكن للذات أن تحتوى كلا من الشعور واللاشعور ، ويبدو انها تعمل كما يعمل المغناطيس بالنسبة لعناصر الشخصية المختلفة : ولعمليات اللاشعور وهي مركز الشخصية ككل (كما ان الانا مركز الشعور) لانها الوظيفة التي توحد جميع العناصر المتضادة في الرجل والمرأة ، والشعور واللاشعور والخير والشر . وهي حين تعمل هذا تتغير من حال الى حال ، وبلوغ اهدافها يقتضي تقبل ماهو منطقي في طبيعة الفرد وما هو غير عقلاني .

ولايمكن للشخص الناضج ان يبلغ هذه الحالة بغير قدر كبير من الكفاح وهذا يتضمن المعاناة . والذات تتألف من الوعي من ناحية بطبيعتنا الفريدة ، ومن ناحية اخرى الوعي بعلاقتنا الوثيقة بالحياة كلها ، بالانسان والحيوان والنبات بل وبما ليس عضويا وبالكون ذاته . انها توفر لنا مشاعر الواحدية والمصالحة مع الحياة ، التي يمكن تقبلها كما هي الآن ، لا كما ينبغي ان تكون .

ولقد لاحظ يونج نمو هذا المركز الجديد للشخصية لدى عدد من مرضاه قبل ان يصوغ المفهوم على هذا النحو . ولاينبغي ان يعتقد المرء ان جميع من اختاروا عملية التحليل بلغوا هذه المرحلة من النمو . لانه يكفى كثيرا من الناس ان يحرروا انفسهم من مشكلاتهم الطفلية اللاشعورية وان يتخلصوا من العرض المؤلم بالتعرف على سببه ، أو بالتوصل الى طريقة جديدة اكثر ارضاء للتوافق مع الحياة . غير ان هناك بعض الافراد الذين يضطرون لمراعاة اللاشعور مراعاة تامة وينبغي عليهم ان يجدوا طريقا لتقبل حياتهم الى جانب حياة الشعور وان يتكاملا معا بطريقة تجعل شخصيتهم كلا واحدا .

فالذات كما يقول يونج ليست مركز الدائرة فحسب بل هي ايضا محيطها الذي يضم الشعور واللاشعور . انها مركز هذا الكل او الصيغة الاجمالية كما ان الانا مركز الشعور .

الاتجاهــات والوظائــف :

ان تقسيم الشخصية الى نمطين منبسط ومنطوى ليس الا جزءا من خطة تفصيلية وضعها يونج لتصوره التباين بين الافراد .

ويطلق على المنطوى والمنبسط انماطا اتجاهية . attitudinal types

وهذان النمطان يمثلان قطبين متقابلين . والمنطوى يتوجه نحو العالم الداخلى الذاتى بينما يتوجه المنبسط نحو العالم الخارجى الموضوعى . ويميل المنطوون الى الانسحاب والعزلة والتأمل العقلى ويتميزون بقدر من الكف ويبدو عليهم عدم الثقة والميل الى الدفاع عن الذات وهم يبتعدون عن التفاعل الاجتماعى. والمنبسطون اجتماعيون ، يسهل عليهم ان يكونوا صداقات ويبدون اكثر انفتاحا واقل حرصا ، ولديهم ثقة اكبر فى انفسهم ويتسمون بعدم المبالاة . والانماط الخالصة المتطرفة لاوجود لها فى دنيا الواقع ، وانما توجد فى النظرية ، ذلك ان معظمنا يقع فى موضع ما بين المنطوى ١٠٠ ٪ والمنبسط ١٠٠ ٪ وحتى لو صنف الفرد على انه منبسط معتدل ، فانه يبقى لديه بعض الجوانب المنطوية . وفى تصورنا لانماط الشخصية ينبغى ان نتجنب تصنيف الناس على نحو جامد فى فئات منفصلة .

ولقد راى يونج ان هناك اربعة انماط وظيفية Functional Types تتفاعل مع النمطين الاتجاهيين السابقين والوظائف التى نتحدث عنها هى طرق للاتصال بالعالم ونحن نتصل بالعالم كما لاحظ يونج بالتفكير thinking والوجدان Feeling والاحساس sensing والحدس intuiting ..

والتفكير عملية عقلية نتناول افكارا ، وهدف التفكير القصدى او غير القصدى هو الفهم وحين تفكر فى شىء فانك تتبين ما هو هذا الشىء (اسما) والفئة التى يندرج فيها وهكذا ..

والوجدان وظيفة تقويمية؛ انها تتيح لك ان تقيس قيمة الشىء او جدراته. هل تحب هذا الشىء تميل اليه ام تكرهه وتميل عنه ؟ هل يؤلمك اويسرك؟ هل تعتبره ذا قيمة ام لاتعتبره كذلك ؟ فقد ترغب فى شىء رغبة شديدة او تنفر منه وتشمئز ، والشىء قد يغضبك او يخيفك . والحق ان الوجدان

يمكن ان يطلق مئات من الانفعالات غير انه بغض النظر عن الانفعال الذى يطلقه فان وظيفته الاساسية هى ان يعرفك ما اذا كنت تضفى على الشىء موضع النظر قيمة أم لا .

والاحساس يدلك على مايوجد ، وبدون تقويم او تصنيف فى فئات يقدم لعقلك الواقع العيانى للعالم . انه يخبرك بأن شيئا موجودا ودون ان يدلك على ماهيته وما اذا كان خيرا ام شرا .

والحدس يمضى الى مابعد الحقائق وحتى الى مابعد المشاعر والوجدانات لكى يزودك بتحذيرات قبلية والهامات مبتكرة وخبرات روحية ومشاعر غريبة قلقة . انه يهتم بما سوف يحدث ، او بما حدث من قبل ولكنه لم يدرك بأى من الوظائف الاخرى .

ويعتبر يونج التفكير والوجدان وظيفتين عقلانيتين . وقد قصد بذلك ان كلا منهما يستخدم العقل والحكم . اى انهما يستخدمان العمليات العقلية المجردة فى محاولة لاكتشاف النظام القانونى للخبرة . وهو يعتبر الاحساس والحدس وظيفتين لاعقلانيتين . أى أن العمليات المتضمنة تتعدى اللغة والعقل . انهما ترتبطان على نحو مباشر بالعالم العيانى الفيزيقى . وهذه العيانيات تهل الانسان دون تدخل من العقل او استخدام الاحكام .

ولقد اعتقد يونج ان هذه الوظائف الأربع زوجان متقابلان ، اى ان لكل منهما قطبين : التفكير — الوجدان ، والاحساس — الحدس . وان الخط الذى يربط قطبى التفكير — الوجدان يتقاطع بزوايا قائمة مع الخط المستقيم الذى يربط الاحساس بالحدس .

وكما توجد فروق فردية فى بعد الانطواء الانبساط ، توجد ايضا فروق فردية بين قطبى هذه الأنماط الوظيفية . فبعضنا من النمط المفكر اكثر مما هو من النمط الوجدانى ، وآخرون من النمط الحسى اكثر من كونهم من النمط الحدسى . وهكذا ، واذا أضفنا جميع التكوينات الممكنة لنمطى الاتجاه لجميع التكوينات الممكنة لانماط الوظائف فانا ننتهى الى ثمانية انماط للشخصية .

وقد يميل الشخص بدرجة كبيرة أو قليلة الى اى من هذه الانماط الثمانية ولكل منهم مجموعة فريدة من الخصائص : —

النمط المنبسط المفكر : هذا النمط يدرك كل شىء على انه مشكلة عقلية تحل بجمع الحقائق والبيانات ، وبالاستدلال وصولا الى نتيجة منطقية وهؤلاء يصلحون للوظائف التنفيذية ويجيدونها .

النمط المنطوى المفكر : هذا النمط يتتبع افكاره متوجها الى الداخل بدلا من توجهه الى الخارج . وقد ينشغل تفكيره انشغالا تاما بالواقع الذاتى والذى لايكون مفهوما للآخرين كالعلماء الواسعى الثقافية .

النمط المنبسط الوجدانى : هذا النمط يميل الى صحبة الناس والتحدث معهم . وينتج حين يعمل عملا يتطلب تفاعلا مع الناس ويعمل على اكتساب موافقة الآخرين .

النمط المنطوى الوجدانى : هذا النمط محكوم بمعتقداته القوية وولاءاته ولكن هذه الوجدانات والمشاعر يصعب ان تظهر اللهم الا اذا تغلغلت ونفذت من قناع التحفظ .

النمط المنبسط الحسى : يضع يونج فى هذا النمط من يستمتع بالخبرة الحسية العيانية كخبير تذوق الأطعمة وأنواع الشراب والروائح ، والفنانين ، واصحاب هذا النمط يتذكرون تفاصيل عيانية اكثر من اى نمط آخر .

النمط المنطوى الحسى : ويضم العمليين من الناس ، ممن لديهم ذاكرة قوية التفصيل وبسبب هدوئهم وانطوائهم فانه لايبدو عليهم مباشرة أن ادراكهم للواقع يتسم بغرابة جزئية .

النمط المنبسط الحسى : وهذا النمط يضع خططا للمشروعات الجديدة على الدوام ، ويعمل على تنفيذها بحماس وطاقة واندفاع . ويدخل فى هذا النمط الزعماء والسياسيون . انهم يكرهون الروتين ويجدون الالتفات الى التفاصيل مملا ، وقاتلا .

النمط المنطوى الحدسى : هذا النمط ملتزم برؤية داخلية ، صوفية متبقية دامية .. الخ . ان هذا الشخص فى الحقيقة قد يكون مبتكرا او لديه هوس بفكره معينة . وحتى المبتكرون فى الحقيقة كثيرا مايساء فهمهم من اترابهم ، وينبغى ان يكافحوا حتى تقبل اعمالهم .

ويمكن ان يقاس مدى تشابه شخصية الفرد باى نمط من هذه الأنماط المثالية بمقياس Myers Bnggs Type Indicator الذى يزودنا بدرجة لكل من هـذه الابعـاد الثنائـية . (Myers, 1962)

التفاعل بين خصائص الشخصية :

ان خصائص الشخصية التى وصفناها يتفاعل بعضها مع البعض الآخر بثلاثة طرق . فقد تعارض خاصية خاصية اخرى وقد تعوض عنها ، أو قد تلتحم بها . ومن الافكار الشائعة فى نظريات الشخصية مبدأ التعارض والتقابل — اى ان الشخصية تشتمل على اتجاهات متصـارعة او ذات قطبين . ويرى يونج ان التوتر هو جوهر الحياة فبغيره لاتتوافر للشخصية الطاقة التى تعمل بها . والتعارض أو التقابل يوجد فى كل جانب من جوانب الشخصية ، فالأنا تتعارض مع الظل ، والانطواء مع الانبساط ، والتفكير مع الوجـدان ، والانيما او الانيموس مع الأنا وقد يعوضها .

اينبغى ان تكون الشخصية دائما فى صراع وتوتر ؟ ان الاجابة عـن هذا السؤال ليست بالضرورة بالايجاب ، لان العناصر المتقابلة قد يكمل الواحد منها الاخر ويجذبه . وهكذا قد يحال بين التنس والتعرض لعصاب متداز لجانب دون اخر . وبصفة عامة يحدث التعويض بين الشعور واللاشعور ، فما يبدو مسيطرا من قيام الشعور بوظيفته يعوض بخاصية مخالفة مكبوتة . وعلى سبيل المثال اذا تعرض الاتجاه الشعورى للاحباط على نحو ما ، اثار الاتجاه اللاشعورى دائما . واذا لم يستطع الفرد ان يمارس اتجاهه المفضل ، فان الاتجاه اللاشعورى يسود خلال النوم ويعبر عن ذاته فى الاحلام . وقد يكون النمط الأولى علاقة تعويضية بالعقل الشعورى ، فالانيما والانيموس تزود الرجال والنسـاء على الترتيب بخصائصهما الأنثوية والذكرية .

واخيرا يرى يونج ان الشخصية تكافح دوما لتوحيد الأضداد . انها تكافح لتؤلف بين الملامح المتقابلة والمتضادة بحيث تتوصل الى شخصية متوازنة متكاملة ».

نمو الشخصية :

لدى كل فرد ميل للتفرد أو لتنمية الذات والمقصود بالتفرد أن يصبح كائنا حيا فردا متجانسا . والفردية تحتضن اكثر خصائصنا جوانية وتفردا ، تفردا لايضاهيه تفرد ، وتتضمن أيضا تحقيق الذات ». والتفرد عملية طبيعية . ان التفرد هو ما يجعل الشجرة تنمو لتصبح شجرة ، واذا حيل بينها وبين ذلك تجف ولاتؤدى وظيفتها كشجرة ، اما اذا تركت لذاتها فانها تنمو لتصبح شجرة والشعور جزء من التفرد ولكن هذا يتوقف على مقدار مايوجد من شعور على نحو طبيعى . والشعور يمكن أيضا ان يعوق التفرد اذا لم يتح لما يوجد فى اللاشعور بأن ينمو .

ان التفرد عملية تنمية الكل وبالتالى التحرك نحو حرية أعظم . وهذا يشتمل على تنمية علاقة دينامية بين الانا والذات مع تكامل الاجزاء المختلفة للنفس ، والانا والقناع والظل والانيميا او الانيموس ، والانماط الاولية اللاشعورية . وكلما ازداد تفرد النفس ، أمكن رؤية هذه الأنماط البدائية معبرة عن نفسها بطرق معقدة بارعة .

وكلما اصبحنا اكثر شعورا بانفسنا عن طريق معرفة الذات وتصرفنا وفقا لذلك ، كلما تلاشت طبقة اللاشعور الشخصى المفروضة على اللاشعور الجمعى ، وبهذه الطريقة يظهر شعور لم يعد سجينا فى عالم شخصى من الاهتمامات الموضوعية ، عالم يتسم بالحساسية الزائدة والتفاهة . وهذا الشعور المتسع لم يعد حزمة من الاثرة والرغبات الشخصية والمخاوف والآمال يتطلب دائما تعويضا أو تصحيحا من قبل الميول اللاشعورية المضادة . وانما أصبح وظيفة للعلاقة مع عالم الاشياء مما يؤدى بالفرد الى معايشة لامناص منها مع العالم بصفة عامة معايشة مطلقة وملزمة . (Jung, 1928 b, p. 176)

ولقد اتضح ليونج كمحلل ان الذين جاءوا اليه فى منتصف حياتهم الاولى

كانوا نسبيا غير منغمسين فى العملية الداخلية للتفرد . لقد نزعوا الى الاهتمام اساسا ببزوغ الفرد ، وبالانجاز الخارجى وبتحقيق مرامى الآنـا . اما المرضى الاكبر سنا الذين حققوا مثل هذه المرامى والاهداف تحقيقا معقولا، فقد اتجهوا الى تنمية مقاصد مختلفة ، ليصبحوا اكثر اهتماما بالتكامل اكثر من اهتمامهم بالانجاز، واكثر اهتماما بالبحث عن الوئام والانسجام مع النفس ككل .

ومن وجهة نظر الآنا ، يتألف النمو والارتقاء من تكامل مادة جديدة مـع شعور الفرد ، وهذا يشتمل على اكتساب معرفة العالم ومعرفة الفرد لنفسه . ونمو الآنا فى الأساس هو امتداد واتساع الوعى الشعورى ومهما يكن من شىء فان التفرد هو نمو الذات ، ومن وجهة نظرها ، والهدف هو اتحـاد الشـعور مـع اللاشـعور .

كشـف القنـاع :

من الضرورى فى مرحلة مبكرة من عملية التفرد ان ندرك اهمية كشف القناع، وان ندرك القناع كأداة نافعة لا كجزء ثابت من ذات الفرد ، وعلى الرغم من ان القناع له وظائف هامة فى حماية ذات الفرد ، الا انه يخفيهـا ويخفى اللاشـعور .

ان عملية تحضر الانسان تؤدى الى التوفيق بين نفسه والمجتمع فيما يتصل بما ينبغى أن يكون عليه ، وفيما يتصل بتكوين القناع الذى يعيش خلفه . ان القناع الذى يرتديه الممثل يحدد الدور الذى يلعبه ، غير ان لعب الـدور لايقتصر على الممثلين لأن لكل منا دوره فى الحياة . صحيح ان الناس يختارون الى حد ما الادوار التى تناسبهم والى هذا الحد يكون القناع هو الفرد ، ولكنه لايمكن ان يمثل رجلا او امراة بكليتها . والطبيعة الانسانية ليست متسقة ، ومع ذلك نحين نقوم بدور لابد ان نكون كذلك ، اى متسقين . وبالتالى فهى تزيـف نفسـها .

والذين يهملون فى تنمية القناع يغلب ان يستعدوا الآخرين وأن يجدوا صعوبة فى ترسيخ مكانتهم فى العالم . غير ان هناك خطرا دائما فى توحـد الفرد مع الدور الذى يقوم به وهو خطر لايظهر اذا كان الدور جيدا ويلائم

الشخص على نحو جيد . ولكننا مع ذلك كثيرا ما نقول عن فرد « انه يلعب دورا » وهو ليس فى الحقيقة كذلك اى أن هذا التوحد قد يجعل الفرد مغتربا عن ذاته وبعيدا عن مشاعره الحقيقة .

وهناك خطر اخر هو ان القناع اذا كان جامدا جدا فان ذلك يعنى انكارا كاملا لبقية الشخصية ولجميع الجوانب التى تنتمى الى اللاشعور الجمعى .

مواجهة الظـــل :

حين ننظر الى ما وراء المظاهر المجردة فاننا مضطرين الى مواجهة الظل . ونحن نصبح أكثر تحررا من تاثير الظل بمقدار ادراكنا لحقيقة الجانب المظلم وفى نفس الوقت ندرك اننا اكثر من مجرد الظل . ان الظل هو تسمية يونج للفكرة القديمة القائلة بأن هناك جانبا شريرا من خلق كل شخص . هذا الظل مكبوت معظم الوقت ولاشعورى ؛ ولكنه كامن فى داخلنا ومترصد ومستعد لأن يعمل فى اى وقت والشياطين والارواح الشريرة ترمز كلها للظل كنمط اولى .

ولابد ان يجد الانسان طريقة للعيش مع جانبه المظلم لان صحته العقلية والجسمية تعتمد على هذا . وقبول الظل يتطلب جهدا خلقيا كبيرا ، والتخلى فى حالات كثيرة عن مثل عليا ولكن ذلك مرجعه الى ان هذه المثل العليا قد ارتفعت وبعدت جدا أو انها تادت الى وهم . ان محاولة العيش بطريقة انبل وافضل مما نحن عليه معناه نفاق لانهاية له وخداع ، هذا فضلا عن ان هذه المحاولة تلقى بعبء ثقيل علينا بحيث نتعرض للانهيار وتسوء حالنا على نحو لم يكن هناك حاجة تدعو اليه .

وهناك خطر فى كبت الظل فى اللاشعور لانه فيما يبدو يكتسب قوة ويتعاظم حيوية بحيث حين تتاح اللحظة المناسبة لظهوره يكون اكثر خطرا ويجتاح بقية الشخصية وبغير هذا يمكن ان يحقق توازنا صحيا ويصدق هذا على وجه الخصوص على الجوانب الجمعية من الظل التى تظهر حين يخرج حشد برىء من الناس فيدمر ويأتى افعالا متوحشة .

مواجهة الانيما والانيموس :

ولابد ان يواجه الفرد الانيما او الانيموس وهذا النمط الأولى ينبغى ان يعامل كما يعامل الشخص الفعلى الذى يتفاهم معه الفرد وان يتعلم منه . ويصبح الفرد واعيا بأن صور الانيما او الانيموس لها استقلالية ذاتية ملحوظة، وانها يغلب ان تؤثر بل وتسيطر على من يتجاهلها ، او على من يتقبل صورها تقبلا أعمى أو اسقاطاتها كما لو انها من انتاجه الشخصى .

تنمية الـذات :

ان هدف عملية التفريد هو تنمية الذات . ان الذات هى مرمى حياتنا ، لانها اكمل تعبير عن الفرد . وتحل الذات محل الانا باعتبارها مركز النفس . والوعى بالذات يحقق الوحدة للنفس ويساعد على تكامل مادة الشعور ومادة اللاشعور .

ومن الضرورى أن نذكر انه على الرغم من انه من الممكن ان نصف التفرد على أسس المراحل ؛ الا ان عملية التفرد تعتبر اكثر تعقيدا على نحو ملحوظ من مجرد التقدم البسيط الذى نلخصه هنا . وجميع الخطوات التى نثبتها متداخلة ، ويعود المرا دوما الى المشكلات والمسائل القديمة ، والامل ان تكون العودة من منظور مختلف . ومسار التفرد مسار لولبى يواجه الفرد فيه باستمرار نفس الاسئلة ، وفى كل مرة فى صور اكثر دقة .

مراحل النمو :

لم يفصل يونج فى معالجة مراحل الحياة كما فعل فرويد ونوجز فيما يلى عرض لافكاره الاساسية فى هذا المجال : —

الطفولة :

لاحظ يونج ان الاطفال كثيرا ما يواجهون صعوبات انفعلية وهو يرى ان هذه الصعوبات تعكس تاثيرات البيت . وان استمرارية الشعور التى تستند الى الاحساس بالهوية الشخصية لاتتوافر لدى الاطفال فى الفترة

السابقة على التحاقهم بالمدرسة . ويعيش الاطفال عادة فى هذه الفترة فى جو نفسى منعزل يوفره الوالدان ، وحياتهم النفسية فى هذه الفترة محكومة بغرائزهم . وباستثناء ما تحققه هذه الغرائز من انتظام سلوكهم فى المأكل والنوم ... الخ تصبح حياة الاطفال فوضى مالم يبرمجها الوالدان .

ولقد بين يونج فى نفس الوقت ان من الخطأ ان نفسر غرابة سلوك الطفل أو اتكاليته أو عصيانه او صعوبة توجيهه على انه مضطرب اضطرابا شديدا أو انه يفعل بارادته ، ففى مثل هذه الحالات ينبغى علينا ان نفحص الوالدين وان ندرس بيئتهم . وسوف نكتشف دون استثناء تقريبا أن الاسباب الحقيقة لصعوبات الطفل ترجع الى الوالدين .

الشباب والرشد المبكر :

يحدث ميلاد نفسى عند المراهقة يصاحب التغيرات الفسيولوجية واشتداد الرغبة الجنسية . وهذه المرحلة تتميز بالتمايز والانفصال النفسى عن الوالدين . وفجأة تواجه الشخصية مواقف تتطلب اتخاذ قرارات كثيرة ، وان عليها ان تقوم بكثير من التوافقات مع الحياة الاجتماعية . واذا كان الشخص معدا اعدادا سليما فان الانتقال من انشطة الطفولة الى الانشطة المهنية ومتطلبات العمل يكون سلسا على نحو معقول . واذا غرق الشخص فى أوهام الطفولة أو كانت له توقعات غير واقعية فانه قد يواجه مشكلات كثيرة . فالشاب الذى خطط ليصبح طيارا قد يكتشف ان حدة بصره غير ملائمة لمطالب العمل ومقتضياته . واذا لم يستطع ان يغير اهدافه فقد يتعرض للضيق ويكون نهبا للقلق .

ولاتكون المشكلات التى يواجهها الفرد فى هذه المرحلة كلها خارجية كاختيار المهنة ، ذلك انه قد تنشأ صعوبات داخلية كالغريزة الجنسية أو الحساسية الزائدة أو عدم الشعور بالامن . وفى مكان ما عميق فى داخلنا (والنمط الأولى للطفل مسئول عن ذلك) نريد ان نبقى اطفالا ، وان نستمر فى هذه المرحلة من مراحل النمو حتى لايكون لدينا مشكلات حقيقة اومسئوليات نضطلع بها . واعمال المرحلة الثانية هذه علاقتها بقيم الانبساط اكبر من

علاقتنا بقيم الانطواء . وينبغى ان يكون الناس قادرين فى هذه المرحلة على اتخاذ القرارات والتغلب على العوائق وتحقيق الاشباعات لانفسهم وللآخرين ، وينبغى ان يسعوا وراء ما هو ممكن حتى ولو كان معنى ذلك انكار جميع الامكانيات النفسية الاخرى .

متوسط العمر :

مابين سن الخامسة والثلاثين والاربعين يشعر الناس بوضوح بالحاجة للقيم الروحية ، وهى حاجة تشكل دائما جزءا من النفس ، غير انها تنحى جانبا فى وقت مبكر من الحياة بسبب ما يكون للاهتمامات المادية من اولوية واسبقية . وما ان يبلغ الناس اواسط العمر الا ويكونوا قد توافقوا مع البيئة بنجاح بدرجات متفاوتة ، اى انهم قد استقروا فى مهنهم ، وتزوجوا ، واصبح لديهم اطفال ، واصبحوا مشاركين فى خدمة البيئة . وقد يجدون انفسهم فجأة فى حيرة يتساءلون عن معنى حياتهم وهدفها ، وهم لم يعودوا فى حاجة الى استثمار طاقاتهم فى الجهود التى حققت لهم النجاح ، وقد تخلق خسارة القيم المترتبة على ذلك احساسا بالفراغ فى شخصياتهم . انهم فى حاجة الى قيم جديدة توسع آفاقهم بحيث تتعدى الاعتبارات المادية الصرفة ، واواسط العمر وقت مناسب لتحقيق الذات . ويحتاج الشخص ان يفهم معنى حياته كفرد من خلال التأمل وان يختبر جوانبه .

ولقد كان يونج من اوائل المنظرين فى مجال الشخصية الذين حاولوا ان يفهموا سيكولوجية متوسطى العمر . ومن المحتمل ان خبرة يونج نفسه فى استقصاء ذاته وتحديد مسار جديد لحياته وقيم واهداف جديدة — التى حدثت وكان عمره ٤٠ عاما — كان لها تأثير كبير فى اهتمامه بهذه الفترة من الحياة .

وهناك عامل اخر لاثارة اهتمام يونج بهذه المرحلة وهو ان كثيرا من مرضاه كانوا فى هذه المرحلة العمرية . فقد كانوا فى كثير من الحالات اناسا حققوا قدرا كبيرا من النجاح فى المجال المهنى والاجتماعى ، ولكن الحياة بالنسبة لهم كانت قد فقدت معناها وطعمها .

سن الشيخوخة :

لقد كان اهتمام يونج بهذه المرحلة ضيئلا . لقد اعتقد ان الطفولة والشيخوخة متشابهان ، ففى هاتين المرحلتين يقوم الشخص بوظيفته اللاشعورية الى حد كبير . فالطفل لم يكن قد بلغ بعد مرحلة تكوين انا شعورية متسقة عاقلة ، والمسن يغرق تدريجيا فى اللاشعور ويختفى فيه فى النهاية .

ولقد شعر يونج بأن شيوع الاعتقاد فى حياة ما بعد الموت فى الاديان على اختلافها ، ينبغى ان يعنى ان هناك سببا معقولا لوجود هذه الحياة . ولقد اقترح كأحد الممكنات ان تستمر الحياة النفسية بعد الموت الفيزيقى بحيث تحقق النفس ذاتها ، اى ان تحقيق الذات تحقيقا تاما فى الحياة غير ممكن لان الكمال ابعد من ان يبلغه أى فرد .

البنـــاء :

الجســـم :

لم يعالج يونج فى كتاباته الكثيرة على نحو واضح دور الجسم ووجه جهوده الى تحليل النفس . ولقد ذهب الى ان العمليات الفيزيقية وثيقة الصلة بناء بمقدار تمثيلها فى النفس ، وذلك اننا لانستطيع معرفة الجسم الفيزيقى والعالم الخارجى الا من خلال العمليات السيكولوجية وحدها . يقول يونج « انا مهتم اساسا بالنفس ذاتها ، ولذلك فاننى اترك الجسم والروح ... والجسم والروح بالنسبة لى ليس الا مجرد جوانب من حقيقة النفس . والخبرة النفسية هى الخبرة المباشرة الوحيدة ، فالجسم ميتافيزيقى كالروح (Jung, 1973, p. 200)

العلاقات الاجتماعية :

التفاعل الاجتماعى هام فى تكوين وارتقاء البنيات الاساسية للشخصية : القناع والظل والانيما أو الانيموس . ومحتوى الخبرات الاجتماعية يساعد فى تحديد الصور والرموز النوعية أو المحددة المرتبطة بكل بنية ، وفى نفس

الوقت ؛ فان هذه البنى الاساسية الاكتيبية archetypal تشكل العلاقات الاجتماعية وتوجهها .

ويؤكد يونج على ان التفرد فى الاساس محاولة وسعى شخصى ، وهو على اية حال عملية تنمو من خلال العلاقات مع الاخرين « لانه يلاستطيع اى فرد أن يعى فرديته مالم يرتبط او يتصل بزملائه من بنى الانسان ارتباطا او اتصالا وثيقا ومسئولا ، انه لاينسحب الى الصحراء من الانانية حين يحاول ان يجد نفسه ؛ انه يستطيع فحسب ان يكتشف نفسه حين يرتبط على نحو عميق وغير مشروط ببعض الافراد ، وان يرتبط بصفة عامة بأفراد كثيرين جدا بحيث تتاح له فرصة المقارنة معهم وبحيث يقدر أن يميز ذاته عنهم » .

(Jung in Serrano, 1966, pp. 83 - 84)

الارادة :

يعرف يونج الارادة باعتبارها الطاقة المتوافرة فى الشعور أو الآنا . ويرتبط نمو الارادة بتعلم القيم الثقافية والمعايير الاخلاقية وما شابه ذلك . ان لدى الارادة القوة والتأثير فى التفكير والفعل الشعورى ، ولاتستطيع التأثير المباشر فى العمليات الفيزيقية والعمليات اللاشعورية الاخرى ؛ هذا على الرغم من ان لهاتأثيرا قويا غير مباشرعليها عن طريق العمليات الشعورية.

ولقد شعر يونج ان الارادة الفردية ظاهرة حديثة نسبيا فى النمو الانسانى والارتقاء ؛ وذلك ان الطقوس فى الثقافات البدائية تدفع أعضاء القبائل الى حالة تحل محل ارادة القوة فى مجتمعنا المعاصر ، اى أن الارادة لم تكن عمليا موجودة ؛ واحتاجت القبائل البدائية الى طقوس احتفالية للتوصل الى مايعادل اتخاذ القرار . وقد اكتسبنا قدرا معينا من ارادة القوة ببطء خلال الاجيال ؛ ونستطيع ان نفصل قدرا كبيرا من الطاقة من طاقة الطبيعة ؛ ومن اللاشعور الاسلى ؛ ومن التدفق الاصلى للاحداث او الوقائع، مقدار من الطاقة نستطيع ان نسيطر عليه ونضبطه .

(Jung in McGurire & Hull, 1977, p. 103)

الانفعـــالات :

لقد أكد يونج على الدور الرئيسى الذى يمكن ان تؤديه دراسة الانفعالات فى علم النفس . « ان علم النفس هو العلم الوحيد الذى كان عليه ان يدخل فى اعتباره عامل القيمة (أى المشاعر) لانها الصلة بين الوقائع السيكولوجية والحياة . وكثيرا مايتهم علم النفس باللاعلمية بسبب هذه النقطة ولكن نقاده يخفقون فى فهم الضرورة العملية والعلمية التى توجب الاهتمام بالمشاعر اهتماما كافيا » . (Jung , 1964, P. 99)

ان المادة النفسية المتصلة على نحو مباشر بالانماط الاولية تميل الى اثارة انفعالات قوية ، وكثيرا ما تثير الرهبة . وحين يناقش يونج الرموز فانه لايكتب عن كلمات ميتة لاحياة فيها أو صور فارغة ، وانما يكتب عن حقائق ووقائع حية قوية يعيش بها الرجال والنساء حياتهم والتى مات من أجلها كثيرون . ووفقا ليونج فان الانفعال يصاحب جميع التغيرات النفسية .. ان الانفعالات هى القوة وراء عملية التفرد « الانفعال هو المصدر الرئيسى للشـــعور » (Jung, 1954 b, p. 96)

العقـــل :

ان العقل عند يونج يشير الى العمليات الشعورية الموجهة . ويونج يميز بين العقل والحدس لان الاخير يعتمد بقوة على المادة اللاشعورية وللعقل دور محدود ولو انه هام فى القيام بلوظائف السيكولوجية . ويؤكد يونج على ان الفهم العقلــى الصرف لايمكن ان يكون تاما » وعلم النفس الذى يشبع العقل وحده لايمكن ان يكون عمليا على الاطلاق ، لان النفس لايمكن ان يدركها ويلم بها العقل وحده » (Jung 1917, p. 117)

العـــلاج النفسى :

يؤكد يونج على ان العلاج مجهود مشترك بين المحلل ومن يقوم بتحليله اللذان يعملان باعتبارهما متساويين متكافئـــين وهمـــا وحدة دينامية ، ولذا فان المحلل ينبغى ايضا ان يكون منفتحا للتغيير نتيجة للتفاعل . ولقد شعر

يونج ان العلاج ليس فى اساس الانفعالا بين لاشعور المحلل ولاشعور المريض الذى لايستطيع ان يتقدم فى العلاج الا بمقدار تقدم المعالج .

« أن من الاشياء التى تثير الاعجاب عن العلاج النفسى ، انك لاتستطيع أن تتعلم أى وصفة وتحفظها عن ظهر قلب ثم تطبقها على نحو يتفاوت من حيث الملاءمة ، ولكنك تستطيع ان تشفى من نقطة رئيسية واحدة وهى تتألف من فهم المريض ككل سيكولوجى وان تتعامل معه كانسان ، تاركا جانبا كل النظريات ومصغيا بانتباه الى كل ما يقول » (Jung, 1973, p. 456)

ولقد حاول يونج ان يتجنب الاعتماد على النظرية وعلى أساليب معينة فى عملية العلاج لانه اعتقد ان هذا يجعل المحلل يعمل بطريقة آلية وتبعده عن فهم المريض . ولقد كان الغرض من العلاج ان يحاول تناول الفرد ككل من خلال علاقة حقيقية دون محاولة تجميع اجزاء نفس الفرد وربطها كما لو ان الفرد آلة من الالات . ولايستطيع المحلل ان يمنع نفسه احيانا من التفكير بأن هذا المسار او ذاك هو افضل مسار للمريض ، ولكن المعالج ليس له الحق فى فرض آرائه وأفكاره على المريض . ان عمله هو ان يساعد المريض ليصل الى الحالة التى يستطيع ان يكتشف لنفسه الطريق للعيش والحماس الضرورى لوضع هذا موضع الممارسة .

ان علم النفس التحليلى ليس طريقة للشفاء فحسب بل هو أيضا طريقة لتنمية الشخصية خلال عملية التفرد . ولما كان التفرد ليس هدف كل من يسعى للعون السيكولوجى لان مقاصد هؤلاء فى كثير من الحالات محدودة ، فان يونج يغير من طريقته فى العلاج تبعا لعمر المريض او حالة نموه ومزاجه ولايهمل الرغبة الجنسية او ارادة القوة اذا كان اى منهما يعمل عمله فى العلاج ، ولكنه يرى ان وجهة نظر فرويد وادلر اكثر ملاءمة للشباب .

وكان يونج يلقى عملائه مرة فى الاسبوع او مرتين . ولقد حاول ان ينمى لدى عملائه احساسا بالاستقلال الذاتى ، وكان فى كثير من الحالات يكلفهم بواجبات يقومون بها كتحليل احلامهم . وكان يصر أيضا على ان يقوم عملاؤه بعطلة ويبتعدون عن التحليل لكى يتجنب اتكالهم عليه وعلى جلسات التحليل .

ولقد حدد يونج مرحلتين اساسيتين للعملية العلاجية ، ولكل منها جزءان المرحلة الاولى هى المرحلة التحليلية analytic Stage وهى تتألف اولا من الاعتراف confession حيث يبدأ الفرد فى استمادة مادة لاشعورية . وتميل روابط الاتكال على المعالج ان تنمو فى هذه المرحلة . ويلى ذلك مرحلة التوضيح أى شرح مادة الاعتراف حيث يزداد فهم العمليات النفسية وبتطور وتزداد الالفة بها . والاعتراف الكامل اى الذى يتعدى الادراك العقلى للحقائق الى تأييدها بالقلب والتنفيس الفعلى عن الانفعالات المقموعة يمكن ان يكون له اثر كبير فى البرء وخاصة مع غير المعتدين من الناس . غير ان الاعتراف لسوء الحظ ليس مسألة بسيطة ، لان شخصية المعترف تلعب دورا هاما فى تحقيق الاثر الصحيح . ويحدث كثيرا ايضا انه على الرغم من شفاء المريض كما يتضح للاخرين ، اى اختفاء اعراضه ، او فهمه لاصل هذه الاعراض ومعناها فانه يستمر فى العلاج حتى ولو بدا انه لاضرورة لهذا الاستمرار . اى انه لايستطيع العيش والعمل دون الاعتماد على الشخص الذى شفاه .

والتوضيح أو الشرح كلمة مضللة تصف طريقة وعملية ، لان الانفعالات متضمنة ولايمكن تفسير عملية الطرح او التحويل transference شرحا يؤدى الى التخلص منها لانه لابد من ان يعيش المريض والمحلل هذه العملية معا . ويرى يونج انه على الرغم من القيود التى تفرضها ظروف غرفة الاستشارة وقيود ساعات العلاج المحددة الا انه ينبغى على المحلل ان يقابل المريض باعتباره انسانا ، وان تتوافر الصراحة من الجانبين على قدم المساواة ، وان يشتركا فى المعاناة . وتنبثق من هذه العلاقة الثنائية نتائج علاجية تؤثر فيهما مجرد الشرح .

والمرحلة الثانية من مرحلتى العلاج هى المرحلة التركيبية The Synthetic واول جزء فيها هو التربية حيث اكد يونج الحاجة للتحرك من الاستبصار السيكولوجى الى خبرات فعلية جديدة تؤدى الى نمو الفرد ، وتكوين عادات جديدة . والجزء الاخير هو التحول transformation وتتكامل علاقة المحلل بالمحلل ويقل الاتكال عندما تتحول العلاقة وتركز الخبرات عاليا فى عملية التفرد ، على الرغم من أن مادة الانماط الاولية قد لاتواجه بالضرورة وهذه مرحلة تربية الذات

Self-education حيث يتصدى الفرد للمسئولية وهى مسئوليته عن نموه وارتقائه وهى مسئولية تتزايد دوما .

والمراحل المبكرة من التحليل تعالج الى حد كبير مشكلات شخصية ، وهى بالتالى تتعامل مع اللاشعور الشخصى ؛ ولكن فى المرحلة الاخيرة وحيث يحتاج الفرد الى ان يتوصل الى موضعه ومكانته فى حياة الاجيال يتعامل مع اللاشعور الجمعى ؛ ونظرية يونج عن اللاشعور الجمعى واللاشعور الشخصى هى التى تميز سيكولوجيته عن سيكولوجيات الآخرين .

البحوث المميزة وطرق البحث :

لقد استقى يونج البيانات التى تقوم عليها نظريته من مصادر مختلفة وكثيرة استقاها من بحوثه الكلينيكية والتجريبية ومن احلام ورؤى الاسوياء والمرضى من الناس ، كما استقاها من الاساطير والقصص الخرافية والحياة البدائية والانتروبولوجيا والتاريخ والادب والفن والدين . ولقد وجد يونج مادة رمزية عن الانماط الاولية فى هذه المصادر المتفاوتة فى النوعية ومن اجزاء مختلفة من العالم ولقد توصل الى علاقات مقنعة بين هذه المواد ابدلل على اثرها ذا المغزى فى حياة الناس .

ويذهب يونج الى ان كشوفه حقيقة وليست تأملية ؛ وان مفاهيمه ليست الا اسماء اطلقها على حقائق . ولكن كثيرا من الدارسين يجدون ان حقائق يونج تأملية بدرجة عالية . ويجدد كثير من علماء النفس ان طرقة المقارنة فى البحوث غير مقبولة وذلك لان هذه الطرق ينقصها ضبط عوامل الصدفة وما يترتب عليها من تحيز ؛ وانه لا يستخدم اساليب نسقية كمية . وهذه الضوابط والاساليب اساسيه للباحثين اذا ارادوا ان يقدروا موثوقية دراساتهم ويتحققوا من صدقها ويعيدوا هذه الدراسات للتأكد من ثبات نتائجها .

الدراسات التجريبية للعقد :

وضع يونج قائمة من الكلمات واستخدمها كاختبار لتداعى الكلمات . وتقتضى طريقة تطبيقها ان يقرا كل كلمة على المفحوص ويطلب منه الاستجابة

يحاول كلمة تخطر على باله . ويقيس الزمن الذى يستغرقه المفحوص فى الاستجابة لكل كلمة بواسطة ساعة ايقاف .

ولما كانت الاستثارة الانفعالية تتضمن عدة وظائف فسيولوجية ، فقد بدأ يونج فى قياس عدد من هذه الوظائف اثناء استجابة المفحوص لقائمة كلماته . فالنيموجراف المرتبط بشريط يلف حول الصدر يقيس شدة تنفس المفحوص ومدته كما يقيس السيكوجلفانومتر الذى يستخدم الكترود يوصل بالجلد ، التغيرات التى تطرأ على الجلد من حيث مقاومته للتيار الكهربى ، وهى تغيرات ترجع أساسا الى التفاوت فى مقدار ما يفرزه المفحوص من عرق .

ويقترح يونج انه اذا اثارت كلمة معينة تأخرا فى زمن الاستجابة اللفظية وتغيرا ذا مغزى فى التنفس أو فى الاستجابة السيكوجلفانية فان ذلك دليل على العثور على عقدة . افترض على سبيل المثال أن كلمة غابة أحدثت لدى مراة صعوبة فى الاستجابة، وسرعة فى معدل التنفس واستجابة سيكوجلفانية واضحة ، عندئذ قد يكون من المعقول أن نفترض وجود عقدة لديها تتصل بهذه الكلمة . وبعد استجابات مماثلة لعدد من الكلمات مثل مدرسة ، جاكته ولحية وبعد مزيد من الاستقصاء قد تكتشف ان هذه الشابة قد تعرضت لاذى من رجل ملتح يرتدى « جاكتة » غريبة بين مجموعة من الاشجار على مقربة من المدرسة التى تتعلم فيها . فاذا لم تكن قد ذكرت هذه الواقعة من قبل ، فقد نستنتج ان صدمة الواقعة استدعت مادة تتصل بنمط اولى له علاقة بهذا التهجم . ان الفزع الذى اثارته هذه الهجمة كانت من الشدة بحيث تعرضت الواقعة كلها للكبت فى اللاشعور .

وقد استخدم يونج اختبار تداعى الكلمات خلال عمله مع المرضى باعتباره طريقة سريعة للتوصل الى امارات عن عقد هامة . ويستخدم علماء النفس المعاصرون احيانا اختبارات مشابهة تساعدهم فى مواقف التشخيص الكلينيكى وقد عدلت هذه الطريقة لتستخدم للكشف عن الكذب والنشاط الاجرامى كما تستخدم ايضا فى دراسة الميول والاتجاهات .

تحليل الاحلام والمواد اللاشعورية الاخرى :

ان بحث يونج عن الشواهد التى تدعم مفهومة عن النمط الاولى أدى الى استقصاء كثير من الموضوعات المعقدة والغامضة ، بما فى ذلك علم الكيمياء القديم . ولقد وجد مرارا وتكرار فى هذه المصادر رموزا وتعبيرات مشابهة لتلك التى ظهرت فى احلام مرضاه وتخيلاتهم . وتراكم هذه الشواهد أقنع يونج بوجود أفكار عامة أو اشكال للتفكير توافرت لدى الناس باعتبارها نوعا من الافكار الفطرية أو باعتبارها خصائص للارث العنصرى .

لقد كانت الاحلام عند يونج شأنها عند فرويد أوضح تعبير عن العقل اللاشعورى . فالاحلام كما يرى يونج « نتاج تلقائى غير متحيز للنفس اللاشعورية وهى تظهر لنا الحقيقة الطبيعية غير مصقولة» (1943 b. p. 149) ولكن الاحلام فيما يرى يونج لاتتساوى فى فائدتها . فهناك احلام صغيرة تهتم بمسائل غير هامة نسبيا . اما الاحلام الكبيرة فهى التى تثير اهتمام يونج ،وهى تلك تحدث حين ينلق شىء اللاشعور اقلاقا خطيرا ، كثيرا ما يحدث هذا مصاحبا لاخفاق الذات فى معالجة العالم الخارجى على نحو مرضى .

والخطوة الاولى فى فهم الحلم ان نحدد سياقه . وهذا معناه الكشف عن شبكة علاقاته مع الحالم وبيانه ، واكتشاف مغزى الصور المختلفة التى تعرضها الحلم . وعلى سبيل المثال قد تظهر الام فى حلم فردين ولدى كل منهما تصور عن مضامين مفهوم الام ، ولكن صورة الام قد تكون مختلفة عند كل منهما ؛ ومغزى الصورة قد يتفاوت من وقت لاخر فقد ترتبط فكرة الام عند احدهما بالحب والرعاية والحماية ، وعند الآخر بالقوة والغضب والاحباط ؛ وهكذا يختلف معنى الام فى الحلم . ولابد من معالجة كل رمز او صورة حتى يتضح معناه للحالم وحتى يترسخ هذا المعنى ، ومالم يتحقق ذلك بعناية ودقة فان المرء لايكون فى وضع يمكنه من فهم معناه . ثم ينتقل بعد ذلك الى الرمز الذى يليه وهكذا . وواضح انه ليس لدى يونج طريقة ثابتة لتفسير الحلم كتلك التى نجدها عادة فى الكتب الشائعة عن الاحلام (حيث ان من يحلم بقطة سوداء سوف يحالفه الحظ) لان كل حلم تعبير مباشر عن لاشعور الحالم ولايمكن فهمه الا فى هذا الضوء .

وسلسلة الاحلام توفر أساسا اكثر ارضاء للتفسير عما يوفره الحلم المفرد ، لان الثيمة التى يعبر عنها اللاشعور تزداد وضوحا فى احد الاحلام وتبرز الصور الهامة نتيجة لتكرارها ، وتصحح اخطاء التفسير فى احد الاحلام بما يحتوى عليه حلم آخر .

ويمكن تفسير الاحلام على المستوى الموضوعى أو على المستوى الذاتى ففى الحالة الاولى يرتبط الحلم بما يجرى فى البيئة ، ويؤخذ الاشخاص الذين ظهروا فيه على انهم حقيقة ، وتحلل علاقاتهم بالحالم وتأثيرهم فيه . وفى الحالة الثانية يعتبر الاشخاص الذين وردوا فى الحلم ممثلين لجوانب من شخصية الحالم . والظروف هى التى تؤدى الى تأكيد أحد هذين التفسيرين وتغليبه على الآخر . فالمرأة التى تحلم بأبيها قد تكون فى حاجة الى مواجهة مشكلة ترتبط به ، وبعض جوانب علاقتها به وقد تكون فى حاجة الى مراعاة مبدأ الذكورة عندها أو الانيموس . وبصفة عامة فان الجانب الذاتى من الحلم يصبح اكثر أهمية فى المراحل المتأخرة من التحليل حين تتضح المشكلات الشخصية وتفهم .

ولبعض الاحلام مغزى اكبر من مغزاها الشخصى كحلم فرعون مصر الذى قام بتفسيره سيدنا يوسف . ومثل هذه الاحلام تكون عادة حية وتستخدم رموزا غير مفهومة ومدهشة ويصعب تتبع علاقاتها بالحالم . وهذه الاحلام يصنفها يونج فى فئة الاحلام الجماعية ولكى نفهمها ينبغى استخدام مواد تاريخية وميثولوجية لنتبين معنى الرموز عند الآخرين وفى ازمنة اخرى . وقد يبدو غريبا لاول وهلة ان نفكر فى هذه الاحلام باعتبارها متصلة بنا وهامة لنا ، لاننا عزلنا انفسنا عن الماضى لدرجة اصبح من الصعب علينا ان ندرك ان خبرات الانسان البعيد مايزال لها معنى عندنا . ومع ذلك فان الامر ليس كذلك ، فنحن مازلنا نفكر لاشعوريا كما كان يفكر اجدادنا البعيدون عنا فى الزمن ، وفهمنا لهذا يعمق خبرتنا ويوسع افقنا لفهم امكانيات جديدة . وينتج لنا الاستقرار والحيوية اللذين ينبثقان عن اكتشاف جذورنا والاتصال بهــا .

ان الحلم عند فرويد يمثل رغبة مكبوتة ، ولكنه عند يونج جهد لتنمية الشخصية . فالاحلام تخدم عملية التفرد لانها تعوض ما هو مهمل فى النفس اى تلك الجوانب التى لم تتمايز وذلك بتحديد خطط انجازات المستقبل وحل المشكلات . وللمستوى الشعورى والمستوى اللاشعورى اهمية متساوية عند الشخص السوى. وحين يكون اتجاه الشعور متفاوتا من حيث التصور والكفاية يكون الحلم تعويضيا ، ولكن حين يكون اتجاه الشخص الشعورى غير متوافق موضوعيا وذاتيا ، يقوم الحلم بوظيفة التوجيه التى تساعد العقل الشعورى على ان يضطلع بتوافقاته على نحو اكثر ارضاء .

المكانة الراهنة والتقويم :

لقد تعرض يونج للنقد بكثرة بسبب قصور فى اتساق نسقه الفكرى . فهو لم يعرض افكاره بطريقة منطقية نسقية وكثيرا ما يستخدم تعريفات متفاوتة لنفس المصطلحات بتفاوت الأوقات . ولقد كان على وعى بهذه الصعوبة فى كتاباته ولكنه لم ير فى ذلك عيبا . واعتقد يونج أنه يندر أن تتبع الحياة نمطا منطقيا متسقا متماسكا ؛ كذلك النمط الذى اصبح معيارا للكتابة العلمية والاكاديمية وان اسلوبه قد يكون اقرب الى الواقع السيكولوجى بخصوبته وتعقيده وغناه .

ولقد توصل يونج عن قصد الى وضع نسق مفتوح يتيح للمعلومات الجديدة ان تجد لها مكانا . وذلك دون أن تتعرض للتشويه . ولم يعتقد قط انه يعرف جميع الاجابات ، او ان المعارف الجديدة لن تخرج عن نظرياته وانما ستدعمها . ولقد ترتب على ذلك ان جاءت نظريته قاصرة عن كونها بناء نظريا محكما يصف جميع المعارف ويردها الى عدد محدود من التكوينات النظرية .

ان المسائل التى يدركها قارىء اعمال يونج فى وضوح ان استاذيته مذهلة فلكى يدرس نمطا اوليا واحدا يبدو وكأنه لم يترك شاردة ولا واردة الا تتبعها وقرأ عنها فى المكتبات والمتاحف . وسوف يبدو للقارىء أنه قرأ التاريخ القديم كله تاريخ اوروبا وافريقيا والشرق الأقصى ، وانه الم بالفلسفة وبالطب . وهو يقدم عادة قدرا هائلا من الشواهد والأدلة ليدعم

ية النمط الاولى ويصعب على القارىء ان يظل متشككا امام الأمثلة التى يسوقها . ولعل هذا هو الذى أدى الى صعوبة فهم ما يقدمه لنا يونج وقراءته ليست صعبة على تلميذ علم النفس المبتدىء فحسب بل قد تتعدى هذه الصعوبة الى المختص المتمرس . وقد يصدق القول بان نظرية يونج فى الشخصية من أكثر النظريات التى يختلف فى فهمها الدارسون ولعل القارىء يجد هذا التضارب أو بعضه حين يرجع الى بعض الكتب التى تناولت نظرية يونج فى الشخصية .

ومع ذلك يرى جلوفر المحلل النفسى الانجليزى أن الانماط الاولية مفاهيم ميتافيزيقية يصعب اثبات صحتها ، وانه يمكن تفسير الظاهرات التى تنطبق عليها على نحو تام على أساس خبراتنا وانه لا حاجة الى افتراض ارث عنصرى لتفسيرها . (هو ولندزى ١٩٧٨ ص ١٤٦) .

ومن مزايا فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى انه مفهوم مفيد فى دراسة الفن والأدب والدراما والدين والانتروبولوجيا والفلكلور واللغويات وغير ذلك من مجالات العلم والثقافة . ولقد تقبل كثير من العلماء فى هذه المجالات العلمية والأدبية والفنية فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى وطبقوها على تخصصاتهم . وعلى سبيل المثال فان هربرت ريد الناقد الفنى والمتخصص فى علم الجمال يفيد بشكل واضح فى تفسيره للأعمال الفنية من مفاهيم يونج ومذهبه . غير أن كلمة لا شعور جمعى التى تخيرها يونج قد جرت عليه نقدا عنيفا لانها كلمة غير علمية وغامضة . والمفكرون الذين لا يعترضون على التمثيلات الجمعية يرفضون فكرة اللاشعور الجمعى . والواقع ان فرويد سلم بوجود عقل ثان حين قدم لنا فكرة اللاشعور ، ويبدو ان يونج سلم بعقل ثان مختلف عن العقل الفردى الشعورى وهو عقل خارج الفرد . ولقد فسر البعض فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى على انها نوع من العقل الكونى او الروح الفوقية ، او وحدة نفسية توجد على نحو مستقل عن عقول الافراد.وهذه الفكرة موجودة فى الفلسفات الشرقية ولكنها ليست مقبولة من العلماء الغربيين . ولعل انشغال يونج بالسحر والدين ، والتنجيم تبرز وجاهة هذا الفهم،وعلى اية حال فان فكرة اللاشعور الجمعى باعتباره عقلا كونيا ليست اساسية لنظرية يونج . ولا اعتقد انه قصد الى هذا المعنى ،

ولو انه بطبيعة الحال وبالتأكيد عرض نفسه لهذا النقد ولهذا التفسير نتيجة لطبيعة كتاباته .

ان فكرة يونج عن اللاشعور الجمعى والانماط الاولية فكرة خلاقــة ويكفى أن تتصفح أعمال يونج لتجد فيها توضيحات وصورا تثير الاهتمام ، ولو وزعت بعض هذه الصور والرسوم على مجموعة من طلاب علم النفس لتبين لك مدى ما تثير فيهم هذه الصور من حب استطلاع وما يترتب على ذلك من تساؤلات .

ونظرية يونج عن اللاشعور الجمعى مثلها فى ذلك مثل نظرية فرويد تفسر الظاهرات النفسية بعلة واحدة . ففرويد يرى أن السلوك يتحـــدد بالغرائز ويونج يرى أن السلوك كله يرجع الى اللاشعور الجمعى . والفرق بينهما ان اللاشعور الفردى عند شخص يشتمل على غريزتين هما الجنس والعدوان أما اللاشعور الجمعى عند يونج فيشتمل على انماط أولية كثيرة وهكذا نجد أن يونج يجمع بين ميزتين : ميزة النظرية الأحادية العلية ، وميـــزة التعددية لانه يعزو كثيرا من انواع الظاهرات النفسية الى سبب واحد هو اللاشعور الجمعى وبالتالى فانه يتجنب بعض عيـوب النظريات الأحادية العلية لانه يبين ان العلة الواحدة تتألف من كثـير من العناصر المختلفة وهى الانماط الاولية . ونظرية يونج شأنها شأن نظـرية فرويد تفسر كل شىء يفعله الشخص او يفكر فيه وذلك باستخدام فكرة اساسية واحدة وهى عند يونج اللاشعور الجمعى .

والأفكار الفطرية فكرة موجودة منذ بداية الفلسفة . ويرى التجريبيون من الفلاسفة ان الطفل يولد وعقله كالصفحة البيضاء ، ويرى السلوكيون من علماء النفس هذا الرأى : أى انهم يرون ان كل ما يفعله الشخص او يفكر فيه نتيجة للتعلم ، وان الافـكار كلها تشتق من الخبرة . ولقــد اجاب المفكرون عن السؤال الذى يتصل بكيفية بلوغ هذه الأفكار الفطرية العقل اجابات مختلفة . وثمة سؤال آخر أدى الى الخلافة بين دعاة الأفكار الفطرية وهو اى الافكار يكون فطريا وايها يكون مكتسبا ؟ وهذا الخلاف يرجع الى حد كبير الى ان المفكرين طبقوا فكرة الأفكار الفطرية على مشكلات مختلفة .

فعلماء نفس الجشطلت وجدوا أن الحركة الظاهرة فكرة فطرية . وذهب بياجيه الى أن التتابع المنظم لأشكال التفكير خلال مراحل النمو فطرى . ولقد وجد يونج حين درس الاحلام والرموز والأساطير ان الانماط الاولية باللاشعور الجمعى فطرية .

ويرى جمهرة علماء النفس رغم ذيوع شهرة مدرسة الجشطلت وبياجيه ويونج أن الأفكار الفطرية مفهوم غير علمى وهو اقرب الى التأملات الفلسفية . واذا كان اللاشعور الجمعى فكرة فطرية فان هذا يزيد من تعرضه للنقد .

ولقد تناول يونج بالدراسة الدين والكيمياء القديمة والروحانيات وما شابه ذلك ، ولذلك فقد اعتبره النقاد اقرب الى المتصوفة منه الى العلماء . غير أن من يدرس كتابات يونج بعناية ودقة يجد أن اتجاهاته دائما هى اتجاهات الباحث المستقصى ، وليست اتجاهات صاحب عقيدة . ولقد رأى أن اتساق العقائد وما يرتبط بها من غيبيات هى تعبيرات هامة عن المثل العليا الانسانية والمطامح ، ولا ينبغى تجاهلها اذا اردنا ان نفهم النفس الانسانى والسلوك الانسانى الكلى .

وكان من أهم اسهامات يونج ادراكه للأهمية السيكولوجية للرموز وتحليله التفصيلى لها وتفسيرها . ولقد اهتم بتعقد الرمزية وبالحاجة الى تحليل الرموز دون مبالغة فى التبسيط. ولقد انجذب الى الميثولوجيا والفلكلور والكيمياء القديمة لانها تمثل سياقات مختلفة تلقى الضوء على ما تتسم به الرموز من تعقيد . تلك الرموز التى اجتهد فى تحليلها .

وكان من آثار نظرية يونج فى الشخصية على علم النفس العلمى وضعه لاختبار تداعى الكلمات . ولقد استخدم فى دراساته لنتائج تطبيق هذا الاختبار المنهج الاحصائى . كما ان انماط يونج عن الانطواء والانبساط اصبحت قاسما مشتركا فى علم النفس العام . ووضعت مقاييس لقياس هذه الأنماط ، فضلا عن ان بعض أصحاب نظريات العوامل فى الشخصية قد أجروا كثيرا من دراساتهم العلمية التجريبية الاحصائية على هذين النمطين (راجع ايزنك وبحوثه وبحوث تلاميذه) .

ولكن علم النفس التحليلى عند يونج لم يلق ما يستحق من اهتمام من علماء النفس ؛ ولعل ذلك يرجع الى أن سيكولوجية يونج تستند الى خبراته الكلينيكية اكثر مما تقوم على المنهج التجريبى . هذا فضلا عن أن اهتمامه بالغيبيات والعلوم الكشفية والتنجيم والكيمياء القديمة جعله هدفا لسهام النقاد وأدى الى عدم اهتمام النفس بفكره بالقدر الكافى .

غير اننا ينبغى ان نذكر فضل يونج فى ثلاثة مسائل لها اهميتها فى نظرية الشخصية المعاصرة . اولاها اسهامه فى مفهوم تحقيق الذات الذى شاع فى كتابات جولد شتين وروجرز والبورت وماسلو وميرفى وغيرهم . والمسألة الثانية فكرته عن النمو باعتباره تقدما من حالة كلية إجمالية الى حالة متفاضلة متمايزة الى حالة متكاملة وهى فكرة نجدها عند ميرفى . والمسألة الثالثة تميز كثير من آرائه بالتفاؤل الذى نجده عند روجرز والبورت . ولقد أدى اهتمام يونج بالسلوك الهادف الى تمهيد الطريق للنظريات الغرضية المعاصرة .

واذا كان من الصعب فهم كتابات يونج ، فاننا ينبغى أن نلتفت الى ان هذه الصعوبة ترجع الى خصوبة تفكيره . وليس من شك فى أن مرونة يونج الفكرية ، وسعة افقه العقلى واهتمامه بالحقائق العميقة عن الوجود الانسانى تجعل اعماله من حيث اتساعها وشمولها وتعقدها تحتل مكانة فريدة فى علم النفس .

الفصل الرابع

الفـــرد أدلـــر

ولد الفرد ادلر فى احدى ضواحى فينا بالنمسا فى السابع من فبراير ١٨٧٠ م . لأب يشتغل بتجارة الحبوب . وقد شب ادلر فى ظروف فيزيقية مريحة ، واستطاع أن يستمتع بالحرية من العوز وبمدينة فينا وكانت مركزا من اعظم المراكز الثقافية فى اوربا ، وفضلا عن ذلك فقد كان قادرا على أن يشرك اسرته كلها فى حبه للموسيقى .

وعلى الرغم من ظروف أدلر الفيزيقية المواتية ، الا انه رأى أن طفولته كانت تعسة ؛ واعتقد انه قبيح ومرغوب عنه . وكان ترتيبه الثانى بين أخوة خمس . وكانت المنافسة بينه وبين اخيه الأكبر قاسية ، وكان الاخير رياضيا وطفلا نموذجيا . ويبدو ان أم أدلر كانت تفضل أخاه عليه ، وكان ادلـــر متوافقا مع والده على نحو طيب .

ولم تكن نظرة ادلر لنفسه بغير اساس . فقد كان طفلا معتلا ضعيف البنية ؛ اصيب فى طفولته بالكساح ومات أخ له وهو فى سن الثالثة وكان الى جانبه فى فراش واحد . وبعد عام اصيب بالتهاب رئوى واشرف على الموت ؛ بل ودهمته السيارات خلال صباه المبكر مرتين فى شوارع فينا ؛ ولقد اقتنع نتيجة هذا كله بوجوب أن يصبح طبيبا حين يكبر . وقد ذكر عن امه انها كانت تمتاز بالسذاجة وعطف الأمومة وانوثة المرأة ، شديدة العناية باطفالها الستة . مجدة ، يغلب عليها حب الفكاهة سمحة صادقة ومع انها لم تتلق من التعليم قدرا كبيرا الا انها كانت تناهز اباه فى العقلية ؛ ومع انها لم تكن فى مثل رقته ورفقه الا انها كانت فى الواقع اكثر منه ايثـارا وتضحية . وكان ادلر يفضل اباه لغيرته من اخيه الأصغر الذى كانت تكثر امه من تدليله (اسحق رمزى : ٦٣) .

وعلى عكس ما يتوقعه المرء لقد بقى ادلر طفلا ودودا اجتماعيا يحب الناس حبا صادقا (وهى سمات احتفظ بها طيلة حياته) . ولقد استمرت تعاسته فى المدرسة حيث بدا كطفل ضعيف وخاصة فى الرياضيات . ولقد

نصح احد معلميه اباه ان يخرجه من المدرسة لعله ينجح فى صناعة الأحذية ، ومع هذا فقد استطاع ادلر بعد ذلك ان يتفوق ويصبح من افضل التلاميذ فى صفه . ثم درس ادلر علم النفس والاقتصاد السياسى والاجتماع وأتم دراسة الطب فى جامعة فينا ؛ وحضر فى اثنـاء دراسته للطب جانبا من المحاضرات فى الفلسفة وعلم النفس وكان مولعا خلال دراسته بالتشريح على الأخص . ولقد تحقق طموح ادلر حين حصل على درجته الطبيـة من جامعة فيينا عام ١٨٩٥ م . ولقد تخصص فى البداية فى طب العيون ثم اشتغل بعد ذلك طبيبا عاما ؛ وفى النهاية اشتغل بالطب النفسى . وبعـد عامين من تخرجه تزوج من فتاة روسية غنية جاءت الى فينا للدراسـة . وكانت زوجته هذه امرأة متجبرة مسيطرة ،وهى حقيقة رآها البعض مسئولة عن مفهوم ادلر « الاحتجاج الذكرى » masculine protest

ولقد قرأ ادلر كتاب فرويد « تفسير الاحلام » وكتب مقالا يدافع فيه عن موقف فرويد النظرى وعلى اساس هذا الدفاع دعـاه فرويد لكى يلتحق بجماعة فينا للتحليل النفسى عام ١٩٠٢ م . ولقد قبل ادلر دعـوة فرويد وأصبح من أوائل زملائه ثم اصبح رئيسـا للجمعية عام ١٩١٠ م اى قبل ان يترك هذه الجمعية رسميا بعام واحد . ويبدو الآن ان انضمامه للجماعة كان خطأ ؛ وذلك لان التشابه بينه وبين فرويد كان قليلا . ولقد تزايد هذا الخلاف واصبح واضحا عام ١٩١١ م وكان ما يزال رئيسـا لجماعة التحليل النفسى بفينا — وقد مضى على ارتباطه بفرويد تسع سنوات — فاستقال من الجمعية . ولم يلتق الرجلان بعد ذلك قط ولقد كانت الخلافات بينه وبين فرويد عديدة الأمر الذى ادى الى الفراق والقطيعة .

وبعد أن انفصل عن الفرويديين كون ادلر مع سبعة آخرين الجماعة الحرة لتحليل النفس ؛ وفى عام ١٩١٢ م اطلق عليها اسم جماعة علم النفس الفـــردى .

ولقد عمل ادلر كطبيب فى الجيش النمساوى خلال الحرب العالميـة الأولى ؛ وبعد ان سرح طلبت اليه الحكومة أن يفتتح عددا من عيادات توجيه الأطفال فى فينا . كما كان له الفضل فى انشاء مدرسة تجريبية فى فينا

تطبق نظرياته فى التربية . وكان هذا العمل من أوائل الجهود التى بذلت لتطبيق نظريته على مشكلات تنشئة الطفل ، وعلى التربية ، وعلى مشكلات الحياة اليومية الاخرى . ولقد وجه كثيرا من كتبه ومقالاته ومحاضراته (التى تعد بالمئات) الى المعلمين والى الجمهور العام . فذاعت شهرة ادلر فى فينا واحاط به طلاب كثيرون واصدقاء ومعجبون . ولقد ضاق فرويد ذرعا بذلك وزعم وهو زعم غير صحيح ان نظرية ادلر لا تعدو أن تكون بعض المعارف فى التحليل النفسى عبر عنها بمصطلحات مختلفة .

وفى عام ١٩٢٦ زار ادلر الولايات المتحدة الامريكية لاول مرة والقى سلسلة من المحاضرات عن مذهبه فى بوسطن وشيكاغو وغيرهما من المدن الامريكية . وقوبل بحفاوة من قبل المربين وفى عام ١٩٢٧ م عين محاضرا فى جامعة كولمبيا وفى عام ١٩٣٢ استدعته كلية لونج ايلند فى نيويورك حيث أنشىء له كرسى استاذ فى الطب احتفظ به حتى وفاته فى مايو ١٩٣٧ م . ولقد توفى خلال زيارته لمدينة ابردين باسكتلندا لالقاء سلسلة من محاضراته فى جامعتها .

ولقد بلغت شهرته الذروة عام ١٩٣٠ فى المؤتمر الدولى الخامس لعلم النفس الفردى الذى عقد فى برلين والذى شارك فيه ما يزيد عن الفين من المختصين . ويبدو ان هناك ذروة اخرى قد بلغها علم النفس الفردى . ويقول انسباشر Anasbacher « ان اتباع حركة ادلر يبلغون الآن عدة الوف من الاعضاء فى الولايات المتحدة الامريكية وكندا والدول الاوربية وخاصة المانيا . انها تضم اطباء نفسيين ، وعلماء نفس ، واخصائيين اجتماعيين ومرشدين نفسيين ، ومربين وكذلك اناس من الجمهور العام الذين قبلوا نظرية علم النفس عند ادلر وطبقوا طريقته على حياة الأسرة وعلى النمو الشخصى والارتقاء » . (1977, p. 49)

ونظرية ادلر مستمرة فى النمو فى الوقت الحاضر من خلال المجلة الامريكية لعلم النفس الفردي American Journal of Individual Psychology ولقد لخص هاينز وروينا انسباشر Heinz and Rowena Ansbacher كثيرا من أفكار ادلر فى مجلدين (1956, 1964) وهما احسن مصدر وحيد للمعلومات

عن علم النفس الفردى . وتمارس ابنته الكساندرا ، وابنه كيرت الطب النفسى الأدلرى فى نيويورك . ولقد كان أدلر يؤمن بقوة بأهمية توصيل أفكاره الى غير المهنيين ويعمل على ذلك ، وهو عمل يعمل على استمراره وتحقيقه رودلف ديكرز Rudolf Driekers فى الوقت الحاضر .

علم النفس الفردى :

تعتبر نظرية أدلر فى الشخصية عكس نظرية فرويد من وجوه عديدة فبينما رأى فرويد الأفراد فى صراع مستمر الواحد مع الآخر ومع المجتمع ، رأى ادلر أنهم يبحثون عن الرفقة والانسجام . وبينما تجاهل فرويد اسئلة تتصل بمعنى الحياة وبآثار مطامح المستقبل على حياة الفرد ، جعل ادلر من هذه الاسئلة جزءا رئيسيا من نظريته . فالحياة النفسية للفرد تتحدد ... تبعا للغاية التى يتجه الفرد اليها ، وينبع ذلك من حاجة الكائن الحى للتوافق مع البيئة التى يعيش فيها « ولهذا لا يمكن ان نتصور العقل الانسانى استاتيكيا ، بل يمكن أن نتصوره فقط مجموعة معقدة من القوى المتحركة التى تصدر مع هذا عن علة واحدة ، وتجاهد لتحقيق هدف واحد. . .ولا يمكن الا أن نتصور أن للحياة النفسية هدفا تتجه نحوه صنوف النشاط التى توجد فى الحياة النفسية » .

(Adler, Understanding htuman Naher, p. 19)

وبينما رأى فرويد أن العقل يتألف من مكونات مختلفة كثيرا ما تكون فى صراع الواحد مع الآخر ، نظر ادلر الى العقل على انه كل متكامل يعمل للمساعدة على تحقيق المرامى المستقبلية للفرد. وهكذا فباختيار ادلر للمصطلح علم النفس الفردى لنظريته لم يقصد ان يقول ان الناس مدفوعين على نحو أنانى لاشباع حوافزهم البيولوجية . بل قصد ان يقول انه على الرغم من ان الأفراد متفردين الا أنهم يتميزون بانسجام داخلى وبكفاح ليتعاونوا مع زملائهم من بنى الانسان .

وترتبط نظرية ادلر بالمذهب الانسانى لانها تهتم بالعلاقات الموجبة بين الناس ، كما تتصل نظريته بالوجودية لانها تهتم بأسئلة تتعلق بمعنى الوجود الانسانى . ويعتقد أدلر شأنه فى ذلك شأن الوجوديين المحدثين ان الناس

توجه نحو المستقبل، وهم احرار جزئيا على الأقل فى أن يحددوا قدرهم وهم معنيون بمعنى الحياة .

وترتبط نظرية ادلر بسيكولوجية الجشطلت لانهـا تؤكد على الكل وليس على الأفراد . وعبارات مثل « الكل اكبر من مجموع اجـزائه » . « والتجزئة تعنى التشويه » والتى تمثل افكار علماء نفس الجشطلت عبارات يوافق عليها ادلر . وكما قيل من قبل ان ادلر لا يعتقد ان العقل مقسم الى مكونات مختلفة متصارعة بعضها مع البعض الآخر ، وانما يعتقد ان جميع جوانب الفرد تدور حول هدف مشترك ، هدف موجود فى المستقبل عليها تحقيقه وهى تعمل فى وئام مع بعضها ومع المجتمع . وواضح أن هنـاك تشابها ضئيلا بين علم النفس الفردى عند ادلر والتحليل النفسى عند فرويد.

القصور العضوى والتعويض :

ان الشعور بالقصور الذى يوحى به انى الفرد احد اعضـاء بدنه لا يصير على الدوام عاملا فعالا فى نموه النفسى . والمقصود بقصـور أحد الأعضاء عدم استكمال نموه او توقفه او عدم كفايته التشريحية او الوظيفية او عجزه عن العمل بعد المولد . ووجود الأعضاء القاصرة يؤثر دائما فى حياة الشخص النفسية لانه يحقره فى نظر نفسه ويزيد شعوره بعدم الأمن ، ولكن هذا الشعور هو الذى يلهب الكفاح لاقرار الشخصية ويزيد مقدرة العضو القاصر على التعويض كما وكيفا .

« ان اصابة احد الأعضاء بالقصور يلزم المسالك العصبية التى تتصل به كما يلزم الكيان النفسى ببذل جهد كبير من طبيعته ان يؤدى الى تعويض تقوم به النفس فى الحالات التى يكون فيها التعويض ممكنا، وهى تلك الحالات التى تجد فيها الروابط التى تصل العضو القاصر بالعالم الخارجى تأييدا قويا من وظائف النفس العليا . فاذا كان عضو الابصار مثلا مصابا بقصور اصلى، قابلته بصيرة نفسية قوية ، واذا كان الجهاز الهضمى مصابا بالقصور ، كان مما يلازمه زيادة فى النشاط النفسى الذى يتعلق ويتصل عن قرب او عن بعد بالطعام . فتظهر هذه الزيادة على شكل النهم او حب الكسب وجمع

المال او تشتد قوة فتصل الى الادخار أو التقتير والبخل » (اسحق رمزى : ٧٣) .

أى أنه لما كان الجسم يعمل فى وحدة متكاملة فان الشخص يستطيع أن يعوض عن ضعفه ، أما بالتركيز على تنمية هذا الضعف و التخلص منه أو بالتأكيد على وظائف أخرى تعوض هذا الضعف . ومن الأمثلة المشهورة للتعويض عن نقص عضوى ديموستين الذى كان يتلعثم فى طفولته ثم اصبح من ابلغ خطباء اليونان . وتيودور روزفلت الذى كان مريضا فى طفولته ثم أصبح من خلال التدريب المستمر رجلا متين البنية .

ولقد وسع أدلر مفهوم القصور ليشمل الى جانب مشاعر القصور البدنى مشاعر القصور السيكولوجى والاجتماعى . وساوى بين القصور ونقص الرجولة او الانوثة واطلق على التعويض عن ذلك « الاحتجاج الذكرى » ثم اتسع المفهوم ليشمل المشاعر التى تنشأ عن احساس بعدم الاتقان فى اى مجال من مجالات الحياة . فالطفل تحركه مشاعر النقص ليكافح نحو مستوى أعلى من النمو والارتقاء ، وعندما يبلغه يبدأ فى الاحساس بالنقص مرة اخرى فتدفعه هذه الى الحركة الى الأمام . وقد تؤدى ملابسات كتدليل الطفل تدليلا زائدا ، او نبذه الى ظهور عقدة القصور أو عقدة التفوق التعويضى وهما من مظاهر الشذوذ ، اما فى الظروف السوية فان مشاعر القصور تكون قوة دافعة لدى الفرد لتحقيق التفوق . ان الكمال وليس اللذة هو هدف الحياة (هول ولندزى : ١٦٦) .

اننا جميعا نبدأ الحياة بمشاعر القصور لاننا نعتمد كلية على الراشدين لتحقيق البقاء . ان الأطفال يشعرون بالعجز وبانه لا حول لهم ازاء الراشدين الأقوياء الذين يعتمدون عليهم . ان هذا الشعور بالضعف والقصور والدونية يثير فى الطفل الرغبة الشديدة للبحث عن القوة وبالتالى التغلب على مشاعر القصور او الدونية . وعند هذه النقطة من تطور نظرية أدلر اكد على أن العدوان والقوة وسيلتان للتغلب على مشاعر القصور والدونية .

وبسبب الظروف الثقافية فى هذا الوقت ساوى ادلر بين القوة

والذكورة والضعف والانوثة . « ان اى شكل من اشكال العدوان غير المكفوف ، والنشاط والقوة والسلطة وسمات الشجاعة والحرية والغنى والعدوان أو السادية يمكن اعتبارها ذكرية . وجميع نواحى القصور والكف وكذلك الحب والطاعة والفتر والسمات المشابهة يمكن اعتبارها انثوية » .
(Adler, 1910/1956, p. 47)

وعند هذه النقطة من تطور نظرية ادلر كان معنى أن تصبح أكثر قوة ، أن تصبح أكثر ذكورة ، وترتيبها على ذلك اقل أنوثة . ولقد اشار الى كفاح الفرد ليصبح اكثر ذكورة بالاحتجاج الذكرى .

يؤمن ادلر بما كشفت عنه البحوث البيولوجية من وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث فى الكائن الحى الواحد . وان الازدواج الجنسى موجود فى الناس كافة . ثم يربط ادلر ذلك بشرحه نشوء المعانى المجردة للعالى والوطىء فى ذهن الانسان ، وان خبرة الطفل تزيده يقينا ان الوجود فى الأوضاع الوطيئة يكون نتيجة للسقوط مما ينفره من الانخفاض ويدفع به الى الشخوص نحو الارتفاع . وتدفعه الى الربط بين الارتفاع الخالص فى المكان واشكال السيطرة المعنوية والمادية . ويتصل بذلك المقابلة بين المذكر والمؤنث فيعتبر الأول مبدأ القوة ورمز السمو ، بينما يعتبر الثانى سمة للضعف وشكلا للتصور . (وهذه فكرة خاطئة ولكنها شاعت فى الفلسفة الألمانية واثرت على فكر ادلر) . فاذا ربط الطفل بين التذكير والسيطرة ، والقوة والأهمية والخطر فى المجتمع وعلو المكانة ، وربط بين التأنيث والخضوع والضعف والهوان وضآلة الشأن وانخفاض المكانة ، فان المتوقع ان يتشوف الطفل ولدا كان أو بنتا أن يكون «رجلا بمعنى الكلمة» فليس « الاسترجال » او الاحتجاج الذكرى خاصا بالرجال وحدهم بل ان كل النساء يشعرن بقصورهن عن الرجال ويتطلعن على الدوام الى السيطرة والى مثل السطوة والسيادة التى يتمتع بها الذكور فى الجماعة . ويتخذن لذلك من الأساليب المعوجة الملتوية التى تخفى تحت مظاهر الرقة والرفق والحنان تعطشا شديدا للقوة وميولا قوية للقسوة ، ولا يمكن أن تفسر الا على انها اشكال من التعويض المنكر تستهدف المثل الاعلى للرجولة . (اسحق رمزى : ١٠٢ — ١٠٥) .

هل مشاعر القصور سيئة ؟ يجيب ادلر على هذا السؤال بالنفى فلكى تكون انسانا فى الحقيقة معناه أن تشعر بالقصور ، انها حالة عامة ومشتركة بين جميع البشر وبالتالى فانها ليست علامة من علامات الضعف والشذوذ . والحق أن هذه المشاعر هى القــوة الدافعة الأولى وراء جميع الانجازات الشخصية . ويشعر الفرد بأنه دون الآخرين وبالتالى يكون مدفوعا لانجاز شىء وتحقيقه . وهناك شعور قصير بالنجاح بعد الانجاز ولكن فى ضــوء انجازات الآخرين يشعر الفرد مرة اخرى بالقصور وبالتالى يكون مدفوعا لانجاز المزيد وهكذا يمضى الى غير نهاية .

وعلى الرغم من ان مشاعر القصور تعمل كمثير للنمــو الموجب فانها يمكن أن تخلق العصاب . فقد تسيطر مشاعر القصور والدونية عليه ، وعند هذه النقطة تحول دون انجازه اى شىء . وفى ظل هــذه الظروف تعمل مشاعر القصور كعائق بدلا من ان تعمل كمثير للانجاز الموجب . ويقال عن مثل هذا الشخص ان لديه عقدة قصور أو مركب نقص inferiority complex ووفقا لأدلر فان الناس جميعا يخبرون مشاعر القصور ولكنها تؤدى عنــد البعض الى اثارة العصاب وعند البعض الآخر تخلق الحاجة الى النجاح .

الكفاح فى سبيل التفوق :

ما هى الغاية النهائية التى ينزع جميع البشر الى بلوغها والتى تمنــح الشخصية الثبات والوحدة ؟ ان هذه الغاية ليست العدوان وليست القوة وليست الذكورة وانما هى التفوق والاتقان . ويشير ادلر الى الكفــاح فى سبيل التفوق على انه الحقيقة الاساسية للحياة وعلى الرغم من ان ادلر استبقى الكفاح للتفوق كدافع أساسى فى نظريته الا انه عدل ذلك من الكفاح لتفوق الفرد الى الكفاح لتفوق الجماعة . يقول « بدأت ارى بوضوح فى كل ظاهرة سيكولوجية الكفاح فى سبيل التفوق ويسير ذلك موازيا للنمــــو الفيزيقى — وهو ضرورة للحياة ذاتها ... وجميع وظائفنا تتبع اتجاهه ، فهى تكافح من اجل الانتصار واليقين والزيادة سواء اكان ذلك خطــأ أو صوابا . ان القوة الدافعة من الناقص الى الزائد لا تنتهى ابدا ، والدافع من أسفل الى اعلى لا يتوقف مطلقا . ومهما تكن المتقــدمات التى يحلم بها

فلاسفتنا واخصائيونا النفسيون — حفظ الذات ، مبدأ اللذة ، التعادل — فانها جميعا ليست الا محاولات غامضة للتعبير عن الحافز الأعظم الى أعلى ... انه المقولة الأساسية للتفكير وبنية عقلنا ... الحقيقة الاساسية لحياتنا » (Adler, 1930, p.p. 398-399) (هول ولندزى : ١٦٤) .

ولقد تطورت نظرية أدلر من النقطة التى أكدت فيها على أهمية التعويض عن القصور العضوى ، الى التعويض عن القصور الذاتى عن طريق العدوان والقوة ، الى أن الحقيقة الأساسية للحياة أن جميع الناس يكافحون لتحقيق التفوق والاتقان . ما اساس هذا الكفاح من أجل الاتقان ؟ يرى اثار انه فطرى وانه جزء من تكوين جميع البشر منذ الميلاد .

ويعتقد أدلر ن مشاعر القصور يمكن أن تؤدى للنمو الايجابى او الى عقدة قصور أو مركب نقص . وقد اعتقد أدلر أن الكفاح للتفوق يمكن أن يكون نافعا أو ضارا . فاذا ركز الشخص كلية على تفوقه وتجاهل جميع حاجات الآخرين وحاجات المجتمع فقد ينمى عقدة أو مركب التفوق . والشخص الذى لديه مركب التفوق يميل الى أن يكون مسيطرا ، مغرورا ، متفاخرا ، وأن يحط أو يقلل من شأن الآخرين ومثل هذا الشخص وفقا لأدلر ينقصه الاهتمام الاجتماعى وهو بالضرورة غير مرغوب فيه .

أسلوب الحياة :

أسلوب الحياة هو الذى يحدد النظام الذى تمارس به الشخصية وظائفها ، وهو الذى يفسر لنا تفردها . ولكل شخص أسلوب حياة ، ولا يوجد شخصان يترسمان نفس الاسلوب فى حياتهما .

« واسلوب الحياة يصطنعه الطفل فى سنواته القليلة الأولى ويظل ثابتا فى خطواته الرئيسية . فلكل فرد اذن هدف من نوع خاص يميل نحوه فى كل موقف جديد ، وخصوصا عندما يواجه مشكلات الحياة الكبرى الثلاث : مشكلة حياة الاجتماع والمجتمع ومشكلة المهنة ومشكلة الحب . فاسلوب الحياة ليس مفروضا على الفرد بالوراثة ، بل يحدده الى حد كبير مركز الأسرة التى يجد الطفل نفسه فيها . وعلى هذا فان اطفال الناجحين جدا

من الرجال يعطلهم فقدان الأمل فى بلوغ شىء يبلغ ما وصل اليه آباؤهم» ويحتمل ان يصطنعوا اسلوبا فى الحياة لا يستدعى مجهودات جدية والطفل لأبوين غنيين جدا — ولكن مظهره جذاب — ربما اتخذ ميلا الى التسول يظل بعد فى كل نوع من مواقفه . والطفل المدلل يتخذ هدفا له ان يكون مركز الانتباه ، والطفل المنبوذ له هدف الهروب الى مسافة آمنة ، والطفل الأكبر يميل الى حفظ ما يملك . اى يتخذ ميلا الى المحافظة ، والطفل الثانى هو منذ البداية فى الخلف من السباق ، وقد ينمى ميله الى محاولة التغلب — ويمكن أن يكون هذا الاتجاه أيضا للطفل الأصغر وان كان هو بالاحرى يحتمل ان ينمى ميل الطفل المدلل ، والطفل الوحيد الذى لم يلق تنافسا ، يفترض أن الغير سيخدمونه وأنه سيحكم . ولا يعنى ادلر أن مجرد الوضع فى ترتيب الميلاد يحدد اسلوب الطفل فى الحياة ، وما يتوقعه من الحياة . . . يحتمل أن يشكله منذ البداية موقف التنافس الذى يجد نفسه فيه . ولهذا فان ادلر يؤكد تأكيدا لا يقل عن فرويد ، ولكن بطريقة مغايرة جدا — مركز الأسرة من حيث هو يكون الفرد » (ودورث — كمال دسوقى : ص ٢٤٦) .

أن الفرد يخلق لنفسه هدفا متخيلا للتفوق ينبثق من احساسه بالقصور ومن كفاحه للتعويض وقبل أن يبلغ الخامسة او السادسة من عمره . ان هذا الهدف المتخيل او الوهمى هوالذى يصبح غرضا للحياة .ومنذ ان يتخلق يحدد الشخصية ككل بما فى ذلك الاسلوب الفريد لحركته نحو الهدف . ولقد استخدم أدلر اسلوب الحياة ليشير الى خطة الحياة التى يتطلبها الهدف المتخيل . ولما كان الهدف يحدد الى أين يمضى الفرد فان اسلوب الحياة هو المسلك المعين الذى يختطه الفرد لنفسه لكى يتحرك نحو الهدف . وهكذا فان هناك اتساقا ضروريا بين الهدف المتخيل واسلوب الحياة ، ولما كان هذان المفهومان لا ينفصلان فان الوصف الكامل للهدف المتخيل سوف يشتمل على وصف وتحديد لاسلوب الحياة والوصف المفصل لاسلوب الحياة لا بد وان يشتمل على وجهة الهدف . وهكذا فان العبارة « ينبغى أن اسيطر على الآخرين باجبارهم على ان يعتنوا بى لانى مريض » تعنى أن السيطرة على الآخرين نصف الهدف ، والمرض يشير الى اسلوب تحقيق ذلك الهدف .

واسلوب الفرد الشخصى فى الحياة أو اسلوبه المتفرد يكمن وراء كل

شىء يفكر فيه أو يشعر به أو يعمله . وهذا السلوك يعبر عن اسلوب حياته ومع ذلك فان هذا التعبير يشبه الى حد كبير ما يعمله الفنان الذى يرسم معنى الحياة على لوحة . فمزاج الفنان وتفكيره ينبغى استنتاجهما من سلوكه (1931, p.p. 57-58) وبالمثل فان اتجاه الفرد نحو الحياة ينبغى أن يخمن ويستنتج من سلوكه . ويمكن تحديد خصائص اسلوب الحياة على نحو غامض فى معظم المواقف ولكنه يتخذ شكلا محددا حين يتعرض الفرد لضغوط شديدة فى الحياة ، أى حين يواجه مشكلة فى حياته .

ولما كان كل اسلوب من أساليب الحياة فريد بالنسبة للفرد اللذى أوجده، فانه يصعب تصنيفه وفق أنماط وطرز ، لان الأنماط تعتبر تعميمات فضفاضة جدا عن البشر . وعلى أية حال بسبب فقر اللغة ، ولان الانماط تفيد فى تدريس علم النفس الفردى فان أدلر قدم لنا نظرية الانماط مصحوبة بتحذير بأن هذه النظرية ما هى الا وسيلة لتيسير التدريس وانها لو طبقت على فرد معين فسوف تحول دون فهم أسلوبه الخاص فى الحياة .

ولقد نتجت انماط ادلر عن الربط بين الاهتمام الاجتماعى وبعد آخر هو درجة النشاط . ويقصد ادلر بدرجة النشاط مستوى الطاقة الذى يعالج به الفرد مشكلات الحياة ، ذلك أن هذا المستوى قد يتفاوت من التراخى الى التردد الى العراك مع الآخرين . والأنماط الثلاثة الاولى هى : المسيطر والمتلقى والمتجنب وينقصهم جميعا الاهتمام الاجتماعى ولكنهم يختلفون فى درجة نشاطهم والنمط الرابع هو الرجل الطيب الذى لديه اهتمام اجتماعى ودرجة عالية من النشاط .

فالنمط المسيطر يتميز بنشاط عال واهتمام اجتماعى منخفض ، وهو نشط بطريقة غير اجتماعية . ومن امثلة ذلك النمط الولد الذى يريد أن يكون قبطانا لسفينة بحيث يأمر الآخرين ويسيطر عليهم . وفى حالات متطرفة بدرجة اكبر نجد المهاجم أو المغير القادر على القسوة والوحشية ويدخل فى هذا النمط القتلة والمغتصبون وغيرهم ممن يقدرون على ارتكاب الجرائم ضد الاشخاص . وبلغة ابقراط فان هذا هو النمط الصفراوى .

وحين يرتبط انخفاض الاهتمام الاجتماعى بدرجة معتدلة من النشاط

يظهر لدينا النمط المتلقى ، انه لا يسهم بشىء ولكنه يستجدى للحصول على كل شىء.وبسبب انخفاض الاهتمام الاجتماعى ينقصه الاصدقاء الحقيقيون. ولا يتوافر لدى الفرد من هذا النمط طاقة يواجه بها مشكلات الحياة ولذلك يحاول أن يعتمد على الآخرين للحصول على الدعم . ان هذا النمط يشبه النمط البلغمى .

والنمط المتجنب لا يتوافر لديه اهتمام اجتماعى ولا نشاط يكنى ليشارك فى أى مسلك من مسالك الحياة . أن هدف التفوق عنده معناه أن ينجح فى تجنب جميع المشكلات ، وهو لا يعرض نفسه لادنى المخاطرات ، وهكذا ينجنب الفشل . ان هذا النمط يشبه النمط السوداوى .

والنمط الرابع يتميز بقدر عال من الاهتمام الاجتماعى ، وبدرجة من النشاط تسفر عن شجاعة فى معالجة مشكلات الحياة بطريقة نافعة من الناحية الاجتماعية . ويتجه نشاطه نحو التعاون فى الاسهام فى خدمة الصالح العام . انه الانسان الطيب أو الخير الذى يجد متعة فى الحياة وسعادة فى العطاء . انه دموى المزاج كما يقول ابقراط .

الأهداف النهائية الوهمية :

لا يمكن أن تتكون الشخصية وتنمو ما لم تتجه النفس الانسانية فى نشاطها اتجاها نمائيا ، لان الغاية التى ينشط الشخص لتحقيقها عامل حاسم فى توجيهه . والغائية التى تميز السلوك النفسى تحدد لمختلف ضروب النشاط الارادى وغير الارادى سبلا معينة ينبغى أن تسير فيها حتى تبلغ الهدف الذى عين لها . يقول ادلر : « اننا لو نظرنا الى الأمر عن كثب ، لوجدنا أن القانون الآتى يتحكم فى سير كل الأمور النفسية : وهو اننا لا نستطيع أن نفكر أو نشعر أو نعمل دون ادراك لهدف ما . اذ لا تكفى ، حينذاك كل قوانين العلية فى العالم لقهر عماء المستقبل ، أو للتغلب على ضربنا فى الحياة على غير هدى . ذلك الضرب الذى نقع فريسة له عندئذ ، فيبقى كل فعل فى مرتبة المحاولات التى لا ضابط لها ، ونعجز عن الحصول على ذلك الاقتصاد الواضح فى حياتنا النفسية ، كما نبقى دون ان تتكامل

شخصياتنا حتى لنشبه فى كل مظاهر البدن وفى كل لمحة شخصية تلك الكائنات التى تعتبر فى مرحلة الأميبا » .

(Adler the Theory & Practice of Individual Pychology, Kegan Paul, London 1927, p. 3)

كتب هانز فيهنجر H. Vaihinger كتابا سماه The Philosophy of "As If فلسفة كأن . وأبرز فيه ان التفكير غاية فى ذاته بعد أن كان وسيلة للعمل ؛ وأصبح يعالج من المسائل مالا قبل له بحلها ؛ لان كثيرا من الأفكار ليس فى الحقيقة الا نوعا من الأوهام يضعها العقل ليستعين بها على حل المشكلات حلا لا يستند على الواقع لانه يقوم على تلك الأوهام التى اختلقها العقل اختلاقا (رمزى : ٩١) ويعتقد فيهنجر ان حياة الأفراد تسترشد بتلك الاوهام التى خلقوها لتضفى على الحياة مغزى ونظاما . وعلى الرغم من عدم وجود ما يقابل تلك الأفكار فى دنيا الواقع الا انها مفيدة للانسان الذى يحاول ان يتصدى لمشكلات الوجود ويعالجها . ومن الأفكار الوهمية أن يحدث الانسان نفسه قائلا : « عندما اكسب قدرا كافيا من المال ساكون سعيدا » . « اذا حصلت على الدكتوراه فان كل شىء بعد ذلك سيكون ميسرا كما اريد » .

ولقد تبنى ادلر هذه الفكرة واعتبرها جزءا هاما من نظريته . لقد اعتبر الغائية الوهمية هى المبدأ الموحد للشخصية . فكل ما يقوله الشخص وما يفعله يتصل بالهدف الوهمى النهائى . ولقد اصبح المستقبل بالنسبة لادلر اكثر اهمية من الماضى لفهم السلوك . ولقد شعر أدلر ان هذه الفكرة عن الغائية الوهمية حررت نظريته من الحتمية التى تميز نظرية فرويد .

ولقد أطلق على الغائية الوهمية فيما بعد الذات المثلية الموجهة a guiding self - ideal . وهذا المفهوم اعطى لنظرية ادلر مكونا مستقبليا ولو انه لم يتجاهل الماضى كلية . والآن نستطيع ان نتصور الانسان مدفوعا بمشاعر القصور أو النقص نحو الكمال مستخدما اسلوبه الفريد فى الحياة كوسيلة لتحقيق هدف أو غاية مستقبلية .

ولقد اكد ادلر على أن هذه المرامى المستقبلية او المثل اوهام مريحة

وضعت لكى تجعل الحياة اكثر مغزى مما لو لم تكن موجودة . والأصحاء يغيرون من هذه الأفكار حين تقتضى الظروف ذلك ، أما العصابيون فانهم يتمسكون بأوهامهم مهما كان الثمن.وبعبارة أخرى فان الاصحاء يستخدمون المرامى المتخيلة يعالجون بها مواقف الحياة . والحياة بغير معنى لا يمكن تحملها ولذلك يضفون عليها معنى . وتصبح الحياة فوضى ما لم تكن لهـا خطة ولذلك يبتكر الأفراد مثل هذه الخطة وتكون هذه المرامى والافكار أو الخطط بالنسبة للاصحاء وسائل لكى يعيشوا حياة اكثر فاعلية ، حياة بناءة بدرجة اكبر ، أما بالنسبة للعصابى فتصبح غايات فى ذاتها بدلا من أن تكون وسائل لغايات . ولهذا فانه يحتفظ بها حتى حين يثبت عدم فاعليتها فى معالجة الواقع . وهكذا فان الفرق بين السوى والعصابى هو فرق فى سهولة التخلص من خطة الحياة المتوهمة أو المتخيلة اذا سوغت الظروف ذلك . ان السوى لا يغرب عن نظره الواقع ، اما العصابى فخطة الحيـاة الوهمية تصبح واقعا وحقيقة .

فالفرد لا يبتكر اسلوبا فى الحياة فحسب بل يبتكر مرمى أو هـدفا نهائيا يتوجه لتحقيقه بهذا الاسلوب . وهذا الابتكار يتضمن قدرا كبيرا من الحرية الشخصية ، وسوف نتناول هذه الفكرة عندما نعالج مفهوم الذات المبتكرة فيما بعد .

الاهتمام الاجتماعى Social Interest

فى عام ١٩١٩ وفى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «الجبلة العصابية» The neurotic Constition قدم ادلر لاول مرة فى ايجاز مفهوم الاهتمام الاجتماعى الذى أصبح مبدأ من مبادىء علم النفس الفردى الأساسية . (ان ما عناه بالاهتمام الاجتماعى شىء شبيه بالتوحد مع المجتمع) وكانت الحرب العالمية الأولى بالنسبة لادلر عملا شيطانيا واطلاقا لعنان الحوافز التى خانت الاهتمام الاجتماعى بالنسانية وخنقته . ولقد عبر عن اعتقاده بأن الطبيعة الانسانية سوف توجه طاقاتها نحو الاهتمام الاجتماعى البناء . ولقد اكد فيما بعد على أن الاهتمام الاجتماعى لا يمكن توقعه من ضعاف العقول لان الذكاء والابتكار ضروريان لتنميته . والاهتمام الاجتماعى عنـد العصابيين

والذهانيين او المجرمين يكون عند حده الأدنى ، أو غير موجودة . وكدليل اضافى على طبيعة الاهتمام الاجتماعى يشير ادلر الى الاتكال المتبادل بين الأم وطفلها ، وكلاهما فى حاجة الى الحب ، وبينما يشبع الوليد جوعه فانه يخفف ما تشعر به الأم من توتر بسبب امتلاء ثدييها باللبن ، وهذا مثال لطريقة نشوء الاهتمام الاجتماعى ، ولقد كان مفهوم أدلر عن العلاقة بين الام والطفل مختلفا عن مفهوم فرويد الذى وصف هذه العلاقة باعتبارها قائمة جزئيا على دوافع فمية عدوانية .

المشكلات الثلاث الأساسية فى الحياة :

يبين ادلر فى كتابه Understanding of Human Nature 1927 « فهم الطبيعة الانسانية » ان اختيار الطفل لما يريد أن يكون عليه يكشف عمن اثر فيه وما اثر فيه باكبر درجة حتى بلوغه هذه المرحلة وقد اعتبر أن من العلامات الخطرة ان يستمر المراهق بعد سن الثالثة عشرة مصرا على أن ليس لديه فكرة عما يريد ان يكون عليه . ان هذا قد يعنى عدم ميل الفرد الى ان يصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ولما كانت المشكلة الثانية اجتماعية : فان علم النفس الفردى يدخل ضمن علم النفس الاجتماعى . ولقد اكد ادلر خلال كتاباته كلها على أن الوظائف الانسقية تنمو وتتطور فى اطار علاقتنا برفاقنا من البشر وكتعبير عن هذه العلاقة ، فالتخاطب او الكلام على سبيل المثل ينمو كتعبير عن جهادنا للتواصل والتفاهم أحدنا مع الآخر على افضل نحو . ونتيجة لذلك فان اضطرابات النطق عند الاطفال والراشدين كثيرا ما تعبر عن وجود حواجز او عوائق تضر بالعلاقات الانسانية . (Alexandra Adler, p. 58-59)

أما المشكلة الثالثة فهى الزواج ويرى ادلر : « أن الحب وما ينتهى اليه من سكن الى زوج هو اقوى عاطفة واعمقها تدفع بالمرء الى شريك فى الحياة من الجنس الآخر قرينة انه الجاذبية الجنسية وحب الصحبة والرغبة فى انجاب النسل ومن السهل أن نرى أن الحب والزواج جانب من التعاون لا يعود بجزيل النفع على اثنين من الناس فحسب بل على الناس اجمعين .

وصلاحية المرء للزواج مرهونة بشجاعته وثقته بنفسه وتوفره على عمل ومهارته فيه . والناس قد ألفوا أن يعملوا فرادى أو جماعات وخبرتهم قليلة بالعمل ازواجا . فاذا قسم على اثنين من الناس أن يعيشا معا وجب أن يؤثر الواحد منهما الآخر على نفسه ، وأن يسود بينهما روح العطف والمساواة لان احدا من الناس لا يطيق أن يوضع موضعا دون غيره . (اسحق رمزى : ١٥٦ — ١٥٧) .

الذات الخلاقة The Creative Self

ان مفهوم الذات الخلاقة عند ادلر هو المحرك الأول والسبب الأول لكل ما هو انسانى .

ولقد أراد ادلر أن يقول باستخدام هذا المفهوم أن الانسان ليس مجرد متلق سلبى للمؤثرات الوراثية والبيئة وذلك لان كل رد حر فى ان يؤثر فى هذه المؤثرات وأن يجمع بينها وفق ما يراه ملائما . وهكذا فانه لا يوجد اثنان متشابهان حتى ولو كانت مكونات شخصياتهما متشابهة . ولقد رأينا ان بعض من لديهم قصور عضوى يعوضون عنه ويصبحون ذوى نفع اجتماعى، بينما يكون آخرون عقدة قصور ولا ينجزون شيئا . والفرق بين هذين بالنسبة لادلر هو مسألة اختيار . وهكذا توفر البيئة والوراثة المواد الخام التى منها تتشكل الشخصية . بواسطة الذات الخلاقة . ووفق ما يراه ادلر : « أن الوراثة والبيئة يتيحان للفرد المادة التى يستخدمها بطريقته المبتكرة لكى ينمى ويشكل اتجاهه نحو الحياة . انها طريقته الفردية فى استخدام مادة البناء — اتجاهه نحو الحياة — التى تحدد علاقته بالعالم الخارجى »
(1935/1956, p. 206)

ان فكرة اختيار الانسان لمصيره تتسق مع الفلسفة الوجودية ومع هذا المكون من نظرية ادلر فان الشخص السليم يتخير اسلوب الحياة والهدف النهائى الذى يتفق مع مثل المجتمع . ويلاحظ هنا اختلاف اساسى مع فرويد، الذى شعر أن السلوك الانسانى يتحدد كلية فى ضوء المؤثرات البيولوجية والبيئية وان الفرد ليس بأى حال حرا .

ولقد كان أدلر أول صاحب نظرية فى الشخصية نادى بأن السلوك الانسانى ليس محتوما كلية . لقد أصر على أن كل فرد حر فى تحديد حياته. وبعبارة اخرى فان الحياة وفقا لادلر معرضة لتفسيرات كثيرة ممكنة ، وان الامر متروك للفرد ليتخير أكثرها فاعلية وأكثرها جلبا للراحة . وسوف يتاح لكل فرد موروثا بيولوجيا معينا وعددا كبيرا من الخبرات الماضية ، ولكن الذات الخلاقة هى التى تعمل عملها فى هذه المتغيرات وتفسيرها وهذا هو ما تحدده شخصية الفرد . لقد اتضح أن مفهوم ادلر مفهوم ملهم لانه شاع بين أصحاب نظريات الشخصية المحدثين .

مواقف الطفولة :

ولقد أكد ادلر على أن الحالة الجسمية والعقلية للوليد هى عجز تام . فعجزه ظاهر بحيث لا يستطيع البقاء ما لم يتوافر لدى الوالدين مشاعر الاهتمام الاجتماعى . وبالاضافة الى هذا القصور العام ، فان لدى كل طفل قصورا فى اعضاء معينة وقصورا وراثيا فى قدراته . هذا فضلا عن ان الوليد يتلقى انطباعات معينة من بيئته بعضها موات وبعضها غير موات . وعلى أية حال فان ادلر اعتبر أن من الاخطاء الجسام أن نفترض ان نواحى العجز العام أو النوعية فى نواحى القدرة وأن انطباعات الطفل الأولى تحدد حياته . فليست حياته الأولى هى التى تحدد شخصيته ، وليست هذه الخبرة أو تلك هى التى تسبب انفعاله وانما تفسيره لها . وما أن يبلغ الطفل الخامسة من عمره ، الا ويكون من خلال قواه المبتكرة قد عثر على المعنى الذى يضفيه على حياته وعلاقاته بالعالم ، ويقرر الطفل كيف يستخدم جبلته المميزة وانطباعاته المبكرة . ان الطفل هو الذى يحدد هدفه الوهمى ، واسلوب الحياة الذى يؤدى اليه . وبعد هذه النقطة فى الحياة تختفى حرية الاختيار ؛ لانه بعد التوصل الى هذا التحديد يحدد الهدف الوهمى واسلوب الحياة كل فكرة يفكر فيها الفرد وكل شعور يشعر به وكل فعل يقوم به .

وبصفة عامة فان أمام الطفل طريقان ممكنان للنمو والارتقاء احدهما فى الجانب النافع فى الحياة ، والآخر فى الجانب الذى لا فائدة فيه من الناحية الاجتماعية . ومتطلبات الحركة فى الجانب النافع اهتمام اجتماعى

ودرجة عالية من النشاط والاهتمام الاجتماعى يزود الطفل برغبته فى العمل مع الآخرين بطريقة تعاونية والشجاعة فى مواجهة ثلاث مشكلات فى الحياة والاخفاق فى تنمية اهتمام اجتماعى كاف يؤدى لا محالة الى الاخفــاق فى الحياة . وعمل الأم ان توقظ فى الطفل الشعور الاجتماعى ، وان تدربه لكى يوجه هذا الشعور نحو أبيه واخوته وفى النهاية نحو جميع الناس . ان هذا العمل يتطلب ان تكون الأم قادرة على التعاون مع طفلها . وتتحــدد درجة نجاحها فى ضوء ما اذا كان هدف الطفل موجه نحو التفوق الصالح لزملائه أو نحو التفوق الآثر او الأنانى على الآخرين .

ان تكوين الشخصية يحدد الذات ، اى انها لا تتحدد نتيجــة للموقف الذى يجــد الطفل نفسه فيه وانما تتحدد بتفسيره لهذا الموقف وبطريقــة استخدامه له . والحق ان الموقف لا يعمل كسبب وعلة ولكنه يحدد مجموعة من الاحتمالات المعينة للنتيجة المتوقعة . والمواقف الثلاثة التى حددها ادلر (1931, p.p. 14-19) والتى يحتمل بدرجة كبيرة ان تكون نتائجها غير موائية هى : القصور العضوى الحاد ، والتدليل والاهمال . فالقصور العضوى كضعف البصر او السمع او عدم قيام الجهاز الهضمى بوظائفه على نحـــو سليم ، أو قلب ضعيف يلقى بعبء اضافى على كاهل الطفل . انه يزيد من شعوره بالقصور فوق المستوى العام ، ويمده بعذر عن عدم كونه شجاعا، ويزوده بسلاح جاهز يتغلب به على الآخرين.والموقف الطفلى الثانى التعس هو التدليل لانه يهيىء المسرح للطفل بحيث يقوم بتفسيرات خاطئة للحياة ، ان الطفل المدلل يتعلم أن يضع نفسه فوق الآخرين ، وان يتوقع اشــباعا مباشرا لرغباته ، وان يشعر بأن من حقه ان يكون مركزا لهذا العالم .

وملاحظة الطفل المدلل المتعلق بأمه قد ادت الى نشوء فكرة خاطئــة والتى أطلق عليها فرويد عقدة أوديب . ولقد رأى ادلر انه ليس هناك حاجة الى افتراض أوهام مثل سفاح القربى والرغبة اللاشعورية فى الموت لكى نشرح هذه الظاهرة . فمحاولات الاستحواذ على الام هى ببساطة افعال طفل مدلل يريد ان يجعل انتباه أمه قاصرا عليه وخاصا به وحده ولما كان الأب معرضا لأن يظهر مشـاعر رقيقة نحو ابنته كما يفعل تماما نحو النســـاء

والفتيات ... فهناك احتمال فى أن يفسد ابنته بالتدليل وهو أقوى مما نتوقع فى هذا الأمر عادة (1933,p. 222)

والموقف الثالث الذى يزيد من احتمال تفسير الحياة تفسيرا خاطئا هو: ان ينشأ الطفل مهملا . ان هذا يشب فى بيئة معادية تزيد من مشاعره بعدم الجدوى وتعوق امكانيات التعاون لديه .

وهناك طريقة اخرى صنف ادلر على اساسها مواقف الطفولة وذلك ببيانه لمزايا وعيوب ترتيب ميلاد الطفل فى الأسرة . وترتيب الميلاد من المواقف الهامة التى تحدد احتمالات معينة لنتائج متوقعة . وعلى اية حال فان القدرة الابداعية للطفل هى التى تحدد بالفعل الطريقة التى بها يشكل المواقف الشخصية .

ان الطفل الأول يحتل المركز المفضل للأسرة بعض الوقت . انه فى مركز الانتباه والمحتمل أن يفسده التدليل . وفجاة يولد أخ أو أخت له فتنحيه عن عرشه وتبعده عن مركز الاهتمام ويعطى دورا ثانويا . وهذا الموقف ييسر للطفل الأكبر ان يرى العالم مليئا بأناس من الممكن أن يغتصبوا قوته . والموقف الطبيعى بالنسبة له أن يحارب أمه ومنافسه والعالم . والنتيجة المتوقعة سوف تكون مختلفة اذا درب الابن الأكبر على التعاون ، لانه عندئذ سوف يقوم بمسئولية اسرية أكبر ويصبح حاميا للضعيف والعاجز وسوف يصبح حقا المحافظ على اخيه أو أخته .

وموقف الطفل الثانى يتميز بأن له أخا اكبر ومن المهم بالنسبة له أولا ان يشارك طفلا آخر فى الانتباه والاهتمام . والكثير يتوقف بطبيعة الحال ، على ما اذا كان الابن الأكبر عدوانيا نحوه أو درب لكى يتعاون معه. والنتيجة الثانية المترتبة على وجود أخ اكبر ، أن لديه شخصا يحدد معدل خطوه ، شخصا يجعله يسلك كما لو كان فى سباق مستمر .

وموقف الطفل الأصغر هو انه لن يحل محله من المؤخرة أحد ، ويتقدمه طفلان أو اكثر يحددون سرعة الخطو . وقد يقاسى من مضار التدليل ، الا انه ايضا قد يتقبل التحدى ويعمل على التفوق على من يكبرونه .

والطفل الوحيد يغلب أن يلقى التدليل من امه ، واذا حدث هذا فانه سوف يدخل على نحو آلى فى تنافس مع أبيه ويصبح مرتبطا بأمه ويرى أباه عدوا له . وموقف الطفل الوحيد هو موقف الطفل المدلل .

وهذه الخطوط التمهيدية تتشكل بعوامل لا حصر لها كجنس الطفل ، والفروق بين اعمار الأبناء ، وتأثير الأشخاص الآخرين وشخصية الوالدين. ولم يعزو ادلر هذه الخصائص الى ميلاد الطفل فى ترتيب معين بل الى الموقف الذى يحتمل أن يرتبط بهذا الترتيب . ومرة اخرى ان الموقف فى ذاته لا يحقق هذا التأثير او ذاك وانما الذى يحقق ذلك هو المعنى الذى يضفيه الطفل على الموقف .

العلاج النفسى :

يتصف الأفراد الأصحاء باهتمامات اجتماعية نامية . والافرادي ذوو الاساليب الحياتية الخاطئة يميلون الى التمسك بها لان هذه الاساليب تحافظ على ذاتها . ويميل اسلوب الحياة الى أن يركز على طريقة معينة للنظر الى الأشياء.وهذا الاسلوب فى الادراك يستمر ما لم يواجه الشخص مشكلات اساسية ، او ما لم يجد مساعدة لكى يفهم اسلوبه عن طريق التربية أو العلاج النفسى .

« ان علم النفس الفردى يعتبر جوهر العلاج فى خلق الوعى لدى المريض بنقص فى قوته التعاونية ، وفى اقناعه بوجود اصل هذا النقص فى عدم توافقاته فى الطفولة المبكرة . وما يحدث خلال هذه العملية ليس مسألة بسيطة ذلك ان قدرته على التعاون تتحسن من خلال تعاونه مع الطبيب . وسوف يكتشف أن مركب التصور خاطىء ، وسوف تصحو فيه الشجاعة ويظهر التفاؤل ، ويشرق معنى الحياة مما يعنى انه ينبغى عليه ان يعطى للحياة المعنى الصحيح » (Adler, 1930, n.p. 404)

وبتحليل ترتيب ميلاد الفرد فى الاسرة ، وذكرياته الأولى واحلامه وخصائص سلوكه المميزة يتتبع علماء النفس الفردى نمو الفرد وبزوغ اسلوب الحياة الخاطىء ذلك الذى يتطلب العلاج لان هذا الاسلوب غير فعال فى

تناول مشكلات الحياة . أى أن المعالج يبحث مع المريض فى اسلوب حياة جديد يتضمن الاهتمام الاجتماعى وبالتالى يكون أكثر وظيفية .

« وفى دراسة الفرد المريض وتحليله يكون العمل الرئيسى هو الكشف عن اسلوب حياته . والهدف القريب للتعالى الذى تصب نفسه له طفلا وما يزال يتبعه فى صورة أو اخرى . ومركز الفـرد فى أسرته يعطى الأثر العام . فما يجب وما يكره وأبطاله فى التاريخ والخرافة ، وما يختاره أولا ومن بعد مهنة فى حياته كل هذه تعطى اثرا . وطريقته فى الوقوف والمشى والجلوس ربما اظهرت ميولا جوهرية . وقبل ذلك طريقته فى المصافحة ، بل والوضع الذى يتخذه أثناء النوم » . فعندما ترى شخصا ينام على ظهره متمددا كالجندى فى الانتباه ؛ كان ذلك دليلا على انه يريد أن يبدو عظيما بقدر ما يستطيع ، والذى يرقد منحنيا كالقنفد والملاءة ملتفة على رأسه ، ليس من المحتمل أن يكون مناضلا أو متصفا بشجاعة ... والشخص الذى ينام على معدته (بطنه) يكشف العناء والسلبية.فاسلوب الحياة يظهر فى كل موضع وان كان المرء قد يتصور أن مثل هذه المماثلات اليسيرة ربما تؤدى بالمحلل غالبا الى الشطط . فعالم النفس الفردى فى المعمل لا شك انه يقيم نتائجه فى نظرة شاملة لالوان كثيرة من السلوك » (ودورث : ٢٤٧) .

« وحقيقتا فرويد الأوليتان ، المقاومة والتحول يواجهها أيضا أدلر ومدرسته فى علاجهم للمصابين بأمراض عصابية ، ولكنهماتفسران على نحو لا فرويدى . والمقاومة ترى — لا بوضعها ممانعة لا شعورية لظهور رغبات مكبوتة قديمة — بل كدفاع ضد العلاج ذاته — المريض يخشى ان يشفى لأنه اذا شفى سيقوم بأعمال ربما فشل فيها ! ومثل ذلك التحول : فاذا وقع المريض فى حب مع الطبيب : فليس ذلك حبا حقيقا ، بل مجرد وسيلة لتفوق عليه ؛ وبوجه عام فالشعور واللاشعور ليسا كائنين منفصلين . او شطرين متصارعين فى الفرد ولكنهما يرتبطان معا بما لهما من رغبات وميول بعينها . ومركب النقص اللاشعورى والشعورى الباحثان عن القوة يكونان وحدة ديناميكية . فلسنا فى حاجة الى « كائنات متحاربة » نفترضها على حد تعبير ادلر » (ودورث : ٢٤٨ — ٢٤٩) .

البحوث العلمية والطرق :

ان الأفكار التى قدمها أدلر فيما يتصل بأساليب الحياة ، وبالاهداف النهائية الوهمية وبالسمات تبلغ من الوضوح حدا يجعل قيام البحث العلمى وتناوله لها له معنى . ولعل علم النفس الفردى لم يلق حظا من الشيوع بحيث يستحوذ على اهتمام الباحثين بالقدر الكافى ، غير ان هناك بعض الاستثناءات ومن اهمها ترتيب الميلاد وهو محدد هام من محددات اسلوب الحياة ، وقد كان البحث الذى قام به شاكتر Schachter عام ١٩٥٩ عن ترتيب الميلاد والميل الى الانضمام الى الجماعات عند الاناث نقطة بداية لفيض من البحوث التى ترتبط بهذا الموضوع .

وقد لاحظ شاكتر أنه فى ظل الظروف الضاغطة تميل طالبات الجامعة — ممن شغلن المرتبة الأولى بين اخوتهن من حيث الميلاد — الى مصاحبة الأخريات بينما اتجهت الطالبات اللاتى جاء ترتيب ميلادهن فى اسرهن فى المرتبة الثانية الى الانسحاب والتقوقع . ولقد قدم لنا شاهدا على ان تفضيل المجموعة الأولى للصحبة والمجموعة الثانية للانسحاب ساعد على فهم انماط سلوكية منوعة مثل فاعلية الطيارين فى المعارك ، والادمان على شرب الخمر . ومع ظهور هذه النتائج المثيرة للاهتمام اقبل الباحثون على دراسة هذا المجال . وبدأ البحث عن المتغيرات التى ترتبط بالطفل الأول .

ومن النتائج الملفتة للنظر فيما يتصل بالدراسة بالجامعة ان شاكتر انتهى عام ١٩٦٣ بعد مراجعته للدراسات السابقة الى ان الطفل الأكبر يغلب ان يصبح بارزا عن الطفل المتأخر فى الميلاد ، وسرعان ما اتضح ان ما بين ٥٠ الى ٦٥٪ من المجتمع الطلابى فى كثير من الكليات فى الولايات المتحدة فى جامعة كولمبيا وكلية دارتموث وجامعة ولاية كانساس وكلية ريذ وجامعة فلوريدا وغيرها اطفال اول فى اسرهم . وهذه النسب اكبر مما يتوقع على اساس الصدفة وحدها . وهذه النتيجة تدعم اعتقاد أدلر ان الطفل الأول طموح .

غير انه لا يوجد دليل علمى يوثق به يدل على أن الطفل الأول فى المتوسط يتفوق على الطفل المتأخر من حيث متوسط درجات التحصيل فى

الجامعة . ولم يجد كامبل (1933) Campbell فروقا بين هاتين المجموعتين فى التحصيل ، غير أن بيرس (1959) Pierce ، والدر (1962) Elder وشاكتر (1963) وجدوا أن الأطفال الأول من حيث ترتيب ميلادهم فى الاسرة يحصلون على معدلات فى التحصيل أعلى من الأطفال المتأخرين . وفى ضوء الشواهد العامة المتوافرة والتى تدل على أن الأسر تتطلب من الطفل الأول وتتوقع توقعات اكبر مما تفعل مع أطفالها الآخرين ، وتتوقع منهم أن يصلوا الى مستويات اعلى ، يبدو من المعقول أن يؤدى هذا الى أن تلتحق نسبة اكبر من المجموعة الأولى بالجامعة سواء ارتبط ذلك بحصولهم على درجات أعلى ممن يجيئون بعدهم فى الترتيب الولادى أم لم يرتبط بذلك .

ولكن طموح الأطفال الذين احتلوا المرتبة الأولى فى الاسرة لا يعنى أنهم يتميزون بالاستقلال . ولقد وجد سيرز Sears عام ١٩٢٠ وشاكتر عام ١٩٦٤ م ان هؤلاء الأطفال فعلا اكثر اتكالا على الآخرين ، وايسر تأثرا من الذين يولدون بعد ذلك . وأن الأطفال الذين يتأخر ترتيبهم فى الأسرة يجدون تقبلا اكثر من اترابهم (Sells & Roff 1963) وانهم يتميزون باتجاه أكثر استرخاء. ولقد وجد دياموند ومونز (Diamond & Munz 1967) أن الذين يجىء ترتيبهم فى الميلاد متأخرا أكثر قدرة على التغلب على العوائق الاجتماعية بالانفتاح الذاتى Self - disclosure ولكن يبدو أن الاناث الأول فى الأسرة من حيث رتبة الميلاد اذا توقعن تلقى صدمات كهربائية تظهر لديهن رغبة أقوى للصحبة ممن تأخر ميلادهن . وهذه النتيجة تقترح علينا أن الطموح الظاهر عند المجموعة الاولى من الأطفال تمثل رغبة فى التقبل او موافقة الآخرين أكثر من تمثيلها للنجاح . ولقد صمم رادلوف (1961) Rodloff دراسة استطاع فيها أن يقنع بعض المفحوصات من الاناث ان آراءهن تختلف عن آراء غالبية اترابهن . واتضح ان الاناث الأول من حيث ترتيب الميلاد واللاتى كن فى خلاف وصراع مع اترابهن عبرن عن رغبة اقوى من زميلاتهن اللاتى اتفقن مع الاتراب فى مزيد من النقاش حول الموضوع . وهذه النتيجة لم تظهر لدى المتأخرات فى الميلاد من المفحوصات .

وهنك نتائج تثير الاهتمام عن العلاقة بين ترتيب الميلاد والتعرض للمرض النفسى . وعلى الرغم من ان النتيجة القائلة بأن الاطفال الأول من

حيث ترتيب الميلاد ليسوا أكثر مقاومة للتعرض للادمان على المسكرات من الأطفال الذين يولدون متأخرين (Schachter 1959) لم تثبت صحتها فى دراسة لاحقة (Smart 1963) الا انهم فيما يبدو أكثر تعرضا لان يكونوا اطفالا مشكلين problem children، وانهم أكثر قلقا ازاء المواقف الخطرة . ويبدو ان أعلى نسبة من الجانحين هى من الأبناء الذين يتوسطون اخوتهم من حيث ترتيب الميلاد . وهناك دليل غير قاطع على أن من يتأخر ميلادهم فى الأسر (على الأقل من الاناث) أكثر تعرضا للشيزوفرينيا ممن يحتلون المرتبة الأولى من حيث الميلاد . ويبدو أن آخر الأطفال اقل كفاءة من الناحية الاجتماعية بصفة عامة ، على الرغم من ان دراسات اخرى بينت انهم اكثر ابتكارا . والصورة ما تزال فى حاجة الى مزيد من البحوث لتتضح معالمها .

الاهتمام الاجتماعى :

لقد قام ورثن واوكونل Worthen and Oconnell بدراسة من الدراسات النادرة تناولت مفهوم ادلر عن الاهتمام الاجتماعى . وعن الميل الى التعاون بدلا من التنافس وايهما يمكن تنميته عن طريق التعلم . ولقد قيس الاهتمام الاجتماعى البناء باختبار قيم وضعه الباحث الأول ، كما قيس تقدير روح الدعابة humor appreciation باختبار وضعه الباحث الثانى . واسفرت النتائج عن وجود معامل ارتباط بين الاهتمام الاجتماعى وتقدير روح الدعابة . وينبغى أن نتبين مدى التطابق بين المتغيرات موضع القياس وتصورات ادلر .

وحديثا قام جريفز وزميلاه Greeves, Tseng and Friedland بوضع اختبار قرطاسى يسمى مقياس الاهتمام الاجتماعى Social Interest Index لتحديد درجة الاهتمام الايجابى فى أربعة مجالات للحياة : العمل والصداقة والحب ومغزى الذات Self - significance . وعلى اساس اتفاق ثلاثة من علماء النفس الفردى البارزين تم اختيار ٣٢ بندا يجيب عنها المفحوصون على اساس مقياس متدرج من خمس نقاط يحددون مدى الملاءمة الشخصية مع البند . ولقد اتضح أن هذه البنود لا ترتبط مع مقياس للاشتهائية الاجتماعية . وبلغت درجة الاتساق الداخلى ٨١ر. وبلغت درجة الاستقرار بعد ١٤ يوما ٧٩ر .

ولقد طبقت الأداة على ٢٢٨ من المفحوصين من الجنسين ، ووجد جريفز وزميلاه أن الاناث حصلن على درجات أعلى فى الاهتمام الاجتماعى من الذكور،وأن هذا الاهتمام يتزايد مع التقدم فى العمر ومع متوسط درجات التحصيل grade point average ولكنه لا يتصل بالمستوى الاجتماعى الاقتصادى .

وباستثناء النتيجة الخاصة بالتحصيل الدراسى تتسق هذه النتائج مع الفكر الأدلرى . ونتائج ارتباط مقياس الاهتمام الاجتماعى مع متغيرات اختبار شخصية شامل مقنن هو اختبار كاليفورنيا للشخصية مدرجة فى الجدول رقم (٤ — ١) The California Personlity Inventory

والقول بصدق المفهوم لمقياس الاهتمام الاجتماعى يستند الى وجود ارتباطات بين نتائجه ودرجات المفحوصين فى متغيرات الاشتراكية والمسئولية الاجتماعية والاحساس بالصحة والتحصيل عن طريق المسايرة . وهذا المقياس جدير بمزيد من الدراسة الامبيريقية .

جدول (١ و ٤)

يبين معاملات الارتباط بين مقياس الاهتمام الاجتماعى و ١٨ درجة لاختبار كاليفورنيا Calfornia PsychologicalT est CPT

متغيرات CPT	ر أ		ر ب		ر ج	
السيطرة	×	٠ر٢٧	×	٠ر٢٠	××	٠ر٣٥
القدرة على اكتساب المكانة	××	٠ر٢٧	××	٠ر٢٥	×	٠ر٢٦
الاجتماعية	××	٠ر٢٧	××	٠ر٢٤	××	٠ر٢٧
الحضور الاجتماعى		٠ر٠٧		٠ر٠٨		٠ر٠٨
التقبل الاجتماعى	×	٠ر١٦		٠ر٠٩	•	٠ر٢٠
الاحساس بالصحة Sense of Well being	××	٠ر٣٦	××	٠ر٢٧	××	٠ر٣٦
المسئولية	××	٠ر٣٩	××	٠ر٢٩	××	٠ر٣٢
الاجتماعية	××	٠ر٣٩	××	٠ر٣١	××	٠ر٢٨
ضبط الذات	×	٠ر١٩		٠ر١٠	×	٠ر٢٦
التسامح	××	٠ر٣٦	•	٠ر١٧	××	٠ر٢٧
الانطباع الجيد	××	٠ر٢١	•	٠ر١٤	××	٠ر٣٥
الاشتراكية	××	٠ر٤٠	××	٠ر٣٧		٠ر١٨
التحصيل عن طريق المسايرة	××	٠ر٣٥	××	٠ر٢٥	××	٠ر٣٥
التحصيل عن طريق الاستقلال	•	٠ر١٣		٠ر٠٥		٠ر١٤
الكفاءة العقلية	××	٠ر٣٣	×	٠ر٢٤	××	٠ر٣٠
Psychological mindedness		٠ر٠٩	—	٠ر٢٠	××	٠ر٣٤
المرونة	××	—٠ر٢٢	××	—٠ر٢٧	•	—٠ر١٧
الأنوثة	××	٠ر٢٩		٠ر٠٣		٠ر٠٨

حجم العينة الكلية = ٣٤٤ (أ)   الذكور = ١٩٨ (ب)   الاناث = ١٨٩ (ج)

• أ < .05

× أ < .01

×× أ < .001

الذكريات المبكرة :

حين كان أدلر يجمع البيانات الخاصة بالفرد استخدم الذكريات المبكرة استخداما كاملا ، كما استخدم تاريخ النمو وأهداف الفرد المستقبلية فى محاولة لفهم اتجاه الفرد الحالى نحو الحياة والاتجاه الذى حدده للمستقبل .

ان اكثر البيانات نفعا على اية حال لفهم شخصية ولفهم كيف يصل شخص نفسه بمشكلات الحياة ، هى تلك البيانات التى تيسر تفسير الى اين يمضى الشخص فى الحياة ان هدف الحياة الذى وضعه الفرد لنفسه فى الطفولة هو الذى يحدد النمط الفريد لحياته . ان الجهة التى يمضى اليها ، وليس الجهة التى جاء منها هى التى تقدم لنا مفتاحا لفهم شخصيته ، والطريقة التى يواجه بها مشكلات الحياة . ان الحياة تتطلب حل مشكلات المجتمع وهكذا فان سلوك الانسان كله يشير دائما الى المستقبل حتى حين يبنى هذا المستقبل من مادة مأخوذة أو مشتقة من الماضى .

تحليل الاحلام :

يتفق أدلر مع فرويد على اهمية الاحلام ولكنه يختلف مع تفسيره لها ، فالاحلام بالنسبة لادلر تزود الفرد بطريقة بديلة لمعالجة مشكلات الحياة . انها توفر وسيلة لتجريب حلول مختلفة للمشكلات وتخطيط للمستقبل . وبتحليل كيفية الاحلام وكيفية تخطيط وقائع المستقبل ، يمكن تعلم قدر كبير من اسلوب الشخص فى الحياة .

ولم يقبل أدلر نظرية فرويد فى الاحلام باعتبارها تمثل اشباعا لرغبات جنسية طفلية ، واكد على قصور هذه النظرية عن فهم الاحلام . ولكنه قبل تمييز فرويد بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن للحلم ، واستخدم ايضا طريقة فرويد فى التداعى الحر لفهم الاحلام على الرغم من انه فعل ذلك مع تعديلها وتقييدها .

ولقد رأى ان الاحلام تدل على أن الحالم يشعر بتصوره عن حل المشكلات وهو يقظان . وهذا يوضح السبب فى أن الأصحاء ومن حسن توافقهم لا يحلمون . وقد اضاف ان الحالم قد يلقى بالغموض على مسائل

معينة بنفس الطريقة التى يتبعها الخطيب أو الكاتب حين يستخدم الرموز والمجاز اذا لم يكن فاهما للموضوع على نحو جيد . واكد ادلر على ضرورة تحقيق التكامل بين تفسير الاحلام وفهم الشخصية ككل لا ان ينظر الى الرموز باعتبار أنها قابلة للتطبيقات العامة . وهذا المدخل يفرق بين طريقته فى تفسير الاحلام وطريقة فرويد .

ولقد أظهر أدلر كيف يمكن الكشف عن معنى الاحلام بدراسة الاتجاهات والحركات التى عبر عنها فيها . وعلى سبيل المثال ، فان احلام السقوط تحدث لاناس يخافون ضياع شهرتهم بعد أن حققوا مركزا معينا . ومن ناحية أخرى فان احلام الطيران قد تحدث لدى الطموحين الذين يكافحون لتحقيق التفوق ، والذين يخشون عدم تحقيقه . واحلام الموتى قد تعنى أن الحالم ما يزال مرتبطا ارتباطا وثيقا مع شخص توفى ، كما لو انه ما يزال حيا . والحلم بأن القطار قد فات الشخص أو أن السفينة تركته يعنى الخوف من ضياع الفرص . وقد تعنى ايضا ميلا الى تجنب الفرد لان يعرض نفسه للتفضح ، أو امكانية الهزيمة اذا تأخر . واحلام الامتحانات تعنى خوفا مبالغا فيه من أن يوضع الفرد موضع الاختبار . والحلم الشائع بأن الانسان لا يرتدى الملابس اللائقة ينشأ عن الخوف من الكشف عن العيوب .

التقويم والمكانة الراهنة :

ان نظرية ادلر تلقى الآن للمرة الثانية الذيوع والانتشار ، ذلك أن عددا كبيرا من المربين والموجهين النفسيين والمعالجين يتبنونها . هذا فضلا عن اثارتها لقدر كبير من البحوث ، وخاصة عن آثار ترتيب الطفل بين أخوته على الشخصية . والحق أن عددا متزايدا من اصحاب التأثير يعتبرون اسهام أدلر فى علم النفس اعظم من اسهام فرويد نفسه .

يقول البرت اليس Albert Ellis ان الفرد ادلر حتى أكثر من فرويد يحتمل أن يكون الأب الحقيقى للعلاج النفسى الحديث . وهذه هى بعض الأسباب التى تحمل على صحة هذا الرأى . لقد اسس علم نفس الآنا الذى أعاد الفرويديون اكتشافه حديثا . وكان واحدا من اوائل علماء النفس

الانسانيين ... وأكد على الكل ، وعلى البحث عن الهدف ، وعلى أهمية القيم فى التفكير الانسانى وفى العاطفة الانسانية وفى الفعل الانسانى . ولقد رأى على نحو صحيح أن الدوافع الجنسية والسلوك — ولو أن لها أهمية فى المسائل الانسانية — الا انها الى حد كبير نتيجة لفلسفات الانسان غير الجنسية .

ويصعب أن نجد معالجا نفسيا هاما اليوم ليس مدينا فى جانب من الجوانب لعلم النفس الفردى عند ادلر .

وينبغى ان نشير الى انه على الرغم من أن اليس يرجع تأسيس علم نفس الآنا الى ادلر ويقدر ملحوظ من المسوغات السليمة ، الا أن هذا الفضل عادة ينسب اما الى آنا فرويد او الى اريك اريكسون لان اريكسون فى الحقيقة فصل فى بيان وظائف الآنا اكثر من اى عالم نفس آخر سبقه . والحق أيضا أن نظرية ادلر فكت اسار الفرد من الهو ونزعاتها الغريزية وأكدت على اهمية الخبرة الشعورية وهذا يتفق مع ما سمى فيما بعد بعلم نفس الآنا .

ولقد انتشرت كثير من افكار أدلر واصبحت من مفاهيم علم النفس العام كمفهوم التعويض بسبب مشاعر القصور والدونية ، ولم يعد مرتبطا بعلم النفس الفردى . وقد حدث تطور مماثل فى مجال التربية فلقد توصل المربون بعد قدر كبير من التجريب التربوى الى الاهتمام بالمرامى التربوية ، ولقد حلل أدلر واهتم بمفهوم الاهداف فى نظريته .

الفصل الخامس

كارين هورنى

الأبنة الأولى والطفل الثانى لبرندت وكلوثلايد دانيلسون . وقد ولدت في هامبورج فى الجزء الشمالى من المانيا فى ١٦ سبتمبر ١٨٨٥ م لاب نرويجى وأم هولندية . وكانت أسرتها بروتستانتية ، ومن مستوى اقتصادى اجتماعى جيد ومستقرة مع فارق أساسى واحد له مغزاه وهو ان والدها كان قبطانا لسفينة تجارية وكان يصحب ابنته الصغيرة فى رحلات بحرية طويلة. ولعل هذه الخبرات غير المالوفة أسهمت فى زيادة اهتمامتها بالثقافات المختلفة ولكن هذه الرحلات كانت فترات قصيرة اذا قورنت بالزمن الذى عاشته مع الاسرة مع أم واخ اكبر منها سمى باسم ابيه وكان مفضلا عند الأب .

ولقد كانت كارين دانيلسون طالبة متفوقة ، وكان من النادر فى عصرها أن تدرس فتاة الطب ، ولكنها قررت أن تتخصص فى الطب حين بلغت الثانية عشرة من عمرها بالرغم من معارضة أبيها القوية لهذه الرغبة . ولقد كان اهتمامها بدراسة نفسها سيكولوجيا واضحا حين بدأت فى كتابة يومياتها فى سن الثالثة عشرة واستمرت فى ذلك حتى تم تحليلها نفسيا بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ .

وفى سن الحادية والعشرين ذهبت الى برلين لتلتحق بمدرسة الطب. وتزوجت اوسكار هورنى — بعد ذلك بسنتين — وكان محاميا شابا فى برلين . وبعد ان حصلت على درجتها فى الطب M.D انضمت الى جمعية برلين للتحليل النفسى وذلك مع كارل ابراهام . وسرعان ما أصبحت هى نفسها محللة نفسية ثم مدربة للآخرين على التحليل النفسى فى معهد برلين للتحليل النفسى الذى تأسس عام ١٩٢٠ م . ولقد ربت ثلاث بنات أنجبتهن.

ولقد درست هورنى ومارست التحليل النفسى فى البدايات الأولى لحركة التحليل النفسى.وكان فرويد ما يزال يطور نظرياته فى القلق والحيل الدفاعية وفى اللاشعور وفى الجهاز النفسى . ولقد شاركت هورنى فى هذا بكتابة عدة مقالات لها اهميتها النظرية بما فى ذلك بعض مقالات كتبتها

عن سيكولوجية المراة . ولقد شعرت منذ البداية فى حياتها المهنية ان الرجال لم يفهموا المراة على النحو الصحيح .

وفى هـذا الوقت حدثت اضطرابات سياسية فى المانيـا ، وظهـر استقطاب فى الحياة السياسية وبدا الريخ الثانى تحت سيطرة قيصر فى التطور ليصبح فى النهاية حكما فاشيا . وظهرت حركة مضادة له اتجهت نحو الماركسية : ولقد اختارت كارين هورنى ان تتجه مع آخرين — اريك فروم وولهلم ريخ — نحو هذا اليسار .

وفى عام ١٩٣٢ ، وبناء على دعوة من فرانز الكساندر ذهبت هورنى الى الولايات المتحدة الامريكية لتصبح مديرة مساعدة لمعهد شيكاغو للتحليل النفسى . وكانت قد انفصلت عن زوجهـا قبل هجرتها الى امريكا ولكن ارتباطها بفرانز الكساندر لم ينجح . وبعد عامين ، اى فى عام ١٩٣٤ انتقلت هورنى الى نيويورك واستقرت لتتفرغ للعمل الكلينيكى ولتشارك بنشاط فى جمعية نيويورك للتحليل النفسى ومعهد نيويورك للتحليل النفسى ولتقـوم بتدريب المحللين .

وبعد عقدين من ممارسة التحليل النفسى الكلاسيكى بدات هورنى فى تاليف كتب تنتقد فيها وجهة نظر التحليل النفسى فى النمو الانسانى وفى طبيعة العصاب وفى اسلوب العلاج النفسى وتقدم تعديلات هامة . وعلى الرغم من انها نشرت عدة مقالات فى المانيا الا ان كتابها الأول « الشخصية العصابية فى زماننا » The Neurotic Personality of Our time ظهر فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٧ ، وهو عام طلاقها ، كما ظهر كتاب « طرق جديدة فى التحليل النفسى » New Ways in Psychoanalysis عام ١٩٣٩ وهو مراجعة لنظرية فرويد نقطة بعد اخرى . وهذا العام هو العام الذى توفى فيه فرويد .

ولقد ادى نشر هذا الكتاب وانتقاداتها الواضحة لطـريقة تدريس التحليل النفسى الى اغضاب زملائها الفرويدين فاتخذوا اجراءات ضدها فى اجتماع صاخب لجمعية نيويورك للتحليل النفسى عام ١٩٤١ .وبعد التصويت انسحبت من الاجتماع ومعها مؤيدوها واستقالت من الجمعية .

وفى سبتمبر من نفس العام كونت هورنى وعشرين محللا نفسيا آخرين جماعة تقدم التحليل النفسى

Association for Advancement of psychoanalysis

ومنذ هذه السنة وحتى نهاية حياتها انغمست هورنى فى صراعات سياسية وشخصية فى عالم التحليل النفسى وشاركت فى مناظرات ومجادلات وكتبت مقالات وردود نشرتها مجلات المنظمتين المتنافستين . ولقد ربت أطفالها وزاولت الرسم واحتفظت بدائرة واسعة من رجال المسرح ورجال الدين والفلاسفة والانتروبولوجيين كأصدقاء .

وبالاضافة الى مقالاتها فى التحليل النفسى الكلينيكى كتبت سلسلة من الكتب وضعت للجمهور العام ولم تكن متسقة مع ذوق زملائها الأكثر تمسكا بالفرويدية الخالصة . ولم تتناول المجلات المهنية بعض كتبها بالعرض أو النقد ، بينما لقى البعض الآخر هجوما عنيفا عندما لقى اعترافا رسميا . ولقد استمرت هورنى فى التعبير عن افكارها ونظرياتها المتطورة الناشئة نتيجة لخبرتها الكلينيكية . ولقد ادت التقلبات الاجتماعية الاقتصادية فى المانيا والتغييرات الشخصية فى حياتها الى زيادة حساسيتها لأهمية وتأثير العوامل الاجتماعية فى الشخصية . ولقد جلبت لحركة التحليل النفسى وعيا جديدا بالحاجة الى الاهتمام بآثار الاسرة والمجتمع فى تكوين العصاب .

ولقد افسحت المجال بكتاباتها لعدد من الناس رجالا ونساء ليهتموا بفهم الذات . ولم تأنس قط للفكرة الفرويدية القائلة بالحتمية البيولوجية والتى تجاهلت المسائل الثقافية والتى شوهت سمعتها كامرأة بطريقة غير مباشرة . ولقد كانت هورنى أول كاتبة أساسية فى التحليل النفسى تتسم بالجراة وترى بأنه على الرغم من أن المعالج النفسى له اهمية ودور الا انه فى الامكان اكتساب استبصارات فى التحليل النفسى عن طريق تحليل الذات .

ولقد توفيت فى مدينة نيويورك فى ٤ ديسمبر ١٩٥٢ ، وكان عمرها ٦٧ عاما . وبعد أربع سنوات من وفاتها انتظم تلاميذها والمعجبون بها فى

الاكاديمية الامريكية للتحليل النفسى American Academy of Psychoanalysis وهى جماعة نشطة حتى يومنا هذا . ولقد استمرت تعلم كل جديد وجيد يدعو الى التفاؤل عن الانسان فى ضوء امكانياته وقدرته على القيام بوظائفه .

مقـــــدمة :

لقد دربت هورنى وفقا للتقاليد الفرويدية ، وتأثرت فى عملها كله بهذا التدريب . ولقد حللت نفسيا عنـــدما كانت فى معهد برلين للتحليل النفسى على يد كارل ابراهام وهانز ساكس K. Abraham & H. Sachs وهما محللان نفسيان مرموقان فى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد وجدت هورنى بمضى الوقت أن من الصعب تطبيق افكار فرويد فى عملها . وقد اختلفت اختلافا تاما مع أفكار فرويد عن عقدة أوديب ، وعن تقسيم العقل الى هو وآنا وآنا اعلى . لقد شعرت أن نظرية فرويد تعكس ثقافة مختلفة عن الثقافة الامريكية وعصرا مختلفا عن العصر الذى عملت فيه فى نيويورك . لقد وجدت أن نظـــرية فرويد لا تلائم المشكلات التى يعانى منها الامريكيون فى سنوات الكساد . لقد كانت المشكلات الجنســـية بالنسبة لهم ثانوية اذا قورنت بعـــدد من المشكلات التى نشأت بسبب ظروفهم البيئية .لقد قلق الناس بسبب فقدانهم لاعمالهم ، وقلة ما لديهم من مال ليدفعوا اجور السكن وليشتروا طعـــاما وليوفروا العناية الطبية لاطفالهم .

ولقد رأت هورنى ان خبرات الناس تختلف من بلد الى آخر ومن زمن الى آخر وكذلك ما يواجهون من مشكلات ، ومن هنا فلا بد أن تكون هذه المشكلات مرتبطة بالعوامل الثقافية اكثر من ارتباطها بالعوامل البيولوجية ، كما ذهب الى ذلك فرويد . اى ان ما يخبره الشخص اجتماعيا سواء اكانت لديه مشكلات نفسية أم كان خلوا منها سوف تحدد نوع هذه المشكلات ، أن الصراع ينشأ عن الظروف البيئية ولا ينشأ نتيجة لمكونات متعارضة فى النفس او العقل « اى بين الهو والآنا والآنا الأعلى » كما ذهب الى ذلك فرويد .

وينبغى أن نلاحظ ان هورنى لم تكتب عن نظريات الشخصية وانمـــا

كتبت ودرست واشتغلت بالجوانب العصابية فى سلوك الانسان . وهى فى عملها هذا توصلت الى اساس عقلانى يساعدنا على فهم سلوك الانسان، والكشف عن الأسباب التى تدفعه الى ما يقوم به من أعمال . فنظريتها استهدفت فى الأصل تفسير السلوك العصابى . وما نعرضه هنا يطرح سؤالا اساسيا على القارىء وهو الى اى حد استطاعت هورنى أن تقدم لنا نظرية عامة للسلوك .

وصف السلوك الانسانى :

لعل هذا الوصف يتضح من دراسة مقدار الاتفاق بين هورنى وفرويد ومقدار الاختلاف حول المفاهيم الأساسية .

نواحى الاتفــاق : :

١ ـــ **الحتمية النفسية** : ان العلية او السببية مفهوم أساسى يساعدنا على فهم ديناميات الانسان . أى أنه ينبغى أن يوجد لكل فعل سبب يسببه. وأن السلوك لا يحدث اعتباطا ، فوراء كل سلوك مقدمات لها طبيعة عليـــة .

٢ ـــ **الدوافع اللاشعورية** : ذهبت هورنى فى فترة معينة الى القول بأن هذه الفكرة من اهم اسهامات فرويد . وهى ترى أن العداء المكبوت هو الذى يؤدى الى القلق الأساسى الذى يؤدى بدوره الى العصاب .

٣ ـــ **الحوافز الانفعالية** : الانفعالات ميكنزمات دافعـــة أولية لســـــلوك الانسان . فالانسان حيوان غير عقلانى .

٤ ـــ **حيل الآنا الدفاعية** : على الرغم من أن هورنى أضافت اضافات فى استخدامها لحيل الآنا الدفاعيـــة ، الا انها بعـــد ان وسعت معانيها بطريقتها تعتبرها اداة عظيمة القيمة فى العلاج .

٥ ـــ **الأساليب العلاجية** : ان هورنى تقدر تقديرا عاليـــا أدوات العلاج كالتحويل : والتداعى الطليق وتحليل الاحلام وهى مفاهيم واساليب قدمها فرويد واستخدمها .

نواحى الاختلاف مع فرويد : —

١ — **الهو والآنا والآنا الأعلى** : ان عدم اتفاق هورنى مع فرويد فى هذه المسألة ليس واضحا كالاضافات التى قدمتها فى الميكنزمات الأولية .

٢ — **عقدة التكرار** : لا يكرر الانسان سلوكه الطفلى على نحو اعمى وانما يستجيب بدلا من ذلك لمواقف القلق استجابة صادرة عن بنية شخصيته او بنيته الخلقية التى يشتقها من حياته المبكرة ككل .

ولقد شعر فرويدبطبيعة الحال أن الشخصية تتشكل فى فترة مبكرة من الحياة وانه يصعب جدا احداث تغييرات اساسية بعد ذلك . وتتفق هورنى مع فرويد على ان الشخصية تتأثر تأثرا شديدا بالخبرات المبكرة ، ولكنها تظل قابلة للتغيير خلال الحياة . وهكذا نجدها اكثر تفاؤلا من فرويد .

ولقد اعتقد فرويد بوجود مراحل للنمو عامة وان التثبيت على اى مرحلة يؤثر تأثيرا قويا فى شخصية الراشد . اما هورنى فترى ان علاقة الطفل بوالديه هامة لانها تحدد ما اذا كان الطفل سينمى قلقا اساسيا ام انه لن ينمى مثل هذا القلق .

٣ — **عقدة أوديب** : ان هذه العقدة ليست انماطا سلوكية ذات توجه جنسى خالص ، ولكنها قلق اثاره الوالدان لدى الطفل نتيجة لمشاعر العقاب والتسامح أو النبذ وكلها جزء من بيئة الطفل ، وهى لا تنمو بالضرورة لدى جميع الأطفال .

٤ — **حسد القضيب** : ترى هورنى ان من المعقول ان يحسد الطفل امه على قدرتها على انجاب الأطفال الصغار ، كما تحسد البنت اباها على عضوه الثمين ، وهكذا تصبح منغمسة فى نبذ الأم .

٥ — **اللبيدو او الطاقة الحيوية** : تفضل هورنى اعتبار اللبيدو حافزا انفعاليا بدلا من اعتباره نزعة جنسية حيوانية تلازم الانسان الى الأبد .
« فليس كل ما يلمع ذهبا ، وليس كل ما يبدو جنسيا جنسى »

(1937, p. 57) . ولقد شعرت أن المشكلات الجنسية نتيجة للقلق وليست سببا له . وان الرجل يعول على السلوك الجنسى كطريقة لتأكيد الذات نتيجة لمشاعر عدم الأمن .

لقد اكد فرويد على اهمية الدوافع البيولوجية . فجميع الصراعات نابعة من محاولات اشباع الحوافز البيولوجية . وهو يؤكد فى نظريته على الحافز الجنسى لانه يصعب اشباعه فى المجتمع المعاصر . ولقد قللت هورنى من اهمية الدوافع البيولوجية بتاكيدها على حاجة الطفل للأمن . وهكذا يمكن القول أن نظرية فرويد بيولوجية ونظرية هورنى اجتماعية . (Bischof, pp. 204-205)

العداء الأساسى والقلق الأساسى :

لقد اكدت هورنى فى كتابها « الشخصية العصابية فى زماننا » The Neurotic Personality of Our time على ان العصاب يرجع الى العلاقات الانسانية المضطربة . وبتحديد أكبر فاننا نجد أصول السلوك العصابى فى العلاقة بين الوالدين والطفل . وهى فى هذا تتفق مع نظرية فرويد وذلك لانها أكدت على اهمية خبرة الطفولة المبكرة فى نمو الشخصية. ولكنها لم تقبل ما ذهب اليه فرويد من افكار عن مراحل النمو النفسى الجنسى.وهى تعتقد شأنها فى ذلك شأن ادلر ان الطفل يبدأ الحياة بشعور نسبى بالعجز ازاء والدين قويين وترى أن الطفولة تتميز بحاجتين أساسيتين هما الحاجة للأمن Safety والحاجة للرضا Satisfaction وان الطفل يعتمد على الوالدين اعتمادا تاما لاشباعهما .

وعلى الرغم من ان كل طفل فى الحقيقة يعتمد على الوالدين وعاجز بالنسبة لهما فى سنواته الأولى ، الا ان هذه الحاجة لا تخلق بالضرورة مشكلة نفسية . وهورنى لا تتفق مع ادلر فى ان كل طفل يشعر بالعجز والقصور ويقضى بقية حياته محاولا التعويض عن هذا الشعور والتعويض الزائد عنه . ولقد شعرت ان حالة العجز شرط ضرورى لنمو العصاب ولكنه ليس شرطا كافيا وحده . ويمكن ان يحدث أمران : —

١ — أن يبدى الوالدان عطفا حقيقيا ودفئا نحو الطفل وبالتالى يشبعان حاجته للأمن .

٢ — ان يبدى الوالدان عدم مبالاة وعداء بل وحتى كراهية نحو الطفل ، وبالتالى يحبطان حاجة الطفل للأمن .

والظروف الأولى تؤدى الى النمو السوى بينما تؤدى الظروف الثانية الى نمو عصابى .

وتطلق هورنى على سلوك الوالدين الذى يقلل من شعور الطفل بالأمن « الشر الأساسى » basic evil . ومن امثلة هذه الانماط السلوكية : عدم الاهتمام بالطفل ، ونبذه ، ومعاداته ، وتفضيل اخوته عليه وعقابه ظلما والسخرية منه ، واذلاله ، والتذبذب فى السلوك ازاءه وعدم الوفاء بالوعود ، وعزله عن الآخرين .

ان الطفل الذى تساء معاملته بطريقة أو اكثر أو بخبرة او اكثر مما اسلفنا يشعر بعداء اساسى basic hostility نحو والديه . وهكذا يجد الطفل نفسه محصورا بين الاتكال على الوالدين والعداء نحوهما . وهذا موقف سيء ، لان الطفل لا يستطيع له تبديلا ، ولذلك ينبغى عليه ان يكبت مشاعره العدائية نحو والديه حفظا لبقائه . وهذا الكبت لعداء الطفل الأساسى مدفوع بمشاعر العجز والخوف والحب والاثم . فالطفل الذى يكبت عداوته الأساسية بسبب مشاعر العجز يقول لنفسه فيما يبدو « ان على ان اكبت عدائى نحوك لانى محتاج اليك » . والطفل الذى يكبت عداوته الأساسية بسبب الخوف يقول لنفسه فيما يبدو « ان على ان اكبت عدائى نحوك لانى اخافك » .

وقد لا يتوافر حب حقيقى للطفل فى بعض البيوت ، وان بذل بعض الجهد لاشعار الطفل بالحاجة اليه . وعلى سبيل المثال ، فقد تحل التعبيرات اللفظية عن الحب والعطف محل الحب الحقيقى والعطف الحقيقى ولا يجد الطفل مشقة فى ادراك الفرق بينهما ولكنه يتمسك بهذا الحب البديل لانه لا يوجد غيره وحينئذ قد يقول لنفسه « ان على ان اكبت عدائى خوفا من

فقدان الحب » وفى ثقافتنا قد يكبت الطفل عداءه الأساسى لانه قد نشأ بحيث يشعر بالاثم ازاء مشاعره السلبية نحو والديه ومثل هذا الطفل يشعر بالذنب وبأنه غير ذى جدارة اذا شعر بعداء نحو والديه ولذلك فانه يكبت مثل هذه المشاعر .

ولسوء الحظ فان مشاعر العداء التى يسببها الوالدان لا تبقى منعزلة ، وبدلا من ذلك تعمم لتشمل العالم كله والناس أجمعين . والطفل الآن مقتنع بأن كل شىء وكل فرد قد يكون خطرا . ويقال أن الطفل عند هذه النقطة لديه قلق أساسى .

« ان الحالة التى وصل اليها الفرد نتيجة للعوامل التى ذكرتها ... تتزايد على نحو خداع،وقوامها شعور شائع شامل بالعزلة والوحدة والعجز فى عالم عدائى ... وهذا الاتجاه فى ذاته لا يكون عصابا ولكنه تربة خصبة قد ينمو فيها العصاب فى اى وقت . وبسبب الدور الرئيسى الذى يلعبه هذا الاتجاه فى الأعصبة فقد أعطيته تسمية خاصة : « القلق الأساسى » وهو متشابك ولا يمكن فصله عن الداء الأساسى » . (1937, p. 89)

وتقول هورنى فيما يتصل بالقلق الأساسى والظروف التى تحدثه ما يأتى : — « ... انه الشعور الذى ينتاب الطفل بعزلته وعجزه فى عالم يحفل بامكانيات العداوة . ويمكن أن تؤدى مجموعة كبيرة من العوامل المتباينة فى البيئة الى هذا الشعور بانعدام الأمن لدى الطفل وهى : التحكم والسيطرة المباشرة وغير المباشرة ، واللامبالاة ، والسلوك غير المنتظم ،وعدم احترام حاجات الطفل الفردية ، ونقص التوجيه الحقيقى ، والاتجاهات المحطة المحقرة ، والاسراف فى الاعجاب أو غيبته ، ونقص الدفء الموثوق به ، والاضطرار الى الانحياز لاحد الوالدين عند الخلافة ، والمسئولية الزائدة عن الحد او الناقصة للغاية ، والحماية الزائدة ، والانعزال عن الأطفال الآخرين ، وعدم العدالة والتفرقة فى المعاملة ، وعدم الوفاء بالوعود والجو المعادى وهلم جرا » (1945, p. 41)

وترى هورنى ان اصول السلوك العصابى موجودة فى العلاقات بين الطفل ووالديه . فاذا خبر الطفل الحب والدفء ، فانه يشعر بالأمن وينمو

نموا سليما على الأغلب . ولقد شعرت هورنى أن الطفل اذا شعر بأنه محبوب حقيقة فانه يستطيع أن يتغلب على ما يلقاه من سوء المعاملة كتعرضه للعقاب البدنى بين الحين والآخر دون ان تترك مثل هذه الخبرات لديه آثارا مرضية . أما اذا لم يشعر الطفل بأنه محبوب ، فانه يشعر بالعداء نحو والديه ، وهذا العداء سوف يسقط فى النهاية على كل شىء وكل فرد ويصبح قلقا اساسيا . وترى هورنى أن الطفل اذا كان لديه قلق اساسى فهو فى طريقه لان يصبح راشدا عصابيا . (Hergenhahn. pp. 98-100)

أساليب التوافق مع القلق الاساسى :

يثير القلق الاساسى مشاعر قلة الحيلة والخوف ، ولذلك فان الشخص الذى يشعر بهذا القلق ينبغى أن يجد طرقا لابقائه عند الحد الادنى . ولقد حددت هورنى فى الاصل (١٩٤٢) عشر استراتيجيات لانقاص القلق الاساسى الى حده الادنى واسمتها الاتجاهات العصابية أو الحاجات العصابية . وسوف تلاحظ حين تلم بها انها حاجات لدى كل انسان تقريبا وهذه نقطة هامة . اى ان الشخص السوى فى الحقيقة لديه جميع هذه الحاجات او كثيرا منها وهو يسعى لاشباعها . اى انه حين تنشأ حاجته الى العطف فانه يحاول اشباعها ، وحين تثار حاجته الى الاعجاب الشخصى فانه يعمل على ارضائها وهكذا . أما الشخص العصابى فلا ينتقل بسهولة من حاجة الى اخرى مع تغير الظروف . وانما يميل الى التركيز على احدى الحاجات واستبعاد الاخرى أى أن العصابى يجعل احدى هذه الحاجات نقطة مركزية فى حياته . وهو يختلف عن الشخص السوى من حيث ان مدخله لاشباع احدى هذه الحاجات لا يتناسب مع متطلبات الواقع وانما يكون مبالغا فيها وتكون عادة غير مناسبة من حيث الشدة ، وغير مميزة من حيث التطبيق . وحين تمضى الحاجة بغير اشباع فانها تثير قلقا شديدا . فاذا كان العطف هو ما يحتاجه الشخص فانه ينبغى ان يتلقاه من الصديق والعدو ومن رئيسه فى العمل ومن ماسح الاحذية .

وفيما يلى عرض للاتجاهات العصابية العشر أو الحاجات : —

١ — الحاجة العصابية للعطف والموافقة .

— هذا الفرد يعيش لكى يحبه الآخريون ويعجبون به .

٢ — الحاجة العصابية لشريك يسير حياته .

— مثل هذا الفرد يحتاج الى الارتباط والانتساب الى شخص يحميه من الخطر ويشبع حاجاته .

٣ — الحاجة العصابية لان يعيش الفرد حياته داخل حدود ضيقة .

— مثل هذا الشخص محافظ جدا ، ويتجنب الهزيمة بمحاولته تحقيق التقليل

٤ — الحاجة العصابية للقوة .

— هذا الشخص يمجد القوة ويحتقر الضعفة .

٥ — الحاجة العصابية الى استغلال الآخرين .

— هذا الشخص ينزع من استغلال الآخرين له ، أما افادته من الآخرين فلا تستحق التفكير .

٦ — الحاجة العصابية الى التقدير الاجتماعى .

— ان هذا الشخص يعيش لكى يقدر . والهدف الاعلى له هو تحقيق الشهرة كأن يهتم بظهور اسمه فى الصحف .

٧ — الحاجة العصابية الى الاعجاب الشخصى .

— يعيش هذا الشخص ليثنى عليه ويمتدح ويتملق . ان هذا الشخص يريد من الآخرين ان يروه وفقا للصورة المثالية التى لديه عن نفسه .

٨ — الحاجة العصابية الى الطموح والانجاز الشخصى .

— ان لدى هذا الشخص ميل شديد للشهرة والغنى وان يصبح مهما بغض النظر عن النتائج .

٩ — الحاجة العصابية الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال .

— ان مثل هذا الشخص يبذل جهدا كبيرا ليتجنب الالتزام ازاء أى

فرد . ولا يريد أن يرتبط باى شيء أو اى فرد . ويتجنب العبودية مهما كان الثمن .

١٠— الحاجة العصابية الى الكمال وعدم التعرض للهجوم .

— يحاول هذا الشخص أن يكون خاليا من العيوب بسبب حساسيته الشديدة للنقد .

ويخبر الاسوياء من الناس معظم الحاجات السابقة ان لم يخبروها كلها وحين يفعلون ذلك فانهم يتناولونها على نحو سليم . وعلى سبيل المثال فان حاجة الاسوياء من الناس الى القوة لا تبلغ درجة من الشدة تؤدى الى صراع مع الحاجات الاخرى كالحاجة الى العطف والحب . ويستطيع الاسوياء من الناس أن يشبعوا جميع حاجاتهم لانهم لا يستشهرون انفعالاتهم على نحو مبالغ فيه فى حاجة معينة . اما العصابى فقد اتخذ من احدى حاجاته طريقا للحياة . اى حياة العصابى كلها تنفق فى محاولة اشباع حاجة واحدة على حساب جميع الحاجات الاخرى . ولما كان من المهم أن تشبع كثير من الحاجات الاخرى ، فان العصابى يجد نفسه سجين حلقة مفرغة . وكلما ازداد التاكيد على حاجة عصابية واحدة كوسيلة لمواجهة القلق الاساسى ، كلما مضت الحاجات الاخرى الاكثر اهمية دون اشباع . وكلما بقيت هذه الحاجات بغير اشباع وكلما ازداد شعور الشخص بالقلق ، ازداد انغماسه فى استراتيجية مفردة لمعالجة القلق . ويستمر موقفه على هذا النحو . (Hergenhahn, pp. 100-102)

التحرك نحو الناس وضدهم وبعيدا عنهم :

وتلخص هورنى فى كتابها صراعاتنا الداخلية Our Inner Conflicts ١٩٤٥ الاتجاهات العصابية العشر وتصنفهم فى ثلاث فئات . وتعتبر كل فئة من هذه الفئات توافقا عصابيا مع الآخرين . وتعتبر هذه الفئات الثلاثة للتوافق من اهم اسهامات هورنى فى نظرية الشخصية .

التحرك نحــو الناس :

هذا النمط من التوافق يشتمل على الحاجات العصابية ، الى

العطف والاستحسان ، والى شريك مسيطر ليسير حياته ، والى أن يعيش داخل حدود ضيقة . وتسمى هورنى هذا النمط بالنمط الممتثل الذى يبدو انه يقول لنفسه « اذا امتثلت فلن أتعرض للاذى » .

وفى ايجاز يحتاج هـذا النمط الى أن يكون محبوبا من قبل الآخرين ومطلوبا ومرغوبا فيه ، وأن يشعر بأن الآخرين يتقبلونه ويرحبون به ؛ ويوافقون عليه ويقدرونه ، ويحتاجونه ، وأن له أهمية عندهم ، وخاصة عند شخص معين حتى يحصل على المساعدة والحماية والرعاية والتوجيه .

وينبغى أن يلاحظ ان هذه التوافقات مع الآخرين من الناس تقوم على القلق الاساسى . وهكذا ؛ فعلى الرغم من أن الشخص قد يتوافق مع القلق الاساسى بالتحرك نحو الناس وبالبحث الظاهر عن الحب والعطف ، فان الشخص ما يزال فى اساسه عدائيا . وهكذا تكون صداقة الشخص الممتثل سطحية وتستند الى عدوان مكبوت .

وفشل هذا النمط فى تحقيق اهدافه وكسب محبة الآخرين له ، غالبا ما يعرضه لتوهم المرض « هيبوكوندريا » فيشكو من أعراض سيكوسوماتية ليستدر عطف الآخرين ومحبتهم .

التحرك ضد الناس :

وهذا الشخص عكس النمط الممتثل فى كثير من الانحاء . وهذا النمط من التوافق يجمع الحاجات العصابية للقـوة ، ولاستغلال الآخرين ، وللشهرة ؛ وللانجاز الشخصى . وتطلق هورنى على هذا النمط العدائى . ويبدو أنه يقول لنفسه « اذا توافرت السلطة أو القوة لى ، فان احـدا لن يستطيع أن يؤذينى » .

وينظر الى كل موقف وكل علاقة من زاوية فائدتها للفرد . سـواء اكانت هذه الفائدة مالا أو شهرة أو افكارا . والشخص مقتنع شـعوريا أو شبه شعورى بأن كل فرد آخر يسلك بهذه الطريقة وان المهم أن يقوم بهذا بكفاءة أكبر عن الآخرين .

والنمط العدائى قادر على أن يتصرف بأدب وود ، ولكن هذا الادب وسيلة لغاية . واصل هذا الاسلوب التوافقى هو القلق الاساسى كالاسلوب السابق وهذا القلق يرجع فى الاصل الى مشاعر عدم الامن .

التحرك بعيدا عن الناس :

يشتمل هذا النمط التوافقى على الحاجات العصابية الى الاكتفاء الذاتى ، والاستقلال والكمال وعدم التعرض للهجوم . وتسمى هورنى هذا بالنمط المنعزل The detached type ويبدو أنه يحدث نفسه قائلا « اذا انسحبت فان شيئا لا يمكن ان يؤذينى » .

والامر الهام لدى أفراد هذا النمط هو حاجتهم الداخلية لوجود مسافة انفعالية تفصل بينهم وبين الآخرين وتبقيهم عن بعد . وبلغة أدق ، انهم مصممون شعوريا ولا شعوريا على الا ينغمسوا انفعاليا مع الآخرين بأية طريقة سواء أكان ذلك فى الحب او العراك ، فى التعاون او التنافس . انهم يحيطون انفسهم بنوع من الدوائر السحرية التى تحول دون اختراق اى فرد .

والشخص السوى يستخدم هذه الاساليب التوافقية الثلاثة مع الآخرين ، ويتوقف هذا الاستخدام على ملاءمة الاسلوب للموقف . والعصابيون لا يستطيعون ذلك . أنهم يؤكدون احد هذه الاساليب على حساب الاسلوبين الآخرين . وهذا يسبب مزيدا من القلق لان جميع الناس يحتاجون الى ان يكونوا عدوانيين حينا وممتثلين حينا آخر ومتباعدين حينا ثالثا . والنمو العصابى غير المتوازن يسبب مزيدا من القلق الذى يحدث بدوره قدرا من الخلل فى النمو . وهكذا نقع مرة اخرى فى حلقة مفرغة .

وينبغى ان يلاحظ ان هذه الانماط التوافقية الثلاثة فى اساسها غير متسقة . اى ان الفرد لا يستطيع مثلا ان يتحرك نحو الناس وبعيدا عنهم فى نفس الوقت . اى ان هذه الاساليب التوافقية الثلاثة متصارعة الواحد مع الآخر بالنسبة للعصابى وللسوى على السواء . غير ان الصراع بالنسبة للشخص السوى ليس مكلفا انفعاليا تكلفته بالنسبة للشخص

العصابى . أى أن السوى لديه مرونة أعظم وهو أكثر قدرة على الحركة من أسلوب توافقى الى آخر مع تغير الظروف . وينبغى على العصابى أن يواجه جميع مشكلات الحياة مستخدما نمطا واحدا من هذه الانماط الثلاثة التوافقية سواء أكان هذا النمط ملائما أم غير ملائم . ويترتب على ذلك أن يكون الشخص العصابى أقل مرونة بكثير من الشخص السوى وأقل فاعلية فى تناول مشكلات الحياة . (Hergnhahn, pp. 102-103)

العلاقة بين الذات الواقعية والذات المثالية :

هناك فرق بالنسبة لكل فرد بين الذات الواقعية والذات المثالية . وتشتمل الذات الواقعية على الاشياء التى تصدق علينا فى أى زمن معين . وتعكس الذات المثالية ما نود أن نصير اليه . والذات المثالية عند الاسوياء هدف يودون بلوغه فى المستقبل ، انها شىء يستطيعون أن ينظموا حياتهم على أساسه وان يطمحوا لبلوغه . والذات الواقعية والذات المثالية يتصلان دائما اتصالا وثيقا عند الشخص السوى ولا تبعد احداهما عن الاخرى بمسافة كبيرة . ويبدو ان الانسان السوى يحدث نفسه قائلا « على أساس مكانتى الآن ، وعلى أساس ما أنا عليه الآن فان هذا ما آمل أن أكون عليه على نحو معقول فى المستقبل » وبالنسبة لهذا الفرد فانه مع تغير الذات الواقعية وهذا ما يحدث لا محالة تتغير الذات المثالية أيضا . وكذلك كلما حققنا مثلا عليا حلت محلها مثل أخرى . وهكذا فالمطامع بالنسبة للشخص السوى واقعية وديناميه .

أما بالنسبة للشخص العصابى فان العلاقة بين الذات الواقعية والذات المثالية مشكلة . ذلك ان انطباع العصابى عن الذات الواقعية مشوه . ولقد قامت حياة هؤلاء الناس كلها على مسلم هو أن الذات الواقعية منحطة وحقيرة ، ولو لم يكن الامر كذلك لم تعرضوا لسوء المعاملة وهم أطفال وهكذا تصبح الذات المثالية عند العصابى مهربا للذات الواقعية أكثر من كونها امتدادا واقعيا لها . والذات المثالية عند العصابى رغبة أكثر منها حقيقة . والذات المثالية عنده غير واقعية وحلم لا يتغير .

وحين تتجه حياة الفرد الى صورة للذات مثالية وغير واقعية فان الفرد يكون مدفوعا بما ينبغي ان يكون عليه اكثر مما يكون مدفوعا بما هو عليه . وتشير هورني الى هذا — او تسميه — تسلطية الانبغائية Tyranny of the should « عليك ان تنسى ما انت عليه فعلا كمخلوق معيب ؛ فيما يلي ما ينبغي أن تكون عليه وكيف ينبغي ان تكون وان تصبح ذاتا مثالية هو مسألة أهم مما عداها . ينبغي ان تكون قادرا على تحمل كل شيء ، وان تفهم كل شيء وان تحب كل انسان ، وأن تكون دائما منتجا — هذا اذا اردنا ان نذكر عددا قليلا من هذه الاملاءات الداخلية . انني اسميها تسلطية ما ينبغي » (1950, pp. 64-65)

وتمضي هورني لتحدد عددا من الانبغاءات التي تحكم حياة الشخص الذي حلت فيها الذات المثالية غير الواقعية محل الذات الواقعية .

« ينبغي ان يكون في قمة الامانة ، والكرم ، ومراعاة لآخرين ، والعدل ، والكرامة والشجاعة والايثار . ينبغي ان يكون محبا وزوجا ومعلما كاملا . ينبغي أن يقدر على تحمل كل شيء وينبغي ان يحب كل انسان ، وينبغي أن يحب والديه وزوجه ، ووطنه ، أو ينبغي الا يرتبط بأي شيء او بأي انسان ، والا يبالي بأي شيء ، والا يشعر بالتعرض للأذى ، وينبغي دائما ان يكون هادىء البال غير مضطرب . وينبغي عليه دائما أن يستمتع بالحياة ، أو ينبغي أن يكون فوق اللذة والمتعة . وينبغي أن يكون تلقائيا ، وينبغي أن يضبط دائما مشاعره . وينبغي أن يعرف كل شيء ويفهمه ويستبصره . وينبغي أن يقدر على حل كل مشكلة خاصة به او بالآخرين ، على نحو سريع . وينبغي أن يقدر على التغلب على كل صعوبة خاصة به بمجرد رؤيته لها . ولا ينبغي أن يتعب قط او يخر مريضا . وينبغي ان يكون دائما قادرا على أن يجد عملا . وينبغي ان يكون قادرا على انجاز أشياء في ساعة واحدة لا يمكن انجازها الا في ساعتين او ثلاث » . (1950, p. 65)

أن العصابي محصور في وهم الذات المثالية ، وهو وهم لا يعكس الواقع ويميل الى أن يكون وهما غير متغير . وكلما طارد العصابي هذا المثال بشدة ، كلما دفع بالفرد بعيدا عن ذاته الواقعية وازدادت شدة

العصاب . والامل الوحيد لهذا الفرد هو أن يتوافر له محلل نفسى حسن تدريبية .

والاسوياء من ناحية أخرى لهم احلامهم ولكنها احلام واقعية قابلة للتغيير . ويخبر الاسوياء النجاح والاخفاق معا وكلاهما يحدث تغيرات فى مطامحهم . ويخبر العصابيون الاخفاق فى الاساس لان مثلهم العليا تميل الى عدم الاتساق مع ذواتهم الواقعية . (Hergenhahn, pp. 103-106)

اساليب التوافق الثانوية :

لقد اعتبرت هورنى التحرك نحو الناس وضدهم وبعيدا عنهم اساليب توافقية اساسية لان واحدا منها يميل الى التغلغل فى حياة الفرد الكلية . وقد اطلق على اساليب التوافق الثمانية اساليب ثانوية لانها تستخدم عادة فى نطاق محدود اذا قورنت بالاساليب الاساسية .

النقط العمياء :

اى ان ينكر الفرد او يتجاهل جوانب معينة من الخبرة لانها لا تتفق مع صورة الذات المثالية . وعلى سبيل المثال اذا اعتبر الفرد نفسه ذكيا جدا ، فانه يميل الى تجاهل الخبرات التى تدل على غبائه ، كما يحدث حين يتحدى التلميذ حكمة المعلم ، ان المعلمين كثيراً ما يصعب عليهم استرجاع هذه الوقائع فى نهاية اليوم . ولا نقصد القول بأن التلميذ كان مخطئا ، وانما نقصد القول ان الخبرة لا تتفق مع صورة الذات المثالية لدى المعلم : اى ان المعلم لم يرى هذه النقطة . وهذا يتسق مع فكرة فرويد عن الكبت حيث يتم انكار التعبير الشعورى عن شىء لمعارضته لقيم الانا الاعلى وذلك لانه يمزق بنية قيم الفرد . فالنقط العمياء كالكبت تتيح للفرد ان يحافظ على اتساق صورة ذاته وذلك بتجاهل الخبرات التى لا تتسق معها .

التقسيم الى اجزاء مستقلة :

ان هذا معناه تقسيم حياة الفرد الى مكونات مختلفة لهما قواعد

مختلفة تطبق عليها . وعلى سبيل المثال أن يكون هناك مجموعة من القواعد التى تنطبق على حياة الفرد الاسرية ، ومجموعة أخرى تنطبق على حياة الفرد فى مجال العمل والمهنة . وهكذا يتصرف الشخص وفقا للمبادىء والقيم الدينية فى البيت ولكنه لا يكون كذلك فى عمله او تجارته . وقد يعارض المعلم الغش بعنف فى حجرة الدراسة ومع ذلك يسمح به او يمارسه فى لعب الورق والطالب قد يرفض سيجارة يقدمها له عمه ولكنه يقبلها من صديق فى الجامعة . ولا يرى الفرد صراعات هنا لان المواقف مختلفة .

التبرير :

ترى هورنى التبرير على الاغلب كما يراه فرويد . انه تقديم اسباب جيدة ولكنها خاطئة لتسويغ سلوك مثير للقلق ما لم نسوغه .

الضبط الذاتى الزائد :

ان هذا معناه حماية الذات من القلق بضبط اى تعبير عن الانفعال . أن الهدف هنا هو المحافظة على ضبط الذات على نحو جامد مهما كان الثمن . أن هذا الاسلوب الثانوى من أساليب التوافق يشبه على نحو وثيق الحاجة العصابية لان يعيش الفرد حياته فى حدود ضيقة .

التجسيد :

ان هذا يشبه حيلة الاسقاط الدفاعية التى تلجا اليها الانا وفقا لتصور فرويد وان كان أكثر عمومية من الاسقاط . ان التجسيد ما هو الا شعور بان جميع المؤثرات الاساسية فى حياة الفرد خارجية بالنسبة للذات . فالشخص لم يعد مسئولا عن نفسه لان اشياء او اشخاص آخرين يسببون افعال الشخص ، اى ان الشخص يبدو كما لو انه يقول لنفسه « كيف تعتبرنى مسئولا ؟ كيف تنسب هذا الاخفاق لى ؟ او لماذا اشعر بالمذنة طالما ان هؤلاء فى الخارج هم الذين جعلونى اتصرف على النحو الذى تصرفت به ؟ وبعض الناس يبدون غير قادرين على تقبل النقد . فاذا اخفقوا فى اختبار ، فان ذلك يرجع الى أنهم كانوا متعبين ، او ان الكتاب كان غامضا ، أو ان المدرس لم يحسن الشرح ، أو أن الاختبار

ملىء بالالغاز والاسئلة الخداعة . واذا فقدوا عملهم فان ذلك يرجع الى التمييز ضدهم ، أو هناك من يسعى لايذائهم ، أو انهم ينتمون الى حزب أو دين غير مرغوب فيه من قبل الآخرين . أى ان اسباب كل ما يحدث لهم من اشار تقع فى الخارج وليست نابعة من ذاتهم . ان هؤلاء الاشخاص يردون نواحى التصور الى مصادر خارجية ، أى انهم يجسدون الاسباب فى الخارج .

الصــواب التعسفى :

ان اسوأ شىء يمكن ان يقع فيه الشخص الذى يستخدم هذا الاسلوب التوافقى هو ان يكون غامضا وغير حاسم . وحين تثار المسائل التى لايوجد لها حل واضح بطريقة أو اخرى ، يختـــار الشخص حــلا بطريقة تحكمية وهكذا ينهى الجدل والخلاف . ومن امثلة ذلك ما تقوله الأم احيانا لابنها « لن تخرج من البيت ليلة الجمعة وهذا كلام نهائى ولارجعة فيه » والشخص الذى يستخدم هذا الاسلوب التوافقى يصــل الى نقطة ينتهى عندها كل النقاش والجدل . ويصبح الموقف الذى يتخذه هو الصواب ولا يمكن تحديه . والفرد ليس فى حاجة الى ان يقلق عما هو صواب وما هو خطأ ، وما هو مؤكد وما هو مشكوك فيه .

المراوغـــة :

هذا الاسلوب عكس اسلوب الصواب التعسفى . فالشخص المراوغ المتملص لا يتخذ قرارا عن شىء قط . واذا لم يلتزم الفرد بأى شىء ، فانه لا يخطىء مطلقا ، واذا لم يخطىء الفرد فلا يمكن ان يتعرض للنقد قط . واذا قرر الشخص ان يذهب الى الجامعة ويرسب فلا عذر له . أما اذا تأجل الالتحاق بالجامعة بسبب نقص فى المال ، أو رغبة فى السفر أو الزواج ، أو ان يخبر العالم الحقيقى ، فان على الفرد أن يؤخر الاخفاق الممكن .

الســـخرية :

وبينما يعتقد الشخص المراوغ بأن الالتحاق بالجامعة هام الا انه يؤجل القرار بالالتحاق ، اما الساخر فلا يعتقد بأهمية التعليم الجامعى ولا يؤمن بقيمته . والحق أن الساخرين لا يؤمنون بشىء . انهم يجدون لذة فى ابراز

تفاهة معتقدات الآخرين وخلوها من المعنى . وتعتقد هورنى أن هذا الاسلوب يحتمل أنه نما نتيجة لاخفاقات متكررة فيما يتصل بمعتقدات سابقة .. والساخرون نتيجة لعدم ايمانهم بشيء لا يتعرضون لخيبة الامل التى تنشأ من الالتزام بشيء يظهر انه زائف . وهم يتجنبون تحديد نسقهم القيمى وهو عمل صعب بالنسبة لهم . انهم يقولون ببساطة انه لا يوجد ما يستحق الاعتقاد فى قيمته وجدواه .

ومرة اخرى : ان الفرق بين الاسوياء والعصابيين فرق فى الدرجة . وسوف يستخدم الاسوياء كلا من اساليب التوافق الثانوية فى وقت أو آخر . اما العصابيون فانهم يبالغون فى استخدام واحد او اكثر من هذه الاساليب، وبهذا تقل مرونتهم وكفاءتهم فى حل مشكلات الحياة التى لا يمكن تجنبها . (Hergenhahn, pp. 106-108)

النمـو النفسى :

ان النمو الانسانى السوى للطفل فى بيئة شخصية صحية ، مع الاهتمام بحاجاته الحقيقية والتجاوب معها يؤدى الى تحقيق لامكانياته . وهذا الميل أو الاتجاه الى التطور نحو صيرورتنا فطرى لدى ابناء الجنس البشرى بل ولدى جميع الكائنات الحية .

وتصبح القوى التى شوهت لدى العصابى (نحو الناس ، ضد الناس ، بعيدا عن الناس) متناغمة متوائمة لدى الشخص الذى ينمو ويتطور نحو الوئام الداخلى . « معظمنا يريد العطف وضبط الذات ، والتواضع ومراعاة الآخرين وتقدير الذات . كما ان اكتفاء الذات والاستقلال والاسترشاد بالعقل اهداف نراها قيمة بصفة عامة » . (1942, p. 56) ونمو الذات الواقعية ، الذات المنسية علامة النمو السيكولوجى . وهذا لا يتطلب جهدا من الارادة ، وانما يتطلب فحسب غيبة المعتبات .

والفرق اذن بين الكفاح الصحى ، والحوافز العصابية وصولا الى المجد هو بين التلقائية والقسر ، بين ادراك الحدود وانكارها ، بين التركيز على رؤية عمل مستهدف مجيد . وشعور بالتطور . بين التناسى والكينونة ، وبين الخيال والحقيقة (1950, p. 38)

عوامل النمـو :

القلق الأسـاسى :

النمو السوى نحو تحقيق الذات الواقعية يمكن ان يشوه ويعاق بعوامل موجودة فى بيئة الطفل ، فاذا اهملت حاجات الطفل الحقيقية فى سنواته المبكرة أو لم تحترم بالقدر الكافى ، أو اذا كان والده لا يوثق بهما ، فقد ينمى الطفل قلقا اساسيا ، احساسا شائعا بالعزلة والشـك والعجز فى عالم يتسم بالعداء . (1945) والعمليات العصابية تنشأ من الحـاجة لاتقاء الوعى بهذا القلق الأساسى . والوصف التالى للقلق الاساسى يبرز الجهود الكثيرة التى يبذلها الناس ليتجنبوا خبرة القلق .

« القلق الاساسى معناه ان البيئة مفزعة ككل ، لان الفرد يشـعر انها غير موثوق بها كاذبة ، وغير مقـدرة ، وغـير عادلة ولا منصـفة ، وضنينة وغير رحيمة . ووفقا لهذا المفهوم لا يخاف الطفل العقاب والتبذ بسبب الحوافز الممنوعة فحسب بل يشعر بان البيئة تهدد نموه كله وأكثر رغباته وكفاحه شرعية ، انه يشعر بان فرديته ستمحى ، وحريته ستسلب، وسعادته ستمنع . وفى مقابل خوفه من الخصاء ، ان هـذا الخوف ليس تخيلا ، بل له اسـاس جيد من الواقع . وفى بيئة ينمو فيها القلق الاساسى ، يعطل استخدام الطفل الحر لطاقاته ويقلل من شأن تقديره لذاته ، واعتماده عليها ويغرس الخوف فيه بالعزلة والتخويف ، ويغلف امتداده وتوسـعه من خلال القسوة ، والمعايير او الحماية الزائدة « الحب » .

والعنصر الرئيسى الآخـر فى القلق الاساسى ان نجعل الطفل عاجزا عن الدفاع عن نفسـه على نحو مناسب ضد الاعتداء عليه . وهو ليس عاجزا من الناحية البيولوجية فحسب ومعتمدا على الاسرة ، ولكنه عاجز فى كل نوع من أنواع تأكيد الذات . وقد بلغ من تعرضه للتخويف أنه لا يعبر عن نقده او اتهاماته وحين يعبر عنها يجعل بحيث يشعر بالاثم والكـراهية التى لابد من كبتها لانها تثير القلق لانها خطرة حين توجه نحو انسـان يشعر بانه يعتمد عليه . (1939, pp. 75075)

الصراع الاساسى :

ان الطفل الذى لديه قلق أساس يكون فى صراع بين امتثاله الفعلى على والديه وحاجته للتمرد ضد الوالدية غير الحساسة . وبالتالى المحافظة على ذاته الواقعية . وينبغى ان يكبت الغضب والعدوان بسبب موقف الاتكالية . وهكذا يصبح الطفل غير واع بالاخطار الحقيقية التى تهدد الذات ، ويمتثل امتثالا لا تمييز فيه . وهكذا يتزايد عجز الطفل فعلا . والامتثال ضرورى ، ولكنه يؤدى الى عدم الدفاع عن الذات ، الامر الذى يؤدى الى ان يفقد الطفل اتصاله بحب الذات داخله ، ويتوحد بدلا من ذلك مع الذات المثالية idealized self التى نشأت استجابة لمتطلبات الاسرة .

وتصف هورنى اربع طرق لانتقاص الصراع الى حده الادنى ، ولتجنب القلق الاساسى وهى : ان يبرره ، ان ينكره ، ان يخدره او يتجنب المواقف والافكار والمشاعر التى تدخله الوعى .

التبرير :

ان تحول القلق الاساسى الى مخاوف عقلانية . فقد يقلق الفرد على نحو غير واقعى عن مواقف ليس للفرد عليها الا سيطرة قليلة . وقد تشتمل الامثلة الموضحة لهذه النقطة على الاهتمام الزائد بصحة الابناء ، وبالزلازل ، وبحوادث السيارات ، او باحتمال فقدان الوظيفة او العمل . وقد تكون الموضوعات المختارة معقولة ، ولكن نوعية الاهتمام زائدة وقهرية ويائسة .

الانكار : وهو نوعان : ـ

١ ـ استبعاد القلق من الشعور : اى ان الفرد لا يعيه . وما يظهر هو الاعراض الجسمية كاللازمات العصبية ، والعرق ، وزيادة نبضات القلب ، وهلم جرا ، او اعراض عقلية كالاحساس بعدم الاستقرار ، وبأن آخرين يضغطون عليه للاسراع او يثيرونه ، او انه عاجز عن الحركة او التيلم بالوظيفة .

٢ — أن يسيطر على القلق شعوريا ، أى أن يعمل الفرد على ان يجمع شتات نفسه ، انه فعل الشجاعة ، أى ادراك الخوف والعمل على أية حال ، وله قيمة عملية من حيث انه يتيح للشخص أن يعمل بغض النظر عن المخاوف ، ولكن ديناميات الشخصية تبقى وراء ذلك بغير تغيير . والسيطرة على الخوف لا يمكن أن يطرا عليها استرخاء .

التخــــدير :

خفض الوعى العام بالقلق وبالمشاعر الاخرى بوسائل خارجية . وقد تشتمل هذه على الاستخدام الواضح للمخدرات او الكحول بانماط سلوكية أقل وضوحا (كتجنب مواجهة الوحدة) والعمل الزائد والعجز عن قضاء وقت الفراغ ، والنوم الزائد دون الشعور بالراحة ، والانشطة الجنسية الزائدة (لتجنب الشعور بعدم القبول) .

الكــف :

تجنب الخبرات التى تؤدى الى الوعى بالقلق الاســـاسى . ويتألف الكف من العجز أو عدم ارادة الشعور أو التفكير او القيام بأشياء معينـــة ووظيفته ان نتجنب القلق الذى قد يثار اذا ســـعى الشخص الى القيـــام بهذه الاشياء أو فكر فيها او قام بها .

البحث عن المجــد :

تتحول طاقة تحقيق الذات عند العصابى الى المحافظة على الذات المثالية . ويرتبط تمجيد الذات بمشاعر التفوق والاهمية للتعويض عن مشاعر الخوف الفعلية وعن نقص التقبل . وتطلق هورنى على البحث لتبرير الذات المثالية ودعمها البحث عن المجد . وهكذا يعتبر الفرد الاتجاه العصابى الذى نماه لمعالجة القلق مثاليا . ويصبح الامتثال خيرا وحبا وقداسة ويصـــبح العدوان قوة وقيادة وبطولة ويصبح الاستعلاء حكمة واكتفاء ذاتيا واستقلالا وما يبدو وفقا لهـــذا الحـــل قصورا وعيبـــا يترك بغير أن يمس أو يستر (1950, p. 22) وفى البحث عن المجـــد يرتبط القيام بالعمل باتجاه عصابى

لتحقيق الاتقان ، ويصبح الطموح حافزا لا يشبع لنجاح متزايد ، بينما يتوجه العمل مع الآخرين نحو النصر الحقود ، ووفقا لما تراه هورنى تتألف العملية العصابية من مجموعة من الحوافز القسرية المتصارعة لتحقيق الذات المثالية والمحافظة عليها وهى خيال وليست حقيقة . وتحل النسخة المجدة من الذات محل الذات الواقعية الخفية أو المفقودة ، ولفقدان العصابى للاحساس الاصيل بالهوية يجهد نفسه ليحافظ على شخصيته . وهذا الكفاح يصبح تدريجيا له الاولوية فى استخدام الطاقة النفسية وينمو الاهتمام بتنمية الذات امام القسر ليصبح الفرد متفوقا لا يصل اليه احد ولا يطال ولا يمس ، اى تصبح له خصوصيته .

وكثير من البحث عن المجد يحدث فى الخيال حيث يمكن تصور الانا المثالى المأمول ، وحيث يمكن ان يلقى الثناء والاحترام ، والحياة الداخلية للعصابى مليئة برؤى النجاح الذى لا يمكن بلوغه وكذلك بخيالات الاخفاق المدمر . وتظهر الانشطة الممارسة والتفاعلات غض نظر فعلى عن الذات الواقعية وهى فى الحقيقة تدمير ذات بالنسبة لملاحظ خارجى .

ويحدث عدم التوازن الغريب هذا لان العصابيين لا يكافحون لتمجيد صور ذواتهم المصطنعة الزائفة محسب ، بل انهم فى نفس الوقت يكرهون أنفسهم . وبمقدار استثمارهم لصور ذات مثالية براقة يكون احتقارهم لوجودهم الفعلى وانجازاتهم . والتنمية العصابية للذات المصطنعة الزائفة ، وبخس قيمة الذات الواقعية يبدو متبلورا فى مفهوم هورنى عن نسق التكبر والعجب .

نسق التكبر والعجب :

ينبغى على العصابيين أن أرادوا أن يراقبوا نجاحهم ان ينغمسوا فى مقارنة انفسهم بالآخرين . وهناك امكانية الخجل والمذلة بدلا من البحث عن فوز انتقامى حقود مما يدل على ان الذات المثالية آمنة على الاقل مؤقتا . ونسق التكبر يتكون لا من أجل الصورة المثالية للذات وما يلزم للحفاظ عليها من دفاعات فحسب ، بل يتألف أيضا من صراع مركزى بين هذه المثالية والكراهية الموجهة نحو الذات الواقعية .

وتؤدى المطالب المستمرة لبلوغ معايير عالية فى الاداء الى جعل جبروت الانبغاءات عذابات تتألف من مهاترات مع الذات ومشاعر يأس . وتؤدى متابعة الذات المثالية لا محالة الى الابتعاد عن الحقيقة والكرامة والحيوية والانغماس فى مستنقع من المطامح العصابية والصراعات المصحوبة بمشاعر التفاهة والاخفاق . (Frager & Fadiman, pp. 129-133)

العلاج النفسى :

على الرغم من ان هورنى حققت شهرتها عن طريق الكتب التى الفتها ولقيت رواجا لدى القراء ، الا أن عملها اليومى كان فى الاساس العلاج بالتحليل النفسى . وقد انبثقت نظريتها فى نمو الشخصية ، وحاجات الامن ، ودور القلق ، والذات المثالية idealized self والاتجاهات العصابية من تفاعلها مع عملائها فى الجلسات العلاجية .

« لقد فتحت الملاحظات المتتالية عينى على مغزى هذه الصراعات . ان ما ادهشنى بقوة عدم رؤية المرضى للتناقضات داخل انفسهم . وحين أبرزت هذه التناقضات لهم اصبحوا مراوغين وبدا عليهم فقدان الاهتمام . وبعد خبرات متكررة من هذا النوع أدركت ان المراوغة عبرت عن نفور عميق من معالجة هذه المتناقضات . وفى النهاية فان الاستجابات الفزعة للادراك المفاجىء اظهرت لى انى أتعامل مع متفجرات . وأن لدى المرضى سبب معقول الابتعاد عن هذه الصراعات انهم يخشون قوتها وقدرتها على تمزيقهم اربا » (1945, p. 15)

« ان الاضطرابات العصابية الأساسية نتائج للاتجاهات العصابية . ومن هنا فان هدفى الاساسى فى العلاج ان اكتشف بالتفصيل الوظائف التى تقوم بها الاتجاهات العصابية ، والنتائج التى تؤدى اليها فى شخصية المريض وحياته . (1939, p. 281) ومن منظور أرحب ان غرض العلاج النفسى من وجهة نظر هورنى هو استعادة القوى البناءة الفطرية لدى الفرد بحيث يمكن ان تصبح حياته تعبيرا عن ذاته الواقعية .

« ولكى نتوصل الى تقدير تقريبى لصعوبات العمليات العلاجية ينبغى

أن نلتفت الى ما تتضمنه بالنسبة للمريض . وباختصار ينبغى عليه أن يتغلب على تلك الحاجات والحوافز أو الاتجاهات التى تعوق نموه . وحين يبدأ فى تنحية أوهامه عن نفسه وتنحية أهدافه الوهمية تتاح له فرصة ليعثر على امكانياته ولينميها . وبمقدار ما يستغنى عن كبريائه المزيفة يصبح اقل عداء لذاته وتتطور الى ثقة بالذات راسخة . وحين تفقد انبغاءاته قوتها القسرية يستطيع ان يكتشف مشاعره الحقيقية ورغباته ومعتقداته ومثله ، وحين يواجه صراعاته الموجودة فانه تتاح له الفرصة لتكامل حقيقى وهلم جرا » . (1950, p. 334)

ويتحقق الهدف من خلال تأكيد المعالج النفسى على مشكلات اليوم الحالية ، والصراعات والقلق ، والدفاعات . وعلى الرغم من أن هذا الاستقصاء فى الدوافع الشخصية يحرك لا محالة ذكريات هامة ، ويصل هذه الذكريات بالمشكلات الحاضرة الا انه لا يعتبر ذا قيمة مثل ربط اتجاهات الشخص ، بعضها بالبعض الآخر . وبالتالى تحديد الاتجاهات المتضادة والصراعات اللاشعورية . والقيمة الذاتية لكل اتجاه لدى الشخص وحصيلة حياته ينبغى ان نعترف بها بالتفصيل والتحديد .

وهناك دائما فى عملية اكتشاف الذات لحظات وعى مؤلمة نتقبل الحقيقة عن ذاتنا ، بدلا من الصورة المثالية ، وهناك أوقات للقلق حين تند الصراعات اللاشعورية الى الوعى الشعورى . ويسهل توافر الشجاعة الشخصية للمحافظة على هذه العملية المؤلمة المتكررة بكثرة فى سياق علاقة الثقة التى يدعم فيها المعالج المريض ويرشده ويساعده . وهكذا فان هورنى أوصت بأن يجلس المحلل والمريض وجها لوجه بحيث يمكن رؤية المعالج ، ويمكن أن يكون مؤيدا ، وان يكون مشاركا مشاركة تامة خلال العملية العلاجية .

وأدوات هورنى فى العلاج النفسى فرويدية فى الاساس وتشتمل على التداعى الطليق ، وتفسير الاحلام وتحليلها ، والتقدير الحساس لانماط التفاعل بين المريض والمعالج . ولا ينبغى أن يكون المحلل من وجهة نظر هورنى سلبيا ، وانما ينبغى أن يطرح الاسئلة ويتعمق وان يؤثر على نحو

مباشر فى المريض ليحدث تغيرات فى الحياة الواقعية بعد تحقيق استبصار بالمشكلات .

ورأت هورنى أن المحلل ينبغى وعلى نحو قصدى أن يسير عملية العلاج النفسى والا يترك تحديد وجهتها للتداعى الطليق عند المريض . وينبغى أن يتضمن توجه المحلل بالضرورة أحكاما قيمية .

ومع تقدم التحليل ، ينبغى ان تتزايد الدافعية للحياة الكاملة والمفيدة من وجهة نظر هورنى ، لان طريقتها فى كشف الصراعات العصابية تتيح للمرضى أن يتوصلوا الى استبصارات تفصيلية وملزمة فى معاناتهم الفعلية . ولقد كان هدف العلاج عند هورنى أبعد من مجرد الاستبصار البسيط . ومع ابعاد الصراعات العصابية عن طريق الاستبصار ، تتزايد قدرة الفرد على حل مشكلاته الحياتية دون دعم من الخارج ، وانتقاص مراحل اتكاله على المحلل . وعند اتمام العلاج يكون المريض قد استعاد شجاعته وقدرته على ادراك ذاته الواقعية وتحقيقها .

(Frager & Fadiman, pp. 133-134)

وقد عبرت هورنى فى كتابها عن تحليل الذات Self-analysis الذى نشر عام ١٩٤٢ عن اعتقادها بأن الناس يستطيعون ان يتقدموا خطوات كبيرة فى حل مشكلاتهم . وهى تتساءل : كيف استطاع أبناء الجنس البشرى ان يحلوا مشكلاتهم الانفعالية قبل ان يتوافر العلاج النفسى ؟ وهى ترى ان كثيرا من الناس ليس لديهم مشكلات انفعالية وانهم تعلموا على نحو ما ان يحلوا المشكلات ، وان يقللوا الصراع الى حده الادنى ، وان يحافظوا على علاقة معقولة بين الذات الواقعية والذات المثالية ، وان يقبلوا على الحياة بتلقائية . ودور المعالج ان يساعد العصابى على ان يتعلم أن يستجيب لهذه الطرق وان يمضى وينصرف على هذا النحو بعد ان ينتهى العلاج . وقد نصحت هورنى بتحليل الذات تحليل الفرد لحياته ، ولم تقصد أن جميع الناس مهيئين ومستعدين لحل المشكلات الانفعالية العميقة سواء اكانت لديهم أم لدى آخرين . وعلى سبيل المثال فان من لديهم عصاب شديد لا يستطيعون حل مشكلاتهم ، وقد تؤدى محاولتهم لحل هذه المشكلات الى ضرر اكثر من النفع .

المكانة الراهنـــة والتقويم :

تنتمى كارين هورنى الى الجناح اليسارى الثقافى والاجتماعى من اتباع فرويد . وهى بهذا تندرج فى فئة مع اريك فروم وهارى ستاك سوليفان . ولقد اكدت هورنى طبيعة النمو الانسانى التطورية والبنائية وقابلية الطبيعة الانسانية للتغيير . ولقد نبذت هورنى الموقف الوراثى القائل بان التشريح قدر ونصيب . اى ان موقفها من الطبيعة الانسانية كان اكثر تفاؤلا .

ولقد اسهمت هورنى بالكثير فى فهم مشكلات المراة . ولقد عملت على ابعاد الاساطير المشبعة بالذكورة عن الديناميات النفسية للمراة ؛ وفى نفس الوقت اهتمت بموضوعات كانت تد لقيت التجاهل والاهمال كالبرود الجنسى ودورة الحيض والحمل والولادة ، والامومة . هذا على الرغم من اننا لم نعرض فى هذه المجالة عن نظريتها خلاصة ما قدمته عن سيكولوجية المراة .

وكانت متفائلة فيما يتصل بامكانيات الشخص الداخلية تفاؤلا ادى بها الى القول بامكانية تحليل الذات ولقد فحصت ومحصت فى كتبها بنية الشخصية وقدمت حلولا للصراعات العصابية الاساسية . ولقد ألفت كتبها وقدمتها على نحو مباشر لجمهور القراء دون ان تنتحها مؤسسة التحليل النفسى ، واستمر تأثيرها فى الجــو السيكولوجى . وكان من التيمات المستمرة فى كتاباتها الثقة المشبعة بالامل فى الانسانية وفى قدرتها على التغير والتطور .

وينبغى ان يكون واضحا ان الابتعــاد عن الفكر الفرويدى الخالص ومخالفته فى زمنها لم يكن بالامر الهين او اليسير . لقد خالفت التيار الاساسى فى عدد من المسائل ، وكان لها من ذكائها وابتكارها وشجاعتها ما مكنهــا من آن تبلور نظرية فى الشخصية أضاءت بعض الجوانب التى اغفلتها نظريات أخرى سبقتها ، ولعل من ابرز اسهاماتها افكارها التى قدمتها عن سيكولوجية المراة والتى تلقى الشيوع والذيوع فى الوقت الحاضر وخاصة انها تتســق مع حركات تحرير المراة فى المجتمع الغربى . ولقد رات أن كثيرا من المشكلات النفسية ترجع الى عــوامل ثقافية ، وكذلك الحال بالنسـبة لكثير من

الفروق بين الرجال والنساء . ولقد شعرت هورنى أن كثيرا من الخصائص الانثوية التى عزاها فرويد للخصائص التشريحية ينبغى أن ينظر اليها باعتبارها محددة ثقافيا ، ولقد اتفقت هورنى مع فرويد على أن قدرا كبيرا من السلوك تتحدد دوافعه لا شعوريا ، ولكنها اختلفت معه حول اهمية الدوافع البيولوجية . لقد شعرت هورنى ان الحاجة الاجتماعية للامن أكثر اهمية من الحاجة للاشباع الجنسى .

ومن الصعب بطبيعة الحال ان نقدم الكثير من الشواهد العلمية والأدلة التى تدعم نظرية هورنى . وهذا النقد لا ينطبق على نظرية هورنى وانما يمتد ليشمل كثيرا من النظريات . ومع هذا فان نظرية هورنى أفادت وما تزال تفيد فى توجيه العمليات العلاجية وفى فهم كثير من الانماط السلوكية.

الفصل السادس

اريك اريكســون

ولدا أ . اريكسون عام ١٩٠٢ بالقرب من فرانكفورت بالمانيا . وكان والداه دانمركيين نشأ كل منهما وكبر فى كوبنهاجن . ولقد انفصل والداه قبل مولده وتركت امــه الدانمرك . وحينما بلغ الثالثة من عمره تزوجت أمــه الدكتور ثيودور هومبيرجر Theodor Homburger وهو طبيب أطفــال عالج ابنها من احد امراض الاطفال . ولم يعرف اريك لسنوات عديدة ان الدكتور هومبيرجر زوجا لامه وليس اباه . ولقد وقع على أول مقال كتبه فى التحليل النفسى مستخدما لقب زوج امه . وعندما اكتسب الجنسية الامريكية عام ١٩٣٩ فضل ان يعرف باسمه الاصلى .

ولم يلتحق اريكسون بالجامعة فتعليمه الرســمى انتهى عند المرحلة الثانوية ولم يتعداها . وكان تلميذا ضعيفا فى المدرسة الثانوية ، ولكنه مع ذلك تفوق فى التاريخ القديم وفى الفن . ولقد رفض ان يأخذ بنصيحة زوج أمه بان يعد نفسه ليصبح طبيبا ، وذلك بعد تخرجه من المدرسة الثانوية وترك البيت ليتنقل مسافرا عبر وسط اوربا . وبعد سنة من هذا التاريخ التحق بمدرسة للفن فى كارلزروه Karlsruhe ثم ادرك أنه حتى الفنان الطموح يستطيع أن يتعلم شيئا اذا توافرت له بيئة تعليمية مناســبة . ومهما يكن من شيء فسرعان ما اصبح قلقا وســافر الى ميونخ ليدرس فى مدرسة مشهور للفن تســمى اكاديمية دنست The Dunst - Akademie ثم انتقل بعد عامين الى فلورنسا فى ايطاليا . وعلى الرغم من انه تجــول بغير هدف فى ربوع ايطاليا لفترة من الزمان متمتعا بجوها المشمس وزائرا لمتاحف الفن الا أنه ادرك أن هذه النرجسية قد تؤدى الى سقوطه كشاب ما لم يعثر على فكرة يؤمن بها وما لم يبذل جهدا ويثابر لتحقيقها .

وفى عام ١٩٢٧ كان أ . اريكسون قــد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فقبل دعوة غير متوقعة من بيتر بلوس P. Blos احد زملائه فى المدرسة الثانوية لكى يعمل معه كمدرس فى مدرسة للاطفال الامريكيين فى فيينا . وفى المدرسة التى انشأتها انا فرويد لاطفال اباء يتعلمون ويتدربون لكى يصبحوا

محللين نفسيين . وبعض تلاميذ اريكسون الصغار كانوا يحللون نفسيا أيضا ، وبعد ذلك عمل اريكسون على ان يتم تحليله نفسيا . وقد تحقق له ذلك .

وقد بدأت دراسة أ . اريكسون للتحليل النفسي في مكان بالقرب من فيينا . وقد عرف عائلة فرويد ، واختير بعد ذلك كمرشح للتدريب في معهد فيينا للتحليل النفسي ، ولقد استمر تدريبه خلال الفترة من ١٩٢٧ الى ١٩٣٣ تحت توجيه آنا فرويد وأوجست ايكهورن . وتعتبر هذه الفترة هي التدريب الاكاديمي الرسمي الوحيد الى جانب حصوله على شهادة من جماعة منتسوري للمعلمين في فيينا . وكان من القليلين الذين حصلوا على عضوية هذه الجماعة العلمية .

وفي عام ١٩٢٩ تزوج اريكسون جوان سرسن J. Serson وكانت معلمة كندية وفنانة وعضوا في المدرسة التجريبية التي تديرها آنا فرويد . وفي عام ١٩٣٣ م سافرت أسرة اريكسون (بما فيها ابناه) الى كوبنهاجن حيث حاول اريكسون ان يستعيد جنسيته الدانمركية وأن يساعد في تأسيس مركز للتدريب على التحليل النفسي في هذا القطر . وحين بدا ان هذا هدف غير عملي هاجر مع اسرته الى الولايات المتحدة الامريكية . واستقرت الاسرة في بوسطن وكانت قد تأسست فيها جماعة للتحليل النفسي قبل ذلك بعام واحد . ولقد اتاح وصول اريكسون في وقت مناسب الى هذا القطر الفرصة له لكي يصبح أول محلل نفسي للاطفال في منطقة نيو انجلاند . ولقد مارس التحليل النفسي في بوسطن خلال العامين التاليين وحصل على وظيفة كلينيكية واكاديمية لمدة عام كزميل باحث في علم النفس في قسم الطب النفسي العصبي في مدرسة الطب بجامعة هارفرد . وقد التحق أيضا كطالب للحصول على الدكتوراه في علم النفس من هارفرد ، على الرغم من انه انسحب من هذا البرنامج الدراسي بعد ذلك بشهور قليلة . وخلال بقائه في بوسطن شارك في العمل قليلا مع هنري موري في العيادة النفسية بجامعة هارفرد .

وخلال السنوات من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ عين اريكسون في قسم الطب النفسي في معهد العلاقات الانسانية وفي كلية الطب بجامعة ييل ، ولقد

اتاح له هذا المنصب حرية كاملة ليتابع ما يرغب فيه من بحوث . وخلال هذه الفترة اهتم بالانثربولوجيا الثقافية . وفى عام ١٩٣٨ م قام برحلة ميدانية الى جنوب داكوتا ليلاحظ كيف يربى السيوكس الهنود أطفالهم .

وفى عام ١٩٣٩ م انتقل اريكسون الى سان فرنسيسكو حيث استأنف عمله التحليلى مع الاطفال وواصل تنمية اهتماماته بالانثربولوجيا والتاريخ وفى عام ١٩٤٢ أصبح استاذا لعلم النفس فى جامعة كاليفورنيا ببركلى . وشارك فى الدراسة الطولية المشهورة Child Guidance Study دراسة توجيه الطفل تحت اشراف جين ماكفارلين J. Macfarlane . وتبع ذلك فترة مكثفة من الملاحظة الكلينيكية والتامل قضاها اريكسون ليرسخ هويته المهنية كمحلل نفسى عن طريق التاليف . ولقد انتهت استاذيته فى بيركلى نهاية مأسوية حين رفض أن يوقع على يمين بالولاء Loyality oath ولقد اعتبر فيما بعد شخصا موثوقا به من الناحية السياسية ، ولكنه استقال لان الجامعة فصلت آخرين بسبب نفس التهمة . ولقد نشر كتابه الاول « الطفولة والمجتمع » عام ١٩٥٠ Childhood and Society ونقحه واعيد نشره عام ١٩٦٣ . ولقد ذاعت شهرة الكتاب ، واعتبر على أساس محتواه المتحدث باسم علم نفس الأنا فى هذا المجتمع .

وفى عام ١٩٥١ م انضم الى مجموعة من المشتغلين بالصحة النفسية فى مركز اوستن ريجز فى ستوكبروج Austin Riggs Center in Stockbridge فى ماساشستس . وهو مركز يقيم فيه الشباب المضطربون لتلقى العلاج . ولقد عمل ا . أريكسون بعض الوقت فى التدريس فى المعهد الغربى للطب النفسى فى جامعة بيتسبرج وفى معهد ماساشستس للتكنولوجيا . ولقد طور نظريته فى النمو النفسى الاجتماعى التى اقترحها فى الاصل فى كتابه الطفولة والمجتمع وذلك فى العقد التالى .

وفى صيف ١٩٦٠ وبعد عام قضاه فى مركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية فى بالو آلتو فى كاليفورنيا Center for Advanced Studies of Behavioral Sciences انضم أريكسون مرة اخرى الى جامعة هارفرد محاضرا واستاذا للنمو النفسى . ولقد استمر رغم احالته الى التقاعد فى

العطاء وكرس قدرا كبيرا من وقته لتطبيق تصوره الفكرى عن دورة الحياة الانسانية فى دراســـة الشخصيات التاريخية والاطفال وجماعات الاقلية

ولقد حصل اريكسون على جائزة بوليتزر وجائزة البنك الوطنى فى الفلسفة والدين على كتابة حقيقة غاندى

Gandhi's Truth. N.Y. : Norton. 1968

وفضلا عن ذلك فقد نشر ثلاثة كتب أخرى هامة هى :

Young Man Luther, A'study in Psychoanalysis and History

كتابه عن لوثر الشاب New York : Norton, 1958

ونشر عام ١٩٦٤ كتابه « الاستبصار والمسئولية » .

Insight and Responsibility, New York : Norton 1964

وفى عام ١٩٦٨ نشر كتابه « الهوية والشباب والازمة » .

Identity, Youth and Crisis, New York : Norton 1968

كما راس تحرير كتاب

Youth Change and Challenge 1968

ومن أكثر كتاباته حداثة ذلك الذى نشرة عام ١٩٧٧م

« اللعب والاسباب » Toys and Reasons

ونشر كتابه « الرشد » عام

Adulthood : New York : Norton, 1978

كما نشر كتابه « الهوية ودورة الحياة » عام ١٩٨٠ م .

Identity and The Life Cyle. N.Y. . Norton 1980

سيكولوجيا الأنا

ركز اريكسون اهتماماته النظرية الاساسية فى نمو الذات . وهو يرى أن اسهاماته فى فهم النمو الانسانى لا تعدو ان تكون امتداد نسقيا لتصورات فرويد فى النمو النفسى الجنسى فى ضوء البيانات الاجتماعية والانثربولوجية والبيولوجية المتاحة حاليا . ولكن عمل اريكسون يمثل اختلافا واضحا عن النظرية الفرويدية فى اربعة نواح اساسية .

أولا — ان عمل اريكسون أحدث تحولا كبيرا من التركيز على الهو الى التركيز على الانا ، وهو أمر أدركه فرويد جزئيا فى السنوات الاخيرة من حياته . أى أن اريكسون أكد على اهمية الانا بدلا من الهو كأساس للسلوك الانسانى ولقيام الانسان بوظائفه . لقد اعتبر الأنا بنية مستقلة للشخصية (اى أن بعض وظائف الانا وأدائها لم ينشأ لتجنب الصراع بين الهو ومطالب المجتمع) نتبع مسارا من النمو الاجتماعى التوافقى مواز لنمو الهو وغرائزه . وهذا المفهوم لطبيعة الانسانية او ما يسمى سيكولوجية الأنا يمثل تغيرا جذريا وابتعادا عن التفكير التحليلى المبكر لانه يصور الاشخاص باعتبارهم عقلانيين منطقيين فى اتخاذ القرارات وحل المشكلات .

ثانيا — قدم اريكسون منظورا جديدا فيما يتصل بعلاقة الفرد بالوالدين وبالمصفوفة التاريخية التى تقع فيها الاسرة . فبينما اهتم فرويد بتأثير الوالدين فى شخصية الطفل المنبثقة ، أكد اريكسون على الوضع النفسى التاريخى الذى تتشكل فيه اناالطفل . وهو يعتمد على دراسة حالات اناس يعيشون فى ثقافات مختلفة ليبين كيف أن نمو الأنا مرتبط بالطبيعة المتغيرة المؤسسات الاجتماعية والانساق القيمية .

ثالثا — نظرية اريكسون فى نمو الذات تضم حياة الفرد كلها من سنى المهد الى الطفولة والمراهقة ، والنضج والشيخوخة . بينما قصر فرويد اهتمامه على آثار الخبرات الطفولية المبكرة ، ولم يهتم بالنمو بعد مرحلة التناسل . ويوضح التمحيص الدقيق ان هناك قدرا من التطابق بين المفكرين فيما يتصل بالمراحل الخمسة الاولى من الحياة .

وأخيرا فان فرويد واريكسون يختلفان فيما يتصل بطبيعة الصراعات النفسية الجنسية . لقد كان فرويد يطمح فى أن يكشف عن الحياة الفعلية اللاشعورية وان يفسر كيف يمكن ان تؤدى الصدمة المبكرة الى بعض الامراض النفسية فى الرشد . وعلى العكس من ذلك لقد كانت مهمة اريكسون أن يلفت النظر الى قدرة الانسان على الانتصار على مزالق الحياة النفسية الاجتماعية ، ولذلك فان نظريته تركز على خصائص الأنا التى تنبثق فى فترات النمو المختلفة . ولعل هذا التمييز هو مفتاح فهم تصور اريكسون لتنظيم الشخصية للنمو . ونجد فى مقابل تحذير فرويد القدرى بان الانسان

سوف يتعرض للفناء الاجتماعى اذا ترك لكفاحاته الغريزية ، مسلمة اركسون المتفائلة بأن كل أزمة شخصية واجتماعية تمثل تحديا بالنسبة للانسان وتؤدى الى نموه وسيادته وسيطرته على العالم . ونجد أيضا أن معرفة طريقة تغلب الشخص على كل مشكلة من مشاكل مراحل النمو وطريقة معالجته غير السليمة للمشكلات المبكرة التى تعجزه عن معالجة المشكلات اللاحقة هى مفتاح حياة الشخص عند اريكسون .

ويرى اريكسون نفسه عضوا فى المدرسة الفرويدية ، ويوافق البعض على ذلك لان لديه ولاء للمبادىء الاساسية التى اعلنها فرويد واعتبرها محور عمله ، ولانه يشبه فرويد من حيث انه ملم بالتاريخ والفلسفة ولانه كلينيكى . ويرى آخرون أن جهود اريكسون تشكل مدخلا ومنظورا مختلفا تماما عن منظور فرويد بالنسبة لدورة حياة الانسان . ويؤكد اريكسون على قوى الفرد الخلاقة التوافقية ، وهو يتفق مع الانسانيين من حيث أنه يرى أن الاشخاص بحكم امكانياتهم خيرين .

وهناك نواحى تشابه بين الرجلين . وعلى سبيل المثال كلاهما يعتبر مراحل الشخصية محددة تحديدا سابقا ، ولا تتغير من حيث ترتيب ظهورها . كما ان اريكسون يعترف بالاسس البيولوجية والجنسية للاتجاهات الدافعية والشخصية وملتزم بنموذج فرويد البنائى (الهو والانا والانا الاعلى) للشخصية . وعلى الرغم من مجالات التداخل والاتفاق هذه ، فان كثيرا من علماء نفس الشخصية يرون جهود اريكسون واجتهاداته النظرية مختلفة اختلافا اساسيا عن فرويد .

مراحل النمو :

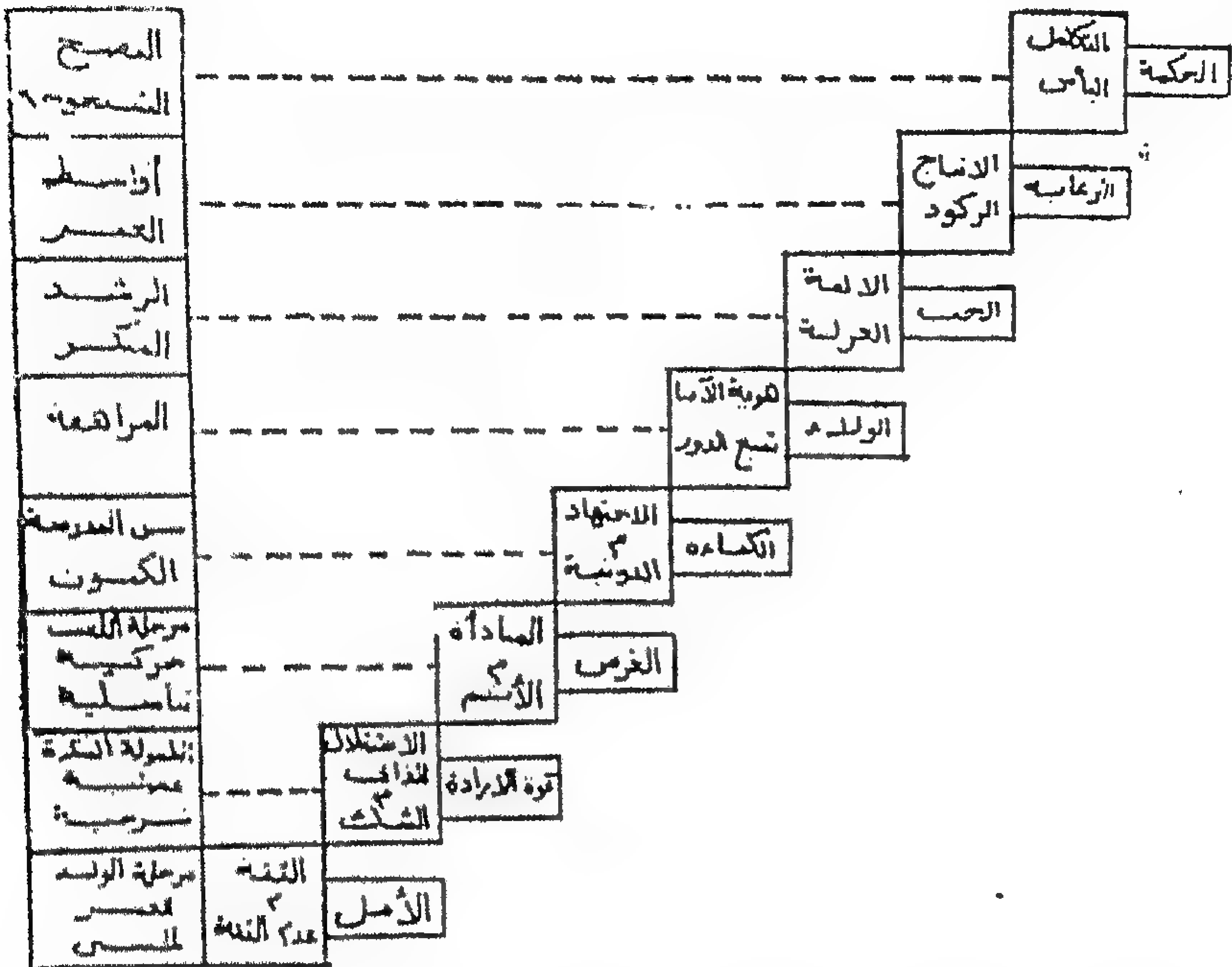
يرى أريكسون أن نمو الانسان يتميز بسلسلة من المراحل العامة التى يمر بها أبناء الجنس البشرى كافة . ولقد عرض اريكسون فى كتابه « الطفولة والمجتمع » ١٩٦٣ ثمانية مراحل متتابعة للنمو . وهو يرى ان هذه المراحل تنتج عن عوامل وراثية ، وان لكل مرحلة من مراحل الحياة من أمثل . وأن هذه المراحل متى تمت وفقا لخطتها تؤدى الى شخصية تقوم بوظائفها على نحو تام . ولقد افترض اريكسون ان كل مرحلة نفسية اجتماعية

مصحوبة بازمة ، وهى نقطة تحول فى حياة الفرد تنشأ عن النضج الفسيولوجى وعن المطالب الاجتماعية التى على الشخص أن يستجيب لها فى تلك المرحلة . وتتحدد المكونات المختلفة للشخصية نتيجة لطريقة معالجة هذه الازمات او القيام بتلك الاعمال . والصراع جزء لا يتجزأ من نظرية أريكسون وهو جزء حيوى ويرجع ذلك الى النمو وما يرتبط به من اتساع دائرة العلاقات الاجتماعية وتزايد قابلية وظائف الانا للضرر فى كل مرحلة . وليس المقصود بالازمة كارثة تلحق بالفرد وتهدده ، بل نقطة تحول : أى أنها مصدر لنشوء قوة الفرد وتكاملة كما أنها مصدر لسوء توافقه .

ولكل ازمة نفسية اجتماعية بعدها الايجابى وبعدها السلبى . ماذا عولج الصراع بطريقة مرضية فى الاساس (كأن يكون للشخص تاريخ من انجازات الأنا) فان الانا المنبثقة تستوعب المكون الموجب (الثقة ، الاستقلال ، .... الخ) الى حد كبير ، وهكذا يزداد للتاكيد على النمو الصحى . اما اذا استمر الصراع او تمت معالجته بطريقة غير مرضية فان الأنا النامية تتعرض للاذى وتستوعب مكونا سلبيا (عدم الثقة ، الخجل ، الشك ... الخ) وتظهر الصراعات فى تسلسل نمائى ، ولكن هذا لا يعنى أن الانجازات او الاخفاقات المبكرة تلازم الفرد بصفة دائمة . فخصائص الأنا التى تكتسب فى كل مرحلة تتاثر بالصراعات الجديدة وبالظروف المتغيرة . والنقطة الاساسية هى انه ينبغى على الشخص ان يحل على نحو سليم كل ازمة لكى يتقدم الى المرحلة التالية من النمو على نحو متوافق وصحى .

ان اعتماد اريكسون على مبدأ التخلق المتعاقب فى النضج قد يظهر بوضوح فى الرسم البيانى (شكل ٦ — ١) الذى يوضح الازمات النفسية الاجتماعية فى دورة الحياة . ان هذا الرسم البيانى يوضح مراحل النمو التى تظهر على شكل سلم متدرج هرميا مرتب ترتيبا زمنيا . وتشتمل المربعات القطرية على الفضيلة المرتبطة بحل كل أزمة ، اى على عنصر القوة النفسى الاجتماعى فيها . ويتسق مع مبدأ التخلق المتعاقب ان كل مرحلة تنبنى على حل الصراعات النفسية الاجتماعية السابقة وتكاملها . ويقترح اريكسون أن جميع الصراعات موجودة فى شكل ما منذ بداية الحياة وهو

يحدد الشروط أو الظروف التى يحتمل أن تتوافر فى ظلها الصحة النفسية الاجتماعية أو لا تتوافر وذلك بالنسبة لكل مرحلة من مراحل النمو وما يرتبط بها من أزمات .



(شكل ٦ ــ ١ يوضح مراحل النمو النفسى الاجتماعي عند أريكسون)

وعلى الرغم من ان اريكسون يسلم بأن للمراحل الثمانية خاصية عامة للنمو الانسانى الا انه يعتقد أيضا ان هناك قدرا من التباين الثقافى فى الطريقة التى يعالج بها الفرد مشكلات كل مرحلة وفى الحلول الممكنة لهذه المشكلات . وعلى سبيل المثال فان طقوس البلوغ الموجودة فى كل الثقافات تتفاوت تفاوتا كبيرا من ثقافة الى اخرى ، من حيث صيغة التعبير عنها وتأثيرها على الفرد . وفضلا عن ذلك فان اريكسون يشعر ان هناك تآزرا وتناسقا هاما وجوهريا فى كل ثقافة بين الفرد النامى والبيئة الاجتماعية . وهذا التناسق يشهد عليه قانون النمو التبادلى الذى يضمن أن يوفر المسئولون فى المجتمع الرعاية للفرد النامى حين تشتد حاجته لتلك الرعاية . وهكذا فان حاجات الاجيال وقدراتها تترابط على نحو محبوك . وهذا النمط المركب من الاعتماد المتبادل بين الاجيال يعبر عنه اريكسون فى مفهومه عن تبادل المنفعة .

ويمكن توضيح تحليل اريكسون للتنشئة الاجتماعية على افضل نحو بوصف الملامح المميزة لكل مرحلة من مراحل النمو النفسى الاجتماعى الثانية :—

١ — الثقة الاساسية مقابل عدم الثقة — الامل :

تتطابق هذه المرحلة مع المرحلة الفمية عند فرويد وتمتد خلال العام الاول من حياة الطفل تقريبا . والاحساس العام بالثقة هو حجر الاساس الشخصية الصحية عند أريكسون . والطفل الذى لديه ثقة اساسية داخلية يرى العالم الاجتماعى عالما آمنا ومكانا مستقرا ويرى الناس عطوفين موثوقا بهم . ان هذا الاحساس بالثقة واليقين يكون خلال هذه الفترة شعوريا الى حد ما .

ويرى أريكسون ان مدى قدرة الاطفال الصغار على اكتساب الاحساس بالثقة فى الآخرين وفى العالم يتوقف على نوعية رعاية الام لهم . فالام هى التى تضبط الاشباع والامان . ذلك ان الاحساس بالثقة لا يعتمد على مقدار الطعام الذى يتلقاه الطفل ولا على تعبيرات العطف ؛ بل يتوقف على قدرة الام على توفير الاحساس بالالفة للطفل وبالاتساق وبالاستمرارية وبتماثل الخبرة . ويؤكد اريكسون على انه ينبغى ان يثق الاطفال لا فى العالم الخارجى فحسب بل وفى العالم الداخلى ايضا ؛ اى انه ينبغى عليهم ان يتعلموا الثقة فى انفسهم وفى قدرة اعضائهم على أن يعالجوا على نحو فعال رغباتهم الجسمية . ويظهر هذا السلوك حين يستطيع الطفل ان يتحمل غياب الأم دون أن يعانى من قلق الانفصال معاناة كبيرة .

ان ما يثير الازمة النفسية الاجتماعية الاولى فى حياة الطفل هو نوعية رعاية الام وهذه النوعية تتميز بعدم الثبات وعدم الملاءمة والنبذ وهكذا. تنمى الأم عند الوليد اتجاها نفسيا اجتماعيا قوامه الخوف والريبة والرهبة نحو العالم والناس . وتظهر اثاره السيئة فى مراحل النمو اللاحقة للشخصية. وفضلا عن ذلك فان اريكسون يشعر ان الاحساس بعدم الثقة قد يدعم حين تحول الام انتباهها واهتمامها الى مسائل اخرى غير الطفل ؛ مثلا كانت قد أجلت الاهتمام بها فى فترة الحمل وحتى الولادة ؛ كأن تعود الى

تحملها ، او تحمل طفلا جديدا) واخيرا فان اختلاف الوالدين فى انماط رعاية الطفل ونقص ثقتهم فى دورهم كآباء واختلاف نسقهم القيمى وتعارضه مع أسلوب الحياة السائد فى ثقافتهم قد يخلق جوا من الغموض بالنسبة للطفل مما يؤدى الى مشاعر عدم الثقة . وتتمثل النتائج السلوكية لقصور نمو الاحساس بالثقة فى الاكتئاب الحاد عند الاطفال الصغار ، والبارانويا عند الراشدين . وهو يلاحظ ان مثل هؤلاء الافراد حين يبداون فى تكوين علاقة مع المعالج النفسى ينبغى أن يطمئنوا الى انهم يستطيعون ان يثقوا فى انفسهم وفى النهاية ان يثقوا فى المجتمع .

وثمة مسلمة اساسية فى النظرية النفسية الاجتماعية مؤداها ان ازمة الثقة مقابل عدم الثقة (أو اى ازمة لاحقة) لا تحل حلا نهائيا دائما خلال السنة الاولى او الثانية من الحياة .. وسوف تظهر الثقة مقابل عدم الثقة فى كل مرحلة تالية من مراحل النمو اتساقا مع مبدأ التخلق التدريجى ، على الرغم من انها الازمة المركزية فى هذه المرحلة العمرية . وعلى اية حال ، فان الحل السليم لأزمة الثقة له آثار ونتائج هامة فى النمو المستقبلى لشخصية الطفل . فترسيخ الثقة بالذات والثقة بالام يمكن الاطفال من تحمل الاحباطات التى يواجهونها ويخبرونها لا محالة خلال مراحل النمو اللاحقة .

ويلاحظ اريكسون ان النمو الصحى لدى الطفل لا ينتج كلية من أحساس تام بالثقة وانما ينتج حين ترجح نسبة الثقة على نسبة عدم الثقة. ومن الأهمية بمكان أن نتعلم مالا نثق فيه كتعلمنا لما نثق فيه . فالقدرة على التنبؤ واستباق الخطر اساسية فى السيطرة على البيئة وفى الحياة الفعالة. وهكذا ينبغى أن ينظر الى الثقة الاساسية على أساس سلم متدرج للانجاز. ويذهب اريكسون الى ان لدى الحيوان استعدادا غريزيا لاكتساب هذه القدرة ، غير أنه ينبغى على افراد الانسان أن يتعلموا ذلك . وفضلا عن ذلك فانه يرى أن الأمهات فى الثقافات المختلفة ومن الطبقات الاجتماعية المتباينة سوف يعلمون الثقة وعدم الثقة لاطفالهم بطرق مختلفة وبالتالى يعكسون اثر التباين الثقافى ومع ذلك فان اكتساب الاحساس بالثقة علم فى جوهره بمعنى أن الفرد يستطيع أن يثق فى العالم الاجتماعى من خلال امه وانها سوف تعود لتطعمه الطعام المناسب فى الوقت المناسب .

وتسمى الفضيلة التى يكتسبها الفرد من الحل الناجح لصراع الثقة وعدم الثقة الأمل Hope فالثقة تعنى قدرة الطفل على استشراق الأمل ، وهذا بدوره هو أساس ايمان الراشد بدين معين . ويفيد الأمل فى المحافظة على ايمان الفرد واعتقاده بعالم ثقافى مشترك له معناه وقيمته . وعلى العكس من ذلك ، فان اريكسون يؤكد على أنه حين تخفق المؤسسات الدينية فى توفير مغزى واضح وملموس للفرد ، تفقد كثيرا من معناها بالنسبة له وقد يتحول عنها الى غيرها .

٢ — الاحساس بالاستقلال الذاتى مقابل الخجل والشك — قوة الارادة :

ان اكتساب الاحساس بالثقة يهيىء المسرح لاكتساب الاحساس بالاستقلال الذاتى وضبط الذات . وهذه الفترة تتطابق وتتفق مع المرحلة الشرجية عند فرويد وهى تستغرق السنة الثانية والثالثة من الحياة . ووفقا لما يراه اريكسون يكون لدى الطفل فى هذه المرحلة الخيار بين الاحتفاظ والترك .

ان النضج العضلى يهيىء المسرح لمجموعة من الأساليب الاجتماعية التى تتسم بالثنائية الوجدانية وهى الامساك والاطلاق . وقد يصبح الامساك احتفاظا هداما او ضبطا او نوعا من الاهتمام بأن تملك وأن تحافظ على ما تملك . والاطلاق او التخلى يمكن ان يتحول الى اطلاق ضار او مسترخ . وهكذا تصبح هذه المرحلة حاسمة . والاحساس بضبط الذات دون فقدان لتقدير الذات مصدر للثقة فى الارادة الحرة ، والاحساس بالضبط الزائد وفقدان الضبط الذاتى يمكن ان يؤدى الى نزعة دائمة للشك والخجل .

وقبل هذه المرحلة كان الأطفال معتمدين اعتمادا تاما على الراشدين الذين يرعونهم ، وكان سلوكهم محكوم الى حد كبير بالقوى الخارجية ولكنهم مع اكتسابهم لنضج عصبى عضلى على نحو سريع ، وتعلم الكلام والتمييز الاجتماعى ، يبداون فى ازدياد بيئتهم والتفاعل معها على نحو اكثر استقلالا . وهم يشعرون بالفخر فى اكتشاف مهاراتهم الحركية الجديدة ويريدون ان يعملوا كل شىء بأنفسهم (يرتدون ملابسهم ، ويطعمون انفسهم) ولديهم

رغبة هائلة فى الارتياد والاختيار ، والتناول مع اتجاه نحو الوالدين قوامه « دعنى اعمل هذا » ، « انا ما اريد ان اكون » .

وتعتمد مواجهة الأزمة النفسية الاجتماعية فى هذه المرحلة على نحو مرضى وبصفة اساسية على ارادة الوالدين فى السماح للأطفال على نحو تدريجى بالحرية فى ضبط انشطتهم التى تؤثر فى حياتهم . وفى نفس الوقت يؤكد اريكسون على انه ينبغى على الوالدين ان يحافظا على حدود حاسمة ومعقولة فى مجالات حياة الأطفال التى تشتمل على ما يمكن ان يؤذيهم او يؤذى الآخرين . ان الاستقلال الذاتى لا يعنى توفير حرية غير مقيدة للطفل ، بل يعنى ان على الوالدين أن يوفرا درجات من الحرية تتناسب وقدرة الطفل النامية لممارسة اختياراته .

ويدرك اريكسون ان الطفل يشعر بالخجل حين لا تتاح له ممارسة استقلاله الذاتى . وقد يحدث هذا اذا كان الوالدان غير صبورين ويصران على أن يعملا للأطفال ما يقدران على عمله ، او اذا توقعا من اطفالهما القيام بأعمال لا يقدران هم عليها . وكل أب بالتاكيد قد دفع بطفله احيانا ابعد من الحدود المعقولة للتوقعات . وعندما يبالغ الوالدان فى الحماية او يتسمان بعدم الحساسية ازاء الأطفال ، يتولد لدى الأطفال احساس بالخجل ازاء الآخرين واحساس بالشك فى فاعليتهم فى السيطرة على العالم وعلى أنفسهم . وبدلا من الاحساس بالثقة فى الذات فيما يتصل بقدرتهم على تناول البيئة على نحو فعال ، يشعرون أنهم تعرضوا لتمحيص متسم بالرفض او ان الآخرين يعتبرونهم بغير فائدة ولا امل فيهم . انهم فى شك فى قوة ارادتهم وفى اولئك الذين يسيطرون عليهم ويستغلونهم . والنتيجة اتجاه نفسى اجتماعى قوامه الشك فى الذات والضعف والخرق .

ولما كانت كل مرحلة نفسية اجتماعية تبنى على المرحلة السابقة ، فان اكتساب احساس مستقر بالاستقلال الذاتى يضيف اضافة جوهرية الى احساس الطفل بالثقة وهذا الاعتماد المتبادل بين الثقة والاستقلال الذاتى قد يكون له احيانا تاثير ضار على النمو النفسى الاجتماعى المستقبلى . وعلى سبيل المثال فالأطفال الذين اكتسبوا احساسا مهزوزا بالثقة قد يصبحون

خلال مرحلة الاستقلال الذاتى مترددين خائفين غير آمنين فيما يتصل بتأكيد ذواتهم ، ومن ثم يستمرون فى البحث عن المساعدة وفى تشجيع الآخرين على القيام باعمال لهم . ويرى اريكسون أنهم حين يصبحون راشدين يغلب ان يظهروا سلوكا وسواسيا قهريا (لضمان الضبط والسيطرة) أو خوفا يتسم بالبارانويا من اناس يضمرون لهم الاضطهاد سرا .

والمكون الاجتماعى المقابل للاستقلال الذاتى هو سيادة القانون والنظام . ويرى اريكسون أن على الأباء أن ينقلوا الى ابنائهم التزاما عميقا بالعدالة واحترام حقوق الآخرين ، اذا أرادوا أن يعدوا اطفالهم ليصبحوا مستقلين ذاتيا فى الرشد بدرجة معقولة .

٣ — المبادأة مقابل الشعور بالأثم — الغرض :

ان المبادأة مقابل الشعور بالاثم هو الصراع النفسى الاجتماعى الأخير الذى يخبره طفل ما قبل المدرسة ، اى الذى يخبره خلال الفترة التى يسميها اريكسون سن اللعب play age . وهذه الفترة تتطابق وتقابل فترة المرحلة القضيبية عند فرويد وتستمر من سن الرابعة الى سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية . وفى هذه الفترة يجد الطفل تحديا من عالمه الاجتماعى لكى يكون نشطا ، ولكى يتقن الاعمال الجديدة والمهارات ولكى يكتسب موافقة الآخرين على أنه منتج . ويبدأ الأطفال ايضا فى الاضطلاع بمسئولية جديدة لانفسهم ولما يؤلف عالمهم (اى اجسامهم ولعبهم وحيواناتهم الاليفة واحيانا اخوتهم الاصغر منهم سنا ، ويظهر اهتمامهم بالعمل مع الآخرين وبتجريب الأشياء الجديدة وبالتصدى للمسئوليات المتوافرة فى المجتمع حولهم . وتتيح لهم لغتهم الطيعة ومهاراتهم الحركية الارتباط بالأتراب وبالأطفال الاكبر سنا خارج بيئتهم المباشرة ، وهذا يتيح لهم المشاركة فى العاب اجتماعية معينة . وفى هذا العمر يبدأ الأطفال فى الشعور بأنهم اشخاص وان الحياة لها هدف وغرض بالنسبة لهم . ويصبح القول « أنا ما سوف أكون عليه » تعبيرا عن الاحساس بالهوية يسيطر على الطفل خلال سنى اللعب هذه . يقول اريكسون « ان المبادأة تضيف الى الاستقلال الذاتى خاصية جديدة هى التكفل بالعمل والتخطيط له وتنفيذه بقصد الحركة ، بينما كان الأمل قبل ارادة

الذات Self - will على الأغلب يؤدى الى أفعال التحدى والاعتراض يؤدى وعلى اية حال الى نوع من الاستقلال المحتج » (1963, p. 55)

هل سيترك الأطفال هذه المرحلة من مراحل النمو ولديهم احساس بالمبادأة يغلب على احساسهم بالاثم ؟ أم ان العكس هو الصحيح ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال ايجابا أو نفيا تتوقف الى حد كبير على استجابات الوالدين لانشطة اطفالهم المبادئة فالأطفال الذين يشجعون على أن يتكفلوا بانشطتهم يجدون تعزيزا لهذه المبادأة . ويتيسر نمو المبادأة حين يعترف الآباء بحب استطلاع اطفالهم ولا يسخرون من نشاطهم التخيلى أو يكفونه . ان النمو الناجح فى هذه المرحلة يؤدى الى أن يكون سلوك الطفل موجها نحو هدف .

وينشأ الاحساس بالاثم عندما لا يتيح الآباء لأطفالهم الفرصة لاتمام أعمالهم معتمدين على أنفسهم . وهذا الاحساس بالاثم ينمو أيضا اذا استخدم الوالدان مقادير مبالغ فيها من العقاب (لفظيا كان او جسميا) كاستجابة لرغبة الطفل فى أن يحب أمه وتحبه اذا كان ولدا ، وان يحب اباه ويحبه اذا كان بنتا.واريكسون هنا يأخذ بمفهوم فرويد عن الطبيعة الجنسية للأزمة النمائية المتضمنة ، (اى التوحد مع الدور الجنسى ، وعقدة اوديب والكترا) ، على الرغم من ان مفهومه ذا صبغة اجتماعية اكبر . وعلى اية حال فان الطفل الذى يعوق الاثم حركته يشعر ويخبر الاستسلام وعدم الجدوى والجدارة . ومثل هؤلاء الأطفال يخافون تأكيد ذواتهم ويعيشون على هامش الجماعات ، ويعتمدون اعتمادا كبيرا على الراشدين ، وتنقصهم الشجاعة لتحديد اهداف ومرامى عيانية ومتابعتها . ويقترح اريكسون ايضا أن الاحساس بالاثم الملح قد يتطور ويتخذ صورا مرضية نفسية عند الراشدين بما فى ذلك السلبية العامة والعنة الجنسية أو البرود الجنسى والسيكوباتية.

واخيرا فان درجة المبادأة التى يكتسبها الطفل فى هذه المرحلة من حياته ترتبط بالنظام الاقتصادى للمجتمع المحلى . فامكانيات الطفل للعمل المنتج فى المستقبل ولتحقيق الاكتفاء الذاتى فى سياق النظام الاقتصادى لمجتمع يعتمد الى حد كبير على قدرته على مواجهة هذه الأزمة النفسية الاجتماعية على نحو سليم .

٤ — الاجتهاد مقابل القصور — الكفـــاءة :

تقع مرحلة النمو النفسى الاجتماعى الرابعة فى الفترة من ٦ سنوات الى ١١ سنة من عمر الطفل (وهى سن المدرسة) وتطابق مرحلة الكمون عند فرويد. وهنا ولأول مرة يتوقع من الطفل أن يتعلم المهارات الأولية لثقافته عن طريق التعليم الرسمى (يتعلم القراءة والكتابة والتعـــاون مع الآخرين للقيام بأنشطة محددة) وترتبط هذه الفترة من حياة الطفل بتزايد قدراته على الاستدلال الاستنباطى وضبط الذات ، وكذلك بقدرته على أن يرتبط باترابه وفقا لقواعد سبق تحديدها . وعلى سبيل المثال فان الأطفال لا يستطيعون انتظار أدوارهم الواحد بعد الآخر والمشاركة فى النشاط على أساس الدور قبل هذا السن . وهذا يتطلب الامتثال لقواعد مفصلة . وحب الصبى لأمه والبنت لابيها والتنافس مع الأب من نفس الجنس يتم اعلاؤه ويعبر عن هذا الاعلاء برغبة شديدة فى التعلم والانتاج .

ويلاحظ اريكسون ان تربية الأطفال فى المجتمعات البدائية غير معقدة ونفعية اجتماعية . فتعليم استخدام الأدوات والاسلحة وغيرها من الاشياء يرتبط على نحو مباشر بالدور الذى سوف يلعبه الطفل حين يكبر . وعلى العكس من ذلك ان الأطفال فى الثقافات ذات اللغات المكتوبة يتعلمون أولا ادوات القـــراءة والكتابة ، وهذه تمكنهم بمضى الزمن من اتقـــان المهارات المعقدة التى تتطلبها المهن المختلفـــة والأعمال المتبـــاينة وما يرتبط بها من انشطة . والواقع انه على الرغم من ان نوع التعليم الذى يقدم للأطفال يختلف باختلاف الثقافة ، الا ان الأطفال يصبحون اكثر حساسية واهتماما بالنواحى التكنولوجية الجماعيـــة technological ethos لتلك الثقـــافة وبهويتهم بالنسبة لها .

ويرى اريكسون ان الأطفال ينمون احســـاسا بالاجتهاد حين يبداون فى فهم تكنولوجيا ثقافتهم عن طريق الدراسة بالمدرسة . ولفظ اجتهاد يحدد قيمة النمو الأساسية فى هذه الفترة لان الأطفال ينشغلون فيها بطريقة صنع الأشياء وادارتها وتشغيلها . وهذا الاهتمام يتعزز ويتيسر عن طريق الآخرين فى الجيرة والمدرسة الذين يقدمون هذه العناصر التكنولوجية الاجتماعية عن

طريق التعليم والعمل معهم وتصبح هـوية الطفل فى هـذه المرحلة « انا ما أتعلم » .

ويكمن الخطر فى هذه المرحلة فى امكانية تنمية احساس بالدونية وعدم الكفاءة ، وعلى سبيل المثال اذا شك الأطفال فى مهاراتهم أو امكاناتهم بين اقرانهم ، فقد يتقاعسون عن متابعة التعلم (وتترسخ الاتجاهات نحـو المعلمين ونحو التعلم خلال هذه الفترة) وقد ينمو الشعور بالقصـور او النقص أو الدونية اذا اكتشف الأطفال ان قيمتهم كأشخاص تتحـدد على اساس جنسهم أو عنصرهم أو دينهم أو مكانتهم الاجتماعية الاقتصادية وليس على اساس مهارتهم أو دافعيتهم ، والنتيجة ان الأطفال قد يفقدون الثقة فى قدرتهم على المشاركة فى عالم العمل .

وكما لوحظ من قبل فان شعور الطفل بالكفاءة والاجتهاد يتأثر الى حد كبير على الأقل فى الثقافات القارئة بانجازه التعليمى . ويرى اريكسون ان هناك اثرا سلبيا ممكنا لهذا التعريف المحدد أو الضيق للنجاح وبتعبير ادق اذا قبل الأطفال الانجاز المدرسى او العمل على انه المعيار الوحيد للحكم على قيمتهم فقد يصبحون عبيدا بدرجة كبر لسـلطة العمل فى ثقافتهم وللتنظيم الهرمى للأدوار الذى حددته تلك السلطة . وهكذا فان الاحساس بالاجتهاد الحقيقى يتضمن او يتطلب اكثر من مجرد انجازات تربوية ومطامح مهنية . فالاجتهاد يشتمل على احساس بأن الفرد كفء فى العلاقات بين الشخصية والثقة فى أنه يستطيع ان يؤثر تأثيرا موجبا فى العالم الاجتماعى وان يسعى لتحقيق ذاته كفرد له مغزى ، وان يبلغ مرامى اجتماعية لها معنى . وهكذا فان الكفاءة قوة نفسية اجتماعية اساسية للمشاركة فى النظام الاجتماعى السياسى الاقتصادى .

٥ — المراهقة — هوية الأنا مقابل تميع الدور — الولاء والاخلاص :

المراهقة هى المرحلة الخامسة من دورة الحياة عند اريكسون ولهـا اهميتها فى نمو الفرد النفسى الاجتماعى . فى هذه المرحلة لم يعد الفـرد طفلا ولم يصبح راشدا (من سن ١٢ الى ٢٠) وفيها يواجه المراهق مطالب

اجتماعية مختلفة وتغيرات اساسية فى الدور لمواجهة تحديات الرشـد .
والحق أن اهتمام اريكسون النظرى بالمراهقة وبالمشكلات المصاحبة لها أدت الى تحليله لهذه المرحلة تحليلا مفصلا اكثر من اى مرحلة أخرى من مراحل النمـو .

يرى اريكسون ان البعد النفسى الاجتماعى الجديد الذى يظهر خلال المراهقة اما ان يكون احساسا بهوية الآنا ، اذا كان موجبا ، أو احساسا بتميع الدور اذا كان سالبا . والعمل الذى يواجه المراهقين هو ان يبلوروا جميع المعارف التى اكتسبوها عن انفسهم (كأبناء وتلاميذ ورياضيين.. الخ) وأن يوجدوا تكاملا بين هذه الصور المختلفة للذات بحيث تصبح صورة شخصية تظهر وعيا بالماضى وبالمستقبل الذى يترتب على الماضى . ويؤكد اريكسون على الطبيعة النفسية الاجتماعية لهوية الآنا دون أن يركز على الصراعات بين البنيات النفسية بل يركز على الصراع داخل الآنا نفسها ، أى بين الهوية مقابل التميع فى الدور . والتأكيد هو على الآنا وطريقة تأثرها بالمجتمع وخاصة بجماعة الأتراب .

ويكشف تعريف اريكسون عن ثلاثة عناصر متضمنة فى تكوين الهوية :

أولا : ينبغى ان يدرك الأفـراد انفسـهم باعتبار ان لديهـم نفس الاستمرارية الداخلية او المماثلة ، اى انهم ينبغى أن يخبروا انفسهم عبر الزمن باعتبار انهم ما زالو فى الحاضر نفس الأشخاص الذين كانوا فى الماضى .

ثانيا : ينبغى ان يدرك الآخرون فى نفس البيئة الاجتماعيـة المماثلة والاستمرارية فى الفرد . وهذا معناه أن المراهقين يحتاجون الى ان يدرك الآخرون وحدتهم الداخلية التى نموها فى وقت مبكر . وبمقدار ما يكـون المراهقون فى شك فيما يتصل بمفاهيم الذات وصورها الاجتماعية بمقدار ما تعوق مشاعر الشك والخلط وعدم الاكتراث احساسهم البازغ بالهوية .

ثالثا : ينبغى أن يتوافر للأفراد ثقة تتزايد فى التطابق بين خطـوط الاستمرارية الداخليـة والخارجيـة ، اى ينبغى ان تثبت مدركاتهم للذات مصداقيتها بالتغذية الراجعة المناسبة من خبراتهم مع الآخرين .

ويقتضى نضج المراهق اجتماعيا وانفعاليا احاطته بطرق جديدة لتقدير العالم وتقويمه من حيث علاقته به . ويستطيع المراهقون ان يتصوروا اسرا مثالية وعقائد وفلسفات ومجتمعات ، ويستطيعون بالتالى أن يقارنوا هذا بخبرتهم المحدودة بأشخاصهم ومؤسساتهم القاصرة . ويصبح عقل المراهق عقلا ايديولوجيا يبحث عن الأفكار الملهمة والموحدة ، وهكذا فان التشويش والخلط فى المثل العليا ينتج عن الاخفاق فى التوصل الى قيم باقيــة فى ثقافة الفرد وعقيدته وايديولوجيته والشخص الذى يعانى من تشويش فى الهوية لم يراجع ويعيد تقويم المعتقدات الماضية ولم يتوصل الى حل يتركه حرا فى العمل والفكر .

واخيرا فان الدور الجنسى الملائم ضرورى لنمو الاحساس بالهـوية الشخصية . ويبين اريكسون أنه حيث تحدث التوحدات الانثوية والذكرية المناسبة تنمى الشخصية خليطا صحيا ومنسجما من الخصائص المحـددة جنسيا . والاخفاق فى تحقيق هوية جنسية مناسبة كثـيرا ما يؤدى الى تشويش ثنائى الجنس ، يضعف بنية الهوية .

ويذهب اريكسون الى أن اساس المراهقة الناجحة وتحقيق هـوية متكاملة موجود أصلا من الطفولة المبكرة . فبالاضافة الى ما يجلبه الأفراد معهم من الطفولة عندما يصلون الى مرحلة المراهقة ، تتأثر تنمية الاحساس بالهوية لدى المراهقين تأثرا له مغزاه بالجماعات الاجتماعية التى يتوحدون معها . ولقد اكد اريكسون على سبيل المثال على ان التوحد الزائد مع الأبطال المشهورين (نجوم السينما والرياضة وغيرها) او مع جماعات الثقافة المضادة كالقادة الثوريين والجانحين ، يفصل الهوية النامية عن بيئتها ، مما يخمد الانا ويقيد الهوية المنبثقة . وبالمثل فان هوية الانا قد تكون اصعب منـالا بالنسبة لجماعات معينة من الناس عنها بالنسبة لجماعات اخرى . وعلى سبيل المثال قد يكون من الصعب على شابة أن تحقق احساسا راسخا أو وطيدا بالهوية فى مجتمع تحتل فيه مكانة من الدرجة الثانية . ويرى اريكسون أن الحركة النسائية قد اجتذبت كثيرا من المؤيدين لها لان المجتمع الغربى حتى وقت قريب قد أحبط جهود المراة لتحقيق هوية موجبة (اى ان المجتمع لم يكن

مريدا لاستيعاب النساء فى ادوار اجتماعية ومهنية جديدة) كما ان اعضاء جماعات الأقلية يجدون صعوبات فى تحقيق احساس راسخ متسق بالهوية.

ويرى اريكســـون ان المراهق قابل للتعـرض للأذى نتيجة لضغوط التغيرات السريعة الاجتماعية والسياسية والتكنولوجية التى تضر بهويته . وهذا التغير الذى يثيره التفجر المعرفى،يسهم فى الاحساس الغامض بالشك والقلق وعدم الاستمرارية . انه يهدد ايضا بتحطيم كثير من القيم التقليدية العزيزة التى تعلمها الشباب وخبروها وهم أطفال . وتعكس الفجوة بين الأجيال بعض السخط وعدم الرضا العام بقيم المجتمع ولعـل اضطرابات الشباب وحركاتهم مثال يوضح هذا ، وقد انتشرت هذه الاحتجاجات فى اروقة الجامعات خلال الستينيات فى أمريكا واوروبا وأماكن اخرى من العالم. وما يبدو حقيقة بالنسبة لجيل يبدو وهما وخيالا للجيل الذى يليه . وبناء على ذلك يفسر اريكسون كثيرا من الحركات الاجتماعية للشباب باعتبارها محاولة لترسيخ استمرارية هويتهم بين الماضى والحاضر انطلاقا الى المستقبل .

ان اخفاق الشباب فى تنمية هوية شخصية بسبب خبرات الطفولة السيئة و الظروف الاجتماعية الحاضرة يؤدى الى ما يسميه اريكسون ازمة الهوية . ان ازمة الهوية او تميع الدور كثيرا ما يتميز بعجز عن اختيار عمل أو مهنة او عن مواصلة التعليم . ويعانى كثير من المراهقين من صراع العصر ويخبرون احساسا عميقا بالتفاهة ، وبعدم التنظيم الشخصى ، وبعدم وجود هدف لحياتهم . انهم يشعرون بالقصور والغربة ، وأحيانا يبحثون عن هوية سلبية ، هوية مضادة للهوية التى حدد خطوطها الوالدان أو جماعة الأتراب ويفسر بعض السلوك الجانح بهذه الطريقة . وعلى اية حال فان الاخفاق فى ترسيخ هوية شخصية مناسبة لا يعنى بالضرورة أن المراهق محكوم عليه بحياة تتسم بهزيمة مستمرة . ذلك ان اريكسون يؤكد على ان الحياة تغير مستمر ، وحل المشكلات فى مرحلة معينة من مراحل الحيـــاة لا يعنى عدم ظهورها مرة اخرى فى مراحل لاحقة ، أو ان ذلك يمنع اكتشاف حلول جديدة لها . ان هوية الأنا كفاح يستمر مدى الحياة .

ان التأخر فى اضـــطلاع المراهقين بأدوار الراشـــدين ومسئولياتهم مسموح به لقطاعات معينة منهم فى معظم المجتمعات . ولقد وضع اريكسون

المصطلح Psychological moratorium ويقصد به الفترات الزمنية بين المراهقة والرشد . انها تعنى ان المراهق يؤجل دفع ما عليه من التزامات قبل المجتمع . وقد تم تقنين هذا التأجيل بانشاء مؤسسات التعليم العالى التى تمكن الشباب من استكشاف عدد من الادوار الاجتماعيسة والمهنية المختلفة قبل ان يقرروا ما يفعلونه بحياتهم . وفى حالات اخرى جنح الشباب وباعداد ليست بالقليلة فى الولايات المتحدة الامريكية الى التجول وتكوين جماعات لها طقوسها واستكشاف بدائل للزواج التقليدى وللحياة الأسرية وذلك قبل أن يستقروا فى بيئة أو مجتمع محلى معين .

وينبثق الولاء والاخلاص fidelity من الحل السليم لهوية الآنا — وتميع الدور . ان هذا الولاء والاخلاص يشير الى قدرة الفرد على المحافظة على ولاءاته وتعهداته الحرة على الرغم من تناقضات القيم التى لا يمكن تجنبها. ويمثل الولاء والاخلاص باعتباره حجر الأساس فى الهوية قدرة الشاب على ادراك الاخلاق الاجتماعية وأيديولوجية المجتمع والتمسك بها.والايديولوجية تعنى عند اريكسون مجموعة لا شعورية من القيم والمسلمات التى تعكس الفكر السياسى والدينى والعلمى للثقافة ، والغرض من الايديولوجية خلق صورة للعالم مقنعة بدرجة تكفى لدعم الاحساس الفردى والجماعى بالهوية. وتزود الايديولوجيات الشباب باجابات مبسطة جدا ، ولكنها اجابات محددة لاسئلة اساسية مرتبطة بصراع الهوية ، اى عنى انا والى اين امضى ؟ والشباب حين تلهمهم الايديولوجية ينجذبون الى انشطة تتحدى طرق الثقافة الراسخة : انشطة تتسم بالثورة والتمرد والشغب . ويرى اريكسون ان النقص فى الايمان بنسق ايديولوجى يمكن ان يؤدى الى عدم احترام لأولئك الذين يحكمون أنساق القاعدة الاجتماعية social rule والى خلط وتشويش كبيرين .

٦ — الألفة مقابل العزلة — الحب :

ان المرحلة السادسة من دورة الحياة تمثل البداية الرسمية لحيـاة الرشد . وهذه هى المرحلة التى يصبح الشخص فيها عادة منغمسـا فى الخطبة والزواج والحياة الأسرية المبكرة ، وتمتد من المراهقة المتأخرة حتى

الرشد المبكر (أى من سن ٢٠ الى ٢٤ سنة) وخلال هذه الفترة يوجه الراشدون أنفسهم عادة نحو اتقانهم لعمل او مهنة ونحو الاستقرار . ويرى اريكسون كما فعل فرويد أن الشخص فى هذه الفترة يكون مستعدا استعدادا حقيقيا للألفة الاجتماعية والارتباط مع شخص آخر . وقبل هذا كان سلوك الشخص الجنسى مدفوعا بالبحث عن هوية الآنا غير ان اكتساب الاحساس بالهوية الشخصية بالانغماس فى عمل منتج يميز هذه المرحلة ويؤدى الى تكوين بين شخصى جديد قطباه الألفة من ناحية والعزلة من ناحية أخرى .

ومصطلح الالفة عند اريكسون كثير الابعاد من حيث المعنى والمجال ، وهو يعنى الالفة والمودة التى يشارك فيها معظمنا (زوجه ، وأصدقاءه واخوته واخواته ووالديه واقاربه) . وهو على أية حال يتحدث عن المودة والالفة مع الذات ، أى قدرة الفرد على أن يدمج هويته مع شخص آخر دون خوف من فقدان شيء من ذاته . وهذا الجانب من الالفة والمودة هو الذى يراه اريكسون أساسيا لتحقيق زواج له معنى . وبالمثل فانه يرى ان المعنى الحقيقى للاحساس بالألفة لا يمكن اكتسابه ما لم يكن الشخص قد حقق قبل ذلك هوية شخصية متماسكة محكمة . وبعبارة اخرى ، لكى تكسون ودودا الوفا مع شخص آخر او مع نفسك ، ينبغى عليك ان تكون قد نميت احساسا قويا رصينا بمن انت ، ومن تكون . ومن جهة اخرى فان وقوع المراهق فى الحب قد لا يكون أكثر من محاولة لاستكشاف هوية الذات باستخدام شخص آخر . وقد تأيد هذا فى ضوء عدم استقرار زيجات صغار السن (ممن تراوحت اعمارهن ما بين ١٦ ، ١٩ سنة) اذا قورنت بثبات الزيجات التى تمت فى العشرينات . ويرى اريكسون ان هذا ناتج عن ان كثيرا من الناس وخاصة النساء يتزوجن شخصا ليحددن هويتهن من خلال ذلك الشخص . ويرى اريكسون انه ليس من الممكن تحقيق الألفة والمودة بالبحث عن هوية المرء بهذا الاسلوب .

ووصف اريكسون للشخص القادر على الألفة والمودة يشبه شبها كبيرا تعريف فرويد للشخص السوى ، انه ذلك الشخص القادر على الحب والعمل ، وعلى الرغم من ان اريكسون لا يشعر بأن هذه القاعدة يمكن تحسينها ، فمن المثير للتأمل أن ننظر فى السؤال فيما يتصل بما اذا كان

الراهب قادرا على أن ينمى احساسا بالألفة والمودة ؟ والاجابة هى نعم لان اريكسون يعتقد أن الألفة والمودة تتضمن أكثر من مجرد الجنس ، انها تشتمل على العلاقة بين الأصدقاء أو بمعنى اشمل تمثل التزاما نحو الرفاق فى الانسانية .

والخطر الأساسى فى هذه المرحلة النفسية الاجتماعية هو انهماك الذات Self absorption او تجنبها للعلاقات بين الشخصية التى تلزم الفرد بالألفة والانغماس الاجتماعى . وتؤدى عدم القدرة على تكوين علاقات ودية بآخرين الى الشعور بالخواء الاجتماعى والعزلة . والمنهمكون فى انفسهم قد يبحثون عن لقاءات بين شخصية شكلية تماما (كاللقاء بين الرئيس والمرءوس) وسطحية ويعزلون انفسهم عن اى نمط من انماط الانغماس الحقيقى ؛ لان مطالب الألفة والمودة تهددهم . ويحتمل ان يكون لدى المنهمكين فى انفسهم اتجاهات الغربة بالنسبة لمهنهم وعدم فائدتها . واخيرا فان اريكسون يعتقد أن الظروف الاجتماعية (اى صعوبة تحقيق المودة والألفة فى المجتمع التكنولوجى غير الشخصى السريع الحركة وفى المجتمع الحضرى) قد تعوق ترسيخ الاحساس بالألفة والمودة . ويبين اريكسون أنه فى حالات العزلة المتطرفة قد تظهر انماط شخصية سيكوباثية ومضادة للمجتمع تستغل الآخرين وتستخدمهم دون احساس بالندم . وهؤلاء هم الراشدون الصغار السن الذين يؤدى عجزهم عن مشاركة هوياتهم مع الآخرين الى استحالة تكوين علاقات طويلة المدى ومكثفة .

والحل الصحى لأزمة الألفة — مقابل — العزلة يؤدى الى تكوين جانب نفسى اجتماعى قوى فى شخصية الفرد وهو الحب . وفضلا عن خصائص الحب الرومانسية والايروطيقية فان اريكسون يرى الحب باعتباره القدرة على التعهد لآخرين والالتزام بهذا التعهد حتى ولو تطلب ذلك انكار الذات والتراضى . وهذا النمط من الحب يعبر عنه حين يظهر الشخص اتجاها قوامه رعاية الآخر واحترامه والاحساس بالمسئولية نحوه .

والدستور الاجتماعى الذى يقابل هذه المرحلة من مراحل الحياة هو الاخلاق . ويرى اريكسون أن الاحساس الخلقى يتطور مع ادراك الفرد لقيمة التزامه بصداقات باقية ومسئوليات اجتماعية وكذلك باحترام هذه

الالتزامات حتى ولو تطلبت تضحية شخصية . أما الذين ينقصهم الاحساس الخلقى فانه يصعب عليهم مواجهة المرحلة التالية من النمو النفسى الاجتماعى وذلك لنقص فى استعدادهم لها .

٧ — الانتاجية مقابل الركود — الرعاية :

تتطابق المرحلة السابعة من مراحل النمو عند اريكسون مع أواسط العمر (من سن ٢٥ الى ٦٥) وتضم ما يصفه اريكسون على أنه الانتاجية مقابل الركود والعقم . ويعتبر الشخص منتجا حين يبدأ فى الاهتمام بالصالح العام للجيل التالى ؛ ليس ذلك فحسب بل وأيضا حين يهتم بالمجتمع الذى سوف يعيش فيه ذلك الجيل ويعمل . ويرى اريكسون أنه ينبغى على كل راشد اما ان يتقبل التحدى الذى يتطلبه التصدى لمسئولية تحسين الأدوات والوسائل التى تحافظ على الثقافة والتى تطورها او أن يرفض هذا . وهذا الاقتناع يقوم على اعتقاد اريكسون بأن النمو المتطور جعل من الانسان حيوانا معلما ومتعلما . والانتاجية تمثل اذن اهتمام الجيل الأقدم بتوجيه وترسيخ الجيل الذى يحل محله . ويمثل هذا على افضل نحو احساس الشخص بالانجاز الذى يرتبط بالانتاج وتنشئة الأطفال وبالانجاز التالى الذى يحققه الأبناء . وعلى اية حال فان الانتاجية لا توجد فقط لدى الوالدين بل توجد كذلك لدى أولئك الذين يرعون الشباب ويسهمون فى الارتقاء بهم . وتتمثل العناصر المبدعة من الانتاجية فى كل شىء ينتقل من جيل الى الذى يليه ؛ واعنى بذلك التكنولوجيا والأفكار والكتب والأعمال الفنية ... الخ . ويتضمن الاهتمام النهائى بصالح الانسانية القيمة النهائية لهذه المرحلة . أى ان جيلا جديدا يعتمد على الراشدين ؛ ويعتمد الراشدون على الشباب .

وينبثق من الأزمة النفسية الاجتماعية للانتاجية فضيلة الرعاية care وتنشأ الرعاية من الاحساس بأن شيئا أو شخصا يهمك . انها ضد الاكتراث . وينزلق الذين يخفقون فى ترسيخ الاحساس بالانتاجية الى حلة من الانهماك فى الذات تسيطر فيها حاجاتهم الشخصية وراحتهم وهؤلاء هم الأشخاص الذين لا يهتمون بأى فرد ولا بأى شىء ما عدا ما يشبع انهماك الذات وانغماسها . ويؤدى النقص فى الانتاجية لدى الأشخاص الى التوقف عن

اداء وظائفهم كأعضـــاء منتجين فى المجتمع ، وهم يعيشـــون لكى يشبعوا حاجاتهم فحسب وقد أجدبت علاقاتهم بين الشخصية . وهذه الأزمة معروفة ويطلق عليها « ازمة اواسط العمر » انها الاحساس باليأس وبأن الحيـــاة لا معنى لها .

٨ — تكامل الآنا مقابل اليأس — الحكمة .

والمرحلة الأخيرة فى خريطـــة التخلق المتعاقب هى المرحلة التى يتأمل فيها الأفراد جهودهم التامة وانجازاتهم الكاملة . وهذه المرحلة تعنى فى كل الثقافات بداية الشيخوخة . وهو زمن تكتنفه كثير من المطالب والتوقعات وذلك بسبب تدهور القوة الجسمية والصحة ، والتقاعد ونقصـــان الدخل وموت الزوج والأصدقاء المقربين والحاجة الى تكوين روابط جديدة مع جماعة الفرد العمرية . وخلال هذه الفترة يحدث تحول واضح فى اهتمام الشخص من المستقبل الى الحياة الماضية .

ويرى اريكسون أن هذه المرحلة الأخيرة من الرشد لا تتميز بظهور ازمة نفسية اجتماعية جديدة بل بتجميع وتكامل وتقويم كل المراحل الســـابقة لنمو الآنا .

ان ثمار هذه المراحل النهائية السبع لا تتضح الا لدى شخص اهتـم ورعى الأشياء والأشخاص وتكيف مع الانتصــــارات والهـــزائم التى ترتبط بالوجود والذى انجب آخرين وكان له انتاج وانكار . وليس هناك كلمة افضل للتعبير عن هذا من كلمة تكامل الآنا .

ان تكامل الآنا ينشأ من قدرة الفرد على أن ينظر الى الوراء لحياته على نحو شامل « بما فى ذلك الزواج والأطفال والأحفاد وانجاز العمل والهوايات » والعلاقات الاجتماعية ، وان يؤكد بتواضع ، ولكن بثقة « انا راضى » وان الموت لم يعد مخيفا « وذلك لان هؤلاء الأشخاص يرون وجودهم مستمرا عن طريق نسلهم أو انجازاتهم الابداعية . ويعتقد اريكسون أن النضج الحقيقى لا يتحقق الا فى الكبر وكذلك الاحساس العملى بحكمة الأجيال ؛ اذا سلمنا بأن الشخص موهوب الى هذا الحد . ويلاحظ فى نفس الوقت ان كلمـــة

الكبير تبقى على وعى بنسبية جميع المعرفة المكتسبة خلال حياة الفرد فى فترة تاريخية معينة. فالحكمة اهتمام نشط بالحياة وفى مواجهة الموت ولكنها فى نفس الوقت منفصلة عنها .

وفى الطرف الآخر نجد افرادا يعتبرون حياتهم سلسلة من الفرص الضائعة والتوجهات المشتتة ، وهم يدركون عندما يأتى المساء ان الأمر قد تأخر للبدء من جديد . وفقدان تكامل الانا أو نقصانه فى مثل هذا الشخص يبدو فى الخوف الخبىء من الموت ، وفى الشعور بأن الاخفاق لا رجعة فيه وبالانشغال الدائم بماذا كان يمكن ان يحدث لو انه فعل كذا ، أو حدث كذا . ويلاحظ اريكسون أن هناك حالتين سائدتين لدى الشخص المسن المشمئز او المرور — أسف على حياة لا يمكن أن يعاد عيشها ، ونبذ لنواحى قصور الفرد باسقاطها على العالم الخارجى . وفى حالات المرض النفسى الشديد يرى اريكسون أن المرارة والندم قد يؤديان بالمسن الى أن يكون مكتئبا حقودا متسما بالبارانويا والهيبوكندريا . (Hejelle, 1981, pp. 116-131)

ويلاحظ من هذا العرض لمراحل النمو ما يأتى : —

١ — أن اريكسون فى صياغته لنظريته قد أكد على دور المجتمع ودور الأفراد فى نمو الشخصية وتنظيمها . وقد أدى هذا بالمشتغلين برعاية الانسان وخدمته الى أن يدركوا أن مشكلات الراشدين اخفاق فى حل أزمات شخصيتهم وهم راشدين اكثر من كونها مجرد بقايا لاحباطات الطفولة المبكرة وصراعاتها .

٢ — اهتم اريكسون بمرحلة المراهقة وهى مرحلة تجاهلها فرويد الى حد كبير ، وذلك لان الأول اعتبرها مرحلة رئيسية فى صياغة الرفاهية النفسية الاجتماعية للفرد وخيره .

٣ — اثار اريكسون موجة من التفاؤل حين بين ان كل مرحلة من مراحل النمو النفسى الاجتماعى بها امكانيات القوة والضعف بحيث أن الاخفاق فى مرحلة من مراحل النمو لا يعنى بالضرورة الاخفاق الذى لا فكاك منه فى مرحلة لاحقة .

العلاج النفسى :

لقد بين أريكسون أن المعالج النفسى الكفء لديه احساس قوى بامكانيات المريض وقدرته على النمو . وعمل المعالج ان يغذى هذا المنو لا ان يفرض مستقبله هو أو ماضيه على المريض . وهذه النقطة من المتطلبات التى يتعلمها كل محلل نفسى حين يخضع للتحليل النفسى هو نفسه بقصد التدريب، وهى متضمنة أيضا فى التأكيد على دور التحويل والتحويل المضاد فى التحليل النفسى . ولقد علق اريكسون على عبارة يونج بأن كل مريض جاءه كان يحمل حياته بين يديه ، قائلا « هذا صحيح ولكن ينبغى ان يضيف المرء الى هذا انه جاء الى ولم يذهب الى شخص آخر وانه بعد ذلك لن يكون قط كما كان — ولن اكون انا كما كنت » (Erikson in Evans, 1969, p. 103)

ينبغى أن يكون كل معالج نفسى مهيئا لان يفهم ويتوحد مع اساليب الحياة المنوعة وبدائلها . ومسائل القيم والخلق اساسية للعلاج . ان فكرة التجرد الشخصى عند المحلل النفسى الكلاسيكى انما هى سوء فهم لدور التقبل غير المتحيز لتداعى المريض الحر ولتاريخه الماضى . فالمعالج موجود دائما كفرد ، وله حرية التعبير عما يرغب فيه دون تشويه ناشىء عن التحويل المضاد غير العقلانى .

وقد أعاد اريكسون صياغة « القاعدة الذهبية » فى ضوء الفهم السيكولوجى المعاصر . وقد كتب مبينا ان الأفعال الخلقية الجديرة بالاهتمام حقا تقوى الفاعل حتى وهى تقوى الآخر ، وتنمى العلاقة بينهما . وهذه القاعدةتشجع المعالج اثناء العلاج على ان ينمو كممارس وكشخص وحتى مع شفاء المريض لان الشفاء الحقيقى يتسامى على الحالة الانتقالية للمرض، انها خبرة تمكن المريض الذى شفى من أن ينمى اتجاها نحو الصحة ينتقل الى البيت والى الجيرة ، وهذا الاتجاه من اهم المكونات الأساسية للنظرة الأخلاقيـــة . (Frager, 1984, p. 163) (Erikson, 1964, pp. 236-237)

البحوث وطرق البحث :

لقد أقام اريكسون كثيرا من تصوراته على ممارسته العلاجية وخبراته الكلينيكية . وكتاباته عن الهوية تقوم على أساس من الملاحظة الكلينيكية

والخبرة . ونظريات اريكسون على أية حال مستقاة من ملاحظاته للشباب والأطفال . وقد لاحظ المجموعة الأخيرة فى مواقف اللعب التى استخدمها فى البداية فى العلاج . ولقد ازدادت مفاهيمه ثراء من دراساته لحياة الشخصيات التاريخية ومن دراساته الاجتماعية الثقافية .

وعلى الرغم من ذيوع شهرة اريكسون وأفكاره الا أن نظريته لم تولد الا قدرا محدودا من البحوث الامبيريقية . ولعل ذلك يرجع الى انه لم يفصل مفاهيمه النظرية تفصيلا كافيا . ومن العدل ان نقرر ان اريكسون يرى ان مفاهيمه عن نمو الشخصية قد لا تكون قابلة للتحقيق التجريبى على نحو مباشر . وهو لا يعتقد فضلا عن ذلك بأن المنظر عليه مسئولية بيان طرق وأساليب الدراسة التجريبية لمن يريد ان يدرس أفكاره .

غير أن بعض مفاهيم نظريته النفسية الاجتماعية قابلة لأن توضع موضع البحث الدقيق . وعلى سبيل المثال فان اريكسون قد حدد محكات الصحة النفسية الاجتماعية وسوء الصحة بالنسبة لكل مرحلة وازمة ، وذلك على أساس خصائص سلوكية حسن تعريفها وتحديدها . وهذه الأوصاف الحسنة الصياغة لها ميزة واضحة تتفوق بها على نظريات التحليل النفسى التى تحاول أن تعيد بناء تاريخ حياة الفرد السابق ، ذلك لان الاوصاف تيسر الدراسة المباشرة لحل الأزمات السابقة من خلال المظاهر السلوكية والاتجاهات الحالية . ويبدو أن النظرية أيضا تفسح المجال للبحوث الامبيريقية على نحو افضل من نظريات التحليل النفسى الكلاسيكية ، لان الاولى تتناول الأبعاد الاجتماعية للنمو مقابل الثانية التى تركز على الطبيعة النفسية الداخلية للشخصية . ويصعب دراسة العوامل الداخلية الافتراضية اذا قورنت بالسلوك الاجتماعى الملاحظ . هذا فضلا عن أن اريكسون توصل الى مراحل متتابعة من النمو النفسى الاجتماعى للشخصية وهذا التركيب الطولى لمشاكل النمو لا نجده بهذا التفصيل والوضوح عند أصحاب النظريات السابقة عليه . وعلى أية حال وحتى يتم القيام بدراسات كثيرة دقيقة حسن تخطيطها بحيث تؤتى ثمارها على نحو نسقى فى تناول جوانب نظرية اريكسون المختلفة ستظل المضامين النمائية لهذه النظرية غامضة ، وكذلك يظل الأساس الامبيريقى لها ضعيفا .

الفروق بين الجنسين فى لعب الأطفال :

على الرغم من أن هذه الدراسة لا ترتبط باثبات صدق مفاهيم اريكسون النفسية الاجتماعية امبيريقيا ، الا انها وفرت الأساس لآرائه الجدلية عن سيكولوجية المراة وهو اساس يقوم على الملاحظة .

لقد لاحظ اريكسون ان الأطفال يكشفون عن مشكلاتهم على نحو افضل حين يلعبون باللعب اكثر مما يفعلون حين يستخدمون الألفاظ . ولقد ادت به هذه الملاحظة الى بحث تشكيلات ١٥٠ بنتا ومثلهم من البنين للعبهم ، ولقد تراوحت اعمارهم ما بين ١٠ ، ١٢ سنة وكانوا افراد عينة دراسة طولية عن النمو تجرى فى جامعة كاليفورنيا(Erikson, 1963 a) وكانت طريقته فى البحث أن يدعو الطفل بمفرده ويطلب منه ان يشكل ويبنى باستخدام مجموعة من اللعب فوق منضدة منظرا مثيرا رآه فى فيلم او تخيله،ثم يطلب من الطفل بعد ذلك أن يحكى حكاية عن المنظر الذى شكله وبناه ورتبه .

ولقد أظهرت الدراسة وجود فروق واضحة بين البنات والبنين فى استخدامهم لمساحة اللعب فى اعداد المناظر . وعلى وجه التحديد لقد وجد اريكسون أن البنات يملن الى اعداد مناظر داخلية مسالمة هادئة باستخدام مجموعات من الاثاث ودمى لاشخاص وحيوانات فى أوضاع استاتيكية وكان هؤلاء يتمن بأعمال وهن جلوس كالعزف على البيانو . وان المساحات المسورة تتألف من حوائط منخفضة وبوابات وفى عدد من الحالات قد يؤدى دخيل الى المكان الى احداث صياح ويضطر النساء الى الاختباء ويظهر عليهن الخوف. وهذا الدخيل كان دائما فى شكل حيوان أو رجل او ولد ولم يكن امراة و بنتا قط.ومما يثير الاهتمام ان البنات لم يحاولن اعاقة هذا الدخيل بحوائط عالية أو باغلاق الابواب . ويعلق اريكسون على هذا قائلا « ان اغلبية هـــذه التدخلات تتميز بعنصر من الفكاهة والاثارة اللاذة »(1963a p. 105)ويقابل هذا ميل الأولاد الى بناء مناظر تتميز بأبنية عالية وابراج وما يرتب على ذلك من استمتاعهم بانهيار المبانى.وفى عدة حالات زينت الحوائط والواجهات بنتوءات فى صورة اشكال مخروطية واسطوانية . وقد تضمنت مناظر الأولاد قدرا كبيرا من الأفعال والحركة كتدفق المرور فى الشوارع وتوجيه ضباط المرور له أو ايقافه ، وتحرك حيوانات وهنود .

ويرى اريكسون أن هذه الفروق بين الجنسين فى اللعب ترجع الى اختلاف طبيعة جسم الفتاة عن جسم الفتى فتميل الأولى فى لعبها الى استخدام المجال الداخلى والحماية والتلقى ويميل الآخر الى تأكيد الانتصاب والنواحى الخارجية والحركة . ويحتمل انهما يتأثران بالمفاهيم التقليدية عن التنميط الجنسى أى عن اختلاف دور الذكر عن الانثى .

ولقد هاجم عدد من النقاد هذا التفسير . فذهب السلوكيون ودعاة التعلم الاجتماعى بصفة عامة الى ان من الأفضل أن نفسر تشكيل الأطفال للعب فى مناظر لها خصائص معينة على أساس نوع اللعب التى زود بها الأولاد والبنات ونوع الأنشطة التى شجعوا على القيام بها منذ وقت مبكر. ويتفق دعاة الدفاع عن حقوق المراة مع هذه النظرة ويصرون على أن هذه الفروق تعزى فقط الى المؤثرات الاجتماعية والثقافية . بينما يرى اريكسون أن السلوك يتحدد دوما نتيجة للعوامل البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية الثقافية . ان ما يفعله الذكور والاناث بامكانياتهم لا ينضبط على نحو جامد بخصائصهم الفيزيقية الجنسية التشريحية وانما يتأثر بمتغيرات الشخصية وبالأدوار الاجتماعية المتوقعة وبأهداف الحياة .

التاريخ النفسى :

هو دراسة حياة شخصيات تاريخية باستخدام اساليب التحليل النفسى من ناحية وطرق التحليل التاريخى من ناحية أخرى . وعلى الرغم من أن فرويد درس عددا من الشخصيات الهامة الا أن اريكسون فى الحقيقة هو الذى رسخ هذا النوع من الدراسة بمقالاته عن ادولف هتلر ، ومكسيم جوركى . واشهر دراساته تلك التى قام بها عن مارتن لوثر المصلح الدينى الألمانى ودراسته عن المهاتما غاندى الذى بلور مفهوم الثورة السلمية والذى حقق الاستقلال للهند .

وهناك فرق رئيسى بين دراسة حالات المضطربين نفسيا وتاريخ حياة شخصيات مرموقة . لقد بين اريكسون فى تصوراته عن النمو أن جميع الناس يواجهون صراعات خلال الحياة ، واننا حين نحلل شخصا يعانى من اضطراب او مشكلة فاننا نبدأ من فكرة ان هناك اشياء ووقائع ادت الى

اضطرابه فعجز عن القيام بوظائفه على نحو مناسب فى بعض مجالات الحياة ومهمتنا أن نكتشف الصراعات التى خلقت هذه الصعاب وان نساعد الشخص على تحقيق التكامل فى شخصيته .

اما حين ندرس شخصيات تاريخية فانا نبدأ بادراك ان هولاء الأفراد غيروا العالم بطريقة لها مغزى . وأن علينا ان نعرف كيف استطاع هؤلاء الأفراد أن يصمدوا فى مواجهة الازمات.نريد أن نعرف كيف استطاعوا اعلاء صراعاتهم والهلم الآخرين ليعملوا على تغيير المجتمع ايجابيا كما حدث فى حالة لوثر وغاندى ، أو تغييره سلبيا بالعدوان والتدمير كما حدث فى حالة هتـــلر .

ويترتب على ذلك ان تواريخ الحالة وتواريخ الحيــاة تفحص انواعا معينة من الصراعات من زاويتين مختلفتين . افترض مثلا أن رجلا لا يستطيع الاستقرار فى عمل لانه يرفض تقبل سلطة الآخرين وتنقصه المبادأة لتنمية افكاره الذاتية وتنفيذها ومع ذلك يرفض توجيهات رئيسه ثم يشعر بالاثم . فى هذه الحالة نريد ان نعرف لمــاذا عجز هذا الشخص عن حــل صراع السلطة (الصراع الأوديبى) واخفق فيمــا يبدو فى تنمية الاستقــلال الذاتى والمبادأة .

وحين درس اريكسون غاندى لم يهتم باسباب عدم حل الصراع الأوديبى عنده ، وانما اهتم بطريقة غاندى فى التعبير عن صراع السلطة بطريقة ادت بآخرين الى التمرد وتبعه ملايين الهنود ليعملوا تحت قيادته لتحرير الهند من الحكم البريطانى .

ولقد وضع اريكسون عام ١٩٧٥ بعض القواعد الصارمة عند القيـام بالدراسات النفسية التاريخية . فقد بين على سبيل المثال ان الباحث ينبغى أن يلتفت التفاتا وثيقا الى عبارات معينة صدرت عن الفرد وترتبط بمراحل نمو معينة ، وكيف تتسق هذه العبــارات بعضها مع بعض ومع استمرارية حياته كشخص . وينبغى أن يلتفت الباحث بعناية ودقة الى مــا يجرى فى العالم حول الشخص وقت صدور هذه العبارات والى كيفية ملاءمة الوقائع المعاصرة للعملية التاريخية .

ولقد ادرك اريكسون ان المحلل النفسى حين ينتقل من دراسة تاريخ الحالة

الى تاريخ الحياة عليه أن يوسع من اهتماماته ويدخل فى اعتباره أنشطة المفحوص فى العلم الخارجى وما اتيح له من فرص ، وما وجد من قيود وحدود. وهذا التقدير والاهتمام بتفاعل التيارات النفسية والاجتماعية اثر بدوره على أعمال اريكسون النظرية .

ويشير اريكسون الى أن الذين يقومون بدراسات نفسية تاريخية قد يسقطون حاجاتهم وصراعاتهم على موضوع الدراسة . ويبدو انه يقترح أن تحليل الباحث نفسيا يساعده على أن يصبح اكثر وعيا بصراعاته وكيف يمكن أن تؤثر فى الدراسة النفسية التاريخية .

ولقد أهتم اريكسون فى دراساته هذه برجال تعكس صراعات هويتهم صراعات عصر بأكمله . وتكمن عظمتهم فى قدرتهم على العثور على حل شخصى لأزمة هويتهم ، حلا أصبح نموذجا للآخرين . وهم على الأغلب أفراد لديهم صراعات شخصية عميقة . ويبدو أن أزمة العصر قد انعكست على كل منهم على نحو مكثف ومع ذلك فقد استطاع كل منهم أن يثير نشاطا متصلا وتغييرا جذريا لحلها . (Hall & Lindzey, 1985, pp. 93-98)

وعلى الرغم من أن هذه الشخصيات كانت مبدعة ونشطة وقوية الا انها لم تكن خلوا من الخوف والقلق والشقاء . وكثيرا ما كان لديهم احساس نابع من طفولتهم يسيطر على حياتهم ويدفعهم الى البحث عن نوع من الاستقرار . لقد كانوا بصفة عامة مرتبطين بآبائهم عن نحو يستبعد التمرد الصريح عليهم ، ولقد تعلموا قدرا كبيرا من آبائهم وشعروا بأن هؤلاء الآباء كانوا يحتاجونهم ويختارونهم اختيارا له خصوصيته . ولدى هؤلاء الأفراد ضمائر حية واهتموا منذ وقت مبكر بالقيم المطلقة ، واعتقدوا أحيانا أن عليهم مسئولية خاصة يقومون بها نحو الانسان ، ولهم رسالة عليهم اداؤها. وكان يمكن لهؤلاء أن يسوء توافقهم وان ينحرفوا لو لم تتوافر لديهم القدرة والطاقة والتركيز والاخلاص الروحى .

بحوث عن الهوية :

لم يهتم اريكسون بهذه البحوث وانما تصدى باحثون آخرون لها ومن

لهؤلاء Ciacci o عام ١٩٧١ فقد طلب من ١٢٠ طفـــلا من الذكور البيض ان يكتبوا قصصا عن خمس صـــــور يتألفون من ثلاث مجموعات الأولى فى الخامسة من العمر ، والثانية فى الثامنة من العمر ، والثالثة فى الحـــادية عشرة من العمر . وقام مجموعة من الحكام بتصنيف قصص الاطفال جملة جملة وفقا لمرحلة النمو التى تتطابق معها على افضل نحو . وحسبت النسب المئوية للجمل التى عبر بها كل طفل عن اهتمامه بمراحل النمو الأربعة الأولى عند اريكسون . واتضح أن نتائج الدراسة تميل الى تأييد نظرية اريكسون . فقد اتضح أن اكبر عدد من الثيمات التى عبر عنها اطفال الرابعة تتطابق مع المرحلة الثانية (٤٦٪) ويلى ذلك الثيمات التى تتطابق مع المرحلة الثالثة (٤٢٪) أما عن اطفال الثامنة فقد اتضح ان اكبر عدد من الثيمات صدرت عنهم او وردت فى قصصهم تتطابق مع المرحلة الثالثة (٥٦٪) وان المرحلة الثانية كانت تلى ذلك من حيث التواتر (٢٠٪) واظهرت استجابات مجموعة الحادية عشرة أن اكبر عدد يتطابق مع المرحلة الرابعة (٤٤٪) وان الثيمات التى تناسب المرحلة الثلثة جاءت دون ذلك (٢٦٪) .

وقد قام واترمان وآخران عام ١٩٧٠ Waterman, Buebel and Waterman بدراسة استهدفت اختبار صحة الفرض القائل بأن النتيجة الايجابية لاى مرحلة من مراحل النمو يزداد احتمال تحققها اذا كانت نتائج مراحل النمو السابقة موجبة ولقد استخدم هؤلاء الباحثون فى الجزء الأول من الدراسة استخبارا يبين ما اذا كان الفرد يعتقد أن احداث حياته يحددها هو شخصيا أم تحددها القوى والظروف الخارجية (كما بين ذلك مقياس جيمس لوجهة الضبط (The internal-External Locus of control Scale of James, 1957)) باعتبار أن هـــذا مؤشر يوضح نتيجة المرحلة الثانيـــة من النمو . هل هى الاستقلال الذاتى أم الخجل والشك ، كما استخدم الباحثون طرق الاستخبار لتقويم ما اذا كانت الثقة أو عدم الثقة هى التى نتجت عن المرحلة الاولى من النمو . وكان المتغير التابع فى الدراسة هو الهوية مقابل تميع الدور وهو متغير تم قياسه ايضا باستخبار . وقد جاءت النتائج مدعمة لما تنبأ به . فقد ارتبطت الهوية بوجهة الضبط الداخلية،وارتبط الشك والخجل بوجهة الضبط الخارجية . ولكن الدراسة لم تسفر عما يؤيد صحة العلاقة المفترضة والتى تربط الهوية بالثقة وتميع الدور بعدم الثقة . وقد استخدم هؤلاء الباحثون

فى الجزء الثانى من دراستهم مقياسا لمفهوم الذات لاختبار العلاقة المتوقعة التى ذكرناها من قبل واسفر تحليل البيانات عن دعم متسق لفكرة اريكسون عن علاقة الهوية بالثقة . غير انه ينبغى أن نلاحظ انه فى هذا الجزء من الدراسة استخدم احد مصادر بيانات الدراسة لقياس عدة خصائص مما يشير الى امكانية أن تكون هذه العلاقات انعكاسا للتداخل فى الطريقة .

وفى دراسة قام بها برونسن عام ١٩٥٩ حاول أن يحدد ما اذا كانت مجموعة من الخصائص التى تشير عند احد قطبيها الى احساس راسخ بالهوية وعند القطب الآخر الى احساس بالتميع فى الهوية ، لها وجود امبيريقى فعلى . ولقد حدد الباحث اربع خصائص يمكن قياسها وذلك بعد قراءة متأنية لأوصاف اريكسون للهوية والتميع وهى : —

١ — أن يكون متأكدا من وجود علاقة بين فكرة الفرد عن نفسه فى الماضى وفكرته عن نفسه فى الحاضر أو متشككا فيها .

٢ — أن يظهر درجة عالية من التوتر الداخلى أو القلق او درجة منخفضة .

٣ — أن يكون الفرد متأكدا من خصائصه الشخصية السائدة او متشككا فيها .

٤ — أن يكون مستقرا فى مشاعره عن نفسه او متذبذبا .

ولقد افترض برونسن وعلى نحو صحيح ان معاملات الارتباط الموجبة الدالة بين هذه الخصائص تدعم صحة تصور اريكسون عن المرحلة الخامسة عن الهوية وتميع الدور .

وتألفت عينة البحث من ٤٦ من طالبات الجامعة وقام بتقدير الخاصيتين الأولى والثانية باحثون من خلال مقابلة شخصية استغرقت عشرين دقيقة وكان الباحثون علماء نفس كلينيكين مدربين وحسب متوسط تقديراتهم واستخدم فى تحليل النتائج . ثم استخدم الباحث طريقة وصف الذات لقياس الخاصيتين الثالثة والرابعة بعد تكرار نفس العملية بعد اربعة أسابيع . وذلك حتى يمكن تقدير الاستقرار او التذبذب فى الخاصية الرابعة

وقد تراوحت معاملات الارتباط بين المتغيرات الأربعة ما بين ٤٧ر. ، ٧١ر. وكانت كلها دالة احصائيا بدرجة عالية. وقد اتضح من نتائج الدراسة وجود بعض المراهقات القلقات اللائي لم يدركن وجود علاقة بين هويتهم الآن ، وما كانت عليه من قبل . وهن غير متأكدات من ماهية خصائصهن السائدة فى الحقيقة ، ويغيرن فكرهن عن هذه المسائل ، اى انهن يظهرن تميعا فى الهوية .

ولقد وضع كونستانتينويل عام ١٩٦٩ م Constantinople مقياسا لتقدير الذات يتألف من ٦٠ بندا يسمى قائمة النمو النفسى الاجتماعى Inventory of Psychological Development يتناول تقدير مراحل النمو الثمانية عند اريكسون . وقد اتضح أن معامل الاستقرار هو ٧٠ر. على عينة تتألف من ١٥٠ فردا اجابوا عن القائمة مرتين بفاصل ستة اسابيع وهذا الثبات يكفى لنقول بان هذا المقياس يقيس مدى نجاح الفرد فى النمو واجتياز المراحل الثمانية التى عرضنا لها بالتفصيل من قبل . وبيانات صدق هذا المقياس ما تزال تتجمع . وقد قام ريمانيس Reimanis بدراسة عام ١٩٧٤م استندت الى فكرة أساسية هى ان الحل غير الناجح لصراعات النمو النفسى الاجتماعى ينبغى أن تؤدى الى الاغتراب anomie ولكى يختبر هذا التنبؤ طبق قائمة النمو النفسى الاجتماعى ومقياسا للاغتراب Sole Scale measurement of Anomie على عينتين (١٠٠ من المحاربين القدماء ، ١٤١ من طلاب الجامعة وطالباتها) والجدول (٦ — ٢) يوضح معاملات الارتباط بين المتغيرات موضع الدراسة. وكما هو متوقع فان النمو غير الناجح يميل الى الارتباط مع الاغتراب ، بينما النمو النفسى الاجتماعى الناجح يميل الى عدم الارتباط مع الاغتراب . وهذه النتائج تتسق مع نتائج كونستانتينوبل ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ الذى وجد ان النمو الناجح يرتبط بالسعادة .

جدول (٦ — ٢)

يبين معاملات الارتباط بين الاغتراب ونتائج قائمة النمو النفسى الاجتماعى :

قائمة النمو النفسى الاجتماعى	مقياس ميول الاغتراب		
	المحاربون القدماء	طـلاب الجامعة	طالبات الجامعة
ـ الثقة	—١٧ر٠	—١٧ر٠	—٢٨ر ×
ـ عدم الثقة	٣١ر٠ ×	٢١ر	٢٥ر
ـ المبادأة	—٠٨ر	—٠٥ر	—٣٦ر ×
ـ الأثم	٣١ر ×	٤٠ر ×	٢٥ر ×
ـ الاستقلال	—١٤ر	٢٦ر	—١٤ر
ـ الخجل والشك	٢٨ر ×	٤٠ر ×	١٣ر
ـ الاجتهاد	—١٧ر	٠٦ر	—٣٦ر ×
ـ القصور	١٦ر	٤٤ر ×	٢٩ر ×
ـ التوحد	—١٠ر	—١٤ر	—٣٥ر ×
ـ تميع الدور	٢٤ر	٤٣ر ×	٢٢ر ×
ـ الألفة والود	—٠٦ر	—٢٤ر	—٢٨ر ×
ـ العزلة	٤٢ر ×	٢٩ر ×	١٦ر
	ن = ٧٤	٥٥	٨٦

× دال عند مستوى ٠٥ر

لقد تناول مارسيا Marcia عام ١٩٦٦ مرحلة هوية الذات مقابل تميع الدور وفصل التول فيها ، وهى مرحلة اهتم بها اريكسون اكثر من غيرها من مراحل النمو وخاصة فى الستينات.ويرى مارسيا انه من الممكن ان نميز على الأقل خمسة توجهات فى فكر اريكسون فى هذه الفترة وهما : —

— تحقيق الهوية Identity achievement وتضم الأشخاص الذين خبروا الأزمة والتزموا بمهنة أو عمل وبايديولوجية .

— تعليق الهوية Moratorium وتضم الأشخاص الذين يعيشون الأزمة الآن مع التزام غامض بعمل وبايديولوجية .

— حبس الهوية Foreclosure ويصدق على الأشخاص الذين يلتزمون بعمل وايديولوجية ولكنهم فيما يبدو لم يخبروا الأزمة لان التزامهم يحدده الوالد الى حد كبير .

— تميع الهوية Identity diffusion وتصدق على اشخاص خبروا الأزمة أو لم يخبروها ولكنهم لا يظهرون التزاما .

— انجاز مغترب Alienated achievement وتصدق على اشخاص خبروا الأزمة ويظهرون عدم الالتزام ولكنهم توصلوا الى ايديولوجية تدين انتظام الاجتماعى .

ولقد امكن تحديد نوع هوية الشخص أو حالة تلك الهوية بتقدير استجاباته لمقابلة مقننة حدد مارسيا قواعد اجرائيا . ولقد تراوحت نسب الاتفاق بين المقدرين ما بين ٨٠ ، ٩٠٪ فى عدة دراسات . غير انه لا تتوافر فى هذه الدراسات بيانات عن الاتساق الداخلى او الاستقرار ولذلك فاننا لسنا على ثقة من ان هذه الأنواع او الحالات لها اساس امبيريقى راسخ .

ولقد درس ارلوفسكى Orlofsky وآخرون العلاقة بين هذه الحالات الخمس ومقاييس للألفة ، والعزلة ، والاشتهائية الاجتماعية ، والتواد والجنسية الغيرية فى محاولة لتحديد ما اذا كانت مشكلات الهوية تنذر بالنمو اللاحق . وكما هو متوقع من فكر اريكسون اتضح ان اصحاب الهويات الحبيسة وتميع الهوية اتصفوا بعلاقات بين شخصية سطحية ومقولبة stereotyped حين قورنوا بالفئات الأخرى ؛ اما اصحاب الهوية المعلقة فكانوا أكثر الفئات قابلية التغير ؛ أما أصحاب الهويات المحققة فتميزوا بالألفة اجتماعية ونأوا عن العزلة ؛ أما أصحاب الانجاز المغترب فقد

جاءت نتائجهم غير متوقعة لقد اتضح انهم انهوا أزمة الهوية لصالح أزمة الألفــة . وهى فكرة ساحرة ولكن ليس من الســهل اشتقاقها من تنظير اريكسون الحالى .

وهذه الدراسة تدل على جدوى تنظير اريكسون،ولكن الحاجة ما تزال ماسة لمزيد من البحوث الجيدة قبل أن تقوم هذه النظرية تقويما شاملا من وجهة النظر الامبيريقية . (Maddi, 1976, pp. 453-458)

التقويم والمكانة الراهنة :

لقد تعرض اريكسون للنقد بسبب غموض كتاباته . وهو فنان يستخدم الكلمات ليرسم بها صورا اكثر مما يعبر بها عن فكر منطقى . ولقــد أدى التزامه بالتحليل النفسى الى تقييد فكره . وأدوات اريكسون هى الادوات الكلينيكية التى طورت لعلاج المرضى ؛ واستخدامها مع نمو الأسوياء ليس مرضيا على الدوام . ويتضح هذا فى دراساته لحياة عدد من العظماء الذين تصدى لدراستهم . ففى تحليل اريكسون لغاندى على سـبيل المثال يطبق أدواته ويستخدم بصيرته على نحو عبقرى كمحلل نفسى ، ولكنه لا يتناول على نحو جاد دور مثله العليا وقيمة الروحية ومجاهداته النفسية.انه يتناول ديناميات حياة غاندى وتفكيره كما لو كانت لمريض اكثر من تناولها باعتبارها عمليات نفسية وحالات شعورية ذات نوعية ؛ انه لا يبين كيف يتمايز غاندى ويختلف عما نجده عند المرضى .

ولكن هذه الجهود رغم ما تعرضت له من نقد قد خلقت اتجاها علميا جديدا يسمى التاريخ النفسى psychohistory . اما عن مدى دقة تحليــل اريكسون للشخصية التاريخية ، فقد أجاب عنه بنفسه حين بين أن تحليله يقوم على ذاتية مدربة ومنضبطة disciplined subjectivity وقد يكون هذا التحليل مزجا بين الحقيقة والاسطورة.ويبدى اريكسون الملاحظة الآتية فى تحليله لشخصية مارتن لوثر :

« ان كان بعض هذا اسطورة ، فليكن اسطورة ؛ وصناعة الاسطورة جزء من اعادة كتابة التاريخ علميا ؛ كما انها جزء من الحقائق الأصلية التى

تستخدم فى عمل العلماء . وهكذا فنحن مضطرون لقبول اضافة الاساطير كاضافة الحقائق التاريخية ، مع التسليم بأن الواقعة التى نرويها لا تتعارض مع حقائق راسخة ، وانها تستمر معبرة عن جانب من الحقيقة ، وحاملة لمعنى يتسق مع النظرية النفسية » (1958, p. 37)

واستخدامه لادوات متجذرة فى التحليل النفسى لم يكن ملائما للأعمال التى يتصدى لدراستها . وهو حين عمل هذا وسع مجال التحليل النفسى وأثراه ولكنه فى نفس الوقت كشف عن نواحى قصوره وعن حدوده .

ويقدم لنا اريكسون اعادة صياغة موفقة للتحليل النفسى . لقد استطاع أن ينقل نسق فرويد الفذ نقلة جديدة. واهتمام اريكسون بالمحددات الاجتماعية والثقافية للسلوك وتحقيقه للتكامل بين علم النفس وعلم الاجتماع والانتربولوجيا مع استبصاراته التحليلية النفسية يمهد الطريق لمستقبل مشرق فى سيكولوجية الشخصية . ويرى علماء النفس أن نظريته فى النمو ومفاهيمه عن الهوية وازمتها جذابة . وهم بصفة عامة يرحبون بتاكيده على الجوانب النفسية الاجتماعية من النمو ويفضلونه على تاكيد فردية الديناميات النفسية الجنسية . وعلماء النفس والمحللون النفسيون الجدد وغيرهم كثير معجبون بأريكسون بسبب حذق ملاحظاته ودقتها ومعقولية تفسيراته ، وتعاطفه العميق مع كل انسان .

ونظرية اريكسون تشبه كثيرا من نظريات الشخصية من حيث انه لا يمكن تقويمها على اساس البحوث المعملية. او على الاقل لا يمكن ان نفعل هذا حتى الوقت الحاضر لقلة البحوث الامبيريقية التى اجريت فى مجالها . واريكسون لم يضع نظريته بعقلية الباحث ، وانما حاول أن يضيف مجموعة من العناصر التى تتصل بنمو الشخصية ويضع لها اساسا من التصورات ، وقد يشعر الفرد انه استطاع توضيحها وقد لا يشعر بذلك . وقد يكون هذا الاطار النظرى مرشد مفيد يساعدنا على فهم الشخصية وقد لا يكون مفيدا بالقدر الكافى . ان الدليل على صدق نظرية يكمن فى تمكينها المعالج والمريض من التواصل والتفاهم بحيث تؤدى الى استبصارات جديدة ومدهشة والى مزيد من قيام المريض بمسئوليته عن نفسه على نحو متزايد .

غير أنه من الانتقادات التى وجهت اليه فى هذا المجال أن دراسته للشباب فى الستينات من هذا القرن وافكاره عن الهوية والايديولوجية وربما نظريته كلها ليست عملية حين نصل الى علاج حالات فردية . وبعبارة اخرى أنه لا توجد مدرسة تضم معالجين على طريقة اريكسون كما حدث بالنسبة لسوليفان . صحيح أن اريكسون درب عددا من المعالجين النفسيين ولكنهم أفراد ، ولعل ذلك يرجع الى أن اريكسون لم يهتم بالتأسيس والتنظيم . والأغلب أن ما كتبه اريكسون اثبت انه اكثر نفعا للمؤرخين النفسيين ولصناع السياسة الاجتماعية عما هو عليه بالنسبة للمعالجين النفسيين . انه يختلف عن فرويد من حيث أن نظريته مجموعة من التمارين الاكاديمية وليس لهـا تطبيق عملى . ولعل اريكسون راى اعماله كالبحوث الأساسية التى قد يتيض الله لها فى المستقبل من يقدر على التوصل الى تطبيقات محسوسة لها . والخلاصة ان اريكسون لم يكتب كتابا يشتمل على اساليب ووصفات لمعالجة المرضى الذين يعانون من أزمة الهوية . وان جاءت نظريته عن الهوية والايديولوجية تمرينا اكاديميا ساحرا ومقنعا ولكنه مع ذلك تمرين اكاديمى .

وعلى الرغم من أن نظرية اريكسون ينقصها الضبط العلمى ، وعلى الرغم من النقد السابق فيما يتصل بالنواحى العملية والتطبيقية وخاصة فى العلاج النفسى الا أن كثيرون يعتبرونها من اكثر النظريات فائدة . وهكـذا فانك حين تقرأ عن مصطلحات مثل : « النمو النفسى الاجتماعى ،وقوةالأنا ، والتاريخ النفسى ، والهوية وازمتها ودورة الحياة » فلابد ان تتذكر ان جميع هذه المفاهيم قد بلورها اريكسون وتناولها على نحو مستفيض واعمل الفكر فيها وانها قد اصبحت جزءا هاما من علم النفس .

وهناك اربعة انتقادات اساسية تعرضت لهـا أعمال اريكسون : —

أولا : أن بعض الكتاب يرى ان اريكسون متفائل جدا ، وينكر اريكسون هذا الاتهام مبينا انه يبرز فى كل مرحلة من مراحل النمو أزمة ، وخاصية سلبية محددة للانا (كعدم الثقة ، والخجل وهلم جرا) مما يعنى وجود مصدر ممكن طوال الحياة للقلق . والحق ان اريكسون لا يفسح مساحة كبيرة فى كتاباته لمناقشة القلق . وهو يميل الى التركيز على الجانب الموجب للقلق حيث يقول « انه بغير القلق لا توجد قوة انسانية » (Erikson, 1975, p. 259)

ويهتم اريكسون بحل الصراعات بقدر اهتمامه بالاخفاق والانهيار العصبى وهو يختلف عن بعض المحللين النفسيين الذين سبقوه والذين يركزون تركيزا يكاد يكون تاما على النواحى المرضية النفسية . ويرى اريكسون أن هناك الكثير الذى يمكن تحقيقه من دراسة نمو الأسوياء وارتقائهم وهو فى هذا ليس وحده ، ذلك اننا نجد فى معيته ماسلو وروجرز وآخرون .

ثانيا : أن اريكسون ضحى بمفاهيم فرويدية أساسية كالهو واللاشعور فى سبيل الآنا والشعور . وهذا ليس نقدا لنظرية اريكسون وانما هو اعتراض على اختلافه عن فرويد الذى لم يدعى قط انه كشف عن حقائق مطلقة وتامة . والبعض يذهب الى ان اريكسون يختلف عن فرويد اختلافا كبيرا بحيث انه من الأفضل اعتباره غير منتم للتحليل النفسى الفرويدى ، ولكن معظم الدارسين فى المجال يرونه احد اعضاء هذه المدرسة .

ثالثا : ان اريكسون يدعم الوضع الراهن حيث يرى انه ينبغى على الفرد أن يتوافق مع طرق المجتمع الذى يشب فيه . وما يقوله اريكسون فى الحقيقة هو اننا نجد هويتنا فى اطار الامكانيات التى يقدمها المجتمع ويوفرها وأن هذه قد تشمل ما هو ثابت وما هو متغير . كما أن اهتمام اريكسون بدراسة شخصيات غيرت مجتمعاتها تغييرا جذريا كغاندى ولوثر يضعف هذه التهمة .

رابعا : ضعف الأساس الامبيريقى لنظريات اريكسون ، وقد سبق تناوله كما عرضنا لبعض الدراسات التى اجريت على اساس مفاهيمه واتسقت الى حد كبير معها وليس من شك ان كتابات اريكسون تقدم لنا مصدرا خصبا للفروض التى يمكن أن توضع موضع البحث والدراسة .

وفى المرحلة الأخيرة من حياته ركز اريكسون اهتماماته على المراحل المتأخرة من دورة الحياة على الراشدين وكبار السن وهذا الاهتمام المعاصر جاء فى وقته المناسب . كما كانت دراساته عن المراهقين والشباب فى الستينيات فى وقتها المناسب عندما كانت ثقافة الشباب الفرعية وحركاته فى أوجها .

الفصل السابع

هنرى ا . مورى

ولد فى مدينة نيويورك عام ١٨٩٣ م . وكان الطفل الأوسط فى أسرة غنية . له أخت تكبره وأخ يصغره . ويبدو أنه تمتع بجميع المزايا الثقافية لمن ولد فى هذا الوضع المتميز . وقد سافر الى أوروبا خلال طفولته ومراهقته وطوف بها . وكانت أسرته تقضى فترة الصيف بانتظام على شـــاطىء لونج أيلند . وحينما حان وقت ذهابه الى المدرسة التحق بمدرسة جورتون Gorton وهى مدرسة اعدادية بنيو انجلند يدرس بها النخبة .

ولقد كان الانتقال من هذه المدرسة الى جامعة هارفرد ميسرا . وقد درس التاريخ فى جامعة هارفرد وتخصص فيه . ولم يقتصر الأمر على عدم اهتمامه بعلم النفس فى تلك المرحلة بل انه حصل على درجات دون المتوسط فى دراسته بالكلية . ولقد فسر انخفاض درجاته وانخفاض ادائه الاكاديمى بانشغاله الزائد بالرياضة ، لقد لعب كرة القدم ومارس التجديف والملاكمة . ولقد اعتبر ولعه بالرياضة نوعا من التعويض عن قصور بصرى لحق به وهو فى الطفولة المبكرة حين اجريت له عملية لعلاج ما اصاب عينيه من حول . ولقد أثر هذا القصور على ثقته بنفسه فأصيب بالفأفأة وتأثر التآزر بين يديه وعينيه .

وعلى الرغم من انخفاض متوسط درجاته ، وتخصصـــه فى التاريخ اساسا فانه بعد أن تخرج فى جامعة هارفرد قبل بكلية الأطباء والجراحين بكولومبيا . ولقد اعتبر قبوله قرارا حكيما حين تخرج مورى على رأس صفه عام ١٩١٩ م . وكان عمره آنذاك ٢٦ عاما . ولقد أنفق العام التالى للحصول على درجة الماجستير فى علم الأحياء من كولومبيا وبعد ذلك عاد الى هارفرد ليدرس الفسيولوجيا . وبعد فترة قصيرة عاد الى نيويورك ليعمل كطبيب مقيم بقسم الجراحة فى مستشفى البرسبتارين Presbyterian Hospital

ولقد كانت مشكلته الوحيدة فى هـــذه المرحلة من حياته الاختيار بين البحث العلمى والممارسة . ولقد مارس العمل فى المستشفى من قبل ثم حصل على وظيفة كمساعد باحث فى معهد روكفلر للبحث الطبى . ولقد قام

ببحوث فى علم الأجنة ، وكانت هذه نقطة بداية لاهتمام لازمة طوال حياته بعمليات النمو والارتقاء.وخلال هذه الفترة حصل مورى على اجازة للدراسة فى جامعة كمبردج بانجلترا ، حيث حصل على دكتوراه الفلسفة فى الكيمياء الحيوية عام ١٩٢٧ م .وكان عمره فى ذلك الوقت ٣٣ سنة ولديه درجتا دكتوراه فى علوم اخرى غير العلوم السلوكية .

ولقد بدأ اهتمام مورى الجاد بعلم النفس عام ١٩٢٣ ، حيث قرأ نسخة من كتاب يونج « الانماط النفسية Psychological Types" وكان قد سئم أجنة الدجاج التى يجرى بحوث عليها ، ولقد لفت كتاب يونج نظره الى التباين العظيم فى الشخصية الانسانية وهيأ له الطريق للقاء تاريخى بين الرجلين بعد ذلك بعدة سنوات .

واثناء دراسة مورى فى انجلترا سافر فى العطلة الى سويسرا وقضى ثلاثة اسابيع مع يونج فى زيورخ . وكانت النتيجة اقرب الى التحول الدينى. فازداد مورى وهو عالم تجريبى فهما لشخصيته واستبصارا بها . ولقد تعلم من يونج أن هناك علاقة بين الفانتازيا والتصور البصرى الذى تعرض له، كما ادرك أهمية اللاشعور الذى أصبح ملمحا اساسيا فى نظريته عن الشخصية . ولقد قرر مورى أنه راى نتيجة لهذا اللقاء اشياء لم تكن تحلم بها فلسفته قط ، وانفتحت بوابة فيض عجائب العالم امام ناظريه على مصراعيها . وترك زيورخ وقد أصبح من معتنقى علم نفس الأعماق .

وفى عام ١٩٢٧ اتيحت لمورى الفرصة ليحدد مجرى حياته . ومرة أخرى راى مورتن برنس Morton Prince فى هنرى مورى ضالته التى يبحث عنها ، ولم تكن مؤهلات مورى هى المسئولة عن ذلك . وكان برنس طبيبا نفسيا ومؤسسا لمجلة علم نفس الشواذ واختاره ليصبح مساعدا له فى عيادة هارفرد النفسية وكان عمره ٣٣ سنة ولم يكن قد درس مقررا واحدا فى علم النفس ، واصبح مورى فجاة عالما نفسيا متخصصا فى الشخصية . وبعد عام ترك برنس العيادة النفسية ليخلفه مورى فى ادارتها .

وسوف نعرض فى ايجاز لانجازات مورى فى العيادة النفسية لجامعة هارفرد وقد بقى فيها حتى جاءت الحرب العالمية الثانية التى شغلته عن

عمله . ولقد اسفر هذا العمل عن نشر كتابه الكلاسيكى « استقصاءات فى الشخصية » عام ١٩٣٨ Explorations in Personality . وفى منتصف الثلاثينات أسهم فى تأسيس جماعة التحليل النفسى فى بوسطن ، حيث اخضع هو نفسه للتحليل النفسى ، وخلال الحرب عمل بمكتب الخدمات الاستراتيجية Office of Stratigic Services وكان مديرا لبرنامج لاختيار وتدريب من يعمل بالتجسس وفى المهام السرية الصعبة والخطرة . وبعد الحرب عاد الى هارفرد واستمر يعمل بالتدريس وبالبحوث فى مجال الشخصية حتى عام ١٩٦٢ حيث أحيل الى التقاعد رسميا.ولكن هذا التقاعد كان اسميا لانه استمر يكتب ويبحث .

نواحى الاتفاق ونواحى الاختلاف مع السيكودينامين :

ينتمى هنرى مورى الى فئة بمفرده . ولعله أدرك ذلك حين نحت كلمة عالم الشخصية Personologist لكى يشير الى مهنته . ويطلق معظم علماء النفس الآخرين الذين يقومون بنفس العمل على انفسهم منظرى الشخصية Personality theorists . واختبار تفهم الموضوع « التات » tat هو أول ما يطرا على الذهن حين يذكر أسم هنرى مورى . ولعل اكثر طلاب علم النفس يعرفون انه واضع هذا الاختبار الاسقاطى الذى يوضح توضيحا جيدا اهتمامات مورى الفريدة والمتنوعة.ومورى منظر سيكودينامى لان علم الشخصية عنده ما هو الا نظرية فى الديناميات، أى فى الدافعية.وقائمة حاجاته المشهورة وقائمة الضغوط هى ثبت دوافع . والضغوط البيئية قد تساعد على اشباع حاجات الناس او تعوق ذلك الاشباع . وقد صمم « التات » لكى يتوصل الباحث الى الحاجات النفسية والضغوط البيئية التى تعمل عملها فى شخصية الفرد الذى يجيب عن الاختبار ، ولكى يحدد مدى شدة تأثيرها عليه .

واختبار تفهم الموضوع TaT اختبار اسقاطى يتألف من مجموعة من الصور . وعلى الفرد ان ينظر الى كل صورة ويحكى قصة عنها ، ويستنتج عالم النفس منها وجود دوافع معينة . ولكن السؤال هو لماذا لا يسأل الشخص على نحو مباشر عن مدى قوة حاجته الى العدوان بدلا من أن يعرض

عليه صورة بها شخصان قد يدركهما على انهما يتصارعان أو يتعانقان ؟ والاجابة عن هذا السؤال بسيطة . ان علم النفس لا يعتقد ان الشخص يعرف عن نفسه وبثقة هذه المعلومة . انه يعتقد ان الاسس الدافعية الهامة للشخصية لا شعورية.وعلماء نفس الشخصية الذين يؤمنون باهمية الدوافع اللاشعورية هم الذين يستخدمون الاختبارات الاستاطية . ولقد ابتكر مورى اختبارا استاطيا من أكثر الاختبارات الاستاطية شيوعا ، ليس ذلك فحسب بل انه بنى قدرا كبيرا من نظريته على بيانات جمعت باستخدام اختبار تفهم الموضوع.وهذا التاكيد على الدافعية اللاشعورية يضعه بالتاكيد فى المعسكر السيكودينامى .

ومع ذلك فان تأكيد مورى على تقدير الشخصية وقياسها باستخدام الاختبارات أقرب الى اهتمامات اصحاب نظريات السمات.والحق ان مورى أصبح مشهورا بين علماء النفس بسبب ما قام به من أعمال فى مجال القياس والتقدير لمكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية . وليس من شك فى انه لا واحد من علماء النفس الديناميين الذين عالجناهم قد كرس جهدا يقارب الجهد الذى كرسه مورى فى القياس الموضوعى لمتغيرات الشخصية .

ولكن مورى فى بعض النواحى يعتبر ممثلا لاصحاب النظريات الدينامية فى الشخصية وذلك فى ضوء العناصر الآتية : —

أولا : خلال سفره فى اوربا عام ١٩٢٧ م التقى بيونج فى عيادته وتاثر تأثرا كبيرا بما تعلمه من هذا اللقاء والاحتكاك .

ثانيا : أن مورى يشبه فرويد وتلامذته من حيث انه درس الطب وحصل على درجة فيه M.D.

ثالثا : كان مورى عضوا فى معهد بوسطن للتحليل النفسى وهو احد التنظيمات التى اسسها تلامذة فرويد المخلصون وذلك بغية تدريب تلاميذ أوفياء لفكر فرويد وممارسته . ولكى تصبح محللا نفسيا لا بد ان تخضع للتحليل النفسى وقد تم تحليل مورى نفسيا على يد فرانز الكساندر وهانز

ساكس F. Alexander & H. Sachs ولقد درب كل منهما على يد فرويد نفسه .

رابعا : يستخدم مورى مفاهيم فرويد عن الهو والآنا والآنا الأعلى فى نظريته عن الشخصية .

ونظرية مورى فى الشخصية نظرية للديناميات أكثر من كونها نظرية شاملة وهو أصيل حين يناقش الديناميات،ولكنه عندما يتناول بنية الشخصية ونموها فانه يعتمد اعتمادا كبيرا على مفاهيم فرويد .

وأخيرا — فان مورى يمثل أصحاب النظريات الدينامية فى الشخصية أصدق تمثيل لانه يركز دائما على الديناميات وخاصة اللاشعورية منها .

غير أن مورى من بعض الوجوه الأخرى لا يمثل تمثيلا صادقا أصحاب النظريات الدينامية وذلك أولا لانه كان باحثا أكاديميا وخبرته الكلينيكية محدودة . وأصحاب النظريات الدينامية لهم ممارساتهم فى العلاج النفسى بطريقة منظمة لفترات طويلة من حياتهم ؛ أى أنهم كانوا يجلسون فى مكاتبهم وعياداتهم طول اليوم أو معظمه يتحدثون الى المرضى ويستمعون اليهم ، واسلوب حياتهم هو اسلوب حياة الأطباء ، وهم ليسوا مرتبطين عادة بكلية أو جامعة . غير أن مورى يختلف عن هؤلاء ، فهو أستاذ قضى معظم حياته فى قاعة المحاضرات أو فى معمل علم النفس . ولقد عمل كطبيب سنوات قليلة فى الثلاثينات . وحتى فى هذه الفترة كان يرى المرضى ساعات قليلة فى الاسبوع . ومورى يختلف أيضا عن علماء النفس الديناميين من حيث تكريس جهوده المنتجة والبناءة لمجال القياس والتقدير السيكولوجى assessment صحيح ان يونج قد استخدم اختبارا لقياس الانطواء الانبساط وهرمان رورشاخ قد انشغل ببقع الحبر ، ولكن مورى أجرى بحوثا علمية فى قياس وتقدير الشخصية ، بحوثا متميزة تفرقه عن الآخرين من الديناميين بشكل واضح . ومعظم أصحاب النظريات الدينامية قد استرشدوا بأفكار فرويد وتوجيهاته ولا علاقة لهم بالقياس والتحديد الكمى لمتغيرات الشخصية ، وأخيرا فان مورى يصنف مع الانسانيين أكثر من تصنيفه مع الديناميين .

ان التناقضات الظاهرة فى خلفية مورى وفى نظريته عن الشخصية

يمكن أن نعزوها وفقا لما قرر الى واقعة هى دعوة مورتن برنس له لينضم الى هيئة العاملين بعيادة هارفرد النفسية وكانت قد تأسست حديثا وكان ذلك عام ١٩٢٦ وحين ترك برنس العيادة عام ١٩٢٩ اصبح مورى مديرا لها. وفى عام ١٩٣٨ م كان قد اتم مع هيئة العاملين فى هذه العيادة دراسة رائدة لخمسين طالبا من طلاب الجامعة الأسوياء ونشرها فى كتاب « استقصاءات الشخصية » . Explorations in Personality

ولم يكن هناك من قبل مثل عيادة هارفرد النفسية لانها ارتبطت بقسم أكاديمى لعلم النفس بدلا من ارتباطها بمستشفى . ولقد اكدت العيادة البحث العلمى وبينما كانت العيادة مسئولة عن تزويد العملاء والمرضى بالعلاج ، الا أن رسالتها الأساسية كانت اكتشاف الحقائق الأساسية عن الشخصية ، وبينما احتفظ هنرى مورى بهويته الطبية كرجل كلينيكى ، الا انه خلق هوية جديدة تماما فى مجـــال علم النفس وهى علم النفس الباحث الكلينيكى Clinical research psychologist

ولقد انفق مورى معظم عقد الثلاثينات وهو يحاول الجمع بين العالم الاكاديمى فى جامعة هارفرد والعالم الطبى فى معهد التحليل النفسى فى بوسطن . ولعل هذا يفسر المذاق الخاص لعلم الشخصية عند مورى . فتأكيده على الديناميات وخاصة الديناميات اللاشعورية يعكس اثر التحليل عند فرويد ويونج . هذا على الرغم من تقدير مورى لعلماء النفس الاكاديميين من امثال وليم مكدوجال ونظريته فى الغريزة ، وكيرت ليفين ونظريته فى المجال الحيوى . وتأكيد مورى على النمو ايضا خاصية تميز دعاة التحليل النفسى ، هذا على الرغم من انه قبل أن ينضم الى معهد التحليل النفسى فى برسطن كان مقتنعا بصحة ما ذهب اليه فرويد فى تأكيده بان تاريخ النمو اساس لفهم شخصية الراشد . ولقد استند هذا الاعتقاد على سنوات عديدة من البحث فى معهد روكفلر حيث درس مورى اجنة الدجاج قبل ذهابه الى هارفرد مباشرة . والحق ان هنرى مورى قبل أن يصبح عالم نفس نشر ٢١ بحثا فى علم الأجنة والطب . ولكنه تعلم من علماء النفس الاكاديميين فى هارفــرد لاول مرة اساليب اختبــار الشخصية ومناهج البحث التجريبى النفسى . ان عمل جوردن اولبورت المبكر ودراساته فى الحركة التعبيرية

١٩٣٠ Expressive movement والاختبارات التى وضعها لتقدير الشخصية فى دراسة القيم ١٩٣١ ولقيلس السيطرة والخضوع The A-S Reaction Study عام ١٩٢٨ أفادته كنموذج يحتذيه فى استقصاءاته فى عيادة هارفرد النفسية .

اى أن مورى استطاع أن يدمج تيارين كانا منفصلين هما تيار الديناميين وتيار الأكاديميين . ولعله بغير جهود مورى كان هذا الاندماج قد استغرق زمنا أطول .

دراسة الحيوات :

وفى عام ١٩٧٩ م وبعد مضى أربعين عاما على نشر كتاب استقصاءات فى الشخصية كرمت كلية رادكلف Radcliffe Colege مورى بانشاء مركز بحوث هنرى مورى لدراسة الحيوات

Henry A. Murray Research Center For the Study of Lives

وكانت هذه التسمية مناسبة تماما لان دراسة الحياة كانت الاهتمام الرئيسى لهنرى مورى . فهو لم يدرس مثيرات واستجابات وسمات شخصية منعزلة أو نفوسا متحررة من أجسامها ، لقد درس مورى حيوات الناس ككل من خلال عملية الحياة نفسها .

وكان من أول القرارات التى اتخذها علماء النفس فى عيادة هارفرد النفسية ان يدرسوا الشخص ككل . وكان معنى هذا عرض لتاريخ حياة الشخص ، لان تاريخ الشخصية هو الشخصية . وكان على كل شخص يدخل العيادة ان يكتب تاريخا ذاتيا ، يلى ذلك مجموعة من المقابلات تستهدف تعمق ذكريات الأحداث الهامة فى حياته . وقد طبقت على كل فرد بطارية كاملة من الاختبارات لاعادة تنشيط ذكريات الطفولة المبكرة .

وعلى سبيل المثال اختبار تفهم الموضوع الذى يعرض صورا فسرها معظم المفحوصين باعتبارها تمثل أطفالا يتفاعلون مع آبائهم . وبعد أن يجمع فريق العمل فى العيادة كل البيانات عن شخص معين ، يوكل الى احد علماء

النفس مهمة كتابة المبيان النفسى لهذا الشخص psychograph وهو نوع من التاريخ السيكولوجى له .

ويستهدف علم الشخصية من الناحية المثالية التوصل الى نوع من السيرة المجردة ، والانتهاء الى ترجمة مجردة لحياة الشخص . ان علماء الشخصية يأملون التوصل الى نظام من التنويت notation ، اى الى مجموعة خاصة من الرموز المجردة تدل على الوقائع والأحداث فى حياة الشخص . ويتصور مورى أن مثل هذا النظام لدراسة الحيوات قد يشتمل على خطوط كثيرة ، فخط القمة على سبيل المثال قد يشتمل على الرموز المناسبة الدالة على القوى البيئية فى تاريخ حياة الشخص. والخط الثانى قد يصور أو يصف الانطباعات الذاتية للفرد عن الوقائع البيئية ، والخط الثالث يمكن استخدامه لتوضيح السلوك الظاهر أو الفعل والخط الرابع يدل على الانفعالات والعواطف والخط الخامس يمثل الأفكار والخيالات Fantasies . والهدف من هذا العمل هو انقاص حياة الناس الى عدد من البيانات والمواد التى يمكن السيطرة عليها وفى نفس الوقت يمكن أن نرى من خلالها الحياة ككل. وحيث يسهل مقارنة هذه الحيوات الواحدة بالأخرى فى محاولة للكشف عن المبادىء العـــامة .

واستقصاءات الشخصية تشتمل على بعض الرموز والمختصرات — وهى مبادىء نسق لتنويت تاريخ الحياة ، اى التعبير عنها بالرموز المجردة . ولكن مورى ادرك عندئذ أن الشخصية الانسانية تبلغ من التعقيد حدا يتعذر معه انقاصها الى هذه الصيغة المجـــردة . ويحتمل ان نبلغ الهدف اذا امكن التغلب على نواحى القصور التكنولوجية الحالية . ولكن حتى لو حدث هذا فان مورى يشعر اننا لا محالة سنفقد شيئا . وينبغى أن يسعى علمـــاء الشخصية لتحقيق هذا الهدف لانهم حتى لو قصرت جهودهم دون تحقيقه ، فان هذه الجهود ستؤدى الى تركيز انتباههم على وقائع فى حياة الفـــرد ومتغيرات ذات مغزى .

وفى نفس الوقت فان مورى يحث علماء الشخصية على شحذ مهاراتهم الادبية وتعلم كتابة تواريخ الحياة او السير بحيث تعبر عما لا يستطيع التعبير

عنه نسق التنويت المجرد ، أى أن نعبر عن جوهر الشخصية وتوحدها وتفردها بلحمها وشحمها . ويلاحظ مورى انه حتى فى العلوم الطبيعية فان اعظم المنظرين يملكون ناصية التعبير بالكتابة ونتيجة لذلك فهم قادرون على نقل افكارهم الى الآخرين على نحو مقنع . وهو ينصح علماء الشخصية بالافادة من ملاحظة الروائيين المقتدرين وطرائقهم فى وصف الشخصية ورسم ملامحها فى الرواية .

وهذه النصيحة نتجت عن خبرته فى هذا المجال ، فقد مارس النقد الأدبى طوال حياته وخاصة بالنسبة لكتابات هرمان ملفل Herman Melville ولقد حرر ادوين شنيدمان Edürin Shneidman كتابا بعنوان Endeavors in Psychology: Selections From the Personology of Henry A Murray (1981) « جهود فى علم النفس : مختارات من علم الشخصية لهنرى مورى ». واراد المحرر أن يضمن هذا الكتاب عينة ممثلة لكتابات مورى . ويحتوى على ٦٠٠ صفحة ، خصص أكثر من مائة صفحة منها للنقد الأدبى الذى كتبه مورى .

ويرجع الفضل الى هنرى مورى فى ارساء تقليد دراسة الحيوات والاهتمام بها . ولقد قام روبرت هوايت Robert White وهو من تلامذة مورى ومن اعوانه فى تأليف كتاب « استقصاءات فى الشخصية » وهو الذى خلف مورى فى ادارة العيادة النفسية بهارفرد — بمواصلة مسيرة مورى بتفوق وامتياز فكتب كتابا بعنوان « حيوات فى تقدم » Lives in Progress وهو يقوم بدراسة وتقويم وتقدير عدة افراد خلال فترة طويلة من حياتهم وفى كل مرحلة من مراحلها .

وحين ظهر هذا الكتاب عام ١٩٥٢ ارخ لحياة ثلاثة من طلاب جامعة هارفرد منذ الميلاد وحتى أوائل العشرينات من حياتهم ، اى حتى تخرجهم من الجامعة ومدى الحياة الذى وضع موضع الدراسة لا يزيد عما تم تناوله فى كتاب استقصاءات الشخصية ، على الرغم من أن كتاب هوايت أقل من حيث المستوى الاصطلاحى والتقنى ، اى انه اكثر سهولة فى القراءة عن كتب مورى . ولم يتضمن الكتاب البعد الطولى حتى دعا الباحث المفحوصين الثلاثة

العودة الى العيادة وكانوا يقتربون من أواسط العمر فقابلهم شخصيا واختبرهم باستخدام نفس الأساليب التى تم التثبت منها علميا،ثم اضاف النتائج الجديدة الى الطبعة الثانية المنقحة. من كتاب « حيوات فى تقدم » وفى عام ١٩٧٥ ظهرت الطبعة الثالثة التى اشتملت على متابعة لهذه الحالات حتى سن الخمسين .

ولن تدهش أو تعجب اذا علمت أن روبرت هوايت مثله مثل مورى كان تخصصه الرئيسى فى التاريخ . والحق ان هوايت درس التاريخ فى جامعة Maine قبل أن يدرس مع مورى . ولقد اثبتت خلفية مورى وهوايت التاريخية فائدتها العظيمة ، ذلك أن مدخلهما لدراسة الحيوات قد أكد على أهمية البعد التاريخى فى نمو الشخصية .

وباختصار فان طريقة هنرى مورى وزملاؤه فى دراسة الحياة ، هى أن يتأمل عددا قليلا من الحالات تأملا ودراسة متأنية . فقد درست كل حالة من الحالات الخمسين الذين كتب عنهم فى الاستقصاءات دراسة متعمقة استغرقت حوالى ٣٥ ساعة فى العيادة النفسية ، وهذه الفترة لا تبلغ ما تبلغه الساعات المتطلبة لتحليل نفسى كامل لان هذا التحليل يستغرق عدة مئات من الساعات ، ولكنها مدة أطول كثيرا مما يقضيه علماء نفس السمات الذين لا يستغرق جمعهم للبيانات من مفحوصيهم أكثر من ساعتين أو ثلاث يطبقون عليهم فيها بعض الاختبارات الجمعية . والهدف المثالى لطريقة هنرى مورى هو اعادة فحص الأفراد موضع الدراسة فى فترات منتظمة خلال حياتهم ، لكى نتوصل الى التاريخ النمائى الشامل لحظة كل فرد من لحظة ميلاده الى الوقت الحاضر .

ولما كان من المرغوب فيه ان نفحص كل حياة فحصا متقنا ، فانه لا يمكن الا أن ندرس عددا محدودا من الحيوات وهذا يثير امكانية أن تكون العينة متحيزة ولعلك تذكر ان نظرية فرويد قد هوجمت باعتبارها متحيزة ، لان مرضاه كانوا جميعا من الاناث المصابات بالهستيريا ومن الطبقة البرجوازية . وبينما ادرك مورى خطورة التحيز الناشىء عن دراسة عدد قليل من الحالات ، الا انه تبنى استراتيجيتين مضادتين لهذا التحيز . أولها : الافادة من مجلس تشخيصى diagnostic council اى ان هذه الحالات لم

تدرس من قبل ملاحظ واحد ، بل من قبل فريق يستخدم مجموعة كبيرة من أدوات التشخيص . وهذا يعوض ما يمكن أن يتعرض له الملاحظ الفرد من تحيز وخاصة اذا كان هذا الفريق يمثل خلفيات نظرية متنوعة . وطريقة الفريق هذه تزيد من فرص الكشف عن التحيز فى العينة ، وباختصار فان استراتيجية هنرى مورى فى دراسة الحيوات تتطلب فريقا للتشخيص يدرس عددا قليلا من الحالات دراسة متانية .

والاستراتيجية الثانية التى استخدمها مورى ليتجنب التحيز فى العينة الذى يمكن أن ينتج عن دراسة عدد قليل من الحالات ، اختياره لمفحوصيه من الأسوياء فكتاب الاستقصاءات يتناول بالدرس ٥٠ طالبا من الشباب الذين تقدموا لا الى العيادة النفسية وانما الى مكتب تشغيل الطلاب الباحثين عن عمل بعض الوقت . وكان يدفع لهم أجور لقاء دراستهم ولم يكونوا مضطربين أو مرضى . وأما الحالات الثلاث التى درسها هوايت ونشر نتائج دراستها فى « حيوات فى تقدم » فقد وفدوا الى العيادة النفسية كمرضى يلتمسون العون لمواجهة مشكلاتهم ، ولكن الباحثين لم ينكروا فيهم الا كشباب سوى يكافحون لمواجهة مشلات النمو التى يواجهها معظمنا فى هذه المرحلة من النمو .

هناك خاصية أخرى فى طريقة مورى فى دراسة الحيوات وهى أن هذه النظرة أو الدراسة المتانية لعدد قليل من الحالات على يد فريق من الدارسين لا بد ان يتعدى السطح ليبلغ الأعماق . واحد الأسباب التى دفعت الى لقاء هذه الحالات ساعات طويلة لفترة طويلة من الزمن هو أن يتاح لكل فرد أن يشعر بالارتياح اثناء وجوده فى العيادة وأن يكون علاقة وئام مع أعضاء فريق البحث . وعندئذ نتوقع من الفرد ان يتطوع بالحديث عن تفاصيل حميمة فى تواريخ حياتهم . ثمة طريقة أخرى اتبعها الفريق وهى استخدام عدة اختبارات استقطابية لدراسة خصائص هذه الحالات بما فى ذلك اختبار تفهم الموضوع الذى وضعه هنرى مورى ومورجان وكان أداة جديدة . والنظرة العميقة المستهدفة تشتمل كما يرى مورى على دراسة الدوافع اللاشعورية والوقائع الماضية التى تعرضت ذكرياتها للكبت . وقد اشتملت تواريخ الحياة الناتجة على جرعة كبيرة من التفسير على أساس التحليل

النفسى ومع ذلك فان التحليل النفسى عند مورى فى هذا المجال توفيقى (إكلينيكى) وهو يستعير من يونج ومن أدلر كما يستعير من فرويد ما يجده مناسبا من استبصارات . وبصفة عامة فان طريقة مورى تتضمن تفسيرا اقل على اساس الديناميات اللاشعورية واهتماما اكبر بالشخصية الظاهرة، وذلك بدرجة اكبر مما نجد فى دراسة تواريخ الحالة على اساس التحليل النفسى . والنتيجة كما يقول مورى « حيوان اجتماعى اكثر قابلية للتصور بدرجة اكبر » "a much more imaginable animal" (Murray. 1938, p. 32) وهو يسلم بأن التحليل النفسى يصل الى عمق أكثر مما تبلغه طريقته فى التحليل . ولكنه يشعر انه اذا كان ينبغى عليك أن تختار بين نظرة متأنية طويلة ، ونظرة عميقة ، فان النظرة الطويلة المتأنية افضل . والهدف المثالى على اية حال هو تحقيق التوازن بين الطريقتين .

وتتطلب التقاليد التى أرساها مورى فى دراسة الحيوات جمع فريق من المتخصصين فى فروع مختلفة من العلوم السلوكية لكى يدرسوا عددا قليلا من العاديين من الناس دراسة متأنية طويلة وعميقة . وليس هناك طريقة اخرى فى نظر مورى تحمل على الأمل بالاسهام فى فهمنا للشخصية الانسانية افضل من هذه الطريقة .

التيمات فى تاريخ حياة الفرد :

ان معظم مؤلفى كتب الشخصية يرن ان الفكرة المحورية عند مورى هى نظريته فى الدافعية عن الحاجات والضغوط،وخاصة قائمته التى تشتمل على ما يقرب من عشرين حاجة . وليس من شك فى ان هذه احدى افكاره الرئيسية وكان لها تأثيرها الكبير فى فهم الشخصية ودراستها ، ولكن الفكرة القائلة بأن لدينا نزعات عدوانية او رغبات للانجاز وان هذه اما ان تشبع أو تتعرض للاحباط والحرمان نتيجة لظروف البيئة وملابساتها ليست ابرز افكار مورى ، لان الحقيقة ان تفكير مورى بالنسبة لهذه النقطة يتفق مع اغلبية منظرى الشخصية . ولعل هذا يفسر السبب الذى ادى الى حد ما الى تقبل علماء نفس الشخصية بسهولة ويسر لافكار مورى وعلم الشخصية عنده . وان انكر بعضهم بقية نسقه الفكرى . ومفاهيم الحاجة والضغط ليست اكثر مفاهيمه شمولية . ان الفكرة المحورية

فى نظرية مورى فى الشخصية هى الفكرة التى تبرز تفرده وتميزه ، وهى أن الشخصية هى ثيمات تسرى فى قصة حياة الفرد والهدف من دراسة الحيوات اذن هو تحليل حبكة القصة واستخلاص الثيمات السائدة فيها .

وفكرة مورى عن الشخصية باعتبارها ثيمات تسرى خلال قصة الحياة تذكرنا بأن كلمة شخصية مستعارة فى الأصل من المسرح ، فالقناع هو ذلك الذى يرتديه الممثلون فى المسرحيات الاغريقية لبيان الدور الذى يلعبونه . ومن ثم فان مفهوم الدور متضمن فى فكرة الشخصية . والعالم كله كما يقول شكسبير مسرح وجميع الرجال والنساء لا يعدو أن يكونوا مجرد لاعبين وممثلين على خشبته . ولعب الأدوار لا يقتصر على المسرح فنحن جميعا نلعب ادوارا ولكننا لا نلعب نفس الدور طول الوقت . اننا نبدل الاقنعة ، ونلعب ادوارا مختلفة فى مواقف متباينة . فقد يلعب الفرد دور الابن مع والديه ، ودور موضع الثقة مع صديقه ، ودور الخبير العالم حين يحاول بيع سلعة الى مستهلك ، ويقوم بهذا كله فى نفس اليوم . ومع ذلك فخلال هذه الادوار المختلفة التى يلعبها توجد ثيمة تسرى فيها كلها وتوحدها ، وهذه الثيمة الضمنية الأساسية والتى تبقى ثابتة بغض النظر عن الاقنعة التى يرتديها هى شخصيته الحقيقية .

وفكرة مورى الأساسية هى أن عمل عالم الشخصية هو ان ينظر نظرة عميقة طويلة لقصة حياة الفرد لكى يكتشف الثيمات الأساسية فى القصة شأنه فى ذلك شأن الناقد الأدبى الذى ينظر الى رواية ويحاول أن يستخلص منها الملامح الأساسية لحبكتها .

ولا عجب اذن أن يدرس مورى الشخصية من خلال سؤال صاحبها أن يحكى له قصصا وذلك بعد أن يعرض عليه عشرين صورة من صور اختبار تفهم الموضوع بحيث تلائم المشاهد التى يراها . ما الذى يبحث عنه مورى فى هذه القصص ؟ انه يبحث عن الثيمات أو الموضوعات.وهذا هو السبب الذى حدا به الى تسمية اختباره . اختبار تفهم الموضوع ، اى اختبار تفهم الثيمة . وهذا هو السبب فى رغبته فى الحصول على عشرين قصة من الفرد موضع الدراسة حتى تتاح الفرصة لظهور تيمات متواترة متكررة . وعلى الرغم من أن مورى عادة يصحح قصص اختبار تفهم الموضوع بتقدير شدة

الحاجات والضغوط البيئية التي يخبرها ابطال القصص ، الا ان هذا ليس هدفه النهائي . وقد يكون من المثير للاهتمام ان تعرف ان ابطـال شخص معين يظهرون قدرا غير معقول من القلق او السلبية ولوم الذات ، وان بيئته تمتلىء بكثير من الشخصيات المهددة المسيطرة ولكن المفسر ينبغي عليه أن : « يجمع أجزاء الحقيقة ويضمها معا ، وهو يفعل هذا بان يتنـاول الحاجة الشديدة بشكل غير مالوف ويلاحظ الضغط البيئي الذى يغلب أن يرتبط بها في القصص ، وبعد ذلك يلاحظ الحاجات والانفعالات التى يغلب ان تتفاعل مع الضغوط الشديدة جدا . وبهذه الطريقة يحصل المفسر على قائمة باكثر الثيمات شيوعا (وهى روابط بين الحاجات والضغوط) ثم يضيف اليهاى ثيمات أخرى قد لا تكون بنفس الدرجة من التوتر بحيث تحظى بتقدير كلـى مرتفع للحاجة والضغط المتضمنين ، الا انها تبدو ذات مغزى ودلالة لسبب او لآخر كالتفرد والحيوية والشدة والقيمة التفسيرية »

(Murray, 1943, p. 13)

والدور الثانوى للحاجات والضغوط واضح من حقيقة هى ان مفسر قصص اختبار تفهم الموضوع يستطيع ان يستغنى عن هذا النوع من التصحيح كلية . يقول مورى « من الممكن ايضا القيام بتحليل كلى للثيمات دون تقدير للمتغيرات منفصلة ، والمسالة هنا تقتضى النظر الى كل قصة ككل واختيار الثيمات الأساسية والفرعية والحبكة الفرعية . والسؤال المثار هو : ما هى المسائل والصراعات والمشكلات التى تثير اكبر اهتمام لدى المؤلف ؟ وهناك ثيمات مشتركة ، على سبيل المثال تتركز حول مشكلات الانجـاز والتنافس والحب والحرمان والقهر والكبح والاستعداد والعقاب وتصـارع الرغبات ، والارتياد والحرب وهلم جرا . (Murray, 1943, p. 13)

ولما كان مورى يعتقد ان الشخصية تتالف فى الأسـاس من ثيمات تسرى فى قصة حياة الفرد ، فانه من المعقول ان تدرس الشخصية باستثارة عدة قصص قصيرة من المؤلف . وإن نفحص الثيمات التى تتوافـر فيها . واختبار تفهم الموضوع نتيجة منهجية لفكرة مورى الأسـاسية بان الشخصية هى الثيمات التى تسرى فى قصة الحياة .

وهذه الفكرة المحورية لها نتيجة نظرية هامة وهى انه اذا كانت الشخصية هى الثيمات التى تسرى فى حياة الفرد ، فان وحدات الشخصية ينبغى أن تكون الاحداث والوقائع والا تكون بنيات استاتيكية كالسمات أو حصيلة من الارتباطات بين المثير والاستجابة او حتى من الحوافز . وفى اجابة السؤال البنيوى : ما الذى تتالف منه الشخصية ؟ فان مورى يجيب : من الوقائع والاحداث . وهذا يعنى ان الشخصية ليست شيئا ثابتا ولكنها سلسلة من الاحداث .

والفرق بين نموذج مورى للشخصية ونماذج معظم المنظرين الآخرين هو كالفرق بين الصورة الزيتية والموسيقى . ان الصورة الزيتية خارج اطار الزمن والتغير ، بمعنى انها تنقل رسالتها الى الرائى مرة واحدة ، اى أن جميع مستويات معناها حاضرة فى نفس الوقت . وحين ننظر الى اللوحة الزيتية ترى الصورة كلها فى لحظة واحدة . ولا يكون الأمر كذلك بالنسبة للمقطوعة الموسيقية لان الموسيقى توجد فى الزمن ويرى أن الموسيقى كالشخصية لها أمد . فالزمن عنصر لا يتجزأ لا من كل نمط من انماط العمليات، بل من كل عملية مفردة فى كل نمط (Murray & Kluckhohn, 1953/1981, p. 210) وفى الحق أن الموسيقى ملامح تحدث متآنية وهو ما يطلق عليه الموسيقيون البنية الراسية vertical structure ولكنك لا تستطيع حقيقة أن تخبر الموسيقى ما لم تسمع هذه النغمات المتآلفة تعزف باعتبارها جزءا من تتابع منظم . ان الموسيقى سلسلة من الأحداث الصوتية : أشياء تحدث فى الموسيقى ، هنـاك تغير ونمو . ولا تستطيع أن تسمع سمفونية كاملة فى لحظة واحدة ، ينبغى أن تستغرق وقتا منصتا اليها . وتستطيع ان تفهم معناها باعتبارها ثيمات ميلودية تنمو وتتفاعل . والشخصية الآنسانية لا تختلف عن ذلك . وبينما نجد أن هدف معظم منظرى الشخصية هو أن يرسموا صورا زيتية للطبيعة الانسانية ، نجد هدف مورى ان يدرس الحيوات كما يدرس عالم الموسيقى سيمفونيته .

ولقد وضع علماء الموسيقى مصطلحاتهم وطوروها ، مصطلحات تشير الى اشياء تحدث فى السيمفونية ، كالحركات وتغيير السلم الموسيقى ، والقلب الميلودى وهلم جرا . ولما كان قلة قليلة من منظرى الشخصية الآخرين

قد التفتوا الى الطبيعة الزمنية والتاريخية للشخصية على نحو جاد ، فلقد كان على موري أن يبتكر مجموعة جديدة كلية من المفاهيم لتشير الى جوانب الأحداث والوقائع ، وهذا يساعد على شرح وتوضيح : لماذا تحتوى نظرية موري للشخصية على كثير من المصطلحات غير المألوفة ، مصطلحات والفاظ لا تستخدمها نظرية أخرى . وعلى الرغم من أن الوقائع زائلة وغير جوهرية بطبيعتها الا انه لا يصعب تصورها باستخدام المفاهيم للتعبير عنها . والمشكلة هى اننا نسبيا معتادون على سماع علماء النفس يتحدثون عن مثل هذه الأشياء .

ومع ذلك فان وصف الوقائع جزء من خبرتنا العادية ، ولنلتفت الى استخدام موري لكلمة مسلسل Serial . ان المسلسل فى لغة موري يشير الى تتابع من الوقائع أو الأحداث البيوجرافية المنفصلة فى الزمن . ولكنها تنتمى معا لانها تتوجه لنفس الهدف وحيواتنا مليئة بمسلسلات مستمرة ، تتلقى دروسا في الموسيقى ، نعمل فى متجر فى نهاية الاسبوع ننغمس فى علاقة عاطفية . هذه الوقائع والأحداث قد لا تحدث فى تتابع غير متقطع ، غير انه عند النظر اليها كعناصر فى سلسلة واحدة متصلة يكون لها اعظم معنى . وهذا يفسر لماذا يستطيع المسلسل التلفزيونى الذى يعرض علينا جانبا واحدا من حياة البطل أن يترك لدينا الانطباع باننا نشاهد شخصية حقيقية ثلاثية الأبعاد . ان موري حين يتحدث عن المسلسلات وبرامج السلاسل يذكرنا ببعض ما شاهدناه على شاشة التلفزيون من مسلسلات مؤثرة . والشخصية حين ندرسها ونفهمها لا تخرج عما نراه من أبطال أو شخصيات مرسومة فى مثل هذه المسلسلات : من حيث وجود ثيمات تسرى فى جميع المواقف والاحداث وتوحد بينها لتتألف منها الشخصية .

تعريف الشخصية :

الشخصية عند موري تجريد صاغه صاحب النظرية وليست ببساطة وصفا لسلوك الشخص . اى أن الشخصية صياغة تستند الى السلوك الملاحظ والى العوامل التى نستطيع استنتاجها مما هو قابل للملاحظة .

وعلى الرغم من أن تصور مورى للشخصية فى الأســاس ذا طبيعة مجردة ، الا أنه يفترض وجود عمليات مركزية منظمة وحاكمة فى الفــرد .. وهذه العمليات تعمل على دمج وتكامل القوى المتصارعة التى يتعرض لها الشخص وأن تشبع حاجاته ، وان تخطط لتحقيق أهدافه . وينبغى أن تعكس الشخصية عناصر سلوكية باقية ، ليس ذلك فحسب وانما أن تعكس ما هو جديد ومتفرد . وينبغى أن تظهر اداء الشخص لوظائفه خلال حياته كلها ، ويمكن أن نفهم الوقائع المفردة فى حياة الفرد حين نصلها بماضيه وبحاضره وبمستقبله المتوقع .

واخـــيرا فان مورى يؤكد على اهمية الربط بين الوقائع والعمليـــات السيكولوجية وبنى المخ وقيامه بوظائفه ، حتى ولو كنا لا نعرف على نحـــو دقيق كيف ترتبط هذه الأشياء.ان الظاهرات التى تؤلف الشخصية عند مورى تعتمد اعتمادا مطلقا على اداء الجهاز العصبى المركزى لوظائفه . فاذا لم يقم بها فلا وجود للشخصية .

نظرية الحاجة — الضغط :

ان نظرية مورى فى الدافعية نظرية تفاعلية لانها تنظر الى السلوك باعتباره نتاجا لحاجات داخلية تتفاعل مع ضغوط خارجية . والحاجة تكوين مرضى يمثل قوة فى منطقة المخ ، وهى قوة تنظيم الادراك والفهم والتفكير والنزوع بحيث تحول موقفا موجودا غير مشبع فى اتجاه معين . ويشـــير الضغط الى القوة التى تعترض الشخص فتفيده أو تؤذيه فى بيئته وقد تكون أشخاصا أو أشياء.والضغط Alpha press 1 يشير الى الخصائص الموضوعية للأشياء التى يمكن ان تفيد الفرد أو تضره ، اى كما توجد فى الواقع وكما يظهرها البحث الموضوعى ، بينما يشير الضغط ب Beta press الى دلالات الأشـــياء كما يدركها الشخص ادراكا ذاتيا وكما يفسرها . وقد يســـتثار السلوك بواسطة الحاجات : فالجوع (الحاجة للطعام) يدفع الفـــرد الى الحركة الى موضع الطعام (المطبخ) . ولكن الضغط قد يعوق الاشباع لان المطبخ خلو من الطعام . وقد يثير الضغط السلوك لانه يثير الحاجة ، فموجة من البرد تظهر الحاجة الى تجنب البرد فتغلق النافذة .

ويمكن تصنيف الحاجات الى حاجات حشوية المنشا Viscerogenic n. أو حاجات نفسية المنشأ Psychogenic n.. وحاجات النوع الأول تشتمل على الحاجة للهواء والماء والطعام والاستثارة الحسية والجنس والاخراج ؛ وتجنب الحرارة والبرودة والمثيرات الضارة والأذى الجسمى. وقائمة الحاجات النفسية المنشأ وهى أكثر ذيوعا ، ليست بالضرورة أكثر أهمية فى توجيه السلوك وتشتمل على ما يأتى : —

— **الحاجة الى لوم الذات** n. Abusement

أى أن يخضع الفرد ويذعن ويتقبل العقاب وتصغير الذات .

— **الحاجة للانجاز** n.Achievement

اى التغلب على العقبات وتحقيق هدف صعب وزياد تقدير الذات عن طريق الممارسة الناجحة للقدرات .

— **الحاجة الى الأنتماء** n. Affiliation

أن يكون صداقات ويستمتع بالتعاون والتبادل مع الآخرين والحب والانضمام الى جماعات .

— **الحاجة الى العدوان** n. Aggression

مهاجمة أو ايذاء شخص آخر أو معارضته او التقليل من شأنه .

— **الحاجة الى الاستقلال الذاتى** n. Autonomy

مقاومة التأثير ، والكفاح من أجل الاستقلال وتحاشى النشاطات التى تفرضها السلطة .

— **الحاجة الى المجاهدة** n. Counteraction

الكفاح للتغلب على الهزيمة والضعف والاحتفاظ باحترام الذات .

— **الحاجة الى الخضوع** n. Deference

الاعجاب بالقائد والثناء عليه واتباعه عن ارادة .

— **الحاجة الى الدفاعية** n. Defendance

أن يدافع عن نفسه ضد اللوم والتحقير واخفاء الفشل أو تبريره .

— **الحاجة الى السيطرة** n. Dominance

التأثير فى الآخرين والتحكم فيهم .

— **الحاجة الى الاستعراض** n.Eyxhibition

أن يجتذب انتباه الآخرين ويستثير اعجابهم .

— **الحاجة الى تجنب الأذى** n.Harm - avoidance

أن يتجنب الألم والضرر الجسمى والمرض والموت .

— **الحاجة الى تجنب المذلة** n. Infavoidance

أن يتجنب الاخفاق والخجل والاذلال والسخرية .

— **الحاجة الى العطف** n. Nurturance

أن يشبع حاجة الذى لا حيلة له وان يحميه ويساعده كالطفل والعاجز والمريض والمهزوم ... الخ .

— **الحاجة الى النظام** n. Order

ترتيب الأشياء وتنظيمها .

— **الحاجة الى اللعب** n.Play

أن يسترخى ويسلى نفسه ويبحث عن المتع من العناء والعمل بقصد اللهو وبغير هدف .

— **الحاجة الى النبذ** n. Rejection

أستبعاد الآخر أو تجاهله أو الاعراض عنه .

— **الحاجة الى الاستمتاع الحسى** n. Sentience

البحث عن الانطباعات الحسية الاستمتاع بها .

— **الحاجة الى الجنس** n. Sex

تكوين علاقة ايروطيقية ، وممارسة الجنس .

— **الحاجة الى المعاضدة** n. Succorance

سعى الفرد للحصول على عون ودعم وحماية وحب من الآخرين .

— **الحاجة الى الفهم** n. Understanding

تحليل الخبرة وتأملها والتأليف بين الأفكار .

كما تصنف الحاجات الى حاجات ظاهرة overt n. وحاجا كامنة covert n. وتفصح الحاجات الظاهرة عن نفسها فى الأفعال والأنشطة الحركية أما الحاجات الكامنة فتفصح عن نفسها عادة عن طريق التخييل والأحلام .

وتقسم الحاجات أيضا الى حاجات مركزة Focal n. وحاجات متميعة Proactive n. ترتبط الأولى بأنواع معينة من الموضوعات البيئية ، أما الثانية فيمكن تعميمها على أى موقف بيئى وما لم يكن هنساك بعض التثبيت غير العادى ، فان الحاجة تتعرض لتغيير الموضوعات التى تتجه نحوها ولتغيير الطريقة التى تتناول بها هذه الموضوعات ، اى ان دائرة الوقائع البيئية التى تناسب الحاجة تتغير اتساعا وضيقا كما تتغير الأفعال الادائية المرتبطة بها تزايدا ونقصا . والارتباط الشديد بموضـــوع غير مناسب هو تثبيت مرضى عادة ، والعجز عن اظهار اى تفضيل على نحو مستمر لموضوع مظهر مرضى أيضا كالتثبيت .

وتقسم الحاجات الى حاجات ايجابية مبسادئة Peactive n. وحاجات استجابية Reactive n. والحاجة الايجابية هى التى تتحدد نتيجة شىء فى الشخص أكثر من أن تكون نتيجة شىء فى البيئة والحاجات الاستجابية عكس ذلك . واستخدم مورى هذين المفهومين لوصف التفاعل بين شخصين أو أكثر حيث يكون احدهما ايجابيا مبادئا والآخر استجابيا للمنبهات التى يقدمهـــا الايجابى .

كما تقسم الحاجات الى حاجات عملية النشاط Process activity n. وحاجات الاسلوب Modal n. وحاجات التاثير Effect n. وحاجات التأثير هى الحاجات التى تؤدى الى نتيجة نهائية مرغوب فيها ، وحاجات عملية النشاط تستهدف أداء اعمال معينة بهدف الأداء فى ذاته ، اى القيام بمختلف العمليات العشوائية غير المنسقة (كالرؤية والسمع والكلام وما الى ذلك) ووظيفتها مجرد المتعة ، أما حاجات الاسلوب فتتضمن اداء شىء على درجة من الاجادة والاتقان .

والحاجات لا تعمل فى عزلة الواحدة منها عن الأخرى ولبعض الحاجات أسبقية على أخرى . فحاجات كالألم والجوع والعطش لها أسبقية على اخرى لانه لا يمكن تأجيلها ومن الضرورى تحقيق حد أدنى من الاشباع لها قبل أن تتمكن الحاجات الأخرى من العمل . وقد يحدث صراع بين الحاجات الهامة كما يحدث بين الاستقلال والخضوع ، وبين الانجاز والاستمتاع . فقد يكون لدى شخص حاجة قوية للاستقلال ومع ذلك قد يحتاج الى مشاركة آخر فى

الافكار والخبرات . وقد تشبع حاجات متعددة بأسلوب عمل واحد . وعلى سبيل المثال فقد تندمج الحاجة للعدوان مع الحاجة للسيطرة وذلك حين يرشح شخص نفسه فى الانتخابات للحصول على مقعد فى البرلمان ، ويقوم بحملة دعائية عدائية ضد منافسه تتسم بالبذاءة والطعن . وقد يحدث التحام بين بعض الحاجات حين يكون لها نفس النتاج السلوكى . وقد تعمل حاجة فى خدمة حاجة اخرى فتكون تابعة لها ، فقد تعمل الحاجة الى العدوان فى خدمة الحاجة الى الانجاز . فالحاجة قد تعمل لتيسر أخرى وعلى سبيل المثال فالحاجة الى لوم الذات قد تعمل فى خدمة الحاجة الى الانتماء وذلك حين يلوم فرد نفسه بسبب بعض سوء الفهم مع صديق له وذلك للمحافظة على الصداقة. ويبرز مورى أن تتبع سلاسل التبعية Subsidiation قد يساعد فى الكشف عن دوافع الشخصية الأساسية (هول/لندزى ترجمة فرج ص ٢٣٥ — ٢٣٨) .

وعلى الرغم من أن قائمة الحاجات التى عرضناها لا تعنى استغراق جميع الحاجات ، الا انه يصعب جدا التوصل الى قائمة مشابهة لها بالضغوط التى يتعرض لها الفرد لان المواقف البيئية يمكن أن تتفاوت تفاوتا كبيرا . وترتيبا على ذلك فان القائمة الآتية للضغوط التى يقدمها مورى ليست الا عينة لمواقف ممكنة كثيرة . (Murray, 1938, pp, 299-314)

الخطـــــــر — الأخطار الفيزيقية التى تنشأ من الأسباب الطبيعية .

النبـــــــذ — ان يعامل الشخص بعدم اهتمام انفعالى .

المنـــــافس — وجود شخص يتنافس معك للحصول على العطف او الأشياء المرغوب فيها أو الاهتمام .

العـــــدوان — سوء المعاملة اللفظى أو الجسمى أو العقاب .

العطـــــف — الاعتزاز بالعاطفة ، والمشاركة الوجدانية والهدايا والرفق واللين .

الخضـــــوع — ضغط المدح والتقدير والتكريم .

الانتمـــــاء — ضغط الصداقة والرفقـــة .

المـــــرض — اى نوع من الاعتلال قصيرا كان او طويلا .

الدونية والقصور — ان تكون دون المتوسط جسميا أو اجتماعيا أو عقليا .

. وتتفاعل الحاجات والضغوط بحيث تؤدى الى الاحداث الســلوكية والثيمات التى تتألف من هذه الحاجات والضغوط .

تفاعل الحاجة والضغط ــ الثيمة :

ولكى نوضح ديناميات وحدة سلوكية يقترح مورى مفهوم التيمة Thema وهى تتناول التفاعل بين الحاجة والضغط ، والتيمة جانب من الواقعــــة procceding والواقعة هى تفاعل يمكن ملاحظته بين شخص وشخص ، أو شخص وموضوع تستغرق فترة زمنية محددة ، والثيمة تصف الدوافع التى تعمل عملها فى هذا التفاعل .

وقد تؤلف عدة وقائع مسلسلا ، وهــكذا فان عددا من الثيمات يؤلف مسلسل ثيمات . وعلى سبيل المثال فان عالم الانتروبيولوجيا الذى يعــرض بحثه الجديد على مجموعة من زملائه قد يعمل على أن يترك انطباعا حسنا لديهم ، ليس ذلك فحسب بل يأمل فى أن يتفوق عليهم فيما يظهره من معرفة بالميدان والمام بدقائقه . وهو يشعر انهم ينتقدون طرقة فى البحث،ويتشككون فى نتائجه ، وهو يتخذ موقفا دفاعيا بالنسبة لمنهجه ويخفى الاجراءات التى يشعر بعدم دقتها . وهنا نجد لدينا ثيمة تشتمل على الضغط (أ) وهــو استجابة الأتراب ، والضغط (ب) وهو نقد الأتراب وشكهم والحاجات : الانجاز والسيطرة والدفاعية .

ونرى ثيمة مشابهة لديه حين ينلقش بعض ما يشتمل عليه احد معارض الفن ، حيث يقيم عمل الفنان ويرجع ما فيه من الهــامات الى فن بدائى قام بدراسته ويدعى خبرته به . وقد يتخذ شخص آخر موقفا مضادا له ويدافع الانثربولوجى عن وجهة نظره مضيفا اليها تفاصيل ليس واثقا من مصداقيتها على الاطلاق . أن هاتين الثيمتين يمكن اضـــافتهما الى ثيمات اخرى لتؤلف مسلسلا من الثيمات Serial thema يدل على ما يتصف به هــذا العالم من درجة عالية من التنافسية ، ومن عدم ثقته فى كفاءته ، ومن دفاعيته حين يواجه تحديا .

ويرتبط بفكرة الثيمة وبمفهوم الحاجة المركزية ما اطلق عليه مورى تكامل الحاجة need integrate ، أى الحاجة الى نوع معين من التفاعل مع

نوع معين من الأشخاص أو الأشياء وكثيرا ما يحدث أن يربط الشخص أشياء معينة بحاجات معينة ومن أمثلة تكامل الحاجة حب الموسيقى الكلاسيكية مقابل حب الموسيقى الشرقية. وسوف نجد تكامل الحاجة فى شكل آخر حين نتعرض للمركبات فى نمو الشخصية .

اتجاه السلوك : الموجهات والقيم : Vectors & Values

ان خطة الموجه — القيمة عند مورى هى محاولة لتمثيل القصد النهائى السلوك فى نسقه النظرى . ويلاحظ مورى تأثره بأفكار اريكسون وليفين . ويرى مورى ان كل شىء يفعله الناس يفعلونه لخدمة غاية مرغوب فيها ؛ اى حالة يبلغونها أو يتجنبونها ، وهكذا فانه حين يتابع الشخص مسارا للفعل ، فان لديه فى عقله غرضا له قيمته عنده .

ومن نواحى قصور تصور مورى الأصلى عن الحاجة — وهو نفسه يقر بذلك — أن المعلومات عن الحاجات المحددة والضغوط لا تشتمل عادة على أهداف الشخص ذات القيمة عنده . وهكذا فان معرفة ما يحتاجه الشخص والضغوط التى يتعرض لها لا تدلنا بالضرورة على ما سوف يعمله . وعلى سبيل المثال فقد يكون لدى الشخص حاجة للفهم ، ولكن مفهوم الشخص عن هدفه النهائى وماذا يعمل لتحقيقه له اهميته . هل يقرأ الشخص صحفا ومجلات ليفهم مجريات السياسة ؟ أم لسبب آخر ؟ هل يتردد على المسجد بهدف تحقيق فهم روحى لنفسه أم اسبب آخر ؟ وهلم جرا .

ولتوضيح العلاقة بين اتجاهات الفعل أو الموجهات Vectors التى تستند الى حاجات معينة، والحالات المرغوب فيها او الغايات أو القيم Values لاتجاهات الفعل هذه يستخدم مورى مصفوفة لها أعمدة وصفوف ، وتمثل كل خلية أو خانة فى هذه المصفوفة سلوكا هو مثال لفعل معين يخدم هدفا معينا . وقد ملأ الصف (هـ) والعمود ٦ لتوضيح كيف يتم خدمة هدف شخص أو قيمته بأفعال ذات اتجاهات معينة ، وكيف يستخدم شخص افعاله الموجهة لخدمة كل من القيم الموضحة .

ويقترح مورى انه يمكن استخدام هذه الخطة لا لتمثيل افعال شخص معين بل لتمثيل تفاعلات محددة بين ذات وذات ، أو بين ذات وموضوع .

وعلى سبيل المثال قد يعبر (٦) الشخص (س) عن نظريته (هـ) بأن معدل الربح العالى أمر مرغوب فيه الى صديق له (ص) الذى يرفض (١) تلك النظرية (هـ) ويمكن التعبير عن هذا التفاعل بين الشخصين على النحو الآتى س هـ٦ ———— ص هـ١ .

جدول (١ — ٧)

جدول يوضح جزء من نسق مورى عن الموجهات — القيم

القسم (الأهداف)	الموجهات (اتجاهات الفعل)										
	الرفض	الاستقبال	الاستحواذ	الإنشاء	الإبقاء	التعبير	النقل	الطرد	التدمير	الدفاع	التحاشي
أ الجسمي (الصحة البدنية)						يتريض على الجليد ويلعب الكرة					
ب الملكية (الأشياء النافعة والثروة)						يحافظ على بيت مريح					
جـ السلطة (القدرة على اصدار القرار)						يتزعم [illegible]					
د الانتماء (الود بين الشخصى)						يستمتع بأنشطة مع الزوجة والأطفال					
هـ المعرفة (بحقائق الجغرافيا والعلم والتاريخ)	يرفض المواد غير المرتبطة بالبحث	يستوعب المعلومات من مصادرها ويلم بها إلماما	يجمع الكتب قديمة في العمل والمكتبة	يطور نظرية جديدة	يختزن معلومات جديدة في الذاكرة	يكتب بحث عن نظرية جديدة	يناقش البحث مع الزملاء	يستبعد الأفكار الخاطئة	يهاجم أفكار الآخرين الخاطئة	يدافع عن مناقشته	يتجنب النقد [illegible]
و الشكل الجمالي (الجمال والفن)						يجمع السمفونيات ويرسم لوحات					
ز الايدلوجية (نسق المعتقد والفلسفة والدين)						يدرس الأديان دراسة مقارنة					

ويلاحظ مورى أن هذا النسق من الموجهات والقيم ناقص وعلى سبيل المثال فان قائمة من سبع قيم عمل أولى تجريبى يتطلب تطويرا . ووصف التفاعل بين شخص وآخر ، أو بين شخص وموضوع وصفا كاملا يتطلب

الاهتمام بمتغيرات اضافية كمكانة الشخص الاجتماعية ، وسلوكه المرتبط بالدور الذى يؤديه ، وانغماسه الانفعالى فى الفكرة موضع النقاش .

مفتاح التفرد — الوحدة الثيمة :

ان الوحدة — الثيمة عند الشخص هى مفتاح تفرد طبيعته ، وهى مكون لا شعورى عادة يتألف من حاجات قوية يتصل بعضها بالبعض الآخر ويرتبط بالضغط الذى يتعرض له الفرد فى مناسبة أو اكثر فى طفولته المبكرة . وقد تكون الحاجات متصارعة وقد تكون الخبرة المبكرة لاذة أو صادمة ، ومهما تكن طبيعة الثيمة فانها تكرر نفسها مرات كثيرة خلال الحياة .

ولننظر على سبيل المثال الى شاب درسه مورى وأعوانه ، وقد رأى هؤلاء من خلال دراسته أن الوحدة — الثيمة التى تمثل شخصيته هى حرمان يؤدى الى سعى عدوانى لتحقيق الاشباع . ولقد كانت أم هذا الشاب عاجزة ومريضة وماتت وهو ما يزال صغيرا ، ولقد كان الشاب يشعر بخوف من أبيه وبكراهية نحوه ؛ ولم يكن الأب رجلا ناجحا ولم يظهر عطفا نحو ابنه وكان يثبط همته حتى لا يواظب على المدرسة .ولقد صمم الشاب على الحصول على درجة جامعية ، وأن يصبح مهندسا . ولكى تتم دراسة أساليبه فى الحياة طبق عليه اختبار تفهم الموضوع وكشف تحليل القصص التى أدلى بها من مشاعر لا شعورية بحرمان عظيم وحاجة الى الحصول على ما حيل بينه وبين اشباعه والى الحصول على العون .

الأساس الفسيولوجى للسلوك :

لقد اكد مورى دائما على اهمية العلاقة بين الشخصية والمتغيرات الفرضية التى تؤلف الأسس الفسيولوجية لجميع الظاهرات السيكولوجية . ولقد اطلق على هذه « العمليات السائدة regnant processes وكتب قائلا « ان الطريقة الصحيحة لتصور هذه العمليات لا يتوقع التوصل اليها فى المستقبل القريب » .

ويدرك مورى أيضا أهمية العمليات اللاشعورية ويقتبس عددا من الوقائع والعناصر السلوكية التى تدعم هذه الفكرة . يقول مورى « ان جميع

للعمليات الشعورية لها مصاحب فسيولوجى ، ولكن ليس كل العمليات التى لها مصاحب فسيولوجى شعورية ، أى أن كل حدث سيكولوجى أو عملية نفسية تصاحبها عملية فسيولوجية . غير أن جميع العمليات الفسيولوجية لا تمثل فى الوعى .

ويدرك مورى شأنه شأن فرويد ويونج وجود مستويات مختلفة من اللاشعور فبعض الأشياء يسهل استدعاؤها الى الوعى ، وبعض آخر يصعب استدعاؤه لوجود دفاعات نشطة بالنسبة لها حتى لا تدخل مجال الوعى . وهكذا فان مورى يتقبل فكرة فرويد عن الكبت والمقاومة .

نمو الشخصية :

يركز مورى قدرا كبيرا من اهتمامه فى نمو الشخصية . ويرى مورى أن تاريخ الشخصية هو الشخصية ، وانه لا يمكن فهم الشخصية خارج بعد الزمن . ولا يكفى أن نصف الحاجات التى تتفاعل مع الضغوط ونحدد زمن هذا التفاعل لاننا اذا اردنا ان نفهم الاشخاص فلا بد أن نراجع دوما كيانا ناميا فى ضوء خلفيته التاريخية وأهدافه المستقبلية .

مركبات الطفولة :

ركز مورى معتمدا على الأساس الذى وضعه فرويد على خبرات الطفولة المبكرة ووقائعها والأنماط السلوكية التى تشكلت خلال هذه السنوات الهامة وهو على وجه التحديد يقسم الطفولة الى خمس مراحل تتميز كل منها بحالة لاذة تلقى الاحباط لا محالة او تنتهى هذه الحالة خلال نضج الطفل وتطبيعه الاجتماعى . وتترك كل مرحلة من هذه المراحل بصمتها واثرها فى الشخصية فى صيغة مركب — وهى مجموعة من السمات والاساليب المشتقة من بصمات ، وآثار هذه المراحل — وهى تحدد لا شعوريا مسار نمو الفرد اللاحق . ويرى مورى أن كل فرد ينمى هذه المركبات الخمسة لانه يتقدم خلال نفس المراحل الخمسة للنمو . وهذه لا علاقة لها بالمرض الا اذا تطرفت وتضخمت . والظروف اللاذة وما يرتبط بها من مركبات هى : —

أ — الوجود الآمن السلبى والاتكالى — المركب الصيومى .

٢ — الاستمتاع الحسى بامتصاص الغـذاء الجيـد من ثدى الأم أو من الزجاجة — المركب الفمى .

٣ — الاستمتاع بالأحاسيس المتعة المصاحبة للاخراج — المركب الشرجى.

٤ — الانطباع الحسى السار المصاحب للتبول — المركب التبولى .

٥ — الاستثارات اللاذة الناتجة عن العبث بالأعضاء التناسلية — مركب الخصاء .

المركب الصومعى : Clausteral c.

يرى مورى أن ثمة ثلاثة انماط تنشأ من خبرة الفرد الرحمية أو حالته قبل الميلاد . وفى نمط المركب الصومعى البسيط تتخذ الرغبة فى العودة الى الحالة السائدة قبل الميلاد شكل البحث عن أماكن محمية شبيهة بالرحم . ومثل هذا الشخص يكون عادة سلبيا اتكاليا موجها نحو الماضى ومقاوما للجدة والتغيير . وهو يفضل البقاء تحت غطاء السرير فى الصباح ، وان يكون له مكان سرى للاختباء فيه أو يعيش فى جزء منعزل عن المدينة او القرية . وأما مركب الخوف من فقدان السند in suppont c. فيتضمن القلق بسبب عدم توافر العون وهذا النوع يعبر عن نفسه عادة فى الخوف من الاماكن المفتوحة ، السقوط والغرق والزلزال والنار وافتقاد المساعدة الأسرية . أما مركب الانطلاق egression c. فيتركز حول الخوف من الاختناق والحبس. والشخص الذى يظهر هذا المركب يفضل بشدة الأماكن المفتوحة والهواء الطلق والحركة والسفر والتغيير وحاجة قوية للاستقلال الذاتى .

المركب الفمى : Oral c.

يرى مورى أن هناك ثلاثة أنواع مشتقة من الوقائع المرتبطة بخبرات التغذية المبكرة . مركب تلقى العطف الفمى oral succorance c. .
ويتضمن نشاطا فميا مع ميول سلبية واتكالية . وهذا المركب يعبر عن نفسه فى المص والاكل والتقبيل والرغبة فى التعلق بشخص عطوف يمكن أن يتلقى منه الفرد الغذاء والحماية والثناء والمشاركة الوجدانية والحب والرعاية. وحين تصبح انشطة العض مرتبطة بالحاجة الى العدوان يظهر مركب

العدوان الفمى . oral aggression c. ويشمل السلوك المتضمن فى هذا المركب البصق والعض والصياح وتناقض وجدانى عـــام نحو اشكال السلطة . واخيرا مركب النبذ الفمى . oral rejection c. ويكشف عن نفسه فى البصق والتقيؤ وضم الشفتين باحكام والتأتأة والخوف من العدوى الفمية وفقدان الشهية ونفور من العلاقات الاتكالية .

المـــركب الشرجـــى : Anal c.

ويعتقد مورى وهو فى ذلك يشبه فرويد أن المركبات الشرجية مشتقة من وقائع ترتبط بالاخراج وبالتدريب عليه . وان هنـــاك مركبين احدهما مركب النبـــذ الشرجى anal retention والآخـــر مركب الاحتفـــاظ الشرجى anal rejection ويتركز المركب الأول حول الانشغال بالتبرز والتمتع بالفكاهة الشرجية ، والاهتمام بمواد يلصلـــال والطين والمواد اللاصقة . وهـــذا النمط من الأشخاص يكون عادة تذرا غير منظم.وحين تصبح الحاجة للعدوان جزء من هذا المركب تتخذ انشطة الفرد شكلا عدائيا تدميريا . أما فى مركب الاحتفاظ الشرجى فهناك ميول قوية لاختزان الأشياء والخوف من التعرض للسرقة والعناد والسلبية وحاجة قوية للنظام والنظافة .

المركب التبولى Uretheral c.

على الرغم من ان مورى راى فى الأصل عدم اهمية المركب التبولى الا انه اصبح بعد مقتنعا بانه يلعب دورا رئيسيا فى حياة كثير من الناس . ولقد اقترح أن يطلق على هذا المركب « مركب ايكاروس Icarus" وهو شخص اسطورى طار قريبا جدا من الشمس رغم تحذير والده بحيث ذاب الشمع الذى يمسك جناحيه الصناعيين فخر صريعا . هذا الفرد الايكارى يظهر خصائص سلوكية قوامها الانشغال الزائد بالنار والطموح الزائد الذى يذوب عند مواجهة الاخفاق ، والرغبة الشديدة للحصول على الاعجاب وتقـــدير الذات المبالغ فيه وله تاريخ من التبول اللاارادى .

مركب الخصاء Castration c.

ولعلك تذكر ان فرويد ارجع كثيرا من القلق العصابى لدى الراشـــد

الى الخوف من الخصاء فى الطفولة،ويعتقد أن هذا المركب ينبغى أن يفسر تفسيراً حرفيا باعتباره « القلق الذى يثيره تخيل امكانيـــة تعرض القضيب للبتر » وهو يعتقد أيضا أن مثل هذا الخوف ينتج عادة من التخييلات المرتبطة بالاستمناء الطفلى وما يصاحبه من تحـــريمات والديه وخصائص الشخصية التى ترتبط بهذا المركب عند الراشدين مشابهة لخصائص المرحلة القضيبية عند فرويد . وهكذا فان مورى يجـــادل دفاعا عن أهميـــة الطفولة المبكرة باعتبارها الأصل فى نمو شخصية الراشد .

الوقائع — السلوك فى زمن proceedings

لقد قسم مورى تاريخ الفرد الماضى الى وحدات زمنية أو تفاعلات بين ذات وذات وتفاعلات بين ذات وموضوع أطلق عليها وقائع . وهى فترات من الزمن تتم فيها أنماط سلوكية من البداية الى النهاية . وتعبر نظـــرته الطولية للشخصية عن نفسـها فى هذا المفهوم على أوضح نحو ومؤداه أننا ينبغى أن نلاحظ عينة من السلوك خلال فترة زمنية كافيـــة حتى نستطيع دراستها على نحو مناسب . واذا التقطنا صورة للتعبير عن انفعال معين فان هذه الصورة تجريد للحقيقة وهو بهذا المعنى يشوهها . فالصـــورة لا يمكن أن تدلنا على ما ادى الى الواقعة،وما هى الحاجات المرتبطة بالتعبير الانفعالى ، او ما الذى عمله الشخص بعد ذلك . لكى نفهم السلوك ينبغى أن نحلله على أساس البعد الزمنى . ويميز مورى بين نمطين من الوقائع : داخلى ، وخارجى . وتتضمن الواقعة الداخلية جـــزءا من الزمن ينغمس الأفراد فيه فى عالمهم الخاص ، اى فى مشـــاعرهم وتصوراتهم وأفكارهم ومن امثلة ذلك احلام اليقظة وتفسير المعنى الرمـــزى لفيلم سينمائى وحل مسألة رياضية وفهم نظرية نفسية . ويقابل ذلك الواقعة الخارجية وهى تلك التى تستغرق فترة زمنية ينغمس فيها الشخص فى التعامل مع البيئة من خلال سلوك حركى لفظى قابل للملاحظة ، كلعب التنس والتسجيل فى مقرر دراسى والمشاركة فى مناقشة صفية ، وتناول الغذاء مع صديق . وواضح أن مورى يرى أن النوع الأخير من الوقائع أكثر قابلية للدرس من قبل علماء الشخصية لقابليته للملاحظة . وهو يعتقد على وجـــه الخصوص أن الوقائع بين الشخصية مثمرة جدا عند دراسة الشخصية كالتعامل بين الأب والطفل ، والأخت والأخ ، والزوجة والزوج ، والمعلم والتلميذ . وهـــذه

الوقائع تتيح ملاحظة الجوانب السلوكية للعلاقات بين الحاجات والضغوط فى بعدها الزمنى .

ما هى القوى الثابتة التى تحدد تشكيل الشخصية ؟

المحددات الجبلية constitutional determinants

والمقصود بالمحددات الجبلية للشخصية عند مورى بنية الشخص الفيزيقية الكلية ويدخل فى هذه المحددات عوامل كسن الشخص وجنسه ونمط جسمه ، وقوته الجسمية ولون بشرته ونواحى قصوره ومدى مسايرة الجسم للنمط الثقافى الطرازى Fasionable ولكن هذه القوى الجبلية لا تعمل فى فراغ فأهميتها تتمايز وتتفاضل وفقا لبيئة الشخص الاجتماعية .

ولتوضيح هذه النقطة ننظر الى شاب فى ثقافتنا نحيف وضعيف جسميا وهش . أن هذه العوامل فى ذاتها تلعب دورا ضئيلا فى خطة مورى فى نمو الشخصية ، ولكننا اذا وضعناها فى سياقها الاجتماعى فقد تكون لها أهمية عظيمة . فهذا الشخص قد يعجز عن المشاركة فى الألعاب الرياضية التى تتطلب قوة جسمية وخشونة ، وبالتالى لن يتمكن من تنمية جوانب الشخصية التى تمكنه من المشاركة فى هذه الرياضات وقد يتعرض للنبذ من اترابه فى المدرسة الثانوية نتيجة لذلك . وهكذا فقد يتادى الى تنمية شخصيته واشباع حاجاته بطرق اخرى كان يكافح للحصول على درجات عالية فى التحصيل الأكاديمى . وبينما تكون العوامل الجبلية جزءا من محددات الشخصية ، الا أن آثارها الدقيقة على الشخص تكون عادة وظيفة لتفاعلاتها المتواصلة مع البيئة .

محددات عضوية Group membrship d.

تسهم الجماعات الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد أو يطمح فى الانتماء اليها فى تشكيل نسق مورى فى الشخصية . ومن بين هذه المحددات الجماعات الأسرية ، والاثنية والدينية والعنصرية والسياسية والاقليمية والاجتماعة الاقتصادية وانتماء الفرد الى جماعة او اكثر من هذه الجماعات يؤثر فى شخصيته ، لان العضوية فيها تحمل معها التعرض لبيئة اجتماعية

معينة ولنسق قيمى . وبناء على ذلك يتفاوت نمو حاجات معينة ويختلف التعبير عنها باختلاف المتغيرات الخارجية .

محددات الدور Role d.

ان الثقافة تحدد طريقة اداء الأدوار اللازمة للحياة الاجتماعية ، ويرتبط تكوين شخصية الأفراد ارتباطا وثيقا بالأدوار التى تحدد لهم (الجنس) وكذلك بالأدوار التى يختارونها (المهنة) ومن أمثلة ذلك اختلاف دور الأنثى عن دور الذكر وما يرتبط به من اختلاف فى خصائص شخصية كل منهما ، وفى تنميط لحاجاتهما النفسية كالخضوع والسيطرة وما الى ذلك .

المحددات الموقفية Situational d.

تتألف هذه المجموعة من المحددات من خبرات الفرد من يوم الى آخر . ولايمكن التنبؤ بمعظمها . وقد تشتمل هذه المحددات الموقفية على اشياء حدثت مئات المرات وكذلك على اشياء حدثت مرة واحدة ، مع التسليم بأنها مطردة للمجموعة ككل . وهذه فئة من العوامل البارزة التى تشكل الشخصية وتشتمل على عناصر متنوعة كالاحتكاكات بين الشخصية التى تستغرق فترة زمنية قصيرة وتلك التى تستغرق فترة زمنية طويلة كالعلاقات الأسرية وترتيب الطفل بين أخواته والصداقات مع افراد معينين وطلاق الوالدين .

ومما يثير الاهتمام أن بعض الوقائع قد تحدث عشوائيا ولمرة واحدة ولكنها تؤدى الى سلسلة كاملة من الوقائع المتتالية التى تؤثر فى نمو الشخصية تأثيرا عميقا . ومن أمثلة ذلك لقاء عابر مع فتاة تصبح زوجة لك . والواقعة المبدئية لا تغير الشخصية على نحو مباشر وفورى ، ولكنها قد تؤدى الى البدء فيما يصبح بعد ذلك علاقة حميمة غير عادية تؤثر فى تشكيل الشخصية تأثيرا حاسما . وهذه الأنماط من المحددات قد تكون فريدة فى موقف حياتى ، وقد تلعب دورا هاما جدا فى تشكيل نوع الشخص الذى سيصير اليه ذلك الفرد .

المكانة الراهنة والتقويم :

اهتم مورى بمفهوم النمو فالشخصية تتألف من ثيمات أو موضوعات أساسية تسرى خلال قصة الحياة . وهذه النظرية تستخدم منهجا طوليا فى البحث بدلا من استخدامها للمنهج المستعرض . وهذا التأكيد على النمو من نواحى القوة فى نظرية مورى لاسبا بعديدة منيا : —

١ — أن المداخل النمائية قد أصبحت شائعة فى مجال علم النفس كله وليس فى مجال الشخصية وحدها خلال العقد الماضى أو ما يقرب من ذلك . ولقد انتقل هذا الذيوع والشيوع الى كثير من علماء النفس وطلابهم عندما اكتشفوا فكر بياجيه فى نهاية الستينيات ، ويكفى أن تتصفح كتب علم النفس فى هذه الفترة لتدرك مصداقية هذه النقطة ، هذا على الرغم من أن بياجيه كان يصدر كتابا كل سنة تقريبا منذ عام ١٩٣٠ م . ومع انتشار فكر بياجية انتشر المنهج النمائى الطولى لمعالجة مسائل علم النفس . ولقد تزايد ادراك علماء النفس بأن كثيرا من اسئلتهم يمكن الإجابة عنها على أفضل نحو بدراسة الأفراد وهم ينمون ويتغيرون خلال حياتهم كلها . ولقد أدرك مورى واعوانه فى عيادة هارفرد النفسية هذه النقطة منذ خمسين عاما ، بل أن مورى يقتبس فى كتابه « الاستقصاءات » ١٩٣٨ من بياجيه ، أى أن هذه الفكرة الاساسية من أفكار مورى تتسق مع الاهتمام المعاصر بالمداخل النمائية فى دراسة السلوك والشخصية . وهذه نقطة من نقاط القوة فى نظرية مورى .

وثمة ميزة أخرى لهذه الفكرة وهى انها تروق لفهمنا وتصوراتنا بصفة عامة . وقد تكون الفكرة جديدة نسبيا لدى بعض علماء النفس ولكن الانسان العادى عرف فى الماضى ويعرف دائما انك تستطيع ان تفهم الناس على نحو أفضل اذا عاشرتهم طول حياتهم . وانك كلما طالت خبرتك بشخص عرفته على نحو أفضل ، صحيح انه مما يساعدك على معرفة شخص معرفة وثيقة وعميقة أن تستمع الى اسراره العميقة والى آماله واحلامه ومخاوفه ، ولكن شيئا لا يمكن أن يحل محل معرفة الشخص منذ الميلاد من حيث اسهامها فى فهم شخصيته .

٢ — نظرية هنرى مورى نظرية دينامية شأنها فى ذلك شأن نظرية

فرويد ويونج واريكسون وهورنى فهى كلها تعتبر نظريات دينامية لانها تؤكد تاكيدا كبيرا على الدوافع اللاشعورية ، وتعتبر محتويات العقل نشطة . ولكن حين يحلل فرويد واتباعه تلك الديناميات اللاشعورية فانهم ينتمون الى ما يشبه الافعال الاستاتيكية والاطر التى تظهر حين توقف فيلما تشاهده من افلام الفيديو ، ولا تشبه التدفق فى التغيرات والافعال الذى نراه فى فيلم السينما . وفرويد يوقف الفعل لانه يريد أن ينظر الى القوى التى تسهم فيه نظرة عن كثب . وموري يفعل هذا حين يبدأ فى قياس الحاجات والضغوط والفرق بينهما ليس مطلقا بل هو فرق فى التاكيد ، ومع ذلك فان قراءة فرويد تشبه مشاهدة صور متتابعة فى فيلم ، بينما قراءة موري تشبه فيلما متحركا يعرض بدون توقف . وهذا يرجع الى أن موري مهتم باستخلاص ثيمات من قصة الحياة ، بينما فرويد مهتم بدرجة أكبر بالكشف عن القوى الداخلية الخفية (كالغرائز) التى تقبع وراء الأفعال التى تمت وحدثت من قبل . ان فرويد يصف كيانات entities دائمة تحدث تغيرا ، بينما يصف موري عملية التغير ذاتها . ويعتقد موري اعتقادا جادا بأن الشخصية دينامية وانها تتغير دوما وتكبر . واذا كانت الشخصية قصة ، فانه ينبغى أن توصف باستخدام مفاهيم تنقل تغير الوقائع وتدفقها ، مفاهيم دينامية كالثيمة .

٣ — نظرية موري نظرية تفاعلية . ومفهوم الثيمة يؤدى الى نظرية تفاعلية . ان مفهوم الثيمة باعتبارها تكوينا يتألف من حاجة وضغط يعنى ان هناك تفاعلا بين كائن حى وبيئة . ويؤدى الى نظرية يتأثر فيها السلوك بنزعات داخلية وظروف وملابسات خارجية . والمثيرات الاجتماعية لها أهمية كأهمية الرغبات الفيزيقية . ونظرية الشخصية الناتجة عن هذا أكثر توازنا مما نجد لدى فرويد الذى تعرض لنقد مؤداه انه لم يلق انتباها كافيا للمحددات الاجتماعية والثقافية للسلوك .

غير أنه ثمة نقطة أكثر ارتباطا بهذه القضية اليوم وهى أن مفهوم موري عن الثيمة باعتبارها تفاعلا بين الحاجة والضغط يقدم لنا حلا للجدل الدائر بين دعاة السمات ودعاة المتغيرات الموقفية وهو جدل استعر بين علماء نفس الشخصية خلال السبعينات . ولعل هذا هو السبب فى ظهور اهتمام جديد بعلم الشخصية عند هنرى موري وهو اهتمام يتسق مع التأكيد على

التفاعلية عند عدد من المعاصرين من أمثال والتر ميشيل Walter Mischel ولقد اكتشف هنرى مورى التفاعلية قبل هؤلاء بخمسين عاما . ولعل مورى فى ذلك الوقت كان يحاول أن يعـدل تأكيد فرويد المكثف على جانب واحد دون آخر ، اى على الديناميات الداخلية ، ولكن نظرية مورى ملائمة اليوم كبديل لانشغال السلوكيين بالمثيرات البيئية فى العقود الحديثة . يقـول س . أبشتين Seymour Epstein ١٩٧٩ محللا ما اسماه بعصور الظلام فى سيكولوجية الشخصية وهى السنوات التى فصلت بين كتاب « استقصاءات فى الشخصية » والوقت الحاضر .

« وبدلا من أن نتبع المثال الذى قدمه لنا مورى فى دراسة الأفـراد دراسة شاملة وعميقة ، تابعنـا رؤية ضيقة للعلم ، رؤية أصبحت فيهـا الطريقة أكثر أهمية من الجوهر . ونتيجة لذلك امتلأت مجلاتنا العلمية بدراسات تصف تناولا معمليا لمتغيرات قليلة المغزى للأفراد فى التجارب . ولم يكن غريبا ولا عجيبا أن الحصاد كان هشيما ، ونتيجة لذلك أصبحت المعاصرة العلمية تعنى العدمية وان نشك فى وجود الاستقرار فى الشخصية وبالتالى فى الشخصية ذاتها » .

ولحسن الحظ فان مفهوم مورى التفاعلى للثيمة يزودنا بفكرة رئيسية لاعادة الشخص الى الشخصية ، وفى نفس الوقت يحتفظ باستبصارات السلوكيين عن دور المتغيرات الموقفية .

٤ — اذا اقتصرت على وصف الوقائع التى يتكرر حدوثها فى قصة حياة الشخص اى على الثيمات الأساسية فنك لن تحتاج الى مسلمات فلسفية . وفى الحق أنه قد يكون هناك قدر من التحيز فى اختيارك للثيمات ، ولكنك ما زلت فى غير حاجة الى التسليم بمسلمات معينة . انك ببسـاطة تصف شخصا كما يحدد البيولوجى الملامح الأساسية لعينة تحت المجهر ، وأنت تكشف عن شىء كان دائما هناك ، ولكنه لم يرى من قبل . فأنت لا تستنتج اى شىء عما لا يمكن رؤيته ويستطيع العلماء أن يسهموا اسهاما صادقا فى زيادة رصيدنا المعرفى وذلك بالافادة من تدريبهم واستخدام ادواتهم التقنية ليظهروا أشياء ما كنا نستطيع اظهارها بغير هذه الأدوات وذلك التدريب . واختبار تفهم الموضوع مثال جيد لهذا النـوع من الأدوات التقنية . وحين

يصف موري اختبار تفهم الموضوع TAT باعتباره جهاز اشعة اكس لعالم الشخصية فانه يعني انه اداة تكشف عن اشياء موجودة هناك في الحقيقة ولا يسلم الباحث بوجودها ببساطة ، ولكننا بغير هذه الاداة لا يمكن مطلقا ان نراها .

والاعتماد على مسلمات فلسفية قليلة أو عدم الاستعانة بمثل هذه المسلمات له ميزته بالنسبة للنظرية . وطالما أن موري يرى الثيمات باعتبارها سلسلة من الوقائع المتشابهة التي يتكرر حدوثها في قصة الحياة ، وطالما أنه يتمسك بوصف هذه الوقائع فانه لا يحتاج الى أى مسلمات . أن فكرته الاساسية التي تقضى بالبحث عن ثيمات قصص الحياة لا تستنتج وجود أى قوى افتراضية أو بنى وهذه احدى نواحي القوة في نظريته .

هذا عن نواحي القوة ، غير أن هناك نواحي ضعف أيضا في نظرية موري : —

١ — ان فكرته الاساسية لا تكشف عن الاسباب والعلل وبغير هذا لا بد من الاخذ ببعض المسلمات . ففي الوقت الذي يعتبر تجنب المسلمات أمرا مرغوبا فيه بوضوح الا انه له نتائج خطيرة . فاذا تمسكنا بالوصف مجردا فاننا لا نستطيع ان نكشف عن الأسباب والعلل . ونستطيع أن نصف كيف تنتظم برادة الحديد في خطوط معينة حين نمسك بمغناطيس تحتها ، بل ونستطيع ان نرسم خطوطا تمثل هذه العملية ولكن هذا لا يفسر العوامل التي أدت الى أن تتخذ برادة الحديد هذا الشكل . ولكي تفسر هذه الظاهرة فان عليك أن تستنتج وجود قوى غير ظاهرة من ملاحظتك لانتظام الواقعة . ولا تستطيع ان تقدم نظرية سببية دون الاعتماد على مسلمات . ولكنك اذا رغبت عن الاعتماد على مسلمات فانك لا تستطيع أن تعالج الأسباب . وبغير معرفة بالأسباب من الصعب ان تحدد العوامل التي ينبغي عليك تناولها لاحداث تغيرات في الشخصية لكي تشفي المرضى من اضطراباتهم النفسية أو تعدل سلوك المحرومين او المعاقين او المتأخرين دراسيا .

وعلى الرغم من انه في الامكان استخدام تحليل الثيمات بطريقة وصفية صرفة ، الا ان موري آثر التفسيرات العلية وبتعريفه للثيمات كتفاعلات بين

الحاجة والضغط انتقل من المجال المنظور الى مجال الاستنباط والاستدلال ، وفي ايجاز فانه اعتمد على مسلمات معينة . ولقد فعل هذا مع الحاجة اكثر مما فعل مع الضغط لأن الأخير قابل للملاحظة في معظم الحالات ، وهذا هو السبب في اهتمام السلوكيين بهذه المثيرات البيئية . لقد كتب موري قائلا « أن الحاجة عملية يفترض صدقها لكى تفسر حقائق موضوعية وذاتية معينة (1938, p. 54) فقد نرى افرادا يكافحون لتحقيق الامتياز في عملهم المدرسي أو في تنافسهم الرياضي ، وقد يخبروك بأنهم يحاولون دائما عمل افضل ما عندهم في هذه الجهود . ومع ذلك فانك كما في حالة المغناطيس الذى يؤدى الى انتظام برادة الحديد في خطوط معينة لا تلاحظ فعلا القوة التي تسبب هذه الوقائع والاحداث ، وانما تلاحظ آثارها فحسب . ثم تستنبط أن هذه الآثار قد نتجت عن القوة المغناطيسية ، او عن حاجة الى الانجاز . ولقد ابتكرت الحاجة للانجاز لكى تفسر الوقائع الملاحظة . انها مجرد افتراض أو مسلمة أو هي تكشف عن حاجة الملاحظ الى الاعتقاد بأنه يفهم أسباب الوقائع والأحداث كما تكشف عن الوقائع ذاتها .

وهذا هو المأزق الذى يواجه جميع نظريات الدافعية . فموري ليس هو الوحيد الذى يتصدى لهذه اشكلة وموري اكثر صراحة في هذه النقطة . اذ يبدو أحيانا كأنه غير قادر على اتخاذ قرار بما اذا كان ينبغي أن يكون علم الشخصية ، كالنقد الأدبي والتحليل النفسي والقياس العقلي أو يختلف عنها . والسؤال الأهم هو هل يتجنب المسلمات والافتراضات حين يصف اثنيات ؟ أم يسلم بوجود حاجات ليتوصل الى اسباب السلوك ؟ وأيا كان المسار الذى يختاره موري فانه لا يستطيع أن يتجنب النقد .

٢ — ان ما يبرز كثيمة بالنسبة لأحد القراء لقصة معينة قد لا يبدو كذلك عند آخر . أن الثيمة تبرز لان القارىء يدرك بعض التشابه بين سلسلة من الوقائع أو صلة مشتركة تربط بينها . ولكن قارئا قد يرى تشابها بينما ولا يرى آخر شيئا . هل ترى اى تشابه على سبيل المثال في الوقائع الآتية : —

(أ) لقد تعرض المفحوص للتبول اللاارادى المحرج عددا من المرات ، واحيانا في المدرسة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره .

(ب) وحتى اليوم وهو طالب بالجامعة يشعر بالنشوة حين يشعل نارا فى سلة المهملات التى يستخدمها .

(جـ) انه يحاول بجد أن يكون مركزا للانتباه وان يصفق الآخرون له ويتملقوه .

هل هذه جميعا جوانب لثيمة واحدة ؟ اشك فى أن معظم الناس يوافقون على ذلك ، ومع هذا فان هنرى مورى (1955/1981, p. 546) يرى ان الخيط المشترك الذى يربط بين هذه الوقائع التى تبدو غير متصلة واضح وضوح النهار . انه الايروطيقية التبولية .

وحين يطبق مورى هذا الاسلوب فى تحليل التيمات على قصص الحياة فان التيمات التى يتوصل اليها تحليلية نفسية على الأغلب . وعلى الرغم من وعده ايانا بانه يصور لنا الانسان باعتباره حيوانا اجتماعيا قادرا على التخيل على نحو افضل مما يفعله اصحاب التحليل النفسى ، الا انه يتوصل الى ثيمات كثيرا ما تبدو مبالغا فيها مثله فى ذلك مثل فرويد فى كثير من تفسيراته .

ويرى مورى أن كثيرا من القراء سوف يجدون مثل هذه التفسيرات مبالغا فيها ، ولكنه مع ذلك يقرر وفى اصرار على أن هناك وقائع حيوية فى حياة كل فرد (وان عليه ان يقرر لماذا هى حيوية وهامة) تسجل فى المخ ، ومن ثم فانها جاهزة ومهيأة لان يعاد تنشيطها بالضغط المناسب .

وهذه النقطة لا ترتبط بفكرة مورى عن الثيمة وانما بطريقة استخدامه لها وتطبيقه اياها . ان الطبيعة التحليلية النفسية السائدة للثيمات التى يستخلصها من دراسة الحيوات مشكلة معظم علماء النفس من دعاة التحليل النفسى . ونأمل الا يؤدى التحيز بالمعارضين للتحليل النفسى الى اغفال مزايا تحليل الثيمات عند مورى .

٣ — يلجأ مورى الى استخدام مصطلحات لا ضرورة لها ، وكتاباته تحتوى على عدد كبير من المصطلحات التى صكها لوصف مفاهيمه وهى مصطلحات ينفرد باستخدامها ومعانيها قد تكون غير واضحة ما لم ندرسها فى ضوء تعريف مورى لها . ويحتوى كتاب استقصاءات الشخصية على ثمان

صفحات تتناول هذه المصطلحات وتعريفاتها . وعلى سبيل المثال لقد وضع الكلمات الآتية فيما يتصل بتحليل الثيمات : —

thematic analysis, episode, thema, serial; serial program; schedules proceedings, prospection, ordination

وعلى الرغم من أن هذه المصطلحات توحى بأنه يستخدم لغة علمية ، الا أنها تبدو غير ضرورية. صحيح أن جميع منظرى الشخصية تقريبا يبتكرون بعض المصطلحات الجديدة ، وان كان قلة منهم هى التى تضع مصطلحات خاصة بهم بكثرة كما يفعل مورى . وفى بعض الحالات يشعر الدارس أن هناك أسبابا وجيهة لعمله هذا ، ولكنه فى حالات أخرى يشعر بأن هذا العمل غير مسوغ .

ولقد ارتبط هذا أيضا بتطويره المستمر لنظريته ، فكان يعدل أحيانا مفهوما أو يتخلص من فكرة أو يقدم فكرة جديدة كلية وكان مورى يصر دائما على أن اى نظرية فى الشخصية ينبغى أن تكون قادرة على استيعاب الحقائق والخبرات الجديدة . ولعل عنوان أحدث وصف لنظريته يدل على ذلك « مكونات نسق متطور فى علم الشخصية » .

Components of an Evoling Personological System

وهناك عناصر راسخة فى نظرية مورى وهى : اهتمامه العميق بالدافعية ، بما فى ذلك الدافعية اللاشعورية ، وايمانه العميق بأن السلوك الانسانى ينبغى أن ينظر اليه باعتباره عملية تفاعلية، وبأن السلوك الانسانى غرضى وله هدفة ، واصراره على الربط بين عمليات المخ والعمليات السيكولوجية ، واهتمامه بالطرق الوصفية والتصنيفية .

ولقد اتخذ موقفا وسطا فى الدافعية فلم يحاول تفسير السلوك الانسانى بدافع واحد أو عدد قليل من الدوافع كما نجد عند روجرز ، وماسلو ، وفرويد . وغيرهم ولم يحاول أن يسير فى ركاب من افترضوا أن عدد الدوافع بالغ الكثرة وأن كل فرد توجهه دوافع تبلغ من الاختلاف والتفرد عن بقية الأفراد حدا يتعذر معه تحديد الدوافع التى تنطبق على الكثيرين أو

بتعذر تصنيفها . وهو يرى أن ما يقرب من عشرين حاجة تكفى للتعبير عن سلوك معظم الناس ، ان لم يكن جميعهم .

ولقد تعرضت نظرية مورى لنقد مؤداه انها لا تزود الباحثين بمجموعة من القضايا التى يمكن أن تولد فروضا قابلة للاختبار . ولعله من المناسب أن تعتبر مفاهيمه ومسلماته نظرة عامة للسلوك تشكل اسلوب تناول مشكلات بحثية معينة فى مجال الشخصية . ولقد بذل اكثر مما بذله كثيرون فى هذا المجال فى بلورة وتحديد مجموعة من المتغيرات التى استخدمها ويمكن أن يستخدمها الباحثون على اختلافهم . ولقد ادى عمله الى دراسات مكثفة لدوافع معينة كالانجاز والانتماء .

ويرى النقاد انه على الرغم من أن مورى ناقش عملية التعلم ، الا انه لم يهتم اهتماما كافيا بالشروط النوعية أو المحددة لكيفية حدوث التعلم . وهكذا فانه لا يستطيع تفسير كيفية تشكل الدوافع وتغيرها وتطورها .

واخيرا فان التقدير النهائى لاسهامات هنرى مورى لا بد أن يأخذ فى الحسبان النظرية والرجل وبحوثه . وتبرز هذه النظرة الشمولية أصالة الرجل وحيويته فى مجال معقد كثير المتغيرات هو مجال الشخصية .

الفصل الثامن

جوردن البـورت

ولد البـورت فى مونتزوما بولاية انديانا بالولايات المتحـدة الامريكية فى نوفمبر ١٨٩٧ م ، وكان أصغر الابناء لأب يعمل طبيبا ولام تعمل معلمة ، يقول البورت فى تاريخه لحياته : ـــ

« كانت أمى مدرسة ولقد علمت ابناءها الشغف بالتساؤل الفلسفى ، ونقلت اليهم الاهتمام بالبحث والسعى للحصـول على اجابات دينيـة عن تساؤلات أساسية هامة ، ولم يكن متوفرا لوالدى كطبيب امكانيات علاجية مناسبة لمرضاه ، ولذلك فقد اقتضى الأمر أن يقيم المرضى والمرضات معنا فى نفس المنزل لعدة سنوات ، وكان معنى هذا أن أصبح تقديم بعض الخدمات والمساعدات لهم جزءا من تدريبى المبـكر ومن تربيتى ، ولم يكن أبى يؤمن بالعطلات للترويح عن النفس وكان يتبع قاعدته هو فى الحياة التى عبر عنها على النحو الآتى : لو أن كل شخص اجتهد على قدر استطاعته وأخذ لقـاء اجتهاده الحد الأدنى من العائد المادى وهو ما يفى حاجات الاسرة ، فسوف تتوافر ثروة كافية ليتقاسمها الجميع ، وهكذا فان جو الاسرة كان مشـبعا بالاجتهاد فى العمل والثقة والعطف » (1967, p.p. 4-5)

ولعل مثل هذه الخبرات التى حفلت بها بيئة البورت الاسرية هى التى دفعته الى الاهتمام طيلة حياته بصالح الانسان ، وهى التى برزت فى اتجاهه الانسانى فى علم النفس .

وعلى الرغم من أن جوردن البورت ولد فى انديانا الا انه نما وكبر فى كليفلاند بولاية أوهايو حيث التحق بالمدارس العامة . ولقد التحق بجامعة هارفرد عام ١٩١٥ نتيجة لتأثير اخيه (فلويد Floyd) الذى أصبح عـالما نفسيا مشهورا وكان قد تخرج من جامعة هارفرد قبله بسنتين . ولقد اجتاز جوردن اختبار الالتحاق بصعوبة ، وكانت تقديراته الأولى جـ ، د . ولكنه بذل جهدا هائلا وأنهى عامه الجامعى بتقديرات أ (ممتاز) وتخرج من جامعة هارفرد عام ١٩١٩ م وكان تخصصه الرئيسى اقتصادا وفلسفة .

وبعد تخرجه لم يكن واثقا من مطامحه المهنية ، ولم يكن قد حدد العمل

الذى يريد أن يخصص حياته له ، لقد كان يبحث عن هويته . وقضى السنة الأولى بعد التخرج يدرس اللغة الانجليزية وعلم الاجتماع فى كلية روبرت Robert Collehe باستنابول بتركيا ولقد استمتع بالتدريس استمتاعا دفعه الى قبول منحة دراسية من جامعة هارفرد للدراسات العليا فى علم النفس .

ولقد توقف البورت فى طريق عودته الى الولايات المتحدة الامريكية فى فينا لكى يزور أحد اخوته . وبينما هو فى هذه الزيارة مر بخبرة كان لها اثر عميق على توجهه النظرى فى دراسة الشخصية . لقد كتب الى فرويد رسالة يستأذنه فيها لزيارته ، وجاءه الرد بالموافقة . ولقد وصف البورت هذه الزيارة القصيرة لفرويد على النحو الآتى : —

« بعد أن دخلت غرفته الشهيرة ذات الجدران المائلة الى الحمرة ، وقد علق عليها صور للأحلام دعانى الى مكتبه الداخلى ، ولم يتحدث الى ، وانما جلس صامتا متوقعا منى ان احدد هدفى من الزيارة . ولم اكن مهيئا لهذا الصمت ، وكان على أن افكر بسرعة لاعثر على موضوع مناسب للحوار . ولقد حدثته عن ولد صغير يبلغ من العمر اربع سنوات أظهر خوفا مرضيا حادا من القذارة وظل يردد قائلا لامه ، لا اريد أن أجلس هناك ... لا تدعى ذلك الرجل القذر يجلس بجوارى ... ولقد كان كل شىء بالنسبة له قذر منتن . وكانت امه ذات مظهر حسن ، مسيطرة ، وذات تصميم بحيث انى اعتقدت بوجود علاقة واضحة بين السبب والنتيجة .

« وحين انهيت قصتى ثبت ناظريه على قائلا : هل كان هذا الولد الصغير انت ؟ » وقد ذهلت لهذه الاستجابة وشعرت بالاثم قليلا ، وحاولت تغيير الموضوع . ولقد كان سوء فهم فرويد لدوافعى مثيرا للاهتمام ، ولكنه ادى الى أن أبدا خطا فكريا هو اننى ادركت انه قد اعتاد على الدفاعات العصابية وان دوافعى الظاهرة (وهى نوع من حب الاستطلاع والطموح الذى يتميز به الشباب) قد فاتته . ذلك انه لكى يحقق تقدما فى العلاج النفسى لا بد ان يخترق دفاعاتى ، ولكن ما حدث هو ان التقدم العلاجى فى هذه الحالة لم يكن الموضوع المناسب للموقف » (1968, p.p. 383-384)

ولقد تعلم البورت من هذه الخبرة ان من الممكن بالنسبة لعالم النفس

المتعمق ان يذهب فى تعمقه حدا يغفل معه حقائق اكثر اهمية . ولقد شعر البورت أن لديه اسبابا شعورية صادقة لزيارة فرويد واختار تلك القصة ، الأمر الذى ادى الى انشغال فرويد بالبحث عن الحقيقة العميقة وراء هذا السلوك مما حاد به عن حقائق هامة . وسوف نرى أن البورت يعتقد أن أفضل طريقة للكشف عن الدوافع الحقيقية للشخص هى عن طريق التقرير الذاتى أى بسؤاله هو . ولقد اظهر البورت خلال حياته كلها عدم ميله للتحليل النفسى .

ولقد عاد البورت الى جامعة هارفرد حيث حصل على درجة الماجستير عام ١٩٢١ ، ودكتوراه الفلسفة عام ١٩٢٢ وكان عمره ٢٤ عاما . وكان أول عمل علمى قام بنشره مشتركا مع أخيه فلويد وعنوانه « سمات الشخصية : تصنيفها وقياسها »

Personality Traits : Their Classfication and Measurement

(Allport & Allport 1921).

وكان عنوان رسالة الدكتوراه « دراسة تجريبية لسمات الشخصية ».
(An Experimental Study of Traits of Personaiity)

ولقد حصل على منحة دراسية مكنته من أن ينفق عاما دراسيا (١٩٢٢ — ١٩٢٣) فى جامعة برلين وجامعة هامبورج ، وأن يقضى سنة دراسية (١٩٢٣ — ١٩٢٤) فى جامعة كمبردج بانجلترا. وقد عاد الى جامعة هارفرد عام ١٩٢٤ حيث قدم أول مقرر فى سيكلوجية الشخصية فى الولايات المتحدة الامريكية . وكان عنوانه « الشخصية جوانبها النفسية والاجتماعية »
(Personality : Its Psylological and Social Aspects)

ويبدو أن هذه الخبرة فى مجالات اكاديمية اجنبية مختلفة قد اسهمت فى زيادة اهتمامه بالشئون الدولية والذى يبدو جليا فيما شارك فيه البورت وقام به من انشطة خلال حياته المهنية ذات صبغة أخلاقية واجتماعية .

ولقد تزوج عام ١٩٢٥ ، وانجب طفلا اصبح فيما بعد طبيب اطفال وباستثناء أربع سنوات عملها فى كلية دارتموث من ١٩٢٦ — ١٩٣٠ م Dartmouth College قضى حياته المهنية كلها فى جامعة هارفرد وتوفى فى اكتوبر ١٩٦٧ عن عمر دون السبعين بشهر واحد .

ولقد شارك بالعضوية وبالرئاسة فى كثير من الجمعيات المهنية والعلمية ومن امثلتها رئاسته للجمعية النفسية الامريكية كما رأس تحرير مجلة علم نفس الشواذ وعلم النفس الاجتماعى . ويظهر تنوع جهوده العلميــة فى القضايا التى انشغل بها وظهرت فى كتب الفها وأبحاث قام بها واختبارات صممها بمفرده حينا وبالاشتراك مع آخرين حينا آخر . فله دراســات فى الحركة التعبيرية وكتب عن سيكولوجية الراديو وسيكولوجية الاشـــاعة وطبيعة التعصب والفرد ودينه ، هذا فضلا عن كتاباته الكلاسيكية فى مجال الشخصية . وقد اشترك فى وضع اختبارين نفسيين ذاع صيتهما وكثر استخدامهما فى البحوث النفسية وهما السيطرة والخضوع The A-S Reachtion Study ودراسة القيم Study of Values بالاشتراك مع فرنون ولندزى وقد نقله د . عطية هنا الى اللغة العربية .

ولقد كان البورت توفيقيا يأخذ الأفضل من نظريات عديدة فى الشخصية ومن نظريات منوعة . وكان أول من نقد ما اعتبره أسوأ الجوانب فى تلك النظريات فلقد انتقد التحليل النفسى والسلوكية ؛ والبحوث التى اجريت على الحيوان واستهدفت الكشف عن معلومات تفيد الانسان وتصلح له . كما هاجم الأساليب الاحصائية فى دراسة الشخصية كالتحليل العاملى .

ولقــد اعتقد البورت بقوة أن المبادىء التى تحكم ســلوك الحيوانات الدنيا والعصابيين من البشر تختلف عن المبادىء التى تحكم سلوك الأسوياء والأصحاء منهم . وهكذا فان ما نتعلمه من دراسة احدى الفئتين قد لا يساعد فى فهم الفئة الأخرى ... « وبعض النظريات تستند الى دراسة المرضى ، والقلقين من الناس أو دراسة الفيران الحبيسة واليائسة . وقلة من النظريات هى التى اشتقت من دراسة الانسان الســوى الذى يكافح لا ليحافظ على حياته بل ليجعل الحياة جديرة بالعيش » (Allport 1955, p. 18)

ولقد حارب البورت اى وجهة نظر فى علم النفس تلقى بالغموض على فردية الانسان أو تحط من كرامته . واذا اردنا ان نحدد الفــكرة الرئيسية المسيطرة على جميع أعمال البورت العلمية والفكرية فانها بغير شك ابراز أهمية الفرد . ولقد ادت هذه الفكرة المحورية بألبورت الى أن يكون موضع هجوم ونقد لان موقفه مضاد لعلم النفس كعلم ؛ لان عمل العالم التوصل الى

قوانين عامة تحكم جميع الأنماط السلوكية . والعلم يهتم بما يصدق بصفة عامة ، ولكن البورت كان مهتما بما هو صادق على وجه التحديد والتخصيص.

ما هى الشخصية ؟

حينما نشر البورت كتابه عن الشخصية عام ١٩٣٧ م
Personality · A psyclological Interpretation
قدم فيه الشخصية كموضوع جدير بالدراسة . ولقد كان البورت منذ البداية معارضا للتحليل النفسى وللسلوكية . ولقد تأثر تنظيره المبكر فى الأساس بسيكولوجية الجشطلت التى التقى بها فى المانيا بعد تخرجه من جامعة هارفرد ، كما تأثر باتجاهاته الانسانية القوية التى نمت لديه وترسخت خلال طفولته . ونحن نعرف أن سيكوليجية الجشطلت أكدت على كلية الخبرة الشعورية وترابطها . وكان مما يزعجه قيام أى محاولة لتقسيم الخبرة بقصد دراستها باتقان اكبر . وهذا فضلا عن أن سيكولوجية الجشطلت تجاهلت اللاشعورية تجاهلا كاملا تقريبا .ولقد قرر البورت ان سيكوليجية الجشطلت هى نوع من علم النفس الذى كان وما ذزال فى شوق اليه ولكنه لم يكن يعرف بوجوده (1968, p. 387) والحق ان البورت لم يثق فى العلم كمصدر للمعرفة عن الشخصية وكان اكثر تجاوبا وارتياحا مع الأوصاف التقليدية للانسان التى وجدها فى الأدب والفلسفة وليس معنى هذا ان البورت تجاهل المعرفة التى كشفت عنها الطريقة العلمية ، ذلك انه من الواضح انه لم يتجاهلها . وعلى اية حال فانه لم يرد أن تقيد الطريقة العملية جهوده فى فهم الشخصية . ولقد ادرك انه قد تراكمت معارف كثيرة غير علمية ونافعة عبر السنوات ؛ وانه من غير الحكمة عدم الافادة من هذه المعارف واستخدامها .

لقد اعتقد البورت اعتقادا راسخا ان نظرية الشخصية الجيدة ينبغى أن تتسق مع ما يقدمه الأدب الذى يستطيع ان يقدم اكثر اوصاف الشخصية قابلية للفهم ، ومع ما تقدمه الفلسفة لانها اقدم مجال لدراسة الشخصية ، ومع ما تقدمه العلوم البيولوجية لان الانسان حيوان . ان هذا التصور من قبل البورت لا يعنى ان منهجه يتسم بالتفتح فحسب بل يمثل دعوة لنظرية توليفية مستمدة ممن يستطيعون الاسهام فى فهم الشخصية الانسانية على نحو افضل (L.J. Bishof : 1970, p. 257)

ولعل تأثير نظرية الجشطلت وشترن عليه بدا فى عدم ثقته فى الطرق التحليلية المألوفة فى العلوم الطبيعية ، وفى اهتمامه الشديد بتفرد الفرد ، وثبات سلوكه ووحدته . كما ظهر تأثير وليم جيمس عليه فى اسلوبه الأدبى المتميز فى الكتابة وفى تناوله للسلوك الانسانى تناولا يتصف بسعة الافق والنظرة الانسانية . وفى رؤيته فى القدرة المطلقة للمناهج السيكولوجية على فهم السلوك الانسانى . بل ولعله تأثر أيضا بمكدوجال فى اهتمامه بالدوافع وادراكه لاهمية العوامل التكوينية ، واستخدامه لمفاهيم الذات والأنـا .
(هول ولندزى ترجمة فرج وآخرين ١٩٧١ : ص ٣٣٩ — ٢٤٠) » .

وقد قدم البورت فى كتابه الذى صدر عام ١٩٣٧ عرضا لتاريخ كلمة شخصية مبتدئا بارتباطها بالكلمة الاغريقية (قناع) Persona . واشار الى أن لهذه الكلمة فى الأصل أربعة معانى كما بين شيشرون Cicero هى : —

١ — الشخصية كما تبدو للآخرين وليس ما هى عليه فى الحقيقة وهى بهذا المعنى تتصل بالقناع .

٢ — الشخصية هى مجموعة الخصائص التى تمثل ما يكون عليه الفرد فى الحقيقة وهى بهذا المعنى تتصل بالمثل .

٣ — الشخصية هى الدور الذى يقوم به الفرد فى الحياة ايا كانت طبيعة هذا الدور هل هى مهنية أم سياسية أم اجتماعية .

٤ — الشخصية هى مجموعة الخصائص التى ترتبط بالمكانة الاجتماعية وما يحظى به الفرد من تقدير واهمية . وهى بهذا المعنى ترتبط بالمركز الذى يشغله الفرد فى حياته .

ثم درس خمسين تعريفا للشخصية ووضعها فى الفئات الآتية : —

(أ) التعريفات التى تتصل بالجذور التاريخية للمصطلح .

(ب) التعريفات اللاهوتية .

(ج) التعريفات الفلسفية .

(د) التعريفات الفقهية .

(هـ) التعريفات الاجتماعية .

(و) تعريفات المظهر الخارجى .

(ز) التعريفات النفسية .

وخلص بعد مراجعته وفحصه للتعريفات الخمسين للشخصية الى تعريفه المشهور « الشخصية هى التنظيم الدينامى داخل الفرد للأجهزة النفسية الفيزيقية التى تحدد للفرد تكيفه الفريد مع بيئته » (1937, p. 48)

وقد أدخل على هذا التعريف عام ١٩٦١ تعديلا فتخلص فى تعريفه السابق من العبارة « التى تحدد للفرد تكيفه الفريد مع بيئته » واثبت فى موضعها « التى تحدد للفرد طابعه المميز فى السلوك والتفكير » (p. 28) ولما كان تعريف البورت للشخصية يلخص معظم مفاهيمه الأساسية فان علينا أن نفحص مكونات التعريف بدقة وعناية .

التنظيم الدينامى : Dynamic Organization

التنظيم الدينامى يبعد تصورنا للشخصية عن أن يكون مجرد مجموعة اجزاء . والتنظيم ضرورى لتفسير نمو الشخصية وبنائها . والخلل فيه معناه الانحراف والشذوذ وعدم التكامل . والتنظيم الدينامى يشير الى حقيقة هى أن الشخصية ولو انها دائما منظمة الا انها متغيرة باستمرار . والشخصية من وجهة نظر البورت لم تكن مطلقا كائنا وانما هى تتسم بالصيرورة وعلى الرغم من وجود قدر كاف من التشابه بين الناس للمحافظة على هويتهم من من خبرة الى اخرى ، الا انهم بمعنى من المعانى لا يمكن أن يبقوا على ما هم عليه قبل خبرة معينة وبعدها . ولقد استعار البورت هذه الفكرة من الفيلسوف الاغريقى القديم هريقليطس الذى قال « لا شىء كائن ، لأن كل شىء فى صيرورة » وقال « انك لا تنزل النهر الواحد مرتين » وذلك بسبب التجدد المستمر لمياه النهر . ويصدق هذا على الشخصية فلها تنظيم ولها استمرارية داخل الفرد ، ولكنها تتغير دائما لتصير شيئا مختلفا .

الأجهزة النفسية الفيزيقية Psychophysical Systems

ان احتواء التعريف على الأجهزة النفسية الفيزيقية او الجسمية يذكرنا بأن الشخصية ليست عقلا خالصا وليست جسما واعصابا او نواحي فيزيقية صرفة ، ذلك أن تنظيمها واجهزتها تتضمن عمل كل من العقل والجسم في وحدة لا انفصام لها .

واحتواء التعريف على كلمة الأجهزة يعنى وجود نظام من العناصر المتفاعلة فى تبادل كالعادات والسمات وأساليب السلوك التى تشكل نشاطنا وتحدده .

تحـــدد Determine

يرى البورت ان الشخصية ليست تجريدا او خيالا ، وانما هى موجودة فعلا . « فالشخصية شيء وتفعل شيئا . ان الشخصية هى ما يكمن وراء الأفعال المحددة وداخل الفرد » (1937, p. 18) ويعتقد البورت أن الشخص ليس ببساطة مستجيبا سالبا ازاء البيئة . وانما يتولد سلوك الشخص من الداخل نتيجة لبنية الشخصية .

الطابع المميز فى السلوك والتفكير
Characteristic Behavior and Tought

لقد نقح البورت تعريفه للشخصية فى عام ١٩٦١ فاستبعد العبارة « التى تحدد للفرد تكيفه الفريد مع بيئته » ووضع مكانها « التى تحدد للفرد طابعه المميز فى السلوك والتفكير » .وقد فعل هذا لاعتقاده بأن العبارة الأولى اكدت على معنى البقاء وبالتالى اشباع الحاجات البيولوجية . ولكن التعديل الجديد تناول جميع انماط السلوك والتفكير سواء ما اتصل منها بالتوافق مع البيئة ، أو ما لم يتصل بهذا التوافق.ذلك ان احلام الفرد عن المستقبل على سبيل المثال لها من الأهمية ما لاشباع دافع الجوع ، ولكن علاقتها ضئيلة بالبقاء البيولوجى .

ولقد اكدت الصياغتان للتعريف على أهمية التفرد فى الشخصية ففى

تعريف ١٩٣٧ نجد كلمة « الفريد Unique » وفى تعريف ١٩٦١ نجد كلمة « المميز Characteristic » ولقد راينا ان اهتمام البورت بدراسة الأفـراد اكبر من اهتمامه بدراسة القوانين التى تحكم السلوك الانسانى ، وأن هذا الاهتمام يسود جميع اعمال البورت العلمية . وهو لا يمل القول « لا يتشابه شخصان » وعلى هذا فان الطريقة الوحيدة لنتعلم وندرس فردا هى بدراسة الفرد بعينه .

ويميز البورت بين المصطلحات الأربع الآتية : الشخصية Personality والخلق character والمزاج temperament والنمط type .

الخلـــــق :

لقد اغفلت هذه الكلمة البورت لانها تضمنت حكما خلقيا على الشخص، كان نقول خلق هذا الفرد حسن وخلق ذلك الفرد سيء . والخلق فى رايه هو الشخصية مقيمة ، والشخصية خلق غير مقيم . (1961, p. 32)

المـــــزاج :

يشير البورت الى المزاج والذكاء والجسم باعتبارها المواد الخام التى تتشكل منها الشخصية . وهى جميعا تتحدد وراثيا ويصف المزاج ويعرفه على النحو الآتى : « يشير المزاج الى تلك الظواهر التى تميز طبيعة الفـــرد الانفعالية ، والتى تشتمل على قابليته للاستثارة الانفعالية وقوة استجابته العادية وسرعتها ونوعية حالته المزاجية السـائدة ، وجميع الخصائص المميزة لتقلب هذه الحالة المزاجية وشدتها . وتعتبر هذه الظواهر معتمدة على التكوين الجبلى وبالتالى فانها من حيث المنشا وراثية الى حد كبير . » (1961, p. 34)

النمـــــط :

النمط فئة يمكن ان يصنف فيها شخص شخصا آخر . أى اننا نستخدم كلمة نمط حين نصنف الآخرين . فالأنماط اذن طرق لتصنيف الناس ووضعهم فى فئات . فاذا كان الشخص يتصرف على نحو عدوانى دائما ، فقد نقول أنه

من النمط العدوانى ، أى ان سلوكه يلائم هذه الفئة ، أما الشخصية فهى داخل الشخص تدفعه الى أن يسلك بطرق معينة . ونستطيع ان نقول أن الشخصية تولد العناصر السلوكية التى يمكن ان نصفها بالأنماط أو الطرز .

محكات نظرية الشخصية الجيدة :

لقد وصف البورت عام ١٩٦٠ م خمس خصائص اعتقد ان اية نظرية جيدة فى الشخصية ينبغى أن تتصف بها وهى كما يأتى : —

١ — ان النظرية الجيدة هى التى ترى أن الشخصية متضمنة داخل الشخص فالنظريات التى تفسر الشخصية فى ضوء الأدوار المختلفة التى تؤديها أو على أساس الأنماط السلوكية التى تستثيرها الظروف البيئية نظرية قاصرة . وبعبارة أخرى ينبغى أن تفهم الشخصية وان تفسر على أساس الميكانزمات الداخلية أكثر من تفسيرها وفهمها فى ضوء الميكانزمات الخارجية وواضح أن نظرية البورت تستوفى هذا المحك أو الشرط ، وهذا ليس غريبا .

٢ — النظرية الجيدة تنظر الى الشخص باعتباره مليئا بمتغيرات تسهم فى أفعاله . ان هذه العبارة اذا أضيفت اليها النقطة السابقة تظهر احتقار البورت للسلوكيين الذين افترضوا لأسباب منهجية ان الانسان كائن حى فارغ . وقد رأى علماء نفس المثير الاستجابة ان الطريق السليم لدراسة السلوك الانسانى هو القيام بتحليل وظيفى للمثيرات وظروفها والاستجابات لها . ولقد تفاخر هؤلاء العلماء من أمثال سكنر لأنهم درسوا الانسان ككائن حى فارغ . ولقد شعر البورت بطبيعة الحال ان هذا الموقف غير انسانى وغير مستساغ . وكتب قائلا « ان اى نظرية للشخصية تتظاهر بالكفاءة ينبغى ان تكون دينامية ، ولكى تكون دينامية ينبغى ان تسلم بوجود كائن حى ممتلىء على نحو حسن». (Allport, 1960, p. 26) ويلاحظ ان نظرية ألبورت تحقق هذا الشرط من شروط النظرية الجيدة .

٣ — النظرية الجيدة تبحث عن دوافع السلوك فى الحاضر بدلا من البحث عنها فى الماضى . وهنا نلاحظ ان البورت يعبر عن سخطه على

نظرية التحليل النفسى التى تبحث عن دوافع الراشدين فى خبرات الطفولة.
ووفقا لما يراه البورت قد يكون العصابيون سجناء ماضيهم وقد تكون طرق التحليل النفسى مفيدة فى معالجتهم ، ولكن دوافع الراشـدين الناضجين الأصحاء موجودة فى الحاضر . وفضلا عن ذلك فان الأصحاء الاسـوياء الراشدين على وعى بدوافعهم ويمكن أن يصفوها بدقة اذا طلب منهم ذلك .

«وحين نشرع فى دراسة دوافع شخص ، فاننا نحاول أن نتوصل الى ما يحاول هذا الشخص عمله فى حياته — بما فى ذلك بطبيعة الحال ما يحاول تجنبه وما يحاول أن يكون عليه. وانا لا ارى اى سبب يمنعنا من وجوب بدء بحثنا بأسئلة توجه اليه ليقدم لنا الاجابات كما يراها (Allport, 1960; p. 101)

وسوف نرى عند مناقشتنا للاستقلال الوظيفى أن البورت نظر الى دافعية الراشد باعتبارها منفصلة عن الخبرات المبكرة .

٤ — ينبغى أن تكون وحدات القياس التى تستخدمها نظرية الشخصية الجيـدة قادرة على أن تسـفر عن تركيب حى "living synthesis" ويرى البورت اننا لا ينبغى أن نضيع على الاطلاق سلامة الشخصية ككل . ذلك أن الانسان اكثر من مجموعة من الدرجات الاختبارية ، او الأفعال المنعكسة الشرطية . مهما كانت وحدات القياس التى تستخدم فى وصف شخص ، فانها ينبغى أن تكون قادرة على وصف شخصية كلية دينامية .

ان نقول احمـد خليل حصل على تقدير يضـعه عند المرتبة المئينية الثمانين فى متغير الذكورة — الأنوثة ، وانه يقع عند المرتبة المئينية الثلاثين فى الحاجة للانجـاز . ويقع عند المتوسط فى الانطـواء — الانبسـاط ، لا يسـاعدنا هذا القول على فهم شخصيته الا مساعدة متواضـعة . ولو اضفنا الى هذه الأبعاد تقديراته فى أبعاد أخرى كثيرة فان شخصيته كنمط تبدو صعبة الفهم والدراسة من قبل عالم النفس الذى يحاول تشخيصها ، لان الشخصية اكبر وأعمق من مجموع اجزائها .

ان نظرية البورت لم يغب عنها ان الشخص كل ، وان وحدة القياس التى تمكن من فهم الشخصية هى السمة .

٥ — سوف تفسر النظرية الجيدة الوعى بالذات تفسيرا سليما .

ان الانسان هو الحيوان الوحيد القادر على ادراك وعيه . وهذه الحقيقة ينبغى أن تدخل فى الاعتبار عند تفسير الشخصية وفهمها فهما سليما . وسوف نحاول أن نعرض لمحاولة البورت لمعالجة هذه المشكلة الصعبة عند تناول مفهوم الجوهر .

وواضح أن نظرية البورت تستوفى هذه المحكات الخمسة التى حددها كشروط للنظرية الجيدة فى الشخصية غير أن هناك منظرين آخرين لهم محكاتهم التى لا تستوفيها نظرية البورت .

مفهوم البورت عن السمة :

لقد رأينا أن البورت يعتقد أن النظرية الجيدة فى الشخصية هى التى تستخدم وحدات قياس قادرة على أن تسفر عن تركيب حى living synthesis ولقد كانت هذه الوحدة عند البورت السمة trait . ولكى يتوصل الى تحديد السمات المختلفة التى قد يحوزها الناس قام البورت وادبرت odbert عام ١٩٣٦ م بفحص ١٧٩٥٣ صفة استخدمت وما تزال تستخدم فى وصف أفراد الانسان وتحديد خصائصهم، وصنفت فى أربع فئات فتوزعت بين الاستعدادات الحقيقية ، والأنشطة الراهنة ، والمصطلحات التقويمية والمجازية ، وأسماء أخرى و مرادفات للسمات . غير أن البورت لا يسوى بالتأكيد بين السمات والأسماء ، لأن السمات من وجهة نظره تكوينات بيولوجية فيزيقية حقيقية . ويقرر البورت عام ١٩٣٧ م « أن السمة .. لها وجود أكثر من مجرد الوجود الاسمى، فهى مستقلة عن الملاحظة وهى موجودة هنالك بالفعل . ولا يعنى ذلك ان كل اسم لسمة يتضمن بالضرورة سمة ، بل يعنى أن وراء التعارض بين الحكام وبعيدا عن أخطاء الملاحظة الامبيريقية واختلافاتها لا يوجد ما هو أصدق من التكوينات العقلية فى كل شخصية لتفسير اتساق سلوكها » (p. 289)

ويعرف البورت السمة بأنها « بنية عصبية نفسية لها القدرة على استخلاص المثيرات المتكافئة وظيفيا وعلى المبادأة فى التوجيه المستمر

لأشكال متكافئة (على نحو له معنى متسق) من السلوك التوافقى والتعبيرى » (1961, p. 347)

والسمات تفسر الاتساق فى السلوك الانسانى ، لانه لا يوجد اثنان من البشر يمتلكان نفس السمات تماما وكل منهما يواجه الخبرات البيئية على نحو مختلف . فالشخص الذى يحوز سمة الود سوف يستجيب الى الغريب على نحو يختلف عن استجابة الشخص الذى يحوز سمة التشكك فى الآخرين والمثير فى كلتا الحالتين واحد ولكن الاستجابات مختلفة بسبب اختلاف السمات أو كما يقول البورت « ان النار التى تذيب الزبد هى نفسها التى تجمد البيض » (1937, p. 102)

وسمات البشر تنظم الخبرات التى يتعرضون لها ، وذلك لانهم يواجهون العالم على أساس سماتهم ، فاذا كان الناس فى أساسهم عدوانيين ، فانهم سوف يظهرون هذا العدوان فى مواقف كثيرة منوعة ومتفاوتة . وسوف توجه السمات سلوكهم لان الناس يستطيعون الاستجابة للعالم على أساس سماتهم . وهكذا فان السمات تنشىء السلوك وتوجهه .

وواضح أن السمات لا يمكن ملاحظتها على نحو مباشر وبالتالى فلا بد أن نستنتج وجودها . ويقترح البورت المحكات الآتية لافتراض وجود السمة : —

١ — تواتر تبنى الشخص لنمط معين من التكيف .

٢ — مدى المواقف التى يتبنى فيها الشخص نفس المنوال أو الاسلوب فى الفعل .

٣ — شدة ردود انفعاله فى المحافظة على نمط السلوك المفضل .

« ان الحدوث المتكرر للأفعال التى لها نفس المغزى (تكافؤ الاستجابة) تالية لمدى قابل للتحديد من المثيرات التى لها نفس المغزى الشخصى (تكافؤ المثيرات) هو الذى يجعل من الضرورى استنتاج وجود السمات والاستعدادات الشخصية personal dispositions وهذه النزعات ليست

نشطة فيجميع الأوقات ولكنها ثابتة ومثابرة حتى حينتكون كامنة ولها عتبات حسية منخفضة نسبيا ويسهل استثارتها . (1961, p. 374).

السمات ليست عادات Traits are not Habits

ذلك أن العادات أكثر تحديدا من السمات . وعلى سبيل المثال فانه قد يتوافر لدى فرد معين مجموعة من العادات ، مثل السواك قبل كل صلاة ، وارتداء ملابس نظيفة فى الصباح وتمشيط شعره ، وغسل يديه قبل الأكل وبعده وقص أظافره . غير أن هذا الفرد لديه هذه العادات لان لديه سمة النظافة . وبعبارة أخرى فان السمة عادات على مستوى أكثر تعقيدا وهى أكثر عمومية من العادة لانها تجمع عدة عادات تنتظم وتتسق معا . وينبغى أن يكون واضحا انه قد تظهر سمات متعارضة لدى الشخص الواحد كأن يكون نظيفا ومهملا أى أنه قد تصدر عنه افعال غير متسقة وتكون لديه عادات متضارية . وواضح أن السمة لها القدرة على اثارة السلوك وكذلك واختيار النمط السلوكى المناسب من بين عدة بدائل متاحة . وليس للعادات القدرة على السيطرة على السمات . ولكن السمات قد تحمل الفرد على اكتساب عادات جديدة متسقة معها .

السمات ليست اتجاهات نفسية Traits are not Attitudes

الاتجاهات النفسية كالعادات أكثر تحديدا ونوعية من السمات . فالشخص قد يكون لديه اتجاه نحو شخص آخر أو مؤسسة او جماعة ، اما السمة فهى أكثر عمومية من الاتجاه . وعلى سبيل المثال اذا كان الشخص عدوانيا فى الأساس فانه يسلك بعدوان نحو الغرباء والمعارف ، ونحو الحيوانات وازاء القضايا العالمية وما شابه ذلك . والتمييز الثانى بين الاتجاهات النفسية والسمات يتلخص فى أن الاتجاهات النفسية عادة تتضمن التقويم ، اى أن الاتجاهات عادة ما تكون مع شىء أو ضده ، اى انها اما أن تكون موجبة أو سالبة ، وتتضمن تقبل شىء او نبذه . اما السمات فانها مسئولة عن جميع الأنماط السلوكية والجوانب الادراكية او المعرفية سواء تضمنت تقويما أم لم تتضمنه .

السمات ليست أنماط Traits are not Types

يميز البورت بين السمة والنمط بمقدار اقتراب كل منهما من الفرد . فالانماط تكوينات نموذجية يضعها الملاحظ ويستطيع أن يحدد مدى التطابق بينها وبين الفرد ، ولكن قد يكون ذلك على أساس التضحية بهويته المتفردة . والسمة تعبر عن تفرد الشخص أما النمط فيقلل من هذا التفرد . وترتيبا على ذلك فان الأنماط فيما يرى البورت تمييزات بعيدة الشبه عن الواقع ، بينما السمات انعكاسات حقيقية لما هو موجود بالفعل . (هول ولندزى ، ص ٣٤٨) .

أنواع السمات :

يميز البورت بين السمات الفردية individual traits والسمات المشتركة common traits والسمات الفردية هى تلك التى يمتلكها فرد معين والسمات المشتركة هى تلك التى يشارك فيها عدد من الأفراد .

ويمكن وصف أى جماعة عن طريق تحديد سماتها . فيمكن على سبيل المثال أن نقول عن جماعة أنها ودودة وعن أخرى أنها عدوانية وعن ثالثة أنها ذكية . وبالمثل يمكن أن نصف أى فرد بواسطة سماته ، فنصفه بأنه ودود أو عدوانى أو ذكى . وحين تستخدم السمات لوصف جماعة نقول أنها سمات مشتركة ، وحين تستخدم لوصف فرد نقول أنها سمات فردية . وعلى الرغم من أن البورت أدرك وجود هذين النوعين من السمات الا أنه شعر بقوة أنه عند التنظير فى مجال الشخصية ينبغى أن يركز المنظر على السمات الفردية .

ولقد استعار البورت مصطلحين من الفيلسوف وندلباند W. Windelband وهما « الطريقة الايديوجرافية » أو الدراسة الفردية idiographic method والطريقة الناموسية أو الدراسة الجمعية nomothetic m. . والمقصود بالدراسة الايديوجرافية دراسة حالة واحدة دراسة مكثفة والبورت يفضلها على دراسة جماعات من الأفراد وتحليل المتوسطات . ولقد شعر البورت أن المتوسطات ليست الا مجرد تجريدات ، ولا تنطبق على أى حالة فردية

على نحو دقيق. وبعبارة أخرى لقد شعر البورت أن الطريقة الوحيدة لنتعلم ونعرف شخصا معينا هو أن ندرس ذلك الشخص ، لانه لا يوجد شخصان لهما نفس المجموعة من السمات بنفس الصيغة الكلية .

ولقد شعر البورت فيما بعد ، بعد أن تطورت نظريته ان استخدام نفس المصطلح لوصف الخصائص الجماعية والخصائص الفردية ادى الى الخلط . ولذلك فقد احتفظ بالمصطلح سمات مشتركة ليصف بها خصائص الجماعات وغير المصطلح سمة فردية ليصبح الاستعداد الشخصى . اما وقد قرر دراسة الاستعدادات الشخصية فانه قد بدا واضحا انه ليس لجميع الاستعدادات الشخصية نفس التاثير على الشخصية ، ولذلك المركزية فقد ميز بين الاستعدادات الأصلية Cardinal dispositions الاستعدادات Centeral dispositions والاستعدادات الثانوية Secondary dispositions

الاستعداد الأصلى أو السمة الأصلية :

هو استعداد مسبق وعام للسلوك . وله السيادة بحيث لا تستطيع الا نشاطات قليلة أن تتجنب تأثيره على نحو مباشر أو غير مباشر ، ولا يمكن لمثل هذا الاستعداد او السمة ان تبقى مختفية فترة طويلة من الزمن ، ويعرف بها الفرد ويصبح مشهورا بها . فحين يفكر الفرد فى مجنون ليلى فانه يتصور شخصا رومانسيا او حين يفكر فى حاتم الطائى فانه يتصور شخصا يسيطر الكرم على جميع تصرفاته وواضح ان السمات الأصلية يمكن ملاحظتها فى عدد صغير من الناس .

الاستعداد المركزى او السمة المركزية :

فكر فى شخص تعرفه معرفة وثيقة وتصور أنه قد طلب منك ان تكتب له خطاب توصية بأمانة . سجل الخصائص التى سوف تضمنها هذا الخطاب . ان هذه الكلمات التى اثبتها تصف استعدادات الشخص المركزية أو سماته المركزية وتلخص نواحى الاتساق فى سلوكه . وقد يكون من امثلة هذه السمات المركزية الابتكار ، والمثابرة ، والنظام والأناقة .

ويعتقد البورت أن كل شخص يمتلك عددا قليلا من هذه السمات المركزية «وان علم النفس حين يتوصل الى طرق تشخيصية مناسبة لاكتشاف الخطوط الأساسية التى تنتظم على أساسها شخصية معينة (الاستعدادات الشخصية) فقد يتضح أن عدد السمات المركزية يتفاوت ما بين خمس سمات وعشر » . (1961, p. 367)

الاستعداد الثانوى أو السمة الثانوية :

تنطبق السمة الثانوية على مدى اكثر تحديدا من المثيرات عن السمة الاصلية أو السمة المركزية . ان السمات الثانوية قريبة من العادات والاتجاهات ولكنها ما تزال أكثر عمومية منهما . وقد تشتمل هذه على تفضيل الفرد لانواع معينة من الملابس والأطعمة . وهكذا فان السمة الثانوية اقل اهمية فى وصف الشخصية واكثر تركزا من حيث الاستجابات التى تنشئها والمثيرات التى تلائمها .

وهناك فروق كبيرة بين السمات من حيث درجة تأثيرها الدافعى على الفرد . أى أن بعض السمات أكثر دفعا للفرد من غيرها . فالسمات تتفاوت فى توجيه السلوك وفى دفعه . ومن المعقول ان يسبق عمل السمة مثير خارجى ، أو حالة داخلية معينة .والفرد يبحث بنشاط عن المثيرات التى تتلاءم مع ممارسة السمة فالشخص الذى يتميز بسمة الحرص لا ينتظر الموقف الذى يلائم التعبير عن تلك السمة ولكنه يخلقها . (هول ولندزى ، ص ٣٥٢) .

وتميل السمة الى ان يكون لها مركز تمارس حوله تأثيرها . ولكن السلوك الصادر عنها يتأثر فى الوقت ذاته بالسمات الأخرى . ويحكم التداخل بين السمات الفردية ممارستها لوظائفها . ولعل هذا التداخل هو المسئول عن صعوبة تصنيف السمات . واذا كان لدى الفرد سمات متعددة ومتداخلة تعمل عملها فى نفس الوقت فمن المتوقع الا يكون الاتساق كاملا بينها . (هول ولندزى ، ص ٣٥٢) .

نمو الشخصية :

لقد رأينا أن البورت عرف الشخصية كتنظيم دينامي . وقد اعتقد أن الشخصية تتألف من بنيات بيولوجية وسيكولوجية كالاستعدادات الشخصية أو السمات . واذا كانت جميع جوانب الشخصية مستمرة ومنظمة ، فان ذلك يعنى وجود فاعل ينظمها . ولقد أطلق على هذا الفاعل فى القديم الروح ، ثم سمى فيما بعد الذات أو الأنا . ولقد رأى البورت أن هـــذه المصطلحات غامضة وأطلق على منظم الشخصية الجوهر The proprium ويشتمل الجوهر على جميع الحقائق عن الشخصية التى تجعله فريدا وقد عرف البـــورت الجوهر على النحو الآتى : —

« تشتمل الشخصية على هذه العادات والمهارات والأطـــر المرجعية والمسائل الواقعية والقيم الثقافية التى يندر أن تكون دافئة وهامة بل وقد لا تكون كذلك على الاطلاق . ولكن الشخصية تشتمل أيضا على ما هو دافىء وهام ، أى على جميع جوانب حياتنا التى نعتبرها خاصة بنا ، والتى اقترح فى الوقت الحاضر أن اسميها جوهرا . ويشتمل الجوهر على جميع جوانب الشخصية التى تحقق الوحدة الداخلية . (1955, p. 40)

وهذا التنظيم الداخلى والوعى بالذات أو بالنفس لا يكون موجودا عند الميلاد ، ولكنه ينمو ببطء مع الزمن . ولقد اعتقد البورت أن قيام جوهـــر الشخصية بوظائفه على نحو تام يميز المرحلة الأخيرة من مراحل النمو الثمانية المتتابعة التى تبدأ عند الميلاد وتستمر حتى الرشد .

١ — الاحساس بالذات الجسمية (السنة الأولى)

The Sense of the Bodily me

تتألف الذات الجسمية فيما يبدو من تيارات من الاحساســات تنبعث من داخل الفرد ، من الأحشاء والعضلات والأعصاب والمفاصـــل وغير ذلك من أجزاء الجسم الأخرى ونحن نخبر هذا التيار الحسى عادة على نحو غامض ، وكثيرا ما لا نشعر به بالمرة . ويحدث أن نجد متعة فى التدريب الجسمى وأن نشعر باللذة أو الألم الحسى . ويبدو أن الطفل لا يعرف أن هذه الخبرات

خبراته هو فى البداية ، ولكنها أساس ضرورى لاحساسه بذاته فالرضيع الذى يبكى مما يضايقه دون أن يعرف مصدره على التحديد ، تزداد قدرته على تحديد مكانه وادراك ان هذا الضيق والقلق ينتمى اليه (البورت ١٩٥٥ ص ٧٧ — ٧٨) . ولا يكون للاحساسات الداخلية أثر فى تكوين الذات ما لم تتكرر ؛ كما أن الاحساس بالذات ينمو من الاحباطات المتكررة التى تصدر عن العالم الخارجى ومن الخبرات التى يتعرض لها الطفل . (غنيم ١٨٣ — ١٨٥) .

٢ — الاحساس بهوية الذات (السنة الثانية)

The Sense of Self - identity

يبدو أن هذا الاحساس ينمو تدريجيا ، جزئيا نتيجة لما يرتديه الطفل من ملبس ولما يطلق عليه من اسم ولما يميزه عن البيئة التى تحيط به. والتفاعل الاجتماعى له اهميته فى هذا الاحساس فأعمال الآخرين التى يتكيف معها الطفل تكيفا مميزا هى التى تجبره على أن يدرك انه ليس هو الآخر بل كائنا حيا مستقلا . ويبدو أن الهوية الشخصية كما يدركها الطفل غير مستقرة حتى يبلغ سن الرابعة أو الخامسة .

٣ — الاحساس بتقدير الذات (السنة الثالثة من العمر)

The Sense of Self - esteem

يحاول الطفل فى هذه المرحلة أن يعمل بعض الأعمال بنفسه كتناول الأشياء واللعب ، والمشى فى أرجاء البيت لاستكشاف ما فيه وغير ذلك مما يناسبه فى هذا العمر ؛ فاذا واجه عائقا شعر بأن هذه الاعاقة موجهة لتقديره لذاته لانها تشعره بضعفه ولذلك ينتابه الشعور بالغضب . ويميل الطفل فى هذه المرحلة الى مخالفة أوامر الكبار والى كثرة استخدامه لكلمة « لا » فيما يتصل بطعامه وملابسه . ان الطفل فى هذه المرحلة يشعر بالاعتزاز حين يتعلم عمل الأشياء معتمدا على نفسه . ان الاطفال فى هذه المرحلة يسعون الى الاستقلال عن اشراف الكبار (غنيم : ص ١٨٦ — ١٨٧).

٤ — الاحساس بامتداد الذات (السنة الرابعة)

The Sense of Self - extension

ان الجوانب الثلاث التى عرضنا لها وهى الاحساس بالجسم وهوية الذات وتقديرها جوانب مبكرة فى الشخصية نسبيا وتغلب عليها الصبغة البيولوجية ولكن التعلم سرعان ما يؤدى الى تقدير الطفل لما يملكه ويحبه من اشياء ، وينبغى أن تكون أشياء لها أهميتها عند الطفل . فالطفل الذى يتوحد مع أبيه يوسع احساسه بذاته ، وهو يفعل شيئا من هذا القبيل حين يحب قطته أو يتعلق بدميته . اى أن ذات الطفل تمتد فى هذه المرحلة لتشتمل على الأشياء الخارجية الوثيقة الصلة به .

٥ — بزوغ صورة الذات (من الرابعة الى السادسة)

The Emergence of Self - image

ينمى الأطفال فى هذه المرحلة ضميرا يكون بمثابة الاطار المرجعى لذاته الخيرة ولذاته السيئة . ذلك انه عن طريق التفاعل مع الكبار ومع الأبوين يستطيع أن يقارن بين سلوكه الفعلى وتصرفاته وما هو متوقع منه ، فهو طفل كثير الحركة ووالداه يريدانه اقل حركة ، وهو عالى الصوت ووالداه يريدانه خفيض الصوت . اى أن لدى الأطفال فى هذه المرحلة ذاتا واقعية وذاتا مثالية اذا استخدمنا لغة كارين هورنى Horney . وخلال هذه المرحلة يبدأ الأطفال فى صياغة مرامى مستقبلية لأنفسهم .

(B.R. Hergenhahn 1980, p. 155)

٦ — نمو الذات المنطقية العاقلة (من السادسة الى الثانية عشرة)

The Emergence of the Self as a Rational Coper

فى هذه المرحلة يتبين الأطفال ان التفكير وسيلة للوصول الى الحلول الصحيحة لما يواجهونه من مشكلات فى حياتهم وللتكيف السليم . اى انهم يوفقون بين متطلبات الذات ومقتضيات الواقع . وقد يخفقون فى حل بعض المشكلات فيلجأون الى ابداء المعاذير والتبريرات حفاظا على الذات .

٧ — بزوغ الجوهر المميز المكافح (من الثانية عشرة الى المراهقة)

The Emergence of Propriate Striving

ما أن تدخل الشخصية فى مرحلة امتداد الآنا وتنمية صورة الذات ونمو الذات المنطقية العاقلة حتى يصبح من الضرورى افتراض دوافع ذات مستوى مختلف تعكس كفاحات موحدة ممتدة مميزة .

ان الكفاح الموحد يميز نفسه عن الأشكال الأخرى للدافعية بكونه مهما المت به الصراعات يعمل على توحيد الشخصية وهناك من الأدلة ما يبين أن حياة المرضى العقليين تتميز بفقدان الأجهزة الدفاعية المتجانسة . حيث تسيطر على الفرد دوافع منفصلة ووسوسات قهرية أو رياح الظروف فينتذ توحده الذى يتحقق حين يعمل الفرد على الابقاء على الاتجاهات الهامة الكفاح . ان وجود اهداف بعيدة المدى تعتبر مركزية لوجود الانسان الشخصى ، وتميز الانسان عن الحيوان ، والراشد عن الطفل ، وفى كثير من الاحيان تميز الشخصية السليمة عن المريضة .(نمو الشخصية ص ٩١) .

وغنى عن البيان ان تحقيق الأهداف البعيدة المدى يحتاج الى نضج فى الشخصية وتكامل قد لا يتوافر لدى المراهقين كافة ، فقد لا يكون لدى بعضهم اهداف واضحة متبلورة . وهؤلاء على الأغلب ذوو شخصيات غير ناضجة ، واحساسهم بذاتهم المميزة ما يزال قاصرا .

٨ — بزوغ الذات العارفة (الرشد)

The Emergence of the Self as Knower

وهذه هى المرحلة الأخيرة من مراحل النمو فيها تعى الذات الجوانب السبعة السابقة وتوحدها وتتسامى بها . وبعبارة أخرى فان الذات كعارفة تؤلف بين هذه الوظائف المميزة جميعا ولفظ الذات ممتدة مميزة أو جوهر Prorium يشير الى هذه الجوانب الثمانية المختلفة للذات .

ان الوظيفة المعرفية أساسية وهامة بالنسبة للذات لاننا لا نعرف أشياء فحسب بل اننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة

المميزة . انني انا الذى لدى احساسات جسمية . وانا الذى الاحظ هويتى من يوم الى آخر ، وانا الذى الاحظ وافكر فى توكيد ذاتى وامتدادها وفيما أبديه من تبريرات ، كما ارقب اعتمامى وكفاحى ؛ وهكذا أفكر فى وظائفى الخاصة الموحدة المميزة . واكاد ادرك وحدتها الأساسية واشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها . (البورت : نمو الشخصية ؛ ص ٩٥) .

الدوافـــع :

يرى البورت ان اكثر نظريات الدوافع تقوم على فرض اساسى مشترك هو ان الفرد يتجه الى التخلص من حالة الاثارة واستعادة التوازن ، اى ان السلوك يعمل على خفض التوتر ، وان هذا التوتر له اصوله فى اختلال التوازن العضوى ، وكلما ازدادت حدة الاختلال ازدادت الحاجة الى خفض التوتر . ونحن نتعلم اساليب لانقاص التوتر باقل قدر من الجهد أو الطاقة ، فاذا حققنا هذا الانتقاص للتوتر بنجاح ملنا الى اعادة نفس النمط من السلوك الخافض للتوتر عندما يختل توازننا الحيوى . وبعض النظريات تؤكد على الجانب السلبى اى انها ترى أن الدوافـــع تستهدف خفض التوتر ، وتجنب الألم ، بينما تؤكد نظريات أخرى على الجانب الموجب اى ان الدوافع تسعى للحصول على اللذة ، ويتشابه دعاة التحليل النفسى مع دعاة السلوكية فى انهم جميعا يرون ان السلوك يسعى الى الاشباع والحصول على اللذة .

والحق اننا نستهدف تحقيق التوازن فيما يتصل بالحاجة الى الهـواء والى الطعام . . . الخ من الحاجات الفسيولوجية ولكننا ايضا نسعى الى التنوع والتغيير . والنمو لا يتحقق الا بالتغيير . والطريقة التى تبدو ملائمة لخفض التوتر قد لا تصلح للمشاركة فى الكفاح الموحد المميز . والخاصيـــة المركزية للكفاح الموحد المميز دقة الهدف وبعده عن التحقيق . فالأب المخلص يظل مهتما دوما بابنه والمعتنق للديمقراطية يظل يتخذها نبراسا لـــه طـــول حياته فى علاقاته الانسانية ويظل العالم بطبيعة التزاماته يخلق لنفسه اسئلة تتزايد ولا تتناقص . والحق أن مقياس نضجنا العقلى كما رأى احـــد الفلاسفة ، هو قدرتنا على أن نشعر باشباع أو برضى يتناقص تدريجيا فيما

يتعلق بما لدينا من اجابات عن مشكلات تتزايد أهميتها تدريجيا . (البورت : نمو الشخصية ص ص ١١٣ — ١١٦) .

وهكذا يمكن القول أن الدوافع نوعان : دوافع خفض ، ودوافع نمو الأولى تتطلب خفض التوتر والثانية تتطلب الابقاء عليه للاهتمام بأهداف بعيدة . وهكذا تتميز صيرورة الانسان ونموه عن نمو الحيوان وصيرورته ، ويختلف نمو الراشد عن نمو الطفل . ودوافع النمو تعنى أن المثل العليا تكتسب متزامنة مع عملية النمو .

الاستقلال الوظيفى : Functional Autonomy

يرى البورت أن هناك أربعة شروط لنظرية الدافعية المناسبة : —

١ — انها ينبغى ان تراعى الطبيعة المعاصرة للدوافع . وكما اتضح مما سبق فان البورت لا يعتقد ان الطفل هو أب الرجل كما ذهب الى ذلك أصحاب التحليل النفسى . ووفقا لآراء البورت لكى يكون الدافع دافعا ينبغى أن يوجد فى الحاضر ، ومعنى هذا ان مسار الدوافع لا يتحدد نتيجة للجذور التاريخية ، ولا للأهداف المبكرة ، وانما يتحدد بالأهداف الراهنة .

٢ — ينبغى ان تسمح بوجود عدة انواع من الدوافع . لقد شعر البورت ان انتقاص الدوافع وردها الى عامل واحد كاختزال الحافز او الرغبة فى السيطرة ما هو الا نوع من الحمق ذلك ان الدوافع تبلغ من الاختلاف فى النمط درجة تجعل من الصعب ان تكتشف أصلها المشترك . (1961, p. 221)

هل اعداد مصيدة للفيران ووضعها فى بيت احدنا تعبر عن غريزة الموت عنده ؟ وهل الرغبة فى أن يصبح الفرد جراحا اساسها اندماج الحاجة الى الانجاز مع الحاجة الى السيطرة ؟ واذا تمسكنا بتعدد الدوافع فاننا لا نستطيع ان نقتنع او نرضى عن النظريات التى تستخدم الفار والطفل والعصابى نموذجا لدافعية الراشد . ونحن لا نستطيع ان نستخدم نموذجا دافعيا واحدا اذا أردنا ان نفهم دوافع الانسان السوى .

٣ — ينبغى ان تراعى اهمية العمليات المعرفية . لقد كان من المستحيل

بالنسبة لالبورت أن يفهم دوافع شخص فهما حقيقيا دون أن يعرف خططه وقيمه ومقاصده . ولقد شعر أن افضل طريقة لفهم بنية شخصية فرد معين أن نسأله : ما الذى تريد أن تعمله خلال خمس سنوات من الآن ؟ ولعل ألبورت من أبرز المنظرين فى مجال دراسة الشخصية الذين يؤكدون أهمية العمليات المعرفية فى فهم الدوافع .

ان كثيرا من المنظرين ينظرون الى التفكير والتخطيط والقصد كأدوات تساعد على اشباع الحوافز والحاجات او الغرائز . وبدلا من الفصل بين الرغبة والمعرفة يقترح البورت أن ندمجهما معا فى دافع واحد هو القصد ، اننا نستطيع أن نتعلم عن الفرد حين نعرف الى أين يقصد اكثر بكثير مما لو عرفنا أين كان . أن مفهوم القصد يحقق عدة اصلاحات ضرورية فى نظرية الدوافع لانه يحقق تكاملا بين الدافعية والتفكير،ويؤكد على الطبيعة المعاصرة للشخصية ويدل على التوجه نحو المستقبل ، هذا فضلا عن أن القصد أو العزم والتصميم يبعدنا عن مفهوم انقاص التوتر ويقربنا من العمل على الحفاظ على التوتر حتى نبلغ الأهداف المنشودة .

ينبغى أن نراعى أن كل شخص لديه نمط من الدافعية يتسم بالتفرد . واذا كان لا يوجد شخصان لهما نفس الصيغة الاجمالية من السمات ، فان هذا يصدق بالنسبة للصيغة الاجمالية للدوافع . ولقد اعتقد البورت أن السمات تنشىء السلوك وتخلقه ، ولذلك يمكن مساواتها بالدوافع . ولقد طرح البورت السؤال التالى : ما هى العلاقة بين وحدات الدافعية ووحدات الشخصية ؟ واجاب قائلا « اقترح أن تكون جميع وحدات الدافعية فى نفس الوقت وحدات شخصية » (1960, p. 118) والعكس ليس صحيحا .

ولقد قدم لنا البورت مفهوما دافعيا شعر بأنه يفى بالشروط الأربعة السابقة وهو الاستقلال الوظيفى « ويقرر هذا المبدا ببساطة ان اى نشاط معين أو شكل من أشكال السلوك قد يصبح غاية أو هدفا فى حد ذاته ، برغم حقيقة أنه قد بدىء فيه أصلا لبعض الأسباب الأخرى . وبرغم أن أى سلوك ، مركبا كان أو بسيطا قد يكون تابعا أصلا من توترات عضوية أو جزئية فانه قد يكون فى مقدوره اثبات نفسه على الدوام فى غياب أى تدعيم بيولوجى » (هول ولندزى (الترجمة العربية) ٣٥٤ — ٣٥٥) .

والاستقلال الوظيفى وهو على الأغلب اكثر مفاهيم البورت النفسية شيوعا يعنى ببساطة ان الاسباب التى تدفع الراشد الآن الى الانغماس فى بعض أشكال السلوك ليست نفس الأسباب التى أحدثته فى البداية . وبعبارة أخرى فان الدوافع الماضية لا ترتبط وظيفيا بالدوافع الحاضرة ويقدم لنا البورت المثال التالى : « فالتلميذ الذى يختار ميدانا للدراسة فى الكلية لانه مطلوب منه أن يدرسه ، ولان ذلك يدخل السرور على والديه ، أو لان مقرراته الدراسية تطرح فى وقت مناسب قد يجد نفسه فى النهاية منغمسا فيه طيلة حياته . وقد تنسيغ الدوافع الأصلية كلية . ان ما كان وسيلة لغاية يصبح غاية فى ذاته » (1961, p. 235)

لقد شعر البورت انه حين تصبح الدوافع جزءا من الذات المتمدة المميزة ، فان الفرد يسعى لاشباعها لذاتها وليس لحصوله على تشجيع خارجى أو مكافأة . ان مثل هذه الدوافع تدعم نفسها لانها أصبحت جزءا من الشخص. والقول بان الأصحاء من الراشدين يكافحون لتحقيق أهدافهم بقصد الحصول على التعزيز قول يدعو الى السخرية ، فلو فكرنا فى باستير: هل كان السعى للحصول على جائزة او للحصول على طعام أو نوم أو أسرة أو توفير ما يكفل سلامته الصحية هو اساس اخلاصه لعمله وبذله لذلك الجهد الهائل ؟ ان الدارس لحياته يتضح له انه لم يلق بالا لكل هذه العوامل لفترات طويلة من الزمن ، ناسيا نفسه فى حرارة البحث العلمى. فنجد نفس الولع والحماس فى تاريخ العظماء الذى لم يلقوا فى حياتهم الا القليل من التقدير والمكافأة على عملهم .

ولقد ميز البورت بين نوعين من الاستقلال الوظيفى :

١ — الاستقلال الوظيفى المداوم أو المستمر
Perseverative Functional autonomy

ويشير الى انشطة متكررة ينغمس فيها الفرد على نحو آلى ، وكانت تخدم فى الماضى غرضا وتحققه ولكنها لم تعد تفعل ذلك . وهذه الأنشطة تحدث دون أن تلقى اثابة وهى مستقلة عن الماضى ولكنها انشطة قليلة الأهمية . ومن امثلة ذلك الشخص الذى احيل الى التقاعد ومع ذلك يظل يصحو الساعة السادسة صباحا كل يوم .

٢ — الاستقلال الوظيفى الجوهرى

Propriate Functional autonomy

ويشير الى ميول الفرد وقيمه ومراميه واتجاهاته وعواطفه . ويرى ألبورت أن هذا النوع من الاستقلال الوظيفى محكوم بثلاثة مبادىء هى : —

(أ) مبدأ تنظيم مستوى الطاقة

The Principle of Organizing the Energy level

يقرر هذا المبدأ أن الفرد عندما لا يكون فى حاجة الى الاهتمام بأسباب البقاء والتكيف المبكر فى الحياة ، فانه يتوافر لديه قدر ملحوظ من الطاقة . ولما كانت هذه الطاقة فائضة عن متطلبات التوافق الأساسى ، فانه يمكن تحويلها الى الكفاح المميز الممتد نحو تحقيق المرامى المستقبلية مثلا .

(ب) مبدأ الاتقان والكفاءة The Principle of Mastery and Competence

هناك حاجة فطرية لدى الراشدين الأصحاء ليزيدوا فى كفاءاتهم وفاعليتهم وليطمحوا الى اتقان أعظم . وبعبارة أخرى فان الأصحاء وفقا لما يراه البورت فى حاجة الى أن يزداد تحسنهم فى أشياء أكثر فأكثر . وهذا مثال آخر للأخذ بخلق الدافع بدلا من الأخذ باختزال الدافع .

(جـ) مبدأ التنميط المتميز الجوهرى The principle of propriate patterning

ان الذات المميزة الممتدة هى الاطار المرجعى الذى يحدد ما يسعى الانسان لتحقيقه فى الحياة وما ينبذ . وهذا معناه ، انه على الرغم من أن الدوافع تصبح مستقلة وظيفيا عن الماضى ، الا انها لا تصبح مستقلة عن الذات المميزة الممتدة . وبعبارة اخرى ينبغى أن تتسق جميع الدوافع مع الذات ككل . وهذا يؤكد اتساق الشخصية وتكاملها .

ولا تحدث جميع العناصر السلوكية بطبيعة الحال نتيجة لدوافع مستقلة وظيفيا . ذلك أن قدرا كبيرا من السلوك الانسانى يستثار نتيجة للحوافز

البيولوجية ، والأفعال المنعكسة والتعزيز والعادة . أى أن الفرد لا بد أن يتبع دوافعه وحاجاته البيولوجية الى الهواء والنوم والطعام والشراب والاخراج . ولديه مجمعة من الأفعال المنعكسة وهى استجابات آلية لا تقبل الا تعديلات طفيفة فى ظروف معينة . ولديه مجموعة من العادات التى تعتبر أنظمة وسيلية تعمل فى خدمة الدوافع وهى ليست دوافع فى ذاتها . هذا فضلا عن أن انواع السلوك التى تتطلب تعزيزا أوليا تخرج من نطاق ما هو مستقل وظيفيا (غنيم : ص ٦٦٣ — ٦٦٤) ولقد أدرك البورت هذا ولكنه شعر أن السلوك الذى يخضع لسيطرة الدوافع المستقلة وظيفيا هو السلوك الذى له طابع انسانى بدرجة أكبر . ومن هنا يجب ان يكون محور اهتمام عالم النفس الذى يدرس الشخصية الانسانية .

التعـــــلم :

لقد أكد البورت على أهمية التعلم باعتباره عاملا من عوامل نمو الشخصية . ولقد أدرك أن التعلم متضمن فى الشخصية باعتباره شكلا من أشكال الدافعية . فتحقيق الذات يساعد على تقدم الانسان نحو أهدافه . وعلى الرغم من ان الحتمية الآلية، وتحقيق الذات يبدوان طريقين متناقضين . الا أن الانسان يتعلم عمل أشياء وتكوين شخصية بسبب هذين العاملين . ولقد قصـــد البورت بحديثه عن الحتمية الآلية ان يشير الى نظريـــات المثير — الاستجابة ، والاشتراط ، والعزيز ، فى مجـــال التعلم . وأراد بحديثه عن تحقيق الذات أو الصيرورة التقدم نحو المرامى والأهداف . فالانسان يتعلم ان يكون لديه شخصية ، وهو يفعل ذلك من خلال التمايز والتكامل .

ولقد استخدم البورت اللفظ جوهر proprium استخداما مكثفا باعتباره مصدر التعلم عن الذات والتوصل الى الشخصية . ان هذا الجوهر يمثل جوانب الشخصية التى تشكل معا فردية شخص معين وتضمن وحدته . أى ان هذا الفرد يسعى لتحقيق أهداف لينمى ما يريد ان يكون عليه ، وهو لا ينتظر بالضرورة لكى تبلور الظروف مرامى وأهـــدافا صـــالحة . ان الشخصية تخلق الظروف وتبحث عن الملابسات فى الحيـــاة التى تــــلائم أغراضها وتتسق معها . (L.J. Bischof, p. 296)

شخصية الراشد السليمة :

لم تكن نظرية البورت كما هو واضح ربيبة التحليل النفسى . ولم يعن البورت بالعلاج النفسي ولم يهتم بالمضطربين انفعاليا . ولقد شعر بقوة أن المبادىء التى تحكم الشخصية السليمة للراشد لا يمكن أن نتوصل اليها من خلال دراسة الحيوانات والأطفال والعصابيين، ولا بالنظر الى ماضى الفرد وتحليله . ويرى البورت ان الفرق بين الشخص العصابى والشخص السوى يتلخص فى ان دوافع الأول تقع فى الماضى بينما دوافع الأخير فى المستقبل .

ان اهتمام البورت بدراسة الأصحاء من البشر بدلا من دراسة العصابيين قريب مما نجد عند ماسلو الذى شعر بأن الاهتمام الزائد لعلماء النفس بالأفراد المضطربين انفعاليا كان عائقا حال دون فهم الأصحاء والبارزين . ولقد حاول ماسلو تصحيح هذا الموقف بدراسة حيوات اناس حققوا ذواتهم . وانتهى من هذه الدراسة الى قائمة من الخصائص لهؤلاء الأفراد شبيهة بقائمة الخصائص الآتية التى شعر البورت انما تميز الشخصية الناضجة السوية : —

١ — القدرة على تحقيق امتداد الذات

The Capacity for Self - extension

ويعنى ذلك ان حياة الفرد لا ينبغى أن تنحصر فى نطاق محدود وذلك بالانغماس فى الانشطة الضرورية لاشباع حاجاته الأساسية وواجباته المحدودة المباشرة . ذلك أن الأصحاء الناضجين يشاركون فى احداث ووقائع متنوعة وعريضة فلهم اصدقاء كثيرون وهوايات وأنشطة فى مجالات حياتية عديدة ، دينية وثقافية وعلمية .. الخ . ينبغى ان يكون للشخص الناضج اهتمامات حقيقية فى مجالات الحياة المختلفة غير اهتماماته وممتلكاته المادية . ان تركيز اهتمام الفرد الكلى على جسمه ودوافعه ومقاصده معناه أن يعيش أقرب الى الحيوان أو الطفل منه الى الانسان . ويتضمن هذا الامتداد للذات توجها نحو المستقبل وتخطيطا لتحقيق الآمال المعقودة عليه .

٢ — القدرة على التفاعلات الانسانية الدافئة

The Capacity for Warm Human Interactions

ان الاصحاء من الراشدين قادرون على تكوين علاقات وثيقة وحميمة مع الآخرين دون ان يتملكهم حقد أو غيرة . مثل هؤلاء الأشخاص يتميزون بالعطف كما يتضح من تقبلهم للفروق الأساسية بين الناس واختلافهم عنهم فى القيم والمعتقدات .

٣ — تتميز بالأمن الانفعالى وتقبل الذات

Demonstrates Emotional Security & Self - acceptance

يتميز الأسوياء من الراشدين بالسماحة التى تلـــزم ليتقبلوا ويتحملوا الصراعات والاحباطات التى لا يمكن تجنبها فى الحياة . كما أن لديهم صورة موجبة عن انفسهم . ويقابل هذا ما نجده عند الشخص الأقل نضجا الذى تمتلىء نفسه بالاشفاق على الذات ويتميز بصورة سلبية عن نفسه .

٤ — تتميز بادراكات واقعية Demonatrates Realistic Perceptions

ان الاصحاء من الراشدين يرون الأشياء على ما هى عليه ؛ وليس على ما يأملون ان تكون عليه . ومثل هؤلاء الأفراد يظهرون تعقلا حين يقدرون موقفا من المواقف وحين يعملون على التكيف معه ؛ ولذلك فانهم يقدرون على التصدى لمشكلات الحياة . انهم يعلمون الى اين هم ذاهبون وكيف يبلغون هدفهم .

٥ — تظهر الموضوعية نحو الذات

Demonstrates Self - objectification

ان الاصحاء من الراشدين لديهم صورة صحيحة ودقيقـــة عن نواحى قوتهم ونواحى قصورهم . انهم يفهمون الفرق بين ذواتهم الحقيقية وذواتهم المثالية . ويعرفون الفرق بين ما يعتقدونه عن انفسهم وما يعتقده الآخرون عنهم . ويرى البورت ان هناك مكونين اساسيين لتلك الخاصية وهمـــا الاستبصار والمرح humor ويقصد بالاستبصار قدرة الفرد على فهم نفسه .

ويشتمل الاحساس بالفكاهة وروح المرح على القدرة على الاستمتاع والضحك في المواقف المناسبة لذلك والمعتادة ، بل ويتعدى ذلك الى القدرة على الضحك عند اكتشاف التناقضات والسخافات التي تتعلق بالذات . ان هذه الروح تعني أن الفرد قادر على أن يضحك على ما يعتز به بما في ذلك ذاته . ومعروف أن الأفراد غير الواثقين من أنفسهم لا يستمتعون بالنكات التي توجه لهم ولآرائهم ويشعرون بعدم أمن شديد من جراء ذلك .

٦ — الشخصية الصحية لديها فلسفة موحدة للحياة

Demonstrates a Unifying Philosophy of Life

ان حياة الأصحاء من الراشدين مرتبة وموجهة نحو بعض المرامي المنتقاه . ولدى كل شخص شيء خاص جدا يعيش لاجله او مقصد هام يكافح لبلوغه .

ان البورت يشبه يونج واريكسون حيث يهتم اهتماما كبيرا بالدين واهمية الدين لا تتحقق الا في الرشد . ان البورت يعتقد ان جميع الراشدين الأصحاء لديهم حاجة الى توجه موحد ، وعلى الرغم من أن هذا التوجه عادة ما يكون دينيا في طبيعته الا انه ليس في حاجة الى ان يكون كذلك .

« لا يمكن أن تعرف الشخصية الدينية الناضجة على أساس مصادرها التجريبية العديدة ، فهي ليست عملية اعتماد على الأسرة وتكرار لحياتها ، وليست مجرد نمط ثقافي ، وهي ليست ببساطة امنا من خوف ، ولا هي بكليتها مذهبا عقليا من مذاهب الاعتقاد ، فالعاطفة الدينية مركب من هذه العوامل وعوامل أخرى عديدة ، تكون جميعها اتجاها نفسيا شاملا وظيفته ربط الفرد بالوجود بأجمعه ارتباطا له معنى » (نمو الشخصية : ص ١٥٤) .

« واذا تحدثنا حديثا سيكولوجيا ينبغي أن نبرز التماثل الوثيق الذي يوجد بين التوجه الديني وجميع الأطر العقلية العليا التي تؤثر في مسار الصيرورة . وكل انسان سواء اكان ذا نزعة دينية أم لم يكن كذلك له افتراضاته القبلية النهائية . وهو يرى انه لا يستطيع أن يحيا حياته بدونها ، وهذه الافتراضات القبلية ايديولوجيات ، أو فلسفات ، أو أفكار أو حتى

تضمينات عن الحياة لها تأثيرها الضاغط الخلاق على جميع ألوان السلوك التابعة لها (ويمكن أن نقول على جميع أنواع سلوك الانسان) »
(Allport, 1955, p.p. 95-96)

وقد رأى البورت أن التوجه الديني جزء من شخصية الراشد الصحية وهو يختلف فى ذلك عن أصحاب التحليل النفسى الذين رأوا غير ذلك .

البحوث وطرق البحث :

لقد فضل البورت المنهج الايديوجرافى (دراسة الحالات الفردية) على المنهج الناموسى أى الجمعى ومع ذلك فان معظم دراساته تندرج فى النوع الأخير . يقول البورت « سوف يصبح علم النفس أكثر علمية أى اقدر على التنبؤ حين يعرف كيف يتيم نزعات مفردة بجميع ما تحويه من تعقــد فى الجوهر ، وحين يعرف كيف ينبىء بطريقة معينة » ويدعم نفس الاتجاه حين يقول فى موضع آخر : طالما اقتصر علم النفس فى تناوله على الشموليات وليس الخصوصيات فانه لن يتناول الكثير وبخاصة الشخصية الانسانية .
(هول ولندزى ، ترجمة فرج وآخرين ، ص ٣٦٤) .

ان هذا التأكيد على تفرد كل شخص يلزم الباحث باختيار مناهج البحث التى لا تخفى تلك الفردية ، والتى تقدر على الكشف عن السمات الفردية لانها تحدد السلوك . والسمات هى الوحدات الحقيقية للشخصية التى تميز الشخص المفرد .

ولعل اساليب المزاوجة بالطريقة التى اخذ بها البورت وفرنون ١٩٢٣ فى دراستهما للسلوك التعبيرى من افضل المناهج التى تبرز الفردية . لان هذه الطريقة تعنى ان يفحص الباحث العلاقات دون أن يختصر البيانات الى وحدات تحليلية بغية المقارنة ، بحيث يمكن ان نقارن تاريخ الحياة بالانتاج الفنى . ولعل ظهور اسلوب Q للتصنيف على يد ستيفنس ١٩٥٣ والبحث فى الارتباطات بين السمــات داخل الفــرد الواحد Intra - individual الذى قام به أحد تلامذة البورت وهــو ا.ل. بالدوين ١٩٤٢ ، ١٩٥٠ يمثل تطورات منهجية تتيح للباحث دراسة الحالة الفردية بكفاءة أكبر عن ذى قبل
(هول ولندزى : ٣٦٥) .

المقاييس المباشرة وغير المباشرة للشخصية .

يتلخص موقف البورت في هذا المجال في النقاط الآتية : —

١ — الشخص المتكامل الواعي بدوافعه لا يفصح عن نفسه في الاختبار الاسقاطي وأن هذا الافصاح يحدث بدرجة اكبر عند العصابي الذي يخفي مخاوفه ويكبت كراهيته .

٢ — ان الطرق المباشرة في دراسة الشخصية وغير المباشرة تسفر عن طرق متسقة بالنسبة للفرد السوي .

٣ — أن الطرق المباشرة تقدم صورة عن بنية الفرد الدافعية اكثر اكتمالا مما تعطيه الطرق غير المباشرة هذا فضلا عن بساطة الطرق الاولى (هول ولندزي : ص ٣٦٧) .

التنبؤات العلميـــة :

ما مدى قابلية نظرية البورت عن الفرد للاستخدام وما مدى فائدتها ؟ وما هي البحوث التي اثارتها وادت اليها ؟ ان الاجابة اقرب الى ان تكون بالنفي . هل معنى هذا أن هذه النظرية لا قيمة لها . الاجابة أميل الى ان تكون بالنفي ايضا ولو أن الأمر مرهون بمعنى القيمة هنا .

لقد ذهب مادي Maddi في كتاب Wepman and Heine الى القول بأن نظرية البورت ونظرية هنري موري لم يحققا النتائج المعقودة عليهما من حيث قابليتهما للاستخدام كاطار للبحوث العلمية ، هذا على الرغم من أن كلا من النظريتين اثرت في فكر علماء نفس آخرين . ولقد انتهى الى هذا بعد ان قام ببحث مستفيض ودراسة للتراث السيكولوجي والبحوث التي اجريت في مجال الشخصية وقرر على التحديد أن هناك ندرة في البحوث التي صممت لاختبار صحة تنبؤات معينة اشتقت من هاتين النظريتين ، ولكن مادي مع ذلك يقرر انهما يمثلان جهدا أصيلا في مجال التنظير للشخصية . وفي نفس المصدر يقول وبمان وهين « انه يحتمل أن يكون مجال علم النفس في الوقت الحاضر متسع جدا ومعقد جدا بحيث يسمح بنوع التفسير العلمي المستبصر

والتأمل الذى يميز كتابات البورت ومورى . واذا كانا يمثلان آخر دعاة بناء النظرية الشاملة التى تميز النصف الثانى من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ؛ فقد احدثا تغييرا ستكون الخسارة فيه أكبر من الكسب وفى النهاية يرى مادى أن النظرية قد تفيد فى اثارة فكر الآخرين وتحملهم على أجزاء البحوث . ولكن هذه القيمة الاثارية لا تكون هامة ومشروعة ما لم يكن لها اسهام محدد باق لكى نفهم علم النفس باعتباره علما امبيريقيا وما لم يكن للنظرية قابلية سليمة للاستخدام وما لم نبرهن على أن لها مصداقية امبريقية ملحوظة. ويبدو ان نظرية البورت لا تفى بمتطلب القابلية للاستخدام وان كانت لها قوة التأثير .

واذا كان تواتر الاشارة الى النظرية فى كتب الشخصية محكا لقيمتها وتأثيرها . فان البورت يحوز قصب السبق . ولقد قام بيشوف L.J. Bishof بفحص ٢٤ كتابا فى الشخصية فوجد انها جميعا تحتوى اشارات لنظرية البورت لا تقل عن ثمانى فى الكتاب الواحد .

ويبدو أن هناك صعوبة فى ترجمة افكار البورت وتجسيمها فى بحوث منهجية معاصرة . وتتفاوت اسباب ذلك بين ما هو جوهرى وما هو هامشى . لقد اكد البورت على الطريقة الايديوجرافية ودراسة الحالة وهذا المجال لا ييسر التحليل الاحصائى للبيانات وبالتالى لا يجد مجالا للنشر فى المجلات العلمية فى سهولة . ولقد اهتم البورت بدراسة الأسوياء ، والأسوياء لا يمثلون الموضوع المفضل للبحث لدى كثير من علماء النفس ، كما انه كان اكلكتيكيا او انتقائيا وخاصة الجزء الأخير من حياته المهنية الأمر الذى اثار احباط كثير من علماء النفس . ولقد كتب البورت شأنه شأن مورى بكثرة عن قيمة المفاهيم الدينية للفرد وديناميتها ، وهذا المجال لا يثير اهتمام علماء النفس ذوى الاتجاه التجريبى . ولعل البورت نفسه اسهم فى اخفاقه فى توليد افكار قابلة للبحث ؛ ولعل عنوان مقاله عام ١٩٦٤ يتسق مع هذه الفكرة « ثمار الانتقائية : مرة أم حلوة ؟ » . . . ان المسألة المثارة ليست هى : اين تقع الديناميات الأولية للحياة الانسانية ؟ هل يعانى مريضنا من عدم توازن كيميائى حيوى أم من فقدان لاحترام الذات لا يستطيع تحمله ؟ قد يصدق أى من البديلين . ولكن العلم يتيسر له ان يعالج المشكلة عند المستوى الحيوى الكيميائى حيث يسهل ادراك العلاقة بين السبب والنتيجة .

ولعل البورت قد وجه قدرا كبيرا من البحوث على الرغم من أن قليلا منها يرتبط على نحو مباشر بنظريته وينبثق منها. ففكرته عن جوهر الشخصية وتأكيدها لكفاحها المميز المتد يرتبط بالبحوث التى أجريت عن الاحساس بالجسم أو هوية الذات ، وتقديرها وامتدادها والتناول العقلانى لمشكلات الحياة، وصورة الذات، وأى دراسة أو فحص لاى عدد من مجلة المستخلصات النفسية سوف يتبين ضخامة حجم البحوث التى تجرى فى هذه المجالات . ولكن يندر أن يعزى الفضل فيها الى تاثير نظرية البورت عن فردية الشخصية الانسانية .

ومقياس دراسة القيم اداة جديرة بالتقدير لانها استخدمت فى مجموعة كبيرة من الأبحاث وما يزال المقياس فى طبعته الثالثة عام ١٩٦٠ يستند الى الأنماط الستة عند سبرانجر وهى النمط النظرى والاقتصادى والجمالى والاجتماعى والسياسى والدينى .

لا يمكن القول ان البورت لم يكن على وعى بتحليل الشخصية وتقديرها. والحق انه تناول هذه المسالة فى كتابه « نمط الشخصية ونموها » Pattern and Grohth in Personality وحدد احد عشر أساسا لدراسة الشخصية وهى : —

١ — التشخيص الجبلى والفسيولوجى .

٢ — الوضع الثقافى والعضوية والدور .

٣ — الوثائق الشخصية ودراسة الحالة .

٤ — تقدير الذات .

٥ — تحليل السلوك .

٦ — مقاييس التقدير المتدرجة .

٧ — الاختبارات والمقاييس .

٨ — الاساليب الاستناطية .

٩ — تحليل العمق .

١٠— السلوك التعبيرى .

١١— الاجراءات الاجمالية .

وينتهى البورت الى القول بأنه لا توجد طريقة واحدة وحيدة لتشخيص الشخصية . ويرى مادى Maddi فى كتابه عن نظريات الشخصية عام ١٩٦٨ م أن الدراسات التى اجريت على محكات النضج وتقدير الذات ، وروح الدعابة والحركات التعبيرية تاثرت بفكر البورت وان هذا يصدق ايضا على عمل ماكليلاند عن تمايز الدوافع والسمات .

ويقد يضاف الى ما سبق خمسة مقترحات ممكنة فى هذا المجال : —

١ — اكد البورت عام ١٩٦٤ على ان الشخص يتقدم خلال حياته فى مراحل نمو متدرجة مشابهة للمراحل الثمانية عند اريكسون . فما هى العلاقة بين هاتين النظريتين ؟

٢ — فى ضوء عدم الاستقرار المعاصر فى انحاء مختلفة من العالم ، اليس من المناسب أن نفيد من كثير من المفاهيم التى قدمها لنا البورت عن التعصب ؟

٣ — هل ما يزال ما توصل اليه البورت وبرونر وجاندورة حين درسوا عينات ممن وقعوا ضحايا للاضطهاد النازى صادقا وهو « ان التغير الاجتماعى المأسوى يخفق فى تغيير اساليب التعبير الأساسية فى الشخصية » وهل يصدق هذا على الفيتكنج وعلى المواطنين الفيتناميين وعلى الفلسطينيين . وعلى غيرهم من الناس فى انحاء العالم الذين تحملوا فترات طويلة من المعاناة والعنف ؟

٤ — كان البورت يطالب فى الصفوف التى يقوم بتدريسها فى الدراسات العليا بجامعة هارفرد من طلابه أن يقوموا بتحليل « رسائل من جنى »

تحليلا يستند الى احدى نظريات الشخصية : أى على اساس التحليل النفسى عند فرويد ، أو عند ادلر او عند يونج. فى هذا الاطار النظرى ما مدى قيمة الطريقة الايديوجرافية فى دراسة ما كتبه الأفراد من رسائل أو يوميات ... الخ ؟ وهل هذا العمل جدير بما يبذل فيه من جهد .

٥ — وعلى الرغم من أن دراسة الحركات التعبيرية قد اصبحت جزءا من تاريخ علم النفس فيما يبدو ، فان بعض الباحثين ومنهم Turner ١٩٦٣ تيرنر قد وجد فى بحث للدكتوراه ان الحركات الجسمية (الركبة ، والذراع ، والقدم) لها قيم تنبؤية أعلى من معظم استخبارات الشخصية . وعلى الرغم من اننا جميعا نحكم احدنا على الآخر على أساس حركاته التعبيرية الا ان علم النفس المعاصر اعتبر هذا ماضيا ، ولعله من المناسب أن تعود مرة اخرى لدراسة هذا المجال وان نفيد مما عمله البورت وفرنون بهذا الصدد عام ١٩٣٣ .

(L.J. Bishof 1970, p.p: 315 - 318)

تقويم نظرية البورت فى الشخصية :

يمكن فى مجال تقويم البورت فى الشخصية ان نبرز ايجابياتها وسلبياتها . ومن أهم ايجابيات هذه النظرية ما يأتى : —

١ — تعتبر نظرية البورت بداية حقيقية للنظريات الانسانية فى الشخصية لانها أكدت على التفرد فى الشخصية . ولقد اعتقد البورت ان الدوافع الانسانية ليست بيولوجية فحسب فى طبيعتها ، وان الناس لديهم توجه نحو المستقبل ، وأن علم النفس ينبغى أن يكون له توجهات الاجتماعية .

٢ — ان فكر البورت يحتل مكانة هامة فى التنظير النفسى لانه يؤكد على مفاهيم ومشكلات لم تلق ما تستحق من عناية من قبل المنظرين النفسيين المعاصرين .

٣ — لالبورت تأثيره البارز فى اعادة الاهتمام بمفهوم الانا والذات وذلك لانه وضع هذا المفهوم فى سياقه التاريخى ، كما أبان الضرورة الوظيفية لاستخدام هذا المفهوم لفهم السلوك الانسانى السوى المعقد .

٤ — انه اكد على أهمية المحددات الشعورية للسلوك ودافع عن الطرق المباشرة لدراسة الدوافع والشخصية .

٥ — كان لالبورت تأثيره الواضح فى التقبل المعاصر لاعتبار الدراسة الفردية وتاريخ الحياة ودراسة الوثائق الشخصية من الأعمال العلمية . وقد نشر بعضا من هذه الدراسات فى مجلة علم نفس الشواذ وعلم النفس الاجتماعى التى رأس تحريرها :

Journal of Abnormal and Social Psychology

٦ — تأكيد البورت على الاهتمام بالمستقبل وعلى دراسة الحاضر واستبعاد الماضى نسبيا ، اعاد الى البحث النفسى قدرا من التوازن بسبب انتشار التحليل النفسى وعظم تأثيره فى الاهتمام بالخبرات الماضية فى حياة الفرد .

ومن اهم سلبيات نظرية البورت والتى اثارت النقاد ما يأتى : —

١ — لقد تعرض للنقد باعتباره غير علمى من حيث المنهج ، ذلك أن جميع العلوم تحاول الكشف عن القوانين العامة واستخدام الطرق الناموسية أو الجماعية وتأكيد البورت على الطريقة الايديوجرافية ودراسة الحالة الفردية دراسة مكثفة تبدو غير علمية . هـذا فضلا عن وجود عدد من العلماء المعاصرين الذين يعتقدون أن الفردية يمكن تفسيرها فى ضوء مبادىء عامة مناسبة .

٢ — ان فكرة البورت عن عدم الاستمرارية بين الحيوان والانسان وبين الطفل والراشد وبين السوى والشاذ مرفوضة من اغلب علماء النفس الذين استعاروا كثيرا من المفاهيم التى كشفت عنها دراسة الحيوان والطفل والشاذ وافادوا منها فى دراسة الانسان الراشد والسوى .

٣ — أن اهتمام البورت بالدوافع المقبولة اجتماعيا والشعورية ، وتقليله من اهمية الحاجات البيولوجية واللاشعورية جعله في موقف مخالف لما أسفرت عنه دراسات التحليل النفسى وما حققته من تقبل وذيوع فى الدوائر العلمية .

٤ — اهتم البورت بالعوامل الداخلية المسببة للسلوك اكثر من اهتمامه بالعوامل الخارجية . ومن هنا راى عدد من علماء النفس المعاصرين أن نظرية البورت تركز على تبادلية العلاقات فى السلوك ، ولا تلقى بالا الى تبادلية العلاقات بين السلوك والمواقف البيئية اى انه لم يهتم اهتماما كافيا بالمحددات الاجتماعية الحضارية للسلوك .

٥ — أن نظرية البورت قد تعرضت لنقد مؤداه انها لم تولد فروضا يمكن وضعها موضع التحقيق اثباتا ورفضا ، وهذه خاصية من خصائص النظرية الجيدة . اى انها لم تقدم لنا مجموعة من الابعاد التى يمكن على اساسها دراسة الشخصية ، والمنهج الايديوجرافى يعنى أن نبدأ من جديد عند دراسة كل حالة .

٦ — ولعل مفهوم الاستقلال الوظيفى من اكثر المفاهيم العلمية تعرضا للنقد ذلك لانه من المقبول لدى اغلبية علماء النفس انه لكى نفهم شخصية فرد ما لا بد أن نحدد علاقة شخصيته كراشد بخبراته المبكرة . وقد ذهب البورت الى أن مثل هذه العلاقة غير موجودة . ورأى أن دافعية السلوك توجد فى الحاضر وليس فى الماضى . ولقد هوجمت هذه الفكرة بسبب صعوبة تناولها تجريبيا .

وفى الختام لا يسعنا الا ان نقول انه ليس من شك فى ان نظرية البورت أسهمت فى ظهور علم النفس الانسانى المعاصر ، الذى اهتم بكرامة الانسان وبخلق الظروف الاجتماعية المثلى لنموه ويتضح هذا من عبارة البورت « أن علم النفس يعبر عن حقيقة حين يتناول التفرد ، اننا ندرس الانسان على اكمل نحو حين ندرسه كفرد . انه اكثر من حزمة من العادات واكثر من نقطة التقاء بين ابعاد مجردة ، وهو اكثر من أن يكون ممثلا لنوعه» .

ومواطننا فى دولة وحركة وسط حركات الجنس البشرى . انه يتسامى على هذا كله . فالفرد يكافح لتحقيق التكامل ونشدان الكمال . وقد وجد وما يزال فى ظل جميع أشكال الحياة الاجتماعية — وهى أشكال متنوعة من مجتمعات قبلية الى اقطاعية الى رأسمالية الى شيوعية . ولا يوجد مجتمع يبقى متماسكا لفترة طويلة ما لم يخدم الانسان ويظهر احترامه له ، ويكافح الفرد الآن حتى فى ظل القمع ، آملا دائما ومخططا لديمقراطية أكثر كمالا حيث تقدر كرامة كل شخصية ونموها على جميع ما عدا ذلك .

(Allport 1961, p. 573)

الفصل التاسع

ريموند ب كاتل

ولد ريموند فى ستافورد شاير بانجلترا عام ١٩٠٥م Staffordshire ويذكر أن طفولته كانت سعيدة ، ومليئة بالحيوية والنشاط فارتاد الكهوف ومارس السباحة والابحار. ويذكر أنه نشأ بينه وبين أخيه الذى يكبره بثلاث سنوات قدر كبير من التنافس . وحين اشتركت انجلترا فى الحرب العالمية الأولى كان كاتل قد بلغ التاسعة من عمره . وكان لهذا تأثير أساسى على حياته . وذلك ان رؤيته لمئات الجنود الجرحى يعالجون فى منزل تحول الى مستشفى قريب من مسكنه علمته ان الحياة يمكن أن تكون قصيرة وأن المرء ينبغى أن ينجز أكبر قدر يستطيعه من الانجازات خلال حياته وهذا الاحساس بالحماس للعمل والاقبال عليه كان يميز كاتل خلال حياته الأكاديمية .

ولقد التحق بجامعة لندن وهو فى السادسة عشرة من عمره حيث درس الكيمياء. وتخرج فى التاسعة عشرة من عمره حائزا على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف وكان ذلك عام ١٩٢٤ م . ولقد تزايد اهتمام كاتل خلال هذه السنوات بالمشكلات الاجتماعية ، كما تزايد وعيه بأن خلفيته فى العلوم الطبيعية لم تؤهله لمعالجة تلك المشكلات . ولقد أدى به هذا الى الالتحاق بمدرسة الدراسات العليا فى علم النفس فى جامعة لندن حيث حصل على درجة الماجستير ودكتوراه الفلسفة . ولقد عمل خلال تلك الفترة مع شارلز سبيرمان عالم النفس والاحصائى المشهور والذى ابتكر التحليل العاملى فى تحليل نتائج دراساته فى الشخصية على نحو مكثف .

وبعد ان حصل كاتل على درجة الدكتوراه وجد صعوبة فى العثور على عمل يتناسب مع اعداده الأكاديمى والمهنى ، فقبل القيام بعدد من الأعمال الهامشية . عمل محاضرا فى جامعة اكستر فى انجلترا فى الفترة ما بين ١٩٢٨ — ١٩٣١ م . وعمل مديرا للعيادة النفسية فى لايستر بانجلترا فى الفترة من ١٩٣٢ — ١٩٣٧ م . ولقد دعاه ادوارد ل . ثورنديك عام ١٩٣٧ للحضور الى الولايات المتحدة الامريكية ليصبح باحثا مشاركا فى جامعة كولمبيا . ولقد قبل كاتل دعوة ثورنديك وهو يذكر ان عامه الأول فى نيويورك كان مقبضا ، وقد شعر بالحنين الى انجلترا .

ومنذ عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٤١ شغل وظيفة استاذ كرس ستانلى هول لعلم النفس التكوينى فى جامعة كلارك فى وركستر ماساشوستس . ثم انتقل الى جامعة هارفرد عام ١٩٤١ وظل يحاضر بها حتى عام ١٩٤٤ م .

ولم يفقد كاتل حماسه بعد تخرجه من الجامعـــة فى تطبيق التحليل العاملى فى دراسة الشخصية . وفى سن الأربعين عام ١٩٤٥ عرض على كاتل وظيفة استاذ باحث فى جامعة الينوى ومديرا لمعمل الشخصية وتحليل الجماعة . ولقد كان انتاج كاتل العلمى فى هذه الفتـرة من عام ١٩٤٥ ـــ ١٩٧٣ م انتاجا ضخما لا يصدقه عقل .

ولقد تزوج كاتل مونيكا روجرز فى أول ديسمبر ١٩٣٠ ، وانجب منها أبنا أصبح جراحا فيما بعد . وتركته زوجته بعد سنوات قليلة بسبب فقرهما ، ولانه كرس حياته لعمله ، وتزوج مرة أخرى فى ٢ أبريل ١٩٤٦ وانجب من زوجته الثانية اربعة اطفال .

ولقد ذكرنا من قبل أن كاتل اعتقد منذ وقت مبكر من حياته أن المـــرء ينبغى أن يعمل بجد ولا يضيع وقته . ولقد نشر كاتل ما يزيد على ثلاثمائة مقال وعشرين كتابا ، وهذا معناه أنه كان ينشر فى المتوسط كتابا أو مقالا كل شهرين فى الخمسين سنة الأخيرة . والأمر لا يتوقف عند كم انتاجه ، ذلك أن الكيف لا يقل عن الكم . ولقد حقق نتيجة لعمله فى جامعة الينوى وفى معمل الشـــخصية وتحليل الجماعة شـــهرة عالميـــة كصاحب نظرية فى الشخصية .

وفى عام ١٩٥٣ كتب كاتل مقالا فى سيكولوجية الباحث فحصل على جائزة من اكاديمية نيويورك للعلم ، كما حصل على منحة دارون للبحـــوث التكوينية . ويتضح من المقالات والأبحاث التى نشرها فى المجلات العلمية الامريكية والبريطانيـــة والاسترالية واليابانية والهنـــدية والافريقية أن مجال اهتماماته العلمية متسع ومتنوع .

وفى عام ١٩٧٣ أسس معهد البحـــوث فى الخلق وتحقيق الذات فى بولدر كولارادو ليواصل عمله العلمى .

Institute For Research on Morality and Self - realization in Boulder, Colorado .

السلوك الانسانى :

أن هدف علم النفس ونظرية الشخصية هو صياغة القوانين التى تمكننا من التنبؤ بالسلوك فى ظل ظروف كثيرة . وتعريف كاتل للشخصية يقوم على التنبؤ « الشخصية هى تلك التى تتيح لنا تنبؤا بما سوف يعمله الشخص فى موقف معين »

(personality : A systemtic, Theoretical and Factual Study, 1950, p. 2)

ويؤكد كاتل على أن هناك متغيرات دافعية كثيرة ينبغى أن نحددها ونوضحها بعناية . وهو يدرك أن نظرية الشخصية ما تزال انتقالية أى فى مرحلة التكوين . وهو يعتقد ان أصحاب نظريات الشخصية المعاصرين قد أهملوا الجوانب الوراثية فى الشخصية الانسانية . وهو يؤكد فى بناء الشخصية على أهمية الخلفية البيولوجية والمحددات الاجتماعية . ولقد نما اهتمام كاتل بنظرية الشخصية وديناميتها من خلال البحوث المستمرة التى قام بها وما أسفرت عنه من نتائج ولم يصدر عن تفكير تأملى أرائكى .

ويشعر كاتل بقوة أنه اذا لم يكن فى الامكان قياس الشخصية تجريبيا والتعبير عن ذلك كميا فاننا ينبغى أن نطلق على ما نتوصل اليه فلسفة أو فنا ؛ ولا يمكن أن نطلق عليه نظرية فى الشخصية . وهو لا يقصد بالتجريب هنا تجريبا باستخدام أجهزة ومعدات معملية ، وقد بين ذلك فى ندوة عقدت فى كنتكى عام ١٩٥٤ م The Kentucky Symposium, 1954 (p. 109)

فقال « اننا ندع الوقائع تحدث فى الحياة ثم نعالج بالدقة الاحصائية ما لا نستطيع معالجته بالضبط التجريبى الصارم » وفى نفس الندوة يجادل مبينا أن علم النفس ينبغى أن يجيب على الاسئلة الصغيرة أولا قبل أن يحاول الاجابة على الاسئلة الشاملة . وقد تكون العيادة النفسية هى أفضل مكان لدراسة الشخصية ، ولكنها ليست أفضل مكان للتحقق من صحة الفروض التى تتنبأ بتغير السلوك ، لان طرقها ضعيفة ولا تلتزم بضبط المتغيرات فى القياس ولا بالتحليل الاحصائى الحاذق . وهناك فرق فى نظرية الشخصية بين ما هو مقبول اجتماعيا وما هو محترم علميا . وهكذا فان التغير الذى قد يطرأ على الشخص خلال العلاج قد يكون مقبولا تماما من قبل المجتمع ولكنه مع ذلك لا يمكن البرهنة عليه بأى ثبات علمى . وكاتل يتبنى موقفا قوامه :

الدراسة المركزة للشخصية والتى ينبغى أن تتم فى مواقف الحياة ، وبعد جمع الحقائق والبيانات ينبغى أن تعالج احصائيا وليس فلسفيا .

وقد كتب كاتل عام ١٩٥٧ مقالا عن « قائمة عامة أو فهرس للعوامل النفسية » A Universal Index For Psychological Factors

ودعى فى هذا المقال الى البحث عن رموز مقننة لوصف البيانات النفسية حتى نتوصل الى تحديد للمفاهيم وتطويرها . ويمكن أن تضع هذه القائمة لجنة تحدد معايير للبحث الدولى ، وأن تنشر هذه المعايير بحيث تتيح لكل دارس للعوامل المشتركة فى الشخصية أن يعمل مستخدما لهذا الاطار . ولقد اقلقت هذه الرغبة وهذا الحماس والسعى للوصول الى لغة مشتركة بعض الباحثين فى هذا المجال وخاصة ان كاتل نفسه استخدم فى البداية حروفا لتسمية بعض العوامل التى توصل اليها فى دراساته ، ثم مضى فى العشرين سنة الأخيرة الى بلورة مفاهيمه وتسميتها ، ثم تغيير هذه التسمية مرة ثانية .

بناء الشخصية :

يرى كاتل أن السمات هى وحدات بناء الشخصية. والسمة أهم مفهوم فى نظريته ولقد كرس معظم بحوثه التحليلية العاملية للبحث عن سمات الشخصية . ولقد كشفت هذه البحوث عن عدة فئات للسمات سوف نتناولها فيما يأتى : —

السمات الفريدة والسمات المشتركة

Unique Traits and Common Traits

يتفق كاتل مع جوردن البورت فى أن هناك سمات مشتركة يشارك فيها الأفراد جميعا أو جميع اعضاء بيئة اجتماعية معينة . وهناك سمات فريدة لا تتوافر الا لدى فرد معين ولا يمكن أن توجد لدى اى فرد آخر . بل أن قوة السمة تختلف عند نفس الشخص من وقت لآخر . والتحليل العاملى الذى يقوم على قياس كثير من المتغيرات وحساب معاملات الارتباط بينهما يسمى التحليل العاملى المتغيرات R - technique ، اما التحليل العاملى الذى

يتتبع قوة عدة سمات خلال فترة زمنية لدى نفس الفرد فيطلق عليه التحليل العاملى للشخص الواحد P - technique

سمات السطح وسمات المصدر Surface Traits and Source Traits

هناك نوعان أساسيان من السمات وهما سمات المصدر وسمات السطح . وسمات السطح هى تجمعات من الوقائع السلوكية الملاحظة وهى وصفية واقل استقرار وبالتالى فهى أقل أهمية من وجهة نظر كاتل . ومن ناحية أخرى فان سمات المصدر هى المؤثرات الحقيقية التى تساعد فى تحديد السلوك الانسانى وتفسيره . وسمات المصدر مستقرة وهامة جدا وهى المادة الاساسية التى ينبغى على علم نفس الشخصية أن يدرسها .

سمات السطح هى مجموعة من الملاحظات المرتبطة وعلى سبيل المثال فان الأشخاص ذوى التعليم النظامى الأكثر قد يذهبون لمشاهدة الافلام السينمائية اكثر ممن دونهم فى التعليم النظامى . ان هذه الملاحظة سطحية أى انها لا تفسر متغيرا من متغيرات الشخصية . انها عبارة عن خاصيتين من نوع ما ترتبط احداهما بالأخرى وارتباط هاتين الخاصيتين يمكن أن يكون له اسباب عديدة . أما سمات المصدر فهى أسباب السلوك . انها تشكل أهم جزء فى بنية شخصية الفرد وهى مسئولة فى النهاية عن جميع العناصر المتسقة فى سلوك الفرد وهكذا فان كل سمة سطحية مسببة ومعلولة لسمة أو اكثر من سمات المصدر ، وسمة المصدر يمكن ان تؤثر فى عدة سمات سطحية .

والبحث عن سمات المصدر عند كاتل يبدأ بقياس كل شىء يستطيع المرء أن يقيسه لدى مجموعة كبيرة من الناس ، ثم يحسب معامل الارتباط بين هذه القياسات وتحلل هذه الارتباطات . والتحليل العنقودى Cluster analysis لها يزودنا بمعلومات عن سمات المصدر .

وثمة طريقة اخرى لوصف الفرق بين سمات المصدر وسمات السطح وهى ان نقول ان الأخيرة دائما ما تكون مظاهر للأولى . ويمكن اعتبار سمات المصدر عناصر الشخصية من حيث أن كل ما نعمله يتاثر بها . وينتهى كاتل

الى القول بأن جميع الافراد يمتلكون نفس سمات المصدر ولكنهم يحوزونها بدرجات مختلفة. وعلى سبيل المثال فان جميع الناس لديهم ذكاء (سمة مصدر) ولكنهم لا يمتلكون نفس القدر من الذكاء . وتؤثر قوة سمة المصدر هذه لدى فرد معين فى كثير من الأشياء التى تتعلق به . فهى تؤثر على سبيل المثال فيما يقرأ وفيمن يتخذ من الاصدقاء وفى العمل الذى يتكسب منه عيشته وفى اتجاهه نحو التعليم الجامعى . وجميع هذه المظاهر الخارجية لسمة المصدر (الذكاء) هى سمات سطح ويمكن أن نسوق مثالا آخر يتعلق بالجـوع . فجميع ما يعمله الشخص كاستجابة للجوع كذهابه الى المتجر وشراء الطعام والعودة الى البيت واعداد الطعام وتناوله وهى كلها عناصر سلوكية قابلة للملاحظة وتتصل بتناول الطعام تمثل سمات سطح ، بينما حافز الجوع الذى سببها جميعا يمثل سمة مصدر. غير أن امثلتنا مضللة الى حد ما ، لانه يصعب أن نجد شيئا يعمله شخص يمكن أن يكون مسببا بسمة مصدرية واحدة .

وننتقل الآن الى اسهام من اهم اسـهامات كاتل واكثرها صـعوبة وتعقيدا فى مجال نظرية الشخصية . ان القائمة الآتية وهى قائمة سمات مصـدرية هى نتيجة لقدر هائل من التحليل العـاملى لبيانات جمعت عن الشخصية خلال خمس وعشرين عاما . واحدى صعوبات معالجة هـذه المادة،أن كاتل لم يسمى السمات فى المبدأ بل ميزها باستخدام حروف ابجدية وذلك لانه شعر بأن اللغة لا تجيد التعبير عن المفـاهيم السيكولوجية التى توصل اليها من التحليل العاملى لاداء الانسان . وعبر السنوات وضع لهذه السمات المصدرية اسماء وتعرض للنقد فعدل الاسماء تدريجيا لتصبح من التسميات المألوفة .

ولم يتوقف كاتل عند ادائه الماضى بل استمر فى استخراج سـمات مصدرية جديدة باستخدام تحليل عاملى واستخراج عوامل من المرتبة الثانية والثالثة . وعليك أن تتأمل السمات الأربع الأخـيرة التى اطلق عليهـا FQ 1, FQ 2, FQ 3, FQ 4, ولقد اطلقت على هذه اسماءنيما بعد. ويطلق كاتل على سمات المصدر العوامل الأولية فى الشخصية وباستثناءات قليلة فان هذه العوامل ثنائية القطب. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ ان كثيرا من المنظرين فى مجال الشخصية استخدموا مفاهيم ثنائية ولعل الاستثناء نجده عنـدا شلدن وهورنى اللذين استخدما مفاهيم ثلاثية .

قلنا أن كاتل انتهى بعد بحوث مستفيضة وخلال سنوات طويلة الى قائمة من السمات المصدرية وعددها ١٦ سمة . ويمكن أن نقارن بين الناس على أساسها . ولقد وضع كاتل مع سوندرز وستايس Saunders & Stice اختباره المشهور : « اختبار عوامل الشخصية للراشدين Sixteen Personality Factor Questionnaire (16 PF) بحيث يقيس سمات المصدر الست عشرة التى كشفت عنها البحوث . ولقد استخدمت نتائج هذا الاختبار فى المقارنة بين مجموعات كبيرة ومنوعة . ولقد استخدم هذا الاختبار على نطاق واسع للتنبؤ بالنجاح المهنى والأكاديمى .

ويتعرض من يقرأ كتابات كاتل ويحاول تتبع العوامل الأولية للشخصية للخلط فهو يطلق عليها اسماء مألوفة كالذكاء ، واحيانا يعطيها رقما U. I 16 وهكذا . وعندما قرر كاتل أن يرقم العوامل فى عام ١٩٥٧ م وفقا لما أسماه الفهرس العام أو العالمى The Universai Indcx ، كان أحد علماء النفس قد استخدم الأرقام الخمس عشرة الأولى فبدأ كاتل بالرقم ١٦ وما بعده .

وصف الأبعاد الست عشرة

العامل A (U.I. 16)

— الانطلاق أو السيكوثيميا	مقابل	— الشيزوثيميا
محب للناس، سهل المعاشرة		منعزل ، ناقد
اجتماعى ، صريح		بارد باعتدال — غير صريح

العامل B (U.i 17)

— الذكاء العام	مقابل	— الضعف العقلى
تفكير مجرد		تفكير عيانى
يقظ		غبى
صاحب خيال		جدب الخيال

العامل C (U.I. 18)

— الاتزان الانفعالي او قوة الأنا	مقابل	— عدم الاتزان الانفعالي
مستقر، يواجه الواقع، هادىء		اقل استقرارا
ناضج صبور		يسهل استثارته، غير صبور

العامل E (U.I. 19)

— السيطرة	مقابل	— الخضوع
مستقل ، عدواني		معتدل ، لطيف
عنيـــــد		مساير .

العامل F (U.I. 20)

— الانبساط	مقابل	— الاكتئاب والانقباض
المبتهج ، الحيوي المندفع		رزين ، جاد
المتحمس		صموت

العامل G (U.I. 21)

— قوة الأنا الأعلى	مقابل	— نقص المعايير الداخلية
مثابر ، رصين		يتجنب القواعد
ملتزم بالقـــواعد		يشعر بالتزامات قليلة

العامل H (U.I. 22)

— المغامرة والاقدام	مقابل	— الجبن
جرىء اجتماعيا ، ليس		خجول ، منسحب ، جامد
لديه كف تلقائي .		

العامل I (U.I. 23)

— الطراوة	مقابل	— صلابة العود
حساس انفعاليا ، مكتمل		النضج الصلب ، والاكتفاء
محمي حماية زائدة		الذاتي والواقعية

العامل L (U.I. 24)

ـ الميل الى الارتياب والشك في الآخرين	مقابل	ـ الاسترخاء الداخلي
معتد برأيه		الايثار المتسم بالثقة في الآخرين
يصعب خداعه		متوافق ، متحرر من الغيرة

العامل M (U.I. 25)

ـ مزاج اجتراري	مقابل	ـ واقعي
بوهيمي،مهمل للنواحي العملية		يقظ متمسك بالتقاليد مضبوط

العامل N (U.I. 26)

ـ الدهاء	مقابل	ـ السذاجة
عميق ، حذر		سطحي ، طبيعي
خبير بالحياة والناس ، ثاقب النظرة		عاطفي ، غر

العامل O (U.I. 27)

ـ الاستهداف للاثم	مقابل	ـ الثقة
عدم أمن متسم بالقلق		الثقة بالنفس
مكتئب ، منزعج		والصفاء والهدوء

العامل Q1 (U.I. 28)

ـ التحرر	مقابل	ـ المحافظة
ناقد ، متحرر ، محلل مفكر حر		يحترم الأفكار الثابتة

العامل Q2 (U.I. 29)

— الاكتفاء الذاتي والاستقلال مقابل — الافتقار الى التصرف الذاتي
يفضل قراراته،واسع الحيلة يساير الآخرين ويتبعهم

العامل Q3 (U.I. 30)

— قوة اعتبار الذات مقابل — ضعف اعتبار الذات
وارادة الضبط واستقرار الخلق
والانضباط الاجتماعي

العامل Q4 (U.I. 31)

— التوتر العصبي مقابل — عدم الاحباط ، والسكينة
والاحباط والاستثارة والبلادة

وبعض السمات المصدرية تتحدد وراثيا ويطلق عليها سمات المصدر الجبلية ، والبعض الآخر ينتج عن الخبرة ويطلق عليها السمات التي تشكلها البيئة اى أن الأولى تتحدد نتيجة للوراثة والثانية تتحدد نتيجة للبيئة والعوامل الثقافية .

سمات القدرة :

بعض سمات المصدر التي يمتلكها الشخص تحدد مدى فاعلية الشخص في العمل نحو هدف مرغوب فيه،ويطلق على هذه السمات «سمات قدرة». ومن اهم هذه السمات الذكاء . ولقد ميز كاتل بين نوعين من الذكاء : المتبلور والسائل . وهو يعرف الذكاء السائل بأنه هذا الشكل من أشكال الذكاء العام الذى يرجع الى حد كبير الى الفطرة ، والذى يتوافق مع جميع انواع المواد بغض النظر عن الخبرة السابقة ، اى ان هذا الذكاء المرن قدرة عقلية يتطلبها التكيف مع المواقف الجديدة . ويرجع بدرجة اكبر الى عامل الوراثة اكثر من الذكاء المتبلور.ويتوقف على الحالة الفسيولوجية العامة للفرد ويثبت نموه عادة في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ويميل الى النقصان مع تقدم الفرد في العمر .

ويعرف كاتل الذكاء المتبلور بأنه « عامل عام يظهر الى حد كبير فى نمط القدرات المتعلمة فى المدرسة ، ويمثل أثر التطبيق الماضى للذكاء السائل ، ومقدار التعليم المدرسى وكثافته ويظهر فى اختبارات مثل المقاييس اللفظية والعددية . (1965, p. 369) ويعتمد الذكاء المتبلور على البيئة وهو معرض للتذبذب ، كما انه يعتمد على مقدار التدريب وعلى اهتمام الفرد بالبيانات والحقائق . ويشعر كاتل أن الذكاء المتبلور قد يزداد وينمو حتى سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين وانه يثبت عند هذا السن . وقد يظهر زيادة منتظمة مع تقدم الفرد فى السن .

ويعتقد كاتل أن ذكاء الفرد يقدر فى معظم الأحوال باعتباره الذكاء المتبلور وذلك باستخدام اختبارات الذكاء التقليدية . ولكى يصحح هـذا الموقف وضع كاتل اختبار الذكاء العادل ثقافيا Culture - Fair Intellegence Test وقد صمم ليقيس الذكاء السائل .

ولقد اهتم كاتل منذ فترة طويلة منذ عام ١٩٥٣ بأثر الوراثة والبيئة على الذكاء ولقد فضل كاتل — اذا قورن بأيزنك الذى عمل على دراسة التوائم والمقارنة بين التوائم المتماثلة والتوائم الأخوية — تحليل التباين المتعدد حيث تناول متغيرات مستمرة فى دراسته للتوائم . وفى هذا النسق حاول أن يتوصل الى أربعة مكونات هى : —

— الفروق بين الأسر فى الوراثة .

— الفروق بين الأسر فى البيئة .

— الفروق بين الأخوة والأخوات داخل نفس الاسرة فى الوراثة .

— الفروق بين الأخوة والأخوات داخل نفس الاسرة فى البيئة .

وهكذا استخدم كاتل اسلوبا متطورا عما فعل أقرانه من العاملين فى مجال الشخصية .

ولقد أدت بحوث كاتل به الى الاعتقاد بأن ٨٠٪ من ذكاء الشخص يتحدد بالوراثة . وهو يشعر أن ما نسميه ذكاء ما هو الا استعداد عقلى

تحدد وراثيا بنسبة ٨٠٪ (وهو الذكاء السائل) وأن ٢٠٪ من ذكاء الشخص تتحدد من خلال الخبرة والتحصيل (الذكاء المتبلور) غير أن الأخير هو الذى تقيسه عادة اختبارات الذكاء وليس الأول .

سمات المزاج :

وهى خصائص الشخص التى تتحدد وراثيا وتحدد اسلوبه العام وايقاعه . ان سمات المزاج تحدد السرعة التى بها يستجيب الفرد للموقف والطاقة والانفعال . انها تحدد مدى مثابرة الشخص واعتداله فى آداب سلوكه ، ومدى قابليته للاثارة فسمات المزاج اذن سمات جبلية مصدرية تحدد انفعالية الشخص .

سمات دينامية :

وبينما نجد أن السمات الأخرى هى وحدات بناء الشخصية . فان السمات الدينامية تهيىء الشخص للحركة نحو بعض الأهداف وهى لذلك عناصر دافعية فى الشخصية ولقد حدد كاتل اربعة انواع من السمات الدينامية وهى الدفعة الفطرية ، وما بعد الدفعة الفطرية ، والعواطف والاتجاهات وسوف نتناول كلا منها على حدة .

الدفعات الفطرية : Ergs

الدفعة الفطرية تشبه الى حد كبير الغريزة. ان كلمة Erg جاءت اصلا من ميدان الفيزياء وهى فى أبسط تعريف لها « وحدة للطاقة » . وتعرف الدفعة الفطرية بأنها « استعداد فطرى نفسى جسمى يتيح لصاحبه اكتساب استجابية (انتباه وتعرف) لفئات معينة من الأشياء على نحو ايسر من اكتسابها بالنسبة لفئات أخرى ، كما يتيح له ان يخبر انفعالا معينا بالنسبة لها ، وأن يبدأ فى سلسلة من الأفعال تتوقف على نحو تام عند هدف معين اكثر من توقفها عند آخر مما يعزز السلوك المفضل للهدف المفضل »
(1950, 199)

واضح من التعريف السابق أن للدفعة الفطرية أربعة جوانب هى : ــ

١ ــ أنها تحدث ادراكا انتقائيا ، أى أنها تجعل الفرد ينتبــه الى بعض الأشياء ولا ينتبه الى أخرى . فالشخص الجائع ينتبه الى الوقائع التى ترتبط بالطعام أكثر من انتباهه الى ما ليس كذلك .

٢ ــ أنها تثير استجابة انفعالية نحو أشياء معينة ففكرة تناول الطعام فكرة ســــــارة .

٣ ــ أنها تثير سلوكا موجها نحو هدف ، فالشخص الجائع ســوف يعمل ما يلزم من أعمال ليحصل على الطعام .

٤ ــ أنها تؤدى الى استجابة نهائية . أى أنه حين يحصل الجائع على طعام سوف يأكله .

ولقد كشفت بحوث كاتل عن احدى عشرة دفعة فطــرية هى الجنس والخوف والحماية الوالدية وتأكيد الذات وحب الاستطلاع ، والنزعة الى التجمع ، والجوع والغضب ، ولوم الذات ، الاشمئزاز ، وخضوع الذات . وكاتل يستخدم لفظ دفعة فطرية للتخلص من الخلط اللغوى بين الغــريزة والحافــز .

الدفعات المكتسبة أو ما بعد الدفعات الفطرية Metaergs

الدفعة المكتسبة سمة مصدر دينامية تشكلها البيئة . أى انه فى حين تتشكل الدفعة الفطرية نتيجة لمحددات تكوينية ، تتشكل الدفعة المكتســبة نتيجة لعــوامل اجتماعية حضــارية . وتدخل فى هذه الفئــة الاتجاهات والعواطف . والعواطف هى : « بنيات سمات دينامية رئيسية مكتسبة تؤدى بأصحابها الى الانتباه الى موضوعات معينة أو فئات من الموضوعات ، وأن يشعر بها ويستجيب اليها بطريقة معينة » (1950, p. 161) ويعتقد كاتل أن العواطف تتركز عادة حول : المهنة ، والرياضة ، والدين ، والوالدين ، والزوج والذات . والاتجاه النفسى أكثر تحديدا ولكنه مشتق من العاطفة ،

وهذه بدورها مشتقة من الدفعة الفطرية . والاتجاه النفسى كما يراه كاتل هو ميل الى الاستجابة بطريقة معينة فى موقف معين لشىء أو واقعة معينة. (1957, p. 444)

التبعيـــة : Subsidiation

نتوقع من دراسة السمات المترابطة وجود هدف نهائى للفرد ، يتوصل اليه من خلال سلسلة من الأهداف التابعة أو الأداتية ، وتعد السمات التى تتصل بهدف أولى تابعة للسمات التى تتصل ببلوغ هدف نهائى . وهكذا يمكن التمييز بين الدفعة الفطرية والعاطفية والاتجاه بالرغم من كونها جميعا سمات دينامية منحيث انالاتجاهات تابعة للعواطفوالعواطف تابعة للدفعات الفطرية . ويقترح كاتل لتوضيح هذا التعقيد استخدام الشبكة الدينامية dynamic lattice ويمكن توضيحها برسم بيانى يبين الممرات التى تربط بين اتجاهات معينة من اليسار مثلا الى موضوعات معينة على مستوى العاطفة فى الوسط ونحو أهداف دفعات فطرية فى الطرف الآخر . وهكذا يمكن ان يكون الموضوع المعين تابعا لعدد من الدفعات الفطرية ، والعديد من الاتجاهات تابعة للموضوع . (Hergenhahn, pp. 173 - 181)

ويندر أن يشبع الفرد رغباته الفطرية على نحو مباشر ، اى انه يشبع هذه الدفعات الفطرية بطرق غير مباشرة . فقد ينمى الانسان مهاراته ليحصل على عمل وذلك لكى يتزوج وينشىء أسرة ، أو ليعول أسرته الأصلية ويطلق كاتل على الاشباع غير المباشر للدفعة الفطرية الدوران الطويل Long - circuiting ويمكن ان نرى أيضا أن كل عاطفة وظيفة لعدد من الدفعات الفطرية او تابعة لها . فالعاطفة نحو الزوجة تعكس فيما يبدو الجنس ، والنزعة الى التجمع ، والحماية وتاكيد الذات. ان الشبكة الدينامية تدل على ان الاتجاهات النفسية والعواطف والنزعات الفطرية يتفاعل بعضها مع البعض الآخر باستمرار وتعكس الظروف الحاضرة ، كما تعكس اهداف الفرد المستقبلية .

ولقد أمكن بحث البناء الدينامى الذى عرضنا لعناصره الأساسية باستخدام ما حدث من تقدم فى القياس الموضوعى لقوة الدافعية . لقد

استطاع كاتل بقياسه للاتجاهات أن يبين باستخدام أدوات موضوعية وجود عوامل دافعية مصدرية واتجاهات ذرية تتبع هذا النمط . ففي ظل هذه الشروط أرغب بقوة أن أفعل هذا مع ذلك ، وهكذا فان كلا منهما يشتمل على خصائص الباعث أو الشروط الموقفية ، والكائن الحي ، والشدة التي يمكن قياسها ، والنشاط الموجه نحو الهدف ، وموضوعات الهدف .

وتستخدم الاختبارات الموضوعية للدافعية المبادىء التجريبية . ولقد درس كثير من الباحثين في مجال الدافعية المفاهيم الأساسية التي توصل اليها كاتل ومن أمثلتها : المعلومات المتفاضلة ، والذاكرة الانتقائية، والانشغال بالذات autism والاسقاط ، والادراك الانتقائي والانتباه الانتقائي . ولقد أمكن التوصل الى أكثر من ستين طريقة وأداة موضوعية درست دراسة مستفيضة تقيس التغير الظاهر الذي يطرأ على الفرد والذي يمكن أن يعزى الى المثيرات الباعثة التي يتعرض لها . وقد أظهر تحليل هذه القياسات أن الانماط الأساسية للتعبير عن الدافعية مطردة نسبيا ، بغض النظر عن الخصائص النوعية لموضوع الهدف . ولقد أمكن التوصل الى سبعة عوامل عند تحليل أدوات القياس التي تقيس بنفس الطريقة وتندرج في الفئات الآتية : الهو ، والأنا ، والأنا الأعلى وبعض المكونات الأخرى لم ترد في فكر فرويد . وغني عن البيان أن التوصل الى اطار نظري يتيح لنا قياس الدافعية على مستويات مختلفة له أهمية عظيمة ويضع نظرية كاتل واجراءاته في مستوى مختلف عن مستوى القياسات الأخرى المستخدمة من قبل آخرين .

وكاتل يشير الى البيانات الدافعية التي ترتبط باتجاهات الهدف كعوامل دينامية . وهذا يعني انها تتأثر بالضغوط البيئية والشروط الباعثة . وقائمة هذه الدفعات الفطرية والعواطف لن تبدو مختلفة كثيرا عن غرائز مكدوجال وحاجات موري والفرق الحقيقي نجده في أن هذه الأبعاد قد تم اكتشافها أمبيريقيا ، وهي قابلة للقياس على نحو متكرر . فالدفعة الفطرية للمقاتلة التي نجدها لدى الراشدين والأطفال تسهم بدرجة كبيرة في تباين اتجاهات مثل « أريد وطني ان يهزم اعداءه » « أريد أن اضرب كل الأطفال الذين يخلقون لي المتاعب » ، « اريد أن اشاهد أفلاما اكثر عن العصابات وقطاع الطرق » .

وقد كشف التحليل العاملى عن ١٨ دفعة فطرية وعاطفة لدى الأطفال وثلاث عشرة لدى الراشدين. وتبدو الدفعات الفطرية أساسية وأولية بدرجة أكبر وترتبط بدرجة أكبر بالأنشطة الفعلية المرتبطة بالهدف كتناول الطعام والنوم والعراك وهلم جرا. أما بنيات العاطفة فتتألف من اتجاهات لها نفس الهدف والموضوع والتى ثبتت فائدتها خلال فترة طويلة من الزمن لاشباع كثير من الدوافع الأولية المتفاوتة. وهذه الدوافع الأولية تشتمل على الدين والوطنية والمحبوب، والذات والوالدين وهكذا فقد ربط البعض بين العواطف والوسائل، وبين الدفعات الفطرية والحاجات الأساسية .

ويسهل الانغماس فى فوضى المصطلحات فى هذا المجال . وهذا هو السبب الذى دفع كاتل على نحو قصدى الى تحديد نسقه على نحو متمايز عن الآخرين مستهدفا أن تكون تصوراته منظمة وفى نسق. وهو يعتقد أن الدفعة الفطرية للحماية لو كانت تقيس نفس التباين الذى تقيسه الحاجة للعطف n. nurturance عند موري لكان طريق العلم أيسر . غير أن هذا لا يصدق بالضرورة على قياس هذين المفهومين كل فى نسقه الخاص .

أن هذا العمل الأساسى فى الدافعية يفسح المجال للقياس . وهذا عمل جوهرى من متطلبات علم النفس الكلينيكى وعلم النفس الصناعى، ذلك أن القياس فى مجالات الكبت والصراع والاتجاهات داخل الأسرة والاتجاهات المهنية كلها فى مراحل مختلفة من حيث النضج والتطور وصولا الى نسق . (Bischof, pp. 467-468)

الـــــذات :

ويعطى كاتل لمفهوم الذات مكانة هامة فى نسقه، ويتحدث عن عاطفة الذات التى تضفى استقرارا على سمات المصدر كما تضفى عليها درجة عالية من التنظيم . وعلى ذلك فان قيام أى سمة مصدرية دينامية بعملها سوف يتطلب قدرا من المشاركة من عاطفة الذات . وسوف ترتبط درجة يسر تعبيرها عن نفسها بمدى اتساقها مع الذات وهناك بطبيعة الحال سمات تنفصل عن الذات ويغلب أن تعبر عن العصاب والحالات المرضية . وكاتل يتحدث عن ثلاثة جوانب فيما يتصل بالذات هى عاطفة الذات والذات الواقعية والذات

المثالية . والمقصود بعاطفة الذات اهتمام الفرد بذاته المتطورة ، ويقصد بالذات الواقعية الفرد كما يقر بذلك فى اكثر لحظاته منطقية ، والذات المثالية هى الفرد كما يود أن يكون اذا توافرت له كل الأشياء وكل السلطة . ولقد كان أمل كاتل فى بحوثه الكثيرة أن يدرس الشخصية الفريدة حين تلتقى وتواجه موقفا فريدا .

الـــدور :

ويتناول كاتل مفهوم الدور ولعبه ويرى انه لغز على علم النفس أن يتصدى لحله . والسؤال الذى يطرحه هو : هل التغير فى الادراك الذى يولد تغيرا فى الفعل حين يبدأ الفرد فى أداء دوره يرجع الى تغير فى المؤشرات الموقفية أو الى تغير فى البنية الأساسية للشخصية ذاتها .. وهكذا فانه يقول : هل يرى الفرد فعلا الموقف مختلفا ؟ أم أن الفرد يغير فعلا موقف الدور ؟ وهو بصفة عامة ينتهى الى القول بأن هذين النوعين من التغير يحدثان ، ذلك أن القيام بالدور يغير الفرد كما أن الفرد يغير الدور .

معادلة التخصيص The Specification Equation

يهتم كاتل بالأسوياء من الناس فى الأساس . وهو مهتم بالقدرة على التنبؤ بالكيفية التى يستجيب بها الناس للمواقف المختلفة بقدر ملحوظ من الدقة . وكاتل يؤمن بالحتمية فى تنبؤاته . اى انه يعتقد أن السلوك وظيفة ونتيجة لعدد محدود من المتغيرات،واذا عرفنا هذه المتغيرات معرفة تامة فاننا نستطيع أن نتنبأ بالسلوك بدقة تامة . ولكن كاتل وغيره ممن يؤمنون بالحتمية يدركون انه لا يمكن معرفة جميع المتغيرات التى تؤثر فى السلوك ولذلك فان التنبؤ بالسلوك سيظل دائما احتماليا . ومتى ما ادركنا هذا فان كلما ازدادت معرفتنا بالمتغيرات التى تؤثر فى السلوك الانسانى ، ازدادت دقة تنبؤاتنا به . ويرى كاتل أن هذا يصدق ايضا فى مجال بحوث الشخصية ، فكلما أزدادت معرفتنا عن السمات المختلفة للشخص ، ازدادت قدرتنا عن التنبؤ بسلوكه .

ويمكن بصفة عامة ان نعبر رمزيا عن موقف كاتل فى هذه المسالة على

النحـو الآتى : اسـتجابة الشخص = وظيفة (الشخصـية والموقف)

$$R = F(P, S)$$

حيث .

R = استجابة الشخص .

P = شخصية .

S = الموقف .

وبعبـارة أخرى ان سلـوك الشخص مـا هو الا وظيفة أو نتيجـة للشخصية والموقف الذى توجد فيه .

وواضح أن هذه المعادلة تبسيط زائد لوجهة نظر كاتل . لاننا اذا أردنا أن نتنبـأ بدقة بـأداء الشخص ، فاننا لابد نحلل العناصر التى تدخـل فى الشخصية ، بتفصيل أكبر . ومعروف أن شخصية الفرد عند كاتل هى جميع السمات التى يمتلكها ذلك الفرد.وهكذا لا بد أن نضع فى المعادلة مقياسا لكل سمة من سمات الشخصية . وسوف تتفاوت أهمية سمات الشخص من موقف الى آخر ، ولذلك لابد من تحديد وزن كل سمة فى كل موقف . ونطلق علـى هذا التحديد تشبع السمة بالعمل.وهناك ظروف مؤقتة قد تؤثر فى السلوك فى أوقات معينة بالاضافة الى السمات المستقرة . وعلى سبيل قـد يكون الشخص مريضا أو متعبا . وبالمثل فان مواقف معينة قد تتطلب من الشخص أن يلعب دورا ، وهذا الدور يؤثر فى السوك تأثيرا كبيرا . ويطلق على هذه الحالات الجسمية المؤقتة كالتعب والمرض والقلق والأداور الاجتماعية المطلوب أداؤها المتغيرات الموقفية Situational modulators لانها تغير التعبيرات السلوكية .

ويتضح الآن أن التنبؤ بسوك شخص عمل معقد ، لاننا اذا أردنا أن نتنبأ بسلوك فرد معين فى موقف معين فانه ينبغى علينا ان نعرف سمات هذا الشخص ، ومدى أهميتها فى هذا الموقف المعين ، وحالته الجسمية الراهنة، والادوار التى عليه أن يلعبها فى هذا الموقف . وتصبح المعادلة العلمة التى سبق أن عرضنا لها أكثر تحديدا وتفصيلا ويسميها كاتل بمعادلة التخصيص .

$$Pj = sj_A A \cdots + sj_T T \cdots + sj_E E \cdots + sj_M M \cdots + sj_R R \cdots + sj_s S$$

حيث : —

Pj = الأداء فى الموقف

A = سمات القدرة .

T = سمات المزاج .

E = توترات الدفعة الفطرية الراهنة .

M = العواطف والاتجاهات .

R = الأدوار التى يتطلبها الموقف .

S = حاجات الجسم المؤقتة كالتعب والمرض والقلق .

Sj = الوزن أو التشبع Loading الذى يبين اهمية كل ما تقدم من مؤثرات فى الموقف

فاذا اردت ان تعرف كيف يستجيب الشخص الى موقف معين ، فعليك أن تكتب قائمة بسماته وأن تقدر وزن كل منها واهميتها بالنسبة للموقف . وعلى سبيل المثال فاذا كان الفرد يواجه موقفا يتطلب حلا ، فان سمة القدرة (الذكاء) سيكون لها وزن كبير . فاذا فعلنا هذا بالنسبة لكل سمات الشخص وادخلنا فى اعتبارنا المتغيرات الموقفية ، فاننا نستطيع أن نتنبأ بسلوك الشخص فى هذا الموقف بدرجة كبيرة .

(Hergenhahn, pp. 185-186)

نمو الشخصية :

من الممكن دراسة نمو الشخصية عند المستوى الوصفى البحت وذلك بتحديد معالم التغير فى بناء الشخصية فى مراحل الحياة المختلفة . ويمكن ان يدرس النمو على المستوى النظرى فى ضوء المؤثرات الوراثية والمؤثرات البيئية فى هذا النمو ، وفى ضوء قوانين النضج والتعلم التى تصف التفاعل بينهما واثره فى تشكيل الفرد النامى ، ولقد قام كاتل بهذين العملين .

ولقد درس كاتل واعوانه المزاج والسمات الديناميسة وذلك باستخدام التحليل العاملى على مستوى الراشدين ومستوى الأطفال فى محاولة للتوصل الى أدوات قادرة على قياس نفس العوامل فى الاعمار المختلفة . وبصفة عامة لقد وجد كاتل عوامل متشابهة فى الأعمار المختلفة بين سن الرابعة وحتى الرشد ، كما وجد أن عدد العوامل فى الأعمار الأقل أصغر . وكما يعرف علماء النفس من الصعب التأكد من أن المقاييس التى تستهدف قياس نفس السمة فى الأعمار المختلفة تقيس نفس الشىء . وهى صعوبة تنشأ من أن المرء يعبر عن جانب من الشخصية عن طريق عناصر سلوكية مختلفة فى الأعمار المختلفة. ولقد اقترح كاتل للتغلب على هذه الصعوبة القيام بدراسات تتناول الجماعات العمرية البينية ، وهكذا قارن بين نتائج الراشدين ونتائج من بلغوا الحادية عشرة من اعمارهم ، وقد أجابت كل مجموعة منهما على صورة مختلفة من اختبار فى الشخصية ، ثم طبق الصورتين معا على عينة ثالثة ممن بلغوا السادسة عشرة من أعمارهم . وظهرت نتائج متكافئة الى حد ما ، اى ان المقارنات اسفرت عن تشابه فى بعض العوامل واختلاف فى البعض الآخر . رغم أن الاختبارين يتناولان نفس المجال بصفة عامة . ويبدو أن البحوث فى هذا الاتجاه تحمل على الأمل فى التوصل الى أدوات للقياس متكافئة تصلح للجماعات العمرية المختلفة . وهكذا يمكن أن نتعرف على الخطوط الحقيقية لاتجاهات النمو فى سمات الشخصية . ولقد ناقش كاتل الأدلة على وجود اتجاهات عمرية فى عوامل المزاج فبعضها يرتفع مع التقدم فى العمر من سن الحادية عشرة الى الثالثة والعشرين كالمغامرة H وقوة الآنا C وبعضها ينخفض مع التقدم فى العمر كالاستهداف للشعور بالاثم O والارتياب L .

وقد اتضح لكاتل من دراساته للآثار النسبية لكل من العوامل الوراثية والبيئية أن معاملات الارتباط بينهما سالبة على العموم . وقد فسر كاتل هذا بميل المؤثرات البيئية الى معارضة التعبير عن التباين الذى يعزى الى الوراثة على نحو نسقى ، كما يحدث حين يحاول الوالدان والمربون أن يشكلوا سلوك الأبناء على اختلافه ، بحيث تقل الفروق بينهم وبحيث يتسق سلوكهم مع معيار سلوكى معين وذلك بتشجيع الخجلين على مزيد من الاجتماعية والجراة والجريئين على التخفف من الجراة بحيث يكونون اكثر خجلا وحياء .

التعـــــلم :

يميز كاتل بين ثلاثة انواع من التعلم على الأقل تلعب ادوارا هامة فى نمو الشخصية . النوع الأول هو التعلم الشرطى الكلاسيكى وله اهمية فى ربط الاستجابات الانفعالية بالاشارات البيئية المنبهة Cues والنوع الثانى هو التعلم الشرطى الاجرائى وهو يربط بين الوسائل واشباع اهداف الدفعات الفطرية . ويلعب الاشراط الاجرائى دورا ملحوظا فى الشبكة الدينامية وهى التى تتألف من علاقات متبادلة وفقا لتسلسل التبعية كالعلاقة بين الوسائل والغايات وبين الاتجاهات والعواطف باعتبارها وسائل لتحقيق اهداف الدفعات الفطرية . وثمة شكل آخر من اشكال التعلم الاجرائى يطلق عليه كاتل التعلم المجمع confluence والذى فيه يشبع السلوك أو الاتجاه النفسى اكثر من هدف فى وقت واحد . وهكذا يرتبط الهدف بأكثر من عاطفة ، وترتبط العاطفة بعدة دفعات فطرية مما يعطى للشبكية الدينامية خاصيتها البنائية .

والنوع الثالث من انواع التعلم هو ما يسمى تعلم التكامل ، ويظهر فى أساسه باعتباره نوعا من أنواع التعلم الاجرائى المتطور . ويتعلم الفرد فى هذا النوع من التعلم أن يحقق أقصى اشباع كلى طويل المدى بالتعبير عن بعض دفعاته الفطرية فى اى لحظة وقمع أو كبت أو اعلاء دفعات فطرية اخرى . وتعلم التكامل جانب محورى أساسى فى تكوين عواطف الذات والأنا الأعلى .

وأفضل وصف لتعلم الشخصية من وجهة نظر كاتل هو انه تغير كثير الابعاد يحدث استجابة لخبرة فى موقف كثير الابعاد . والطريقة لدراسة تعلم الشخصية امبيريقيا هى ان تستخدم اسلوب مسارات التكيف adjustment Path analysis ويبدأ الفرد بشيئين : يبدأ اولا بمعلومات عن تغيرات السمة التى تحدث لدى عدد من الناس كاستجابة لفترة من التوافقات الحياتية العادية ، ويبدأ ثانيا بتحليل المسارات الممكنة للتوافق كالنكوص والاعلاء واحلام اليقظة والأعراض العصابية التى يتخذها الناس استجابة لمواقف الصراع فى الحياة . فاذا كان الباحث يستطيع ان يحسب عدد اتخاذ كل

فرد من هؤلاء الأفراد لكل مسار من مسارات التوافق، فان من الممكن حل معادلة المصفوفة matrix Formula وصولا الى متوسط تأثير كل مسار على تغيير كل سمة من السمات . وهذا يثير الاهتمام من الناحية النظرية ، وله قيمته العملية ، ذلك اننا لو تعاملنا مع مجموعة أخرى من الأفراد مكافئة للأولى ، وتوافرت لدينا معلومات عن التغيرات التى طرأت على سماتهم نستطيع أن نقدر عدد مرات اتخاذ كل منهم لكل من مسارات التوافق المتاحة وذلك بحل المعادلة فى الاتجاه العكسى .

ولقد قدم لنا كاتل فى مرحلة مبكرة تحليلا نظريا لمسارات التوافق باعتبارها سلسلة من مفترقات الطرق الدينامية والتى يلتقاها الفرد عندما يعبر من حافز معاق من الغضب البسيط الى الصراع والقلق الى تكوين أعراض عصابية . ويعتمد هذا التحليل النظرى على افكار التحليل النفسى الى حد ملحوظ على الرغم من خصائصه الجديدة . ولعل طريقة تحليل مسارات التوافق تزودنا بطريقة لتقويم القيمة الامبيريقية لطبيعة مفترقات الطرق الدينامية (Hall and Lindzy 1970, p. p. 400-401)

ودراسات كاتل عن الذكاء السائل والمتبلور تظهر البعد النمائى ، ذلك أن الذكاء السائل يصل ذروته فى سن السادسة عشرة ويبقى عند هذا المستوى ، ويحدث انخفاض قليل مع تقدم الفرد فى العمر . أما الذكاء المتبلور فيزداد حتى سن الثلاثين وخاصة فى مجال القدرة اللغوية . (وقد أشرنا الى ذلك من قبل) .

وقد اتضح من دراسات كاتل أن الانفعالية تتغير مع دورة الحياة وان فترات الذروة تظهر فى أوائل العشرينات حيث يكون الشخص منغمسا فى ترسيخ مكانته الزواجية والاجتماعية والمهنية فى المجتمع . وتدل بعض الشواهد على أن الانفعالية عند ربات البيوت تتزايد وهن يقتربن من أواسط العمر ، ويغلب عليهن فى هذه الفترة انحسار دورهن كأمهات ، وحوالى الستين تقريبا تزداد مستويات الانفعالية لدى الرجال والنساء مقارنة بالسنوات السابقة .

وفيما يتصل بالمفهوم الفرويدى الأنا الأعلى ، وجد كاتل انه ينخفض الى

حد ما ، ما بين سن التاسعة والخامسة عشرة ، وتظهر مشاعر الاثم والتوترات الناشئة عن الحوافز غير المشبعة تزايدا فى سن المراهقة ثم انخفاضا ملحوظا بعد هذه الفترة .

السياق الاجتماعى :

اهتم كاتل بأثر الفرد فى المجتمع وبأثر المجتمع فى الفرد وخاصة فى مجال نمو الشخصية .

وفيما يلى اشارة الى قليل من الأمثلة من دراساته وفكره فى هذا المجال . وهكذا نجد انه فى مجال الربط بين الجماعة الاجتماعية والأسرة وشخصية الفرد قدم لنا كاتل مفهوما جديدا هو شخصية الجماعة group Syntality والمقصود بكلمة Syntality الخصائص الاساسية للجماعة ككل التى تؤدى الى سلوك الجماعة سلوكا متسقا ، وبالتالى تتيح امكانية التنبؤ بأدائها.ولقد درس كاتل عامل شخصية الجماعة والضغوط الاجتماعية والثقافية من حيث تأثيرها على سلوك الفرد باستفاضة .

لقد شعر كاتل انه طالما أن سلوك الأفراد يتحدد بانتمائهم الى الجماعات المختلفة فان من الأهمية بمكان أن نعرف أقصى ما نستطيع معرفته عن الجماعات التى ينتمى اليها الناس . واذا كان لفظ شخصية يلخص سمات الفرد فان لفظ Syntality يمثل سمات الجماعة . ولقد درس كاتل جماعات الأتراب والمدارس والأمم ... الخ . بنفس الطريقة التى درس بها الافراد . وقد اتضح له أن هناك ثلاثة طرق يمكن للمؤسسات الاجتماعية والجماعات ان تؤثر بها فى سلوك الفرد . الطريقة الأولى غرس القيم الاجتماعية غرسا مقيديا على نحو قصدى ، والطريقة الثانية هى تأثير العوامل الموقفية والايكولوجية على نحو غير مقصود فى الفرد من خلال ممارسات المجتمع ومؤسساته ، والطريقة الثالثة تنتج عن الأنماط السلوكية التى تحددت نتيجة لتأثير الطريقة الأولى والثانية . وهذه الأنماط قد تقتضى أن يعدل الفرد من شخصيته للتعبير عن الدوافع الهامة واشباعها .

وفيما يلى عدة نقاط توصل اليها كاتل من خلال بحوثه تدل على اهتمامه

ب.الديناميات الاجتماعية فى تشكيل الشخصية : —

١ — هناك فروق فى قابلية الذكاء المتبلور والذكاء السائل للتغاير والتباين. ويبدو أن الذكاء المتبلور اقل قابلية للتغيير فى الثقافات التى يوجد بها انظمة مدرسية كما هو الحال بالنسبة لامريكا .

٢ — فى دراسة للأطفال اجريت فى هاواى ، وكان نصفهم من اصل يابانى وجد كاتل اتفاقا بين عوامل الشخصية الأولية لدى الأطفال جميعا سواء من كانوا من اصل أمريكى أو من كانوا من اصل يابانى .

٣ — بينت نتائج اخرى ان مواطنى الولايات المتحدة الامريكية يحصلون على درجات اقل فى النواحى الانفعالية عن الجماعات القومية اخرى. وقد كان متوسط درجات المواطنين الفرنسيين والأسيويين الهنود اعلى من درجات العينة الامريكية بمقدار الضعف . أما درجات الانفعالية عند الانجليز واليابانيين والايطاليين فقد وقعت بين درجات الفرنسيين ودرجات الامريكيين . وقد انتهى كاتل الى القول بانه على نحو تقريبى يبدو أن الذين يعيشون فى اقتصاد موجه وفى المجتمعات الشيوعية يحصلون على أعلى التقديرات فى النواحى الانفعالية .

٤ — وفى مقارنة بين عينة من طلاب الجامعة الانجليز وعينة من طلاب الجامعة الأمريكيين اتضح وجود قلق بمستوى أعلى لدى العينة الأخيرة عنها لدى العينة الانجليزية . كما اتضح أن الطلاب الانجليز لديهم قوة أنا اكبر مما لدى الجماعة الامريكية . كما اظهرت الجماعة الأخيرة نموا اكبر فى الأنا الأعلى عن الجماعة الانجليزية . واظهرت العوامل من المرتبة الثانية التى كشفت عنها الدراسة ان الطلاب الامريكيين اكثر حساسية من الناحية الانفعالية واكثر راديكالية من نظرائهم من الانجليز . ويبدو أن الفئة الأخيرة اقل قلقا واكثر محافظة .

٥ — ووجد كاتل أن الجماعات سواء اكانت صغيرة أو كبيرة حين تتاح لها فرصة الاختيار للعمل بقائد أو بدون قائد سرعان ما تقرر بعد خبرات قليلة أن تنتخب لها قائدا . ولم يكن اهتمام كاتل منصرفا الى طريقة

الاختيار ولا الى توقيته بل الى سوء طريقة الاختيار التى قامت بهـا الجماعة . لقد كان معظم القادة غير اكفاء بدرجة هائلة ومعرضين للأخطاء على نحو كبير .

وهكذا فان للجماعات التى تؤثر فى الناس سماتها أيضا ويمكن الكشف عن هذه السمات باستخدام التحليل العاملى كما نكشف عن سمات الفرد باستخدام نفس الاسلوب . ومتى اكتشفنا خصائص جماعة قومية فاننـا نستطيع أن نعقد عددا هائلا من المقارنات وهذا اسهام من اسهامات كاتل التى تستحق الاشادة بها .

ومن دراساته المعروفة دراسته مع بروبل وهارتمان Brewl & Hartman التى تناولت أربعين قطرا . وقد قام هؤلاء الباحثون بتقويم هذه الاقطار على ٧٢ متغيرا ثم حسبت معاملات الارتباط بين هذه المقاييس كلها ، وأخضعت النتائج للتحليل العاملى ووجد أن الفروق الأساسية بين هذه الأقطار يمكن تفسيرها باستخدام العوامل الأربعة الآتية : —

العامل (١) — الوفرة المستنيرة مقابل الفقر الضيق .

العامل (٢) — النظام النشط مقابل الجمود غير المتوافق .

العامل (٣) — الضغط الثقافى والتعقيد مقابل التعبير عن الدفعات الفطرية والمباشرة .

العامل (٤) — الحجـم .

ولقد لخص كاتل افكاره عن العلاقة بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة فى ٢٨ قضية عرضها فى مقال نشر عام ١٩٦١ م . وهو ينتهى من هذا العرض الى ان هذه العلاقة تتخللها متغيرات بناء الجماعة ، وقد ناقش الدور مناقشة مستفيضة باعتباره أحد هذه المتغيرات . ومن الأبعاد الفرعية لشخصية الجماعة التعاون ؛ وأبعاد التعـاون Synergy dimensions تماثل السمات الديناميية بالنسبة للفرد . وفضلا عن ذلك فانه يمكن كتابة معادلة تخصيص اتعاون الجماعة على أساس اهتمامات أعضائها .

البحوث وطرق البحث :

لقد استخدم كاتل نوعين من أساليب التحليل العاملى . الاسلوب الأول هو التحليل العاملى للشخص P-technique وهو التحليل العاملى للبناء الفريد لشخص واحد ، وذلك بناء على كثير من القياسات التى تتم فى مناسبات كثيرة بالنسبة لمفحوص واحد . والاسلوب الثانى هو التحليل العاملى للمتغيرات R-technique ان التمييز الأول بينهما هو ان الاسلوب الأول أسلوب ذاتى يمكن أن يكشف عن التتابعات العلية ، بينما الاسلوب R اسلوب يتناول الوحدة المعيارية . وكاتل يبين أن الاستخدام الكلينيكى للاسلوب P لم تستقصى امكانياته فى الوقت الحاضر . والتحليل العاملى بالاسلوب الأخير يكشف عن حالات السلوك الانسانى ، بينما التحليل العاملى بالاسلوب R يكشف عن السمات المشتركة بين الناس .

ويستخدم كاتل فى قياسه للشخصية وحدتين : الوحدة المعيارية والوحدة الذاتية . وتتناول الوحدات المعيارية مقدار تفاوت وتباين الفرد عن غيره من الأفراد . والوحدة الذاتية تتناول مقدار تباين الفرد داخل نفسه وعلى سبيل المثال مقدار تباين القلق والحالات الأدينامية الأخرى .

ولقد كرس كاتل جهده عبر سنوات طويلة للاسلوب التجريبى الكثير المتغيرات فى مقابل الاسلوب التجريبى ذى المتغيرين .

ويمكن القول أن الطرق التى تتناول متغيرات كثيرة تختلف عن الطرق التى تتناول متغيرين من حيث أن الأولى تعالج متغيرات كثيرة فى وقت واحد وتهتم بالنظر الى المظاهر الكلية متأنية وعلى نحو شمولى . وهى تختلف عنها من حيث أنها لا تتطلب معالجة لضبط المتغيرات تجريبيا وانما تتركها تعمل على نحو طبيعى . وتطور أساليب احصائية دقيقة تعزل وتحلل ما لا نستطيع عزله أو فصله بالضبط الفيزيقى الصارم . وهناك بطبيعة الحال مزايا وعيوب لكل من المنهجين .

ويختلف كاتل عن ايزنك وجيلفورد وزمرمان لان الاخيرين يفضلون تدوير المحاور أو العوامل المتعامدة وبالتالى فانهم يستخلصون عددا قليلا من

العوامل ، أما كاتل فيفضل استخراج أكبر عدد من العوامل ثم يدورها للحصول على أبسط تركيب للعوامل المائلة . وقد دار جدل طويل عن أى هاتين الطريقتين أكثر كفاءة . فأيزنك مثلا حين يحلل بيانات دراساته عن الشخصية يستخرج عاملين أو ثلاث بينما يشعر كاتل أن من الضرورى استخراج ما بين ١٦، ٢١ عاملا من هذه البيانات، والعوامل من المرتبة الأولى First order Factors تتنبأ فى الأساس بالمحكات العيانية على نحو أفضل بينما العوامل العليا أو من المرتبة الثانية تسهم فى النظرية بدرجة أكبر . وتعتبر العوامل من المرتبة الثانية فئات وصفية عريضة ليس لها القوة التنبؤية لعوامل المرتبة الأولى ولكنها مع ذلك تسهم فى فهم الشخصية .

وبصفة عامة يجمع كاتل بياناته بثلاثة طرق. الطريقة الأولى هى سجل الحياة L - data والطريقة الثانية هى الاستخبارات Q - data والطريقة الثالثة هى الاختبارات الموضوعية T - data والبيانات من النوع الأول تستقى من السلوك الذى يحدث فى الحياة اليومية ومن امثلتها عدد مرات التغيب عن العمل ، ونسبة الاحتكاكات الودية الى الاحتكاكات العدائية مع الآخرين ، ومقدار ما ينفق من مال على الترويح عن النفس ، وعدد الساعات التى تقضى فى مشاهدة التلفزيون ، وعدد الجماعات التى ينتمى اليها الفرد ودرجاته الاكاديمية وهلم جرا . ويشترط فى الحصول عليها أن تتم عن طريق ملاحظين ومقدرين آخرين . ولا يستطيع الباحث أن يعتمد على تقرير المفحوص عما قام به. وكثيرا ما تستخدم كمحك للتأكد من دقة البيانات التى تجمع بالطريقتين الأخريين .

وطريقة الاستخبارات لا تشتمل على استخبارات الورق والقلم والتى يجاب عنها بنعم ولا فحسب، بل تشتمل أيضا على مقاييس الاتجاهات والميول والآراء كما تشتمل على المقابلة الشخصية . والخاصية الاساسية للبيانات التى تجمع بهذه الطريقة (Q - data) انها تستقى من استجابات المفحوص التأملية والتى يعبر بها عن ذاته وهذه الخاصية تقلل من فائدتها لان المفحوص قد لا يعرف نفسه على الاطلاق، وحتى لو كان يعرف نفسه فقد يرى ألا يفصح عما يعرف . وبسبب هذا التصور فان كاتل يحذرنا وينبهنا الا أننا لا ينبغى أن نقبل هذه التقارير الذاتية على انها تقارير دقيقة عن النواحى الداخلية

العقلية لدينا . وانما ينبغى أن نقبلها باعتبارها سلوكه اللفظى . وهكذا حين يقول الفرد أو يستجيب الى استخبار بانه خجول فان هذا لا يقبل باعتباره دليلا على خجله وانما يقبل باعتباره تقريرا ذاتيا عن نفسه .

والنوع الثالث من البيانات يستقى من الاختبارات الموضوعية (T data) ويعرف الاختبار الموضوعى بانه الاختبار الذى فيه يقاس سلوك المفحوص لاستنباط الشخصية دون أن يعى الفرد طريقة تأثير سلوكه على تفسير وفهم شخصيته. فالموضوعية اذن تتحقق حين يقاوم اختبار ما التشويه أو أى نوع من التزوير من قبل الفرد الذى يجيب عن الاختبار . ومن امثلة هذه الاختبارات — اختبار يونج لتداعى الكلمات ، واختبار بقع الحبر لرورشاخ ، واختبار تفهم الموضوع لموري . ولقد نشر كاتل اكثر من أربعمائة اختبار موضوعى اشتملت على الكتابة المعكوسة Backword writing وشطب الحروف Cancellation of Letters وتداعى الكلمات

Association of Emotional Wordds (Cottell & Warburton, 1967)

ولكى تكشف البيانات التى نجمعها عن أوصاف وتنبؤات دقيقة لا بد أن تكون متسقة مع نفسها عبر الزمن ، أى أن تكون ثابتة . ولكن الانواع الثلاثة من البيانات تعانى من قدر من عدم الثبات ويرجع هذا جزئيا الى الاسلوب الذى يستخدم فى جمعها فالمقياس غير الثابت لن يقيس المتغير الذى يستهدف قياسه على نحو متسق من وقت الى آخر . وقد يرجع عدم الثبات هذا جزئيا الى أن المتغير المقيس يتغير عبر الزمن . وكثير من المتغيرات السيكولوجية كسمات الشخصية لا تبقى ثابتة عبر الزمن . ولقد اطلق كاتل على درجة تغير خصائص الشخصية من وقت الى آخر تذبذب الوظيفة Function Fluctuation ، ويرجع هذا التغير الى تأثير المطالب البيئية والى المرض والقلق (1965, p. 370)

وهكذا يتضح اننا نقيس خصائص متغيرة كالتعب والاكتئاب والاستثارة والقلق . وهذه الحالات فيما يرى كاتل ينبغى الا نعتبرها ببساطة مصادر للخطأ وانما ينبغى أن نقيسها وان نفسح لها المجال عند وصف الشخصية وعند التنبؤ بالسلوك .

ولقد استخدم كاتل هذه الأنواع الثلاثة من البيانات فى تحليله للشخصية. ولقد تبنى كاتل طريقة نظامية فى تناوله لبناء الشخصية واستخدم فى ذلك خمسة مداخل هى : —

١ — الوسائل الثلاث الممكنة للملاحظة التى سبق أن تناولناها وهى سجل الحياة ، والاستخبار والاختبار الموضوعى .

٢ — دراسات عبر المستويات العمرية من الطفولة المبكرة الى الشيخوخة.

٣ — دراسة العلاقات بين نتائج اسلوب التحليل العاملى الذاتى P ونتائج اسلوب التحليل العاملى المعيارى R .

٤ — دراسة الثقافات المختلفة وصولا الى بناء ثابت للشخصية ولدينامياتها. وذلك بدراسة جماعات أمريكية واسترالية وفرنسية وايطالية ويابانية.

٥ — المنهج الكثير المتغيرات الذى يقتضى البحث عن العوامل كلها معا وتحديدها كالقدرة والمزاج والعوامل الدافعية .

ان درجة الشمول التى يبلغها كاتل فى جمعه لقياسات الشخصية قد نجده فى دراسة حاولت أن تقيس العمليات الفسيولوجية المتضمنة فى الانفعالية . ولقد قيست الانفعالية لدى المفحوصين من خلال تحليل البول ، وقياس ضغط كتابة الخط ، وزيادة معدل النبض عند وضع الذراع فى ماء مثلج ، والاستجابة لعناوين الصحف . ولقد قورنت هذه الاستجابات الفسيولوجية بقياسات للانفعالية استمدت من الاستخبارات . ولقد شعر كاتل أن المرء يستطيع أن يستخدم الاستخبارات والاختبارات الموضوعية وفقا للظروف . ولقد أسفرت هذه الدراسة عن بعض نتائج معارضة للرأى الشائع اذ اتضح أن معظم الناس ذوى الانفعالية العالية كان ضغط كتابتهم للخط خفيفا وأن هؤلاء الأشخاص كان لديهم توتر عضلى فى مؤخر الرقبة والكتف وتوتر أقل بكثير فى اقدامهم وأيديهم .

وفى النهاية ينبغى أن نسلم ان هذا الجزء لا يقدم الا عينة محدودة من منهجية كاتل . وسوف ننتقل الآن الى أنواع الاختبارات التى استخدمها كاتل.

مع أعوانه فى السنوات الخمس وعشرين الماضية . ولقد استخدم كل اختبار فى جمع بيانات كثيرة وضعت موضع التحليل العاملى بل ولقد عدل الاختبار فى كثير من الحالات تعديلات كثيرة . ويعتقد كاتل أن البحث فى ديناميات الشخصية وبنائها ينبغى أن ينتهى الى التوصل الى أدوات سيكومترية قابلة للاستخدام يمكن استخدامها فى المواقف المدرسية وفى العيادات النفسية . وسوف نذكر ١٥ اختبارا فحسب من الاختبارات التى وضعها كاتل خلال عمله فى معهد اختبار الشخصية والقدرة

Institute For Personality and Ability Testing (IRAJT)

والاختبارات على النحو الآتى : —

1 — The 16 Personality Factor Questionnaires .

2 — The Junior - Senior High School Personality Questionnaire .

3 — The Children's Presonality Questionnaire

4 — TheEarly School Personality Questionnaire

5 — The Contact Personality Factor TesT .

6 — The Neuroticism Scale Questionnaire .

7 — Ipat Anxiety Questionnaire .

8 — The Ipat Parallel - From Anxiety Battery .

9 — The Objective - Anxiety Battery .

10 — The Objective - Analytic Personality TesT .

11 — The Ipat Humor Test of Personality.

12 — The Ipat Music Perference TesT of personality.

13 — The Motivation Analysis Test

14 — The Ssool Motivation Analysis TesT .

وقد وضع أيضا كاتل اختبار لقياس القدرة العقلية أسماه :

IPAT Culture Fair Intellegence Tests .

وله ثلاثة مقاييس ، وقد نقل المقياس الثانى الى اللغة العربيــة الدكتوران أحمد عبد العزيز سلامة وعبد السلام عبد الغفار ، أما المقياس الثالث فقـد نقله الى العربية الدكتور فؤاد أبو حطب والدكتورة آمال صادق .

هذا ويتوافر باللغة العربية من اختبارات كاتل اختبارات ثلاث هى : ـ

ـ اختبار الشخصية للمرحلة الأولى .

اعداد د. عبد السلام عبد الغفار ، د. سيد غنيم .

ـ اختبار الشخصية للمرحلة الاعدادية والثانوية .

اعداد د. عبد السلام عبد الغفار ، د. سيد غنيم .

ـ اختبار عوامل الشخصية للراشدين .

اعداد د. عطية محمود هنا ، د. سيد غنيم ، د. عبد السلام عبد الغفار وقد نشرتها دار النهضة العربية فى القاهرة فى السنوات ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٣ م على الترتيب .

ولقد تادى كاتل من خلال نشاطه البحثى المتدفق فى السنوات الأخيرة الى تطبيق نتائجه النظرية على المواقف العملية . ففى كتابه معنى العصابية والقلق وقياسهما Meaning and Mesurment of Neuroticism and Anxiety والذى كتبه مع I.H. Scheirer عاد الى اهتماماته الكلينيكية الأولى ليقـدم أساليب لقياس وتقدير العصابية والقلق ، وفى كتاب مشهور له « التحليل العلمى للشخصية » The Scientific Analysis of Personality يبين أن اسلوبه فى التحليل العاملى يمكن أن يطبـق فى علم النفس المهنى والتربوى والكلينيكى . واهتم على وجه الخصوص باختبار الشخصية لدى تلاميـذ المدارس وأطفـالها ، وبالعلاقة بين نظـرية الشخصية والمشكلات الاجتماعية العريضة المتضمنة فى العلاج النفسى والصحة النفسية .

(J.P. Chaplin & T.S. Krawiec p.p 575-576.).

المكانة الراهنة والتقويم :

ان نظـرية كاتل شأنها شـأن معظم نظـريات الشخصية قد لقيت استحسانا من بعض المفكرين ولقيت نقدا من البعض الآخر . فمن الناحيـة الايجابية : —

— شعر الكثيرون أن قدرا كبيرا من البحوث التى اجريت فى مجال الشـخصية لم تتم على أساس علمى وان جهود كاتل تمثل اضافة قيمة لاصطناعه للمنهج الكمى وللتحليل العاملى فى دراسة الشـخصية ومتغيراتها .

— وليس من شك فى أن كاتل كان باحثا مدققا فى مجال من أكثر مجالات علم النفس تعقيدا وهومجال الشـخصية . ولقد اقتضى تبنيه لمنهج التحليل العاملى أن يعرف مفاهيمه تعريفا واضحا .

— اذا كانت الشخصية معقدة ومركبة ، فان التحليل العاملى هو من أكثر أساليب الوصف والتحليل الكمى تقدما ، فهو اذن منهج مناسـب ومتجانس مع موضوع الدراسـة . هـــذا فضلا عن تقدم تكنولوجيا الحاسـب الآلى التى يمكن أن تساعد فى هذا المجال . وليس المهم أن نبحث عن النظرية الصحيحة تمـاما فى الشخصية لان كل النظريات معرضـة للنقد بغـير استثناء وانما المهم أن نبحث عن نظريات تسـاعدنا معا على فهم هـــذه الظاهرة المعقدة والمركبة اى فهم الشـخصية . وليس من شك ان نظرية كاتل تلقى الضوء على بعض جوانب الشخصية التى تركها منظـرون آخرون فى الظلمة .

— من النواحى الموجبة فى نظريات العوامل انه اذا توصلت هذه النظريات الى نتــائج تتفق مع ما توصلت اليه النظـريات الكلينيكية مع الاختلاف البائن فى منهجيهما ، اى انهما توصلا الى تحديد مجموعة متشـابهة من المتغيرات والأبعاد للشخصية الانسـانية فان هذا يزيد من ثقتنا بهـــذه النتائج ويقربنا من فهم السـلوك .

ومن الناحية السلبية : —

— قول البورت أن نظريات العوامل تتوصل الى نظام من الحقائق المصطنعة التى ليس لها علاقة حقيقية بأى شخص بذاته . فهى اذن تشوه الحقيقة. أى أن الاعتماد على القياس الكمى والتحليل العاملى لا يناسب خصائص الانسان لانها أكثر خصوبة مما يمكن أن تبلغه هذه الأساليب فى طورها الراهن .

— ان ما يقدمه التحليل العاملى لا يزيد على ما يدخل فيه . فالقائم بالتحليل العاملى يعترض على الذاتية ويعمل على التخلص منها كلما واجهته ، ولكنه يتخير المقاييس والاختبارات التى تدخل فى مصفوفته الارتباطية وهذا الاختيار يتسم بقدر من الذاتية . ويصدق هذا النقد بوضوح حين يؤكد صاحب النظرية أن طريقة التحليل العاملى حين تطبق على أى مجموعة من المتغيرات تكفل التوصل الى أبعاد أساسية للشخصية . الا أن ذلك ليس هو موقف كثير من المحللين العامليين فطريقة تحليل المحك عند أيزنك تقتضى من الباحث ان يفترض اولا طبيعة العامل النفسى قبل البدء فى دراسته ، ومفهوم كاتل عن اختيار عينات من مجال محدد للشخصية يقدم لنا أساسا عقلانيا لطريقة أكثر اتساعا وشمولا .

— تتسرب الذاتية عند تسمية العوامل الناتجة عن التحليل العاملى ، لان الباحث كثيرا ما يلجأ الى خياله وبراعته ليصل الى عنوان شامل للعناصر المكونة للعامل وهى متنوعة . ومعنى هذا انه يمكن أن يتم التحليل العاملى بعناية ودقة كبيرين ، ولكن استخراج العوامل وتفسيرها قد لا يتسم بنفس القدر من الدقة .

— ان الخلافات الكثيرة بين القائمين بالتحليل العاملى فيما يتصل بخطواته الحسابية أو التفسيرية تمثل هدفا للنقاد . واذا كانت هذه الطريقة على درجة عالية من الموضوعية ، والعقلانية ، فلماذا يختلف أكثر العاملين بها على طريقة سيرها . واذا كان هؤلاء على عظم درايتهم بالموضوع لا يتفقون ، فكيف يتفق حولها الأقل منهم دراية وعلما ؟ وفى الوقت الذى استطاع اصحاب التحليل العاملى ان يتغلبوا على عدد من المسائل

الهامة الخلافية بينهم ، الا انه ما تزال هناك مسائل تثير الخلاف والجدل كعدد العوامل التى ينبغى استخلاصها من مصفوفة ارتباطية معينة .

- يشعر كثير من علماء النفس أن نظريات العوامل ليست نظريات على الاطلاق . انها تحدد ببساطة المتغيرات الهامة او العوامل ولكنها لا تبين العملية النمائية أو الارتقائية ، كما انها لا تزودنا بالافتراضات التفصيلية عن السلوك والتى تتيح لنا التنبؤ بالبيانات والمواد التى ليست فى متناول الملاحظة . وهذا النقد لا يصدق على موقف كاتل لانه يضع عوامله فى اطار نظرى ، ولانه اهتم بمتغيرات النمو وبعض التنبؤ .

— يبدو ان النقد لا مفر منه ، فان اتضح أن عوامل الشخصية التى توصل أليها المحلل العاملى تتفق تماما مع الملاحظات السابقة عن السلوك الانسانى فسيتهم بأنه يضيع جهده سدى ، واذا اختلفت عما هو معروف فسيتهم بأنه يزيد الموقف تعقيدا . ولقد بينت دراسة مفهومى سمات السطح وسمات المصدر عند كاتل أن القائم بالتحليل العاملى لا يتوقع بالضرورة اتفاق عوامله الوثيق مع نتائج الملاحظة البسيطة للسلوك . ولعل ما تسفر عنه جهود هؤلاء الباحثين من التوصل الى مزيد من النتائج التجريبية عن تلك العوامل يزيد من وضوح معنى المتغيرات النفسية التى يشيع استخدامها حاليا .

— وفى الختام نقول أن تأثيرات نظريات العوامل على الوضوح والتمسك بالمعايير السليمة للقياس يمثل اتجاها صحيا له تأثيره السليم فى مجال دراسة الشخصية . غير أن محتوى نظريات العوامل قد يكون اسهاما مستمرا وقد لا يكون فى مجال تطوير نظريات الشخصية فى المستقبل .
(هول ولندزى : ترجمة فرج وآخرين ١٩٧١ م ص ٥٣٢ — ٥٣٦) .

الفصل العاشر

ايـزنك

ولد هانز ج ايزنك H.J. Eysenck فى المانيـــا فى مارس ١٩١٦ م م. ووالداه من أسرة من أسر برلين التى عرفت بالليبرالية . ولقــد ترك ايزنك المانيا عام ١٩٣٤ وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره وذلك كاحتجاج على الحكم النازى وقد تلقى تعليمه فى مدارس بألمانيا وفرنسا وانجلترا . ولقــد درس لفترة فى جامعتى ديجون واكستر Dijon and Extre قبل حصوله على درجتى البكالوريوس فى الآداب B.A ودكتوراه الفلسفة من الكلية الجامعية فى لندن ١٩٤٠ م حيث حصل أيضا على دكتوراه فى العلوم
Doctor of Science Degree

ولقد تزوج من مارجريت مالكولم دافيز عام ١٩٣٨ وأنجبا ابنا واحدا . وفى عام ١٩٥٠ م تزوج ايزنك من سيبيل روستال Sybil B.G. Rostal وانجبا ثلاثة أبناء وبنت . وقد قام ايزنك بعدد كبير من الأبحاث العلمية ونشر أوراقا علمية كثيرة فى المجلات المتخصصة مع زوجته سيبيل وقد عمل كعالم نفسى باحث رئيسى من ١٩٤٢ الى ١٩٤٦ فى مستشفى ميل هيل Mill Hill H, وعمل قارئا فى معهد الطب النفسى فى جامعة لندن فى الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٥٤ م. ولقد عمل استاذا زائرا فى جامعة بنسلفانيا من ١٩٤٩ الى ١٩٥٠ م. وكذلك عام ١٩٥٤ فى جامعة كاليفورنيا ببريكلى . وعمل استاذا لعلم النفس فى جامعة لندن (معهد الطب النفسى) وهو منصب شغله منذ عام ١٩٥٥ م. ولقد عمل مديرا لقسم علم النفس فى مستشفى مودزلى ومستشفى بتلهم منذ عام ١٩٤٦ Maudsley and Bethlehem حيث انجز الكثير من بحوثه . ولقد تأثر فى بحوثه بســبيرمان رائد التحليل العـــاملى ، وباســـهمات ثرستون L.L. Thurstone كما تأثر فى فـــكره السيكولوجى بكارل يونج وارنست كريتشمر ، وأفاد فى كتاباته الأخيرة من الاتجاه السلوكى والشرطى عنـــد بافلوف وكلارك هل .

وايزنك رجل نشـــط جدا ، ويروح عن نفســـه بالمشى ولعب التنس والشطرنج وقراءة الروايات البوليسية وبقيادة السيارة فى الريف الانجليزى

الممتع. ولقد نشر أكثر من مائتين من البحوث والمقالات فى مجلات علم النفس البريطانية والأمريكية والألمانية والفرنسية .

مقـــــدمة :

ان حجم العمل العلمى الذى قام به هانز ايزنك فى مجال علم النفس هائل ويتناول موضوعات متنوعة . لقد درس وكتب فى حين من الدهر أو فى حين آخر عن الأنماط الجنسية ، وعن كتابة الخط ، وعن السلوك العصابى والذهانى ، وعن اثر الوراثة على التوائم والأخوة ، وعن العقاقير المهدئة أو المبطئة والمنشطة وعن الفكاهة وعن الجماليات ومجالات اخرى كثيرة . وفيما يلى استعراض لبعض عناوين كتبه التى تدل على التنوع وتدل على الخصوبة فى الانتاج العلمى : —

— ابعاد الشخصية عام ١٩٤٧.

Dimensions of personality .

— الدراسة العلمية للشخصية ١٩٥٢.

Scientific study of personality.

— بناء الشخصية الانسانية ١٩٥٣.

The Structure of Human personality.

— ترجم بعنوان مشكلات علم النفس ١٩٦٤.

Uses and Abuses of Psychology.

— سيكولوجية السياسة ١٩٥٤.

The Psychology of Politics.

— ديناميات القلق والهستيريا ١٩٥٧.

The Dynamics of Anxiety and Hysteria .

— ما له معنى وما ليس له معنى فى علم النفس.

Sense and nonsense in psychology 1965.

— تجارب فى الشخصية ١٩٦٠.

Experiments in personality .

— العلاج السلوكى والاعصبة ١٩٦٠.

Behavior Therapy and Neuroses (ed).

— علم سيكولوجية الشواذ ١٩٦١:

Handbook of Abnormal psychology (ed).

— تجارب على العقاقير ١٩٦٣.

Experiments With Drugs (ed) .

— الجريمة والشخصية ١٩٦٤:

Crime and personality :

— تجارب فى العلاج السلوكى ١٩٦٥.

Experiments in Behavior Therapy.

— أسباب وشفاء الأعصبة ١٩٦٥.

The Causes and cures of Neuroses (with s. Rachman).

— الحقيقة والوهم فى علم النفس ١٩٦٥

Fact and Fiction in psychology .

ترجمة د. قدرى حنفى ، د. رؤوف نظمى دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩.

— الأساس البيولوجى للشخصية ١٩٦٧

The Biological Basis of personality.

— بناء الشخصية وقياسها ١٩٦٩

The Structure and Measurement of Personality.

— بناء الشخصية الانسانية ١٩٧٠:

The Structure of Human Personality.

— دائرة معارف علم النفس ١٩٧٢:

Encyclopaedia of Psychology.

— قياس الذكاء ١٩٧٣،

Measurement of Intelligence.

— الدراسة التجريبية للنظريات الفرويدية ١٩٧٣

Experimental Study of Freudian Theories.

— تواريخ حالة فى العلاج السلوكى ١٩٧٥

Case Histories in Behaviour Therapy.

— الذهانية كبعد من الشخصية ١٩٧٦

Psychoticism as a Dimension of Personality.

— نموذج للشخصية ١٩٨٠.

A Model for Personality .

وهانز ايزنك شخصية جدلية فقد هاجم الكثيرين فى مجال علم النفس ونقدهم ، كما هاجمه كثيرون ونقدوه . وهو يحتقر البحوث غير الامبيريقية .

ولقد ركز ايزنك نقده الأساسى فى الموضوعات الآتية : الاختبارات الاسقاطية والأطباء النفسيين ، وشلدن ، والصياغات غير العلمية فى علم النفس ، والعلاج النفسى وخاصة عمليات التحليل النفسى . ففى نقده لشلدن يقول عن نسقه انه « معقد فى غير ما ضرورة ، وخاطىء احصائيا ، وردىء فى أسسه النظرى » .

ولقد نادى ايزنك بحماس وقوة لتأسيس العلاج النفسى على منهج علمى وتكرر هذا النداء . ورأى أن العلاج النفسى ليس علما بل هو نوع من الفن المفكك.وهو يرى أن العبارات المقبولة عن الشخصية ينبغى أن تترسخ علميا وانها اذا لم تترسخ فانها تدخل فى باب الأدب والفلسفة ونقد التحليل النفسى بشدة وقدم فى هذا النقد ستة اعتراضات عليه هى : —

١ — تعتمد نتائج التحليل النفسى على وقائع غير ثابتة ، اى لا يوثق بها .

٢ — ان التحليل النفسى يسىء حالة المريض الذى يتصدى لعلاجه نتيجة حكم قبلى وبذلك يمزج البيانات والمواد الخام بالتفسير التحليلى .

٣ — ان المحللين النفسيين يبالغون فى التعميم من نتائجهم .

٤ — يطبق المحللون النفسيون مبادئهم المشهورة على الظواهر الاجتماعية دون وجود برهان على قابليتها للتطبيق .

٥ — حيث تستخدم الفروض الفرويدية لكى توجه البحوث ، فاننا كثيرا ما نجد أن هذه البحوث تنصح عن افكار قبلية بدلا من ان تكون اختبارا هاما للفرض .

٦ — ان مجادلات التحليل النفسى تفترض صحة ما تريد أن تقيم عليه الدليل

وبذلك موضوع الجدل (ايزنك : مشكلات علم النفس ، ص ٢٥٦ — ٢٦٠) .

غير أن وايت Wyatt ذهب فى تعليقه على آراء ايزنك فى كتاب Perspectives in Personality Theory, p. 350 الى حد اتهامه لايزنك بأنه ولو انه ضد التحليل النفسى ، الا أنه يعتمد عليه فى أفكاره الأصلية .

وايزنك شأنه شأن كاتل ينشر انتاجه العلمى عالميا ، ولقد ترجمت أعماله فى المجلات العلمية الأجنبية ، ولقد اعتقد البعض أنه فى وقت من الأوقات كان يتسابق مع كاتل فى نشر الأبحاث والمقالات . واستطاع ايزنك أن ينشر حوالى عشر أوراق فى السنة خلال الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٦٠ م . ولقد زار ايزنك كاتل فى معمله فى جامعة الينوى ويمكن اعتبار هذين المنظرين متشابهين بسبب اهتمامهما بالمنهج الاحصائى .

ولقد أعطى ايزنك للبحوث فى مجال الشخصية دفعة قوية بسبب جهوده الدؤبة للقيام ببحوث جيدة ، قابلة للاعادة . ويبدو أن هناك ميلا متزايدا لمتابعة أعماله العلمية وخاصة بين علماء النفس ذوى الاهتمام بالاساليب الاحصائية فى أمريكا وانجلترا ومصر وأجزاء أخرى من العالم . وتكثر الاشارة اليه فى كتب الشخصية .

ويعتبر ايزنك نفسه عالما نفسيا حذرا ، وليس على استعداد لان يصدر تعميمات أو حتى تقديرات عن الشخصية ما لم تكن فى حدود نتائج بحوث قابلة للاعادة ضبطت متغيراتها احصائيا .

غير أن هناك من الشواهد ما يدل على تناقص الاشارة الى أعمال ايزنك ففى أعداد سابقة من مجلة المستخلصات النفسية Psychological Abstracts كان يفرد لايزنك عنوان مستقل فى الفهرس شأنه فى ذلك شأن فرويد . ولكن هذه الممارسة اختفت فى الأعداد الأخيرة ويصدق هذا على المقال الذى كتبه أدلسن Adelson عن الشخصية فى : Annual Review of Psychology Vol, 20. 1969. والذى اشتمل على قائمة للمراجع مؤلفة من ٢١٠ بندا . ففى هذا المقال الذى لخص فيه أدلسن الاتجاهات العامة فى مجال الشخصية لم يشر الى ايزنك .

الوصف النفسى الاحصائى للسلوك الانسانى :

يرى ايزنك أن الوقت مبكر جدا للقول باننا قد توصلنا الى نظرية للشخصية لها معنى ومعقولة وقابلة للاختبار وقابلة للبحث . وهو لا يدعى أن عمله قد تأدى به الى بلورة وتطوير نظرية كاملة فى الشخصية . وهو يشعر أيضا أن جميع العاملين فى هذا الميدان لم يبلغوا النضج فيما توصلوا اليه من صياغة لنظرية فى الشخصية ، وأن أعمالهم ما يزال بهـا كثير من نواحى القصور وذلك لانه يرى أن الحالة الراهنة لصياغة نظرية الشخصية بصفة عامة (وفى الاساس) وصفية ، ومثل هذه النظرية الوصفية لا تهتم بديناميات السلوك الانسانى بالقدر الكافى .

ومهما يكن من شىء ، فان ايزنك قد اصبح حديثا اكثر اهتماما بالجوانب الدينامية والعلية للسلوك ، كما يظهر بوضوح فى كتابه الذى نشره عام ١٩٥٧ م وعنوانه « ديناميات القلق والهستيريا » الذى يشتمل على مفاهيمه عن نظرية التعلم وتطبيقها فى العلاج النفسى . ولقد حاول أن يضع طريقة عقلانية للتشخيص والعلاج تحل محل التحليل النفسى وهى العلاج السلوكى . ورأى أن هذا جزء هام من نسقه .

ولقد تاثر ايزنك بطبولوجية يونج وتصنيفه للشخصية الى منطـوى ومنبسط كما تاثر باعمال كرتشمر وبالأبعاد الجبلية او الجسمية . وايزنك ضد كثرة مكونات الشخصية،ويفضل الاتجاه العملى المقتصد فى بناء الشخصية . ومهما يكن من شىء فلا بد من دعم النظرية ببحوث قابلة للاعادة . ان الحديث عن الانسان ككل حديث غامض وفلسفى . وايزنك ليس ضد الفلسفة ولكنه يعتقد أن استخدام مصطلحات فلسفية لا ينبغى اعتباره علما ولا يلائم علم النفس . وهناك حاجة للبحث عن أبعاد الشخصية قبل بناء نظرية عنها . وعند العمل مع هذه الأبعاد ينبغى أن نستخدم التحليل العاملى ، حتى لو كان هذا التحليل العاملى ضعيفا ، لانه لا توجد طريقة اخرى قابلة للاستخدام ، ومن الضرورى أن نعبر عن الحقائق الأساسية فى العلوم السلوكية تعبيـرا كميـــا .

وايزنك يقصد فى دراساته للشخصية والتنظير فيها أن يدرس اكبر

عدد من المتغيرات يمكن الحصول عليه من تقدير الفرد لذاته على مقياس متدرج ، وتقديرات الآخرين له وقياسات الجسم ، والقياسات الجلفانومترية، والبيانات البيبوجرافية ، والبيانات التاريخية وتقارير الملاحظين له . وهى كلها بيانات ضرورية لملء صورة شخصية أى فرد ولتكملة ملامحها. وبالاضافة الى تضمين ايزنك لاكبر عدد من المتغيرات فى دراسته للشخصية يحاول دائما أن يحصل على محك أو جماعة ضابطة لا تتوافر لديها هذه الخصائص ، أو أنها تختلف من حيث درجة امتلاكها لهذه الصفات . وعندئذ يستطيع أن يقوم بالبحوث وترتيبا على ذلك ، فان ايزنك يعمل دائما على أن يدرس مجموعتين متقابلتين فى أى خاصية فى الأمانة وعدم الأمانة ، وفى الشجاعة والجبن .... الخ .

ويمكن أن نرى فى ضوء ما سبق أن ايزنك يفضل العمل فى فريق وأن يضيق مجال البيانات التى يدرسها باستخدام الطريقة الفرضية — الاستدلالية deductive hypothetico ، وهو يفضل أن يدرس الشخصية مستندا الى بنية فرضية ومستخدما الاختبار الاستدلالى والطرق الاحصائية لكى يتوصل الى موقف يمكن الدفاع عنه وبأقل عدد من المكونات .

ويدور تعريف ايزنك للشخصية حول أربعة انماط سلوكية هى : المعرفى (الذكاء)والنزوعى (الخلق)والعاطفى (المزاج) والجسمى (الجبلة) وهكذا فان الشخصية هى « المجموع الكلى للأنماط السلوكية الفعلية والممكنة للكائن الحى كما تتحدد بالوراثة والبيئة ، وهى تنشأ وتنمو من خلال التفاعل الوظيفى للأجزاء المكونة التى تنتظم فيها هذه الأنماط السلوكية (Dimensions of Personality, p. 25) ولقد قبل ايزنك تعريف البورت المشهور فى كتابه الذى صدر عام ١٩٥٣ وهو « بناء الشخصية الانسانية » كما استخدم تعريف روباك Roback للشخصية عام ١٩٣٤ م وهو « التنظيم المتكامل لجميع خصائص الفرد المعرفية والوجدانية والنزوعية والجسمية كما تظهر ذاتها فى تمايز مركز بالنسبة للآخرين » ويدخل فى تعريف الشخصية هذا عند ايزنك اعتقاده فى استمرارية السلوك واتصاله .

وفيما يتصل بالمفاضلة بين المدخل الايديوجرافى (دراسة الفرد)

والمدخل الناموسى (اكتشاف القوانين العامة للسلوك) فى دراسة الشخصية ، يفضل ايزنك المدخل الأخير ويرى أنه اذا أريد لدراسة الشخصية أن تكون علما فينبغى أن يكون المدخل المتبع هو المدخل الناموسى .

(Bischof, pp. 489-492)

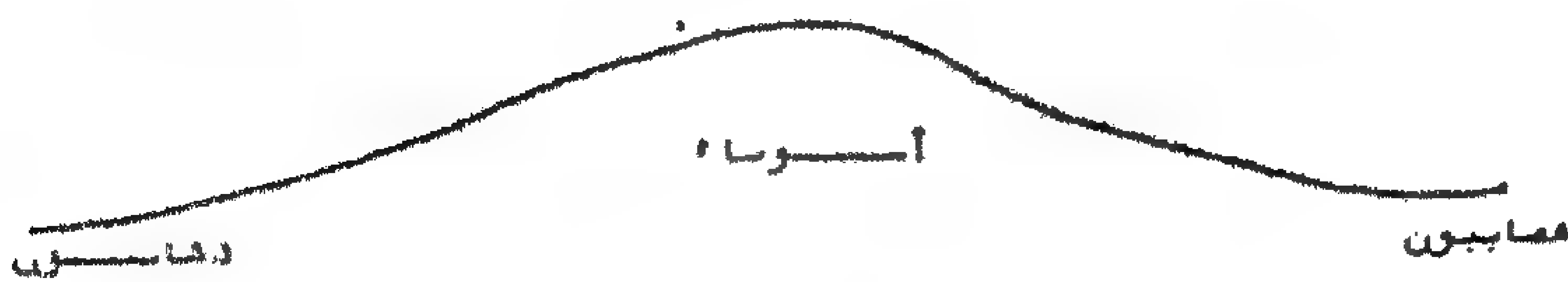
بناء الشخصية :

وبينما يؤكد كاتل على السمات يؤكد ايزنك على الأنماط . ولقد كان هدف كثير من أعماله العلمية التعرف على الأنماط وان ركزت بعض أعماله على وصف السمات .

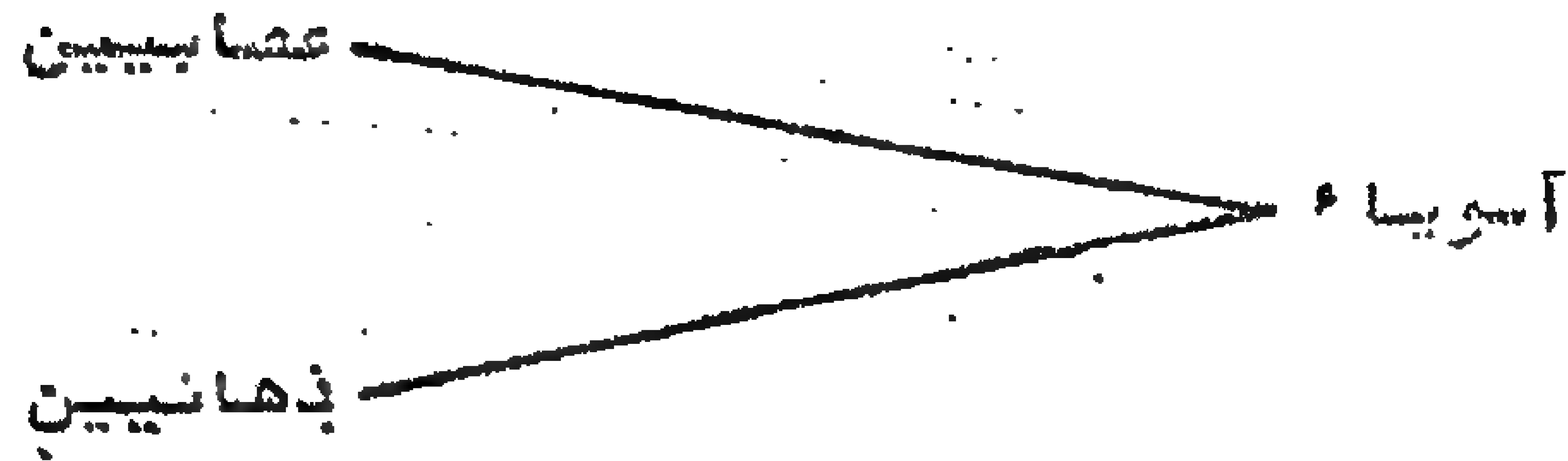
وهو يرى أن هناك ثلاثة أبعاد رئيسية للشخصية وهذه الأبعاد هى :ـ

الانطواء (الأنا الأعلى)	Introversion	الانبساط (الهو)	Extraversion
العصابية	Neuroticism	اللاعصابية	Non - neuroticim
الذهانية	Psychoticism	اللاذهانية	Non - psychoticism

وفى معظم انساق الشخصية التى تتناول السلوك المنحرف ، قد يتخذ المفهوم العام صورة منحنى جاوس أو المنحنى الجرسى . وهكذا يتوزع المفحوصون بحيث يكون الأسوياء عند المركز بينما يشغل العصابيون والذهانيون الطرفين المتقابلين ويكون لدينا موقف كالآتى :ـ



وهناك محاولات اخرى لتحديد الفروق بين الذهانيين والعصابيين والأسوياء ولقد افترضت هذه المحاولات وجود تصنيف ثنائى حيث يتفرع الأسوياء ، اما الى عصابيين أو الى ذهانيين .



ويقترح ايزنك بناء على هذه الخبرة المستفيضة والتجريب طريقة ثالثة أصيلة للنظر الى الفروق بين الأسوياء والعصابيين والذهانيين من الناس . وفيما يلى عرض تخطيطى مأخوذ بتعديل من المفاهيم المتعامدة التى اقترحها ايزنك فى كتابه « الدراسة العلمية للشخصية » ١٩٥٢ والتى عرضها فيما بعد فى كتاب « العمليات الادراكية فى المرض العقلى » ١٩٥٧ م ، الذى ألفه مع جرانجر وبرنجلمان .

وهكذا تستطيع الشخصية الانسانية أن تتحرك من السلوك السوى الى السلوك العصابى ، ومن السلوك السوى الى السلوك الذهانى ، ومن السلوك السوى الى مزيج من الأنماط السلوكية الذهانية والعصابية . ويمكن أن تحدث الحركة من السلوك العصابى الى المجال الذهانى — العصابى ثم الى السلوك الذهانى مباشرة دون أن تدخل منطقة السلوك السوى. والحركة العكسية ممكنة بطبيعة الحال بصورة متساوية . ويشعر ايزنك ان الحالات المختلفة اى الذهانية العصابية اكثر من حيث حدوثها عن الأنماط السلوكية العصابية الصرفة أو الذهانية الصرفة. ورجحان وجود الحالات المختلفة يتفق مع الخبرة الكلينيكية .

السلوك الذهانى (ب)	مزيج من السلوك الذهانى والعصابى (ج)
السلوك السوى (أ)	السلوك العصابى (د)

وتدل بيانات ايزنك على أن التصنيف الثنائى ، أى تصنيف الحالات على أساس أنها اما أن تكون كذا أو كيت قد انتهى ومضى الى غير رجعة . وان الأدق أن نضع الفرد فى الموضع أو المستوى الأقرب ملائمة مع ذاته الانفعالية الحقيقية واذا نظرنا الى التخطيط السابق فاننا نستطيع أن نرى أن الشخص (أ) سوى وأن الشخص (ب) ذهانى ولكنه قريب من حدود النمط المختلط. وأن الشخص (جـ) على الحدود الفاصلة لان يكون خليطا من الذهان والعصاب ولكنه أيضا قريب من الحدود الخارجية للسواء . وأن (د) يقع الى يسار منطقة العصاب الحقيقى ومتوغل فيها . وينبغى أن نسلم بأن هذا ليس الا تخطيطا للظاهرة وليس الظاهرة الحقيقية الاجرائية . وهو على أى حال يضمن تصويرا وثيقا العلاقات المتعامدة التى استخلصها ايزنك من دراساته التحليلية العاملية . ويشعر ايزنك أيضا أن الأبعاد الثلاثة السابقة للشخصية ليست الاحتمالات الوحيدة الممكنة وأن البحوث التالية قد تكشف عن مزيد من هذه الامكانيات . وهو يثنى على مهارة كاتل فى الكشف عن مزيد من الأبعاد فى دراساته عن الشخصية .

ويمثل المتغير الأول الذى عزله ايزنك من دراساته التحليلية العاملية ، تعارضا ذا قطبين بين الانطواء والانبساط . وفيما يلى وصف للمنطوى وللمنبسط :

المنطـــــــوى :

« المنطوى الخالص هادىء ومترو ومتأمل ومغرم بالكتب اكثر من غيره من الناس ومحافظ ومتباعد ، الا بالنسبة لأصدقائه المقربين وهو يميل الى التخطيط مقدما ، أى انه ينظر قبل أن يخطو اى خطوة ويتشكك فى التصرف المندفع السريع ولا يحب الاستثارة ، ويأخذ شئون الحياة اليومية بالجدية المناسبة ، ويحب أسلوب الحياة الذى حسن تنظيمه ، ويخضع مشاعره للضبط الدقيق ، ويندر أن يسلك بأسلوب عدوانى ولا ينفعل بسهولة ويعتمد عليه ويميل الى التشاؤم ويعطى اهمية كبيرة للمعايير الأخلاقية » (ايزنك ، كراسة تعليمات قائمته ص ٥) .

وقد اتضح أيضـــا أن المنطويين يتم اشراطهم على نحـــو افضـــل من

المنبسطين بطريقة هل وبافلوف . ومعرضون من الناحية الجبلية لان ينموا امكانيات قوية للاستثارة وامكانيات ضعيفة للكف . وهم أسرع فى أعمال العد أو الحساب فى ظل الظروف الضاغطة البطيئة وأبطأ حين تتغير الظروف بسرعة . ويعيدون انتاج الرسوم على نحو أسرع من المنبسطين ويتذكرونها لمدة أطول ، ويفرزون لعابا أكثر حين يستثارون بعصير الليمون وينامون عادة ساعات أقل من المرضى السيكايترين،وينامون ساعات أطول منهم اذا تناولوا مسكنا . ويحتمل أن يكونوا اكثر حساسية لعقاقير معينة ، ويصعب كفهم ، وهم اكثر تأثرا بالمنبهات ، ويستجيبون استجابات أقل من المعتاد للجرعات الصغيرة من العقاقير المسكنة ، ويحكمون على الفترات الزمنية بأنها أطول عند مقارنتهم بغيرهم . ويدخنون أقل من المنبسطين ولكنهم يفضلون الغليون، ويفضلون الصور الأقل فى اللون والأهدأ فى الظلال والأرق ، ويطلبون معلومات اكثر حين يواجهون مواقف جديدة . وهم أقل ميلا الى المقامرة ، ويرتبطون بالنمطين السوداوى والبلغمى عند أبقراط .

المنبسط :

« ان المنبسط الخالص شخص اجتماعى يحب الحفلات . وله اصدقاء كثيرون ويحتاج الى اناس حوله يتحدث معهم ولا يحب القراءة أو الدراسة منفردا ، ويسعى وراء الاستثارة ، ويتطوع لعمل اشياء ليس من المفروض أن يقوم بها ، ويتصرف بسرعة دون تروه وهو شخص مندفع على وجه العموم . وهو مغرم بعمل (المقالب) واجاباته حاضرة وهو يحب التغيير عادة ، ويأخذ الأمور ببساطة ، ومتفائل وغير مكترث ويحب الضحك والمرح ويفضل أن يكون دائم النشاط والحركة وان يقوم بأعمال مختلفة ، ويميل الى العدوان ، وينفعل بسرعة : ويمكن القول بصفة عامة انه لا يسيطر على انفعالاته بدقة ولا يعتمد عليها احيانا » (نفس المرجع ص ٥) .

ويصعب اشراط المنبسطين بطرق هل وبافلوف ، وهم معرضون بحكم جبلتهم لتنمية امكانيات استثارة ضعيفة ، وكف قوى . ولا يميلون فى ظروف المعمل الى الأعمال المتكررة ولديهم استعداد أكبر لاطفاء العناصر السلوكية المتعلمة ، وتشبعهم بالعمل أكبر من المنطوين ويظهرون تحسنا فى التذكر بعد

فترة الراحة ويتميزون بذاكرة اطول للأرقام ، ويستطيعون أن يمسكوا بأنفاسهم فترة أطول . وهم اقل تأثرا بالمثيرات ، ويستجيبون استجابات زائدة عن الحد للجرعات الصغيرة من العقاقير المهدئة ويحكمون على الفترات الزمنية بأنها اقصر اذا قورنوا بالمنطويين ، ويدخنون اكثر من المنطوين ويفضلون السجائر . ويفضلون الصور الأكثر الوانا واشراقا . ويميلون الى التركيز على التفاصيل عندما يواجهون مواقف جديدة . ويخاطرون بدرجة اكبر ويقامرون فى ظروف الخسارة اكثر من المنطوين ، ويرتبطون بالنمط الدموى والصفراوى عند أبقراط .

واذا كانت معظم مقاييس ايزنك التى استخدمها فى بحوثه تستوفى الشروط السيكومترية من ثبات وصدق .. الخ . فليس من شك فى أن النمطين اللذين استخلصهما من دراساته العاملية والتجريبية يمثلان نمطين مختلفين من البشر اختلافا يكاد يكون تاما . وفضلا عن وضوح اختلاف النمطين فقد استطاع ايزنك أن يقدم لنا وصفا موضوعيا خصبا لكل منهما يساعدنا على فهمهما . واسهام ايزنك الحقيقى فى هذه النقطة اذا قورن بسابقيه ممن عالجوا الأنماط بدأ بجالينوس وأبقراط وصولا الى كرتشمر ويونج . انه لم يكتف بالتفكير الآرائكى والتحليل العقلى والاستشهاد بأمثلة من الحياة اليومية وانما قام بعمل منهجى ونسقى وقدم لنا عددا كبيرا من المقاييس الفارقة بين النمطين والتى لها مغزاها النفسى . ويذهب ايزنك الى أن الهو تبدو لها السيادة لدى المنبسطين ، والآنا الأعلى لدى المنطويين . (هول ولندزى : ترجمة فرج وآخرين ، ص ٥٠١) .

العصابية :

ان بعد العصابية يشبه فكرة عدم الاتزان الانفعالى . فالأفراد الذين يقعون عند طرف بعد العصابية يميلون الى التعرض للقلق ويسهل استثارتهم . ويحتمل أن يشكون من الصداع والأرق وفقدان الشهية . وعلى الرغم من انه يزداد احتمال تعرضهم للاضطرابات العصابية فى ظل الظروف الضاغطة المتكررة الا أن معظم الأفراد لا يواجهون الا مشكلات قليلة ويؤدون عملهم على نحو سليم ويقومون بدورهم الأسرى والمجتمعى على نحو مناسب .

والعصابية بنية أولية وليست مجرد زملة من الأعراض ، وهى مشتقة من استثارة الجهاز العصبى المستقل ، وسلوك العصابى ليس واضحا كالمنبسط ، والعصابيون أقل قدرة على الرؤية فى الظلام من الأسوياء وحين تعصب عيونهم لحجب الرؤية يتأرجحون الى الأمام أكثر من الأسوياء . ومستوى حافزهم أعلى مما نجد عند الأسوياء .

والعصابية عامل ثنائى القطب يقابل بين مظاهر حسن التوافق والنضج أو الثبات الانفعالى وبين اختلال هذا التوافق . والعصابية ليست هى العصاب بل الاستعداد للاصابة به عند توفر شرط الانعصاب أى عندما يتعرض الانسان للضغوط والمواقف العصيبة .

الذهانيــة :

ويتميز الفرد الحاصل على درجة مرتفعة على هذا البعد بالخصائص الآتية : الذهانيون أقل طلاقة من الناحية اللغوية ، وأداؤهم منخفض فى الرسم فى المرآة وفى اختبار الجمع المستمر ، وينقشع الكف ويتبدد لديهم ببطء شديد ، وتركيزهم أقل وذاكرتهم أضعف ، وهم بطيئون جدا فى الأعمال العقلية والادراكية وهم قليلو الحركة وقد يبلغون حالة الاضطراب التخشبى ، وهم غير قادرين على التكيف مع التغير فى البيئة .

ولقد ربط ايزنك بعض الديناميات الأساسية فى الشخصية كما يراها مع ما قام به كل من بافلوف وهل من أعمال علمية ، وتوصل الى مسلمة عن الفروق الفردية تستند الى البنيات الجسمية المتضمنة فى عمل الروابط بين المثير والاستجابة فى الجهاز العصبى . وهكذا يرى أن الأفراد يختلفون فى ثلاثة خصائص : —

١ — يختلفون فى السرعة التى يتم بها الكف والاستثارة فى الجهاز العصبى

٢ — سرعة تبدد وتوزع الكف فى الجهاز العصبى .

٣ — قوة أو شدة الكف الناتج والانطفاء .

وقد اكد ايزنك على ميل المنطوين القوى وكذلك المنبسطين الى انماط سلوكية تميز كلا منهما وخاصة حين يتعرضون لمواقف ضـاغطة ومقلقة ، وعندما يواجهون صعوبات لا يمكن التغلب عليها وفقا لتفسيراتهم . ولقد اكد ايزنك على كلمة ميل أو استعداد الأفراد predisposed او نزعتهم ولم يناقش الأنماط باعتبارها متمايزة غريزيا .

وقد يجد الدارس لمفهوم ايزنك عن الانطواء والنمط الاكتومرفى عند شلدن ، ولمفهومه عن الانبساط والنمط الميزومرفى قدرا كبيرا من التوازى فى فكر الرجلين ، ولعل بعض تلامذة علم النفس يدرسون هذه العلاقة .

ولعله يتضح للدارس الآن اثر طريقة ايزنك الفرضية الاستدلالية على عمله. ولقد درس ايزنك ظاهرات متنوعة كالفروق بين الجنسين ، واختبارات القلق ، والآثار عبر الحضارية فى الشخصية ، وافراز اللعـاب ، وتأرجح الجسم كما أجرى تجارب على الحيوان وان دراساته وتجاربه صممت للكشف عن افكار قابلة للبحث وقد عمل هذا قبل أن يحاول التوصل الى فئات عريضة ومقولات غير مقولاته الأربع المعروفة وهى الانطواء ، الانبساط ، العصابية ، والذهانية. وفيما يلى نعرض ملخصا لنتائج دراسات ايزنك التحليلية التى قام بها خلال ما يقرب من ثلاثة عقود عن النمط ، والسمة :ـ

عوامل ايزنك	عوامل الشخصية	المتغيرات السياسية المرتبطة بها
العامل العام (أهمية كبيرة)	النمط (كوكبة من السمات)	ايديولوجية
العامل الطائفى	السمات (عادات متسقة)	اتجـاه
العامل الخاص	استجابات معتادة (يتكرر حدوثها فى ظروف مشابهة)	رأى معتاد
عامل الخطأ	استجابات معينة (فعل واحد)	رأى معين

واضح أن العمود الأول الى اليمين يشتمل على فئات ايزنك وهى مستقاة من التحليل العاملى . ولقد اكتشف ايزنك اربعة أنواع من العوامل من خلال ما قام به من تحليل عاملى لنتائج دراساته وتجاربه وهى : العامل العام ، والعامل الطائفى ، والعامل الخاص وعامل الخطأ . ولقد نتجت انماط الشخصية عنده من عوامله العامة . وينبغى أن نتذكر أن انماط الشخصية هى : الانطواء — الانبساط ، والعصابية — واللاعصابية ، والذهانية — واللاذهانية . ونتجت السمات عن العوامل الطائفية . ويؤكد ايزنك على انه ينبغى أن تعرف السمات تعريفا اجرائيا ، وأن تكون قابلة للقياس . وقد وجد أن السمات هى عادات متسقة للسلوك تقريبية وأن العوامل الخاصة قد نتجت عن الاستجابات المعتادة وهى أفعال سلوكية يتكرر حدوثها فى ظروف مشابهة . أما عوامل الخطأ وهى أقلها أهمية فتصدر عن الاستجابات الخاصة لاى فعل مفرد ولا يمكن استخدامها بدقة كبيرة فى مناقشة الشخصية أو نظرية الشخصية . (Bischof. pp. 495 - 499)

وتصور ايزنك للشخصية شبيه بتصور كاتل من حيث أن كليهما ينظر الى السلوك على أساس هرمى . فمن وجهة نظر ايزنك نجد عنده قاعدة التنظيم الهرمى الاستجابات النوعية التى يمكن ملاحظتها بالفعل . وفوق هذه مباشرة نجد الاستجابات المعتادة ، وفى المستوى التالى من الهرم نجد السمات وهى مماثلة لسمات المصدر عند كاتل ، وعند القمة نجد الانماط . فالأنماط عند ايزنك ابعاد أساسية للسلوك المستمر والمتصل اكثر من كونها فئات طبولوجية منفصلة . ولقد حدد ايزنك ثلاثة ابعاد او انماط اعتبرها وحدات أساسية للشخصية وهى العصابية ، والانبساط — الانطواء ، والذهانية .

(Feshback & Weimer, p. 321).

الذكـــاء :

ولقد دعم ايزنك فى مجال الذكاء النموذج ذا التنظيم الهرمى مثله فى ذلك مثل سابقيه من البريطانيين . فهناك عوامل اولية كالقدرة العددية والقدرة اللغوية والقدرة المكانية ، والطلاقة فى الكلمات والذاكرة الصماء والاستدلال ، ولكن هذه يرتبط بعضها مع البعض الآخر لكى تكون عاملا عاما للذكاء . وعندا

المستوى الأوسط من العمومية قد يكون من المفيد أن نميز بين العامل اللفظى والعامل غير اللفظى اى عامل الأداء . وهذا ما تقدمه لنا اختبارات وكسلر للذكاء . وهناك اتفاق عام بدرجة كبيرة بين المحللين العامليين على هذا الموقف .

ولقد كان تحليل ايزنك المفصل للأداء فى نسبة الذكاء بالتعاون مع فورنييه وهوايت (P.O. White & D.W. Feurneaux) قائما على تقسيم درجات اختبارات نسب الذكاء الى ثلاثة جوانب تتباين على نحو مستقل الى حد ما وهى : —

١ — سرعة الأداء العقلى ولها علاقة بمستوى الصعوبة ، ذلك انه كلما ارتفع هذا المستوى زاد الزمن المستغرق للأداء . وعندما ندرك مشكلة لأول مرة يبدأ فى المخ تتابع منتظم للوقائع ينتج عنه سلسلة من المحاولات للوصول الى الحل . ويستند مفهوم السرعة العقلية على المعدل الذى تعمل به أساليب التنظيم وتتفكك ويعاد تنسيقها .

٢ — الدقة فى الأداء وهى وظيفة لميكنزم مراجعة الخطأ . اى انه كلما تكونت فى المخ محاولة للحل فان صلاحيتها تختبر كاجابة للمشكلة الحقيقية موضع الاعتبار .

٣ — وتستمر عملية القيام بحلول تجريبية واختبارها حتى يتم التوصل الى حل صحيح أو حتى يؤدى نقص المثابرة الى تحويل الانتباه الى مشكلة اخرى .

ونسبة الذكاء تمثل اتحادا مفيدا لهذه المكونات الثلاث وهى السرعة والدقة والمثابرة . والاختبار الجيد للذكاء أو مجموعة الاختبارات هى التى تزودنا بقياسات منفصلة لهذه الأبعاد . والاختبارات الجيدة تزيد من قدرتنا على التنبؤ بالنجاح فى الحياة العملية .

وقد ظهرت بعض الارتباطات بين هذه المكونات للذكاء وبين الشخصية . وقد وجد أحد أعوان ايزنك وهو بريرلى H. Brierley أن العصابيين يقدرون عامل السرعة تقديرا اقل قيمة من المتزنين . وأن العصابيين المنطوين كانوا

أبطأ من العصابيين المنبسطين ، ولكن المجموعة الأخيرة كانت أقل دقة من المجموعة الأولى . وأن المثابرة لم تميز بين الجماعتين ولم تلعب أى دور فى السرعة الملاحظة وفى الفروق بين المنبسطين والمنطوين فى الدقة . والمعروف عن نسب قابلية هذه المكونات الثلاث للتأثر بالوراثة وبالتعديل قليل ومحدود حتى الآن . غير أنه يبدو أن من المعقول أن نقول أن الدقة والمثابرة قد يكونا أقل قابلية لتأثير التعلم والدافعية عن السرعة . ويلخص ايزنك موقفه فى هذه النقطة عام ١٩٧٣ فيما يتصل بقياس الذكاء على النحو التالى : —

« ان المدخل السيكومترى الصرف الذى ميز العمل الذى تم القيام به فى النصف قرن الماضى لا يكفى . ان ما نحتاج اليه هو مدخل تجريبى بدرجة اكبر ، ويتسق بدقة مع نمط العمل الذى تم على الاشتراط ، والادراك والتعلم اللغوى »

Wolman B., International Encyclopedia of Psychiatry, Psychology, Psychoanalysis & Neurology Vol Iv (pp. 246-427).

السلوك الاجتماعى :

لقد وسع ايزنك نسق الشخصية بحيث يصل الى السلوك الاجتماعى المعقد . فلقد اظهر ايزنك أن حصول فرد على درجات عالية فى عوامل الشخصية الثلاث وهى الانبساط ، والعصابية ، والذهانية ، وخاصة فى العامل الأخير يهيىء الفرد للسلوك الجانح والاجرامى .

ولقد درس وفحص كوكران Cochrane ١٩٧٤ الدراسات المتوافرة عن نظرية ايزنك والتى طبق فيها استخبارات على المساجين وعلى جماعات ضابطة وانتهى الى انه على الرغم من انه قد وجد أن المساجين بصفة عامة أعلى فى العصابية من الجماعات الضابطة الا انهم ليسوا أعلى منهم فى الانبساطية . والحق ان عددا من الدراسات قد بين ان المجرمين اكثر انطوائية من الجماعات الضابطة . ولقد حاول ايزنك عام ١٩٧٤ أن يفسر هذه النتائج غير المريحة فاقترح أن الاستخبارات المستخدمة (EPI & PEN) كانت تقيس مكون الاجتماعية بينما المكون الذى يتصل بالقابلية للاشتراط هو مكون الاندفاعية والنزق impculsivity . ولسوء الحظ فان الشواهد التى تدعم

صحة هذه العبارة فيما يتصل بالاشتراط قليلة . ويذهب كوكران الى أن هذه النظرية قد فقدت مصداقيتها فى صورتها الأصلية وأن هذا يثير شكوكا جادة فيما يتصل بسلامة نظرية ايزنك العامة فى التطبيع الاجتماعى .

وقد اتضح فيما يتصل بالسلوك الجنسى أن المنبسطين يحيون حياة سعيدة نشطة ، وتتسم بالتباين فى الحياة الجنسية (عندما يقارنوا بالمنطوين) وأن العصابيين يتميزون بطاقة غريزية عالية مع عوائق تكف الاشباع ، وأن الذين يحصلون على درجات عالية فى الذهانية ينغمسون فى سلوك جنسى عابث وشاذ يندر أن يجدوا فيه اشباعا .

ولقد توصل ايزنك فى كتابه سيكولوجية السياسة ١٩٥٥ الى وجود عاملين أساسيين فى الاتجاهات النفسية هما : الراديكالية (التطرفية) مقابل المحافظة ، radicalism versus conservatism والصرامة العقلية مقابل الرقة العقلية toughmindedness versus tendermindedness

فأصحاب الشخصية التسلطية كما تقاس بمقياس ف F - Scale يتميزون بالمحافظة وبالصرامة العقلية ، أما أعضاء الجماعات الشيوعية فيتميزون بالصرامة والراديكالية . وهكذا نجد أن الفاشيين والشيوعيين يختلفون على عامل الراديكالية المحافظة اختلافا كبيرا ولكنهم يتشابهون فى عامل الصرامة العقلية . ولقد كشفت البحوث اللاحقة عن أن عامل الراديكالية يستند الى حد كبير الى الاهتمامات الطبقية بينما يرتبط عامل الصرامة بالخصائص الذكرية فى الشخصية كالذهانية والعدوان .

ولعل اسهام ايزنك الرئيسى يمكن تلخيصه فى محاولته الربط بين علم الأحياء وعلم الاجتماع . وهو يتتبع سلسلة العلية فى طريق طويل من البنيات التشريحية والفسيولوجية الى المفاهيم النيرولوجية كالتنبه والتنشيط الى الفروق الفردية فى التعلم والاشتراط والادراك والعتبات الحسية وغيرها من الظاهرات المعملية . وهو ينظر الى هذه كلها كسوابق لمفهوم الشخصية؛ وهى مع مؤثرات بيئية معينة تحدد الأنماط الظاهرة للانبساط والعصابية وهلم جرا التى تترصل اليها الاستخبارات . وفى جانب العواقب واذا أضفنا مؤثرات بيئية أخرى للمعادلة نجد ظاهرات اجتماعية مختلفة كالمحصيلن ،

والجريمة ، والقابلية للتعليم ، والسلوك الجنسى ، والاتجاهات السياسية ، كما نجد انماطا سلوكية اكثر تحديدا كالاستهدافات للحوادث ، والفكاهة والتفضيلات الجمالية والاختيار المهنى وانشطة قضاء وقت الفراغ. واستطاع ايزنك بربطه مفهوم الشخصية بالبيولوجيا من ناحية وبالسلوك الاجتماعى من ناحية اخرى (وكلاهما يمكن ملاحظته على نحـو مباشر) أن يكسر الدائرة المغلقـة التى يحصر فيها دعاة التحليل العاملى انفسهم حين يعتمدون فى دراساتهم على معاملات الارتباط بين متغيرات الاستخبارات .

الأساس البيولوجى للشخصية :

هناك شواهد كثيرة تدل على أن لنظرية ايزنك فى الشخصية أساس بيولوجى واضح . وحين يدرس الفرد أبحـاث ايزنك وكتاباته يتضح له أن لجهاز الانسان العصبى مكانة فى نظريته وأنه من مبادئها الأساسية .

ان الأسباب والعوامل المؤثرة فى نظرية ايزنك منغرسة على نحو راسخ فى علم الأحياء وهى معقدة تعقيدا كبيرا . فالشخصية لا تورث على نحو مباشر بل يرث الفرد على الأرجح نمطا معينا من الجهاز العصبى يجعله ميالا للنمو فى اتجاه معين . ويتحدد الشكل النهائى للشخصية نتيجة للتفاعل بين استعدادات الفرد البيولوجية والمؤثرات البيئية التى يتعرض لها فى حياته . والصيغة الأصلية لنظرية ايزنك تعتمد اعتمادا كبيرا على أعمال بافلوف وهل العلمية . وترتبط سهولة تكوين الفرد للاستجابات الشرطية وبقائها بالتوازن بين الاستثارة أو التنشيط والكف أو الكبح داخل الجهاز العصبى المركزى . ويسهل تعلم الروابط بين المثير والاستجابة حيث تتجمع استثارة سريعة وقوية فى الجهاز العصبى وميل الى أن يتم الكف على نحو بطىء وضعيف . والمنطـوون يرثون مثل هـذا النظام العصبى ، وهم بالتـالى قادرون على الاشتراط السريع والقوى . أما المنبسطون فيكتسبون الاستجابات الشرطية على نحو بطىء وضعيف .

لقد اتضح ارتباط الأسـاس الفسيولوجى لهذا الفـرق بين المنطوين والمنبسطين فى القابلية للاشتراط بوظائف الجهاز الشبكى المنشط Reticular Activity System (RAS) فى المخ .. والوظيفة الأساسية لهذا الجهاز

فيما يبدو هي في المحافظة على أن يبقى الفرد في الحالة المثلى او القصوى من حيث التنبه أو اليقظة . وللجهاز الشبكى المنشط وظيفة اخرى بالاضافة الى التنشيط وهى الكف والكبح . ولم يستطع كلاريدج Claridge أن يجد عام ١٩٦٧ علاقة بسيطة بين مستويات الانبساط والعصابية والتنشيط او التنبه الفسيولوجى غير انه على أية حال وجد علاقة معقدة بين التنبه او الاستثارة وموضع الفرد على هذين البعدين.وهكذا يبدو المنطوون العصابيون أكثر استثارة وتنبها اذا قورنوا بالأقل منهم فى الانطواء والعصابية .

وتتصل الانفعالية او العصابية باستجابية أو ترجيع الجهاز العصبى الاوتونومى فالأفراد الذين يتميزون بتقلب اكبر وتغير فى أجهزتهم العصبية الاوتونومية اكثر استعدادا للاستجابة بقوة للخبرات المخيفة وغير السارة ، وذلك بزيادة فى معدل نبضات القلب ، والتوتر العضلى ، ونشاط الغدة العرقية وهلم جرا . اما الأفراد الذين يحصلون على درجات عالية فى العصابية فيميلون الى أن تكون عتبتهم الحسية للاستثارة الانفعالية منخفضة. وسوف يؤدى هذا الى تنشيط اكثر تواترا لأجهزتهم العصبية الأوتونومية الذى تطلق بدورها الجهاز الشبكى المنشط RAS وهكذا فان الجهاز الشبكى المنشط سوف يكون فى حالة استثارة او تنبه بالنسبة للأفراد الذين يحصلون على درجات عالية على بعد العصابية فى احوال كثيرة.وهذا معناه أن هؤلاء الأفراد يغلب أن يشبهوا المنطوين الذين يتميزون بالتنبه والاستثارة أكثر من المنبسطين . (Peck & Whitlow 1975, pp. 71-73)

ويرتبط بما سبق أن العقاقير المسكنة تزيد من الكف اللحائى وتقلل من الاستثارة أو التنبه اللحائى وبالتالى تؤدى الى انماط سلوكية منبسطة . اما العقاقير المنبهة فتنقص الكف اللحائى وتزيد من الاستثارة او التنبه اللحائى وبهذه الطريقة تؤدى الى انماط سلوكية منطوية.والمفحوصون الذين يحصلون على درجة عالية جدا فى الانبساط (أو الهستيريون) يتميزون بالزيادة السريعة فى الكف المركزى ويكون للعقاقير المنبهة تأثير ضعيف فيهم ، ولكنهم يستجيبون للمسكنات على نحو يظهر تغيرات واضحة فى السلوك . اما الانطوائيون (أو الديستيميون) فيصدر عنهم السلوك العكسى ، فلديهم كف مركزى وهم اكثر حساسية للمنبهات ويتعاطون مقادير أكبر من المسكنات دون

أن يصدر عنهم الا القليل من التغير فى الأداء . (فوس ترجمة فؤاد ابو حطب ٣١٩ — ٣٢٠) .

ولقد توصل ايزنك من خلال دراسته للتوائم المتماثلة الى أن العصابية يمكن أن يكون لها اساس جبلى ، وأن تقوم على الوراثة . وباستخدام أدوات وضعها بنفســـه واختبارات لقياس العصابية وجد أن معامل الارتباط بين السلوك العصابى بين التوائم المتماثلة قد بلغ ٨٥ر. بينما بلغ معامل الارتباط هذا بين التوائم الأخوية ٢١ر. فقط . وهو يذهب الى القول أن العلاقات بين الوالدين واطفالهما قد تتحدد بالوراثة فعلا نتيجة للتأثير الكلى للبيئة .

ولكى يبلور ايزنك تفكيره فى هذا المجال كتب عام ١٩٦٧ كتابا بعنوان « الأساس البيولوجى للشخصية » The Biological Basis of Personality واقترح فيه أن لبعض قوانين السلوك اساس بيولوجى كامل . وثمة بعدان متضمنان فى هذه النقطة . أحدهما يتناول الانفعالية والعصابية وعــدم الاتزان . والثانى الانطواء — الانبساط . وكلاهما يتأثر بالعوامل الوراثية البيولوجية عند الانسان . وقد ضمن كتاباته التصنيف القديم الذى قــدمه أبقراط وجالينوس أى أنه قبل على نحو ما مفاهيم النمط الســوداوى ، والنمط الدموى ، والنمط البلغمى ، والنمط الصفراوى وهى انمـــاط ترتبط بالتكوين الجبلى للفـــرد . وهكذا نجد أن هنـــاك أسسا بيولوجية وراء المفـــاهيم السيكولوجية. وهناك علاقة بين البنية العضوية للانسان وقابليته للاشتراط، وانماط الأمراض التى قد يتعرض لها واستجاباته للعقاقير المختلفة .

التشخيص الطبى النفسى :

لقد هاجم ايزنك طرق التشخيص السائدة فى هذا المجال قائلا « فنحن اذن نتوصل الى صورة كئيبة حيث نستخدم اختبارات اختيرت على نحـــو تعسفى غير ثابتة ولا صادقة للتوصل الى تشخيص جزافى الى حد كبير غير صادق ولا ثابت منبت الصلة بطرق العلاج المستخدمة وهى طرق بدورها غير فعالة بالمرة » (1970, p. 171)

ولقد صدر هذا الهجوم على طريقة تصنيف الاضطرابات الطبيـــة

النفسية من جهات عديدة ، ولكن هجوم ايزنك كان اكثرها بناء واستمرارية ويستند الى قدر هائل من العمل التجريبى فى مجال قياس الشخصية وتقويمها وفى مجال التعلم بالنسبة للأسوياء . ويدعو ايزنك الى مدخل فى التشخيص السيكياترى يستند الى بعدين رئيسين هما العصابية والذهانية وكلاهما يشكل متغيرا متصلا من الشذوذ الشديد الى السواء . وقد ترسخت العصابية كبعد فى الشخصية السوية على اساس من الشواهد العلمية ولكن الذهانية باعتبارها بعدا فى الشخصية السوية قد اهمل حتى وقت قريب . وعلى الرغم من أن كلاريدج Claridge وشابا Chappa (1973) قد وجدا شاهدا يدعم القول بأن الذهانية بعد من ابعاد الشخصية السوية ، الا انهما ايضا وجدا عددا من النواحى المتشابهة بين المفحوصين المنخفضين فى العصابية والمرتفعين فى الذهانية فى عدة مقاييس نفسية وفسيولوجية . وهما يقترحان أنه بالنسبة لبعض الأفراد قد يعكس انخفاض الدرجات فى العصابية نوعا من التبلد الانفعالى الذى يرتبط بأشكال معينة من الشخصية الذهانية التى لا يقيسها مقياس الذهانية الذى وضعه ايزنك .

وفى اطار المجموعة العريضة من الاضطرابات العصابية يميز ايزنك بين الاضطرابات الديستيامية dysthymic (الاكتئاب والوساوس والمخاوف المرضية) والتى تتميز بارتفاع فى العصابية وفى الانطواء ، والهستيريين والسيكوباثيين الذين يتميزون بارتفاع فى العصابية والانبساط . ولقد ايدت عدة دراسات هذه التنبؤات بالنسبة للمجموعة الأولى ، أما الهستيريون فقد اتضح اختلافهم عما اقترحه ايزنك . ويبدو أن الهستيريين اقل الى حد ما من الديستيامين فى بعد العصابية وعاديين فى الانبساط . اى انهم يتميزون لا بارتفاع فى الانطواء ، ولا فى الانبساط .

وتعزى الاضطرابات الديستيامية الى اكتساب استجابات انفعالية شرطية (قلق متعلم وردود افعال خوف مكتسبة) لمثيرات حيادية عادية ، وهذه الاستجابات الشرطية والحركات ازاءها تشكل الاضطراب العصابى . والهستيريون بحكم انبساطيتهم النسبية اقل قابلية للاشتراط ، الا فى المواقف التى تشتمل على مثيرات قوية جدا . وتدعيما لهذه النظرة يذهب ايزنك الى أن الاستجابات وردود الأفعال الهستيرية تحدث عادة فى المواقف الضاغطة

جدا كما يحدث فى ميدان المعركة . وتعتبر الذهانية أيضا بعدا متصلا يتراوح ما بين السواء الى الشذوذ الشديد ، ويعتقد ايزنك أن التمييز السيكياترى التقليدى بين الفصامين وذهان الاكتئاب الدورى لم تدعمه الشواهد ، ولو أن الموقف ما زال غامضا . وحتى الآن لم يبذل ايزنك جهدا كبيرا فى الربط بين الذهانية والأساس البيولوجى للشخصية .

وعلى الرغم من أن النظرية قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاج السلوكى للعصاب ، الا أن تأثيرها على الممارسة العلاجية كان ضئيلا جدا .ومن الممكن أن نشير الى شواهد عابرة عن التطبيقات المباشرة فى العلاج وأن معظم المعالجين السلوكيين لا يستخدمون مفاهيم الانبساطية والعصابية فى عملهم . وقد اشتقت عدة مقترحات تتصل بأسئلة مثل هل من الأفضل استخدام جلسات العلاج الطويلة أو القصيرة ؟ ولكنها لم تبحث تجريبيا فى الموقف الكلينيكى . ويساوى النقطة السابقة فى الأهمية دور مستويات الانبساطية والعصابية فى التنبؤ بنتائج اجراءات العلاج السلوكى . ولقد أدى نقص الشواهد فى هذا المجال الى ضياع أمل المعالجين السلوكيين الذين عقدوه على استخدام اختبارات الشخصية المقننة كمنبئات بالتحسن الناتج عن العلاج أو كمقاييس للتغير .

تنمية السلوك العصابى :

وفقا لما يراه ايزنك يمكن تصنيف كل الأعصبة باعتبارها ناتجة اما عن زيادة فى الاشتراط Overconditioning أو نقص فيه underconditioning ويطلق على الفئة الأولى النمط الأول Type I من الاضطراب ، ويطلق على الفئة الثانية من الأعصبة النمط الثانى Type II . وهناك ثلاثة خطوات فى اكتساب النمط الأول من الاضطرابات .

فى الخطوة الأولى يتعرض الشخص لحادثة صدمية واحدة أو لسلسلة من الحادثات الصدمية الفرعية مما يؤدى الى ردود افعال قوية غير شرطية انجذابية Sympathetic فى الجهاز العصبى المستقل . وقد تكفى ردود الأفعال هذه لاحداث خلل فى السلوك .ويتوقف هذا على شدة الصدمة أو فترة بقائها ؛ كما يتوقف على الاستجابة الفسيولوجية للفرد .

وفى الخطوة الثانية من نمو العصاب ترتبط الامارات الحيادية سابقا بمثيرات غير شرطية تنتزع ردود الأفعال الانفعالية العنيفة . ومن خلال ارتباط المثيرات الحيادية سابقا مع الاستثارة الاوتونومية ينتزع المثير الأصلى غير الشرطى (الصدمة) والمثيرات الشرطية (والتى كانت من قبل حيادية) السلوك الانفعالى غير المنتظم وغير المتوافق والذى كثيرا ما يميز العصابى . فاذا انتزعت الاستجابات الشرطية مرة أخرى دون الصدمة المرتبطة بها فان الاستجابات تنطفىء . وهكذا فبمواجهة المثيرات الشرطية دون المثيرات غير الشرطية التى ارتبطت بها تضعف قدرة المثيرات الشرطية على انتزاع الاستجابات الشرطية وينطفىء العصاب. ولما كان جميع العصابيين لا يظهرون تحسنا خلال مواجهة المثيرات التى تولد الخوف (وبالتالى تفسح المجال للانطفاء) فاننا فى حاجة الى خطوة ثالثة لاكتساب السلوك العصابى .

وتتم الخطوة الثالثة حين يصدر الشخص استجابة تجنب وذلك برفضه مواجهة المثيرات التى تود الخوف عنده. ولما كان كل منا قادر على ان يتصور أو يتخيل الصدمة تصورا حيا ، فانه يستطيع أن يستعيد الظروف التى خلقت عصابية، وان يعزز باستمرار الصدمة الأصلية . وفضلا عن ذلك فانه من خلال المزاوجة بين الصدمة المتخيلة مع مثيرات أخرى غير التى ارتبطت بها فى الأصل ، تزداد الامكانية لحدوث مثيرات شرطية اضافية وامتداد للسلوك العصابى بغير حدود . ومن بين الزملات التى يصنفها ايزنك فى النمط الأول باعتبارها ناتجة عن زيادة فى الاشتراط حالات القلق وردود الأفعال للمخاوف المرضية ، والاضطرابات الوسواسية والقهرية . ومهما يكن من شىء فان الاضطرابات المهجورة من النمط الأول لا تحدث كلها بسبب استجابات التجنب . ويبدو أن هنك مجموعة ثانية من النمط الأول من الاضطرابات تتكون من خلال الاخفاق فى انطفاء المثيرات الشرطية (Eysenck 1973) ووفقا لما يراه ايزنك فان استعادة الخوف المرتبط بالمثيرات الشرطية التى لا يتبعها تعزيز تثير خوفا اكبر وبالتالى تحدث تغذية راجعة موجبة . واثر الحضانة هذا كما يسمى يعزز المثير الشرطى وبالتالى يمنع انطفاء الاستجابة الشرطية .

ويمثل النمط الثانى من الاضطرابات الاخفاق فى اشراط العادات

المستحسنة اجتماعيا والتوافقية . وهنا يسلم ايزنك أنه حين ينغمس الطفل فى السلوك غير اللائق ، فانه يتلقى عقابا يتفاوت فى شدته من الاتراب والمعلمين أو الآباء مشروطا بالسلوك غير اللائق ومترتبا عليه . وهكذا يصبح السلوك غير اللائق المثير الشرطى ويصبح العقاب المثير غير الشرطى الذى يؤدى الى استجابات الألم والخوف . ومع تكرار اقتران السلوك غير اللائق مع العقاب، ترتبط استجابة القلق الشرطية والخوف على نحو مباشر بالسلوك غير اللائق . وارتباط الخوف والقلق بالسلوك غير اللائق تؤدى الى كفه . وهذا الكف يميل الى التعميم ليشمل الانماط السلوكية غير اللائقة الأخرى والتى يطلق عليها الآباء أنماط سيئة . وهكذا ففى النمو السوى ينشأ النسق الخلقى والذى نسميه ضميرا عن طريق الاشتراط الكلاسيكى وفى الاضطرابات من النمط الثانى ، يخفق الاشتراط وتظهر انماط سلوكية مختلفة مثل الكذب المتأصل والشخصية السوسيوباثية (التى تنحصر اضطراباتها فى مجال علاقاتها الاجتماعية ، والمعادية للمجتمع) والتبول اللارادى الليلى.

وثمة نمط ثالث من الاضطرابات يعالجه ايزنك باعتباره فئة فرعية خاصة من النمط الثانى من الاضطرابات وينمو حين يعزز الفرد بسبب سلوكه غير اللائق كالفتشية وغيرها من الانحرافات الجنسية . (Wolman 1977)

التعلم والعلاج السلوكى :

الأعراض العصابية يتم تعلمها عن طريق عملية الاشتراط . فاذا اردنا التخلص من هذه الأعراض العصابية المكتسبة فلا بد أن نبحث عن الوسائل التى تساعد على حل الروابط الشرطية أو الاقتران السىء التوافق . وترتبط بعض خصائص الشخصية على نحو مباشر بالاشتراط . يختلف الأفراد فى سرعة اكتساب الاستجابات الشرطية ، كما يختلفون فى قوة هذه الاستجابات المعتادة ومقاومتها للتفكك ولقد اتضح لايزنك من خلال دراساته أن الاشخاص المنوطين يتميزون بسرعة اكتساب الاستجابات المعتادة وبقوتها ؛ أما المنبسطون فانهم ضعف فى الاشتراط واكثر ميلا أو استعدادا لفقدان الاستجابة الشرطية حيث لا تتوافر الاثابة ومعنى هذا أن الأشخاص العصابين تكوينيا والذين هم على درجة مرتفعة من الانطواء يكتسبون الأعراض الدالة على سوء التوافق أكثر من العصابيين المنبسطين .

وهكذا يشعر ايزنك بضرورة استخدام نظرية التعلم ليعيد بناء السلوك الانسانى لان اساليب العلاج النفسى سواء أكانت فرويدية أو فرويدية جديدة قد دخلت طريقا مسدودا ، رغم محاولاتها تحقيق أهدافها . ولما كانت الفرويدية غير متسقة ولا تستطيع توليد استنباطات قابلة للاختبار ، فانه قد آن الآوان لفحص السلوك الانسانى ومشتقاته فى الاطار الكامل لما تم عمله فى نظرية التعلم . وهو يستخدم النماذج النظرية عند بافلوف وثورنديك وتولمن وجثرى وهل ، كما انه يشيد بأعمال مورر وسبنس وخاصة واطسن. ويلخص ايزنك فكرته عن العلاقة بين الاشتراط والعصاب فيقول : « اننا متى ما وافقنا على أن التعلم والاشتراط اداة لتحديد الانواع المختلفة من ردود الفعل التى تصدر استجابة للاثارة البيئية فاننا سنجد أن من الصعب جدا أن ننكر أن ردود الأفعال العصابية ردود افعال متعلمة كغيرها ، وينبغى أن تطيع قوانين التعلم » . (Behavior Therapy and Neuroses, p. 5)

لقد كان ايزنك يأمل فى التوصل الى تنبؤات افضل ومؤشرات افضل لفهم بناء الشخصية وديناميتها . والمفهوم الأساسى عند ايزنك فى هذا المجال كما بينا من قبل هو قابلية الكائن الحى للاشتراط . والتعلم عامل قوى ومؤثر فى الشخصية الانسانية فالفرد لا يتعلم أن تكون له شخصية فحسب، بل أنه حين يعاد بناؤها وتكوينها فان ذلك يتم وفقا لقوانين التعلم وخاصة تلك التى سلم بها بافلوف وهل .

واهتمام ايزنك بنظرية التعلم ودورها فى اعادة بناء الشخصية يظهر فى اسهامه فى نشر مجلة علمية بعنوان Behavior Research and Therapy

وقد بدأت فى الظهور عام ١٩٦٣ وهى مجلة دولية ومتعددة الحقول ويشارك فى تحريرها مورر ، وولب ويهتم ايزنك على وجه الخصوص بنظرية العاملين عند مورر والخاصة بتغيير السلوك .

وقد نشر ايزنك بعد أن قدم مفهوم العلاج السلوكى بخمس السنوات كتابا بعنوان « أسباب العصاب وعلاجاته » The Causes and Cures of neuroses وفى هذا الكتاب يحاول ايزنك وراشمان Rachman محاولة جادة ترجمة النتائج التجريبية الى تطبيقات كلينيكية ، معتمدا اعتمادا كبيرا

على نظرية الاشتراط . ولم تكن نقطة التركيز كيف أصبح الشخص على ما هو عليه ، وانما على كيف يقوم السلوك بوظيفته حاليا . ولقد قسم الاضطرابات الى مجموعتين ، تلك التى تم فيها تعلم عادات خاطئة على أساس الخوف الشرطى ، والتى لم يتم تعلم العادات القيمة فيهما . أو أن العادات الخاطئة قد تعلمت اداتيا وليس لتجنب الخوف والمجموعة الأولى تتطلب اجراءات انطفاء اما الثانية فتتطلب تكوين الارتباطات بين المثير والاستجابة التى تنقصنا ، والعلاج لا يسعى الى تغيير السلوك المضطرب فحسب ، بل الى دعم تنمية الأنماط السلوكية الفعالة البديلة .

(Ford and Urban, 1967)

وترتيبا على ذلك فان ايزنك وراشمان يشعران انه ينبغى على المعالج أن يصمم العلاج بحيث يلائم كل مريض أو عميل ولا يصمم بحيث يتلاءم جميع المرضى أو العملاء مع نسق فى العلاج بملامحه الشاملة . وعلى الرغم من أن نظرية التعلم عند البعض كما يعبر عنها العلاج السلوكى نسق شامل ، فان ايزنك يرى أن الاتجاه العام للعلاج السلوكى فردى بدرجة عالية . فكل عميل أو مريض يتطلب نموذجا فرديا يحل فى اطاره مشكلاته الانفعالية .

البحوث المميزة وطرق البحث :

ان ايزنك مبتكر فى الطرق التى يستخدمها فى دراسته للشخصية الانسانية . وطرقه كثيرة ومنوعة ولكنها جميعا تتجه لدراسة العلاقة بين السلوك ، والانطواء — الانبساط ، والعصابية — السواء ، والذهانية — السواء . ولقد استخدم خلال سنوات طويلة طرقا منوعة لدراسة متغيرات كثيرة منها : اشراط جفن العين ، الاستجابة الجلفانية للمثير ، تقدير الذات على مقاييس متدرجة ، افراز اللعاب ، التدخين ، الرسم فى المرآة ، الرؤية فى الظلام ، القدرة على ارجحة الجسم ، النكات ، والرسوم الكاريكاتيرية ، ودراسة الخط ، والتنويم المغناطيسى وطرائق أخرى ، هذا فى مجال الانسان ، كما درس الحيوان ايضا . وهذه القائمة من الطرق تدل على مدى اتساع منهجه فى البحث .

وطريقة ايزنك الأساسية طريقة فرضية استدلالية ، أى انه يضع

الفروض ثم يختبرها استدلاليا . وهو يرى أن النظرية الفرضية الاستدلالية تقوم على « الجهد العلمى الذى يحاول تخطى الامبيريقية الخالصة والاستقراء البسيط الى افتراض القوانين والنظريات العامة والاستدلال منها على كل من العواقب الملحوظة وغير الملحوظة بعد ... وتكمن القيمة التى يمكن ان تقدر بها النظرية فى التوصل الى مثل تلك الاستدلالات واختبارها، ومن خلال هذا النوع فحسب من الاجراءات التجريبية يمكن انجاز تلك التحسينات وتحقيق مزيد من التعقيد دون الاقلال من الدقة » (ايزنك ١٩٥٥ ص ٤٧) (هول ولندزى ترجمة فرج واعوانه ص ٥٠٤) .

ولقد جمع ايزنك بين طرق القياس النفسى وبين الاجراءات الكلينيكية، كما انه استخدم المقاييس التجريبية بغية التقليل من اخطار الذاتية مع مراعاة تطبيقها على اعداد كبيرة والاستعانة بالتحليل العاملى لتحاشى ضيق النظرة التى تميز التجريبيين يقول ايزنك « ينبغى أن ترتكز البحوث على اساس متسع قدر الامكان يشمل التقديرات والتقديرات الذاتية واختبارات السلوك الموضوعية والتقديرات البدنية والقياسات اللاارادية وغيرها من المقاييس الفسيولوجية المناسبة ، والسيرة الذاتية وغيرها من المعلومات التاريخية ، وكذلك بالتأكيد جميع انواع المعلومات الواقعية والموضوعية التى قد تستخدم لتدعيم الفروض موضع الفحص » (١٩٥٣ ، ص ٣١٩) . (المرجع السابق ص ٥٠٥) .

وايزنك مثله فى ذلك مثل كاتل وجيلفورد يفضل التحليل العاملى فى معالجته للبيانات التى يجمعها وهو يختلف عن كاتل ويقترب من جيلفورد من حيث انه يفضل ان يركز على المستويات العليا من التجريد حيث يتجاهل العوامل من المرتبة الأولى التى تظهر عند تحليل البيانات التى جمعها عن الشخصية . وهذا معناه أن ايزنك يستخلص عاملين أو ثلاث فى حين ان كاتل يستخلص عشرين عاملا أو قد تزيد عن ذلك ويتوقف هذا على المواد الخام التى يستخدمها وهناك فرق أساسى بين هذين المنظرين ذلك ان كاتل يفضل محك التدوير وصولا الى تكوين بسيط وكثيرا ما يكون مائلا . وكاتل يشعر انه بذلك يقترب من الطبيعة الحقيقية لبناء الشخصية . ويعتمد ايزنك

من ناحية أخرى على التدوير المتعامد على محكات خارجية أخرى . وهكذا يقول كلاين Klein

« ان نتيجة الفرق الأول تشرح لنا الفــرق الثانى ، ذلك لانه لما كان التدوير الى تكــوين بسيط يؤدى عادة الى عوامل من المرتبـــة الأولى مائلة ومترابطة ، فانه يمكن مرة أخرى أن نحللها عامليا للحصول على عوامل من المرتبة الثانية وهكذا ، حتى نصل الى عوامل من مرتبـــة أعلى وهى اما أن تكون غير مترابطة أو قليلة جدا بحيث لا تسمح بمزيد من التحليل العاملى . وهكذا فان الفرق الظاهر فى عدد العوامل ليس الا مجرد فرق فى المستوى والعاملان الأساسيان عند ايزنك هما العصابية ، والانطواء — الانبساط يظهران كعوامل من المرتبة الثانية فى تحليلات كاتل للبيانات اللفظية وهكذا يتطابق النظامان بالفعل » (Klein et al , 1967)

وخلال سنوات طويلة استمر ايزنك فى التثبت من صدق افكاره وفى جمع بيانات باستخدام اختبارات قرطاسية سماها مقياس مودزلى للشخصية Maudsley Personality Inventory MPI . وقد تم التثبت المبدئى من صدق هذه الاداة فى الفترة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٢ م . ولقد صممت هذه الاداة فى الأساس لقياس العصابية ، والانطواء — الانبساط.ولقد قام ايزنك بمساعدة زوجته سيبيل Sybil باعداد نسخة مطورة من هذه الأداة سماها EPI قائمة ايزنك للشخصية Eysenck Personality Inventory وتتألف من ٤٨ بندا (٢٤ منها تقيس عامل العصابية ، ٢٤ بندا أخرى تقيس عامل الانطواء — الانبساط) والمقياس الجديد يرتبط ارتباطا عاليا بالمقياس السابق ومع ذلك فانه يتميز عنه بما يأتى : —

(أ) ان القائمة EPI تتكون من صورتين متكافئتين مما يجعل فى الامكان اعادة التطبيق بعد معالجة تجريبية لاى فرد أو مجموعة من الأفراد دون أن تتدخل عوامل التذكر .

(ب) ان اسئلة القائمة MPI قد اعيدت صياغتها بعنـــاية بحيث يفهمها الأقل تعليما وذكاء .

(جـ) ان الارتباط بين الانبساط والعصابية على الاختبار القديم كان صغيرا . ولكنه يقارب مستوى الدلالة الاحصائية ولكن هذا الارتباط اختفى فى القائمة الجديدة .

(د) ان الاختبار الجديد يحتوى على مقياس للكذب يمكن ان يستخدم للتخلص ممن يملن الى اختيار الاجابات المستحسنة اجتماعيا .

(هـ) تتوافر ادلة مباشرة على صدق الأداة EPI كأداة وصفية للمظاهر السلوكية للشخصية (ايزنك : كراسة تعليمات ، قائمته ص ٣) .

ويرى مؤلفا الاختبار أن المحك الصادق الوحيد لتقويم EPI , MPI هو القدرة على التنبؤ خارج الدائرة المغلقة للتحليل العاملى ، اى فى مجال التجارب المعملية . وهكذا فانهما لا يريان انه يمكن قياس الشخصية على نحو تام باستخدام الاختبارات القرطاسية . وهذان المقياسان متشابهان من حيث أنهما يصفان السلوك ولا يكشفان عن اسبابه . ويؤكد ايزنك على انه من الضرورى أن نحاول فهم الشخصية عند المستوى الوراثى ، الأمر الذى يتطلب التوصل الى نظريات تتناول البيئة ويمكن أن نلاحظ على اساسها العناصر الوصفية وأن تختبر لنتثبت من صحة هذه العلاقة العلية بين العوامل الوراثية والأنماط السلوكية .

ان البحث العلمى منهجا وموضوعا هدفه فهم السلوك الانسانى والتنبؤ به فما الذى تقدمه نظرية ايزنك فى هذا المجال ؟

التنبؤ الشخصى :

قد يجيب الفرد على بعض اختبارات ايزنك اذا اراد ان يتنبأ بسلوكه ، وهذه الاجابات وتصحيحها وتفسيرها تساعده على تقدير ذاته الفينومولوجية او الخبراتية . وهذا الاجراء لن يوافق عليه ايزنك من حيث المبدأ بدرجة كبيرة . وهكذا فاننا فى حيرة حين نقترح شيئا فيما يتصل بالتنبؤ الشخصى عند الفرد ولعل القارىء او الدارس نفسه يتوافر لديه قدر كبير من الاصالة والابتكار فى هذا الصدد كما يقول روجرز .

التنبؤ العلمى أو المعملى :

ان تنبؤ ايزنك بالسلوك الانسانى يقوم أساسا على المنهج الناموسى الذى يستخدمه فى تجاربه العلمية والتى بدأ يجربها من أواسط الأربعينات ولعل من الأفضل أن نعرض بعض نتائج باحثين آخرين تدعم نتائج ايزنك أو تعارضها . وسنعرض أولا خلاصة لعدد من الدراسات التى أسفرت عن نتائج تتسق مع نتائج دراسات وتجارب ايزنك فيما يأتى : —

١ — فى دراسة للشخصية والكلام لدى المنبسطين والمنطوين وجد أن المنبسطين يستخدمون فى أحاديثهم أصواتا أعلى وفترات صمت أقصر فى أنماطهم الكلامية وهذه النتيجة تدعم الى حد ما نظرية ايزنك : (Ramasy, 1966)

٢ — درس جوتيسمان Gottsman ٣٤ من التوائم المتماثلة ، ٣٤ من التوائم الأخوية ، طبق عليهم اختبار الشخصية المتعدد الأوجه MMPI واختبار كاتل للمرحلة الثانوية Cattell's High School Personality Quiz كما استخدم عددا من المقاييس الأخرى المختلفة كعدد خطوط بصمات الأصابع والصور وفصائل الدم ، وحلل هذه البيانات عامليا وتوصل الى عامل من المرتبة الثانية للانطواء — الانبساط مما يعتبر تدعيما لنظرية ايزنك فيما يتصل بقابلية العوامل للوراثة .

٣ — وفى دراسة اخرى لم تستخدم مقاييس ايزنك استهدفت التثبت من صدق مقياس كاليفورنيا النفسى California Psychological Inventory واستخدمت اختبار كاتل للشخصية (١٦ عامل) مع تقديرات للسلوك اتضح أنه على الرغم من أن الارتباطات بين المقاييس الأربع وثلاثين لم تكن مرتفعة جدا ، الا انه ظهر على مستوى تحليل العوامل من المرتبة الثانية ما يدعم صدق وجود عاملين أساسيين فى الشخصية وهما الانبساط — الانطواء والعصابية (Mitchell, 1963)

٤ — لقد استمر ايزنك فى الهجوم على العلاج النفسى وطرائقه التقليدية باعتبار أنها لا تحقق نتائج افضل مما يحدث لو تركت الأمور للصدفة .

وفى محاولة قام بها كيسلر Kiesler ليثبت بطلان البرء التلقائى ، توصل الى ما يقترب من تدعيم نتائج ايزنك فيما يتصل بالعلاج ، والى أن الأنماط التقليدية فى العمليات العلاجية اخفقت فى تحقيق أهدافها. (Kiesler, 1966)

٥ — ولقد قرر ايزنك أن تذكر المنبسطين يتحسن بعد فترات الراحة وبعد ممارسة متجمعة على نحو افضل من المنطوين وذلك بسبب ما تتصف به المجموعة الأولى من مستوى عال من الكف . ولقد ثبتت صحة هذه النتيجة . (Stor, 1963)

والدراسات السابقة ما هى الا قل من كثر يدعم نتائج بحوث ايزنك وأفكاره . غير أن هناك بحوثا اخرى وشواهد مستمرة من التجريب والبحث العلمى تنقض ما توصل اليه وما ذهب اليه ايزنك فى مجال الشخصية ومنها :

١ — تناقش انستازى طريقة تحليل المحك التى يستخدمها ايزنك فى بحوثه . وطبقا لهذه الطريقة يبدأ الباحث بفرض يتعلق بمتغير أو عامل معين ثم ينتقل الى اعداد مجموعة من المقاييس التى يفترض ارتباطها بهذا العامل الكامن . وبعد ذلك عليه أن يستخرج الدرجات التى تحصل عليهما مجموعتان متضادتان من حيث درجة هذا المتغير . أى انه ينبغى على الباحث أن يطبق المقاييس على عدد من المفحوصين بالطريقة التقليدية وان يوفر جماعات المحك ، اى جماعات تحصل على درجات على هذا المتغير الفرضى تختلف اختلافا واضحا . ثم يحسب الارتباط بين كل اختبار فردى وبين الثنائى الذى يميز بين المجموعتين dichotomy وبذلك نحصل على مقياس لكل اختبار يوضح مدى ارتباطه بالتمييز الذى تشير اليه جماعات المحك ، اى مدى حساسية الاختبار لهذا المتغير على وجه الخصوص. (هول ولندزى : ترجمة فرج وآخرين . ص ٥٠٥) .

وهى فى مناقشتها لتحليل المحك فى كتابهما الكلاسيكى القياس النفسى ١٩٦١ م Psychological Testing تشير الى ان الباحث فى اطار النسق الفرضى الاستدلالى يميل الى ان يتوصل الى ما يستهدفه

التوصل اليه واكتشافه . فاذا كان لديه فرض فانه يخطط الدراسة لكى يختبر ذلك الفرض . ولقد بدأ عمل ايزنك الأصلى بوصفة للجنود العصابيين ، وفى التقنيين النهائى لاختباريه : اختبار مودزلى وقائمة ايزنك أضاف بيانات مأخوذة من عشرة آلاف مفحـــوص آخرين الى ما لديه من بيانات . ولكن انســتازى تشــعر أن تقســيم الناس على أساس عاملين ، أى تقسيما ثنائيا عمل غير مشروع . ولن يدهشنا أنك اذا وضعت قدرا قليلا من المعلومات فى التحليل العاملى فسوف تحصل على قدر قليل من المعلومات منه .

٢ — أن عمل سبنس ينقض ما ذهب اليـــه ايزنك من أن الانبســـاط — الانطواء يرتبط بالقابلية للاشتراط والانطفاء .

٣ — على الرغم من تصدى الكثيرين لتنفيذ انتقادات ايزنك للعلاج النفسى ونتائجه الا أن من أبرزهم روزنزويج Rosenweig لانه قدم عرضا من أفضل العـــروض التى تدلل على اهميـــة العلاج النفسى للســـلوك الانسانى .

٤ — لقد كتب آدامز Adams ست عشرة صفحة لنقض موقف ايزنك وفكره فى مجال الدافعية وتناقص الاحماء فى الاستجابة للعمل .
(Adams, 1961)

٥ — أعاد فرانكس تجربة لاشراط اغماضة العين باستخدام عينة صغيرة وأسفرت نتائجها عما يناقض ما وصل اليه ايزنك ، كما بينت أن اسلوب الاستخبار أسلوب خاطىء من حيث ارتباطه باشراط اغماضة العين .
(Bischof, pp. 502-504)

٦ — ان من بين الانتقادات التى تعرض لها ايزنك فيما يتصل بعمله عن العقاقير وتأثيرها على الكف اللحائى ، ويحتمل أن يكون من أقواها ما قدمه جريس فى كتاب « آفاق علم النفس » . حيث يقول : « ان العمل فى الوصول الى تنبؤ معين بالعلاقة بين الانسان والدواء والاختبار قد يعود الى سوء تصنيف أحد هذه العوامل أو جميعها ، وخاصة اذا كان

التنبؤ يعتمد على استنتاجات تدور حول الأسس الفسيولوجية للظواهر النفسية ، ومواقع النشاط الذى تقوم به العقاقير والمراكز والمسارات التى تتعلق بأنواع الأداء المختلفة ومن بين هـذه النواحى الثلاث فان مواقع نشاط العقاقير والطرق التى تتخذها هى وحدها التى يمكن ان نستخدم معها ما يشبه الملاحظة المباشرة،وتؤكد الشواهد التى تتوافر لدينا انه لا معنى لتصنيف العقاقير الى « منبهات » و « مسكنات » بالمعنى النيرولوجى رغم أن لهذا فائدته عند الحديث عن السـلوك الكتلى . وحين يمكن تحديد وحدات السلوك — كأن تكون مثـلا فى صورة عدد القرارات التى يتم اتخاذها أو عدد الكلمات المنطوقة فى وحدة زمنية — يمكننا ان نحـدد ما اذا كان العقار يـؤدى الى زيادة النتائج أو نقصها . ومن المؤكد أن العقار نفسه قد يـؤدى الى زيادة الناتج فى وحدة معينة ويؤدى الى نقصه فى وحدة أخرى متشابهة معها ظاهريا،ومن ذلك مثلا ان بعض المهدئات تؤدى الى اختزال بعض حركات التهيج وتستثير حركات اخرى لا ارادية » (فوسر ، ترجمة : أبو حطب ، ص ٣٢٠) .

المكانة الراهنة والتقويم :

— لقد كان الأمل كبيرا فى أن تثبت نظرية تحليلية عاملية تركـز على عدد قليل من العوامل من المرتبـة الثانية جدارتها ومصداقيتها اذا قورنت بنظرية كنظرية كاتل للسمات ولكن هذا الأمل تعرض لعدد من المخيبات . ذلك ان القول بالطبيعة الوحدوية للبعدين الانبسـاط — الانطـواء ، والعصـاب — السواء لم يثبت أمام الشواهد التجريبية التى اشتقت فى الأصل من النظرية . ولقد تزايد اقتناع ايزنك باهمية بلورة بعد ثالث هو الذهانية فى الشخصية السوية وهناك من المؤشرات التى تلمح لبعد رابع . ومهما يكن من شىء فان استقلالية الأبعاد الواحد عن الآخر التى ادعاها ايزنك لم تظهرها البحوث دائما .
(Peck & Whitlow 1975, pp. 77)

— ولقد تعرض موقف ايزنك القائل بأبعاد ثلاثة لنقد عنيف من الباحثين فى نفس المجال الذين حاولوا ابراز بناء الشخصية على مستوى العوامل

الأولية ، من أمثال ريموند كاتل وأعوانه. وهم يذهبون الى أن الشخصية الانسانية خصبة ومعقدة بحيث لا يمكن أن نصفها ولا أن نفهمها على أساس عاملين أو ثلاث وأن مثل هذا الفهم لا يساعد على التنبؤ بسلوك الفرد ويذهب كاتل الى اننا يمكن أن نميز بين العصابيين والأسوياء على أساس مجموعة من العوامل وليس على أساس اختلافهما بالنسبة لعامل واحد . ودراسات كاتل تؤكد على أن العصابية حالة معقدة موقتيا ومحددة نشوئيا،أى أن هذه الدراسات تؤكد نظرية للعصاب ذات عوامل متعددة وهذا يخالف ما توصل اليه ايزنك وما ينادى به (د . أحمد عبد الخالق ، ١٩٨٣ ، ص ١٥٥ — ١٥٦) .

— ان تنبؤات ايزنك عن العلاقة بين الانبساط والاشتراط أدخلته فى صراع نظرى مع بعض الباحثين الأمريكيين الذين يعملون فى اطار نظرية هل — سبنس الذى يرى أن الاشتراط يتصل بالحافز. ولقد وضع مقياس القلق الظاهر Manifest Anyicty Scale على يد تلامذة سبنس لقياس الحافز الذى ينبغى أن يتصل بظاهرات الاشتراط المختلفة. ولقد شكلت البحوث التى تناولت هذه العلاقة جزءا هاما من عمل سبنس المتأخر فى حياته . وكان تفسير سبنس معارضا لتفسير ايزنك فى هذه المسألة . لقد قرر سبنس أن معدل الاشتراط والانطفاء يرتبط بالحافز أو القلق . بينما رأى أيزنك (١٩٦٢) أن معدل الاشتراط والانطفاء يتناسب مع الانبساط — الانطواء وليس القلق. ونتيجة لهذا الخلاف فى الموقف النظرى قام سبنس ١٩٦٤م بتجارب قرر بعدها أنه لم يجد ارتباطا بين درجات الانبساط (عند ايزنك) ومعدل الاشتراط . وانما وجدا ارتباطا بين الدرجات على مقياس القلق الظاهر والدرجات على مقياس العصابية . وقام دانيدسن وبين وسلون عام ١٩٦٤ Davidson, Payne and Sloon

بتجربة فى محاولة لحسم هذا الخلاف وتوصلوا الى نتائج تدعم وتؤيد موقف سبنس وتناقض ما توصل اليه ايزنك من ملاحظات فيما يتصل بالاشتراط . ولقد حاول لوفيند Lovibond عام ١٩٦٤ بعد أن محص الجدال الدائر ، ثم الأدب السيكولوجى أن يوفق بين مدخل كل من سبنس وايزنك .

ـ ونظرية ايزنك فى أضعف مواقفها عند تناول عملية التطبيع الاجتماعى . ففى غيبة الشواهد والأدلة القاطعة الدالة على أن المنطوين يتعلمون بالاشتراط على نحو أسرع من المنبسطين،فليس لدينا سند قوى لاصدار تعميمات عريضة عن تنمية الأنماط السلوكية الاجتماعية لدى هاتين الجماعتين على أساس الاختلاف فى قابليتهما للاشتراط . وهذا يعرض أيضا محاولات ايزنك للربط بين السلوك الاجتماعى والعوامل البيولوجية للمزالق . هذا فضلا عن أن ايزنك يبالغ فى التأكيد على دور الاشتراط الكلاسيكى فى عملية التطبيع الاجتماعى ويهمل أهمية متغيرات التعلم الاجتماعى .

وفى ضوء الوضع الراهن للبحوث فى الشخصية من الطبيعى لنظرية واضحة المعالم كنظرية ايزنك ان تنقح وتراجع كلما ظهرت شواهد علمية جديدة تقتضى هذا التنقيح وما تزال النظرية مفيدة فى توليد تنبؤات قابلة للاختبار ، ولو انها لم تستطع أن تستوعب بعض ما كشفت عنه الشواهد التجريبية ، كما اتضح من بعض البحوث التى أسفرت عن نتائج تخالف النظرية . ومع ذلك فان نظرية ايزنك تزودنا بنموذج مفيد للفروق العامة التى نجدها بين جماعات الأفراد.وتحتاج النظرية الى اهتمام اعظم بالمبادىء الأخرى وخاصة التعلم الاجتماعى والعوامل المعرفية الى جانب الذكاء ، قبل أن يتوقع أن يكون لها تطبيق اوسع يساعدنا على فهم السلوك الفردى .

ويبدو أننا فى الوقت الحاضر لا نستطيع أن ندافع بقوة عن اقتراحات ايزنك القائلة بأنه ينبغى على الأطباء النفسيين وعلى المتخصصين فى التربية والمتخصصين فى رعاية الجانحين أن يقيموا توصياتهم فيما يتصل بالعلاج والتعلم والرعاية على أساس تيارى الانبساط والعصابية والذهانية . وقد تفيد الاستخبارات التى وضعها ايزنك وتقدم عطاءها للباحثين فى مجال الشخصية ولكن قيمتها العملية سواء بالنسبة للجماعات أو للأفراد ما تزال فى حاجة الى البرهنة عليها . وعلى الرغم من هذه التحفظات يبدو أن أساسيات نظرية ايزنك مصدر مثمر وخصب يستمد منه الباحثون فى مجال الشخصية افكارا وفروضا ليواصلوا ابحاثهم .

ولعل افضل طريقة لتلخيص العمل العلمى والعملى الذى قام به ايزنك

أن نقتبس من مقال كلاين وزميلاه Klein, Barr & Wolitsky في المجلة السنوية لتقويم علم النفس عام ١٩٦٧ .

Annual Review of Psychology. 1967, 18, 503

« كيف تقوم نظريات ايزنك اذن ، والكم الضخم من البحوث التى أثارته هذه النظريات ؟ ان هذه النظريات تمثل قفزة من مستويات أعلى فى العمل الى مستويات أعمق . ويبدو أن كثيرا من النتائج التى ظهرت فى التقارير العلمية وخاصة التى قدمها ايزنك وتلاميذه تؤيد هذه النظريات. غير أن هناك على أية حال كثير من النتائج المتضاربة التى كثيرا ما يغفلها دون تدقيق كاف . واوضح قصور هو ما ظهر فى الدراسات الفسيولوجية التى تعالج على نحو مباشر بدرجة اكبر المسائل التى يتصدى لدراستها . وقد تتحقق هذه فى المستقبل مع زيادة المعرفة فى هذا المجال . وتمثل دراسة العقاقير محاولة فى هذا الاتجاه . ومن الجوانب المشجعة بالنسبة لنا أن النتائج المتضاربة دفعت ايزنك لا الى توضيح مفاهيمه ، بل الى تقصى الأبعاد ذات العلاقة فى أعماله المعملية » .

الفصل الحادى عشر

سكنر B.F Skinner

ولد ب ف سكنر فى ٢٠ مارس ١٩٠٤ م . فى احدى مدن بنسلفانيا الصغيرة وكان أبوه يمارس المحاماة . ويذكر انه أمضى سنواته المبكرة فى بيئة مستقرة تتسم بالدفء والمودة وان تعلمه كان موضع تقدير وكان يتلقى الاثابة على اجتهاده كلما استحقها . يقول عن نفسه : « لم يعاقبنى أبى قط عقابا جسيما ، وقد عوقبت مرة واحدة على يد امى عقابا جسيما . لقد غسلت فمى بالصابون والماء لاننى استخدمت كلمة بذيئة . ولم يضيع والدى فرصة قط لكى يذكرنى بالعقاب الذى ينتظرنى اذا أصبحت ذا عقلية اجرامية . ولقد اصطحبنى ذات مرة الى سجن الأقليم ، كما اصطحبنى فى احدى العطلات الصيفية للاستماع الى محاضرة تصف الحياة فى سجن سنج سنج مع التوضيح بالشرائح الملونة . ونتيجة لذلك غانى أخاف الشرطة واشترى كثيرا من تذاكر حفلهم السنوى الراقص » (Skinner, 1967, pp. 390-391).

ولقد قضى سكنر وهو صبى ساعات كثيرة يصمم أشياء مختلفة وأدوات ويصنعها ، كالعربات ، والطائرات الورق ، والبنادق ونماذج الطائرات وما شابه ذلك . ولقد عمل سنوات فى تصميم آلة متحركة وأخفق فى ذلك . يقول : « بعض الأشياء التى صنعتها كان لها تأثير على السلوك الانسانى ... ففى كل صباح وبينما كنت اتناول طعام الافطار ذات مرة بدأت أمى حملة لتعليمى أن أضع ثوبى على المشجب . وفى كل صباح واثناء تناولى طعام الافطار كانت تذهب الى حجرتى وتتبين انى لم أعلق ثوبى فى موضعه وتنادى على لاسرع فى الصعود . ولقد استمرت تعمل هذا أسابيع . وعندما أصبحت الاثارة المنفردة لا يستطاع تحملها ، صنعت أداة ميكانيكية حلت مشكلتى . خطاف خاص فى خزانة الملابس بغرفتى يتصل بخيط وبنظام للجذب بلافتة معلقة فوق باب غرفتى . وحينما يكون ثوب نومى فى مكانه على الخطاف تكون اللافتة فى موضع مرتفع فوق باب الغرفة ولا تعترض طريقى للخروج منها . وحينما يكون الثوب غير معلق تتدلى اللافتة فى منتصف مدخل الباب وقد كتب عليها « علق ثوبك على الخطاف » .

ولقد تكسب سكنر خلال دراسته فى المرحلة الثانوية بعض المال

بقيامه بأعمال متنوعة من قبيل العزف فى فرقة موسيقية واعداد لوحات اعلانات . ولقد بين فى كتاباته عن نفسه أنه أحب المدرسة وتعلم تعلما سليما من عدد قليل من المعلمين البارعين فى الأدب والرياضيات والعلوم الطبيعية .

ولقد حصل سكنر على درجة البكالوريوس فى الأدب الانجليزى عام ١٩٢٦ م من كلية هاملتون Hamilton College فى ولاية نيويورك. وهو يلاحظ انه فى الحقيقة لم يتوافق قط مع حياة التلمذة فبالاضافة الى خيبة أمله فى قصور اهتمامات زملائه من الطلاب فى النواحى العقلية والفكرية ، فانه ضاق ذرعا ببعض ما يتطلبه المنهج التعليمى . ولقد ادت مشاركته فى عدد من المواقف لاحراج بعض اعضاء هيئة التدريس المغرورين المتعالين الى تهديد عميد الكليه له بالفصل ، غير انه سمح له بمواصلة التعليم حتى تخرج . ومن المثير للاهتمام ان نلاحظ أن سكنر لم يدرس ايا من مقررات علم النفس فى المرحلة الجامعية الأولى .

وبعد تخرجه من الكلية عاد سكنر الى بيت الأسرة وكان فى ذلك الوقت فى سكرانتون Scranton فى ولاية بنسلفانيا . وحاول أن يتخذ الكتابة حرفة له . ولقد تلقى خطابا تشجيعيا من الشاعر المعروف روبرت فروست Robert Frost فهيأ مكانا مناسبا ليعكف فيه على ممارسة الكتابة ، ولكن النتيجة كانت مخيبة لآماله فتوقف عن المحاولة وانتقل الى مدينة نيويورك وكتب سكنر عن هذه الفترة قائلا : « لقد اخفقت ككاتب لانه لم يكن لدى شىء أقوله ، ولكنى لم استطع تقبل هذا التفسير . لا بد ان الأدب هو المخطىء ... فقد يصور الكاتب السلوك الانسانى تصويرا صحيحا ، ولكنه عندئذ لا يفهمه . وكان على أن ابقى مهتما بالسلوك الانسانى ولكن طريق الأدب قد أدى بى الى الاخفاق ، وكان على ان اتحول الى طريق العلم » .
(Skinner, 1967, p. 395)

ولقد التحق سكنر ببرنامج الدراسات العليا فى علم النفس وحصل على درجة دكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ وعمل لمدة خمس سنوات فى مدرسة الطب بجامعة هارفرد يجرى بحوثا على الجهاز العصبى للحيوانات . وبدأ عمله فى التدريس فى جامعة منسوتا عام ١٩٣٦ حيث درس مقدمة علم

النفس ، وعلم النفس التجريبي ، وبقى هناك حتى علم ١٩٤٥ م ، وقد لاحظ بفخر أن عددا من طلابه واصلوا الدراسات العليا فى علم النفس وأصبحوا من مشاهير علماء النفس السلوكيين .

ولقد نشر عام ١٩٣٨ كتابه سلوك الكائنات الحية The Behavior of Orgamism الذى أرسى مكانته كمنظر له وزنه فى مجال التعلم وكان أساسا لكتاباته التالية .

وفى عام ١٩٤٥ انتقل الى جامعة انديانا وأصبح رئيسا لقسم علم النفس بها حتى عام ١٩٤٨ حين عاد الى هارفرد ليبقى هناك بعد احالته الى التقاعد .

وفى علم ١٩٤٨ نشر رواية بعنوان Walden Two ، وكانت وصفا لبيئة مثالية تقوم على المبادىء السلوكية للتعلم.ولقد حاول سكنر أن يعمم المبادىء التى استخلصها من تجاربه المعملية على المواقف الانسانية . ولقد اصبح الكتاب منذ ظهوره مثار جدال كبير وبيع منه ما يزيد على مليون ونصف من النسخ . ولقد كانت كتابته خبرة مثيرة . كتب سكنر يقول : « بصفة عامة فانى أكتب ببطء شديد ولقد استغرق ذلك دقيقتين عن كل كلمة كتبتها فى رسالتى وما يزال هذا هو معدلى ، أى اننى بعد عمل يستغرق ما بين ثلاث واربع ساعات انتهى فى النهاية من كتابة مائة كلمة قابلة للنشر »
(1967 a, p. 403)

وكان هذا مخالفا لما حدث فى كتابته لروايته حيث كتب قائلا : « لقد كتبت اليوتوبيا فى سبعة اسابيع . لقد كنت أكتب فصلا قصيرا فى صباح واحد ... وكنت اكتب على الآلة الكاتبة مباشرة ... واعدل فى حالات قليلة ... ولقد كتبت بعض الأجزاء بانفعال شديد لم أخبره قط فى اى وقت آخر » (1979 a, pp. 297-298) ولقد كان واضحا بدرجة معقولة انها مغامرة فى علاج الذات حيث كنت أكافح للتوفيق بين جانبين من سلوكى يمثلهما بيرس Burris وفريزر Frazier (شخصيتان فى الرواية) . (1967 a, p. 403)

ولقد كتب سكنر سلسلة من الكتب بلورت موقفه الفكرى والايديولوجى

ووسعت اطار عمله الى آفاق واسعة بعيدا عن البدايات التجريبية ومن هذه الكتب : « العلم والسلوك ١٩٥٣ ، وتكنولوجيا التدريس ١٩٦٨ وما بعد الحرية والكرامة ١٩٧١ وتأملات فى السلوكية والمجتمع ١٩٧٨ . كما ارخ لحيـــــاته .

ولقد أدى ظهوره فى وسائل الأعلام الى المساعدة فى نشر أفكاره . هذا فضلا عن أن لمدرسته اتباع ومؤيدون وظهرت تطبيقات لأفكاره فى مجالات الحياة والعمل المختلفة .

مسلمات اساسية :

يسلم سكنر بثلاث مسلمات يشيع التسليم باثنتين منها فى علم النفس بصفة عامة والمسلمة الأولى : هى أن السلوك قانونى . بمعنى ان الباحث يحاول أن يكتشف النظام الذى تتبعه الوقائع السلوكية وما بينها من علاقات مطردة . والمسلمة الثانية : أن السلوك الانسانى يمكن التنبؤ به . فالعـلم لا يكتفى بوصف الظواهر وانما لا بد أن يقدر على التنبؤ بوقوعها ، اى انه لا يتناول الماضى فحسب بل يمتد الى المستقبل . والمسلمة الثالثة : انه يمكن ضبط السلوك ، أى أننا نستطيع أن نتنبأ بأفعال الناس وتصرفاتهم بل وأن نسيطر عليها الى حد ما .

ويصر سكنر على أن التحليل الوظيفى للسلوك بتحديد علاقات الأسباب بالنتائج حيث تكون الأسباب هى المثيرات والحرمان وما الى ذلك مما يمكن السيطرة عليه سوف تكشف عن أن معظم اسباب السـلوك موجودة فى السوابق من الأحداث التى تقع فى البيئة . وان ضبط هذه الوقائع يتيح لنا السيطرة على السلوك ولسنا فى حاجة الى تشريح الكائن الحى ولا أن نستنتج عما يجرى داخله من وقائع .

انماط السلوك :

لم يهتم سكنر ببنية الشخصية ويرجع عدم اهتمامه ببنية الشخصية الى تأكيده على تغير السلوك وتعديله وعلى كيفية حدوث هذا التغير ولتأكيده على ضبطه . وما هو قابل للضبط قابل للتغيير اصلا .

ولم ينكر سكنر وجود عناصر مشتركة بين الناس ، وعناصر ثابتة فى طبيعتهم . الا انه أكد المرة تلو المرة على عدم جدوى التعمق فى دراستها الا بما يتيح لنا ضبط العوامل والمؤثرات البيئية المرتبطة بها ، لانه من غير الممكن اخضاع العوامل التى تؤلف طبيعة الانسان للتجريب والضبط .

ان الشىء الذى يراه سكنر ذا بقاء نسبى فى الشخصية هو السلوك . وهو يقترح فئتين للسلوك « السلوك الاجرائى ، والسلوك الاستجابى » . والسلوك الاجرائى يصدر عن الكائن الحى ، أى أن الكائن الحى يقوم به فى غيبة مثير ينتزعه على نحو قسرى . فالشخص يستطيع أن يمشى خارجا من الباب والفأر يستطيع أن يجرى فى أحد ممرات المتاهة ؛ أى أن المثيرات البيئية لا ترغم الكائن الحى على سلوك معين لان السبب الرئيسى للسلوك موجود فى طبيعة الكائن الحى واستعداده العضوى . والسلوك الاجرائى هو السلوك الذى يحدث مرة ثم يتكرر نتيجة للتعزيز . اما السلوك الاستجابى فهو منتزع ، أى أن الكائن الحى يستجيب كنتيجة مباشرة لمثير معين . فالجائع يفرز اللعاب عندما يشم الطعام أو يراه . والشخص يومض جفنه اذا تعرضت العين لتيار هواء . وهذا النوع من الاستجابات التى تحدث لمثيرات معروفة يمكن ضبطها بالتنبؤ بها ولكنها لا تشكل الا جزءا صغيرا من السلوك الانسانى .

التباين فى شدة السلوك :

ان العوامل الدافعية للسلوك تثير اهتمام سكنر بدرجة اكبر من العوامل البنائية . وهو يلاحظ أن السلوك الواحد يتفاوت من حيث الشدة . والتكرار فى نفس الوقت تقريبا ، فتناول الطعام لا يحدث دائما بنفس الشدة . ونحن نقول أن الشخص ليس جائعا أو انه جائع ، ونفترض مستوى للدافع ليفسر هذا التباين فى الاقبال على الطعام وتناوله . ويرى سكنر أن هذا ليس ضروريا ، بل أنه من الأمور المضللة أن نفترض وجود قوة داخلية منشطة ولا نستطيع أن نحدد شدة هذه القوة . ولا بد أن نعود الى المتغير البيئى مثل الفترة الزمنية التى اعقبت آخر مرة لتناوله الطعام . لماذا نشغل بالنا بحالة داخلية افتراضية وهى فى ذاتها تتوقف على التباين فى البيئة ؟ لماذا لا نتعامل مع المتغير البيئى مباشرة ونفسر السلوك على نحو مباشر ؟ بعبارة

اخرى أن القوة الدافعة ستنتهى بنا الى محاولة البحث عن العوامل البيئية التى يمكن أن تسيطر على هذه القوة .

وما يصدق على الدوافع يصدق على الانفعالات . فبدلا من أن نعالج الانفعالات كحالات داخلية غامضة يقترح سكنر أن نلاحظ العناصر السلوكية التى ترتبط بها . فسكنر يستخدم مدخلا وصفيا فى الأساس بالنسبة للانفعالات . وهو يبين أن انفعالا كالغضب يتضمن عناصر سلوكية مختلفة فى مناسبات متباينة بالنسبة للفرد الواحد فعندما نقول أن فلانا غضبان ، فاننا نعنى أنه فى الأغلب سيؤذى الآخرين ويسبهم ويضربهم وفى الأقل سيساعدهم ويجاملهم ويحبهم .

التنبؤ بالسلوك وتغييره :

ينصرف اهتمام سكنر الرئيسى الى تغيير السلوك . وهو يرى أن فهم الشخصية يتحقق حين نلتفت الى نمو سلوك الانسان فى تفاعله المستمر مع البيئة وسكنر لا يقدم نظرية عن النمو ومراحله وانما يهتم بالتغير السلوكى .

مبادىء التعلم الشرطى :

ان أكثر الطرق فاعلية لتعديل السلوك وضبطه هى بتعزيزه . أى باتخاذ الخطوات التى تكفل زيادة أو نقصان احتمال حدوث سلوك معين فى المستقبل . ولكى نفهم طريقة سكنر لا بد من أن نلم بنوعين من الاشتراط . الاشتراط الكلاسيكى والاشتراط الاجرائى. الأول يتعلق بالسلوك الاستجابى والثانى بالسلوك الاجرائى .

فى الاشتراط الكلاسيكى عند بافلوف يتم استبدال مثير بمثير « المثير الشرطى بالمثير غير الشرطى » وتبقى الاستجابة هى هى . وعلى الرغم من أن سكنر استوعب كثيرا من مبادىء بافلوف فى الاشتراط فى نسقه ، الا أنه لا يعتقد أن جزءا كبيرا من السلوك الانسانى يتألف من أفعال منعكسة بسيطة ، أى من استجابات شرطية على طريقة بافلوف . ذلك أن سكنر يرى أن معظم السلوك الانسانى الاجتماعى يقع فى الفئة الثانية وهى السلوك الاجرائى ، أى أن الاستجابات تصدر عن الانسان أو الكائن الحى على نحو

حر . ولما كان هذا النمط من السلوك يعنى أن الكائن الحى نشط يعمل ويجرى أفعالا على بيئته ، يضبط البيئة وتضبطه . فقد اطلق سكنر على هذه الاستجابات اجراءات operants . ويتحدد السلوك الاجرائى بوقائع تتبع الاستجابة ، اى أن الاستجابة يجىء بعدها ما يعقبها وطبيعتـه هى التى تعدل ميل الكائن الحى الى تكرار السلوك فى المستقبل . وعلى سبيل المثال: ركوب الدراجة والعزف على البيانو ورمى الكرة وكتابة الفرد لاسمه انماط استجابية اجرائية لانهـا تضبط بنتائجها ، اى بمـا يعقب أداءها . وهى استجابات متعلمة ارادية لا نستطيع أن نميز مثيرات ادت ايها . واذا كانت نتائج الاستجابة مواتية للفرد فان احتمال اصـدارها فى المستقبل يتزايد . وحين يحدث هذا نقول أن النتيجة معززة وأن الاستجابة الاجرائية قد تأثرت بالتعزيز وقد تم اشراطها . وتتحدد قوة المثير المعزز ايجابيا وتعرف بواسطة آثاره على تواتر الاستجابة التى سبقته مباشرة وتكرار حدوثها فى المستقبل.

أما اذا كانت نتيجة الاستجابات غير مواتية أو غير معززة فان احتمال حدوث الاجراء يتناقص . وعلى سبيل المثال فانك سوف تتوقف عن الابتسام لشخص اذا كانت استجابته لبسمتك هى العبوس والتقطيب باستمرار .

التعزيز وتشكيل السلوك :

ان الشىء الهام هو الطريقة التى يتم بها التعزيز لان هذه الطريقة هى التى تؤثر فى تناول السلوك بالتشكيل والتعديل ، فاذا استخدمنا التعزيز بدقة وعناية استطعنا تشكيل سلوك الكائن الحى وهكذا عن طريق عمليات التعلم الاجرائى يصدر الأنماط السلوكية المرغوب فيها . وهى انماط سلوكية ما كان ليصدرها لو ترك لوسائله هو . ويتم التشكيل أو التقريب المتتالى بتعزيز كل خطوة على الطريق تقرب الفرد من الأداء النهائى ، اى أننا نعزز الاســـتجابات التى تقترب من الهـدف ولو جزئيا حتى نحصـــل على الأداء بالمستوى المطلوب .

جداول التعزيز :

يميز سكنر بين نوعين من التعزيز . الأول هو التعزيز المستمر ويقصد به تعزيز الاستجابة فى كل مرة تصدر فيها . والثانى هو التعزيز المتقطع

ويقصد به تعزيز الاستجابة في بعض مرات حدوثها دون البعض الآخر . والنوع الأول يؤدي في بداية التعلم الى معدلات مرتفعة من الاستجابة غير أنه يقل إصدار الاستجابة عندما تنقص حاجة الكائن الحي للمعزز كحاجته للطعام مثلا . والاستجابة التي تكتسب بالتعزيز المستمر اقل مقاومة للانطفاء من تلك التي تكتسب بالتعزيز المتقطع . ويتعذر توفير التعزيز المستمر في مواقف الحياة الفعلية .

وقد تم التعزيز على أساس فترات زمنية ثابتة كان يتم كل ثلاث دقائق أو ست دقائق وذلك بصرف النظر عن عدد استجابات الكائن الحي في هذه الفترة . وقد اتضح أنه كلما نقصت الفترة الزمنية زاد معدل الاستجابة أثناء التعلم وزادت مقاومة الاستجابة للانطفاء .

أما تعزيز الفترة الزمنية المتغيرة فمعناه ان يقدم التعزيز بعد مضى فترة زمنية متفاوتة من آخر تعزيز ، أى أن الفترة قد تطول وقد تقصر ولكنها جميعها ذات متوسط محدد . فقد يختار المجرب متوسطا للفترة الزمنية مقداره ست دقائق الا أن الفترات الزمنية قد تتراوح ما بين دقيقة ولو جمعت مدد هذه الفترات الزمنية المستخدمة فى التجربة وقسمت على عدد الفترات لكان المتوسط الناتج ست دقائق . ويتميز الأداء فى ظل هذا الجدول بالاستقرار وهو أكثر مقاومة للانطفاء منه فى ظل الفترة الزمنية الثابتة .

وقد يستخدم جدول النسب الثابتة ، اى ان يقدم التعزيز لأول استجابة تصدر بعد عدد معين من الاستجابات يصدرها المفحوص من آخر مرة تلقى فيها تعزيزا . مثلا بعد صدور عشر استجابات وهذا النوع من التعزيز يؤدى الى زيادة معدل الاستجابة .

وقد يستخدم جدول النسب المتغيرة حيث يقدم التعزيز بعد اول استجابة تصدر بعد عدد متغير من الاستجابات يصدرها المفحوص من آخر مرة تعزيز . ويتفاوت هذا العدد حول متوسط معين . ومعدل الاستجابة فى ظل هذا الجدول أعلى من معدلها فى ظل جدول النسب الثابتة اذا تساوى المتوسطان . كما ان الاستجابة المكتسبة فى ظل الجدول الثانى .

والمعززات الأولية كالطعام والشراب تعمل عملها فى التعزيز دون تدريب مسبق ، أما المعززات الثانوية فتعمل عملها بارتباطها بمعززات أولية بحيث تصبح نتيجة لهذا الارتباط ذات تأثير معزز .

وقد يكون المعزز موجبا وهو ذلك الذى يؤدى الى زيادة احتمال حدوث الاستجابة التى تبعد الألم . ففى الهرب تعزز الاستجابة لانها تنهى المثير المخيف .

ومن خلال تعميم المثير يتعلم الكائن الحى ان يصدر استجابة معينة فى المواقف التى تشبه الموقف الذى تعلم فيه الاستجابة ابتداء . أى أن الفرد ينهج عادة الى الاستجابة بحسب خبراته الماضية . ولوجود تشابه بين المواقف الجديدة والمواقف السابقة قد يحدث تعميم خاطىء . ويتصد بتمييز المثير ان الكائن الحى يتعلم عدم اصدار تلك الاستجابة .

ولقد طبق سكنر منهجه هذا على مشكلات عملية منوعة تنوعا كبيرا فى التعليم والاقتصاد وتدريب الحيوان وغير ذلك كثير .

(Hall & Lindzey, 1985, pp. 468-478)

(أبو حطب وآخر : ١٩٧٧ ، ص ص : ١٩٥ — ٢٠٣) .

بنـــاء الشخصـــية :

الجســـم :

الجسم عند سكنر هو ذلك الذى يسلك ، ذلك أن سكنر يتناول الشخص كما لو كان صندوقا مغلقا وهو ليس فارغا بالتأكيد . ويؤكد السلوكيون على المدخلات والمخرجات لانها جميعا قابلة للملاحظة . « وبدلا من افتراض حاجات قد تدفع الفرد الى نشاط معين ، يحاولون اكتشاف الوقائع التى تقوى احتمالات المستقبل والتى تحافظ على السلوك أو تغيره . وهكذا فانهم يبحثون عن الشروط التى تنظم السلوك بدلا من افتراض حاجات داخل الشخص » .

(Mischel, 1976, p. 62)

العلاقات الاجتماعية :

يهتم سكنر بالقوى التى تشكل الأفراد وتضبطهم من الخارج . وعلى الرغم من اهتمامه بالتفاعل الاجتماعى الا أنه لا يرى العلاقات الاجتماعية باعتبارها نشاطا متميزا ومختلفا عن غيره من النشاطات. فالسلوك الاجتماعى يتميز بأنه يتضمن أو يتطلب تفاعلا بين شخصين أو أكثر .

ولقد كرس سكنر جهدا كبيرا للسلوك اللفظى ولابراز دور البيئة اللفظية فى تشكيل السلوك وخاصة بالنسبة للنمو اللغوى المبكر وانماط سلوكية اخرى لدى الأطفال . والسلوك اللفظى عند سكنر يشتمل على التحدث والقراءة والكتابة ، اى انه اى نشاط يستخدم الكلمات . أما البيئة المحلية اللغوية فهى الناس بما فيهم أنت ، الذين يستجيبون للسلوك اللفظى للآخرين فى نفس البيئة . فالطفل على سبيل المثال يستجيب لوالديه وأخوته والأطفال الآخرين والمعلمين وهلم جرا . وهو يستجيب بتغيير انماط سلوكية مختلفة أو المحافظة عليها . وهذا الكلام معقول ولكن سكنر يمضى ليقول انه لا توجد متغيرات اخرى تتصل بالقضية ماعدا تاريخ الفرد واستعداده الوراثى والوقائع الخارجية فى البيئة المباشرة .

ان التعزيز الذى تتلقاه فى الموقف الاجتماعى يتوقف جزئيا على سلوكك وجزئيا على كيفية استجابة الآخرين لسلوكك . ففى المحادثة تقول شيئا ثم تتلقى تغذية راجعة ، والتغذية الراجعة التى تتلقاها تقوم على ما قلته فحسب بل وايضا على كيفية سلوك الشخص الآخر بعد سماعه لك . وعلى سبيل المثال قد تقول « نكتة » فيأخذها الآخر مأخذ الجد وينزعج فتعدل سلوكك قائلا « كنت أمزح معك » فيبدو على المخاطب الارتياح . وهكذا فاننا نعدل سلوكنا فى العلاقات بين الشخصية على أساس استجابات الآخرين وعلى أساس مدركاتنا . وهذه هى البيئة اللفظية الفاعلة .

الارادة :

يرى سكنر أن مفهوم الارادة يؤدى الى الخلط فى فهم السلوك وانه مفهوم غير واقعى . وهو يعرف الارادة والارادة الحرة وارادة القوة باعتبارها خيالات مفسرة غير قابلة للملاحظة . وان هذه الألفاظ تتضمن معنى داخليا

هاما فى تحديد الافعال . ولكن سكنر يفضل أن يفترض انه لا يوجد فعل حر « اننا حين نلاحظ هذا يحتمل أن نسقط فكرة المسئولية اسقاطا كاملا ومعه نظرية الارادة الحرة باعتبارها عاملا داخليا مسببا » (1953, p. 116)

وقد جلبت هذه الفكرة على سكنر نقدا عنيفا وظهرت بحوث كثيرة تتناول ما يسمى بوجهة الضبط ، أى من المسئول انا أم البيئة ؟ وترجح نتائج هذه البحوث الموقف القائل بأن اعتقاد المرء فى امكانية توجيه سلوكه عامل هام فى الشخصية السوية . وهناك سلوكيون بارزون يتحدثون عن الضبط الذاتى وعن الاحساس بالحرية باعتبارها أسـاسا هاما للتنـاول الناجح للسلوك .

العقــــــل :

ان وظيفة العقل هى أن يفكر الفرد فيما يعرفه وأن يستخدم هـذه المعرفة . وهذه العبارة عديمة القيمة من وجهة نظر سكنر . انها لا تقدم لنا أى شىء قابل للملاحظة ولا تسمح بالتنبؤ بالسلوك . يقول : « كثيرا ما يعنى التفكير أن نسلك سلوكا ضعيفا . وقد يكون الضعف راجعا على سبيل المثال الى ضبط معيب للمثير » . فاذا عرض علينا شىء غير مألوف قد نقول : « أعتقد أنه نوع من مفاتيح الربط » وكلمة « أعتقد » هنـا مضادة لكلمـة « أعرف » . ونحن نعبر عن الاحتمال الضعيف حين نقول « أفـكر فى الذهاب » بدلا من « انى ذاهب » أو « سأذهب » أو «أعلم انى سأذهب» .

وهناك استخدامات أكثر أهمية للكلمة . فقد نتساءل ونحن نلاحظ لعبة شطرنج ، ما الذى يفكر فيه اللاعب حين يحرك قطعة من قطعه ؟ وقد نقصد بذلك اننا نتساءل عن حركته التالية ، أى اننا نتساءل عن سلوكه الأولى أو الناقص . أن نقول « انه كان يفكر فى تحريك الرخ » يحتمل أن ذلك يعنى أنه على وشك تحريكه . . . وتشير اللفظة عادة الى سلوك تام ولكنه يحدث بمقدار صغير جدا بحيث لا يمكن أن يستبينه الآخرون » (174, p. 103)

ويعرف سكنر المعرفة باعتبارها مستودع السلوك فالرجل يعرف جدول التكامل بمعنى انه فى ظل الظروف المناسبة سوف يسمعه ويتـوم

بالابدال فى حل المسائل وهكذا وهو يعرف التاريخ بمعنى امتلاكه لمستودع آخر معقد (1953, pp. 408-409) فالمعرفة هى السلوك الذى يظهر ازاء مثير معـــين .

الذات ومعرفة الذات :

يرى سكنر أن لفظ الذات Self مفهوم خيالى مفسر « فاذا لم نستطع أن نظهر ونحدد المسئول عن سلوك الانسان فاننا نقول ان ذاته مسئولة عن ذلك « ولقد اتبع المبشرون الأوائل بالعلم الطبيعى هذه الممارسة نفسها » ولكن لم يعـــد مقبولا القول بان الريح مســـيرة باله الريح ايلوس Aeolus وأن المطر يسقط بسبب اله المطر جوبتر بلفيوس Jupitor Pluvius أن هذه الممارسة تخفف قلقنا فيما يتصل بالظاهرة غير المفسرة ، وتبقى وتستمر لانها تحقق ذلك ... فمفهوم الذات ليس اساسيا فى تحليل السلوك » (1953, pp. 283-285)

وعلى الرغم من أن سكنر يمحص مستودع السلوك الذى يسمى معرفة الذات فانه يصف عدة حالات تكون معرفة الذات فيها قاصرة ، فقد لا يعرف الانسان أنه عمل شيئا ... وقد لا يعرف انه يعمل شيئا ... وقد لا يعرف أنه ينزع الى عمل شىء ... وقد لا يدرك المتغيرات التى يعتبر سلوكه وظيفة لهـــا (1958, pp. 288-289) وهذه الحالات تثير اهتماما شـــديدا لدى غير السلوكيين لانها مظاهر لحالات داخلية (لعقد وعادات وكبت ومخـــاوف) ويسمى سكنر هذه الوقائع انماطا سلوكية لم يتوافر تعزيز ايجابى لملاحظتها أو تذكرها « والشىء الجوهرى أو الهام ليس ما اذا كان السلوك الذى يخفق فى ذكره الفرد قابل للملاحظة فعلا بالنسبة له ، وانما هل توافر له سبب لكى يلاحظه » (1953, p. 289) (Frager, pp. 302-308)

النمـــو :

على الرغم من أن نظريات التعلم قد نمت نتيجة للبحوث التى اجريت على الحيوانات ، الا انه قد بذلت جهود كبيرة لربط هذه النظريات بالنمـــو الانسانى والارتقاء. وهذا تطور طبيعى لان تنشئة الطفل فى الأســاس عملية

تعلم . وفضلا عن ذلك فان الوالدين يحاولان من خلال تنشئة أطفالهما استخدام الاثابات المادية والسيكولوجية لتشكيل سلوكهم .

ووجهة نظر سكنر فى النمو تؤكد اهمية جداول التعزيز فى اكتساب السلوك وفى أدائه . ومع نمو الطفل يتم أشراط الاستجابات وتبقى تحت سيطرة شروط التعزيز البيئية . أن التأكيد ينصرف الى انماط استجابية معينة من حيث تأثرها بمعززات بيئية معينة . ويصبح الأطفال أكثر اعتمادا على أنفسهم من خلال تعزيز الأفعال التى يصدرونها للعناية بأنفسهم سواء أكان ذلك فى تناول الطعام أو فى ارتداء الثياب . ان الطفل يتم تعزيزه مباشرة عندما يتم هذه الأفعال وذلك بمكافآت اجتماعية كالثناء . ويصبح الطفل مستقلا انفعاليا من خلال تنمية معدل مستقر من الاستجابة (اى استجابات تحدث على فترات منتظمة) يتطلب تعزيزا بين الحين والآخر . ويتعلم الطفل تحمل تأجيل الاشباع (التعزيز) وذلك بأن يوفر له الاشباع بعد فترة قصيرة فى بداية تعلمه ، ثم تتزايد فترات تأخير التعزيز تدريجيا . اى أن الفترة بين طلبه للشىء وتلبية ذلك الطلب تطول تدريجيا . وبعد فترة ينسيطر أسلوب التأخير هذا على سلوكه عندئذ نستطيع أن نقول أن الطفل قد نمى القدرة على تحمل تأجيل الاشباع وتقبله (Pervin, pp. 345-346)

العلاج النفسى :

يصف سكنر العلاج باعتباره نوعا من الضبط له قوة وتأثير غير محدود . ويكون المعالج النفسى فى علاقته بالمريض على الأغلب مصدرا لقدر من الارتياح . وكل مساعدة يقدمها فى هذا المجال تصبح تعزيزا ايجابيا وبالتالى تزيد من تأثير المعالج .

ومن النتائج التى تترتب على نظرية سكنر التى تنكر وجود الذات ، أن هدف العلاج لا يمكن أن يكون شعورا افضل لدى العميل أو توافقا احسن او تحقيقا لاستبصار او فهم للذات . ان هدف العلاج النفسى من وجهة نظر السلوكى هو تعديل شكل العناصر السلوكية أو ترتيبها — أى منع العناصر السلوكية المرغوب عنها من تكرار الحدوث ، وان يزداد تواتر العناصر السلوكية المرغوب فيها . وحين ننظر الى العلاج السلوكى فى هذا الضوء

يمكن أن نقرر انه نجح فى معالجة المشكلات نجاحا يصعب على العلاج السيكودينامى أن يحققه .

ولقد قام راشمان وولسن عام ١٩٨٠ م Rachman & Wilson بمراجعة مكثفة للعلاج السلوكى وخلصا الى أن هذا النوع من العلاج تناول المجالات الآتية بعدد من الدراسات التى حسن تصميمها والتى أسفرت عن نتائج ايجابية : —

— الانحرافات الجنسية — التدخين
— الصراع الزواجى — البدانة
— اضطرابات الادمان — الاضطرابات الذهانية
— ادمان المسكرات

وعلى الرغم من وجود عدة مداخل لممارسة العلاج السلوكى ، الا انه من الأمور المقبولة بصفة عامة القول بأن العلاج السلوكى يهتم اساسا بالأنماط السلوكية الفعلية ، ولا يهتم بالحاجات الداخلية والسوابق التاريخية . والعرض الذى يشكو منه المريض من وجهة نظر السلوكيين هو المرض ، وليس مظهرا له . فالعرض سواء اكان ادمانا للشراب ، أو لازمة عصبية فى الوجه ، اوخوفا من الحشد أو قرحة معدية يتم تناوله على نحو مباشر . ولا تستخدم الأعراض كمدخل للبحث عن الذكريات الماضية والكشف عنها .

ان المعالج بالنسبة للمريض مستمع لا يهدده وهذا يصدق على العلاج السيكودينامى . والمريض حر فى أن يعبر عن انماطه السلوكية التى لم يعبر عنها من قبل كالبكاء والمشاعر العدائية والتخييلات الجنسية . وعلى اية حال فان المعالج لا يهتم بتعزيز هذه التعبيرات . ان المعالج يهتم بتدريس الأنماط السلوكية والتدريب عليها وتعزيزها تلك التى تنافس العناصر السلوكية المقلقة أو المعوقة والتى تؤدى الى التخلص منها . وعلى سبيل المثال فانه يمكن تعليم الاسترخاء على نحو تدريجى progressive rela ation ليبطل استجابات القلق وقد يستخدم التدريب التوكيدى assertive training. للتغلب على سلوك التهيب .

وتحدد العبارات الآتية طبيعة العلاج السلوكى وهي تبرز فى نفس الوقت نواحى التشابه بينه وبين الأشكال العلاجية الأخرى : —

١ — يحاول العلاج السلوكى مساعدة الناس على أن يصبحوا قادرين على الاستجابة لمواقف الحياة بالطريقة التى يودون الاستجابة بها . وهذا يعنى تزايد تواتر العناصر السلوكية المرغوب فيها أو اتساع مداها ، وكذلك الأفكار والمشاعر المرغوب فيها ، وتناقص العناصر السلوكية غير المرغوب فيها أو حذفها وكذلك الأفكار والمشاعر المرغوب عنها .

٢ — لا يحاول العلاج السلوكى تغيير الجوهر الانفعالى للاتجاهات أو المشاعر داخل الشخصية .

٣ — المعالجون السلوكيون يرون أن العلاقة الايجابية ضرورية ، ولكنها شرط غير كاف للعلاج النفسى الفعال .

٤ — تعتبر شكاوى العميل هى المادة الصحيحة التى على المعالج السلوكى أن يركز عليها ، ولا تعتبر هذه الشكاوى أعراضا لمشكلة أخرى كامنة.

٥ — يفهم كل من المعالج والعميل فى العلاج السلوكى المشكلة المعروضة فهما واضحا على أساس السلوك الفعلى للعميل (أفعاله وأفكاره ومشاعره) وهما يقرران معا ويتفقان على الأهداف العلاجية مصاغة بطريقة يعرف كل من العميل والمعالج أنها تحققت حين تتحقق .

(Frager, 1984, pp. 308-310)

طرق البحث والبحوث المميزة :

تختلف تجارب سكنر وبحوثه عن الممارسات المعاصرة فى البحوث السيكولوجية من عدة وجوه نجملها فيما يأتى : —

١ — يركز سكنر فى تجاربه على دراسة أبسط الوقائع السلوكية .

٢ — يصر على أن يضبط الظروف التجريبية ضبطا آليا .

٣ — يسجل استجابات المفحوصين تسجيلا آليا .

٤ — يقوم بدراسة مكثفة لحالة واحدة بدلا من دراسة مجموعات من الأفراد.

ويرى سكنر أن هدفة عالم النفس هو أن ينضبط السلوك لدى الفرد اما الباحثون الذين يدرسون جماعات كبيرة من الحيوانات فانهم لا يهتمون اهتماما كبيرا بالمتغيرات التى توضع موضع الضبط ، طالما أن افراد التجربة موزعين توزيعا عشوائيا . وسكنر يعتقد أن هذه المتغيرات شأنها شأن اى متغيرات أخرى ينبغى أن تدرس بعناية ودقة . واذا كنا سنضبط السلوك فان علينا أن نتوصل الى تحديد هذه المتغيرات بحيث نستطيع ضبطها . ويرى سكنر أن الهدف ينبغى أن يكون ضبط السلوك فى الفرد الواحد . واستخدام عينة كبيرة من الأفراد فى التجربة فى رأيه اعتراف مبدئى بالاخفاق ، فلو احتجب تأثير تناول المتغير المستقل بالزيادة والنقصان ، وظهرت تغيرات غير متسقة فان هذا يعنى أن الضبط التجريبى للمتغيرات غير دقيق . وعندئذ يرى سكنر ارجاء تناول المتغير المستقل الأصلى والاتجـاه الى محـاولة الكشف عن المتغيرات الدخيلة المسببة لهذه التغيرات غير المتسقة. ان مثل هذا الاستقصاء يساعد على فهم المتغيرات وضبطها،كما يساعد على استبعاد تأثير المتغيرات الدخيلة . ويوجه الباحث انتباهه بعد ذلك الى تأثير المتغير المستقل على المتغير التابع . (الشماع ، ص ٧٧ — ٧٨) .

والباحث على طريقة سكنر يتقدم عادة وفقا لهذه الخطوات : يدرب حمامة جائعة على نقر قرص ، ويحافظ على استمرارها فى الاستجابة وفقا لجدول تعزيز متغـاير ، ويسجل معدلات الاستجابة هذه وهى تمثل الخط القاعدى لتواتر الاستجابات ويتميز بالاستقرار.ويلاحظ أن هنك قدرا ضئيلا من التذبذب فى سلوك الحمامة ، فيعمد الى متابعة هذه الآثار بحيث يردها الى ظرف يحتمل انه لم يوضع موضع الضبط فى بيئة الحمامة وقد يكون هذا الظرف رائحة يحملها تيار من الهواء يمر فى الصندوق . ويقوم الباحث بتغيير هذا الشرط على نحو نسقى فاذا اتضح ان له اثره فى معدل النقر عند الحمامة فانه يكون قد توصل الى متغير آخر يتطلب ضبطا .

آثار العقاقير فى السلوك :

لقد ظهر أن منهج سكنر وصندوقه أداتان تثيران الأعجاب فى دراسة تأثير العقاقير المختلفة فى السلوك . وعلى سبيل المثال يمكن تدريب فأر

على الضغط على رافعة فى صندوق سكنر حتى تصل استجاباته الى سرعة معينة مستقرة ، أى حتى يستقر معدل الضغط . وعند هذه النقطـة يعطى الفار مقدارا معينا من العقار وقبل البدء فى دورة جديدة ، ويمكن خلال هذه الدورة قياس الزمن الذى بدأ عنده ظهور آثار العقار ، وطبيعة هذه الآثار ومدة استمرارها . ويتيح صندوق سكنر للباحث أن يدرس آثار العقار على الادراك والخوف واستجابات الاقدام والتجنب فى ظل ظروف حسن ضبطها . والحق أنه لم توجد حتى الآن طريقة للتجريب على الحيوان تفوق طريقـة سكنر من حيث كفاءتها فى عزل جوانب معينة من السلوك ودراسـة تأثير العقاقير المختلفة فيها .

ومن العقاقير التى درسـت على نحو مكثف بطريقـة سكنر الكلور برومازين Chlorpromazine . وهو عقار مضاد للقلق يسـتخدم فى علاج الذهان وفى ظل تأثير هذا العقار ينخفض معدل ضغط الفار على الرافعة فى صندوق سكنر ، حتى ولو كان الضغط يجنبه التعرض للصدمة الكهربائية . وقد نستنتج من هذه النتائج أن الكلور برومازين ينقص الخوف . ولقد افترض بصفة عامة أن هذا العقار الذى كثر استخدامه مع الشيزوفرينين له هـذا الأثر . وعلى أية حال فقد ظهرت نفس النتيجة لدى الفئران التى تناولت العقار عندما كان الضغط على الرافعة مؤديا للحصول على الطعام . وهكذا يبدو أن هذا العقار يعمل كخافض أو مسكن عام وأنه ينقص جميع أنـواع الاستجابات ولا يقتصر تأثيره على الاستجابة الناتجة عن الخوف . وقد اتضح أن النتائج بالنسبة لهذا العقار أكثر تعقيدا من هذا بكثير لان تأثيره يختلف باختلاف مقادير الجرعات . فالكميات القليلة جـدا منه تزيد من معـدلات الاستجابة على خلاف الكميات الكبيرة . وباستخدام طرق سكنر نستطيع أن نحدد وان نكتشف مثل هذه التعقيدات قبل أن تحدث آثار ضارة غير مقصودة عند المرضى من بنى الانسان .

التدخلات السلوكية مع المرضى العقليين :

لقد توصل أيلون وازرن Ayllon & Azrin فى الستينات من هذا القرن الى ما أصبح يعرف بعد ذلك بالعملات الرمزية ؛ وهو أسلوب يقـوم على

مبادىء الاشتراط الاجرائى . وقد صمم ليغير سلوك المرضى العقليين الذين أقاموا فى المستشفيات لفترات طويلة فى الاتجاه المرغوب فيه . ولقد كان التعزيز مشروطا وفى صورة نقود رمزية ، فاذا صدر عن المريض الاستجابات المرغوبة كاعتماده على نفسه فى ارتداء ملابسه أو تناول طعامه ، وكتمامه لواجباته وقيامه بما يكلف به من أعمال على نحو سليم يتلقى هذه العملات . ثم يتاح للمريض بعد ذلك أن يحول هذه النقود الرمزية الى معززات اولية ، أى الى اشياء يرغب فيها ويستمتع بها كالملابس الجديدة والتفاعل الاجتماعى وأدوات التجميل ، ومشاهدة فيلم سينمائى ... الخ .

ولقد أصبحت اقتصاديات العملات الرمزية منذ ذلك الوقت وسيلة مستخدمة فى كثير من المواقف لتنمية المعاقين ، ولعلاج الأطفال المضطربين عقليا ، كما استخدمت فى تعديل سلوك الجانحين من الاحداث ، بل وفى تعديل سلوك الأسوياء . واثبت هذا الاسلوب نجاحه وجدواه فى اكتساب الانماط السلوكية المرغوب فيها . (Hall & Lindzey, 1985, pp. 481 - 483) (الشماع ، ١٩٧٧ ص ٧٥ — ٨٠) .

المكانة الراهنة والتقويم :

ان النظرية التى تستطيع أن تجيب عن كثير من الأسئلة الأساسية بمبدأ واحد نظرية اقتصادية بالتأكيد . ان وظيفة العلم أن نبسط ظواهر الطبيعة وأن نفسرها بعدد محدود من المبادىء الرئيسية ، وفقا لقانون الاقتصاد الذى يعرف بقانون مورجان نسبة الى لويد مورجان Lloyd Morgan اب علم نفس الحيوان ومؤداه انه كلما وجد تفسيران أو اكثر جديران بالتصديق لظاهرة واحدة ، فان ابسطها واقلها تطلبا لمسلمات سابقة هو التفسير الصحيح على الأغلب . ولقد قبل علماء النفس وغيرهم من العلماء قانون مورجان .

وهذا المبدأ رغم روعته ، كثيرا ما يواجه صعوبات عند تطبيقه لانه لا يوجد محكات موضوعية لتحديد أبسط المبادىء أو النظريات . وقد يكون من الصعب التمييز بين ما هو بسيط وما هو مبالغة فى التبسيط . ان الاقتصاد

جيد ولكن التبسيط الزائد ليس جيدا . ولقد اتهم سكنر بالتبسيط الزائد وقدم دفاعا جريئا عنه .

وبعض الناس يجون صعوبة فى تفسير السلوك الانسانى على أساس احتمالات التعزيز . وسكنر يتساءل ويتعجب : لماذا لا يجد الناس صعوبة فى التصديق بنظرية الجراثيم كأصل للمرض . انك لا تستطيع حتى أن ترى الجراثيم ومع ذلك فان الناس سرعان ما قبلوا التفسير البسيط بأن الجراثيم تسبب كل الامراض وتفسرها . والسؤال هو : هل يتنافى مع العقل بدرجة اكبر القول بأن احتمالات التعزيز تفسر السلوك كله .

نظرية سكنر دينامية . ان البيئة تقوى عناصر سلوكية معينة وتضعف الاخرى ، أى أن ثمة عملية اختيار وانتقاء ، وهى تحدث فى كل لحظة من لحظات الحياة . ونظرية سكنر تركز على عملية التطور السلوكى هذه . وهى عملية دينامية أى أنها فى حركة دائمة . ان علماء نفس الشخصية لا يولون فكرة أن الشخصية عملية دينامية حظها من الرعاية.وسكنر سلوكى راديكالى يستبعد كل شىء ماعدا السلوك من مجال دراسته ولم يترك شيئا سوى العملية .

ان السلوك نفسه يتضمن فعلا،ولكن سكنر ليس مهتما كثيرا بالسلوك ذاته ، كاهتمامه بكيفية تغير السلوك . ان عملية تغير السلوك هى موضوع سكنر ، ولا يمكن القول أن هناك شيئا اكثر دينامية من هذا .

ويركز سكنر على معدل الاستجابة أكثر من تركيزه على ما يسميه طبوغرافية الاستجابة ، يعنى التزام سكنر بالتحليل الدينامى للسلوك . ان لغة ورق الرسم البيانى فى صندوق سكنر فى حركة دائمة . ولقد اهتم علماء النفس تقليديا بما يفعله الكائن الحى ، وبطبوغرافية السلوك ، الفأر ينحنى الى اليمين أو الى اليسار فى المتاهة التائية T ، والشخص الذى يستجيب الى اختبار الرورشاخ يرى فيلا يرتدى غطاء رأس مضحك ، من كل عشرة أطفال يشاهدون نموذجا عدوانيا يسلك تسع منهم بعد ذلك سلوكا عدوانيا. ان اعتراض سكنر على طبوغرافية السلوك وتجاهل معدل اصداره يقوم على أن المعرفة الطبوغرافية لا تؤدى الى علم يتنبأ بالسلوك ويضبطه. ان قوانين

السلوك لم تظهر حتى ادرك باحث ان النقطة الأساسية هى معدل السلوك وليس ما يفعله الكائن الحى ، بل ما مقدار تواتر الفعل الذى يقوم به . ان السلوك دينامى ، انه فعل وحركة وتغير . ومن المعقول ان نقول ان قوانين السلوك يمكن الكشف عنها بالتركيز على عملية التغير ، كما تظهر فى معدل تغير الاستجابة .

وسكنر ليس هو الوحيد من اصحاب النظريات الذى يهتم بالتطبيقات الكلينيكية لعمله ، ذلك ان جميع المعالجين النفسيين يستهدفون تحقيق نوع من التغيير فى الناس ، ولكن تعديل السلوك وهو من ثمار افكار سكنر يبدو منشغلا بدرجة اكبر بالتغيير عن أنواع العلاج الاخرى ، ولعل ذلك لان طريقة سكنر تركز على تحقيق تغيرات قابلة للملاحظة وواضحة ، ان تعديل السلوك مكرس لاحداث التغيير وهذا يؤيد القول بان موقف سكنر موقف دينامى .

ان معظم نظريات الشخصية تدعى انها دينامية ، بل ان تسمية كثير منها تشتمل على كلمة دينامى . ولكن نظرية سكنر لا تدعى ذلك ولا تستخدم الكلمة ولعل ذلك يرجع الى أن هذه الكلمة ملزمة بتبنى اتجاه نظرى معين . ومع ذلك فان نظرية سكنر دينامية بادق المعانى .

نظرية سكنر قابلة للتطبيق وللاختبار . ان النظرية التى تبين ان الاحتمالات البيئية وشروط التعزيز تضبط السلوك وتشكله يمكن البرهنة على صدقها او عدم صدقها فى المعمل . ان المبادىء التى تم اكتشافها فى المعمل من خلال التجريب على الحيوانات فى صندوق سكنر يمكن تطبيقها فى الصف الدراسى ، أو فى العيادة النفسية ، ويمكن أن تحقق الأهداف التربوية والعلاجية . ونجاح هذه المبادىء فى هذه المواقع يعتبر اختبارا آخر لصدق النظرية .

ولناخذ مثالا بسيطا جدا ولكنه يوضح تعديل السلوك وهو مثال مقتبس من العدد الأول من مجلة تحليل السلوك التطبيقى : Journal of Applied Behavior Analysis (Hall et al, 1968) المكان هو احد صفوف السنة الثالثة الابتدائية باحدى مدارس المدن . ومعظم التلاميذ من المحرومين ثقافيا . وموضوع التجربة طفل يدعى روبرت ، مشتت الذهن ومخل بنظام الصف ،

ولقد بينت الملاحظة الدقيقة أنه كان يدرس حوالى ٢٥٪ من زمن الدرس ، ويعمل على تشتيت انتباه زملائه بقية الوقت . وهذه الملاحظات الموضوعية لسلوك روبرت غير المألوف تحدد الخط القاعدى لسلوكه baseline وواضح أن نجاح أى برنامج فى تغيير السلوك يتحدد بملاحظة السلوك قبل البدء فى تنفيذ البرنامج وبعده . وقد استهدفت البرنامج فى حالة روبرت تعديل سلوكه الدراسى . فكلما درس روبرت اهتمت المعلمة به وشجعته ومدحته ، وكلما توقف عن الدرس تجاهلته . ولم تكن المعلمة تفعل هذا من قبل لان سلوكه المخل بالنظام كان يثير سخطها وغضبها . ولقد كان لسلوك المعلم أثره على التلميذ يشبه ما يحدث للفأر فى صندوق سكنر حين يكتشف أن الحصول على كريات الطعام مشروط بالضغط على الرافعة . لقد ازداد سلوك روبرت فى الدرس من حوالى ٢٥٪ الى ٧٥٪ من وقت الدرس. ولقد بدا أن التعزيز كما يتمثل فى انتباه المعلمة للتلميذ يضبط سلوكه الدراسى . ولاختبار ما اذا كان تزايد سلوك روبرت الدراسى راجع الى تعزيز المعلمة لهذا السلوك ، توقفت المعلمة عن الثناء على سلوك روبرت الدراسى فى المرحلة التالية من التجربة وعادت الى معاملته كما تعودت أن تعامله من قبل خلال مرحلة الخط القاعدى . فتناقص معدله فى الاستذكار والدرس خلال هذه المرحلة حتى ولو لم ينخفض ليعود الى الخط القاعدى ، وهذا دليل مقنع بالتأكيد على أن التعزيز الذى توفره المعلمة هو السبب الأصلى لتزايد معدل الدرس كما حدث فى المرحلة السابقة . وفى المرحلة الرابعة تعود المعلمة الى برنامج تعزيزها لسلوك روبرت فى الدرس والاستذكار فيزداد معدل الدرس كما حدث فى المرحلة الثانية . وترتيبا على ذلك فانه لا شك فى أن احتمالات التعزيز وشروطه تضبط السلوك . فالنظرية لم تثبت صحتها تجريبيا فحسب ، بل انه قد تم حل مشكلة تعليمية وانفعالية بطريقة انسانية .

وواضح أن روبرت لم يتعرض لتهديد أو عقاب ولم تستخدم المعلمة معه القوة أو الشدة . لقد حصل بالضبط على ما يريده ، اهتمام المعلمة أو التفاتها اليه ، ولكن الحصول على هذا الاهتمام كان مشروطا بالسلوك السليم فى الصف وهو يشعر شعورا طيبا عما يجرى فى المدرسة ، فى موقف يتعلم فيه قدر كبير عما كان يتعلم من قبل. وحين حاول معلمون ان يضبطوا سلوكه بالتهديد بالعقاب ، كان يعتبر الذهاب الى المدرسة نوعا من العبودية . أما

وقد تم ضبط سلوكه بتعزيز ايجابى فهو يشعر انه يعمل ما يريد ان يعمله . ان العسل يجتذب عددا من الفراشات اكثر مما يجتذب الخل .

وتستخدم جميع تطبيقات نظرية سكنر العسل ولا تستخدم الخل . وسواء اكان العمل المطلوب اعادة تشكيل الثقافة كلها فى بيئة طوبائية او مجرد تعليم طفل متأخر عقليا استخدم ادوات المائدة فى تناول الطعام ، فان سكنر يصر على استخدام التعزيز الايجابى وتجنب المثيرات المنفرة وجميع انواع العقاب .

ينبغى تحليل السلوك غير المرغـوب فيه للكشـف عن الشروط التى تحكمه ، وتغيير تلك الشروط والاحتمالات بحيث لا يصدر هذا السلوك . وبعبارة اخرى ينبغى استبعاد المثيرات المميزة والا فان السـلوك لن يلقى التعزيز وينبغى تجنب العقاب اذا كان ذلك ممكنا .

ان طوبائية سكنر هى عالم بغير عقاب . ولعل فكرته المفضلة هى ان الناس يتعلمون حين يثابوا افضل مما يتعلمون حين يعاقبوا ؛ وافضل شىء عن الآلة التعليمية او اى اداة تعلم مبرمج هى انها كالمدرس الخاص توفر للتلميذ تعزيزا مباشرا يجىء بعد الاستجابة ، وفضلا عن ذلك فان التلاميذ يندر ان يخبروا نتائج منفرة للاخفاق ، انهم يجيبون عن كل سؤال تقريبـا اجابة صحيحة لان مستوى صعوبة الاسئلة يتزايد تدريجيـا وتتـوافر له مؤشرات وهاديات على نحو نسقى . ويلقى المتعلم اثابة من الآلات التعليمية على كل جزء يتعلمه من البرنامج . والمسافة بين كل خطوة واخرى صغيرة صغرا يكفى لكى يصعد الدرج التعليمى . ويصعد بعض الناس اسرع من البعض الآخر بطبيعة الحـال ، ولكن البرنامج التعليمى اذا احسن تصميمه يتيح لكل فرد ان يتعلم ويتقدم ، وليس هنالك تلميذ يرغب فى ان يبدا فى طريق الفشل . وكثيرا ما نسمع من التلاميذ فى مواقف التعليم « لا استطيع التيام بالعمل » ، « لا بد اننى غبى » سأتوقف عن المحاولة .

وفى ضوء جهود سكنر الواضحة لاستخدام نظريته لمساعدة الاطفال على التعلم وللتخفيف من تعاسة المرضى العقليين ولبناء مجتمع مثـالى من الصعب أن نفهم ما تعرض له من اتهام ونقد من البعض الذين اعتبروه فاشيا.

ولعل ذلك يرجع جزئيا على الأقل الى اهتمامه بالآلات وصندوق سكنر المؤتمت automated . ويتشكك نقاده فى تناوله العقلانى لكل شىء ، انهم يرونه تحليليا ومتباعدا ومبالغا فى الحسابات. صحيح أن كتاباته لا تحمل قدرا كبيرا من الدفء والعاطفة ، ولا تفسح مجالا كبيرا فيما يبدو للانفعال أو الحدس . ومع ذلك فان السبب الرئيسى للتهجم عليه يرجع الى موقفه من الحتمية مقابل حرية الارادة وخاصة من قبل علماء النفس الانسانيين .

ومعظم علماء النفس الانسانيين يعلون من قدر وليم جيمس لانه من المدافعين عن حرية الارادة والقائلين بها . ولقد أبرز سكنر بوضوح منطقى انك لا تستطيع أن تتوصل الى علم يشتمل على حرية الارادة . لان الأشياء اذا كانت قانونية بالمعنى العلمى ، فينبغى أن تكون محتومة . ولا يمكن ان تكون معرضة لأهواء الارادة الحرة . ان الارادة الحرة تجعل التنبؤ العلمى مستحيلا كلية . كيف كان يمكن لنيوتن أن يكتشف قانون الجاذبيـة لو أن التفاح بارادته الحرة قرر الا يسقط فى بعض الأحيان وانما أن يصعد ؟ اذا اردت علم النفس فانك لا تستطيع أن تضمنه حرية الارادة . ان العلم بطبيعته ينبغى أن يكون حتميا جبريا .

لقد اعترف جيمس أن المشكلة حيرته . لقد عرف حرية ارادته واعتقد مع ذلك بقوة فى امكانية قيمة علم النفس كعلم . وكان الحل الذى قدمه اذا أمكن اعتباره حلا هو أن يعيش مع التناقض، ولما كان جيمس غير منغمس على نحو مباشر فى التنبؤ بالسلوك فقد استطاع أن يتجاهل التناقض . ولكن سكنر كان حريصا على تطبيق عمله لحل مشكلات انسانية حقيقية ، ومن هنا كان عليه أن يتقبل الحتمية . ولو اكتفى سكنر وقنع بوصف الوظائف النفسية كما فعل جيمس ولم يحاول أن يجرى تجارب لتغيير السلوك لاستطاع أن يتجاهل التناقض . ولكن سكنر ليس فيلسوفا أرائكيا ، انه نشط فاعل مؤدى يعتقد أن النظريات لا معنى لها مالم توضع موضع التطبيق والاستخدام .

غير أن هذه النظرية لاتخلو من نواحى سلبية ومن أهمها : —

أن النظرية تقول بالحتمية . ان المسلمات المنهجية هى ما نسلم به عن

افضل طريقة لبحث مسألة من المسائل. والمسلمات والافتراضات الميتافيزيقية هى ما نسلم به عن طبيعة الواقع ، فاذا فكرنا فى العلم على انه شىء يهتم بالتنبؤ والضبط فان الحتمية ضرورية كمسلمة منهجية . ولا مجال لحرية الارادة ، ولكى نمارس العلم ينبغى أن نتمسك بقواعد الحتمية ، وبدون هذه القواعد لا نستطيع االاشتغال بالعلم .

وتنشأ المشكلة حين يخلط سكنر بين الاشتغال بالعلم والواقع . ان العلم يزودنا بمعرفة عن العلاقات الوظيفية ، اذا قمت بهذا العمل فانه يترتب عليه تلك النتيجة ، وسكنر يبدو انه يقدر هذا حين يقول أن هدفه هو التحليل الوظيفى للسلوك ، ولكن العلم لا يفسر طبيعة الاشياء ، وانما يفسر كيف تعمل الأشياء اى أنه لا يفسر ما هى عليه . ولكى يفسر كيف تؤدى الاشياء عملها. ينبغى أن يسلم العلم بمسلمات معينة عن ماهية هذه الأشياء ليساعدنا على التفكير عن كيفية اداء الأشياء لعملها . وينبغى ان نبرز هذه النقطة . فحين يتم التثبت من صدق فروضك عن كيف تعمل الأشياء عملها ، لا ينبغى أن يكون هذا دليلا على صدق مسلماتك عن طبيعة الأشياء . ويبدو ان سكنر وقع فى هذا الخلط او ادى بقرائه ودارسيه الى هذا الخلط .

ويعترف سكنر أن لدى الناس خبرة ذاتية بحرية الارادة ، غير ان هذا مجرد وهم كما يقول ، لان التعزيز الايجابى للسلوك الاجرائى هو الذى يؤدى الى وهم حرية الارادة . ويختلف السلوك الاجرائى عن السلوك الانعكاسى من حيث ان الأول ليس مسببا بمثير مسبق واضح ، وليس كالسلوك المعزز سلبيا ، انه ليس محاولة للهروب من الالم ، ومن ثم فاننا نشعر اننا نؤدى السلوك الاجرائى لاننا نريد ذلك بمحض ارادتنا الحرة كما شعر بذلك روبرت ، شعر بأنه قرر ان يدرس بجد أكبر حين بدأت المعلمة تولية اهتمامها، ولما كان فى الامكان تجاهل المشاعر الذاتية تجاهلا تاما لاغراض التنبؤ والضبط فان سكنر يعتبرهما وهما .

ان الامر الهام كما يقول سكنر هو ان الناس الذين نضبط سلوكهم بالتعزيز الموجب لا يحاولون الهرب أو الهجوم المضاد . وفى ايجاز انهم سعداء بنصيبهم ويشعرون بأنهم احرار وكثير من نقاد سكنر يرون أن هذه

العبارات تثير صورا عن غدر الحكومة الاستبدادية فى مجتمع يقاد الناس فيه كالقطيع ويحيون حياته .

ولكن سكنر يمضى ليتحدث عن الضبط المضاد . ويبدو أن المضبوط يضبط ضابطيه ، فالحكومة تسيطر علينا وتضبطنا ولكننا بدورنا نضبطها ونسيطر عليها عن طريق الاقتراع والخطابات التى نرسلها الى المشرع ووسائل الاعلام ... الخ . وتسيطر علينا المؤسسات الاقتصادية الكبرى ، ولكننا أيضا نسيطر عليها عن طريق الاتحادات وجماعات المستهلكين والمؤسسات الحكومية المنظمة لأنشطتها . ان الاستجابة لجميع الأفراد والمؤسسات التى تسعى للسيطرة علينا وضبطنا يتم من خلال ترسانة من الاجراءات المضادة لهذا الضبط تتفاوت من اطفاء الراديو والتلفزيون الى عدم الاستجابة لرنين التليفون ، الى تنظيم جماعات للمتابعة والتقويم والاحتجاج وقد يصل هذا أحيانا الى الهجمات الارهابية ، والاضرابات والابطاء فى العمل والاستقالة والهجرة كلها أمثلة واضحة لجهود الضبط المضاد . ان الهرب من المدرسة مثال لذلك ؛ وهناك آلاف من الأنماط السلوكية اللحظية التى تندرج فى فئة السلوك المضاد للضبط والتى ننغمس فيها كل يوم . واذا كنت استطيع أن انغمس فى الضبط المضاد فانى حر على الاقل بمقدار فهمى لمعنى كلمة الحرية .

وينبغى أن يؤمن سكنر عند بعض المستويات بحرية الارادة والا فلا معنى لان نبذل جهدا لمشاركته فى اقامة مجتمعات طوبائية . واذا كان الناس لا يمتلكون بعض الحرية ، فما معنى أن يتبنى سكنر استخدام مبادىء تعديل السلوك مع الذات لتحقيق الضبط الذاتى ؟ واذا كان الناس كالفئران فى صناديق التجارب فما معنى الكلام عن الضبط المضاد ؟

والناس بطبيعة الحال مضبوطون وهم ايضا أحرار . ان الانسان حر فى حدود وهذه الحدود نتيجة من الامكانيات الوراثية للفرد وعن الثقافة التى يعيش فيها والمرحلة التاريخية والخبرات النمائية وهلم جرا . ولا يستطيع احد ان يهرب من تأثير هذه العوامل المحدودة ومن ثم فلا يوجد شخص حر حرية مطلقة ؛ وكل فعل انسانى حر ومحتوم فى نفس الوقت . وليس ثمة فعل من افعلنا حر حرية كاملة او محتوم حتمية كاملة (على الرغم من أن

بعض الأفعال أكثر تحررا من البعض الآخر) . وكل ما نفعله يقع فى موضع ما بين قطبى الحرية والضرورة . ولعل سكنر أقل معارضة لفكرة أن الناس أحرار عنه لفكرة عدم الحتمية السلوكية . وهو يستطيع أن يسترخى على أية حال . ان النظرة المبسطة تبسيطا زائدا والقائلة بأن الناس إما أن يكونوا أحرارا أو مجبرين نظرة ساذجة . ويعترض عليها سكنر وهذه القضية تحتاج الى اعمال الفكر والى جهد نظرى جاد وعميق .

ان كلمة ضبط كلمة قوية تعنى الحتمية المطلقة والآلية ، والحقيقة أن ما تحدث عنه سكنر هو التأثير ، واختياره لكلمة ضبط يثير الجدل وفيه قدر من التضليل ، فالمهندس يضبط الانسان الآلى robot ولكنه يؤثر فى انسان آخر اللهم الا اذا كنا نتحدث عن أنواع خمس من العلاقات التى لا يوجد فيها ضبط مضاد مؤثر وهى : رعاية صغار السن ، والمسنين ، والمسجونين ، والذهانيين والمتخلفين عقليا . فالكلمة الملائمة لموقف هؤلاء هى الضبط . أما العلاقات العادية بين الناس الذين يتقاربون أو يتساوون فيصدق عليهـا بدرجة أكبر ويلائمها كلمة التأثير .

والفرق بين علاقة الانداد والعلاقة بين السجان والسجين على سبيل المثال فرق فى السلطة والقوة . وحيث يوجد هذا الفرق فان لدى أحـد الشخصين شىء ليس ميسرا ولا متاحا للشخص الآخر . فمن لديه موارد نادرة قادر على أن يجبر الآخر على أداء أفعال معينة مقابل نصيب من هذه الموارد . والسؤال هو ما وجه الغرابة فى هذا ؟ أليس من الأبسط أن نقول أن السلوك مضبوط بواسطة احتمالات التعزيز البيئية وشروطه ؟ ما هى المسألة التى تحتاج الى تفسير ؟ اذا كان لديك ما يريده الناس فانك تستطيع أن تجعلهم يأتون ما تريد لكى يحصلوا على ما يريدون .

وطالما أن هناك أناسا فى العالم أكثر قوة وسلطة منك : فان لديهم ما يقولون عن سلوكك . وطالما أن الناس لديهم ما تريد فان حريتك سوف تتعرض للقيود . واذا كان بحوزتهم ما تحتاجه بشدة كالافراج عن طفلك المختطف ، فانهم قادرون على ضبط سلوكك على نحو قابل للتنبؤ . وكلما ازدادت قوتهم وازدادت حاجتك الى ما يقدمون لقاء مسايرتهم كلمـا كان

سلوكك أكثر قابلية للتنبؤ . وسوف يعمل الناس ما عليهم عمله ليحصلوا على ما يريدون .

الدور فى التفكير . ومن الاعتراضات التى تساق بالنسبة لتعريف سكنر للتعزيز أنه دائرى . فسكنر لم يحدد المعزز تحديدا مطلقا مقدما . أن نظريته تفترض أنه اذا زاد معدل الاستجابة فان المثير الذى يتبع تلك الاستجابة لا بد أنه قام بوظيفته كمعزز . بعبارة خرى اذا أردت أن تعرف ما يسبب التغيير السلوكى أو اكتساب الاستجابة فان الاجابة هى التعزيز . ولكنك اذا أردت أن تعرف ما هو التعزيز فان سكنر يقول لك هو « ما يزيد من معدل الاستجابة » . وهكذا نقع فى الدور كما يقول المناطقة : اى أن كل من الكلمتين يعرف على أساس الكلمة الأخرى ، وهذا لا يزيد استبصارنا وفهمنا للتغير السلوكى . وكأننا نقول أن تغير السلوك يسبب التغير فى السلوك . فالمعزز هو ما يعزز الاستجابات . وسكنر نفسه يبين هذا النوع من التفكير حين يقول « مع ذلك فان من الخطأ أن نقول أن سائلا يتدفق ببطء بسبب كثافته العالية . وهى حالة نستنتجها من سلوك السائل ثم نبدأ فى اعتبارها سببا » (Skinner, 1974, p. 161)

وفكرة التعزيز لا تؤدى الى تنبؤات بالسلوك فائقة . يستجيب سكنر لهذا النقد بابراز نجاحات المعالجين السلوكيين فى تعديل انماط سلوكية تفاعلية وخطرة تهدد الحياة . ولقد نجحت الأساليب السلوكية فى كثير من الحالات حيث أخفقت الطرق الأخرى فى تحقيق شفاء درامى. وسكنر يتحدى غير المقتنعين بجدله النظرى أن يعدلوا سلوكا بكفاءة كما تستطيع مبادئه أن تفعل . واذا كان سكنر بارعا فى تعديل السلوك حقا فاننا نتساءل ونعجب لماذا لا يعدل سلوك معارضيه على نحو مباشر بحيث يحملهم على تأييده والاتفاق معه ؟ والاجابة بطبيعة الحال هى : أنه لا تتوافر لديه سلطة أو قوة بالنسبة لهم .

وفى السجن ومستشفى الأمراض العقلية يكون مجتمع المؤسسة تحت اشراف مستمر، ويكون الطعام والأمن الفيزيقى فى قبضة العاملين فيها وتحت سيطرتهم الأمر الذى يتيح ضبط سلوك المساجين والمرضى والتنبؤ بتغيرات

سلوكهم بكفاءة. والنقطة المثارة هنا هى : أن قدرة سكنر على التنبؤ بالسلوك وضبطه تتصل على نحو مباشر بحـالة الأسر التى يوجـد فيها المجتمع المستهدف ... والملمح البارز لصندوق سكنر ليس وجود رافعة يمكن من خلال ضغطها الحصول على الطعام لارتباطها بنظام يتحكم فى تقديمه ، وانما كون الفار فى صندوق لا يستطيع منه فكاكا . ففيران سكنر تسلك على نحو يمكن التنبؤ به لانها فى صناديق اى فى الأسر .

ويسلك الناس على نحو اكثر قابلية للتنبؤ حين يوجدون فى هـذه الظروف سواء اكانت الاقفاص حقيقية او وهمية وسـواء وضع فيها رغم ارادته أم بارادته . والنجاح المذهل لمعدلى السلوك فى عملهم مع المتاخرين عقليا لا يرجع الى انخفاض ذكائهم بمقدار مرجعه الى كونهم فى الاسر. ومرة أخرى نقول ان برامج تعديل السلوك قد نجحت وحققت نتائجها فى السجون ولكنها اخفقت خارج جدرانه عندما افرج عن المسجونين وعادوا الى بيئتهم . بل ان المرضى الذين لم يوضعوا فى غرف تغلق عليهم ، وانما لجأوا الى المعالجين السلوكيين طلبا للعون حتى يسيطروا على نهمهم او مخاوفهم غير العقلانية قد وضعوا انفسهم باراداتهم تحت سيطرة هؤلاء لقد وافقوا على أن يبقوا ساعات معينة فى عيادة المعالج كل اسبوع . والطفل الصغير الذى عرضنا حالته على حق حين اعتبر حجرة الدراسة شبيهة بالسجن لانه كان اسيرا رهن سلطة المعلمة. صحيح ان هذا الأسر لا يستطيع تفسير التغيرات التي طرات على سلوكه لأنها تعزى الى شروط التعزيز واحتمالاته . ومع ذلك فلا يمكن اعتبار الأسر عمل منهجى لضبط المتغيرات الدخيلة كما لو ان هذه المتغيرات الدخيلة ليست أكثر من مزعجات ثانوية . ومن وجهة نظـر الضابطين والمسيطرين من المزعج ان يرفض المفحوصون البقاء فى الأسر ، ولكن هذا الأسر من وجهة نظر المجموعة الأخيرة اضرار بالحرية .

ان ما يقدمه سكنر هو تكنولوجيا محسـنة للتنبؤ بسـلوك الأسرى والسيطرة عليه والتعزيز الايجابى يعمل على نحو افضل من العقاب . لانه لا يضيع جهدا فى الضبط المضاد . غير أن هذا بمعناه ان التعزيز لا يولد جهدا يكرس للهرب من الاسر والبحث عن تعزيز فى مكان آخر او للتمرد على سلطة

الضابط والاستيلاء عنوة على ما قدم له من قبل مقابل أصدار السلوك الذى حدده الضابط ووضعه شرطا للحصول على التعزيز .

وسكنر لا يقدم لنا طريقة متفوقة للتنبؤ بسلوك الذين يرتبطون ويتعاملون معنا على قدم المساواة (اى ممن ليسوا فى الأسر) وعلى سبيل المثال اذا استطعت أن أتنبأ بموضع الضربة التى سيوجهها لى منافسى فى لعبة التنس قبل حدوثها بجزء من الثانية ، فان موقفى فى اللعب سيكون أفضل . واذا كنت استطيع أن اتنبأ بسلوك بائع الأثاث الذى احاول الشراء منه من حيث تشبثه بالثمن المحدد أو تخفيضه فيما لو هددته بالانصراف . واذا كنت استطيع التنبؤ بسلوك رب العمل لمخالفته فى الرأى ومدى رغبته فى ذلك أو ضيقه به فاننى فى كل هذه الحالات ساكون فى وضع افضل فى التعامل معهم . وهذه هى المواقف التى أود أن أقدر على التنبؤ فيها بسلوك الآخرين . ولكن سكنر لا يستطيع أن يساعد فى هذه المواقف . ان التنبؤ فى هذه الأمور ممكن نظريا لانها كلها محددة وحتمية ولكن شروطها واحتمالاتها معقدة جدا بالنسبة لنا بحيث يصعب التنبؤ بها فى الوقت الحاضر ، وقد يكون ذلك ممكنا فى المستقبل .

ان هذه الأنماط السلوكية قابلة للتنبؤ نظريا عند سكنر لانه يسلم تسليما قبليا بأن جميع الأنماط السلوكية محددة وحتمية . وحين هوجمت نظريته اعتمد على قدرته على التنبؤ بالسلوك فى مواقف تم ضبطها محاولا أن يدعم وجهة نظره . وحين يقال له أن قدرا كبيرا من سلوك الانسان اليومى يتعدى قدراته على التنبؤ فانه يرد قائلا أن هذه مسألة غير هامة لان مثل هذا السلوك قابل للتنبؤ نظريا . واذا شعرت بأنك فى دائرة مفرغة فلك كل الحق لان سكنر يقول اذا كان السلوك قابلا للتنبؤ فانه ينبغى أن يكون محتوما ، واذا كان محتوما فانه قابل للتنبؤ نظريا . ويستطيع سكنر فى التحليل النهائى أن يخبرنا بما افترضه دون برهان أو دليل قبل أن تتدحرج كرية الطعام الأولى من فتحتها فى صندوقه الأول ، أى أن سكنر يعتقد فى امكانية قيام علم يتنبأ بالسلوك ويضبطه . (Scroogs 1985, pp. 200-209)

لقد طور سكنر ورسخ مدرسة أساسية من مدارس علم النفس . فطبقت السلوكية فى العلاج النفسى وفى التعليم . وكان لأفكاره آثار بعيدة

المدى فى تعديل البرامج فى الجامعات والسجون والمستشفيات العقلية والعيادات النفسية والمدارس الابتدائية . بل وقد أقيمت عدة بيئات اجتماعية تجريبية فى محاولة لتحقيق بعض ما أورده فى كتابه Walden Two

ولقد وسع سكنر عمله واهتمامه فشمل مجالات العمل والأسرة وحجرة الدراسة واجتذب الكثير من المعجبين والنقاد . واحتقاره لأفكار الحرية والابتكار والذات وايمانه الذى لا يتزعزع بعلم تسوده القوى الخارجية مخيف ومقنع .

ولقد أفادت التربية من افكار سكنر عن طريق التعليم المبرمج والآلات التعليمية وادراك الحاجة الى تعريف الأهداف التعليمية سلوكيا . ويعتقد سكنر أيضا أن المدارس اذا سيطرت على السلوك على نحو ايجابى بدلا من السيطرة السلبية فانها لن تثير لدى التلاميذ سلوك التجنب والهروب الذى نلاحظه الآن على نحو ليس بالقليل .

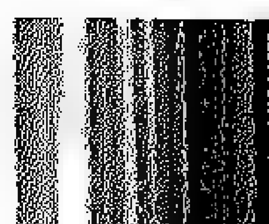
ولا يستطيع من يسعى لفهم الانسان ان يتجاهل التحدى الذى عبر عنه ازاء الأفكار القديمة الراسخة . وبينما كان تصور فرويد للانسان على انه غريزى وعبد لأهوائه مثيرا للنقد ومدعاة للهجوم من قبل معاصريه ، كان اقتراح سكنر بأننا تحت سيطرة القوى البيئية حولنا مقلقا لجيل نشأ على الاعجاب بالاستقلال واعلاء قيمة الحرية .

وفى ضوء كتاباته التى تعدت الاهتمام بالقضايا المعملية ، من الطبيعى أن نقرر أن عمل سكنر قد أصبحت له اهميته النظرية ، وينبغى ان ننظر اليه باعتباره فيلسوفا وباحثا يرى أن قضايا هامة يمكن ان تحل على اساس الشواهد الفعلية وليس على اساس التأملات المجردة . ولقد استطاع سكنر على أساس خلفيته العلمية والفلسفية أن يضع نسقا منهجيا لفهم السلوك الانسانى ، وهو منهج له اثره الملحوظ والواضح فى الممارسات الثقافية المعاصرة وفى الفكر المعاصر .

وفى محاولته لجعل الحياة اكثر قابلية للفهم قدم وجهة نظر عن الطبيعة الانسانية الجذابة من حيث دقة احكامها ومن حيث كونها مباشرة

وصريحة ، ومن حيث نبذها للتأملات الميتافيزيقية . ووجهة نظره منغرسة بعمق فى المنهج العلمى المعاصر ، وتقدم لنا أملا فى فهم أنفسنا دون العودة الى الاستعانة بعوامل لا نفهمها .

وعلى الرغم من أننا اعتبرنا سكنر عالم نفسى نشأت أفكاره الأساسية من نتائج التجارب المعملية التى أجراها على الفيران والحمام ، الا انه قد تعدى محدودية مثل هذه التجارب منذ وقت طويل . وحين كتب روايته Walden Two استطاع أن يحقق نقلة هامة من كونه عالما منهجيا الى كونه مفكرا صاحب رأى يدعو الى علم سلوكى يستهدف خدمة الانسان . يقول سكنر عام ١٩٧٥ : « اننى أعمل على أساس مسلم هو أنه بغير تحسن هائل فى فهمنا للسلوك الانسانى لن نستطيع أن نحول دون دمار طريقة حياتنا ودمار البشرية » (1975, p. 42) ولقد أثبتت بحوثه أهميتها فى علم النفس الاكاديمى ، ولكن تنظيره الاجتماعى هو الذى يدل على أنه سيحتل مكانة هامة فى الفكر المعاصر . لقد جعل من السلوكية قوة دينامية نشطة فى الفكر المعاصر .





الفصل الثاني عشر

دولارد وميللر

ولد نيل أ ميللر فى ميلووكى Milwaukee من أعمال ولاية وسكنسن فى أغسطس ١٩٠٩ م وحصل على بكالوريوس العلوم من جامعة واشنطن عام ١٩٣١ م . ولقد درس في تلك الفترة على يد عالم نفس بارز فى مجال التعلم هو ادوين جثرى . ثم حصل على الماجستير من جامعة ستانفورد عام ١٩٣٢، وعلى دكتوراه الفلسفة من جامعة ييل عام ١٩٣٥ م . وخلال بقائه فى ييل درس مع عالم نفس آخر له شهرته فى مجال التعلم أيضا هو كلارك ل. هل Clark L. Hull ولقد كان لهل تأثير أساسى فى نظرية ميلر عن الشخصية. لقد قام ميلر بتحقيق أحد أهداف هل فدرس موضوعا أثار اهتمامه ، فلقد كان يرغب فى أن يستكشف العلاقة بين نظريته فى التعلم ونظرية فرويد فى الشخصية الأمر الذى لم يحققه وقام به ميلر .

وبعد حصوله على الدكتوراه بفترة وجيزة ذهب الى أوربا وعمل زميلا متنقلا فى مجلس العلوم الاجتماعية ، ثم حلل نفسيا على يد هاينز هارتمان Heinz Hartman فى معهد فيينا للتحليل النفسى . ولقد شغل فى الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٤١ م عدة مناصب أكاديمية فى معهد ييل للعلاقات الانسانية وكانت على الترتيب ، مدرسا فأستاذا مساعدا فأستاذا مشاركا . ومن عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٦ أشرف على البحث النفسى فى القوات الجوية. وعاد فى عام ١٩٤٦ الى جامعة ييل وأصبح استاذاً لعلم النفس عام ١٩٥٢ حيث شغل كرسى جيمس رولاند انجيل .

ولقد بقى ميلر فى جامعة ييل حتى عام ١٩٦٦ ثم انتقل الى جامعة روكفلر Rockefeller University وأصبح أستاذا لعلم النفس ورئيسا لمعمل علم النفس الفسيولوجى . ولقد كان ميلر خلال الستينات باحثا شجاعا حاول أن يطبق الطرق العلمية الدقيقة على الجوانب الذاتية من الخبرة الانسانية ، فدرس موضوعات كالصراع واللغة والحيل الدفاعية . وهذه الشجاعة والجرأة استمرت بعد ذلك فى محاولته الحديثة لاستكشاف الشروط التى يستطيع الأفراد أن يتعلموا فى ظلها ضبط بيئتهم الداخلية .

وتعتبر بحوثه الرائدة فى مجال التغذية الراجعة الحية bio-feed back اسهاما قيما فى مجال ادى الى اثارة البحوث وتنشيطها .

ولد جون دولارد John Dollard فى ميناشا Menasha بوسكنسن فى اغسطس عام ١٩٠٠ وحصل على بكالوريوس الآداب من جامعة وسكنسن عام ١٩٢٢ م ، ثم حصل على درجة الماجستير عام ١٩٣٠ م ، ودكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ م فى علم الاجتماع من جامعة شيكاغو . واصبح عام ١٩٣٢ استاذا مساعدا للانتربولوجيا فى جامعة ييل . واصبح فى السنة التالية استاذا مساعدا لعلم الاجتماع فى معهد العلاقات الانسانية الذى كان حديث الانشاء وقت ذاك فى ييل. ثم عمل عام ١٩٣٥ باحثا مشاركا فى نفس المعهد ، ورقى عام ١٩٤٨ م الى باحث مشارك واستاذ لعلم النفس . وقد بقى دولارد فى جامعة ييل حتى اصبح استاذا فخريا عام ١٩٦٩ م .

ودولارد استاذ موسوعى فى العلوم الاجتماعية ، فقد درس علم الانتربولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس ، وتدرب على التحليل النفسى فى معهد برلين . ولا تظهر معتقدات دولارد واهتماماته بتوحيد العلوم الاجتماعية فى كتاباته فحسب بل تظهر ايضا فى المناصب الاكاديمية المختلفة التى تقلدها فى العلوم الاجتماعية الثلاثة وفى نفس الجامعة . ولقد نشر عام ١٩٣٧ كتابه « الطائفية والطبقية فى مدينة جنوبية Caste and Class in a Southern Town وقد تناول فيه دور السود فى البيئة المحلية . وفى عام ١٩٤٠ نشر كتابا مع اليسون دافيز Allison Davis بعنوان « اطفال العبودية » Children of Bondage وخلال الحرب العالمية الثانية قام بدراسة تناولت السلوك العسكرى وحللته تحليلا نفسيا وادى هذا العمل الى نشر كتابين هما «التغلب على الخوف» Victory over Fear (1942) والخوف فى المعركة Fear in Battle (1943) ولقد نشر مقالا عن محكات تاريخ الحياة عام ١٩٣٦ م Criteria for a Life History . ونشر بالاشتراك مع فرانك اولد A. Auld واليس هوايت كتابا بعنوان « خطوات فى العلاج النفسى » ويتضمن وصفا تفصيليا لشخص اثناء العلاج .

وفى عام ١٩٣٩ نشر دولارد وميلر بالاشتراك مع دوب مورر وسيرز

Doob, Mowrer and Sears كتابا بعنوان الاحباط والعدوان Frustration and Aggression حاولوا فيه أن يحللوا الاحباط ونتائجه على أساس مبادىء التعلم . وبعد فترة وجيزة نشر ميللر ودولارد كتاب « التعلم الاجتماعى والمحاكاة » Social Learning and Imitation وفيه حللا عدة مشكلات سلوكية معقدة على أساس مبادىء التعلم . وفى عام ١٩٥٠ نشرا كتابا أصبح من الكتب الكلاسيية فى علم النفس هو « الشخصية والعلاج النفسى » فى ضوء التعلم والتفكير والثقافة

Personality and Psycotherapy : An Analysis in Terms of Learning, Thinking and Culture.

ان الجهود المشتركة لكل من دولارد وميللر خلقت اطارا يمكن على أساسه فهم الموضوعات النفسية المركبة كالشخصية والعلاج النفسى، فهما اكثر وضوحا عن ذى قبل . لقد استطاعا أن يؤلفا بين فكر فرويد وفكر هل وأن يخلقا من ذلك بنية نظرية اكثر شمولا ونفعا عما حققته نظرية فرويد ونظرية هل كل على حدة .

ولقد بينا فى مقدمة كتابهما عن الشخصية والعلاج النفسى أنه محاولة لوضع أساس أو قاعدة سيكولوجية لعلم عام للسلوك الانسانى. وانه محاولة للتأليف بين ثلاثة اتجاهات علمية لكل منها تقاليده العظيمة واحد هذه الاتجاهات التحليل النفسى الذى أرسى مبادئه فرويد وتبعه كثيرون من تلاميذه الذين حاولوا استخدام هذه المبادىء والافادة منها فى العلاج النفسى . وأما ثانى هذه الاتجاهات فقد انبثق من أعمال بافلوف وثورنديك وهل وعدد آخر من علماء النفس التجريبين . الذين طبقوا المنهج العلمى الدقيق ، اى منهج العلوم الطبيعية فى دراسة مبادىء التعلم . وأما ثالث هذه الاتجاهات فيتمثل فى العلم الاجتماعى الحديث . وتتلخص أهميته فى قدرته على وصف الظروف الاجتماعية التى يتعلم فيها الناس . والهدف النهائى هو أن نصل حيوية علم النفس بدقة المنهج العلمى وبحقائق الثقافة. ويعتقد دولارد وميللر أن علم نفس من هذا النوع ينبغى أن يحتل مكانا أساسيا فى العلوم الاجتماعية وفى الانسانيات ، وان يغنينا عن أن يقدم لنا كل اتجاه

من الاتجاهات الفكرية الثلاث مسلماته الخاصة عن الطبيعة الانسانية وعن الشخصية .

ويرجع تأكيد دولارد وميللر على اهمية مبادىء التعلم الى اعتقادهما بأن معظم السلوك متعلم . ولقد وضحا ذلك فى كتابهما عن التعلم الاجتماعى والمحاكاة (١٩٤١) والذى اهدياه الى كلارك هل . وبينا ان السلوك الانسانى متعلم ، وهو السلوك الذى يميز الانسان باعتباره كائنا حيا عقلانيا وعضوا فى امة معينة أو طبقة اجتماعية . ان هذا السلوك مكتسب وليس فطريا . ولكى نفهم فهما دقيقا اى عنصر من العناصر السلوكية — سواء اكان ذلك فى حياة الفرد او حياة الجماعة — فان على الفرد أن يعرف المبادىء السيكولوجية اللازمة لتعلمه ، والظروف الاجتماعية التى يحدث التعلم فى ظلها . ولا يكفى أن نعرف هذه المبادىء وحدها او تلك الظروف لكى نتنبأ بالسلوك ، وانما ينبغى أن نعرف المبادىء والظروف معا . وعلم النفس يصف مبادىء التعلم ، بينما تصف العلوم الاجتماعية المختلفة ظروف التعلم وشروطه .

ودولارد وميلر لا يعتقدان بأن السلوك الظاهر وحده هو المكتسب او المتعلم ، ولكنهما يعتقدان ان العمليات المعقدة والمركبة ايضا مكتسبة كاللغة، والكبت والابدال والصراع . ولما كانا يعتقدان أن أهم الأنماط السلوكية متعلمة،فانهما يذهبان ايضا الى ان فهم مبادىء التعلم اساسى اذا أردنا فهم السلوك الانسانى .

بنـاء الشخصية :

العادة هى وحدة بناء الشخصية ، وهى ببساطة رابطة بين مثير واستجابة . وهى تمثل ما هو ثابت او مستقر نسبيا فى الشخصية . غير أن مجموعة العادات والترتيب الذى تتخذه يتوقف على الوقائع الفريدة التى يخبرها الفرد . وفضلا عن ذلك فان هذه العادات مؤقتة ، فعادات اليوم قد تتغير نتيجة لخبرات الغد . وهى بهذا المعنى تكوين مؤقت وليس تكوينا ثابتا. ولا يحدد ميللر ودولارد مجموعة العادات التى قد تميز شخصا او التى قد يشترك فيها مجموعة من الاشخاص . لقد انصب اهتمامهما على فهم عملية

التعلم ولم يتجه الى ما تم تعلمه أو اكتسابه . وقد اهتما بتحديد الظروف التى تؤدى الى تكوين العادات والى انحلالها أو استبدالها . وهما يلاحظان على أية حال ان فئة هامة من العادات تستثار بواسطة المثيرات اللفظية أو الكلمات سواء صدرت هذه المثيرات عن الشخص نفسه أم عن الآخر ، وان الاستجابات كثيرا ما تكون هى أيضا لفظية .

ويعتبر دولارد وميللر الدوافع الثانوية كالخوف من الجرس جزءا أساسيا مستقرا نسبيا من أجزاء الشخصية . وهذه الدوافع كثيرا ما تستمر على الرغم من الظروف التى يتوقعها الفرد والتى تؤدى الى انطفائها . والدوافع الأولية والروابط الفطرية بين المثير والاستجابة تسهم فى بناء الشخصية . والظاهرات الأخيرة على اية حال اقل مغزى من العادات والدوافع الثانوية لانها تحدد الجوانب المشتركة بين الناس ولا تحدد ما يميز الشخص ويجعله متفردا .

ديناميات الشخصية :

يهتم دولارد وميللر بالدافعية وهما لا يهتمان بوضع قائمة بالدوافع المختلفة أو بتصنيفها . لقد ركزا على دوافع معينة كالقلق وهما فى تحليلهما لهذه الدوافع وتتبع تطورها حاولا أن يوضحا العملية العامة التى تعمل بها جميع الدوافع .

والدوافع مثير يبلغ من الشدة درجة تكفى لدفع الفرد الى الفعل وعدد هذه المثيرات قليل وتعرف بالدوافع الأولية أو الموروثة وهى تتصل على الأغلب بالعمليات الفسيولوجية التى يؤدى اشباعها الى المحافظة على البقاء كالجوع والعطش . واهمية هذه الدوافع تتوقف على درجة شدتها . وعلى ما يتاح لها من فرص للاشباع . فاذا اتيح لدافع الجوع اشباع ، كلما اشتد لا يكون عاملا مهما فى سلوك صاحبه وتستند عملية التعلم على أساس تنمية الأساليب السلوكية التى تخفف حدة المثيرات الدافعة .

وتظهر لدى الانسان دوافع ثانوية كثيرة أو دوافع مكتسبة تستند الى الدوافع الأولية . وفى المجتمع المعاصر كثيرا ما لا تكون أهمية الدوافع الأولية

واضحة من الملاحظة العابرة للراشد الذى تم تطبيعه اجتماعيا . ان ما نراه بدلا من ذلك هو آثار الدوافع المكتسبة كالقلق والخجل والرغبة فى ارضاء الآخرين . ولا نرى بوضوح عمل الدوافع الأولية الا فى فترات الأزمات وخلال عملية النمو .

نمــو الشخصية :

لكى نعرف كيف تنمو الشخصية ينبغى أن نعرف ما يولد الانسان مزودا به وهو الاستعدادات الأولية ، وان نعرف المبادىء التى يتعدل على أساسها ما نولد به وهى مبادىء التعلم ثم التنظيمات السلوكية الجديدة التى تنشأ عن هذه المادة الأوليــة (الدوافع الثانوية والتنظيمات الهرمية المكتســبة للاستجابات) وان نعرف أيضا ما قد يحدث بين هذه التنظيمات من علاقات وئام وصراع وما ينشأ عنها من نتائج (العمليات اللاشعورية) .

فالوليد لديه عدد قليل من الأفعال المنعكسة المعينة وهى استجابات منفصلة لمثيرات معينة أو فئات من المثيرات ومن أمثلتها ان لمسة على خــده تجعله يدير رأسه فى اتجاه ذلك الخد . ولدى الوليد أيضا عدد من التنظيمات الهرمية الفطرية للاستجابة ، اى ان الوليد يصدر استجابات معينة بالنسبة لمثيرات خاصة قبل استجابات اخرى وعلى سبيل المثال يحاول الطفل الصغير أن يهرب من المثير المنفر قبل ان يصيح . ولدى الطفل مجموعة من الدوافع الأوليــة أو المثيرات الداخلية القــوية والملحة التى ترتبط عادة بعمليــات فسيولوجية معروفة . وهذه الدوافع على سبيل المثال هى الجوع والعطش والألم — تدفع الكائن الحى أن يفعل ولكنها لا تحدد الأفعال النوعية أو المعينة التى سيقوم بها .

وباستخدام هذه الامكانيات المحدودة ومبادىء التعلم يوضح لنا دولارد وميللر عددا من الظاهرات الهامة فى الشخصية من قبل : كيف يوسع ويمد الكائن الحى الاستجابات الأولية الى مواقف جديدة : وكيف ينمى استجابات جديدة ؟ وكيف يحذف استجابات قديمة ؟ وكيف تشتق الدوافع الجــديدة أو الثانوية من الدوافع القديمة ؟ وكيف تحل التنظيمات الهرمية المتعلمة محل التنظيمات الهرمية الفطرية ؟

عمليـــة التعــلم :

يرى ميللر ودولارد أن هناك أربعة مفاهيم أساسية فى عملية التعلم وهى : الدافع — الدليل — الاستجابة — التدعيم أو المكافاة .

الدليـــــل :

وهو مثير يوجه الاستجابة التى يصدرها الكائن الحى ، فالدافع يثير الفعل أو الاستجابة والدليل يحدد لها اتجاهها وهو يحدد متى تصدر الاستجابة واين تصدر وأى الاستجابات تصدر . والذى يجعل من المثير دليلا اتصافه بصفة تجعله متميزا عن غيره. وقد يحدث هذا التميز على اساس صفة نوعية كأن يكون المثير سمعيا أو بصريا ، وقد يحدث هذا التميز على أساس درجة هذه الصفة النوعية شدة الصوت او درجة اللون ، وقد تتميز المثيرات على اساس أنماطها فمجموعة من الحروف بترتيب معين تكون كلمة فاذا اتخذت ترتيبا آخر تكون كلمة أخرى . وقد يتخــذ المثير معنى الدافع اذا ازدادت شـــدته .

الاســـتجابة :

تصدر الاستجابة بواسطة الدافع والأدلة الماثلة والتى تستهدف خفض هذا الدافع أو التخلص منه . وبعبارة أخرى فان الجوع دافع يدفع الفرد الى رؤية مطعم (دليل) ولا بد أن يدخله (اســتجابة) حتى يمكن خفض الدافع بتناول الطعام وفى نظرية دولارد وميللر يمكن أن تكون الاستجابة ظاهرة ، اى أن تكون وسيلة مباشرة لخفض الدافع ، وقد تكون داخلية تستلزم التفكير والتخطيط والاستدلال مما ينقص الدافع فى النهاية .

وبعض الاستجابات أكثر فاعلية من استجابات أخرى فى خفض الدافع وهى التى ينبغى أن تصدر حين يظهر الدافع مرة أخرى . وينبغى تعلـــم استجابات جديدة ازاء المواقف الجديدة ، وينبغى أن نثبط الاستجابات القديمة اذا لم تكن فعالة بأكبر قدر من الفاعلية . ان اعادة ترتيب احتمالات الاستجابة مع بزوغ ظروف جديدة أو مع تغير الظروف القديمة يسمى تعلما .

وتختلف الاستجابات من حيث احتمال صدورها بالنسبة لموقف معين ، ويسمى هذا التدرج فى احتمال الصدور بالتدرج الهرمى المبدئى واذا ظهر هذا التنظيم دون تعلم سمى بالتدرج أو التنظيم الهرمى الأولى او الفطرى وهو جزء من الاستعداد الموروث عند الكائن الحى ، ولكن الخبرة تعدل هذا التدرج وعندئذ يسمى بالتدرج أو التنظيم الهرمى المكتسب .

ان كل دليل يثير أو ينتزع عددا من الاستجابات فى وقت واحد تتفاوت من حيث احتمال حدوثها ويطلق هل على هذه الظاهرة التنظيم الهرمى للعادة، فحين يخبر الوليد الحديث تهيجا تصدر مجموعة من الاستجابات وفقا للتنظيم الهرمى الأولى لانه لم يحدث تعلم بعد . وهذا التدرج او التنظيم الهرمى يتالف من مجموعة من الاستجابات التى تحددت وراثيا والتى تطلقها ظروف دافعية معينة ، فالوليد الجائع قد يكون فى البداية متململا ثم يصرخ ويتقيا وهو يصرخ . لاحظ أن التنظيم الهرمى الأولى يوجد لفترة قصيرة جدا من الزمن . ومع تعزيز استجابات معينة من التنظيم الهرمى يتغير وضعها فيه . ويطلق على الاستجابة التى يغلب احتمال حدوثها استجابة سائدة فى التنظيم وهى انجح الاستجابات فى تحقيق انقاص الدافع .

والتعلم يعيد تنظيم الاستجابات فى هرم العادة . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ انه اذا استطاعت استجابة سائدة فى التدرج ان تنقص دائما الدافع الموجود ، فانه لن يحدث تعلم قط . وعلى سبيل المثال اذا استطاعت الاستجابة الفطرية ، طرفة العين أن تبعد الجزئيات الشاردة عن العين فلن تكون هناك حاجة لتعلم غسلها .

التعـــزيز :

التعزيز عند دولارد وميللر يساوى انقاص الدافع او خفضه . وكل مثير يؤدى الى انقاص الدافع معزز . وقد يكون المعزز اوليا وفى هذه الحالة فانه يشبع حاجة تتصل بالبقاء ، وقد يكون ثانويا . والمعزز الثانوى كما فى نظرية سكنر مثير حيادى فى الأصل اقترن على نحو متسق بمعزز اولى ، فالآن تصبح معززا ثانويا قويا لاقترانها بانقاص الدوافع الأولية .

واذا أدى دليل الى استجابة وأدت الاستجابة الى التعزيز فان اقتران الدليل بالاستجابة سيقوى . واذا تكررت هذه العملية فاننا نستطيع ان نقول في آخر الأمر أن الكائن الحي قد اكتسب عادة قوية . ولكي يتعلم الفرد ينبغي أن يريد شيئا وأن يلاحظ شيئا ، وان يعمل شيئا وان يحصل على شيء . وهذه العوامل اذا أردنا صياغتها بدقة هي : الدافع ، والدليل والاستجابة والمكافأة . (عماد اسماعيل ١٩٥٩ ، ٨٤ — ٨٦) .

الدوافع الثانوية وعملية التعلم :

هناك نوعان من الدوافع : الدوافع الأولية وهي التي تتحدد بيولوجيا ، والدوافع الثانوية وهي دوافع مكتسبة تتحدد ثقافيا . ومن الدوافع الثانوية الهامة الخوف ، وأهميته واضحة بالنسبة للسلوك الانساني المتوافق وغير المتوافق . ولكي نوضح كيف أصبح الخوف دافعا ثانويا مكتسبا ومشتقا من الألم نصف في ايجاز تجربة أجراها ميللر ودولارد استهدفا منها تحليل دافع الخوف. أحضر الباحثان فأرا ووضعاه في صندوق يتألف من حجرتين : حجرة بيضاء وأخرى سوداء ، ووضع الفأر في الحجرة البيضاء وعرضاه لصدمة كهربائية وتكرر ذلك عدة مرات . وكان يتاح للفأر في كل مرة الهرب الى الحجرة السوداء حيث لا يتعرض لصدمات . وبعد عدة محاولات من هذا الصنف أصبح وجود الفأر في الحجرة البيضاء مثيرا للخوف أي مثيرا لنفس الاستجابات التي كان يظهرها عندما كان يتعرض للصدمة الكهربائية هذا مع أن وجوده في تلك الحجرة قبل البدء في التجربة لم يكن له هذا الأثر. وعند هذه المرحلة من التجربة اتيح للفأر ان يتعلم ادارة عجلة في الباب الموصل بين الحجرتين. وقد تعلم الفأر ذلك حتى على الرغم من عدم تعرضه لصدمات اضافية . ولقد ابدل ميللر العجلة بقضيب او رافعة ووجد أن الحيوان سرعان ما تعلم اطفاء استجابة ادارة العجلة التي لم تعد فعالة وتعلم الضغط على القضيب بدون صدمات كهربائية اضافية ، اى أن الحيوان نما استجابة خوف شرطية للحجرة البيضاء . واذا اردنا تفسير ما حدث للفأر يمكن أن نقول أن اقتران الحجرة البيضاء (مثير شرطي) بالصدمة الكهربائية (مثير طبيعي) عددا من المرات أدى الى استجابة الخوف وكانت في الأصل استجابة للصدمة

الكهربائية ولكنها اصبحت استجابة للحجرة البيضاء واصبح الخـوف من الحجرة البيضاء دافعا متعلما يمكن انقاصه بتعلم الفأر ادارة عجلة الباب أو الضغط على الرافعة .

واهم نقطة بالنسبة لتجربة ميللر انها تبرهن على ان الخوف قد اصبح في ذاته دافعا يمكن انقاصه وان هذا يؤدى الى التعزيز . ولقد كان انقاص الخوف وليس الألم هو السبب فى تعلم الحيوان لاستجابات ادارة العجلة أو الضغط على الرافعة . وهذا السلوك يقاوم الانطفاء مقاومة كبيرة لانه طالما أن الخوف موجود فان انقاصه يعزز الحيوان بدرجة كبيرة . لاحظ ان الحيوان فى ظل هذه الظروف لا يبقى فى الموقف فترة زمنية كافية لكى يتعلم انه لن يتلقى أى صدمات اخرى وبالتالى يتخلص من استجابة الخوف . انه يواصل السلوك كما لو انه سوف يتلقى الصـدمة مرة خرى اذا مكث فى الموقف .

ويعتقد دولارد وميللر أن المخاوف المرضية والقلق واستجابات الخوف غير العقلانية الأخرى تنتج عن خبرات مشابهة على المستوى الانسانى . ان هذا السلوك يبدو غير عقلانى للملاحظ لان تاريخ نموه ليس معروفا. والانسان يتعلم مخاوفه وقلقه على نفس النحو الذى تعلم به الفأر الخوف فى التجربة السابقة ، والطفل الصغير الذى يتكرر تعرضه للعقاب عند ضربه لاختـه يتعلم الخوف من العدوان . والطفل الصغير الذى تقترن الوحدة عنده بآلام الجوع ويتكرر هذا الموقف بالنسبة له قد يتعلم الخوف من الوحدة. ومن الممكن أن يؤدى العقاب الجسمى العنيف للسلوك الشبقى فى الطفولة المبكرة بالفرد حين يكبر الى الانحراف فى الأنشطة الجنسية وما يرتبط بها من افكار . وذلك لان التفكير فيها أو النزوع الى القيام بها يثير الخوف الذى ينقص نتيجة للهرب أو التجنب . وهذا الموقف يشبه موقف الفأر فى تجربة ميللر ، ان هـذا الشخص لم يصبر فترة كافية ولم يتريث فى الموقف المثير للقلق لكى يتعلم انه لن يتعرض للعقاب نتيجة لهذه الأنشطة أو الأفكار . ان اطفـاء استجابة الخوف مستحيلة فى هذه الحالة وهذا يصدق على الفأر وعلى الانسان على السواء . ان العمل الرئيسى للعلاج النفسى عند دولارد وميللر هو أن يوفر للمريض الموقف الذى يشجعه فى ان يخبر الأفكار المهددة دون ان يتعرض

العقاب . وبهذه الطريقة تتضاءل هذه الأفكار وتبطل . وهذا يشبه الى حد كبير ما كان فرويد يحاول عمله عندما استخدم التداعى الطليق وتحليل الأحلام ليكتشف الأفكار التى تعرضت للكبت .

تعميم المثـــير :

اذا ارتبط مثير معين باستجابة معينة فان هذا المثير يثير تلك الاستجابة كلما حدث أو عرض ولا يقتصر الأمر على ذلك لان هناك مثيرات مشابهة لذلك المثير المعين ، وكلما ازداد هذا التشابه زاد ميل المثير لاثارة تلك الاستجابة التى ارتبطت بالمثير الأصلى . ويطلق على هذه الظاهرة تعميم المثير . ففى تجربة ميللر نتوقع أن يثار الخوف لدى الفار نتيجة لوجوده بالحجرة البيضاء وكذلك لوجوده بحجرات رمادية اللون بدرجات مختلفة. غير انه كلما ازدادت الحجرة بياضا ازدادت استجابة الخوف ، لان الحجرة البيضـــاء هى التى ارتبطت بالآلم أصلا . أى أن استجابة الخوف تعمم على المثيرات الشبيهة بتلك التى تعلم الكائن الحى أن يخافها وكلما ازداد التشابه بين مثير جديد والمثير الأصلى كان اكثر اثارة للخوف .

وجميع الاستجابات المتعلمة تعمم على مثيرات أخرى . فاذا تعلم الطفل الخوف من الثعابين فانه يحتمل أن يخاف على الأقل فى البداية من الحبال . واذا كان المراهق يخاف من أبيه فانه يميل الى الخوف ممن يشبهه من الرجال ، ومع مزيد من الخبرة يتعلم معظم الأسوياء أن يميزوا ، والتمييز عكس التعميم وهكذا يتعلم الطفل أن عليه أن يخاف من بعض الثعابين دون الأخـــرى والا يخاف من الحبال لانها آمنة . ويتعلم المراهق انه ينبغى عليه أن يخاف أباه فى بعض الظروف والا يخاف من يشبه أباه من الرجال لانهم ليسوا مصـــدر تهديد له . وهكذا فان التعميم يؤدى الى نزعة مبدئية لاستثارة الاستجابات المتعلمة بمدى عريض من المثيرات ، ولكن الخبرة اللاحقة تتيح للفرد أن يميز وبالتالى أن يستجيب للمثيرات استجابة انتقائيـــة . ويصـــدق هـــذا على الأسوياء ، أما العصابيون فانهم كثيرا ما يفقدون قدرتهم على التمييز وبالتالى يميلون الى المبالغة فى التعميم .

ويميز دولارد وميللر بين نوعين من التعميمات : التعميم الأولى والتعميم الثانوى . ويعتمد التعميم الأولى على التشابه الفيزيقى بين المثيرات وكلما ازداد التشابه بين المثيرين وتقاربا فى الخصائص الفيزيقية ازداد احتمال اثارتهما لنفس الاستجابة . والتعميم الأولى فطرى محكوم بجهاز الشخص الحسى.ويقوم التعميم الثانوى على العناوين اللفظية والتسميات وليس على التشابه الفيزيقى بين المثيرات وهكذا يستجيب الفرد لجميع الأفــراد الذين يسموا أصدقاء بنفس الطريقة كما يستجيب بطريقة واحدة لمن يسموا بالأعداء والخصوم . وبالمثل فان كلمة خطر تصدق على عدد كبير من المواقف الخطرة. التى تميل الى اثارة انواع متشابهة من الاستجابات . والتعميم الثانوى هو ما يطلق عليـــه دولارد وميللر المكافىء المكتســـب أو المتعلم learned equivalence وتتخلله اللغة . ومن المهم ان ندرك أن التعميم الثـــانوى لا يقوم على الخصـائص الفيزيقية ، وانه يمكن أن يؤثر تأثيرا مضـادا للتعميم الأولى وذلك بتسمية واقعة طيبة واخرى سيئة على الرغم من تشـــابههما فيزيقيـــا .

العمليات العقلية العليا :

تتكون تفاعلات الفرد مع بيئته من نمطين . النمط الأول من التفاعل له اثر مباشر على البيئة بصفة عامة ويوجهه دليل واحد (من امثلة ذلك ضغط قائد السيارة آليا على كلبحها حين يرى طفلا يندفع فى الطريق أمامه) والنمط الثانى من التفاعلات هو ذلك الذى يتضمن استجابات تنتج ادلة تؤدى أساسا الى استجابات أخرى وتهيىء لها الطريق.وهذا النوع من الاستجابات تتخلله عادة سلسلة من الوقائع الداخلية التى نسميها تداعى افكار أو خواطـــر (كأن ترى متجرا للآلات ، وتتذكر انك فى حاجة الى آلة معينة . وتفكر فى مقدار ما معك من نقود وما اذا كان يكفى لشرائها وتقرر دخول المتجر) .

واللغة مثال انسانى ممتاز للاستجابات التى تنتج ادلة ، فالكلمـــات المنطوقة أو المكتوبة والأفكار والايماءات كلها استجابات من النوع الذى ينتج ادلة ويؤدى الى استجابات جديدة . وكثير من هذه الاستجابات تساعد على

التفاهم والتواصل مع الآخرين كما يحدث حين تطلب من جارك فى الصف أن يعيرك قلما .

ومن أهم وظائف الاستجابات التى تنتج أدلة وتـؤدى الى استجابات أخرى وظيفتان هما : التعميم والتمييز ، ذلك أننا حين نعنـون واقعتين أو حدثين بعنوان واحد فاننا نزيد من درجة التعميم بالنسبة لهذين الموقفين أو الدليلين ، كما يحدث حين نطلق على عاصفة توشك أن تهب ، وعلى محاضرة عامة عليك أن تلقيها بأنهما حدثان يملآن النفس رهبة ويثيران القلق مع أنهما مختلفان فيزيقيا . ان وصفنا لهما بكلمة مقلق تعنى أننا سوف نستجيب لهما على الأغلب بطريقة متشابهة . ومن ناحية أخرى اذا عنونا موقفين متشابهين باعتبارهما متمايزان ومختلفان كأن نقول غدا عشاء مع الأسرة وبعـد غد عشاء مع مدير الجامعة وضيوفها ، فأن سلوكنا قد يختلف فى المناسبتين .

ويتم التأكيد فى كل ثقافة على تعميمات وتمييزات أساسية وهامة عن طريق اللغة ومن امثلة ذلك ان سكان جزيرة كوك Cook Islanders والذين يتأثرون فى حياتهم باقتصاديات جوز الهند تأثرا كبيرا يستخدمون ١٢ كلمة وعبارة مختلفة لوصف مراحل نضج ثمرة جوز الهند ووصف خصائصـهـا . ويصدق مثل هذا على الاسكيمو الذين تتوافر فى لغتهم خمسين كلمة مختلفة لخصائص الجليد وأنواعه .

ويؤكد دولارد وميلر تأكيدا كبيرا على دور اللغة فى الدافعيـة وفى الاثابة وفى التبصير . انهما يؤكدان على وجه الخصوص ويبرزان قـدرة الكلمات على اثارة الدوافع (فوصف أضرار التدخين ونتائجه تثير الخـوف لدى المدخنين) وقدرتها على التعزيز (كالاشادة بأحد الأبناء لانه أنجز عملا باتقان) وقد تفيد الكلمات فى تبصير الفرد بالعواقب وبأهمية الزمن فى حياته أى أننا نستطيع أن نعزز السلوك الحاضر بوصف لفظى لنتائجه المستقبلية (كأن نقول لأحد أبنائنا يوم الخميس : لو أنهيت واجباتك المدرسية اليـوم تستطيع أن تذهب للصيد غدا) .

وواضح أن التـدخل اللفظى فى مسلسـل : الدافع — الدليـل —

الاستجابة — التعزيز هو الذى يجعل السلوك الانسانى معقدا . وبغير الكلمات والأفكار يصعب ان نحافظ على قوة الدافعية عبر الزمن .

والاستدلال هو فى الاساس استبدال استجابات داخلية تصدر ادلة بأنفعال ظاهرة وهو أسلوب اكثر كفاءة وفاعلية من معالجة المسائل وحلها بالمحاولة والخطأ الظاهرين . ان الاستدلال يختصر عملية الاختيار من بدائل لانه يمكننا من اختبارها عقليا دون تجريبها فعليا . ان الاستدلال ييسر التخطيط للأعمال المستقبلية . ان الاستجابات الاستباقية او الاستجابات التى تحدث مبكرا عما كان ينبغى لها فى المتابعة الأصلية يمكن ان تحدث داخل الفرد بسهولة اكبر عن القيام بها فى الواقع وما يرتبط بها من افعال غير مفيدة . وعلى سبيل المثال فانك اذا خرجت من منزلك لشراء شىء من متجر قريب وتذكرت ان الطريق الذى تسلكه عادة مغلق وقيد الاصلاح عند نهايته، فانك تتحول الى طريق آخر بدلا من ان تقطع الطريق الأول الى نهايته وتعود ادراجك لتسلك طريقا آخر ، أى ان الاستجابات الداخلية المحدثة للأدلة (الأفكار) يمكن أن تبدأ بموقف الهدف وتعود راجعة لتحديد الاستجابة المناسبة للموقف . ان المحاولات والاخطاء المعرفية افضل من المحاولات والاخطاء الفيزيقية وهى اكثر منها كفاءة لان التفكير العقلى فى المسألة او المشكلة يتيح الاقتراب منها بوجهات نظر مختلفة أو من زوايا متباينة ولا حاجة الى التقيد بتسلسل ثابت من الخطوات .

وحين تكون الاستجابات المنتجة للأدلة جزءا من حل لمسألة حاضرة ومباشرة فانه يطلق على هذه العملية استدلالا ؛ أما اذا كانت هذه الاستجابات موجهة لحل مشكلة مستقبلية فانه يطلق عليها تخطيطا .

السياق الاجتماعى :

يؤكد دولارد وميللر على انه لا يمكن فهم السلوك الانسانى الا بفهم السياق الثقافى الذى حدث فيه هذا السلوك . ويساعدنا علم نفس التعلم على فهم مبادىء التعلم وكيف يتم اكتساب العادات والدوافع الثانوية وكيف يتم التعميم والتمييز ... الخ . وهذه تساعد المتخصص فى العلوم الاجتماعية على أن يفسر على نحو نسقى الوقائع الثقافية الهامة . هذا من ناحية ومن

ناحية اخرى يساعد عالم الاجتماع وعالم الانتربولوجيا المنظر فى مجال التعلم على أن يوائم مبادىء التعلم والخبرات الانسانية الفعلية التى تشكل شروط التعلم . واذا أريد فهم النمو الانسانى فهما تاما فلا بد من الجمع بين مبادىء التعلم وشروطه .

ما هى الميكنزمات التى تنتقل بها الثقافة من جيل الى جيل ؟ لا بد أن يتم تعليم العادات الاجتماعية للأطفال على يد الكبار،ولا بد للأطفال أن يتعلموها ممن يكبرونهم سنا . وينبغى أن يتم هذا النقل للثقافة وفقا لقوانين التعلم . واذا كان المتخصصون فى علم الاجتماع والانتربولوجيا يجدون أن معرفة مبادىء التعلم لها قيمتها فى حل مشكلات فى ميدانهم ، انهم سوف يجدون أيضا أن التأكيد على الشروط التى يتم فيها التعلم لا يقل أهمية عن مبادىء التعلم .

ويعتقد دولارد وميلر أن مبادىء التعلم التى توصلا لها تنطبق على جميع الثقافات ، أى أنها صادقة عبر ثقافيا ٪ ولكنهما يعتقدان فى نفس الوقت أن أنماط الشخص السلوكية بخصائصها الدقيقة تتأثر تأثرا كبيرا بالمجتمع الذى تنتمى اليه .

مواقف التدريب الحرجة :

يشبه دولارد وميلر حالة الوليد بالذهان الانتقالى . فالدوافع الأولية القوية تدفعه الى الفعل ، ولا يتوافر لديه الا عدد قليل من الاستجابات التى تحقق التعزيز . والاستجابة السائدة فى هرم الاستجابات الفطرية نشاط عام قوى يلقى التعزيز أحيانا ولا يلقاه معظم الأحيان . ويتذبذب الوليد بين الألم الناشىء عن الدوافع القوية ونعيم الاشباع التام ، وهو يعجز عن اراحة نفسه بفكرة « سوف تحضر زجاجة اللبن حالا » ؛ لعدم قدرته على التخطيط والتفكير ولعدم ادراكه للزمن . ان العالم بالنسبة له مجموعة من الوقائع المختلة وذلك لان التخطيط يتطلب لغة وكلاما وكل ما يستطيع أن يتلفظ به هو الصراخ . وبينما نجد أن هذا العجز التام والدافع القوى يهيىء المسرح للتعلم ، الا ان هذه الظروف نفسها ملائمة لاكتساب صراعات عنيفة .

وطالما ان الاخفاق والصياح يتعززان ، فانه لا يمكن تعليم الطفل القيام

باستجابات جديدة . أن نجعل الطفل يتعلم استجابات جديدة معناه ان الاب يضعه بحيث يواجه معضلة تعلم a learning dilemma ، اى ان الاب ينبغى أن يمنع التعزيز عن الاستجابة السائدة بحيث يمكن لاستجابة اخرى اقل احتمالا من حيث الحدوث أن تصدر . أما متى يصبح الطفل مستعدا للمضى لتعلم استجابات جديدة ، فان ذلك لا يتحدد بنضجه فحسب ، ولكنه يتحدد بمقتضيات الثقافة . ويحدد مجتمعنا انماطا سلوكية مختلفة لكل عمر ، اى ان هناك انماطا سلوكية ملائمة للأطفال فى اعمار معينة وتتطلبها الثقافة منهم . فهناك وقت للفطام ، وآخر لضبط الاخراج وثالث لضبط المثانة . وهناك وقت تساعد الأم فيه طفلها على ارتداء حذائه ووقت آخر يعتمد فيه على نفسه . وحين يساير الطفل هذه التوقعات الوالدية التى تتدرج وفقا لعمره يلقى التعزيز لا بسبب هذه الاستجابة المحددة بل لكى يفى بهذا المطلب المناسب لسنه . ومتى تقبل الطفل هذه الأنماط السلوكية المتدرجة او الملائمة لعمره فان عليه أن يتعلم دافعا ثانويا هو أن يصبح كبيرا وناضجا . وعندئذ فاننا حين نعتبره طفلا فاننا نعاقبه وحين نطلق عليه شابا معناه اننا نعززه .

وفى مجال تدريب الطفل يحدد دولارد وميللر اربعة مواقف تتم فيها انواع من التعلم الهامة للشخصية . واول هذه المواقف موقف الجوع الذى يتيح للطفل كثيرا من الفرص للتعلم ، لانه موقف يواجه الطفل منذ الميلاد ويصبح شديدا عدة مرات فى اليوم. أن ما يتم تعلمه فى موقف التغذية يتوقف على الوقت الذى يتم فيه التغذية فى متتالية الجوع،فاذا اطعمنا طفلا صغيرا على نحو روتينى حينما يكون نشطا نشاطا عاليا أو معتدلا فاننا نعزز استجابة المص ليس ذلك فحسب بل ونعزز أيضا مستوى النشاط ، أما اذا لم نطعم الطفل حتى يبلغ المراحل الأخيرة من المتتالية ، اى بعد أن يكون قد انهك فاننا نعزز عدم الاكتراث . أن مثل هذا التدريب قد يتم تعميمه ليشمل النشاط او السلبية فى مواجهة مثيرات دافع آخر .

وهنك خاصية أخرى هامة من خصائص الشخصية يمكن تعلمها فى موقف التغذية وهى الاتجاه النفسى نحو الآخرين ، فبمقدار حضور الام ووجودها وقت انقاص دافع الجوع بمقدار ما يصبح وجودها معززا ثانويا

ودافعا للرغبة فى حضورها. ذلك أن هذا الحضور لا يجلب التعزيز فحسب، بل انه مع التعميم يكتسب الآخرون قيمة معززة ويسعى الفرد للتعامل معهم. هذا من الناحية الايجابية ، أما من الناحية السلبية فاذا سمح للطفل أن يبقى وحده فى حالة مؤلمة بسبب دافع الجوع الشديد فانه يتعلم الخوف من الوحدة والعزلة . وكذلك اذا صاحب موقف التغذية عقاب الأم ، قد يقترن الخوف بوجودها ويحدث تعميم يشمل الآخرين وخاصة حين يكون دافع الطفل قويا .

والموقف الحيوى الهام الثانى من مواقف التدريب هو تعلم عادات النظافة . وهذه العادات صعبة على وجه الخصوص بالنسبة للطفل لأن الاستجابة لاسترخاء عضلات الشرج وعضلات المثانة فى وجود أمارات أو أدلة امتلاء الامعاء أو المثانة ترتبط بالخوف . ومتى حدث هذا سوف يستخدم انتقاص دافع الخوف لتعزيز تدريب الطفل على التمييز بين الأماكن التى يؤدى انتقاص الدافع فيها الى الاستمرار فى اثارة القلق ، والأماكن التى يمكن أن تحدث فيها هذه الاستجابات دون خوف وكيف يتم ذلك . واذا استجابت الأم استجابة سالبة لعجز الطفل عن ضبط أمعائه أو مثانته فقد لا يستطيع التمييز بين عدم تقبلها لما عمله وعدم تقبلها له . وعلى الرغم من أن من الضرورى تدريب الطفل على الاخراج ، الا أن الطريقة التى يتم بها هذا التدريب لها أثر عميق فى تكوين شخصية الطفل .

والموقف الحيوى الثالث هو التدريب الجنسى المبكر والذى يتركز فى جهود الطفل للاستنماء . واذا عاقبت الأم هذه الاستجابات سوف يصبح الدافع الجنسى وسلوك الاستنماء مثيرا للخوف وتدريب الطفل لكى يصبح خائفا من هذه المثيرات أو الأدلة يمكن زيادته عندما نسمى هذا الدافع أو المثير والاستجابات المرتبطة به قذرة وفاحشة . ومثل هذا التدريب لسوء الحظ يمكن أن يؤدى على نحو طبيعى الى تعميم يشمل الفراش والمخاوف المرضية المتصلة بالنوم . وأغلب الظن أن التحريمات المرتبطة بالمسائل الجنسية أكثر من التحريمات التى ترتبط بأى نوع آخر من النشاط وان التشدد فى هذه المسألة جزء من أساليب التنشئة فى ثقافتنا . وترتيبا على ذلك فانه ليس غريبا أن تكون الصراعات الجنسية موضوعا شائعا فى عيادة التحليل النفسى . ان الدافع الجنسى فطرى ولكن الخوف من الأفكار والأنشطة الجنسية متعلم ويتم تعلمه فى الطفولة .

والموقف الرابع يتناول صراعات الغضب والقلق. ان الاحباط لا مفر من التعـــرض له فى الطفـــولة وفى جميع الأعمـــار الأخرى ونحن نتعلم اكثر الاستجابات شيوعا للاحباط ، نتعلم العدوان . والسلوك العدوانى من قبل الأطفال فى ثقافتنا يقابل عادة برفض والدى أو بعقاب . ويوضع الأطفال فى صراع آخر من صراعات الاقدام — الاحجام ، أى أنهم يريدون ان يكـــونوا عدوانيين ولكنهم يكفون او يكبحون جماح هذه النزعة لخوفهم من العقاب . وقد يؤدى هذا الى السلبية بحيث يعجز الفرد عن التنافس الناجح فى المجتمع المعـــــاصر .

العمليات اللاشعورية :

. تتسق نظرية دولارد وميللر تماما مع التحليل النفسى من حيث الاعتراف باهمية العوامل اللاشعورية ولكنهما يختلفان عن فرويد فى تفسيرهما لأصل هذه العوامل . ان دولارد وميللر يفسران العوامل اللاشعورية تفسيرا يقوم على أساس مبادىء التعلم وهما يقسمان محتويات اللاشعور الى قسمين : يضم القسم الأول ما لم يكن شعوريا قط ويضم القسم الثانى ما كان شعوريا ولكنه لم يعد كذلك . ان القسم الأول يشتمل على اشياء تعلمها الناس تعلما غير لفظى كتفاصيل المهارات الحركية من قبيل طريقة تعلم ارتقاء السلم ، وركوب الدراجة ... الخ . اما القسم الثانى فيضم ما ليس متاحا للشعور بسبب ما تعـــرض له من كبت .

اننا نتعلم أن نكبت او أن نتجنب افكارا معينة ونستبعد ذكريات خاصة كما نتعلم اى استجابة اخرى ، لان عدم التفكير فيما يخيفنا يؤدى الى انتقاص الخوف وبالتالى يؤدى الى التعزيز . وهكذا يصبح الكبت جزءا اساسيا فى حصيلتنا . اى أن استبعاد هذه الأفكار او الذكريات (الكبت) يؤدى الى خفض التوتر أو انتقاص الدافع فتدعم استجابة الكبت على هذا الأساس . وفى البداية نفكر فى الفعل المخيف أو الواقعة المخيفة ونخبر الخوف ونتوقف عن التفكير فيه — وهكذا نتخلص من الخوف ونلقى تعزيزا على هذا الكبت . لان اى استجابة تؤدى الى استبعاد مثيرات الخوف تميل الى ان تعزز وتثبت . وفى نهاية الأمر تصبح استجابة عدم التفكير استباقية ، اى انها تحدث قبل أن نعيد تشكيل الفكرة المخيفة والكبت يمنع ايضا انطفاء الأفكار المخيفة لانه

يمنع استجابة الخوف من الحدوث واذا لم تحدث استجابة تم تعلمها — ثم حدثت فى غيبة التعزيز — فلا يمكن أن يحدث الاطفاء .

ان الميل الى الكبت يحدث مبكرا . وكثيرا ما يعاقب الأطفال لاستخدامهم كلمات محرمة أو حتى لمجرد القول بأنهم ينوون عمل شىء يمنعه الوالدان . وأحيانا يعاقبون لمجرد التفكير فى أشياء معينة ، وكثيرا ما يستنتج الوالدان من سلوك الأطفال أفكارهم المتمردة ويعاقبانهم قبل أن يقترفوا أشياء ممنوعة بفترة زمنية طويلة. ويمكن أن تؤدى هذه الخبرات وغيرها بالطفل الى التعميم من الفعل المعاقب الى فكرة الفعل وبالتالى تكبت الفكرة . ولحسن الحظ فان الناس كما يعممون يميزون ، فالطفل قد يتعلم أن من المعقـول أن يفكر فى اشياء معينة حتى ولو كان القيام به خطأ .

ان الشعور هام جدا كما يقول دولارد وميللر لان العناوين والأسماء اساسية لعملية التعلم . والتعميم والتمييز يصبحان أكثر كفاءة باستخدام الرموز اللغوية . واذا لم نستطع أن نعنون الأشياء ونسميها فاننا سوف نضطر الى العمل عند مستوى فكرى بدائى ، وسوف نكون أكثر عيانية وأكثر ارتباطا بالمثير ، وسوف يصبح سلوكنا أقرب الى سلوك الطفل الوليد والحيوان حيث تكون اللغة لديهما غائبة تقريبا أو عند حدها الأدنى .

الصـــــــراع :

الصراع أحد مفاهيم فرويد التى درسها ميللر وتلامذته دراسة متعمقة. ولقد سبق أن درس ليفين (١٩٣٥) هذا المفهوم . ولقد أفاد ميللر من جهود فرويد وليفين على السواء . لقد تحدث فرويد عن أن الكائن الانسانى يرث طاقة غريزية (لبيدو) وأن هذه الطاقة تصطرع مع مطـالب المجتمع والأنا الأعلى . ولكن دولارد وميللر يرون أن هذا الصراع مكتسب وانه يتم تعلمه فى الطفولة المبكرة اى فى السنوات الخمس الأولى من الحياة ، اى أن الطفل يكتسبه من والديه بسبب ممارستهما للطرق الخاصة فى التربية . لقد رأى فرويد أن الشخص ينجذب الى الشىء أو الموضوع ويصد بواسطته فى نفس الوقت . ولقد أطلق على هذا فيما بعد صراع الاقدام — الاحجام . وهو أحد أنواع ثلاثة درسها ميللر .

صراع الاقدام ـ الاقدام :

وينشا هذا الصراع بين هدفين موجبين ، اى ان هذا الصراع ينشا بين دافعين كلاهما يدفع الفرد الى الاقتراب من هدف معين . كما يحدث فى حالة الشخص الذى يريد ان يذهب الى المسرح مع اصدقائه او فى رحلة مع ابيه . وهذا النوع من الصراع يسهل حله باحراز احد الهدفين ، ثم الهدف الذى يليه كأن يذهب الى الرحلة مع ابيه ويؤجل مشاهدة المسرحية مع اصدقائه فى وقت آخر .

صراع الاحجام ـ الاحجام :

وهنا لا بد للفرد أن يتخير هدفا من هدفين سلبيين او بين دافعين كلاهما يدفعه فى نفس الوقت الى الابتعاد عن هدف معين كما فى حالة الطفل الذى يطلب منه شرب اللبن وهو يكرهه او يلقى عقابا من الأم . والتلميذ قد يكون عليه ان يحل واجب الحساب وهو يضيق به ذرعا او يحصل على درجات منخفضة . ويتسم هذا النوع من الصراع بخاصيتين احداهما التردد وصعوبة اتخاذ القرار والثانى الهرب . وقد يكون الهرب بترك الموقف الذى ادى الى الصراع ، أو بالهرب العقلى وذلك بالانشغال بافكار اخرى او باحلام اليقظة.

صراع الاقدام ـ الاحجام :

وهو صراع ينشأ بين دافعين يستثاران فى نفس الوقت وفى اتجاهين متضادين ويحدث ذلك حين ينجذب الفرد الى هدف ويصد عنه فى وقت واحد فالعمل قد يكون جذابا بسبب ارتفاع الأجر ولكنه قد يكون مملا . والشاب قد يتقدم لخطبة فتاة ولكنه يشعر فى نفس الوقت بالخوف والاضطراب والخجل.

وقد قام دولارد وميللر بدراسة وتحليل هذه الانواع الثلاثة من الصراع على اساس تجريبي فى اطار نظريتهما ، اي على اساس المبادىء الاساسية للتعلم ويورد ميللر النقاط الآتية باعتبارها اكثر خصائص صراع الاقدام ـ الاحجام وضوحا : ـ

(أ) النزعة الى الاقدام على الهدف تزداد قوة كلما اقترب الفرد منه ويسمى هذا مدرج الاقدام .

(ب) الميل الى تجنيب المثير المخيف يزداد شدة كلما اقترب الفرد منه ويسمى هذا مدرج الاحجام .

(ج) يزداد معدل نزعات الاحجام بسرعة اكبر مع الاقتراب من الهدف عن معدل تزايد نزعة الاقدام .

(د) ان شدة النزعة الى الاقدام أو التجنب تتباين على نحو مباشر مع تباين الدافع الذى تقوم عليه .

(هـ) حين تتصارع استجابتان لا سبيل الى اتساقهما ، فان اقواهما هى التى تحدث .

وقد أجرى ميللر معظم بحوثه المكثفة على هـــذا النوع من الصراع . والخلاصة انه كلما كان مدرج الاقدام أعلى من مدرج الاحجام فان الشخص سوف يقدم على الهدف،وبمجرد أن يصبح مدرج الاحجام اعلى سوف يتجنب الشخص الهدف . وعلى هذا فانه لما كان مدرج الاقدام يزداد ارتفاعا كلما ابتعد الفرد عن الهدف فسوف يكون لديه ميل قوى للاقدام . ومع اقدام الفرد على الهدف يزداد الميل الى الاحجام ويصبح اقوى تدريجيــا من الميل الى الاقدام ، وعند هذه النقطة سوف يتراجع الشخص عن الهدف.وهكذا نتوقع التذبذب والحيرة عند النقطة التى يتقاطع فيها المدرجان . ونحن نعرف جميعا أزواجا لديهم قدر من الشك عن العلاقة التى تربط بينهما ، فهما ينفصلان حينا ثم يعودان أحدهما الى الآخر حينا آخر ويعاودان الانفصال وهكذا ، وفى فترة الانفصال تكون الجوانب الايجابية من علاقتهما هى السائدة ، وهكذا فهما ينجذبان احدهما الى الآخر ومتى عادت العلاقة الى سابق عهدها يدركان الجوانب السلبية من العلاقة فيتجها الى الانفصال وهكذا .

العصاب وتكوين الأعراض العصابية :

يذهب دولارد وميللر الى ما ذهب اليه فرويد من افتراض أن الصراع أساسى فى السلوك العصابى وان هذا الصراع لا شعورى ويتم تعلمه عادة فى الطفولة .

والعصاب مفهوم غامض.ويبدو أن العصابى لا يستطيع تحديد المقصود

بالمقلب بدقة ويصدق هذا أيضا على من يعيشون معه ويخالطونه . ان العصابى قادر على الفعل وعلى التصرف ولكنه لا يجد متعة فيما يعمل . وقد يكون قادرا على العدوان ولكنه يبدو خنوعا معتدلا ، وقد يقدر على العطف ولكنه يكون باردا وغير متجاوب . ويدرك من يعيشون مع العصابى انه لا يهتبل ما يتاح له من فرص لاشباع دوافعه. وعلى الرغم من صعوبة تعريف العصاب على نحو دقيق الا أن من الواضح ان العصابى تعس ، وانه غبى آزاء اشياء معينة تتصل بوجوده وكثيرا ما ينمى اعراضا جسمية لا تعدو ان تكون مظاهر لصراع مكبوت .

فاذا عوقب الأطفال عقابا عنيفا على انشطتهم الشبقية مثلا فسوف يتعلمون كبتها حين يصبحون كبارا ، وهذا الكبت يتم بالنسبة للتصرفات وللأفكار . وسوف يعيش هؤلاء ولديهم دافع جنسى يدفعهم بشدة نحو ما يشبعه ، ولديهم فى نفس الوقت خوف شديد من العقاب يمنعهم من هذا الاشباع ، وفى ظل هذه الظروف يتم كبت هذه الأفكار عن النشاط الجنسى، ويبقى صراع الاقدام الاحجام قويا فى اللاشعور بحيث لا يمكن استخدام اللغة لوصفه وتحليله .

وبغير اللغة والتسمية السليمة لا تستطيع العمليات العقلية ان تعمل عملها . وحين يعاق عملها بالكبت لا يستطيع الشخص ان يواجه نفسه بوسائل عقلية تلمسا لحل هذا الصراع . ولما كان العصابى لا يستطيع أن يساعد نفسه فلا بد أن يستعين بالآخرين ، هذا على الرغم من وجود الملايين الذين يعانون من اعصبتهم ولا يجدون مساعدة من الآخرين . والعصابى يبدو غبيا لانه عاجز عن استخدام عقله فى معالجة مشكلات معينة . انه يشعر أن شخصا ما ينبغى ان يساعده ، ولكنه لا يعرف كيف يطلب العون لانه لا يعرف مشكلته . انه يعانى ولكنه لا يستطيع أن يشرح او يفسر ما يعانى منه . وهكذا نجد العصابى واقعا فى صراع لا يحتمل ولا يستطيع منه فكاكا صراع بين دوافع محبطة من ناحية وخوف من الاقدام على الاستجابات التى تشبع تلك الدوافع من ناحية اخرى .

ويتم تعلم الأعراض العصابية لانها تنقص الخوف او القلق . وهذه

الأعراض لا تحل المشكلة الأصلية شأنها فى ذلك شأن الكبت ولكنها تجعل الحياة محتملة مؤقتا . ان الأعراض لا تحل الصراع الأساسى الذى يعيشه الشخص ، انها استجابات تنقص الصراع وهى تنجح فى ذلك جزئيا . وحين يظهر عرض ناجح يلقى التعزيز لانه ينقص التعاسة العصابية ، وهكذا يتم تعلم العرض ويصبح عادة . ومن وظائف الأعراض انها تبعد العصابى عن المثيرات التى تنشط صراعه العصابى وتقويه . وهكذا فان قائد الطائرة الحربية الذى يدرك أن كارثة عسكرية توشك أن تلم به ، قد يبتعد عن أى طائرة تدخل فى مجال رؤيته ، وهو حين يقترب من الطائرة يرتفع قلقه وحين يبتعد عنها ينخفض قلقه . ويلقى هذا الاحجام والتجنب تعزيزا . ان هذا الخوف المرضى الذى يؤدى به الى سلوك التجنب او الابتعاد هو الذى يؤلف عرضه . واذا لم يفهم الملاحظ من الخارج الموقف ككل فان سلوك التجنب هذا من قبل قائد الطائرة الحربية يبدو نشازا وشذوذا ، بل ويصعب فهمه وتفسيره .

العلاج النفسى :

اذا كان السلوك العصابى متعلما فان من الواجب أن نمحوه بنفس المبادىء التى تم تعلمه بها . والعلاج النفسى يهيىء مجموعة من الظروف أو الشروط التى فى ظلها يتم محو العادات العصابية والمعالج فى هذه الحالة معلم والمريض متعلم .

وعلى الرغم من وجود بعض الفروق فى اللغة الاصطلاحية فان دولارد وميللر يقترحان توفير ظروف علاجية تشيع فى طرق علاجية أخرى ذلك ان المعالج المتسامح من وجهة نظرهما والمشارك وجدانيا يشجع المريض على التداعى الحر أو الطليق وعلى أن يعبر عن مشاعره وكيف نمت وتطورت .

ويرى دولارد وميللر أن القلق والشعور بالاثم لا ينطفئان لدى الشخص الذى يسعى للعلاج لانه قد نما اساليب تؤدى الى تجنب استثارة هذه المشاعر ، وهكذا يحاول المعالج أن يهيىء الظروف التى تؤدى الى انطفاء هذه الانفعالات المقلقة ، ويشجع العميل على أن يعبر عن افكاره ومشاعره الممنوعة وأن يخبر الخوف والشعور بالاثم الذى تثيره تلك الأفكار والمشاعر .

وحدوث النتائج المخيفة فى موقف العلاج يؤدى الى انقاص الخوف والى عدم ممارسة الكبت وبدون تعزيز ينطفىء الخوف تدريجيا ويتلاشى .

ومع اضمحلال القلق والشعور بالاثم بالنسبة لهذه المشكلات يحدث تعميم لأثر الانطفاء ليشتمل على مشكلات اخرى مثيرة للقلق مما ييسر على الشخص مواجهتها . ويصبح الشخص اقدر تدريجيا على مواجهة الصراعات الرئيسية ومعانى الاعراض . ويشجع المعالج الشخص على أن يستخدم العناوين أو التسميات اللفظية التى تساعد على التمييز بين المخاوف الداخلية والوقائع او الحقائق الخارجية بين عالم الطفولة وعالم الراشدين . أن العنونة أو التسمية وما ينتج عنها من استبصار تساعد المريض على الانغماس فى انشطة عقلية عليا تجعل السلوك المتوافق ممكنا .

وينبغى على العصابى أن يميز بجلاء ويتبين أن الصراعات والوان الكبت التى يعانى منها ليس لها ما يبررها فى ظل ظروف التعزيز الراهنة وعليه أن يتعلم أن الخبرات الماضية التى ادت الى خلق ما لديه من صراعات مختلفة عن الظروف الحالية وبذلك يجد فى نفسه الثقة على تجربة استجابات جديدة يمكن تعزيزها الأمر الذى يخفف من العصاب ويمحوه .

وعملية التمييز تساعد المريض على التخفف من شدة القلق الذى يمنعه من الاستجابة التى عرضته للعقاب فى الماضى وتم كفها واطفاؤها فى الموقف الحالى . ان عملية التمييز هذه تساعد المريض على ادراك اختلاف الموقف الحالى عن الماضى وهذان الاسمان ماضى وحاضر يساعدان على ادراك الفرق بين موقف خطر وآخر غير خطر مما يخفف من قلقه . ثم تعمم عملية التمييز هذه الى المواقف المشابهة .

فالعلاج النفسى كما يراه دولارد وميللر (وكذلك فرويد) عملية انطفاء تدريجى (تنفيس) تعتمد على التعميم لان الوقائع التى يناقشها المريض مع المعالج ينبغى ان تتصل على نحو ما بالشىء أو الشخص او الواقعة التى لها اهمية عند المريض.ويمكن القول ايضا أن التجنب يزاح وينقل الى موضوعات شبيهة بالموضوع الذى يتجنبه المريض اكبر قدر من التجنب وهكذا فان المريض الذى تعلم أن يخاف أمه (بغض النظر عن الأسباب التى ادت اصلا الى ذلك

الخوف) سوف يتجنب أولئك اللائى يشبهنها (تعميم أولى) أو جميع الأمهات (تعميم ثانوى) بل أنه قد يخاف خوفا معتدلا من النساء عامة وهكذا فان الصراع والانطفاء والتعميم والتمييز والابدال أو الازاحة كلها أجزاء من العملية العلاجية .

والعلاج النفسى لا يتوقف بمجرد التنفيس عما هو مكبوت والتخفف منه والمريض عادة يكون قد قضى فترة طويلة من حياته مع هذه الأفكار والمشاعر المكبوتة ، وان من المستحيل تناول المادة المكبوتة على نحو فعـــال ، ولذلك فستكون هناك فجوات فى حياته حتى بعد علاجه نفسيا . فالشخص الذى عانى لفترات طويلة من خوفه من الأم والنساء ، أو من كراهية شديدة لرؤساء فى العمل أيا كانت خصائصهم ، أو من عدم قدرته على الاستمرار فى عمل من الأعمال يعيش منه سوف يحتاج الى قدر من الارشاد والتوجيه بعد العلاج حتى يتوافق مع متطلبات الحياة بعد علاج مشكلته والتخلص من الكف الذى عانى منه طويلا . وهذا التوجيه هام فى العمل العلاجى .

البحوث المميزة :

لقد قام ميللر ودولارد وتلاميذهما بقدر كبير من البحوث لاختبار فروض مشتقة من نظريتهما . ولتوضيح ذلك سوف نعرض لنوعين من هذه البحوث. والنوع الأول يتنـــاول مفهوما من مفاهيم التحليـــل النفسى وهو الابدال أو الازاحة وارتباطه بتعميم المثير . والنوع الثانى يتناول الأسس الفسيولوجية للتعـــــلم :

دراســـة الابدال :

الابدال هو اعادة توجيه النزعات الغريزية الممنوعة من التعبيـــر اما بسبب وقائع خارجية أو قيود يفرضها الفرد على نفسه . ويمكن أن يعمل الابدال كنوع من الدفاع عن الفرد ، فقد يخلف هذا الفرد من التعبيـــر عن غضبه فيقمعه أو يكبته ، ثم يعبر عنه فى مواقف مختلفة . وعلى سبيل المثال فان المرأة تخاف أن توجه النقد أو التوبيخ لرئيسها فى العمل ، فتفعل ذلك

مع زوجها بعد عودتها الى البيت . لاحظ وجود استجابة ثابتة فى هذا النوع من الابدال — عادة الخوف — تتنافس مع الاستجابة الاصلية .

وهناك صورة أخرى من الابدال وهى الابدال التوافقى وفيه يتم اعلاء الطاقة النفسية التى لا يمكن استخدامها فى صيغتها الاصلية فيعاد توجيهها. فالشخص الذى تحول ظروفه دون الزواج واشباع حاجته الجنسية يبدل هذه الطاقة لتصبح دافعا للانجاز المبدع فيركز على ما يرسمه من لوحات او ما يكتبه من شعر أو قصة او ما يصممه ويبنيه من أجهزة . وهنا نلاحظ ان طاقة أحد الدوافع تزاح وتبدل لتصبح مسخرة لدافع آخر . اما فى النمط الأول من الابدال فتوجه طاقة نفس الدافع الى شىء او موضوع مختلف .

وقد حاول ميلر وبوجلسكى عام ١٩٤٨ دراسة النمط الأول من الابدال اى الازاحة فطبقا على مجموعة من الأولاد المشاركين فى معسكر صيفى استبيانا لتقدير اتجاهاتهم نحو المكسيكيين واليابانيين . ولم يكن هؤلاء الشباب يعرفون أنه ستضيع عليهم المشاركة فى مناسبة اجتماعية شعبية هامة . وبعد أن اتموا الاجابة عن الاستفتاء اخبرهم المجربان بما فاتهم ثم طلبا منهم الاجابة عن صيغة ثانية من الاستفتاء .

واتضح أن هؤلاء الأولاد عبروا عن اتجاهات سلبية نحو جماعات الأقلية بعد معرفتهم بما فاتهم اشد مما عبروا عنه قبل معرفتهم بذلك، اى قبل تعرضهم للاحباط . ولقد فسر الباحثان ذلك بان هذا الارتفاع فى الكراهية نحو جماعات الاقلية هو غضب مزاح أم تم ابداله ، وبدلا من أن يتجه الى الباحثين لانهما تسببا فى حرمانهم من المشاركة فى هذه المناسبة الاجتماعية الهامة تحول الى جماعات الاقلية . ويمكن القول بلغة المثير والاستجابة انه قد حدث تعميم، اى أن هؤلاء الشباب عمموا استجاباتهم ونقلوها من موضوع مثير (الباحثان اللذان تسببا فى احباطهم وهما غريبان عنهم) الى مثير آخر مشابه (اعضاء جماعات الأقلية وهم غرباء ايضا) .

تعلم الجهاز العصبى المستقل :

لقد اجرى ميلر بعض البحوث التى تضمنت تعلم الأعراض او السلوك العرضى واسفرت عن نتائج هامة. لقد اقترح ميلر عام ١٩٦٩ أن من المحتمل

أننا نتعلم الأعراض النفسية الفسيولوجية كما نتعلم أنواعا أخرى من الأعراض واذا كان هذا صحيحا فقد يصبح فى الامكان استخدام أساليب الاشتراط الاجرائى لخفض شدة هذه الأعراض كضغط الدم العالى ، سواء أكانت هذه الأعراض ناشئة عن عوامل سيكولوجية أو عوامل فسيولوجية. ولقد أسهمت هذه الأفكار والمقترحات فى تزايد الاهتمام بميدان التدريب على التغذية الراجعة الحيوية Biofeedback وذلك بأن نزود الشخص بمعلومات أو تغذية راجعة عن العملية الفسيولوجية ونعززه على تعديله لتلك العملية .

ولقد عمل ميللر على نحو متسق وبمثابرة لكى يبرهن على أن ما يتم اشراطه هو استجابة الجهاز العصبى المستقل Autonomic nervous system وأن الكشف عن هذه الحقيقة هام بالنسبة لنظرية التعلم .

ولقد كشفت البحوث التى أجراها باحثون آخرون عن أن بعض الناس يستطيعون فى الحقيقة أن يتعلموا ضبط معدلات نبض القلب وغيرها من العمليات المستقلة . وعلى أية حال فان هذه البحوث لم تظهر بشكل قاطع أن هذه الاجراءات يمكن استخدامها بنجاح مع جميع الناس . ولم تظهر فاعلية هذه الاجراءات فى علاج حالات مرضية فعلية . بل لقد وجد ميللر نفسه صعوبات فى اعادة بعض تجاربه للتثبت من صحة ما كشفت عنه من قبل من نتائج . ويبدو أن الحاجة ما تزال ماسة لمزيد من البحوث والتجارب فى هذا المجال الكثير المتغيرات .

المكانة الراهنة والتقويم :

ان نظرية ميللر ودولارد والبحوث التى أجرياها تتميز بعدة خصائص جيدة : —

— وضوح المفاهيم وارتباطها بفئات محددة من الوقائع الامبيريقية .

— يندر استخدامها لصياغات غامضة كالحدس لانهما يتشددان فى تعريف المصطلحات .

— بالرغم من هذه الدقة المنهجية فلم يترددا فى معالجة ظاهرات سلوكية معقدة معتمدين على مفاهيمهما المحددة .

— انهما يمثلان دعاة التعلم فى معالجة الشخصية ، وقد لقى هذا الجانب اهمالا من عدد كبير من نظريات الشخصية غير السلوكية .

— انهما اهتما بالمتغيرات الاجتماعية الثقافية اهتماما اكبر من أصحاب عدة نظريات عرضنا لتصوراتهم فى هذا الكتاب . هذا فضلا عن ان هذا الاهتمام أدى بعلماء الانتروبولوجيا الثقافية الى الافادة من هذه النظرية اكثر من كثير من النظريات الأخرى اذا استثنينا التحليل النفسى .

ومن النواحى الايجابية أن ميللر ودولارد استطاعا أن يفيدا من موقفين نظريين هامين وان يحققا تكاملا بينهما وبهذا وضعا نظرية اكثر قوة من أصليها.لقد استطاعا ان يحولا مفاهيم فرويد الى صيغ موضوعية اكثر قابلية للاختبار التجريبى عما كانت عليه من قبل وحللا بالتفصيل متغيرات الأعصبة والعملية العلاجية التى تلزم للتخلص من الصراع العصابى الذى يتعرض له الفرد عادة فى الطفولة . وكان لهما اسهاما متميزا فى تطوير العلاج السلوكى .

لقد قدم لنا دولارد وميللر معلومات مفيدة تساعدنا على علاج الأعصبة، وقد تصبح هذه المعلومات يوما ما مسئولة عن الوقاية منها وانقاص تواترها. واذا كان الأمر كذلك فان المرء لا بد أن يغفر لهما تفضيلهما اجراء بحوث على الحيوان ، وتبنيهما لنموذج حتمى عن الطبيعة الانسانية . وينبغى على اية حال أن نحكم على كل نظرية بفاعليتها النهائية وليس فى ضوء مسلماتها وأصولها فحسب .

لقد قدم دولارد وميللر طريقة للعلاج النفسى تقوم على نظرية التعلم بالتعزيز وحققا كما قلنا نوعا من التكامل بين نظرية التعلم وبين الطريقة الكلينيكية فى العلاج بالتحليل النفسى وقد بينا كيف يمكن أن يتسق التحليل النفسى مع نظرية التعلم ، والتعزيز . ويمكن اعتبار مفهوم التعزيز بديلا عن مبدأ اللذة ، ومفهوم قوة الأنا يمكن ترجمته الى مفهوم العمليات العقلية العليا والمهارات والدوافع الثقافية المكتسبة . (بارين ترجمة النقى ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤) .

غير أن نظرية التعزيز تبسط المسائل تبسيطا زائدا ، وتأخذ بفكرة أساسية هى أن السلوك الانسانى مجموعة من ردود الأفعال ازاء المثيرات الموقفية وتؤدى الى انتقاص الدافع . وهذه النظرية تفيد من الدوافع الثانوية أو المكتسبة فى تفسير السلوك ولكنها لا توضح بالقدر الكافى طبيعة هذه الدوافع وكيف نمت عن الدوافع الأولية .

ولقد تعرض دولارد وميللر لنقد شديد بسبب اجرائهما تجارب على الفيران بغية تعميم نتائجها على الانسان ، وبسبب تأكيدهما الزائد على الدوافع الأولية كمحددات للسلوك ، واخفاقهما فى اعطاء مفهوم الذات مكانة فى نظريتهما وبالتأكيد المبالغ فيه للاشتراط والمثيرات البيئية واثرها على السلوك . لقد اعتبرا من دعاة الحتمية الجامدة ومن المؤكدين للخبرات الماضية ومن المنكرين لحرية الاختيار ومن المصورين للانسان باعتباره حيوانا ومن المقللين لأهمية الكفاح من أجل أهداف مستقبلية . (Hergenhahn, p. 261)

ولعل من أكثر الانتقادات شيوعا لنظرية المثير الاستجابة انها بسيطة وتصر على دراسة السلوك بطريقة ذرية تجزيئية . وتذهب النظريات الكلية الى أن المرء لا يأمل فى فهم السلوك الانسانى والتنبؤ به ما لم ينظر الى الكائن الحى باعتباره كلا يقوم بوظائفه وما لم ينظر الى الأنماط التى تتشكل بها هذه الأجزاء التى يفحصها دعاة المثير — الاستجابة فحصا ميكروسكوبيا. ويرد أصحاب نظرية المثير والاستجابة على هذا النقد قائلين انه ليس فى نظريتهم ما يقرر بأن المتغيرات التى درستها تعمل بمعزل بعضها عن بعض فالتفاعل بين هذه المتغيرات مأخوذ به فى هذه النظرية ولو لم تؤكده وكل ما تركز عليه هذه النظرية هو تحديد نتيجة هذا التفاعل تحديدا يقبل الملاحظة . والقول بأهمية الكليات دون تحديد لمعناها موقف غامض يجعل هذه الكليات غير قابلة للدراسة العلمية .

وأصحاب نظريات التعلم منقسمون على أنفسهم حول مسألة اساسية هى هل يتبنون مفاهيما وفروضا وتأملات لا تنتمى الى خطهم الفكرى من قبيل الكبت والتداعى الحر والصراع والقلق وما يتصل بها وينتمى الى التحليل النفسى ؟ والدارس للفكر السيكولوجى فى مجال دراسة الشخصية سوف

يتبين أن من دعاة التعلم من يرفض الابتعاد عن مبادىء التعلم الى مثل هذا المتغيرات ومن هؤلاء سكنر وباندورا .

ونظرية المثير والاستجابة كانت هدفا لهجوم كثير من علماء النفس الذين يعتقدون أن الفهم السليم للسلوك الانسانى يقتضى التخلص من الجمود الناتج عن التشبث بالمنهج التجريبى للعلوم الطبيعية. انهم يشعرون انهم على الرغم من اعتمادهم على الملاحظات التى حسن ضبطها الا ان هذه الملاحظات لها صلة وثيقة بموضوع الدراسة . اما معظم دراسات المثير والاستجابة فتهتم بالسلوك البسيط وهو مدخل يلائم دراسة الحيوان ، ولكن التعميم من الحيوان الى الانسان يستند الى مسلم الاستمرارية بينهما وهو مسلم مشكوك فيه . ويرد أصحاب نظرية المثير والاستجابة على هذا النقد قائلين : أن التجارب المعملية لدراسة الحيوان ما هى الا خطوة على الطريق لفهم السلوك الانسانى . وان الحقائق التى تستخلص من دراسة الحيوان لا بد وان تستكمل بحقائق تستقى من دراسة السلوك الانسانى . وان السلوك البسيط حين يفهم يساعد على فهم السلوك المعقد وبالتالى يجعلنا اقدر على فهم الظاهرة الأصلية (عماد اسماعيل ؛ ص ١٠١) .

الفصل الثالث عشر

البرت باندورا

ولد البرت باندورا Albert Bandura في ديسمبر ١٩٢٥ فى أسرة من الفلاحين ذات أصل بولندى. وشب فى مدينة صغيرة تسمى منديرMundarc فى البرتا بكندا. وتعلم بمدرستها الوحيدة وفى المرحلة الثانوية كان بالمدرسة مدرسان اثنان وعشرون تلميذا . ولا بد أن المناخ التعليمى لهذه المدرسة كان جيدا او ان استعدادات هؤلاء الطلاب كانت متميزة لان معظم زملاء باندورا التحقوا بالجامعة وحققوا حياة مهنية ناجحة . وبعد أن تخرج من المدرسة الثانوية أنفق عاما فى الاسكا يعمل فى تعبيد طريق الاسكا الرئيسى . ولقد أتاح له هذا العمل التفاعل مع عمال منوعين اظهر كثير منهم درجات من المرض النفسى . ويبدو أن هذه الخبرة هى التى بلورت اهتمامه بعلم النفس الكلينيكى .

ولقد التحق باندورا بجامعة برتيش كولومبيا فى فانكوفر University of British Colombia in Vancouver وحصل على درجة البكالوريوس فى الآداب عام ١٩٤٩ . ثم التحق بجامعة ايوا حيث حصل منها على درجة الماجستير ودكتوراه الفلسفة فى عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٢ على الترتيب . ولقد كانت هذه الجامعة تؤكد وتهتم بنظرية التعلم . ولقد تتلمذ فيها على يد سبنس Spence الذى زامل كلارك هل فى جامعة ييل. ومعنى هذا أن تفكير باندورا فيما يبدو فى المرحلة الأولى قد تشكل وتأثر بتقاليد نظرية التعلم شأنه فى ذلك شأن دولارد وميللر على نحو غير مباشر . ولكنه تأثر مباشرة بكتاب ميللر ودولارد فى التعلم الاجتماعى والتقليد والذى نشر عام (١٩٤١) والذى كان حافزا له على عمله المبكر . وبعد حصوله على الدكتوراه عمل لمدة عام بمركز وشيتا للتوجيه Wichita Guidance Center ثم عمل فى قسم علم النفس فى جامعة ستانفورد حتى اصبح استاذا عام ١٩٦٤ م . وما زال يعمل بها حتى الآن .

وخلال عمله فى ستانفورد انغمس باندورا فى تطوير مدخله فى التعلم الاجتماعى كوسيلة لفهم السلوك الانسانى . ولقد كان وما يزال عالما معطاء

نشر عددا من الكتب المؤثرة ، واوراقا علمية كثيرة فى المجلات العلمية . ولقد الف اول كتابين بالاشتراك مع والترز R.H. Walters وهما عدوان المراهق الذى نشر عام ١٩٥٩ Adolescent Aggression والتعلم الاجتماعى ونمو الشخصية Social Learning and Personality Developmnet الذى نشر عام ١٩٦٣ م.ويعتبر كتابه « مبادىء تعديل السلوك » "Principles of Behavior Modification" الذى نشر عام ١٩٦٩ تلخيصا وتقويمـــا للمبادىء النفسية التى تحكم السلوك . ولقد نشر علم ١٩٧١ م وحدة تعليمية بعنوان التعلم الاجتماعى وهو معالجة مختصرة لهذه المبادىء . وفى كتابه « العدوان Aggression والذى نشر علم ١٩٧٣ م لخص وناقش النظرية والبحوث التى اجريت على محددات السلوك العـــدوانى ، وبين كيف ان البحوث فى هذا الموضوع العام يمكن ان تســـاعدنا على فهم اصول هـــذا السلوك ، وهو سلوك مؤذ وضار لنا وللآخرين دائما تقريبا . ويعرض لانواع المتغيرات المسئولة عن انقاص هذا السلوك والتخلص منـــه . وقد عرض باندورا فى احدث كتبه «نظرية التعلم الاجتماعى "Social Learning Theory" الذى نشره علم ١٩٧٧ ، تلخيصا للتطورات النظرية والبحثية الحديثـــة فى نظـــــريته .

ولقد حصل على عدة جوائز اعترافا باسهاماته فى علم النفس ، فمنح جائزة من رابطة علم النفس الأمريكية علم ١٩٧٢ م ، تمنح عادة للمبرزين فى مجالاتهم العلمية وحصل على جائزة اخرى من رابطة كاليفورنيا النفسية عام ١٩٧٣ م ، وانتخب رئيسا لرابطة علم النفس الأمريكية عام ١٩٧٤ م .

المفاهيم والمبادىء الرئيسية

مسلمات عن التعلم الاجتماعى :

يرى باندورا أن السلوك لا ينتج عن القوى الداخلية فى الانســــان وحدها ، ولا عن المؤثرات البيئية،وانما ينتج عن التفاعل المعقد بين العمليات الداخلية والمؤثرات الخارجية . وتقوم هذه العمليات الداخلية الى حد كبير على خبرات الفرد السابقة وتتصور باعتبارها احداثا كامنة قابلة للقيـــاس

والمعالجة . أن هذه الأحداث الوسيطة يتم السيطرة عليها بواسطة الأحداث الخارجية المثيرة وهى بدورها تنظم الاستجابات الظاهرة . وهو يختلف عن سكنر لان الأخير رغم ادراكه أن التباين المصاحب للمثير — الاستجابة تتوسطه أحداث داخلية الا أنه يهملها مفضلا التفسيرات العلية التى تعتمد على احداث خارجية قابلة للتناول . ويؤكد باندورا تأكيدا خاصا على دور المحددات المعرفية للسلوك . وهكذا فانه لا يرى الاحداث المعرفية على أنها مجرد عمليات مصاحبة للاحداث كما يرى سكنر ، وانما يراها أسبابا فعلية للسلوك . ونظريته تحلل السلوك على أساس الحتمية التبادلية reciprocal determinism أى أن باندورا يعتقد أن الاحداث المعرفية والاحداث البيئية يؤثر كل منها فى الأخرى . فالناس لا يستجيبون ببساطة للاحداث البيئية ، وانما يخلقون على نحو نشط بيئاتهم ويعملون على تغييرها . والاحداث المعرفية تحدد ما يدرك من الاحداث البيئية وما لا يدرك وكيف تفسر وتنظم وكيف يتم التصرف معها .

ونحن عادة نمثل الاحداث الخارجية تمثيلا رمزيا وبعد ذلك نستخدم التمثيل اللفظى والتمثيل التخيلى لتوجيه سلوكنا . ونحن نحل أيضا مشكلات أو مسائل حلا رمزيا دون أن نلجأ الى سلوك المحاولة والخطأ الفعلى والظاهر ونحن نتبصر ونستشرق النتائج المحتملة لسلوكنا ونعدل أفعالنا وفقا لذلك . وهكذا فان عملياتنا العقلية تتيح لنا أن نسلك سلوكا مستبصرا ومتبصرا .

ولا ينبغى أن يضللنا باندورا بتأكيده على أهمية العمليات المعرفية فى تحليله للسلوك — أى أن يحملنا على الاعتقاد بأنه يتجاهل آثار التعزيز لان الأمر على عكس ذلك ، فالتعزيز يلعب دورا أساسيا فى نظريته ولكنه دور يتسق مع التوجه المعرفى ذلك الذى يتعدى وجهة النظر التى يقدمها كثير من منظرى التعلم التقليديين . فاسكنر على سبيل المثال يركز على التغيرات السلوكية التى تحدث نتيجة لخبراتنا المباشرة بالنتائج المكافئة والمعاقبة لأفعالنا . والاستجابات التى تبرهن على نجاحها تميل الى أن تتكرر ، أما التى تعاقب فتميل الى أن تكف . ويعتقد باندورا أن المعززات والمعاقبات لا تحقق تقوية أو اضعافا أوتوماتيكيا للسلوك . وأن التعزيز لا يفسر على نحو تام الطرق التى يتم بها اكتساب سلوكنا والمحافظة عليه وتغييره . وهو يرى

أن معظم سلوكنا لا يسيطر عليه التعزيز الخارجي المباشر. وكنتيجة للخبرات المبكرة نميل الى أن نتوقع ان انواعا معينة من السلوك سوف يكون لها اثار نرغب فيها ، وان اخرى سوف تؤدى الى نتائج لا نريدها وان لمجموعة ثالثة تأثيرا ومغزى ضئيلا. وهكذا يتم تنظيم سلوكنا بواسطة النتائج المتوقعة الى حد كبير . وعلى سبيل المثال فاننا لا ننتظر حتى نتعرض لحادثة سيارة لكى نؤمن عليها . وانما نعتمد بدلا من ذلك على المعلومات التى نستقيها من الاخرين عن النتائج المحتملة لمثل هذه الكوارث ونتصرف وفقا لذلك . ونحن لا ننتظر حتى تهب عاصفة ثلجية لكى نحدد ما نرتديه حين يكون الجو قارس البرودة وفى بلد من طبيعته أن يتعرض لمثل هذه العواصف بين الحين والآخر فى الشتاء. ونستطيع ان نتخيل نتائج التهيؤ السيء او عدم الاستعداد لما نتوقعه من نتائج وهذه الفكرة شبيهة بفكرة روتر التى يفضل تسميتها توقعا على تسميتها استباقا .

ويذهب باندورا الى ان السلوك يمكن اكتسابه دون استخدام للتعزيز الخارجى . فنحن نتعلم كثيرا من سلوكنا الذى نظهره من خلال تاثير القدوة أو المثل ، اننا ببساطة نلاحظ الآخرين يعملون ، ثم نكرر افعالهم . اى اننا نكتسب السلوك عن طريق التعلم بالملاحظة . ويرى باندورا اننا نحتذى النماذج البارزة فى حياتنا لعدة اسباب . ذلك ان البيئة مليئة بنتائج قد تؤدى الى الهلاك واستخدام اسلوب المحاولة والخطا فى هذه الحالات يكون باهظ التكاليف . ونحن لا نعتمد على المحاولة والخطا او الخبرة المباشرة لتعليم الأطفال العوم وتعليم الناس قيادة السيارات أو الطائرات . فبعض الشرح والتعلم لا بد أن يتوافر قبل البدء فى الدروس . فضلا عن ذلك ، فقد يكون من المرهق والمزعج ان نحاول تنشئة النشء باستخدام التعزيز الانتقائى لانشطتهم . ولا شك أن تعليم الاطفال كثيرا من القواعد والتقاليد التى تشيع فى الثقافة والمجتمع بهذه الطريقة عمل صعب. ويمكن ان تختصر هذه العملية الى حد كبير بتزويدهم بالنماذج السليمة وعن طريق القدوة . وعلى الرغم من أن نظريات التعلم الأولى اهملت دور التعلم بالملاحظة فى محاولاتها لفهم السلوك الانسانى ، الا ان باندورا وغيره من دعاة التعلم الاجتماعى قد

اصلحوا من هذا القصور والقوا الضوء على طرق اكتساب السلوك والمحافظة عليه وتعديله عن طريق محاكاة النماذج .

نظـــام الذات :

يبتعد باندورا عن سلوكية سكنر المتطرفة حين يسلم بوجود نظـــام الذات ، يعمل عمله فى البيئة وفى السلوك . واذا كان السلوك وظيفة للبيئة وحدها ، فلا بد أن نتوقع أن يكون هنالك تباين اكبر داخل الشخص واتساق إقل فى السلوك ، لانه يستجيب دوما لمثيرات بيئية تتفاوت تفـاوتا كبيرا . وعلى الرغم من أن الشخصية متعلمة الى حد كبير ويمكن أن تكون معقـــدة ومتلونة ، الا أن بعض الاتساق فى الحديث وفى التعبير عن الذات وبعض السمات الشخصية يصعب تفسيرها على أساس الشروط البيئية وحدها . ولا بد أن نلتفت الى نواح اخرى كالقوى المعرفية من ذاكرة وتبصر لانها تحقق قدرا من الوحدة والاتساق فى الشخصية .

غير أن باندورا لا يتطرف فى الاتجاه الآخر ويقترح وجود قوة مستقلة داخل الشخص تشكل سلوكه بحيث يساير مفهوم ذاته . والحق أن باندورا يعتقد أن سلوك الفرد بصفة عامة اكثر تباينا عما يبدو عليه ، وان من الخطأ الفادح أن نعزو أنماطا سلوكية مختلفة الى دافع مفرد أو دافعين كالكفاح من أجل النجاح (أدلر) أو الجنس والعدوان (فرويد) لانه لو أن دافعا واحدا هو الذى ينظم السلوك فان الناس لا بد أن يكونوا اكثر اتساقا مما هم عليه . وعلى سبيل المثال فانه يتوقع من الشخص ذا الخلق الحميد الا يسلك قط سلوكا غير اخلاقى وهذا ما لا نجده فى دنيا الواقع فى حالات ليست بالقليلة . والشخص العدوانى على سبيل المثال ليس دائما عدوانيا لان البيئة لا تعزز السلوك العدوانى دائما . وتشكل خبرات الاثابة والعقاب الفارقة سلوك الفرد الى حد كبير .

ويستخدم باندورا لفظ نظام الذات Self - system بحرص . ان هـــذا المفهوم يشير الى البيانات المعرفية التى توفر ميكنزمات مرجعية والى مجموعة من الوظائف الفرعية للادراك والتقويم وتنظيم السلوك . وهـــذا يعنى أن الناس قادرون على ملاحظة سلوكهم وترميزه وتقويمه على أساس ذكريات

سلوكهم الماضى الذى لقى تعزيزا والذى لم يلق تعزيزا وكذلك على أساس عواقب أو نتائج مستقبلية متوقعة وباستخدام المعرفة كنقطة مرجعية . انهم يقدرون على هذا الأساس على ممارسة قدر من تنظيم الذات .

تنظيم الذات :

وعلى الرغم من أن الناس لا يملكون ذاتا مستقلة لها القدرة على تناول البيئة ومعالجتها بارادتهم ، فانهم قادرون الى حد ما على تنظيم الذات . فهم يستطيعون تناول بيئاتهم باستخدام التفكير التاملى ويتادون الى نتائج افعالهم . وهذه النتائج تغزى تغزية راجعة الحتمية المتبادلة وتمكن الناس من تنظيم سلوكهم جزئيا . ولسلوك تنظيم الذات مكونات وهى : ملاحظة الذات وعمليات الحكم واستجابة الذات .

ملاحظة الذات :

ان الملاحظة الذاتية للأداء هى المتطلب الأول لمراقبة ادائنا . وينبغى أن نقدر على مراقبة أدائنا حتى ولو كان الانتباه الذى نوليه له ليس بالضرورة كاملا أو حتى دقيقا . اننا نلاحظ انفسنا ونحن نرسم لوحة ، او نلعب لعبة ، أو نجيب عن اختبار ، أو نؤدى عملا مهنيا .

عملية الحكم :

ا نملاحظة الذات وحدها لا توفر لنا أساسا كافيا لتنظيم سلوكنا ، اذ ينبغى أيضا ان نقوم اداءنا . وعملية الحكم هذه تساعد الناس على تنظيم سلوكهم عن طريق عملية التوسط المعرفى . ونحن نعى ذاتنا ونتأملها ، بل ونحكم على قيمة فعلنا على اساس المرامى والأهداف التى وضعناها لأنفسنا. وعلى نحو اكثر تحديدا تتوقف عملية الحكم على المعايير الشخصية والأداءات المرجعية وتقييم النشاط وعزو الأداء . فالمعايير الشخصية تتيح لنا ان نقوم اداءنا دون أن نقارنه باداء الآخرين،فاذا استطاع طفل فى العاشرة من عمره متأخر عقليا أن يربط حذاءه ، فقد يستحق على هذا العمل مكافأة.وقد لا يكون فى حاجة الى التقليل من قيمة انجازه بمقارنته بانجاز الأطفال الآخرين الذين سبقوه واتقنوا هذه المهارة فى وقت مبكر عنه . وفى سن اصغر . ومن

أمثلة المعايير الشخصية الأخرى ، الشاب الذى يطمح فى تولى رئاسة الشركة ، ورجل الأعمال الذى يحرص على دفع جميع ما عليه من ضرائب . وتحديد المعايير الشخصية للسلوك على نحو مستقل عن المعايير الاجتماعية عنصر من عناصر عملية الحكم .

غير أن المعايير الشخصية مصدر محدود لعملية التقويم لاننا نقوم اداءتنا فى معظم الأنشطة بمقارنتها بمعيار مرجعى . فالطالب يقارن درجات اختباره بدرجات زملائه فى الصف ، وبالاضافة الى ذلك فاننا نستخدم مستوياتنا السابقة فى الانجاز كمرجع أساسى لتقويم أدائنا الحاضر . فقد يسأل الفرد نفسه : هل المسافة التى أقطعها سباحة فى الدقيقة أطول مما كانت عليه فى الشهر الماضى ؟ هل تحسنت قدرتى على التدريس بحيث أصبحت افضل مما كانت عليه من قبل ؟ وقد نحكم على أدائنا بمقارنته بأداء فرد آخر ، أخ أو أخت أو حتى منافس لا نحبه . وقد نقارنه بمعيار معين أو مستوى محدد .

وعملية الحكم تستند الى القيمة الاجمالية للنشاط بجانب استنادها الى المعايير الشخصية والمعايير المرجعية . فاذا كانت القدرة على غسل الأطباق ذات قيمة ضئيلة فان الشخص سوف يقضى وقتا قليلا وينفق جهدا محدودا فى العمل على تحسين هذه القدرة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اذا كان النجاح فى ادارة العمل او الحصول على درجة جامعية أو مهنية له قيمة كبيرة فان الشخص سوف يقضى وقتا كبيرا وجهدا لكى يحقق النجاح فى هذه المجالات .

وتتفاوت الاستجابات الذاتية وتتباين ويتوقف هذا على كيفية حكمنا على أسباب سلوكنا . فاذا كنا نعتقد أن نجاحنا يرجع الى جهودنا ، فاننا نعتز بانجازاتنا ونميل الى العمل بجد أكبر لتحقيق مرامينا وأهدافنا . أما اذا كنا نعزو أداءنا الى عوامل خارجية فاننا لا نحقق منه اشباعا ذاتيا كبيرا ، ولا يزداد احتمال بذلنا لجهد كبير لتحقيق أهدافنا . وعلى العكس من ذلك اذا كنا نعتقد أننا مسئولون عن أخطائنا أو ادائنا غير السليم فاننا على استعداد اكبر للعمل على تنظيم الذات عما لو كانت نواحى قصورنا ومخاوفنا ترجع الى عوامل خارج نطاق سيطرتنا .

استجابة الذات :

والمكون الثالث والأخير من وظيفة تنظيم الذات هو استجابة الذات . اننا نستجيب ايجابيا او سلبيا لسلوكنا ويتوقف هذا على كيفية بلوغه او ارتقائه لمعاييرنا الشخصية . وتعزيز الذات لا يعتمد على حقيقة انه يلى الاستجابة مباشرة ، ذلك أن نتائج السلوك لا بد أن تمر من خلال الشخص ، أى انه يتوسطها . ونحن نضع معايير للأداء فاذا حققناها نتيجة الى تنظيم سلوكنا بمكافآت صادرة عن الذات كالاعتزاز بعملنا والرضا عن الذات . اما اذا لم نرقى فى سلوكنا الى مستوى هذه المعايير فان النتيجة هى عدم رضا الذات ، أو نقدها . ان هذا المفهوم عن توسط الذات للنتائج يختلف اختلافا كبيرا عن نتائج السلوك التى تتحدد بيئيا . ويفترض باندورا اننا نعمل لكى نحصل على مكافآت ولكى نتجنب عقوبات وفقا لمعايير تنشئها الذات . وحتى حين تكون المكافآت محسوسة ، فانها كثيرا ما تكون مصحوبة بحوافز غير محسوسة تتوسطها الذات كالاحساس بالانجاز . فجائزة نوبل تتيح لمن يحصل عليها قدرا من المال ، ولكن قيمتها العظيمة هى ان معظم من يحصلون عليها لابد وان يشعروا بالزهو وبالرضا عن الذات لأدائهم لاعمال ادت الى الحصول على هذه الجائزة .

خصائص تنظيم الذات :

لقد راينا ان السلوك الشخصى لا ينضبط بواسطة كيانات داخلية مستقلة كالأنا او الضمير ولا بالمحددات البيئية . وانما ينتظم السلوك بتفاعل بين الشخص والبيئة والسلوك السابق . وهكذا فان لدى الناس قدرة محدودة على تنظيم سلوكهم . فما هى العمليات التى تسهم فى تنظيم الذات ؟

اولا : كما لاحظنا من قبل الناس قادرون على مراقبة سلوكهم . وثانيا ، انهم قادرون على تقويم سلوكهم فى ضوء المرامى او الاهداف القريبة والبعيدة . فضلا عن ذلك ينبغى أن يمتلكوا بعض القدرة على تناول القوى الخارجية التى تغذى التفاعل المتبادل ، وأن يقدروا على ادراك نتائج هذه العوامل الخارجية . فالسلوك ينشأ اذن عن التأثير المتبادل بين العوامل الخارجية والمتغيرات الشخصية .

العوامل الخارجية :

تؤثر العوامل الخارجية فى تنظيم الذات على الأقل على انحاء ثلاثة :ـ

أولا : انها تزودنا بمعيار لتقويم سلوكنا . ولا تنشأ المعايير على نحو سحرى من القوى الداخلية .لان العوامل البيئية تتفاعل مع المؤثرات الشخصية وتشكل معايير الفرد فى التقويم . فنحن نتعلم المبادىء من الوالدين ومن المعلمين ، فنتعلم منهم قيمة السلوك الودود أو الأمين ... الخ وبالخبرة المباشرة نتعلم أن الدفء والجفاف أكبر قيمة من البرودة والبلل ومن خلال ملاحظة الآخرين ننمى عديدا من المعايير التى نقيم بها الاداء الذاتى وفى كل مثال من هذه الامثلة تؤثر العوامل الشخصية فى المعايير التى نتعلمها ، ولكن القوى البيئية تلعب دورا فى هذا المجال أيضا .

ثانيا : تساعد القوى الخارجية على تنظيم الذات لانها توفر وسائل التعزيز . فالمكافآت النابعة من الذات ليست كافية دائما ، لاننا نحتاج أيضا الى حوافز تصدر عن العوامل الخارجية . فالفنان قد يحتاج الى تعزيز أكثر من الرضا عن الذات لكى يتم لوحة كبيرة أو تمثالا ضخما ، وسوف يتلقى على الأغلب دعما من البيئة يمكنه من اتمام مثل هذه المشروعات الكبيرة التى تحتاج الى موارد مالية كثيرا ما لا تكون فى طاقته ، كما يحتاج التشجيع وثناء الآخرين فضلا عن مكافأته لنفسه بين الحين والحين . والحوافز التى تساعد على اتمام المشروعات الكبيرة التى تستغرق زمنا تصدر عادة عن البيئة وكثيرا ما تتخذ صورة مكافآت جزئية مرهونة بتحقيق أهداف فرعية . وقد يكافىء الفنان نفسه بفنجان من القهوة بعد اتمام جزء صغير من اللوحة ، أو يعطى لنفسه فترة من الراحة يتمشى قليلا فى حديقة . واذا كافأ نفسه على أداء غير سليم يحتمل أن يتعرض لجزاءات من البيئة فقد يسخر أصدقاؤه من عمله ، أو يتناقص الدعم ، أو قد ينقد هو نفسه اداءه . وعندما لا يرقى الأداء لمستوى معايير الذات يميل الناس الى حجب المكافآت عن أنفسهم .

ثالثا : وثمة تأثير متبادل للعوامل الخارجية على وظائف تنظيم الذات ويتطلب أو يتضمن تنشيطا انتقائيا وابتعادا عن المؤثرات الذاتية الاستجابية . ويشير التنشيط الذاتى الى اعتقاد باندورا بأنه لا توجد قوة أوتوماتيكية

تنشط الشخص من الداخل . وهو يفترض بدلا من ذلك ان تأثيرات تنظيم الذات تتم اذا نشطت ، وتتأثر طريقة اختيار الفرد لتنشيط وظيفة التنظيم الذاتى وتوقيتها بتقويم الذات وبالظروف البيئية . وحين يتضح أن مسارا معينا للفعل غير متسق مع مفهوم ذات الفرد وسوف يؤدى الى الاضرار بآخر فان عملية تنظيم الذات تنشط . فاذا اتضح أن الاعتداء على شخص آخر سوف يؤدى الى ايذاء ذلك الشخص فضلا عن تعرضه هو للسجن من جراء ذلك ، عندئذ يتيح التنشيط الانتقائى للفرد ان يختار سلوكا مختلفا . وحين تكون ملاءمة فعل الفرد ولياقته اكثر غموضا ، فانه يبعد معاييره التقويمية عن السلوك .» .

وفصل السلوك او عزله من نتائج تقويم الذات يقتضى استخدام العوامل البيئية أو المعرفية لتسويغ سلوك يستحق الشجب . ويمكن ان يتحقق هذا باربعة طرق : —

١ — يمكن أن يعاد تجديد السلوك وتعريفه .

٢ — يمكن تشويه الآثار الضارة لسلوك الفرد او تقليلها أو تجاهلها .

٣ — يمكن تقييم العلاقة بين افعال الفرد وآثارها بواسطة الابدال او تمييع المسئولية .

٤ — يمكن تنحية الخصائص الانسانية عن الضحية بحيث يستحق اللوم .

ان استخدام الطريقة الأولى معناه ان السلوك الضار مسوغ بواسطة اعادة بناء الموضوع معرفيا ، وبالتالى فان هذه الطريقة تتيح لمرتكب الخطأ أن يهرب من المسئولية عن افعاله او ان يقللها الى الحد الأدنى . ويمكن استخدام ثلاثة اساليب على الأقل تتيح الفرصة للناس ليتجنبوا المسئولية عن سلوكهم . الاول هو التبرير الخلقى حيث يصبح السلوك الجدير باللوم قابلا للدفاع عنه بل وقد يبدو سلوكا نبيلا . ومن امثلة ذلك الأب الذى يسعى للانتقام من قاتل ابنه ، متجاهلا القانون والأجهزة الشرعية ويعثر عليه ويرديه قتيلا . والطريقة الثانية للتخفف من المسئولية تكون باعادة تعريف السلوك

الخاطىء وذلك بالقيام بمقارنات بينه وبين مخالفات أسوأ يرتكبها الآخرون بحيث يبدو سلوك الفرد أفضل بكثير من مخالفات الآخرين . كأن يقارن من يختلس القليل من المال العام ليعالج أمه بمن يختلس الآلاف ليقامر بها . وكالتلميذ الذى يقذف نافذة المدرسة بالطوب فيحطم زجاجها ويدافع عن نفسه بأن التلاميذ الآخرين حطم كل منهم زجاج أكثر من نافذة . والاسلوب الثالث فى اعادة تعريف السلوك يكون باستخدام عناوين حسنة لأفعال شريرة ، فمقتل مئات الفلسطينيين هو لمحاربة الارهاب وسرقة الممتلكات الخاصة تسمى إعادة توزيع الثروة أو تأميما أو مصادرة ، والاعتداء العسكرى على دول مسالمة يطلق عليه ضربات وقائية ، أو ضربات تجهض العدوان .

واذا لم يكن فى الامكان عزل السلوك عن نتائج التقويم الذاتى عن طريق التبرير الخلقى والمقارنة غير الموضوعية وتسمية الرذائل بغير مسمياتها فان الطريقة الثانية لهذا العزل تستخدم وتتطلب تشويه العلاقة بين السلوك وآثاره الضارة أو جعل هذه العلاقة غامضة . ويلاحظ باندورا أن هناك ثلاثة أساليب للقيام بهذا الفصل ذلك انه يمكن تقليل نتائج الأفعال الضارة الى حدها الأدنى وغض النظر عنها وتشويهها . ومن أمثلة تقليل النتائج ما نراه حين يكسر السائق الضوء الأحمر ويصدم أحد المشاه . وبينما يرقد المصدوم ينزف دما يقول السائق أنه لم يلحق به ضررا كبيرا وانه سيكون على ما يرام . والاسلوب الثانى أن يتجاهل الفرد أعماله ويغض الطرف عنها فلا يرى آثارها الضارة . ومن أمثلة ذلك أنه يندر أن يشاهد رؤساء الدول وقادة الجيوش الدمار التام والموت الذى ينتج عن قراراتهم . وثالثا يمكن تشويه النتائج ، كأن يقول الأب الذى يضرب ابنه ضربا مبرحا بحيث يحدث فى جسمه آثارا باقية ، ان الطفل يحتاج الى هذا التأديب ليصبح رجلا .

والطريقة الثالثة لفض الاشتباك بين السلوك ونتائجه هى طريقة الابدال وتمييع المسئولية . فى الابدال تنقص نتائج الأفعال الى حدها الأدنى وذلك برد المسئولية الى مصدر خارجى فالمغتصب يلوم أمه لانها لم تغمره بحنانها وحبها . ومن المألوف أن يعزو الموظفون المدنيون مسئولية أفعالهم الى سلطة أعلى كأن يقولوا عندما تسوء الأمور « هذه ليست فكرتى » ، « لقد

طلب منى أن أفعل ذلك » ويرتبط بهذا الاسلوب تمييع المسئولية بارجاعها الى البيروقراطية فتسمع عبارات من قبيل « هذه هى طريقة عمل الأشياء هنا » ، « ان هذه هى السياسة المتبعة » .

والطريقة الرابعة للفصل بين الانماط السلوكية ونتائجها السيئة تتطلب سلب الخصائص الانسانية من الضحية او القساء اللوم عليه . ففى أيام الحرب يرى العدو باعتباره ليس انسانا فلا يلام الفرد عندما يقتل جنود العدو فهم لا يختلفون عن البعوض والحشرات الضارة،وفى ازمنة مختلفة كان اليهود والعرب والسود والهنود الحمر والشحاذون وكبار السن والمجرمون ضحايا لمثل هذا الفصل فارتكبت ضدهم انواع الظلم وسلطت عليهم اعمال العنف وغير ذلك من اساليب سوء المعاملة على يد أناس عاديين لا يختلفون عن غيرهم من البشر ولكنهم يفعلون هذا لعزل الأفعال الشريرة وابعادها . وحتى لا نسلب الضحايا خصائصهم الانسانية فاننا احيانا نلومهم على سلوكهم الخاطىء الذى يستوجب اللوم ، فهم ضحايا الاغتيال السياسى مثلا لانهم سعوا الى حتفهم بأنفسهم ، ومن امثلة ذلك ان العامل او الموظف قد يسرق من رئيسه أو من صاحب العمل ويقرر ان هذا الرئيس ييسر له السرقة لانه ليس على وعى بممتلكاته ولذلك فهو يستحق ما يجرى له .

وقد يرى القارىء بعض التشابه بين مفهوم باندورا عن العزل وفكرة فرويد عن الحيل الدفاعية . وهذا التشابه سطحى اكثر من كونه جوهريا . صحيح أن الشخص يجد الحماية من الظروف المقلقة وغير المريحة باستخدام هذه الأساليب التى يحددها باندورا وباستخدام الحيل الدفاعية ولكن الفروق بينهما أكثر من نواحى التشابه . فالحيل الدفاعية تعمل على نحو آلى ولاشعورى لحماية الأنا من القلق.اما اجراءات العزل او الفصل عند باندورا فليست لاشعورية ولا آلية وهى ذات صبغة معرفية . انها تحمى الشخص لا من المطالب الغريزية ولا من التهديدات الخارجية وانما تتيح له أن يقلل من مسئوليته فى موقف غامض وذلك بتسويغ سلوكه وبدون هذا التسويغ يكون السلوك غريبا بالنسبة لتقويم الذات .

المتغيرات الشخصية :

ان مسلم باندورا عن تنظيم الذات على أساس من التبادل بين العوامل الشخصية والبيئية يفترض وجود مؤثرات بيئية ووجـــود شخص نشط معرفيا . والتعزيز ليس أوتوماتيكيا ، والســـلوك لا يمكن أن نرجعـــه الى البيولوجيا أو الى تاريخ الفرد . ان الناس منغمسين فى عمليات التعزيز .

وحتى حين تكون المؤثرات البيئية قوية ، فان التعـــزيز ليس مؤكدا ويقينيا . ولقد قدم التاريخ لنا أمثلة يصعب تفسير سلوكها لاناس رفضوا المعززات أو تجنب مثيرات منفرة فى الحياة . لقد اختار غاندى أن يصوم عن الطعام لكى ينهى الحرب الأهلية فى الهند . ورفض هنرى مور أن يغير موقفه من معارضة هنرى الثامن ملك انجلترا رغم تعرضه لضرب العنق ورغم توسلات زوجته وابنته. ان تفضيله للشنق على التخلى عن معتقداته وأفكاره مثال يبين كيف تتفوق المعرفة أحيانا على المثيرات البيئية القوية .

فعالية الذات :

لقد توصل باندورا الى نظرية عن الفعالية بتحقيق توازن دقيـــق بين مكونين أساسيين لبناء النظرية وهما التأمل الابداعى والملاحظة الدقيقـــة (وهو يختلف عن فرويد ويونج وأدلر الذين بنوا نظرياتهم على ملاحظاتهم وخبراتهم الكلينيكية) . وباندورا يختلف أيضا عن دولارد وميللر وســـكنر لان نظرياتهم انبنت على دراسات وتجارب أجريت على الحيوان . اما نظرية باندورا عن فعالية الذات فتقوم على بيانات مستمدة بعناية من دراســـة الانسان . وهو يختلف عن ماسلو والبورت وبعض أصحاب نظريات الذات من حيث انه يندر أن تبتعد تأملاته عن بياناته ، وقد تكون متقدمة عليها خطوة واحدة وبعناية . وهذا الاجراء السليم علميا يزيد من احتمال أن اختبـــار فروضه سوف يكشف عن نتائج موجبة ، وان النظرية سوف تولد فروضـــا أخرى قابلة للاختبار .

تعريف فعالية الذات :

يسلم باندورا فى تصوره للحتمية التبادلية بوجود تفــاعل وتأثر بين البيئة والسلوك والشخص . وفى اطار هذا التصور تشير فعالية الذات الى عامل الشخص . ولهذا العامل اثر قوى وهو ليس المحدد الوحيد للسلوك وانما يرتبط بالبيئة وبالسلوك السابق وبمتغيرات الشخصية الأخرى لاحداث الســـلوك .

ما الذى يقصده باندورا بفاعلية الذات ؟ انه توقع الفرد بانه قادر على أداء السلوك الذى يحقق نتائج مرغوب فيها فى اى موقف معين . والذين يتمتعون بفعالية ذات عالية يعتقدون أنهم يقدرون على عمل شىء لتغيير وقائع البيئة ، اما الذين يتصفون بفعالية ذات منخفضة فانهم ينظرون الى أنفسهم فى الاساس باعتبارهم عاجزين عن احداث سلوك له آثاره ونتائجه . ويعرف باندورا توقع الفعالية بانه « الاعتقاد بأن المرء يستطيع ان يصــدر بنجاح السلوك المطلوب لتحقيق النتائج » .

ويميز باندورا بين توقعات الفعالية وتوقعات النتيجة . ان الفعاليــة تشير الى ثقة الفرد فى قدرته على اداء سلوك معين بينما توقعات النتيجة يشير الى تنبأ الفرد عن النتائج المحتملة لذلك السلوك . وعلى سبيل المثال فان طالب العمل قد يكون لديه ثقة فى انه سوف يؤدى أداء حســنا خلال المقابلة الشخصية ، وان لديه القدرة على ان يجيب عن اى سؤال ممكن ، وأنه سيكون مسترخيا ومسيطرا على نفسه وسوف يظهر مستوى مناسبا من السلوك الودى . اى ان لديه مستوى عال من فعالية الذات بالنسبة لمقابلة صاحب العمل . ومع ذلك وبالرغم من ارتفاع توقعات الفعالية فقد تكون توقعات النتيجة متدنية وذلك لاعتقاده بأن فرصته فى الحصول على الوظيفة ضئيلة . ويرجع هذا الى الظروف البيئية غير المواتية بسبب الكساد الاقتصادى والتنافس الشديد بين الكفاءات للحصول على وظيفة واحدة . وفضلا عن ذلك فان عوامل شخصية اخرى قد تؤثر تأثيرا سالبا فى توقعــات النتيجة كالعمر والجنس والطول والوزن والصحة الجسمية .

مصادر فعالية الذات :

تكتسب فعالية الذات وتنمى وتضعف بعامل او اكثر من العوامل الآتية : —

١ — الانجازات الأدائية .

٢ — الخبرات البديلة .

٣ — الاقناع اللفظى .

٤ — الاستثارة الانفعالية .

وفى كل طريقة من هذه الطرق تتم معالجة المعلومات عن ذات الفرد وعن البيئة معالجة معرفية كما يتم تناول ذكريات الخبرات السابقة مما يغير فعلية الذات المدركة . وبالاضافة الى هذه المصادر الأربعة فان فعلية الذات تتأثر بمعايير السلوك الداخلية .

واكثر هذه المصادر تأثيرا فى فعلية الذات ما يحققه أداء الشخص من انجازات،ذلك أن الاداء الناجح بصفة عامة يرفع توقعات الفاعلية بينما يؤدى الاخفاق الى خفضها . وهناك عدة لازمات لهذه العبارة العامة . وأولها أن النجاح فى الأداء يرفع فعلية الذات بما يتناسب مع صعوبة العمل . فلاعب التنس الماهر اذا فاز على منافس متفوق تزداد فعالية ذاته الأمر الذى لا يحدث اذا فاز على منافس ضعيف . ثانيا : الأعمال التى تنجز بنجاح من قبل الفرد اكثر فعالية من تلك التى يتمها بمساعدة الآخرين . ففى مجال الرياضة انجازات الفريق لا تزيد فعالية الشخص كانجازات الفرد . وثالثا : الاخفاق يؤدى على الأغلب الى انتقاص الفعلية حين نعرف اننا بذلنا افضل ما لدينا من جهد . أما حين نخفق ونحن نحاول نصف محاولة فان ذلك لا يضر بالفعالية كما يحدث عندما لا نرقى للمستوى المطلوب مع بذلنا لاعظم جهودنا وأفضلها . والأداء الفاشل ايضا فى ظروف الاستثارة الانفعلية العالية لا يضر بفعالية الذات كالاخفاق فى افضل الظروف . وعلى سبيل المثال قد يقول الفرد « انا اعرف أنى رسبت فى الامتحان ، ولكنى كنت قلقا على صحة والدى فى ذلك

الوقت » وهذا ليس اعتذارا للاستهلاك العام — لان فعالية الذات تعتمد على تناول المعلومات ومعالجتها (سواء تم هذا على نحو دقيق ام لم يتم على هذا النحو) . واللازمة الثانية : ان الاخفاق بين الحين والآخر له تأثير قليل على فعالية الذات وخاصة عند اولئك الذين لديهم توقع مرتفع بصفة عامة . غير أن من لديهم فعالية ذات منخفضة يندر ان يرجعوا الفضل فى نجاحاتهم الى أنفسهم .

والمصدر الثانى للفعالية هو الخبرات البديلة . فملاحظة الآخرين وهم ينجحون يرفع فعالية الذات ، وملاحظة فرد آخر بنفس كفاءتك وهو يخفق فى عمل يميل الى خفض فعالية الذات ، وعندما يكون النموذج مختلفا عن الملاحظ تؤثر المثيرات البديلة ادنى تأثير على الفعالية . فاذا لاحظ رجل كبير السن خامل جبان شابا نشطا شجاعا يمشى بنجاح على حبل رفيع على ارتفاع شاهق فى سيرك فان ذلك بغير شك يؤثر تأثيرا ضئيلا على توقعات الفعالية اذا قام الرجل بهذا العمل الجرىء . وللخبرات البديلة اقوى تأثير حين تكون خبرة الناس السابقة بالنشاط قليلة ؛ فملاحظة لاعب كرة سلة متفوق وهو يحرز أهدافا اقل تأثيرا فى فعالية لاعب كرة سلة آخر مدرسى . اذا قورن بتأثيره على لاعب مستجد يلاحظه . ان آثار النمذجة بصفة عامة ليست فى قوة الأداء الشخصى من حيث تأثيرها فى رفع مستويات الفاعلية . وقد يكون لها آثار قوية فى انقاص الفاعلية ؛ فملاحظة سباح له نفس مستوى مهارتك وقدرتك وهو يخفق فى عبور نهر به تيارات شديدة متقلبة يقنعك بالاقلاع عن محاولة القيام بنفس العمل ؛ وقد يبقى تأثير هذه الخبرة فترة طويلة من الزمان لديك .

ويمكن اكتساب فعالية الذات من خلال الاقناع اللفظى . وتأثير هذا المصدر محدود ، ومع ذلك فان الاقناع اللفظى فى تلك الظروف المناسبة يمكن من رفع فعالية الذات وخفضها . ولكى يتحقق ذلك ينبغى أن يؤمن الشخص بالقائم بالاقناع والنصائح او التحذيرات التى تصدر عن شخص موثوق به لها تأثير اكبر فى فعلية الذات عن تلك التى تصدر عن شخص غير موثوق به . ثانيا : أن يكون النشاط الذى ينصح الفرد بأدائه فى حصيلة هذا الفرد السلوكية على نحو واقعى . وذلك انه لا يوجد اقناع لفظى يستطيع

ان يغير حكم شخص على فعاليته وقدرته على القيام بعمل يستحيل اداؤه فى ظل مقتضيات الموقف الفعلى .

ويفترض باندورا أن قوة الاقتراح ترتبط على نحو مباشر بمكانة المقنع المدركة وسلطته . والمكانة والسلطة ليستا متماثلتان . وعلى سبيل المثال فان الاقتراح الذى يقدمه المعالج النفسى لمريض لديه خوف مرضى من الارتقاء بالمصعد والذى يتلخص فى انه يستطيع أن يفعل ذلك حين يكون مزدحما يغلب أن يزيد من فعالية ذاته عما لو صدر نفس الاقتراح عن زوجته أو ابنته . غير أن هذا المعالج نفسه لو اخبر المريض بأنه يستطيع أن يصلح جرسا كهربائيا فان ذلك لن يؤدى الى تحسين فى فعالية ذاته.ويكون الاقناع اللفظى اكثر فعالية حين يرتبط بالأداء الناجح . فعن طريق الاقناع قد تستطيع أن تحمل شخص على القيام بنشاط معين ، فاذا نجح الأداء فان هذا الانجاز مقرونا بمكافآت لفظية تالية تصدر عن المقنع تزيد من الفعالية فى المستقبل .

والمصدر الأخير للفعالية هو الاستثارة الانفعالية . فالانفعال الشديد يخفض الاداء عادة ، ولقد تعلم معظم الناس أن يحكموا على قدرتهم على تنفيذ عمل معين فى ضوء الاستثارة الانفعالية . فالذين يخبرون خوفا شديدا أو قلقا حادا يغلب أن تكون توقعات فاعليتهم منخفضة . فقد يجيد الممثل اداء دوره خلال التجارب الأولية السابقة على العرض ويحاول التمكن من هذا الدور لانه يعرف انه فى حاجة الى هذا الاتقان ليلة الافتتاح لان الخوف قد ينسيه الحوار اللازم لهذا الدور . ومعظم الناس يقدرون على الامساك بالثعبان اذا لم يسيطر عليهم الخوف ، ذلك أن هذا العمل يتطلب أن يمسك الفرد الثعبان بثبات واحكام من خلف راسه . ولكن معظمنا لا يستطيع ذلك لان الخوف يؤدى الى نقصان توقعاته الادائية.ولقد لاحظ المعالجون النفسيون منذ زمن طويل أن خفض القلق وزيادة الاسترخاء الجسمى يمكن ان ييسر الأداء . وان معلومات الاستثارة ترتبط بعدة متغيرات ، أولها : مستوى الاستثارة ونحن نعرف عادة حالاتنا الانفعالية . وترتبط الاستثارة الانفعالية فى بعض المواقف بتزايد الأداء فتلق الممثل فى ليلة الافتتاح أن لم يكن شديدا يزيد من توقعات فاعليته.والمتغير الثانى هو الدافعية المدركة للاستثارة فاذا عرف الفرد ان الخوف أمر واقعى ، فمن الطبيعى أن يعرف الفرد الذى يتود

سيارة فى طرق جبلية مكسوة بالجليد ان هذا العمل يثير خوفا عاديا ، ومثل هذا الخوف قد يرفع فعالية الشخص . غير انه حين يعرف أن من الغباء أن يخاف خوفا مرضيا من الأماكن المفتوحة او العلية فان الاستثارة الانفعالية عندئذ تميل الى انتاص الفاعلية . وأخيرا فان طبيعة العمل متغير آخر ، ذلك أن الاستثارة الانفعالية قد تيسر الاتعلم الناجح للأعمال البسيطة ، ويغلب ان تعطل اداء الأنشطة المعقدة .

فاعلية الذات كمنبىء بالسلوك :

ان فاعلية الذات ليست مثيرا لضبط السلوك ولكنها احد المؤثرات الذاتية فى سلوكنا . ومصدر الضبط لا يوجد فى المثير أو البيئة ولكنه يوجد فى التبادل الذى يحدث بين العوامل البيئية والسلوكية والشخصية.وفعالية الذات متغير شخصى هام حين ترتبط بأهداف معينة وبمعرفة الأداء فانها تسهم اسهاما هاما فى السلوك المستقبلى.ويعتقد باندورا ان الناس يحددون مستقبلهم ويشكلونه بالطريقة التى يسلكون بها وليس بمجرد التنبؤ بما سوف يحدث لهم فى موقف معين .

وباندورا ينتقد نظريات الذات كتلك التى قدمها كارل روجرز ؛ لانها تركز على مفهوم ذات مركب اكثر من تركيزها على كثير من المبادىء المحددة للذات ومفهوم فعالية الذات ليس مفهوما كليا . انه يختلف من موقف الى آخر ويتوقف اختلافه على الكفاءات المطلوبة للأنشطة المختلفة وعلى وجود أو غيبة الآخرين وعلى الكفاءة المدركة لهؤلاء الآخرين وخاصة اذا كانوا منافسين وميل الشخص الى الالتفات الى الاخفاق فى الأداء اكثر من التفاته الى النجاح والى الحالات الفسيولوجية المصاحبة وخاصة القلق وعدم الاكتراث والتنوط. (Bandura, 1982)

ان الفعالية العالية والمنخفضة ترتبط مع بيئات متجاوبة وغير متجاوبة تؤدى الى متغيرات أربعة يمكن التنبؤ بها . فمتى تكون الفعالية عالية والبيئة متجاوبة يغلب أن تكون النتائج ناجحة . وحين ترتبط الفعالية المنخفضة مع بيئة متجاوبة قد يصبح الشخص مكتئبا حين يلاحظ أن الآخرين ينجحون فى أعمال صعبة جدا بالنسبة له . وحين يواجه الناس ذوو الفعالية العالية

مواقف بيئية غير متجاوبة فانهم يكيفون جهودهم ليغيروا البيئة وقد يستخدمون الاحتجاج والتنشيط الاجتماعى Social activism أو حتى القوة لاثارة التغير، غير انه اذا اخفقت جميع الجهود فانه يفترض انهم سوف يتركون هذا المسار ويتخذون مسارا جديدا أو يبحثون عن بيئة اكثر تجاوبا . واخيرا حين ترتبط فعالية الذات المنخفضة مع بيئة غير متجاوبة فثمة تنبؤ بعدم الاكتراث والاستسلام واليأس . وعلى سبيل المثال حين تصبح صعوبات تولى ادارة المؤسسة واضحة بالنسبة لأحد العاملين لديه فعالية ذات منخفضة فانه ينمى مشاعر الاستسلام والتقاعس والاخفاق فى تحويل الجهود البناءة نحو هدف مماثل .

وفضلا عن ذلك فان باندورا وزملاءه قد وضعوا فروضا واختبروها تتناول العلاقة بين الفاعلية وعدد من الأداءات وفى مجالات مختلفة، ومراجعة نتائج بحوثهم تكشف عن وجود شاهد على وجود علاقة بين ارتفاع الفاعلية وكل من مستوى الطاقة ، والمثابرة فى الأنشطة الصعبة والمهددة، والتغيرات السلوكية الموجبة اثناء العلاج ، واعادة التأهيل الايجابى لمرضى القلب ، ونقصان الاستثارة الانفعالية ، بما فى ذلك انقاص القلق والمخاوف المرضية المختلفة . ولقد اتضح أن هناك علاقة بين انخفاض فعالية الذات وانتكاس المدخنين بعد الامتناع عن التدخين ، وتجنب انشطة الاثراء .

ولقد قدم لنا باندورا بعض التأملات المثيرة للاهتمام عن الفعالية الجمعية Collective efficacy . والبحوث فى هذا المجال ما تزال قليلة، فقد ترتبط الفعالية القومية بأحداث لا يقدر المواطنون على السيطرة عليها مثل انتشار تأثير التكنولوجيا العالية ، والتغير الاجتماعى السريع ، والفروق بين جماعات السلطة والنفوذ التى لا يمكن التوفيق بينها . والأحداث التى تجرى فى أجزاء أخرى من العالم وقد يكون لها تأثير على من يعيشون فى مناطق بعيدة عنها . (Feist, 1985, pp. 268-280)

الدوافع :

الدوافع عند باندورا تكوين معرفى وله مصدران الأول : تمثيل للنتائج المستقبلية يستطيع توليد الدوافع الحالية للسلوك . أى أن توقع السلوك المستقبلى يدفع الفرد لان يسلك بطريقة او اخرى .

والثانى أن الناس يدفعون للأداء عند مستويات معينة عندما تتحدد المرامى والأهداف أو مستويات الأداء المرغوب فيسه . ومن التجارب التى يقدمها لنا باندورا ان الاطفال الذين كان لديهم ضعف فى المهسارة فى مادة الرياضيات كانوا اكثر احتمالا لتحسين ادائهم حين ونسعوا سلسلة من الأهداف الفرعية وكافحوا لتحقيقها بحيث يتأدون فى النهاية الى تقويم ذاتى مباشر عن مدى بعد الأهداف وما اذا كان بلوغها يتطلب زمنا اطول . وهكذا فان ادراك سلوكنا على نحو مباشر والتفكير فيه والحكم عليه يزودنا ببواعث ذاتية على المثابرة فى تحقيق مستويات سبق تحديدها .

ويرى باندورا كغيره من اصحاب نظريات التعلم ان التعزيز هو سبب التعلم . غير انه يضع حيثيات وشروطا لهذه العبارة على انحاء شتى . ذلك اننا نستطيع ان نتعلم بملاحظة شخص بدلا من أن نؤدى السلوك بانفسنا ، أى اننا نستطيع أن نتعلم بالتعزيز البديل ، بل ونستطيع ان نتعلم بغير تعزيز . وحيازتنا للتعلم لا تؤدى دائما الى الأداء فالعنصر الهام كما يرى باندورا هو التوقع .

فالأداء لا يتم ولا يتحقق بالتعزيز فى ذاته بل بتوقع التعزيز . فملاحظتنا للطريقة التى يكافا بها الآخرون ويعاقبوا ، ننمى لدينا توقعات معرفية عن النتائج السلوكية وعما ينبغى أن نفعله لتحقيق نتائج مرغوب فيها او لتجنب نتائج غير مرغوب فيها . وهكذا فان التعزيز يوجه السلوك اولا من خلال توقع حدوثه المستقبلى .

ونحن ننمى أيضا توقعات عن التعزيز المستقبلى من ملاحظة نتائج انماط سلوكنا . وننمى المعايير الشخصية لسلوكنا عن طريق التفاعل مع الآباء والأتراب وغيرهم من القائمين على التربية والتعليم — اى اولئك الذين يكافئون ويعاقبون وهذه المعايير تعكس معايير هؤلاء المربين ثم نكافىء ونعاقب

سلوكنا بعد ذلك بموافقة الذات Self - approval أو بنقدها Self - criticism على النحو الذى كافأنا به الآخرون وعاقبونا . وهذا التوقع بموافقة الذات أو عقابها هو الذى يوجه سلوكنا الى حد كبير . وبهذه الطريقة يحقق سلوكنا الاتساق ولا نغيره على نحو مستمر كلما تغير المثير الاجتماعى .

وتؤكد نظرية التعلم الاجتماعى عند باندورا على التعلم بالملاحظة . ويعتمد تعلم الأطفال والكبار بالملاحظة على ما يأتى : هل انتبه الملاحظ لما عمله النموذج وادركه ادراكا دقيقا ؟ وهل تذكره تذكرا صحيحا ؟ وهل نقل ما تذكره وهو مرمز وحوله الى استجابات جديدة ؟ وهل لدى الملاحظ دافع يكفى لأداء أفعال النموذج ؟ هل يتوقع تعزيزا لهذا الأداء ؟

التعلم بالملاحظة — تنمية السلوك :

قدر كبير من التعلم من وجهة نظر باندورا يتم دون تعزيز فعلى . فى دراسة مشهورة قام بها باندورا وروس عام ١٩٦١ م . اتضح ان الأطفال لا يستطيعون أن يتعلموا استجابات جديدة بمجـــرد ملاحظتها فحسب ، بل وكذلك يستطيعون تعلم تلك الاستجابات دون أن تتاح لهم أنفسهم القيام بها ، وحتى دون أن يتلقى النموذج الذى لاحظوه أى تعزيز للاستجابة .

تعلم الاستجابة الجديدة :

لاحظت مجموعة من أطفال الحضانة كل على حدة نموذجا راشدا يقوم بسلسلة من الأفعال العدوانية الجسمية واللفظية معا نحو دمية مطاطيـــة كبيرة منفوخة . ولاحظت مجموعة أخرى من الأطفال مرة أخرى واحدا واحدا نموذجا راشدا كان يجلس فى هدوء فى حجرة تجريبية دون أن ينتبه على نحو معين للبيئة من حوله . ثم عرض كل طفل لاحبـــاط معتدل ووضع فى الحجرة وحده مع الدمية التى راها من قبل .

لقد مال سلوك كل مجموعة من الأطفال الى مسايرة سلوك النموذج الراشـــد الذى لاحظته . فالأطفال الذين لاحظوا الراشد وهو يسلك سلوكا عدوانيا نحو الدمية مالوا الى اداء افعال عدوانية نحوها بدرجة أكبر من أولئك الذين لاحظوا الراشد وهو يجلس فى هدوء واكبر من أفراد المجموعة

الضابطة التى لم ترى النموذج الراشد والحق ان الأطفال الذين شاهدوا الراشد يجلس فى هدوء كانت استجاباتهم العدوانية اقل حتى من اطفال المجموعة الضابطة .

وتتيح المهارات المعرفية الرمزية للناس ان يحولوا ما تعلموه — او ان يربطوه بما لاحظوه فى عدد من المواقف — الى انماط جديدة من السلوك ، ويستطيعون عندئذ أن ينموا انماطا سلوكية جديدة مبتكرة بدلا من مجرد تقليد ما راوه . وعلى سبيل المثال فالولد الصغير قد يلاحظ انه حين تغضب امه فانها تمتنع عن التعبير عن غضبها وتتكلم ببطء شديد وبصوت خفيض ، وقد يلاحظ ان اباه حين يغضب يبدى ملاحظات ناقدة وساخرة بصوت مرتفع . فحين يغضب هذا الولد قد يعبر عن نفسه بالجمع بين هذين النمطين من السلوك اللذين صدرا عن والديه فى نمط سلوكى خاص به . وهكذا قد يبكى اخته الصغيرة بالسخرية منها بصوت هادىء خفيض .

آثار اخرى للنمذجة :

قد يكون لنمذجة السلوك آثار اخرى غير تعلم سلوك جديد ومنها ما يأتى : —

اولا — قد يؤدى سلوك النموذج الى استدعاء استجابات موجودة اصلا فى حوزة الملاحظ او حصيلته . وهـذا النوع من التاثير محتمل حين يكون السلوك المنمذج مقبول اجتماعيا . وعلى سبيل المثال افترض ان مراهقا يقوم بقضاء الحاجات لجدته وقد لاحظ اثناء عمله هذا ان راشدا يساعد عجوزا على عبور الشارع . ان ملاحظة هذا النموذج قد تعزز ميل المراهق لأداء هذا النمط السلوكى فى المستقبل .

ثانيا — نماذج تؤدى عناصر سلوكية قد لا تكون فى حصيلة الملاحظ او قد تكون فى حصيلته وغير مقبولة اجتماعيا او منحرفة . ما تاثير هذه النماذج وانماطها السلوكية فى الملاحظين ؟ ان نزعة الملاحظين الى اداء سلوك معين قد تقوى وقد تضعف ويتوقف هذا على ما لقيه سلوك النموذج من اثابة أو عقاب . فالأطفال الذين لاحظوا سلوكا عدوانيا لنموذج يكافا على نحو

متسق أظهروا درجة عالية من العدوان ، بينما الأطفال الذين رأوا نفس السلوك يعاقب على نحو متسق لم يقلدوا هذا السلوك العدوانى .

النمذجة الرمزية :

يوجد قدر كبير من النمذجة الرمزية فى المجتمع المعاصر بطبيعة الحال ، فالأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية تعرض أمثلة لا حصر لها من الانماط السلوكية التى تؤثر فى الملاحظين . والحق أن هذه مصادر خصبة للسلوك المنمذج . ولقد وجد باندورا وأعوانه (١٩٦٣) أن النماذج الحيـــة والأفلام والرسوم المتحركة تتساوى من حيث احتمال دفعها للأطفال لتقليد الأنمـــاط السلوكية التى لاحظوها وشاهدوها .

عوامل هامة فى التعلم :

ان مشاهدة شخص يعمل عملا لا يؤدى بالمشـــاهدة بالضرورة الى تعلمه ، وقد يتعلمه ولكنه لا يؤديه فى الموقف المناسب . وثمة عامل هام فى التعلم هو الانتباه ، أى أن الملاحظ ينبغى أن ينتبه بدقة وعنـــاية الى الادلة التى يوفرها النموذج . ما الذى يدفع الشخص الى الانتباه لنموذج ؟ هناك عاملان أوليان هامان يدفعان الى هذا هما التعـــزيز أو النتائج التى حققها سلوك النموذج ، وخصائص النموذج وخصائص الملاحظ .

فاذا كوفىء سلوك النموذج فان التقليد يزداد احتمال حدوثه عما لو عوقب السلوك . ولكن تقليد سلوك النموذج قد يحدث حتى ولو لم يلاحظ الملاحظ أن النموذج قد كوفىء على سلوكه . وهذا يحدث لان الملاحظ يرى النموذج متصفا بصفات موجبة مما يدل على نجاح أسلوبه فى الحياة وهكذا يعتقد أن النموذج قد كوفىء بصفة عامة .

وخصائص النموذج كالعمـــر والمكانة الاجتماعيـــة والجنس والدفء والكفاءة صفات تتساوى فى أهميتها فى تحديد الدرجة التى سوف يقلد بها . ولقد وجد منلوف Menlove عام ١٩٦٧ على سبيل المثال أن الأطفال يـــزداد احتمال تقليدهم لأترابهم على تقليدهم للراشدين . ولقد وجد باندورا ووالن Bandura and Whalen (1977) ان الأطفال يميلون الى تقليـــد النماذج ذات

المستويات والمعايير التى يمكن بلوغها عن تقليدهم للنماذج التى تضع لنفسها معايير عالية ابعد من أن يبلغها الأطفال .

وتحدد خصائص الملاحظ وخصائص النموذج عملية التقليد . وعلى سبيل المثال فقد اتضح من احدى الدراسات ان الاطفال الاتكاليين بدرجة عالية يتاثرون بسلوك النموذج بدرجة اكبر ممن هم أقل من هذه السمة .

تعلم استجابة انفعالية :

وثمة نوع آخر من التعلم يثير الاهتمام وهو الاشراط الكلاسيكى البديل لاستجابة انفعالية . اى ان الملاحظ يتعلم ان يستجيب لانفعال معين فى موقف معين بملاحظة نموذج يستجيب بنفس الطريقة . ولتوضيح هذه النقطة نذكر ملخصا للتجربة التى قام بها باندورا وروسنتال Rosenthal عام ١٩٦٦م حيث قامت نماذج بتمثيل استجابات تالم . ولقد قيل للمفحوصين فى التجربة عن هذه النماذج انهم مفحوصون يشاركونهم فى التجربة. واتيح للمفحوصين أن يلاحظوا هذه النماذج ويشاهدوا استجاباتهم لسلسلة من ازيز الأجراس بطرق مختلفة تدل على ما يخبرون من الم . وقيل للملاحظين انه بعد كل ازيز يتعرض من يلاحظونهم (النماذج) لصدمة كهربائية شديدة (ولم يكن هذا صحيحا) .

وبعد هذه الجلسات المبدئية التى تلبع فيها المفحوصون ازيز الجرس ، والصدمة والالم بدا الملاحظون انفسهم يظهرون استجابة انفعالية شرطية لأزيز الجرس حتى فى الجلسات التى تغيب عنها النماذج . هذا على الرغم من أن هؤلاء المفحوصون (الملاحظون) لم يخبروا قط على نحو مباشر المثير المؤلم الذى تعرض له النموذج افتراضا .

تغيير السلوك غير المرغوب فيه :

ان ادراك باندورا انه يمكن اكتساب الاستجابات الانفعالية بالطرق المباشرة وبالطرق البديلة عن طريق الملاحظة البسيطة ادى به الى افتراض أن مثل هذه الاستجابات يمكن ايضا فى ظل الظروف السليمة اطفاؤها بالطريقة المباشرة والطريقة البديلة وهكذا يستطيع الافراد الذين لديهم مخاوف

غير واقعية أو مبالغ فيها أن يعادلوا هذه الاستجابات الانفعالية المبالغ فيها بملاحظة نماذج تتفاعل بغير خوف مع الموضوعات التى تخيفهم واذا حملنا هؤلاء الأفراد على ممارسة الأنماط السلوكية للنماذج تحت ارشادها يصبح من الممكن حذف هذه الاستجابات والتخلص منها .

ويناقش باندورا فى كتابه Principles of Behavior Modification « مبادىء تعديل السلوك » ، تعديل الأنماط السلوكية غير المرغوب فيها بواسطة أساليب تقوم على نظرية التعلم . ويصف دراسة هامة استخدمت اسلوبا من أساليب العلاج السلوكى يعرف بسلب الحساسية فى ظروف النمذجة (ويقتضى هذا الاسلوب حث الشخص على الاسترخاء ثم مساعدته على أن يتعلم تحمل موضوع يثير القلق) وتتالف عينة هذه الدراسة من عدد من المراهقين والراشدين الذين يعانون جميعا من مخاوف مرضية شديدة من الثعابين ، قسموا الى ثلاث مجموعات . المجموعة الأولى هى مجموعة سلب الحساسية ، وقد تمت مساعدة أفرادها على تحقيق حالة من الاسترخاء العميق ثم طلب الباحثون من المفحوصين أن يتخيلوا سلسلة من المناظر التى تتضمن ثعابين وأن يصوروا اندماجهم المتزايد مع هذه الزواحف . وعلى سبيل المثال قد يبدأ المفحوصون بتخيل انهم ينظرون الى لعبة على صورة ثعبان فى نافذة أحد المتاجر . وعندما يستطيعون تصور هذا المنظر دون أن يثير لديهم خوفا ، يطلب منهم أن يتخيلوا أو يتصوروا أنهم يلعبون بهذه اللعبة . ثم يتخيلون انفسهم وهم ينظرون الى ثعبان حقيقى فى صندوق ، ثم يتخيلون لمسه وهم يلبسون قفازات . وهكذا حتى يستطيعوا تصور انهم يمسكونه بأيديهم المجردة .

وتتألف المجموعة الثانية وهى مجموعة النمذجة الرمزية من افراد تمت مساعدتهم على تحقيق حالة من الاسترخاء العميق ثم شاهدوا فيلما يحتوى على نماذج تعاملت على نحو يزداد قربا مع ثعبان كبير . وفى المجموعة الثالثة وهى مجموعة النمذجة المشاركة لاحظ افرادها نموذجا حيا يؤدى انماطا سلوكية مختلفة مع ثعبان حى . وقد كان يطلب بعد كل تفاعل من هذه التفاعلات من أفراد المجموعة الثلثة أن يؤدوا نفس الأنماط السلوكية التى شاهدوها،وكان ذلك يتم فى البداية بمساعدة النموذج ثم بعد ذلك بمفردهم.

ولقد طلب من جميع المفحوصين فى هذه التجربة قبل المعالجات المختلفة وبعدها ان يحاولوا ان يؤدوا سلسلة من الأعمال المتدرجة التى تتضمن ثعابين حية . اما افراد المجموعة الرابعة وهى المجموعة الضابطة فقد شاركوا فى جلستى الاختبار فحسب ، اى انهم لم يتعرضوا لاية معالجة بين الجلستين .

ولم تظهر المجموعة الضابطة فى الأساس اى تغير فى السلوك وأظهرت مجموعتا سلب الحساسية والنمذجة الرمزية تزايدا ملحوظا فى ميلهم بعد المعالجة للاقتراب من الثعبان والتعامل معه . وكانت انجح المعالجات تلك التى اشتملت على نموذج مشارك ، اى تلك التى شاهد فيها المفحوصون نموذجا فعليا ثم وجهوا للتعامل مع سلوك النموذج .

وواضح أن انتفاص الخوف ، والخبرة البديلة غير كافيين لتحقيق احساس مناسب بالسيطرة الشخصية . اى انه ينبغى على الفرد ان يؤدى بنجاح فى موقف فعلى يتضمن الموضوع المخيف اذا اريد له ان يحقق هدفه . ويزداد احتمال محاولاتنا لأداء سلوك صعب او سلوك جديد اذا اعتمدنا على جهدنا الذاتى وحققنا بعض النجاح فى ادائه مما نفعل اذا استطعنا ذلك بمساعدة خارجية .

ويوضح باندورا أن النموذج المشارك لا يتيح للشخص ان يؤدى الأعمال فعلا التى تؤدى الى الهدف المرغوب فيه . ان هذا الاسلوب يشتمل على وسائل مساعدة اخرى تشجع الناس على المثابرة فى اداء العمل حتى يحسوا بالاتقان والسيطرة . ان هذا يشتمل على ملاحظة نموذج ، واداء سلسلة من الأعمال المتدرجة على فترات زمنية وزعت بعناية ، ومساعدة النموذج ، والانتقاص التدريجى لهذه المساعدة حتى تتوقف بحيث يتزايد اعتماد الأفراد تدريجيا على جهودهم . (Bandura, Jeffery and Wright, 1974)

ما الذى يحدث السلوك غير المرغوب فيه ؟ يتفق باندورا مع ايزنك على ان العلاج السلوكى ينقص على نحو فعال استجابات القلق . ولكنه لا يعتقد على اية حال ان العنصر السلوكى الذى يحدث استجابات خوف مبالغ فيها والذى يجب حذفه لكى يغير السلوك هو الضيق الانفعالى . وانما يرى

باندورا بدلا من ذلك أن المشكلة الأساسية هى اعتقاد الشخص بأنه لا يستطيع أن يعالج موقفا معينا على نحو فعال . أن التغير الذى يحقق العلاج السلوكى ينتج عن تنمية الناس لاحساسهم بفاعلية الذات وهى التوقع بأنهم يستطيعون بجهودهم الشخصية أن يسيطروا على الموقف ويتقنون العمل الذى يتطلبه ، وأن يحققوا النتائج التى يريدونها . ولقد إتضح من خلال الدراسات العلمية أن زيادة فاعلية الذات تحقق التغير السلوكى المطلوب .

نمــــو الشخصية :

يرى باندورا أن خبرات التعلم الاجتماعى تلعب دورا هاما فى نمو سلوك الشخص وفى تعديله . فالانماط السلوكية الجديدة تكتسب حين يشاهد الطفل سلوك من يعنون به ويرعونه . وكثيرا ما يكافأ تقليد الطفل لأنماط سلوك الوالدين ، ولكنه يعاقب أحيانا . ويميل السلوك المثاب إلى التكرار . وحين يؤدى فى حضرة الآخرين يتعزز ايجابيا . ونتيجة لذلك يتعلم الأطفال فى وقت مبكر من اعمارهم أن يسلكوا على شاكلة الأنماط السلوكية للنماذج الناجحة ، كما يتعلمون تجنب تقليد النماذج الفاشلة . ولسوء الحظ فان اكتساب الأشكال المعقدة من السلوك ليس بهذه البساطة ولا يحدث مباشرة . فكثيرا ما يتعرض الأطفال لنماذج متعددة تقدم لهم أنماطا سلوكية متصارعة الواحد مع الآخر . فقد يكافىء أحد الوالدين على سبيل المثال أبناءه حين يتحدثون أمام الضيوف بينما يعاقبهم الآخر على نفس السلوك . وحتى حين يكون الأب والأم على اتفاق فان هناك مربين آخرين كالمعلمين قد لا يتفقون مع ما يعلمه الوالدان وينقلون الى الأطفال هذا الاختلاف وقد يحاول الأتراب أن يلقنوا الأطفال تلقينا مختلفا . وهكذا فان تعزيز الأنماط السلوكية لا يتم على نحو متسق .

ومما يزيد الصورة تعقيدا أن السلوك لا يقلد تقليدا دقيقا ولا تاما . وينبغى أن يشكل بواسطة القائمين بالتطبيع الاجتماعى عن طريق مبادىء التقريب المتتابع التى كان سكنر من رواد القائلين بها . وتعليم الأطفال لآداب المائدة مثال واضح لضرورة تطبيق المعززات واستخدامها بطريقة تتسم

بالحذق وعلى انماط سلوكية منوعة لا تشبه فى البداية ما ينتهى اليه التعلم من اكتساب مجموعة معقدة من الأنماط السلوكية .

وبالاضافة الى التقليد والتقريب المتتابع فان باندورا يرى ان المحافظة على العناصر السلوكية التى فى حوزة الفــرد والتخلص منها يتوقف على استخدام جداول التعزيز المنوعة . وهو يرى على وجه الخصوص انه تتم المحافظة على السلوك من خلال تطبيق واستخدام جداول تعزيز يرتبط بعضها ببعض.ولتوضيح هذه النقطة يقدم لنا باندورا مثالا عن سعى الاطفال لجذب انتباه الآخرين . يقول : « فى تدريب الأطفال يشيع استخدام اكثر من جدول من جداول التعزيز معا . ولنأخذ مثالا هو سعى الأطفال الى جذب انتبـاه الآخرين . ويحاول معظم الاطفال الصغار مرات كثيرة فى اليـوم ان يثيروا استجابة العطف من قبل امهاتهم . وتستجيب الأم احيانا استجابة مباشرة ولكنها كثيرا ما تكون مشغولة . وفى فترات متباينة تكافىء الطفل فتنتبه اليه. وتميل كثير من الأمهات الى تجاهل الاشكال المعتدلة من سلوك السعى لجذب الانتباه ، ويملن الى الاستجابة حين يصبح هذا السلوك متواترا ومتسما بالشدة . ويمكن أن نتنبأ بأن أطفال هؤلاء الأمهات سوف ينشأون مثابرين فى سلوكهم الساعى لجذب الانتباه.اى ان نمطهم السلوكى سوف يحدث بنفس المعدلات وبالشدة التى كفلت من قبل تحقيق المكافأة . وقد يشك المرء فى ان معظم السلوك المثير للمشكلات قد تلقى اثابة من خلال جداول تعزيز مركبة بحيث أصبح متواترا وشديدا لما لقى من تعزيز.وهكذا نجد مثل هذا السلوك صامدا ويصعب التخلص منه ومحيرا للاباء.ولعل كثيرا من السلوك العدوانى يرجع الى استخدام جداول تكافىء الاستجابات ذات الاهميه الكبيرة ويمكن أن تكون هذه جذب الانتباه والبحث عن المعلـم وغيرها من الاستجابات الاتكالية ، ويمكن أن تكون كذلك من النوع الذى يغلب اعتباره عدوانا »

(Bandura & Walters, 1963, p. 7)

وهكذا يبدو ان المعززات توزع بطرق معقدة من قبل القائمين على عمليات التطبيع الاجتماعى . فضلا عن أن الأطفال يعملون فى مسارهم النمائى أن يستخدموا معززات لسلوكهم فى المواقف المختلفة.ويمكن اكتساب معايير لمكافأة الذات وعقابها بطرق منوعة . فقد يعلم الأطفال قواعد السلوك

على يد والديهم وعلى يد آخرين ، ويكلفأوا لاتباعها ويعاقبوا لمخالفتها والخروج عليها . وقد يتعلم الأطفال هذه المعايير من خلال الكتب التى يدرسونها والصحف التى يقرأونها والأفلام التى يشاهدونها والتلفزيون الذى يتابعونه والراديو الذى يسمعونه . وقد يتعلمونها عن طريق عمليات النمذجة .

فى أحدى الدراسات قامت مجموعة من الأطفال بالاشتراك فى لعبة البولنج المصغرة مع نماذج من الكبار ولاحظ أفرادها النموذج أو القدوة وهو يكافىء نفسه بالحلوى حين يؤدى اداء ممتازا . وقامت مجموعة ثانية بالاشتراك فى نفس اللعبة غير أن أفرادها لاحظوا النموذج وهو يكافىء نفسه على الأداء الضعيف. وبعد التعرض للنموذجين ترك الأطفال بمفردهم ليلعبوا دون وجود نماذج معهم . ولقد بينت النتائج أن الأطفال جنحوا الى أن يسلكوا وفق سلوك النموذج الذى شاهدوه . وعلى الرغم من انه قد اتيحت لمجموعتى الأطفال كميات كبيرة من الحلوى ، فان الذين لاحظوا مستويات أداء عالية كافأوا انفسهم باقتصاد وكافؤها حين بلغ اداؤهم مستوى المحك أو تعدوه ، اما الذين تعرضوا لنموذج ذى مستوى متدنى فقد كافأوا أنفسهم بكثرة على ادائهم المتدنى . (Bandura & Kupers, 1964)

ولقد قام باحثان آخران بمحاولة تحديد آثار النماذج المتعددة على السلوك وباستخدام لعبة البولنج التى سبق ذكرها . قام الراشدون فى المرحلة الأولى بالالتزام بشروط أو معايير متشددة لمكافأة الذات (اى انهم كافأوا انفسهم لبلوغهم مستوى معين من الأداء ؛ واخبروا الأطفال بأن عليهم أن يعملوا بنفس الأسلوب) أو بشروط أو معايير متسامحة لمكافأة الذات (اى أنهم كافأوا انفسهم لاحرازهم أحد معدلين فى التهديف) . وفى المرحلة الثانية من البحث قام نموذج ثانى باللعب وكان يلتزم بالمعيار المتشدد الذى وضعه النموذج الأول أو كان يخالف ذلك بمكافأة نفسه على بلوغ المستوى المتدنى. وقد بينت النتائج أن الأطفال الذين دربوا على أساس المعيار المتشدد على يد الراشد الأول والذين رأوا النموذج الثانى يلتزم بذلك المستوى تمسكوا بالمعيار ؛ اى انهم كافأوا أنفسهم حين بلغوا المستوى المتشددا

فحسب . أما الأطفال الذين دربوا أولا على أساس المستوى المتشدد ولكنهم رأوا الراشد الثانى يخالف هذا المعيار كانوا أقل رغبة فى التمسك بالمعيار المتشدد فى غيبة النماذج . لقد كافأوا أنفسهم على احرازهم نتائج مختلفة . ولهذا البحث بعض المضامين التى يجب ان نقف عندها . انها تقترح علينا او تبين لنا أن الوالدين والراشدين الآخرين الذين يفرضون قيودا سلوكية قاسية على الأطفال ولكنهم هم انفسهم لا يلتزمون بها فى سلوكهم يغلب الا ينجحوا فى تدريب وتنشئة الطفل بحيث يصبحون ملتزمين بالقواعد الاجتماعية . فليس من الصواب فيما يبدو استخدام المثل القديم « اعمل كما اقول ولا تعمل كما أعمل » لان هذا المبدا لا يؤدى الى غرس القيم الصحيحة عند الاطفال . وينبغى ان نرفع الشعار « اعمل كما اقول وكما افعل » .

ومن مضامين هذه الدراسة ايضا ما يتصل بالعلاقة بين معايير او مستويات التعلم وشعور الشخص بكفاءته. فاذا كانت المعايير او المستويات التى يتعلم قبولها عالية جدا،ويندر بلوغها فقد يعانى الفرد من هذه الخبرات الضاغطة . وفى كل هذه الظروف يشعر الفرد بالقلق والاثم والاكتئاب وجزء من هذه المأساة أن كثيرا من الناس الذين يأخذون بمثل هذه المعايير اكتساء نسبيا،ولكنهم يعيشون فى كرب مستمر لانه من النادر بالنسبة لهم أن يرضوا عن افضل ما يبذلونه من جهد ، لانهم بعد هذا الجهد الكبير يرون اداءهم دون ما ينبغى أن يكون عليه . وقد لا يقبلون مكافأة الآخرين لهم او ثناءهم عليهم . وفى مثل هذه الأحوال لا يكون للتعزيز الخارجى الا تأثير ضئيل على سلوكهم.

واخيرا على الرغم من أن باندورا يؤكد على اهمية التعلم بالملاحظة والتعلم الاجرائى وتعزيز الذات ، الا انه لا يهتم بنفس القدر بالمحددات البيولوجية للسلوك . وهو بطبيعة الحال يدرك ان العوامل الجبلية تؤثر لا محالة فى طبيعة تاريخ التعلم الاجتماعى للفرد يقول باندورا :

« ان المعالجات الاجتماعية قد يكون لها تأثير ضئيل فى بعض الخصائص البيولوجية للفرد كنمط جسمه وملامح وجهه . ومع ذلك ففى مجتمعنا الذى يعلى من قيمة امتلاك خصائص جسمية معينة : قد يتأثر تكرار المعززات الاجتماعية جزئيا بمدى الوفاء بهذه المثل العليا الثقافية . ففى أمريكا حيث نجد ان المكافآت الاجتماعية والشهرة تخلع على اصحاب القدرات

والأجسام الرياضية، فان من المتوقع بالنسبة للشباب الصغار والذين تنقصهم القوة العضلية والمهارة أو الذين يتصفون بخصائص أنثوية أن يخفقوا فى الحصول على معززات ايجابية من أترابهم . وبالمثل فان الانثى التى لا تبلغ مستويات الجمال التى يحددها المجتمع سوف تحصل على الأغلب على تعزيز ايجابى قليل وخاصـــة من الرجـــال وذلك اذا قورنت بالأنثى التى تمتلك الخصائص المعززة اجتماعيا . فالانثى الرقيقة الصغيرة الحجم تلقى الاعجاب فى الثقافة الامريكية . وقد تلقى تعزيزا أقل من ثقافات أخرى بل وقد تجد معاملة تتسم بالمضايقة فى تلك الثقافات التى بها قصور فى أساليب توفير العمالة » . (Bandura & Walters, 1963, pp. 26-27)

فالعوامل الجبلية لها تأثير غير مباشر فى النمو ، ليس ذلك فحسب بل ان العوامل البيوكيمائية لها أثر مماثل. وعلى الرغم من ادراك دور البيولوجيا فى نمو الشخصية الا انه قلل من اهميتها فى نظريته لانه يرى أن المعرفة المتوافرة لدينا عن طرق تأثير البيولوجيا فى الادراك محدودة . وترتيبا على ذلك فانه يرى أن من الأجدى أن ندرس دور متغيرات التعلم الاجتماعى فى نمو الشخصية . (Rayckman 1985, pp. 372-375)

العـــــلاج النفسى :

ان الانحراف السلوكى من وجهة نظر باندورا لا يرجع الى ضعف فى الخلق أو الى سيطرة دافع واحد على الفرد أو الى خبرات طفلية تعســـة . وانما ينشأ هذا الانحراف على أساس مبادىء التعلم الاجتماعى . ويبقى أو يستمر لانه يؤدى وظيفة معينة . ويصعب تحقيق تغير الســـلوك عن طريق العلاج لانه يتطلب حذف الأنماط السلوكية التى ارتبطت بظروف مشبعة أى ارتبطت بالتعزيز . فالتدخين والنهم لهما آثار ايجابية فى البداية ، وما يترتب عليهما من آثار منفرة لا يكفى لاحداث سلوك التجنب .

ان الهدف النهائى للعلاج ان يقوم الفرد بتنظيم نفسه ، ولتحقيق هـــذه الغاية لا يقوم المعالج باستخدام استراتيجيات صممت لاحداث التغير السلوكى فحسب بل استراتيجيات تحدث التغيير وتحافظ عليه . ان التأكيد يوجه الى

الانجازات الأدائية وليس الى علاج المرضى أو تيسير انجازات غامضة كتحقيق الذات .

ويرى باندورا أن هناك ثلاثة مستويات لانجاز العلاج . المستوى الاول هو الحث على التغيير واحداثه . واذا اريد أن يكون للعلاج اى درجة من الفاعلية ، فلا بد أن يستثير بعض التغير فى السلوك . وعلى سبيل المثال اذا امكن اطفاء استجابة خوف للأماكن المرتفعة ، فان الشخص الذى كان لديه مثل هذا الخوف المرضى من قبل يستطيع ان يرقى سلما يبلغ ارتفاعه عشرين قدما . وهكذا نستطيع ان نتبين ان تغيرا طرأ على سلوكه. والمستوى الثانى من الانجاز العلاجى هو التعميم . فالشخص الذى كان يخاف من الأماكن العلية لا يستطيع أن يصعد السلم فحسب بل يعمم هذا السلوك ليشمل مواقف اخرى . وهذا المستوى اكثر فاعلية من مجرد حدوث التغير، انه يتيح للشخص أن يستقل الطائرات وان ينظر من خلال نوافذ المبانى العالية . وتحدث بعض انواع العلاج التغيير او تستحثه وتيسر التعميم غير أنه قد تضيع آثار العلاج بمضى الزمن ويعيد الفرد اكتساب السلوك المخل بوظيفته . ويصدق هذا على وجه الخصوص بالنسبة لاطفاء العادات التى تسىء الى التوافق كالتدخين والنهم فى تناول الطعام . واكثر انواع العلاج فاعلية هو ذلك الذى يبلغ المستوى الثالث وهو المحافظة على السلوك الوظيفى الذى اكتسبه الفرد .

ولما كان السلوك الذى يؤدى الى خلل وظيفى ينتج عن حتمية تبادلية فان الاحتمال القائم بحدوث سلوك معين يتفاوت تفاوتا كبيرا فى المواقف البيئية المختلفة وبتفاوت الأشخاص والأزمنة . ان التصور العريض لكل من السلوك غير المتوافق والعلاج يتيح لنا تنوعا فى الاساليب العلاجية والاستراتيجيات . والمحك الأول لاى مدخل هو ان هذا المدخل يحقق تغيرا فى السلوك وبعد ذلك تبرز اهمية التعميم والمحافظة على التغيير . ويصبح التعميم والمحافظة على التغير هدفين هامين . ويقترح باندورا مداخل عدة اساسية للعلاج ومن بينها اسلوب النمذجة البديلة أو الصريحة . ومما يساعد على اطفاء القلق وانتقاص الخوف ملاحظة نماذج حية او مصورة فى افلام وهى تؤدى انشطة مهددة. وقد يتيح انتقاص القلق والخوف للملاحظ ان يؤدى بعض

هذه الأنشطة . والمدخل الثانى هو النمذجة المعرفية أو الضمنية . وهـذه الطريقة فى العلاج تعنى ان يدرب المفحوصون على أن يتصوروا نماذج تؤدى الانماط السلوكية المخيفة . والنمذجة الصريحة أو الضمنية استراتيجيتان من اكثر الاستراتيجيات العلاجية فاعلية حين ترتبطان بمداخل ذات توجه ادائى.
(Feist 1985, pp. 288-289)

طرق البحث والبحوث المميزة :

ترتبط نظرية باندورا ارتباطا وثيقا بالبحوث ولقد لخصنا طرفا منها . وسوف نتناول هنا فى ايجاز شديد اسلوبه فى البحث .

ان باندورا لا يستخدم تحليل الاحلام ولا التداعى الحر ولا اى اسلوب آخر مما يستخدمه الديناميون للكشف عن خفايا النفس الانسانية ويبدو انه أيضا لا يهتم على وجه الخصوص باستخدام استخبارات الشخصية لقياس متغيراتها ؛ وان لم يستبعد استخدام بعض هذه الأدوات التى تتميز بالثبات والصدق حين يجد ذلك مساعدا له على فهم السلوك كاستخدامه لمقياس روتر . Rotter's Internal - Extrenal Scale

ويكرس باندورا جهده للكشف عن خصائص مشكلات واقعية يتناولها بالدراسة فى المعمل . ولقد استطاع فى هذا الموقف أن يدرس ظاهـرات كالعدوان والمخاوف المرضية ؛ واستطاع ان يحقق الشفاء لبعض المرضى من النوبات القلبية وان يساعد الأطفال على اكتساب المهارات فى الرياضيات . وعلى الرغم من أن عمله قد يبدو فى بعض الأوقات منصرفا الى البرهنة على صحة فكرة نظرية أكثر منه الى معرفة وفهم الظاهرة موضع الاستقصاء والفحص . الا ان هدف باندورا هو أن يزودنا بإطار تصورى موحد يمكن أن يضم أشكالا متنوعة عن التأثير الذي يعدل السلوك . وليس من شك فى أن المهارات والفاعلية الذاتية التى تضمن الاستخدام الأمثل للقدرات مطلوبة للأداء الناجح فى اى نشاط .

ولقد اثارت نظرية باندورا عن التعلم الاجتماعى قدرا كبيرا من البحوث أسفرت عن نتائج وكشفت عن شواهد دعمت مناحيها ومبادئها الأساسية . ولقد تركزت معظم البحوث على التثبت من صدق دور التعلم بالملاحظة فى

اكتساب السلوك الانسانى وفى المحافظة عليه وفى تعديله . وهذه البحوث طورت معرفتنا عن كيفية تأثير النماذج الوالدية وممارستها فى النمو الاجتماعى للأطفال ، وكيف نكتسب اللغة وعمليات التفكير وكيف يمكن استخدام تعزيز الذات فى علاج أنواع مختلفة من المشكلات النفسية . ولقد قام باندورا بدراسات كثيرة تبين اهمية التعلم بالملاحظة فى اكتساب السلوك العدوانى وفى تعديله.أن هذه الدراسات والبحوث تدل بوضوح على ان لنظرية باندورا اساس امبيريقى وأن من المعقول ان تزدهر البحوث وتستمر فى اطار هذه النظرية .

ان باندورا فى الاساس يستخدم الطريقة الاستقرائية . ويضع فروضا قابلة للاختبار مشتقة من نظريته العامة ثم يجمع بيانات من افراد وجماعات ليتثبت من صدق نظريته . والطريقة المنهجية التى يستخدمها فى دراسته للتعلم بالملاحظة تقضى أن يلاحظ المفحوص سلوك نموذج ثم يختبر فيما بعد بقصد تحديد انماطه السلوكية عندما يوضع فى موقف مماثل للموقف الذى لاحظ فيه النموذج او القدوة من قبل . ولقد بذل باندورا جهودا مكثفة لكى يوفر الموقف التجريبى نفس الشروط أو الظروف التى توجد فى البيئة الاجتماعية الحقيقية . ولقد درس باندورا عينات من جميع الأعمار بدء من سن ما قبل المدرسة وحتى سن الرشد . وهذا من العوامل التى تتيح لنتائجه الامبيريقية مزيدا من القابلية لتمتد وتعمم وتشمل العالم الواقعى . ولقد أجريت هذه الدراسات التى تناولت عمليات التعلم بالملاحظة وتأثيرها فى السلوك الانسانى على اساس منهجى جيد الاحكام ومع الالتزام بتقاليد علم النفس الاجتماعى التجريبى .

ولقد أخذ باندورا بمدخل تحليلى مصغر فى اجراء البحوث والدراسات . أن هذا المدخل يتضمن أو يتطلب التقدير والقياس التفصيلى بحيث يمكن دراسة مدى التطابق بين الادراك الذاتى والسلوك عبر الزمن .

ويرى باندورا أنه من الضرورى بالنسبة لكل خطوة من خطوات أداء العمل وخلال الجهود التجريبية أن نبذل الجهد لقياس الوسائط المتوسطة والتى كثيرا ما تكون عمليات معرفية . ان استراتيجية باندورا البحثية هى ان يتابع التغيرات عبر الزمن ، اى ان يقدر العملية ولا يكتفى بتقدير الهدف النهائى .

ويذهب بعض النقاد الى أن نظرية باندورا تواجه صعوبة فى محاولاتها لتفسير كيف تؤثر المتغيرات المعرفية المختلفة فى السلوك ، بل ويرون أن مثل هذه التكوينات المعرفية غير ضرورية لتفسير السلوك .

ومهما يكن من شيء ، فان أبحاث باندورا المعملية تعكس ولاءاته المبكرة لعلم النفس التجريبى ولنظرية التعلم . غير أن تدريبه كعالم نفس اكلينيكى كثيرا ما تأدت به الى استخدام أنماط سلوكية ومواقف يشيع وجـودها فى الموقف الكلينيكى.ولقد اهتم باندورا اهتماما كبيرا بموضوعات تتضمن أفكارا مثل فاعلية الذات ، والنمذجة والتعلم بالملاحظة . وجهوده فى دراسة هذه الأفكار وغيرها كانت موجهة كلها الى فهم شروط التعلم التى على أساسها يغير الناس سلوكهم ، ويكتسبون سلوكا جديدا . ومن المجالات التى أهتم بها مع أعوانه التقليد ، والتوحد ، والتعزيز الاجتماعى وتعزيز الذات .

المكانة الراهنة والتقويم :

من مزايا هذه النظرية ما يأتى : —

— أن فكرة التعلم بالملاحظة تتسق مع الخبرة والمنطق وقد قدم لنـا فرويد نفس الفكرة عندما تحدث عن التوحد أو التقمص ، كما أن فكرة بياجية عن التعلم بالملاحظة لها نفس نكهة فكرة باندورا ، كما أن تصور وليم جيمس عن التعلم لا بد وانه اثر فى أن يجىء فكر باندورا غرضيا .

— من المعقول أن نتعلم بملاحظة شخص آخر وتقليده . ألم يولد الأطفـال مقلدون ؟ وفضلا عن ذلك فاننا نعرف أننا نستطيع أن نتعلم دون تعزيز.

— فكرة باندورا عن التعلم بالملاحظة مفيدة فى العلاج النفسى وفى الارشاد النفسى وفى كثير من المواقف التعليمية والتدريسية . وقـد لا تبرهن قابلية النظرية للتطبيق على مصداقته النظرية ، ولكنها تقيم الدليل على قيمتها .

— يتشكك باندورا فى التسليم بأى فكرة فى نظريته ما لم تثبت مصداقيتها تجريبيا وتعتبر تجاربه نماذج جيدة من حيث التصميم وضبط المتغيرات .

وفضلا عن ذلك فانه يجرى تجاربه على الناس فى مواقف شبيهة بمواقف الحياة وليس فى مواقف تجريبية مصطنعة . والشواهد المتوافرة على دعم نظرية باندورا كثيرة فثمة اختبارات امبيريقية لا حصر لها لنظريته والنتائج حتى الآن مشجعة . وعلى سبيل المثال لقد كشفت الدراسات التى اجريت على التعلم بالملاحظة عن اهمية النمذجة فى قولبة السلوك والمحافظة عليه وتغييره . وعلى الرغم من ان معظم هـذه البحوث قد استخدمت النمـذجة للتخلص من المخـاوف ومن القلق والاضطرابات السلوكية ، الا ان مبادىء قولبة السلوك قد طبقت فى دراسـة الانماط السلوكية غير العصابية . بالاضافة الى انه امكن اشتقاق اسـاليب علاجيـة سلوكية اخـرى من نظـرية التعلم الاجتماعى واسـتخدامها استخداما ناجحا فى معالجة مشكلات عديدة . وبصفة عامة يتوافـر الصدق الامبيريقى لموقف باندورا النظرى .

— ان فكر باندورا الاسـاسـى له مضامين ديمقراطية . ذلك ان تأكيده الشديد على الاتجاه البيئى (مقابل الاتجاه الوراثى) يعنى انه متفائل عن امكانية استعادة الصحة لكل شـخصية مبتئسـة . انها فلسـفة مسـاواة مع ايمان عميق بالتربية .

ومن عيوب هذه النظرية ما يأتى : —

— ان فكرته الاسـاسية لا تفسر حقيقة الظواهر السلوكية . فمفاهيم مثل النمذجة والمشـاركة البديلة ما هى الا عناوين لظـاهرات ولا تفسر تلك الظاهرات . كما ان القدرة على التنبؤ عن شىء لا يعنى اننا نفهمه . فقد يستطيع باندورا ان يخبرك بالظروف التى يحتمل ان يحدث التقليد فيها ، ولكنه لا يخبرك قط بالأسباب التى تحملنا على التقليد .

— ان فكـرة باندورا الاسـاسـية لا تصلح اسـاسـا لنظرية شـاملة فى الشخصية . فباندورا ليس لديه تصور عميق عن الدافعية ، ولا يفسر لنا لماذا يجد الناس اشياء معينة معززة . كما انه ليس لديه نظرية فى النمو تبين لنا كيف ينمو التعلم بالملاحظة وينضج . وليس لديه تصور عن بناء الشخصية لانه يكره مدخل السمات لان السمات المقـدرة لا تنبىء

بالسلوك على نحو فعال كالعوامل الموقفية . والنظريات السيكودينامية من وجهة نظره التى لا يمكن البرهنة على صحتها امبيريقيا قاصرة فى قدرتها التنبؤية . ويبدو أنه يشعر بصفة عامة ان الأفكار الخاصة ببنية الشخصية غير ضرورية ، وخاصة أنه مهتم بالتنبؤ بالسلوك وبتغييره . ونحن نعجب أين نجد الشخص فى نظرية باندورا . ان مجموع افكار باندورا اذا جمعت معا لا تؤلف شخصا كاملا . ففكرة باندورا الأساسية لا تصلح أساسا لنظرية شاملة فى الشخصية ، وانما تصلح فى احسن الحالات أن تكون اساسا لنظرية مجزأة فى الشخصية . اى ان نظرية باندورا ليست نظرية شاملة كنظرية فرويد وانما هى نظرية مصغرة . فهى لا تجيب عن جميع الاسئلة التى يمكن ان نثيرها عن الشخصية .

— على الرغم من جهود باندورا فى التاكيد لنا بأن معدلى السلوك لا يتحكمون فى الناس ولا يسيطرون عليهم كما يتحكم الفرد فيما يجرى على مسرح العرائس بتحريك الخيوط التى يمسكها الا ان نظرية باندورا حتمية . انها نظرية تستهدف التنبؤ بالسلوك وضبطه ولا تفسح المجال لحرية الارادة . فوفقا لباندورا اذا كان فى الامكان أن نعرف تاريخ التعلم الاجتماعى الكلى للفرد حتى اللحظة الراهنة فاننا نستطيع ان نتنبأ بفعله الآتى بيقين مطلق . فأين المجال لحرية الارادة اذا كان هناك فعل تال ولا شىء غيره بالنسبة لهذا الشخص ذى التاريخ المحدد من التعلم الاجتماعى .

— وعلى الرغم من أن القيمة التطبيقية لنظرية التعلم الاجتماعى عالية فى مجال المرض النفسى ، حيث ان مبادىء التعلم الاجتماعى قد استخدمت بنجاح فى علاج مشكلات سلوكية منوعة الا ان ثمة مشكلتان يحولان دون أن تكون للنظرية قيمة تطبيقية بارزة . المشكلة الاولى تتصل بمدى استقرار وثبات التغيرات السلوكية التى تنتج عن العلاج بها . ذلك أن معظم الدراسات بينت ان اثار العلاج السلوكى مؤقتة . وباندورا معنى بهذه المشكلة ؛ وهناك باحثون آخرون يجرون بحوثا للتغلب على هذه المشكلة .

والمشكلة الثانية هي نقصان الشواهد الراسخة الدالة على قابلية الآثار العلاجية للتعميم أى قابليتها لان تتعدى المواقف المعملية الى المواقف الطبيعية . أى اننا اذا انقصنا عدوان الشخص عن طريق استخدام النمذجة فى موقف كلينيكى ، هل يسلك هذا الشخص على نفس النحو أى سلوكا اقل عدوانية فى علاقته بمن يتعامل معهم فى حياته اليومية ؟ ان البحوث المتوافرة والتى تتصدى لهذه المشكلة ما تزال قليلة . ويبدو واضحا أن بعض الباحثين بدأ يولون هذه التنسية اهتمامهم .

وليس من شك فى ان بحوث باندورا فى مجال العدوان قد زادت من فهمنا لأصول هذا السلوك ، وزودتنا باستبصارات بالطرق التى يمكن بواسطتها تعديل هذا السلوك وضبطه . ولسوء الحظ فان محصلين هذه النتائج لم تستخدم استخداما تاما من قبل المؤسسات والاجهزة التعليمية والتدريبية والاصلاحية ومن قبل واضعى السياسات ، هذا على الرغم من محاولات باندورا المستمرة وزملائه لنقل هذه المعلومات ونشرها واحداث التغييرات التى تتسق معها . وبصفة علمة يبدو من المعقول أن نقرر أن نظرية باندورا قد قدمت لنا حلولا جديدة لمشكلات هامة ، ولكن قيمتها التطبيقية ينبغى أن تتزايد بروزا ووضوحا .

الفصل الرابع عشر

كيرت ليفين

ولد كيرت ليفين فى موجيلنو Mogilno فى بولندا عام ١٨٩٠ م وكان ترتيبه الثانى فى اسرة لها اطفال اربعة . وعلى الرغم من ان ابا ليفين كان قائدا فى المجتمع المحلى ، وكان يعمل بالزراعة ويملك متجرا الا انه انتقل مع اسرته الى برلين عندما بلغ كيرت الخامسة عشرة من عمره وذلك حتى يوفر لابنائه تعليما افضل .

وبعد ان اتم كيرت تعليمه الثانوى التحق بجامعة برلين حيث درس علم النفس على يد عالم نفسى تجريبى مشهور آنذاك هو كارل ستمبف K. Stumpf وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩١٤ م وخدم فى الجيش الألمانى خلال الحرب العالمية الأولى أربع سنوات . وحين عاد الى برلين انضم الى هيئة التدريس بالمعهد السيكولوجى وبقى هناك عدة سنوات . وفى عام ١٩٢٦ عين استاذا للفلسفة وعلم النفس واستمر بهذا المنصب حتى عام ١٩٣٣ . وفى تلك الفترة تزوج وكان ذلك عام ١٩٢٨م وانجب اربعة اطفال . وعندما تولى هتلر حكم المانيا ، كان ليفين استاذا زائرا فى جامعة ستانفورد ، فعاد الى المانيا فترة قصيرة ليصحب أسرته لتقييم معه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد عمل استاذا لعلم نفس الطفل فى جامعة كورنل فى الفترة مابين ١٩٣٣ ، ١٩٣٥ م . واصبح استاذا لعلم النفس بجامعة أيوا فى مركز رعاية الطفل حيث قام بعمل علمى رائد هو ومجموعة من طلاب الدراسات العليا فى مجال بحوث الفعل ودراسة ديناميات الجماعة .

وقد انتقل عام ١٩٤٥ مع مجموعة من طلابه الى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ، حيث اسس مركزا لبحوث ديناميات الجماعة وكان اول مدير له . واستمر يعمل به حتى وفاته فى ١٢ فبراير ١٩٤٧ وكان فى السادسة والخمسين من عمره .

وخلال ثلاثين عاما من النشاط العلمى تغيرت اهتمامات ليفين وتنوعت

موضوعات بحوثه عدة مرات.لقد اهتم فى البداية بدراسة العمليات المعرفية فى التعلم والادراك وتحليلها ، وبديناميات الدافعية الفردية والانفعال ثم بالعمليات البين شخصية من ثواب وعقاب وصراع وتأثير اجتماعى . وقام فى المرحلة التالية من حياته العملية ببحوث عن ظاهرات جماعية كالقيادة والجو الاجتماعى ومعايير الجماعة والقيم واثار عديدا من البحوث فى هذا المجال . وفى النهاية عمد الى فحص القيود الاجتماعية التى فرضتها التكنولوجيا والاقتصاد والقانون والسياسة على الجماعات . وعلى الرغم من تغير اهتماماته ونموها ؛ الا انه التزم دائما بفكرة نظرية اساسية وهى انه لكى يمثل بأمانة تعقيد الواقع وموافقة الفيانية فان ذلك يقتضى اختراق الحدود التقليدية للعلوم الاجتماعية وعدم حصر المفكر لفكره وتحديده لانتباهه وقصره على عدد محدود من المتغيرات .

ولقد ظهرت للنظرية التى تأخذ بهذا المنظور تسميات مختلفة على يد ليفين وعلى يد آخرين وهى « النظرية الديناميسة » ، « وعلم النفس الطبولوجى » ، « ونظرية المجال » وكان ليفين يفضل فى نهاية الأمر التسمية الأخيرة . ويقصد بذلك فى ايجاز ان الاحداث والوقائع تتحدد بقوى مؤثرة فى المجال المباشر وليس بقوى تؤثر فيها عن بعد . ويمكن أن تعتبر نظرية المجال طريقة لتحليل العلاقات العلية ولبناء التكوينات العلمية ، أى نظرية عن بناء النظرية وما بعد النظرية . وفى نفس الوقت فان نظرية ليفين عن المجال هى مجموعة من التكوينات تم تطويرها من خلال البحث الامبيريقى لوصف الظاهرات النفسية والاجتماعية وتفسيرها .

وسنتناول فى هذا الفصل نظرية ليفين فى بناء الشخصية وديناميانها ونموها ، كما سنتناول بعض امثلة قليلة للبحوث التى اجريت فى اطار هذه النظرية وارتبطت بها . وننهى الفصل بتقويم النظرية .

بناء الشخصية :

يطلق ليفين على المجال النفسى لنظريته حيز الحياة Liffe space وحيز حياة الشخص هو المجموع الكلى للوقائع التى تؤثر فى سلوكه فى لحظة معينة . وقد يشتمل حيز حياة الشخص على سبيل المثال على ادراكه لنفسه

فى بيئته الفيزيقية والاجتماعية وعلى حاجاته ورغباته ومقاصده وذكرياته عن وقائع ماضية معينة وتخيلاته لوقائع مستقبلية واى انفعالات يشعر بهـــا وهلم جرا .

ولنتأمل على سبيل المثال حيز الحياة بالنسبة لشاب يجلس فى صف دراسى باحدى الكليات فى صباح أحد أيام الربيع . ان حيز حياته قد يشتمل على احساس عام بهويته وبما يجرى فى الصف وبجلسته فيه . ومن الملامح البارزة فى حيز حياته الاستاذ الذى يلقى درسا عن تاريخ أوربا وهــــو لا يصغى لما يقوله فى هذه اللحظة ، أن حيز حياته لا يشـــتمل على تمييزات منفصلة تتصل بما يلقى عن تاريخ اوربا وهذا ما سوف يتضح فى الاختبار فى الاسبوع القادم . وقد يشتمل حيز الحياة فتانا على وقائع متخيلة تتصـــل بمباريات كرة القدم بالجامعة ، وبالمباراة التى ستجرى بعد ظهر اليوم وقد يتخيل نفسه مسجلا لهدف فى هذه المباراة .

ان حيز الحياة بالنسبة لاى شخص فى لحظة معينة ينقسم الى مناطق فالاستاذ فى المثال السابق يمثل احدى هذه المناطق ، ومباراة كرة القـــدم تمثل منطقة اخرى ، والشاب نفسه يمثل منطقة ثالثة فى حيز الحياة وهذه المناطق قد تنقسم بدورها الى مناطق فرعية .

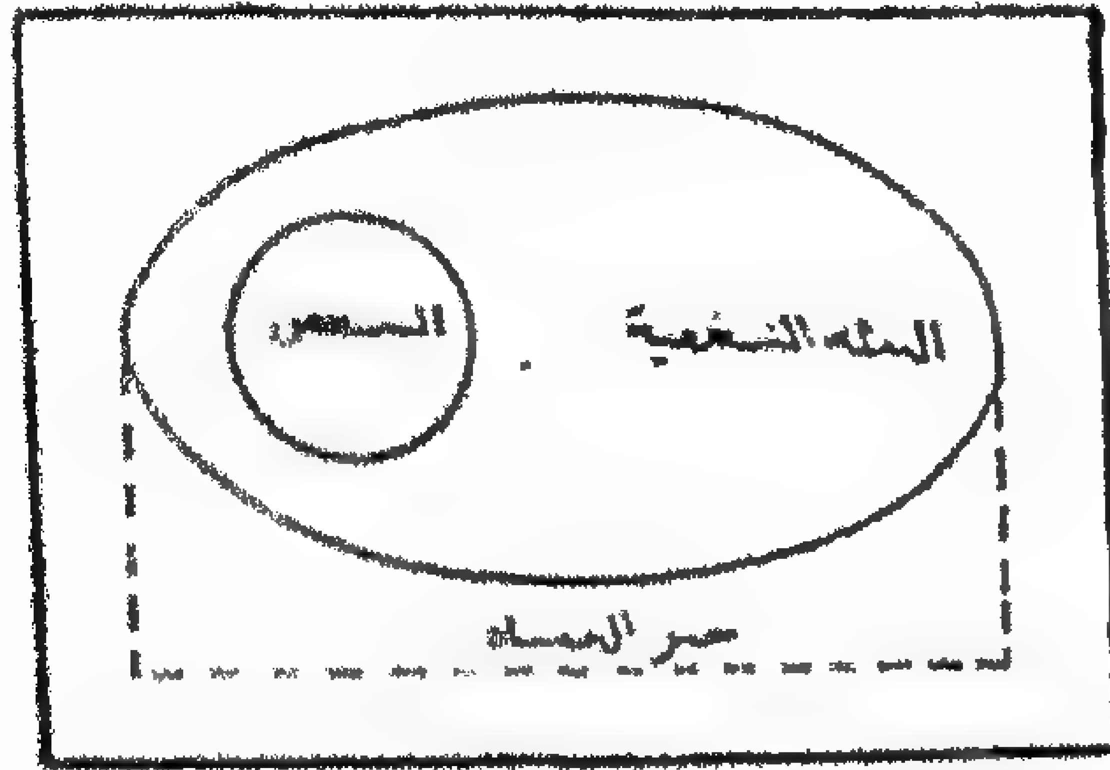
ان المدخل الرياضى الذى يستخدمه ليفين لمعالجة حيز الحياة يقوم على فرع من فروع الرياضيات يعرف بالطبولوجيا . وهذا الفرع يركز على العلاقات بين الأشياء ، والعلاقات بين الجزء والكل والاتصالات القائمة بين المجالات المكانية وهلم جرا بدلا من أن يركز على الحجم والشكل . وهكذا فبدراسة هذه الرسوم البيانية ينبغى أن يركز القارىء على الروابط بين المناطق وعلى الاتصالات بينها بدلا من أن يركز على الأشكال والأبعاد التى تستخدم لتمثيل هذه المناطق . ومن اكثر التقسيمات الأساسية فى حيز الحياة تقسيمه الى شخص وبيئة سيكولوجية (شكل ١ — ١٤) وسوف نتناول كل قسم من هذه الأقسام فيما يأتى : —

الشخص : يمثل ليفين الشخص عادة بدائرة مغلقة ، مبينا ان الشخص وحده منفصلة عن كل شىء آخر فى العالم ، ومع ذلك فهو مشـــمول فى

العالم . ووضع الدائرة فى شكل بيضاوى اكبر يبين أن الشخص متمايز عن حيز الحياة ، وداخل فيه ؛ ذلك الحيز الذى يشمل كل ما يوجد داخل هذا الشكل البيضاوى .

(شكل ١ — ١٤)

يوضح أن حيز الحياة يتألف من شخص وبيئته السيكولوجية

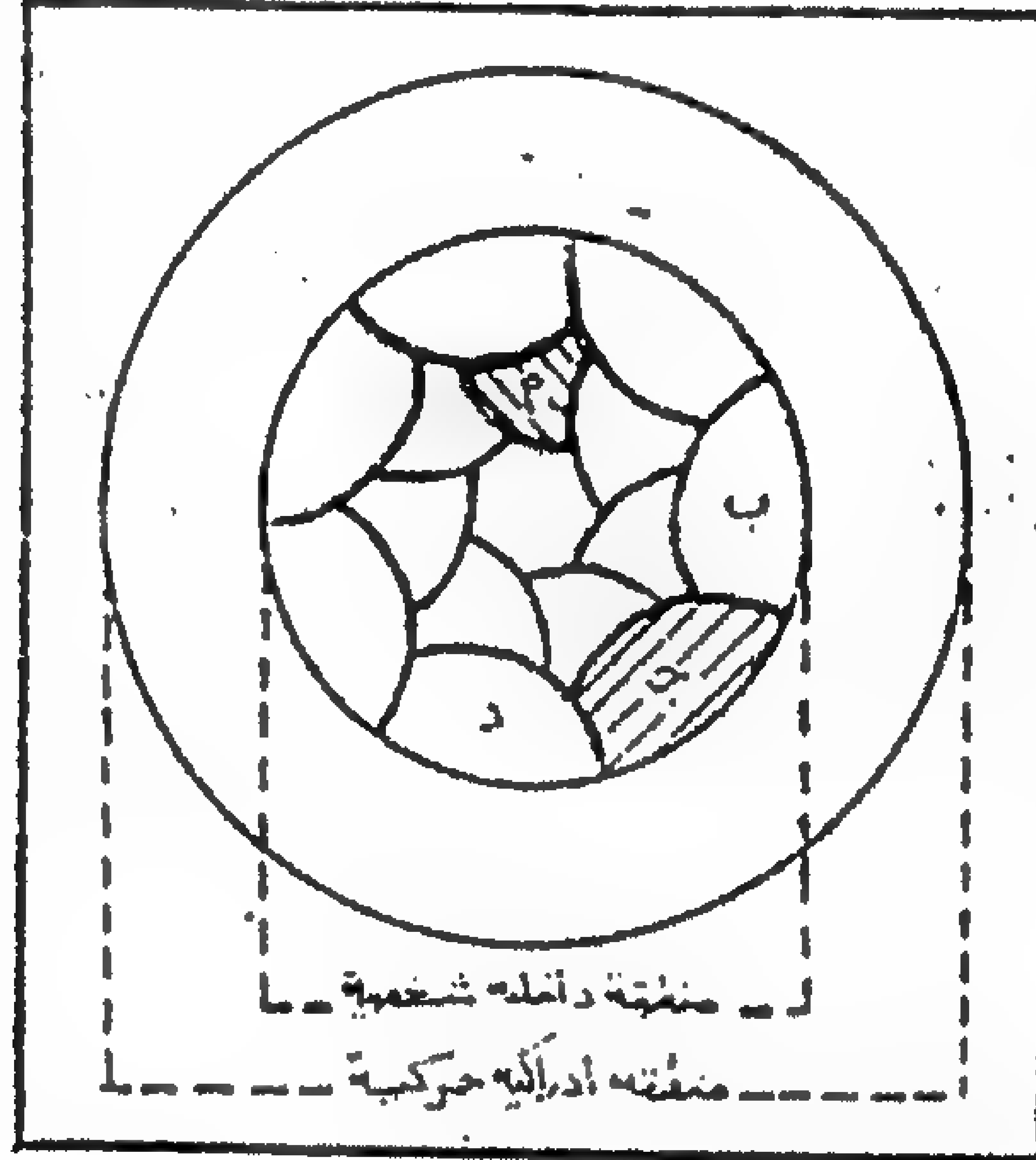


والشخص ليس منفصلا عن البيئة فحسب بل هو متمايز متفاضل داخل نفسه ويرى ليفين أن الشخص ينقسم الى منطقتين اساسيتين : المنطقـــة الادراكية — الحركية وهى الجزء الخارجى الطرفى فى الدائرة ؛ والمنطقة الداخلية الشخصية وتمثل الجوانب الدافعية وتقع فى المركز . ومعنى هذا ان المنطقة الادراكية الحركية تحيط بالمنطقة الداخلية الشخصية بحيث لا تتيح لها فرصة الاتصال بالحدود التى تفصل الشخص عن البيئة . والنظام الادراكى الحركى غير موضح التكوين ، غير انه عندما يكون اتجاه التأثير من البيئة الى الشخص فان المنطقة المحيطة بالمجال الشخصى تمثل الادراك ، وعنـــدما ينعكس اتجاه التأثير فان نفس المنطقة تمثل الحركة .

لاحظ أن الشكل (٢ — ١٤) يستخدم خطوطا ثقيلة وخطوطا خفيفـــة لتوضيح الحدود بين الخلايا والمناطق الفرعية للمنطقة الشخصية الداخلية . ومن الخصائص الهامة لخط الحدود قابليته للاختراق او للنفاذ . والسهولة النسبية التى يمكن للمناطق على جانبى الخط ان تؤثر احداها فى الاخـــرى وتتصل بها . ان الشكل (٢ — ١٤) يبين لنا ان الخلايا كلها ليست ميسرة ومتاحة للأخرى بالتساوى . وعلى سبيل المثال فان الخلية (د) والخلية (جـ)

تمثل حاجتين لدى هذا الشخص احداهما للانجاز الاكاديمى والأخرى للاشباع الجنسى وهما مستقلتان الواحدة عن الأخرى . ولكن المنطقة (ج) ، والمنطقة (ب) تمثلان الحاجة للعطف والحب وتتفاعل كل منهما مع الأخرى تفاعلا مشتركا والاتصال بينهما وثيق . وتمثل الخلية (أ) الخوف من الأماكن العالية وهى منعزلة أو منفصلة عن بقية نظام الشخص الدافعى .

شكل ٢ ـ ١٤ يوضح ان الشخص ينقسم الى منطقة داخلية شخصية ـ وأن هذه تنقسم الى خلايا وأن الخطوط الثقيلة تعني استقلالية الخلية أو انعزالها ـ والى منطقة ادراكية حركية



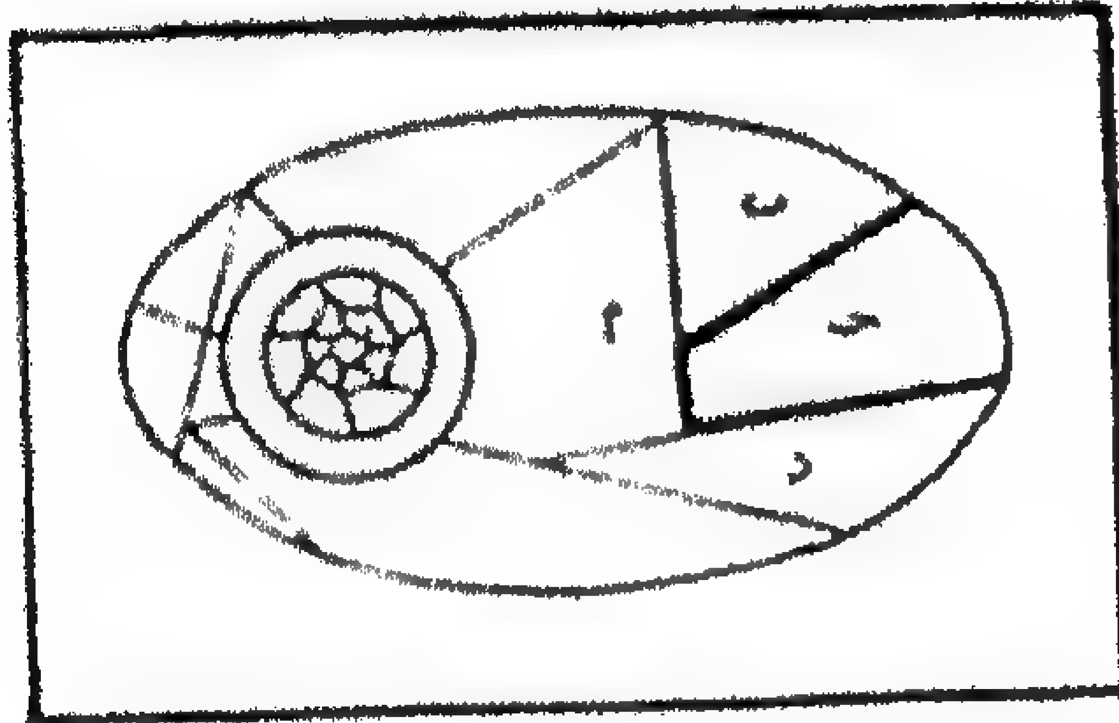
البيئة السيكولوجية : تمثل البيئة السيكولوجية بشكل بيضاوى يحيط بالدائرة التى تمثل الشخص . والمساحة الموجودة داخل الشكل البيضاوى وخارج الدائرة هى البيئة السيكولوجية ، والمساحة الكلية داخل الشكل البيضاوى تؤلف كما قلنا حيز الحياة (الشكل ١ — ١٤) .

ويبين الشكل (٣ — ١٤) البيئة السيكولوجية وهى مقسمة الى مناطق وليس هناك فرق بين تفاضل البيئة وتفاضل الشخصر . ولا يلزم أن نفرق بين انواع مختلفة من مناطق البيئة لانها لا تحتوى على ما يمكن مقارنته

بالمنطقة الادراكية الحركية والمنطقة الداخلية الشخصية . ويلاحظ من دراسة الشكل أن بعض الحدود قابلة للاختراق او النفاذ (خطوط رفيعــة) وان البعض الآخر خطوط ثقيلة مما يدل على عدم قابليتها للاختراق او النفاذ . ومعنى هذا ان بعض المناطق من عوالمنا يمكن ان تؤثر فى الاخرى والبعض الآخر لا يحدث هذا التاثير . وعلى سبيل المثال فان المنطقة (ج) تمثل اسرة الشخص وهى ليست متاحة للمناطق (أ) ، (ب) ، (د) ،التى تمثل انشطة يمكن أن يقوم بها الشخص مع أصدقائه .

(شكل ٣ — ١٤)

يوضح أن البيئة السيكولوجية مقسمة الى مناطق



وان بعض الحدود
قابلة للاختراق
(خطوط رفيعه)
وأن البعض الآخر
ليس كذلك ،

حيز الحياة : من اشهر معادلات ليفين المعادلة B = F (P.E)

اى أن السلوك وظيفة لكل من الشخص والبيئة او انه وظيفة لحيز الحياة . ويتألف حيز الحياة من الشخص بالاضافة الى البيئة السيكولوجية . وهو يشتمل على كل شىء ينبغى أن يعرفه اذا اريد أن يفهم السلوك المباشر للشخص .

ماذا عن البيئة الخارجية بالنسبة لحيز حياة الشخص ، اى العالم كما يوجد فيزيقيا أو كما يدرك بواسطة الآخرين ؟ لكى نفهم حيز الحياة ذاته فهما كاملا ، فاننا فى حاجة الى ان نفهم العلاقات بينه وبين ما يسميه ليفين الغلاف الغريب Foreign hull .

أن الأشياء التى توجد والوقائع التى تحدث فى الغلاف الغريب يمكن أن تؤثر فى البيئة السيكولوجية ، وبالمثل فان سلوك الشخص يمكن أن يحدث تغيرا فى العالم الفيزيقى وبسبب هذا التأثير المتبادل فان الخط الفاصل أو الحد بين الغلاف الغريب والبيئة السيكولوجية عادة ما يكون قابلا للنفاذ والاختراق .

ان مفهوم قابلية الحدود الفاصلة للنفاذ بين حيز الحياة والعالم الخارجى هام فى نظرية ليفين لانه يعنى أن التنبؤ البعيد المدى بالسلوك على أساس معرفة حيز الحياة الراهن غير ممكن عادة . أى أنه من غير الممكن التنبؤ بسلوك الشخص اعتمادا على الالمام بالقوانين النفسية وحدها . لان بعض ما يحدث فى العالم الخارجى يمكن أن يغير المسار الكلى للوقائع فى حيز الحياة كلقاء بالصدفة ، أو حديث تليفونى غير متوقع أو أى واقعة أخرى . ويستطيع عالم النفس فى أحسن الأحوال أن يفهم حيز حياة الفرد الحالى ، ومضامينه من الطريقة التى يسلك بها ويتصرف هنا والآن . أما التنبؤ بالأفعال المستقبلية فيتطلب التنبؤ بالوقائع فى الغلاف الغريب،وهذا يقتضى استخدام قوانين الفيزياء وعلم الاجتماع ومعرفة حيز حياة الآخرين وقد لا يكون هذا متاحا أو ميسرا .

مناطق حيز الحياة :

هنلك مناطق كثيرة فى حيز الحياة ، كما أن هنالك وقائع سيكولوجية منفصلة فى أى لحظة زمنية . وعلى سبيل المثال اذا كان الشعور بالجوع هو الواقعة الوحيدة فى الوقت الحاضر بالنسبة لشخص معين ، فان المنطقة الداخلية الشخصية لديه سيكون بها خلية واحدة . مخصصة للجوع ، ولكن افترض أن شخصا ولنسمه جاسم يتوقع مقدم صديق ليتعشى معه . فان البيئة السيكولوجية لجاسم سوف تحتوى على منطقة لتناول العشاء وأخرى لصحبة الصديق ، ومنطقة لقيادة السيارة التى سوف يستخدمها . وخلال تناول العشاء قد يناقش الصديقان مشروعا بحثيا ، وصراعا يجرى بين احدهما وأحد الزملاء بالكلية ، وكتابا قراه الصديق عن التغير الاجتماعى والصراع القيمى ؛ وأخبار انصهار المفاعل الذرى الروسى وما أحدثه من

تلوث واضرار . والآن فان مناطق حيز الحياة لدى كل من جلسم وصديقه قد اتسعت وامتدت ولا بد لخلايا الشخص من أن تشتمل على خلية للجوع واخرى للتفاعل الاجتماعى وثالثة للحاجة للانجاز ، ورابعة للتنافس والقوة وخامسة للاهتمامات الفكرية وسادسة للخوف .

وتشغل كل خلية أو منطقة من حيز الحياة واقعة مستقلة . ويرى ليفين أن الواقعة يمكن أن تكون أى شىء نحسه ونستنبطه ، فالعطش والكرسى يمكن الاحساس بهما وقد لا نستطيع ادراك الواقعة على نحو مباشر وانما يمكن استنتاجها . وقد تكون الواقعة امبيريقية ، وظاهرية ، وفرضية ودينامية . ويطلق على وقائع المنطقة الداخلية الشخصية حاجات ، اما وقائع البيئة السيكولوجية فلها خاصية دينامية ، فهى ذات تكافؤ ايجابى أو سلبى . وتحتل كل حاجة خلية منفصلة فى المنطقة الداخلية الشخصية ويحتل كل شىء له تكافؤ ايجابى أو سلبى منطقة منفصلة فى البيئة السيكولوجية . والحدث هو ما ينتج عن تفاعل بين واقعتين أو أكثر ، اى خليتين او منطقتين أو اكثر . وعلى سبيل المثال حين يتحرك شخص من منطقة الى اخرى فى حيز الحياة ، فان هذا يمثل حدثا لانه يتضمن ثلاث وقائع — منطقة البدء ، ومنطقة المقصد والشخص المتحرك .

كيف تؤثر المناطق الواحدة فى الأخرى ؟

حين تؤثر خلية داخلية شخصية فى الأخرى يقال انها تتواصل معها . وعلى أية حال فان التغيرات فى البيئة السيكولوجية كثيرا ما تحدث بواسطة حركة الشخص من منطقة الى أخرى . ويبرز ليفين ويؤكد على أن الشخص وحدة وان عناصر الشخص متصلة ، أى يتصل الواحد بالأخرى ومتلامسة . الا انه لا يمكن القول انها تتحرك من منطقة الى اخرى ، ولكن الشخص نفسه يتحرك من منطقة اهتمام وميل أو نشاط الى منطقة أخرى .

والحركة قد تكون فيزيقية وقد تكون تغيرا فى بؤرة الاهتمام . والحق أن كثيرا من التحركات التى تثير اهتمام عالم النفس تتعلق بالتعديلات التى تطرأ على بؤرة العمليات الادراكية والانتباهية .

تذكر الطالب الذى يصغى لمحاضرة لا تثير اهتمامه بالقدر الكافى . ان هذا الطالب قد لا يكون موجودا فى منطقة الصف الدراسى فى حيز حياته فى لحظة معينة ، وقد يكون عائشا فى منطقة كرة القدم فى بيئته السيكولوجية يمارس لعب الكرة عقليا . فاذا تحدث اليه جاره عن حفل موسيقى سيقام فى اليوم التالى فقد يتحرك باهتمامه الى منطقة الموسيقى . والحق أنه قد لا يقضى الا زمنا ضئيلا جدا فى منطقة حجرة الدراسة خلال ساعة بأكملها ، هى ساعة الدرس .

ان الاتصال والتحرك حدثان لانهما يتضمنان تفاعلا بين واقعتين أو اكثر . وثمة ثلاثة مبادىء تحكم اشتقاق الاحداث . الأول مبدأ الصلة والذى ينص على أن الحدث ينشأ عن التفاعل بين واقعتين أو اكثر . والمبدأ الثانى هو مبدأ العيانية والذى يقرر ان الوقائع التى توجد فعلا فى حيز الحياة هى التى يمكن ان يكون لها تأثير اما الوقائع المحتملة او وقائع الغلاف الغريب فانها لا تحدث احداثا سلوكية ما لم تؤثر فى حيز الحياة . والمبدأ الثالث هو مبدأ التزامن ويقرر أن الوقائع الحاضرة وحدها هى التى يمكن أن تؤدى الى السلوك الحاضر أما الوقائع الماضية كوقائع الطفولة المبكرة فلا يمكن أن تؤدى الى السلوك الحاضر ما لم يتاح لها المحافظة على وجودها . وعلى الرغم من أن الوقائع الفعلية للماضى أو الوقائع المحتملة فى المستقبل لا يمكن أن تحدد السلوك الحالى ، الا أن اتجاهاتنا ومشاعرنا وافكارنا عن الماضى وعن المستقبل جزء من حيز حياتنا فى الحاضر وقد تؤثر فى سلوكنا تأثيرا كبيرا . وهكذا فان حيز الحياة ينبغى أن يكون قابلا لتمثيل الماضى والمستقبل السيكولوجى .

مستويات الواقع :

وفقا لمفهوم ليفين عن مستويات الواقع ، يتألف الواقع من تحركات فعلية ، ويتألف اللاواقع من تحركات متخيلة . وفضلا عن ذلك فهناك درجات مختلفة من الواقعية ومن اللاواقعية . وعلى سبيل المثال قد يغير الشخص عمله ، أو يحل مسألة ، أو يخطط لمشروع جديد او لرحلة أو يحلم احلام يقظة تدور حول تقلده لمنصب مدير المؤسسة او الشركة التى يعمل فيها . ان كل

نشـــاط من هـــذه الانشطة يقع فى مســـتوى مختلف من مستويات الواقع فالتخطيط لشىء أو التفكير فيه يقع فى منزلة بين منزلتين احداهما يحتلهـــا الاداء الواقعى والآخر يحتلها التخيل الصرف البعيد عن الواقع .

ان مفهوم الواقع واللاواقع ينطبق على الشخصية كمـــا ينطبق على البيئة السيكولوجية . وعلى سبيل المثال فان خلية داخلية شـخصية قد تؤثر فى منطقة حركة وتدفع صاحبها الى التيـــلم بعمل ، أو قد تفعل ذلك على مستوى التخيل . وهكذا قد يقول الشخص الى آخر بصوت مرتفع ما ينوى عمله ، أو قد يفكر لنفسه او يحلم أحلام يقظة عن قيامه بهذا التعبير .

ديناميات الشخصية :

ان التمثيلات البنائية لحيز الحياة تبين لنا كيف يبدو حيز الحياة هذا فى لحظة زمنية معينة ، ولكنها لا تدلنا على كيف يبدو الشخص حين يبـــدأ فى السلوك اى انها لا تفسر لنا السلوك فى موقف فعلى . ولكى نفهم السلوك فاننا فى حاجة الى مفاهيم ديناميه .

— الطاقة والتوتر والحاجة :

يرى ليفين ان الشخص نظام معقد من الطاقة وان الطاقة التى تؤدى عملا نفسيا تسمى طاقة نفسية . فما الذى يوجد الطاقة ويخلقها ؟ ان ازدياد التوتر فى جزء من النظام (الشخص) بالنسبة لبقية اجزائه يؤدى الى عدم التوازن ، فيحاول النظام توزيع التوتر بالتساوى بين اجزائه المختلفة فتتولد طاقة نفسية . وحين ينجح النظام فى اســـتعادة التوازن ، أى ان التوتر يتساوى داخل النظام كله يتوقف توليد الطاقة ويركن النظام الى الراحة .

— التـــــــوتر :

التوتر فى نظرية المجال عند ليفين حالة يكون عليها نظام بالقياس الى الأنظمة التى تحيط به والتوتر فى الشخص يشير الى حالة خليـــة شخصية داخلية بالقياس لحالات الخلايا الأخرى الداخلية الشخصية .

والتوتر عند ليفين له خاصيتان هامتان : الخاصية الاولى انه يميل الى

التوزع بالتساوى ، أى أن حالة التوتر فى منطقة ما أو نظام ما تميل الى معادلة نفسها بكمية التوتر فى المناطق او النظم المجاورة . أى انه اذا كان النظام (أ) فى حالة من التوتر عالية والنظام (ب) ، (ج) ، (د)،وهى مجاورة (أ) فى حالة توتر منخفض ، فان التوتر يميل الى أن ينتقل من (أ) الى (ب) ، (ج) ، (د) بحيث تصبح الأنظمة الأربعة فى درجة متساوية من حيث التوتر .

وهناك خاصية ثانية هامة للتوتر وهى ميله الى احداث ضغط على حدود النظام الذى يحتويه وحدود المنطقة التى يوجد فيها ، فاذا كانت هذه الحدود قابلة للاختراق والنفاذ فان التوتر يتدفق الي الأنظمة الأخرى ، أما اذا كانت غير قابلة للنفاذ ، أى كانت تتميز بالصلابة فان ذلك يعوق الانتشار وتدفق التوتر .

ما الذى يجعل التوتر يزداد فى منطقة معينة ؟ استثارة الحاجة وقد تكون الحاجة حالة فسيولوجية كالجوع والعطش أو الجنس . وقد تكون رغبة فى عمل أو فى قدر من المال ، وقد تكون قصدا لعمل شىء كاتمام عمل أو المحافظة على موعد والحاجة عند ليفين مساوية لمصطلحات كالدافع والرغبة والحافز .

ويرى ليفين أن هنالك من الحاجات بمقدار ما يوجد من رغبات نوعية قابلة للتمييز ، فقد يكون لدى الفرد حاجة للجنس ، أو حاجة لنوع نادر من الطعام وقد يكون لديه حاجة لان يسمع الحركة الثالثة من سيمفونية معينة . ولم يحاول ليفين أن يضع ثبتا بجميع الحاجات ولا أن يرد الحاجات النفسية الى حاجة واحدة . لقد شعر أن معرفتنا محدودة جدا عن الحاجات بحيث يتعذر أن نضع لها نسقا وترتيبا على نحو ما . وهو يرى أن الحاجات التى توجد حاليا لدى الفرد والتى تؤثر فى الموقف الحاضر هى الحاجات الهامة وحدها وعلى سبيل المثال فان كل فرد قادر على أن يشعر بالجوع ، ولكن لا ينبغى ان تدخل هذه الحاجة فى الاعتبار الا حين تكون الحاجة للطعام مقلقة لتوازن الشخص .

وثمة مجموعة من العلاقات الممكنة بين الحاجات ومنها الابدال .

فقد يريد الشخص مثلا أن يشاهد برنامجا تلفزيونيا ويريد أيضا أن

يقرأ كتابا ، وبعد مشاهدة البرنامج قد يشعر بعدم الرغبة فى قراءة الكتاب، عندئذ نقول ان نشاطا ابدل بنشاط آخر بحيث ادى الى التخفف من التوتر فى النظامين .

والاندماج Fusion نمط آخر من انماط العلاقات بين الحاجات ، لان السلوك فى أى موقف معين ينتج عادة من ائتلاف مجموعة من الحاجات ، ولقد اطلق ليفين على الحاجة التى تشتق من هذا الاندماج حاجة مشتقة derived n. فالشاب الذى يرغب فى دراسة الطب قد يشتق حاجته هذه من الحاجة الى الشهرة ومن الحاجة الى المال . وقد تظل الحاجة المشتقة معتمدة على مصادرها وقد تستقل عنها فنجد الشاب بعد التحاقه بكلية الطب يواصل الدراسة لتحقيق الشهرة والغنى ، ولكنه ايضا قد يصبح مهتما بالطب وشغوفا به دون الاستمرار فى اعتماد هذه الحاجة على حاجات اخرى .

وهناك نوع ثالث من العلاقة بين الحاجات ويتمثل فى سيطرة حاجة على اخرى ، فاذا كان لدى الشخص حاجة قوية للقيام برحلة بحرية حول العالم ، فلكى يشبع هذه الحاجة يقصد الى اقتصاد بعض المال ، وتقديم طلب لرئيسه فى العمل طلبا لأجازة ، ويشترى بعض الملابس الجديدة ويقوم بالتجهيزات الضرورية . فالحاجة للقيام برحلة بحرية حول العالم تسيطر على مقاصده التى تتصل بالرحلة . وهذه المقاصد المحكومة بحاجة تسيطر عليها تعمل كما لو كانت هى نفسها حاجات ولذلك يطلق عليها اشباه الحاجات . وهكذا تشكل الحاجة المسيطرة وما يتبعها من مقاصد واشباه حاجات نسقا من الحاجات منظما يعتمد بعضه على بعض
(Arndt, pp. 128-129)

اشباه الحاجات Quasi - needs

وهى مقاصد نوعية كثيرا ما تشكلها العوامل الاجتماعية . والحاجات النوعية للجنس وللون معين من الطعام ولسماع الحركة الثانية من سيمفونية معينة امثلة لاشباه الحاجات ، تطورت عن تفاعلات الناس بعضهم بالبعض الآخر ، وتفاعلهم مع جوانب من الثقافة التى يعيشون فيها .

وتتغير الحاجات نتيجة لتأثير كثير من الجماعات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة التى ينتمى اليها الطفل أو يريد أن ينتمى اليها أو لا يريد أن ينتمى اليها . ومما يؤثر فى الحاجات المستثارة اجتماعيا ويتداخل معها نصائح الآباء ، أو مطالبهم والحاح الأتراب . ان الثقافة التى ننمو فيها تؤثر عمليا فى كل حاجة من حاجاتنا وفى جميع سلوكنا .

الفعـــل :

لقد رأينا كيف ينشأ التوتر وكيف يؤثر فى الأنظمة المختلفة داخل الشخص . وقد نخمن أنه حين تتراكم ضغوط التوتر على أحد الحدود بين منطقة داخلية لدى الشخص ومناطق حركية لديه فان فعلا ينتج عن ذلك . ولكن ليفين يرى أن الفعل الموجه لا يحدث لاننا فى حاجة الى مفهومين آخرين لربط الدافعية فى المجال الداخلى الشخصى مع سلوك غرضى فى البيئة السيكولوجية وهما التكافؤ والقوة الموجهة .

التكافـــؤ : Valence

هو قيمة منطقة معينة فى البيئة السيكولوجية عند شخص معين . فالمنطقة ذات التكافؤ الموجب هى تلك التى تحتوى على موضوع يهدف اليه الشخص ويؤدى الى انتقاص التوتر . وعلى سبيل المثال فان المنطقة التى تشتمل على طعام تكون ذات تكافؤ موجب بالنسبة للشخص الجائع . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الشخص الذى يخاف من الكلاب ، يكون للمنطقة التى تشتمل على كلب تكافؤ سالب بالنسبة له ، أى أنها تزيد التوتر لدى هذا الشخص .

وتتحدد التكافؤات فى الأساس بواسطة الحاجات ، أى أن قيمة الطعام تتوقف على درجة جوع الفرد . ومهما يكن من شىء فان العوامل الأخرى تؤثر فى التكافؤات أيضا . وعلى سبيل المثال فان أطعمة معينة قد يكون لها حتى بالنسبة للشخص الجائع تكافؤ سلبى اذا كان لا يميل اليها . ولما كان وجود نظام متوتر لا يكفى لحدوث التحرك فقد قدم لنا ليفين مفهوم القوة الموجهة .

القوة الموجهة :

يتحرك الشخص أو يعمل حين توجد قوة ذات شدة تكفى للتأثير عليه . ويستعير ليفين من مجال الفيزياء والرياضيات مصطلحا يطلقه على هذه القوة هو القوة الموجهة a vector . والقوى الموجهة هى قوى سيكولوجية تؤثر على الشخص وتحركه فى اتجاه معين .

واتجاه القوة وشدتها وظيفة للتكافؤات الموجبة والسالبة لمنطقة أو أكثر فى البيئة السيكولوجية . فاذا كانت احدى المناطق فى هذه البيئة ذات تكافؤ موجب (تحتوى على الطعام المرغوب فيه) فان القوة الموجهة التى تشير الى اتجاه تلك المنطقة سوف تؤثر على الشخص . واذا كانت هناك منطقة أخرى ذات تكافؤ سالب (اى تحتوى على كلب مخيف) فان قوة موجهة اخرى تؤثر على الشخص وتدفعه بعيدا عن تلك المنطقة . واذا وجدت قوى موجهة اخرى عديدة فى المثال السابق ذى التكافؤ الموجب ، اى اذا كان الشخص متعبا وجائعا والطعام يحتاج الى اعداد ، او ان على الشخص ان يحضر أجتماعا مهما ولديه وقت ليتوقف ليتناول الغذاء فى مطعم ، فان الحركة الناتجة سوف تكون نتيجة لكل هذه القوى الموجهة . وهذه المواقف كثيرا ما تتضمن صراعات نفسية وهو موضوع اجرى عليه ليفين بحوثا امبيريقية واضاف اليه ميللر ودولارد مزيدا من البحوث كما رأيت من قبل .

التحـــــرك :

حينما تحدثنا عن التحرك فى الجزء الخاص ببناء الشخصية ، لاحظنا أن مفهوم ليفين عن التحرك يشير الى الحركة النفسية اكثر مما يشير الى الحركة الفيزيقية . أى يشير الى تحول من نقطة يركز عليها انتباهه وفكره الى نقطة اخرى . ولتوضيح مفهوم ليفين عن التحرك سوف نستخدم مثالا من سلوك يتضمن حركة نفسية وفيزيقية .

افترض أن طفلا نظر من نافذة متجر فراى صنوفا من الحلوى ورغب فى الحصول على شىء منها . ان مرأى الحلوى يثير لدى الطفل حاجة وهذه

الحاجة تحدث ثلاثة أشياء : انها تطلق طاقة ، وهذه تثير توترا فى المنطقة الداخلية الشخصية — نظام الحاجة الى الحلوى ، وتنتج تكافؤا للمنطقة التى توجد بها الحلوى ، وتخلق قوة موجهة تدفع الطفل فى اتجاه الحلوى ».

واذا كان الطفل يستطيع ببساطة أن يدخل المتجر ويشترى الحلوى فان القوة الموجهة سوف تدفعه ليخترق الحد القابل للنفاذ ليصل الى منطقة الحلوى ذات التكافؤ الموجب . أما اذا كان الطفل بغير نقود ، عندئذ يصبح الحد الفاصل بينه وبين الحلوى غير قابل للاختراق ، ويستطيع أن يقترب من موضع الحلوى الى اقصى حد ممكن ولكنه لا يستطيع الحصول عليها .

والآن افترض أن الطفل قرر أن يطلب من ابيه نقودا لشراء الحلوى ؛ ان قصد الحصول على المال من الأب شبه حاجة ، فاذا حصل على ما اراد فانه يبلغ الحلوى عن طريق أبيه ، ولكن افترض أن الأب رفض الطلب ، عندئذ قد يقرر الطفل أن يبحث عن صديق يقرضه النقود المطلوبة . والحد الذى لا يقبل الاختراق حول الأب بسبب رفضه تقديم المال يوقف مسار الطفل ويدفعه الى مسار آخر يؤدى الى حد قابل للاختراق يوصل الى الصديق الذى لديه استعداد لاقراض الطفل النقود المطلوبة ومن هنالك يبلغ الحلوى .

اعادة بناء البيئة :

ان البيئة السيكولوجية مفهوم سائل جدا . ولما كانت ديناميات البيئة يمكن أن تحقق تغيرا بثلاثة طرق مختلفة فان المجال منفسح لامكانيات التعديل. وقد تتغير المنطقة كميا فيتزايد تكافؤها الموجب أو السالب . وقد تتغير كيفيا من الايجاب الى السلب أو بالعكس.وقد تظهر مناطق جديدة وتختفى مناطق قديمة.وقد تتغير القوى الموجهة فى الشدة أو فى الاتجاه أو فى كليهما.وقد تتغير الحدود من القوة والصلابة الى الضعف والمرونة وقد تظهر أو تختفى بتغير المناطق .

ان كل تحرك يغير حيز الحياة على نحو ما.وعليك أن تتذكر أن التحرك يمكن أن يكون سيكولوجيا أو فيزيقيا ، ففى مثال الطفل والحلوي كان التحرك

نحو الأب ونحو الصديق ونحو المتجر كلها تحركات فيزيقية . ولكن تفكير الطفل فى كيفية الحصول على الحلوى ولجوئه الى الصديق بدلا من الأب كوسيلة للحصول على الحلوى تحركات ذات طبيعة معرفية .

ومتى توافرت طرق كثيرة لاعادة بناء البيئة فان هذا يعنى ان ليفين يؤكد على الجانب الدينامى فى تصوره للشخصية . وينبغى ان يدرك كل رسم توضيحى باعتباره تمثيلا لاطار من فيلم . ولكى نمثل سلوك شخص خلال مساره اليومى قد نرسم مئات كثيرة من الرسوم التوضيحية .

المحافظة على التوازن :

تعتبر المحافظة على حالة التوازن عند الشخص هدفا لجميع العمليات السيكولوجية . ويؤدى تراكم التوتر فى خلية داخلية شخصية الى عدد من الأحداث . ذلك انه حين يوجد حد لا يستطيع أن يقاوم ما يتعرض له من ضغط بالنسبة لهذه المنطقة قد تنفذ الطاقة الى منطقة الحركة وتؤدى الى سلوك تهيجى ، كأن يتعرض الشخص لنوبة انفعال او غضب عنيف . اما اذا كان الحد بين المنطقة الداخلية الشخصية ومنطقة الحركة قابلا للنفاذ بطريقة معقولة فان التوتر قد يتسرب تدريجيا ويظهر فى شكل نشاط قلق .

والتحرك المناسب فى البيئة السيكولوجية من اكثر الطرق فاعلية فى استعادة التوازن . وهو الذى يؤدى بالشخص الى هدف مشبع . غير انه يمكن انتقاص التوتر واستعادة التوازن بتحرك بديل ، بتحرك يشبع حاجة أخرى تخفف التوتر عن نظام الحاجة الأولى . وعلى سبيل المثال اذا كنت غاضبا جدا من شىء ولكنك لا تستطيع ان تعبر عن غضبك حتى لا تفصل من العمل ، فقد تعبر عن حاجة تتصل بالحاجة الاولى — وهى الحاجة الى الانغماس فى عمل فيزيقى عنيف ، كأن تسبح فى الماء عددا من الأشواط المتتالية .

واخيرا فانه يمكن انتقاص التوتر الى حد ما بواسطة التحرك التخيلى الصرف . وتستطيع ان تكتسب نوعا من الاشباع البديل عن طريق الانغماس فى احلام يقظة تتخيل فيها انك صرت الى ما تريد ان تكون عليه او انك تفعل ما يحقق رغباتك .

ولا ينبغى أن نعتقد على أية حال أن العودة الى التوازن تعنى أن الشخص يحتمل أن يحقق تسوية بين جميع التوترات التى تسود المنطقة الشخصية الداخلية . ويوضح ليفين أنه فى النظم المعقدة، لا يقصد باستعادة التوازن فقدان التوتر وانما يقصد تحقيق توازن بين التوترات الداخلية . وسوف نرى فى الجزء التالى أن من الخصائص الأساسية للنمو السيكولوجى خلق نوع من البناء الداخلى الذى يضمن البناء السيكولوجى لتوترات متوازنة، وليس تحقيق بناء داخلى متحرر من التوترات .

نمو الشخصية :

ان نظرية ليفين فى نمو الشخصية نظرية سيكولوجية صرفة ونتيجة لذلك فانه حين يناقش النمو فانه لا يتناول مسألة شغلت معظم المنظرين الآخرين وهى الطبع والتطبع . ولم يرفض ليفين الدور الذى تلعبه الوراثة والنضج فى نمو الفرد وارتقائه كما انه لم يذهب الى أن آثارهما لا مغزى لها وانما شعر أن علم النفس قد ركز تركيزا شديدا على النواحى النمطية للنمو وانه أهمل النمو السيكولوجى عبر الزمن ، أى فى حيز حياة الفرد .

والنمو من وجهة نظر ليفين عيانى ومستمر والمقاييس العمرية ومراحل النمو لا تساعدنا على فهم النمو السيكولوجى . وان مفاهيم مثل التمايز والتنظيم والتكامل أكثر فائدة فى وصف التغير السلوكى .

التغير السلوكى :

يرى ليفين أن عددا من التغيرات السلوكية الهامة تحدث أثناء النمو ، وأن أنشطتنا المتنوعة وانفعالاتنا وحاجاتنا وعلاقاتنا تتزايد مع التقدم فى السن . وهذا التنوع قد يبدأ فى التناقص فى وقت متأخر من الحياة . وفضلا عن ذلك فاننا مع نمونا نكتسب حرية فى الحركة ، وامتدادا فى الزمن . وأن الأطفال الصغار أبناء الحاضر الى حد كبير ومع تزايد نضجهم يبدأون فى التفكير فى الماضى والتخطيط للمستقبل وبالتالى يستوعبون فى حيز حياتهم الحالى منظورا زمنيا أطول من أن يكون دقائق معدودة أو ساعة أو بعض ساعة ، أو يوما أو بعض يوم .

ومع التقدم فى العمر يظهر الفرد شواهد على عدد من التغيرات الهامة فى التنظيم • وعلى سبيل المثال فان الطفل الصغير يستطيع ان يحافظ على علاقته مع طفل واحد فى كل حين،ولكن الطفل الأكبر سنا او الراشد يستطيع أن يتفاعل مع الناس فى جماعات • والسلوك ايضا يصبح ذا تنظيم هرمى، فبينما يستطيع الطفل الصغير أن يلعب بالمكعبات دون هدف واضح محدد فان الطفل الأكبر سنا قد يرى ان مثل هذا اللعب اداة ووسيلة للحصول على موافقة الكبار ورضاهم ، أو للتنافس بنجاح مع طفل آخر •

وقد يصبح السلوك ايضا اكثر تعقيدا ، فالأطفال الصغار عامة يعملون شيئا واحدا فى الوقت الواحد ويسهل تشتيت انتباهم ولذلك فانهم كثيرا ما يخفقون فى العودة الى العمل اذا توقفوا وانتقلوا الى نشاط آخر • اما الطفل الأكبر سنا فانه يستطيع ان يرسم فى الوقت الذى يتحدث فيه الى صديق ، ويقطع نشاطه ليقوم بمهمة لابيه ثم يستأنف الرسم ، ويجيب على التليفون ويستمر فى الرسم وهكذا •

ونحن نعرف ان سلوك الوليد يتضمن عادة استجابات موزعة على الجسم كله ويطلق ليفين على هذا النشاط الكتلى اعتماد بينى بسيط ، اى ان أنظمة التوتر لدى الطفل الصغير تبادلية • اى انه مهما كان مصدر التوتر — جوعا او عطشا او بللا او خوفا — فان التوتر ينتشر على نحو متساو فى الكائن الحى كله مما يؤدى الى نشاط كتلى •

ومع تزايد النضج يجىء الاعتماد البينى التنظيمى Organizational interdependence حيث تصبح الأفعال المستقلة منظمة تنظيما هرميا ، والأنشطة المنفصلة أو الحاجات متكاملة ومتجمعة فى اكلال اكبر • فبناء بيت على سبيل المثال يتطلب من الشخص ان يجمع بين عدد من الانشطة معا : كوضع خطة ، وجمع المواد ، والقيام بأعمال النجارة والاشراف على ما يقوم به زملاء اللعب من اعمال وهلم جرا •

وفى النهاية مع بلوغنا النضج تتحسن قدرتنا على التمييز بين الواقع والخيال ، وتزداد الواقعية فى الادراك على وجه الخصوص فى مجال العلاقات الاجتماعية • وعلى سبيل المثال فان الطفل الصغير قد يرى سلوك

الآخرين الى حد كبير فى ضوء رغباته هو وحاجاته . أما الطفل الأكبر فيفهم على نحو واقعى أن لدى الآخرين خططا وأهدافا خاصة بهم تؤثر فى سلوكهم.

ان الميل المتزايد الى الاقتصاد فى افعالنا كما يرى ليفين دليـــل على النضج والكفاح لتحقيق أقصى نتائج بأقل جهد فى أى عمل يتطلب تشـــكيل حياتنا بما يتلاءم مع الخصائص الواقعية للبيئة الخارجية الفيزيقية والاجتماعية ومثل هذا السلوك يكون عادة سلوك الراشدين أكثر من كونه سلوك الأطفال.

التمايز والتكامل :

لقد وجد ليفين أنه يحتمل الا نستطيع تطبيق أبسط المبادىء الطبولوجية على الوليد الجديد وذلك بسبب القصـــور فى نمو مجاله الادراكى . ولذلك ينبغى أن نبدأ بالرضيع لان حيز الحياة يمثل الوقائع الممكنة الكلية . وهذا الكل محدود جدا بالنسبة للرضيع . ومن هنا فاننا نتوقع تمايزا قليلا جدا فى البيئة السيكولوجية وفى منطقة الشخص . والرضيع لكونه ايضا لم يفصل نفسه كلية ادراكيا عما يحيط به ، فانه لا توجد منطقة شخصية محددة فى حيز الحياة. وبسبب القصور فى التمايز داخل منطقة الشخص ، فان التوترات التى تنشأ فى نسق الشخص الداخلى تنتشر بسرعة وبسهولة فى مناطق أخرى بما فى ذلك المنطقة الادراكية الحركية. وتنتشر التوترات بسرعة وتنتقل الى النشاط الحركى. وهذه التوترات محددات قوية لطريقة الوليد فى ادراك العالم . ولا يتوافر للوليد منفذ يتيح له الاقتراب من المستويات المختلفة من الواقع ولذلك فانه يعيش فى الأساس فى مستوى اللاواقع نسبيا .

ان التمايز مفهوم من مفاهيم ليفين الأساسية وهو يفيد فى تفسير التنوع المتزايد فى السلوك ، وحرية الحركة المرتبطة بالقدرة على القيام بأشـــياء مختلفة وكثيرة ، وامتداد الزمن ، والتمييز بين ما هو واقعى وما ليس كذلك . ويعرف ليفين التمايز باعتباره تزايدا فى عدد أجزاء الكل . ويتضاعف عدد المناطق أو الخلايا فى المجال الداخلى الشخصى مع التقدم فى العمر . ويتزايد أيضا عدد المناطق فى البيئة السيكولوجية مع هذا التقدم .

وفى تعلمنا للتمييز بين الواقع واللاواقع فاننا نتعلم أن نميـــز لا بين

الحقيقة والخيال فحسب ، بل وكذلك بين الدرجات المختلفة من الممكن والمحتمل . وهكذا فبينما نجد ان الطفل الصغير قد يدرك ببساطة ان الام موجودة هنا أو ليست موجودة ، فان الطفل الاكبر سنا قد يفهم ان الام لن تعود الى البيت الا فى وقت متأخر لانها تدرس دروسا مسائية يوم الاربعاء . أو انها سوف تعود بعد قليل لانها سوف تمر على جارتها وهى عائدة من المدرسة .

ومع تزايد التمايز تنشأ كثير من الحدود ؛ وبصفة عامة فان قوة الحدود تتزايد مع العمر وهذا يفسر تناقص القابلية للتشتت مع التقدم فى العمر ، ونمو القدرة على الانغماس فى أنماط سلوكية معقدة . والطفل معرض بدرجة اكبر للتاثر بالبيئة اكثر من الراشد ، ويستطيع بناء على ذلك ان يتخلص من التوتر بسهولة اكبر وعلى نحو مباشر .

ويمكن أن يفسر التمايز وتزايد الانفصال بين المناطق كثيرا من التغيرات الملاحظة فى السلوك ، ولكنهما لا يستطيعان تفسير تزايد السلوك من حيث التنظيم والتكامل مع التقدم فى العمر . والحق ان هذا التمايز والانفصال يقترح علينا عكس ما سبق . ان مفهوم الاعتماد البينى التنظيمى الذى ذكرناه من قبل يفسر لنا كيف تصبح المناطق المختلفة للشخص والبيئة منظمة على نحو هرمى بحيث تعمل معا وتنتج سلوكا متكاملا على الرغم من تزايد استقلالها الذاتى . ان القابلية للتبادل السهل بين المناطق ؛ اى من منطقة الى اخرى تختفى ويظهر تنظيم هرمى كامل من العلاقات السائدة والتابعة ؛ حيث تحكم المنطقة (ا) المنطقة (ب) وتحكم المنطقة (ب) المنطقة (ج) ؛ وتحكم «ج ؛ د» وهكذا . وعلى سبيل المثال قد يلعب الطفل الصغير بدمية بسيطة ؛ كان يضرب بها الأشياء اما الطفل الاكبر سنا فقد يلعب بالدمى لعبا يتطلب تنظيما هرميا معقدا للأهداف الفرعية . فقد يجعل الأب يذهب الى المكتب ؛ وتلبس الأم اطفالها ملابسهم . وقد يشتمل ارتداء الملابس على اهداف فرعية مثل الباس محمد والباس جاد ملابسهما وقد يتضمن الباس محمد اهدافا فرعية لانه يلبس قميصا وسروالا وحذاء . وارتداء الحذاء قد يتطلب البحث عنه وهكذا . وكل هدف من هذه الاهداف الفرعية يتطلب بتنشيط او اشباع حاجات

مؤقتة والتنسيق بينها يحقق هدفا اعلى ويفى بالأهداف الفرعية التى تندرج تحتـــــه .

طرق البحث والبحوث المميزة :

لقد قام ليفين بكثير من الدراسات ، وصمم اختبارات امبيريقية لكثير من فروضه الأساسية . ولعل اعظم اسهاماته تتجلى فى تأثيره فى تلاميذه وزملائه ، بل وفى اجيال علماء النفس ممن جاءوا بعده. ويرى ريفيرا Rivera (١٩٧٦) أن اعظم افكار ليفين كانت تبرز خلال تفاعلاته مع الآخرين الذين يشترك معهم فى نقاش مكثف يستغرق أحيانا ساعات كثيرة ، لقد كان المبدع للنظريات والأفكار التى توضح موضع البحث والتى ظهرت وانعكست فى اعمال كثير من الباحثين .

ولن نوفى ليفين حقه فى هذا المجال لانه اجرى بحوثا فى كثـــير من المجالات ولان نظريته اثارت بحوثا متنوعة . ولقد بدأت المجموعة الأولى من بحوثه بنقد تجريبى للعمل العلمى الذى قام به آش Asch عام ١٩١٠ م على تداعى الروابط associative bonds فى عملية التذكر . ولقد تعدى ليفين مفاهيمه البنائية عن التذكر الى افكار مثل القصد فى الاســترجاع وتوقع الاحداث . ولقد قام كل من أوفزيانكينا Ovsiankina عام ١٩٢٨ وزيجارنك Zeigrnik عام ١٩٢٧ بتجارب بينت أن الميل لتذكر الأعمال غير التامة اقوى من الميل لتذكر الأعمال التامة . وان هناك قوى تعمل عملها لاستئناف الأنشطة الناقصة واكمالها .

وهذه البحوث التى تناولت مقاطعة العمل ، والقوى التى تعمل على استئناف الأعمال واتمامها أدت على نحو مباشر الى برنامج آخر من برامج البحث يمثل تناولا تجريبيا مبكرا للدافعية ولقد استهدف البحث أن يكتشف ما اذا كان اتمام عمل مختلف عن العمل الذى قوطع يمكن أن يؤدى الى انقاص الميل الى استئنافه . وبعبارة اخرى هل يمكن أن يحل عمل محل عمل آخر . ولقد قامت كيت لسنر Kate Lissner عام ١٩٣٣ وهى احدى تلميذات ليفين بتجربة عن ابدال العمل . درست تأثير تشابه العمل الثانى مع العمل الأول على التواصل بين نظامين للتوتر . وابانت انه كلما ازداد التشابه بين العملين

زادت فاعلية الابدال وقل تواتر أو تكرار الاستئناف التلقائى للعمل الأول . وبينت لسنر أيضا أن المجرب اذا ابرز الفروق بين العملين وهو يقدم تعليمات التجربة (اى اكد على أن العمل الثانى يختلف عن العمل الأول) فانه يزداد احتمال استئناف الأطفال للعمل الأصلى عما لو لم يؤكد المجرب على هـذا الاختلاف بين العملين . ويبدو أن تعليمات المجرب تزيد من صلابة الحـد الفاصل بين المناطق الشخصية الداخلية التى تتطابق مع المقصدين . ولقد بحثت لسنر أيضا متغير صعوبة العمل ووجدت ان العمل البـديل اذا كان أسهل من العمل الأول تقل فاعليته كبديل عما لو كان اكثر صعوبة . ويبدو أن أداء عمل سهل يتضمن انقاصا اقل للتوتر وبالتالى يكون اقل فاعلية فى انقاص ما تبقى من توتر بقى نتيجة لمقاطعة العمل الأول .

ولقد وجد ماهلر Mahler انه كلما ازدادت درجة واقعية العمل الثانى زادت قيمته كبديل للعمل الأول . فاذا قوطع الأطفال اثناء رسمهم لصورة ثم أتيح لهم أن يتحدثوا عن طريقتهم لاتمامها فان احتمال عودتهم التلقائية لاتمام هذا العمل تقل عما تفعله مجموعة اخرى من الأطفال قوطعوا اثناء الرسم وطلب اليهم أن يتخيلوا طريقة اتمامهم له . ويبدو انه كلما ازدادت درجـة واقعية العمل الثانى ازداد التفاعل بين نظامى التوتر للعملين .

ولقد استخدم كوبكه Kopke ابدال العمل كاجراء لاختبار فرض معين من فروض ليفين المشتقة من نظريته فى الشخصية . فقد اعتقـد ليفين أن الحدود بين خلايا الغلاف الشخصى الداخلى لضعاف العقول اكثر صلابة مما نجد لدى الأسوياء من الأطفال . فاذا كان هذا الفرض صحيحا فان الأطفال المتأخرين عقليا يميلون الى ابدال الأعمال بتكرار اقل عن الأسوياء وقد ايدت النتائج التى أسفرت عنها تجربة كوبكه صحة هذا الفرض ؛ فحين طلب من الأطفال المتأخرين عقليا ان يرسموا صورة قطة على ورقة حمراء ثم قوطعوا قبل اتمام العمل واتيح لهم ان يرسموا القطة على ورقة خضراء ثم اتيح لهم بعد اتمام العمل الثانى استئناف العمل الأول اختلف المتأخرون عن الأسوياء من حيث أن الأول كانوا يعودون جميعا تقريبا الى استئناف العمل الأول الأمر الذى لا نجده بين الأسوياء .

ولقد أدى اهتمام ليفين بالديناميات الداخلية للدافعية الى أن يبادىء

بالقيام بسلسلة اخرى من البحوث التى اجريت على عملية التشبع السيكولوجى . ولقد اكتشف كارستن Karsten ١٩٢٨ وتلامذة آخرون لليفين من امثال كونين Kounin ١٩٤١،وسيشور وبافيلاس Seashore & Bavelas ان الزمن المستغرق لبلوغ مرحلة التشبع بالعمل تتوقف على المعنى الشامل لسياق النشاط ، وعلى الحالة الفسيولوجية للشخص وعلى درجة جمود الأنظمة السيكولوجية البينشخصية .

وثمة مجموعة اخرى من الدراسات الهامة لديناميات الدوافع وهى التى تناولت بالدرس الاحباط والنكوص . ومرة اخرى نجد أن خطة ليفين البحثية قد قام بها فى الأساس آخرون . ولقد تالف عمل دمبو Dembo المبدئى فى برلين ١٩٣١ من دراسات تقوم على الملاحظة الدقيقة لاعراض التوتر الانفعالى كما تقارن باعراض توتر حل المشكلة او القيام بالعمل الذى يحدث حين يكلف الأشخاص بأعمال يستحيل انجازها . ولقد اشتملت الأعراض التى لوحظت على الغضب،والعدوان والنكوص والابدال والهروب من الواقع ولقد توصلت الدراسات اللاحقة التى قام بها باركر ودمبو وليفين الى وجود علاقات هامة بين الاحباط والنكوص الفكرى كما يقاس بمستوى النمو الذى يتميز به النشاط اللاعب قبل التعرض للاحباط وبعده .

وتجاربه هو وتلاميذه عن مستوى الطموح والعوامل التى تؤثر فيه وعن اتخاذ القرار والتخلص من الصراع ، وعن الادراك الاجتماعى ، والقيم الاجتماعية والتأثير الاجتماعى والتعاون والتنافس وكيفية تغير القيم الثقافية واهتمامه بنظرية التغير والفعل الاجتماعى المبنى على التخطيط ، وتأثير معايير الجماعة على الارتياح تدل على تنوع اهتماماته وخصوبة افكاره وقدرته على تصميم البحوث الامبيريقية التى تتناول افكارا يصعب تناولها تجريبيا .

واسهامات ليفين المشهورة فى علم النفس الاجتماعى وديناميات الجماعة غنية عن البيان : كدراساته عن أنواع القيادات والاجواء الاجتماعية وتأثيرها على الانتاجية ، والتوافق . ونكتفى بهذا التلخيص السريع لجهوده البحثية لننتقل الى تقويم النظرية .

المكانة الراهنة والتقويم :

تقويم النظرية معناه ابراز نواحى القوة ونواحى الضعف بها ولنبدأ بأهم الانتقادات التى وجهت للنظرية ، اى نواحى ضعفها : —

١ — لا يقدم لنا التصوير الطبولوجى للمفاهيم السيكولوجية ، اى باستخدام الدوائر والأشكال البيضاوية والأسهم والخطوط جديدا عن السلوك الانسانى وعن الشخصية التى يحاول تفسيرها. ان نظرية ليفين تصف الوقائع بعد حدوثها ولا تساعد على التنبؤ . ولعل ذلك يرجع الى انه لا يتوافر لها وسائل لقياس التكافؤات والقوى الموجهة والعوائق . ان القوى فى المجال يمكن ان تستنبط فحسب حيث تحدث فعلا مما يجعل النظرية معرضة للدور والدور باطل كما يقول المناطقة .

٢ — أن نظرية ليفين تتجاهل البيئة الموضوعية لانها لا توضح لنا كيف تحدث البيئة الخارجية تغييرا فى حيز الحياة ، وهذا يعنى أن نظرية ليفين أسيرة الذاتية . ولكن يبدو أن ليفين وتلامذته حين يقومون ببحث علمى يحددون المتغيرات المستقلة والاثيرات الصادرة عن البيئة كما يفعل الباحثون التجريبيون الآخرون سواء بسواء .

٣ — لا يهتم ليفين بتاريخ الفرد الماضى عند دراسته لانه يؤكد على مبدأ التزامن ، ولكن المتأمل لأعمال ليفين وتلامذته يجد انهم كمجاليين يهتمون بالخبرات السابقة وبالمشكلات النمائية ولكنهم يهتمون بها طالما أن لها أثرها واستمرارها فى الحاضر .

٤ — استخدم ليفين المفاهيم الفيزيقية والرياضية استخداما سيئا . لان هذه المفاهيم وما يرتبط بها من لغة مكنته من أن يتظاهر بأنه يقدم نموذجا رياضيا للسلوك يساعد على التنبؤ وهو امر لم تحققه النظرية . هذا فضلا عن أن هذا النموذج لا يساعد على توليد الفروض واشتقاقها مما يمكن وضعه موضع الاختبار والتحقيق الأمر الذى يثرى النظرية .

وتتمثل نواحى قوة النظرية فيما يأتى : —

— انها أثارت الجدل وما تزال تثيره وهذا دليل على حيويتها . ويتسق مع

هذا أن عددا ليس بالقليل من تلامذته يواصلون العمل الذى بداه ليفين فى جامعة متشيجان ويجرون بحوثا عن ديناميات الجماعة .

— اتجه اهتمام ليفين الى تطبيق نظريته فى مجال العلوم الاجتماعية واهتم ببحوث الفعل ، ولكن نظريته فى الشخصية لم يطرأ عليها التطور المتوقع. ولعل مما يقلل من هذا النقد ان مصطلحاتها كالتكافؤ ونظام التوتر والعائق وحيز الحياة والقوة الموجهة أصبحت من مفاهيم علم النفس العام .

— ان الدراسات العلمية التى اجريت فى اطار نظرية المجال وجهت مزيدا من الاهتمام لتأثير العوامل غير السيكولوجية على حيز الحياة . فنجد مثلا باركز ورايت (١٩٥١) يدرسان فى جامعة كانساس التنبؤ النفسى أى يقومون ببحث عن الايكولوجيا النفسية يستهدف وصف ظروف سلوك جميع الأطفال فى مدينة صغيرة بوسط غرب أمريكا .

— ان البحوث التى أجريت عن الابدال ومستوى الطموح والآثار الناتجة عن مقاطعة أعمال التعلم على التذكر ، وبحوث الصراع والنكوص وديناميات الجماعة تدل على قدرة ليفين على تصميم تجارب لدراسة ظاهرات لم يستطع التحليل النفسى أن يتناولها على اساس تجريبى ، وانما تناولها على اساس كلينيكى تأملى .

— اعادت نظرية ليفين لعلم النفس توازنه الذى فقده على يد السلوكيين . لان نظرية ليفين احيت مفهوم الانسان باعتباره مجالا معقدا من القوى النفسية له قدرة على الاختيار ولديه حاجات ومقاصد وآمال ومطامح .

— ادت نظرية ليفين وأفكاره الى اجراء بحوث فى ظروف طبيعية على الأطفال فى لعبهم ، والمراهقين فى نشاطهم فى جماعات ذات اجواء متباينة وعلى عمال فى مصانعهم ، وعلى ربات بيوت فى اختيارهن لانواع اللحوم وغير ذلك كثير . ولقد كفل هذا لنظرية ليفين وفكرة الشيوع والانتشار .

— ويتمثل تأثير تفكير ليفين فى الفكر السيكولوجى المعاصر فى نظرية اتكنسون عن دافعية الانجاز ، ذلك ان هذه النظرية تمثل امتدادا لمستوى

الطموح تفصيلا له . ولقد استخدم كانترل Cantril مناهج بحث مستوى الطموح في دراساته الشاملة للاهتمامات الانســــانية . وافاد روكتش Roakeach في بحوثه عن العقل المغلق والعقل المتفتح من مفاهيم ليفين . فالعقل المغلق اقل تمايزا من العقل المتفتح . ويفيد فستنجر في نظريته عن التنافر المعرفي من فكرة ليفين عن أن الموقف قبل اتخاذ القرار يختلف عنه بعد اتخاذه .

وهكذا فان قدرة النظرية على توجيه البحث بصرف النظر عما تذهب اليه من انها نموذج رياضي تسوغ المكانة التي تحتلها نظرية المجال في علم النفس المعاصر . (هول ولندزى ، ترجمة فرج ، ٣٢٦ — ٣٣٣) .

الفصل الخامس عشر

جورج كيلى

ولد جورج كيلى فى مزرعة قريبة من بيرث فى ولاية كانساس فى ٢٨ أبريل ١٩٠٥ م . وكان طفلا وحيدا . وقد درب والده ليكون قسا مشيخيا ، غير أنه لسوء صحته ترك الكهنوت وعمل بالزراعة. وفى عام ١٩٠٩ استطاع هذا الأب أن يعد عربة استخدمها لنقل الاسرة الى كلورادو حيث حصلوا على قطعة أرض من القطع التى كانت توزع مجانا على المستوطنين . ولكنهم عادوا الى مزرعتهم فى كانساس على أية حال حين عجزوا عن استخراج ماء يكفى لريها . ويبدو أن كيلى لم يفقد روح الريادة التى تعلمها من خبراته المبكرة هذه . ولقد ظل رجلا عمليا جدا خلال حياته ، وكان اهتمامه الملح بأى فكرة أو أداة مرهون بفائدتها ، فاذا ثبتت هذه الفائدة تبناها والا فلا وقت لديه لها. وفضلا عن ذلك فلقد تأثر تأثرا شديدا بمعتقدات والديه الدينية العميقة وظل عضوا دينيا نشطا .

ولقد تلقى كيلى تعليمه المبكر فى مدرسة من فصل واحد ، هذا فضلا عن تعاليم والديه له . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل الى ويشيتا Wichita حيث التحق بأربع مدارس ثانوية مختلفة . وبعد أن بلغ الثالثة عشرة لم يستقر فى البيت الا نادرا وعند تخرجه من المدرسة الثانوية التحق بجامعة الاصدقاء بويشيتا Friends University وهى مدرسة للكويكرز. وبعد ثلاثة أعوام انتقل الى كلية بارك Park College حيث حصل على درجة البكالوريوس فى الفيزياء والرياضيات عام ١٩٢٦ م .

ولقد كانت خطة كيلى الأصلية أن يدرس الهندسة ، ولكنه قرر أن مثل هذه المهنة لن تسمح له أن يعالج المشكلات الاجتماعية التى تزايد اهتمامه بها . ونتيجة لذلك الاهتمام التحق ببرنامج لدراسة الماجستير فى جامعة كانساس وكان تخصصه الرئيسى فى هذه الدراسة علم الاجتماع التربوى وتخصصه الفرعى العلاقات العمالية . وقد درس للحصول على هذه الدرجة طريقة العمال فى مدينة كانساس فى قضاء وقت فراغهم .. وحصل على درجة الماجستير عام ١٩٢٨ م .

وفى عام ١٩٢٩ حصل كيلى على منحة دراسـية مكنته من أن يقضى عاما فى جامعة ادنبره فى اسكتلندا حيث عمل مع السير جودفرى طومسون Godvery Thomson ولقد كان الأخير مسئولا الى حد كبير عن تنمية اهتمام كيلى بعلم النفس . وفى عام ١٩٣٠ م حصل كيلى على درجة فى التربية من جامعة ادنبره . وأتم رسالته تحت اشراف طومسون . وكانت عن التنبؤ بالنجاح فى التدريس .

وعندما عاد الى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٠ بدأ يدرس علم النفس فى جامعة ولاية ايوا حيث حصل على درجة دكتوراه الفلسـفة عام ١٩٣١ . وكانت رسالته عن العوامل المشتركة فى نواحى العجز فى الحديث والقراءة . وبعد يومين من تخرجه تزوج جلاديس طومسون وانجبا طفلين .

ولقد بدأت حياة كيلى الاكاديمية فى كلية فورت هيز فى ولاية كانساس Fort Hays Kansas State College فى منتصف فترة الكساد وسرعان ما تعلم أن اهتمامه بعلم النفس الفسيولوجى الذى درسه فى جامعة ولاية ايوا لن يفيده كثيرا فى ظل الظروف الحالية . لقد لاحظ ان الذين يتعـامل معهم لا يعرفون ماذا يعملون بحياتهم — لقد اختلط عليهم الأمر . وهكذا تحـول اهتمام كيلى الى علم النفس الكلينيكى ، وكانت الحاجة ماسة له . ولقـد اتضح أن لكيلى ميزة بهذا الصدد لانه لم يدرب رسميا على اسلوب كلينيكى معين . ولقد أعطته هذه الميزة الى جانب طبيعته العملية مرونة فى تجريب طرق مختلفة فى معالجة المشكلات الانفعالية واحتفظ بما ثبتت صلاحيته ، وتخلص مما ثبت فشله . وكان كيلى قد سمع بفرويد بطبيعة الحال ، وجرب بعض أفكاره ولكنه وجدها فى الأساس غير فعالة .

وخلال الأعوام الثلاثة عشر (١٩٣١ — ١٩٤٣) التى أقامها كيلى فى فورت هيز انشأ عيادات متنقلة لخدمة المدارس العامة فى الولاية . ولقـد اتاحت هذه الخدمة لكيلى ولتلامذته خبرة بمشكلات سيكولوجية منـوعة . وخلال هذه الفترة توصل كيلى الى ملاحظتين كان لهما تأثير عميق على نظريته فيما بعد ، لقد وجد كيلى اولا انه حتى لو قدم تفسيرا متطرفا لمشكلة عنـد عميل ، فان هذا العميل يتقبله ويتحسن عادة . وبعبارة أخرى فان كيلى لاحظ

أن أى شىء يدفع العملاء الى النظر الى مشكلاتهم على نحو مختلف يؤدى الى تحسين الموقف . وأن المنطق والصحة فيما يبدو علاقتهما ضئيلة بهذا .

وقد لاحظ كيلى ثانيا أن شكوى المدرس من تلميذه كثيرا ما تقول عن المدرس أكثر مما تقول عن التلميذ . ان المشكلة كانت فى الطريقة التى يرى بها المدرس الأشياء ، ولم تكن المشكلة فى وجود بعض الوقائع الموضوعية التى يمكن لكل فرد أن يخبرها . ومثل هذه الملاحظات هى التى حملت كيلى على أن يضع اجرأ نظرية فى الشخصية منذ نظرية فرويد .

وفى بداية الحرب العالمية الثانية كان كيلى مسئولا عن برنامج لتدريب الطيارين المدنيين . ولقد التحق بعد ذلك بالأسطول ليعمل عالم نفس فى مكتب الطب والجراحة فى واشنطن د.س . وأثناء وجوده فى الخدمة طور نوعية علم النفس الاكلينيكى وفاعليته فى القوات المسلحة ، وظل نشطا فى عدد من برامج الحكومة التى تتصل بعلم النفس الكلينيكي حتى وفاته .

وفى عام ١٩٤٥ عندما انتهت الحرب عين استاذا مشاركا فى جامعة ميرلاند حيث بقى لمدة عام.وفى عام ١٩٤٦ اصبح استاذا لعلم النفس ورئيسا لقسم علم النفس الكلينيكى فى جامعة ولاية أوهايو . وعلى الرغم من أن القسم كان صغيرا جدا ، الا ان كيلى استطاع مع جوليان ب روتر أن يطورا برنامجا فى علم النفس الكلينيكى اعتبره كثيرون أفضل برنامج فى القطر . وخلال الفترة التى قضاها كيلى فى ولاية أوهايو والتى تبلغ تسعة عشر عاما نقح نظريته فى الشخصية واختبرها .

وقد حصل كيلى خلال عام ١٩٦٠/١٩٦١ وزوجته على منحة اتاحت له أن يطوف حول العالم يحاضر عن العلاقة بين نظريته والمشكلات الدوليـة المختلفة . ولقد حملتهما هذه الرحلة الى مدريد ولندن واوسـلو وكوبنهاجن وبراج ووارسو وموسكو ومنطقة الكاريبى وجنوب امريكا . ولقد كانت هذه مغامرة بالنسبة لانسان لم يبعد كثيرا عن كنساس .

وقد ترك كيلى ولاية أوهايو عام ١٩٦٥ ليقبل وظيفة فى جامعة برنديز Brandeis University ومات فى ٦ مارس ١٩٦٧ وقد بلغ عمره ٦٢ عاما.

وقد كتب كيلى القليل . ونجد العرض الأساسى لنظريته فى كتاب من مجلدين له وعنوانه The Psychology of Pensonal Constructs (1953)

وأهم دعاة هذه النظرية فى الوقت الحاضر عالم النفس البريطانى دونالد بانستر Donald Bannister ، وتلميذ سابق لكيلى هو لى سيكرست Lee Sechrest

موقف نظرية كيلى بين النظريات الأخرى :

لقد بدأ كيلى عمله كعالم نفس كلينيكى بدون أن يتلقى اى تدريب كلينيكى، وبعبارة اخرى فانه لم يتلقى غرسا عقيديا فى اى مدرسة من مدارس الفكر النفسى . لقد واجه كيلى اناسا لديهم مشكلات ؛ ولما كان خالى الوفاض من المهارات الكلينيكية فانه قد ابتكر اساليبه الخاصة به هو ، ولم يكن لديه من يرشده ، ولم يتخرج من قسم له اتجاه فلسفى معين ، ولم يكن قط محاطا بمجموعة من الزملاء اثروا فيه ليتخذ وجهة معينة . فاذا شابهت نظرية كيلى اى نظرية اخرى فان هذا ليس خطؤه ، انه محض مصادفة . وسوف نرى ان كيلى اعتقد أن شخصية الشخص الراهنة ليست فى حاجة الى ان ترتبط بماضيه . وهو يعتقد بأن هذه الفكرة تصدق على نظريات الشخصية، أى أن النظرية لكى تكون صادقة ينبغى الا تكون قد اشتقت وتولدت من النظريات الأخرى الموجودة من قبل . ونظرية كيلى فى الشخصية يحتمل أن تكون مستقلة عن المواقف النظرية الأخرى الى اكبر درجة ممكنة . ولقد اشار بعض الباحثين الى وجود تشابه بين نظريته والنظريات الأخرى التى سبقته ولكنه لم يلق بالا الى اقوالهم ولم يقف عندها كثيرا .

ومع ذلك فان نظرية كيلى يمكن تصنيفها بطرق معينة . أولا كيلى فينومنولوجى ويعتقد الفنومنولوجيون بأن الخبرة الشعورية البكر ينبغى ان تكون مركز اهتمام علم النفس . ولا ينبغى أن تهتم بمن اين صدرت هذه الخبرات؛ذلك لان الشىء المهم الذى علينا ان ندرسه كما يعتقد الفنومنولوجى هو خبرات الشخص الشعورية كفرد دون أن نقسمها الى مكونات واجزاء او نحاول أن نحدد أصلها .

ويمكن أن تعتبر نظرية كيلى معرفية لانه يؤكد على الوقائع العقلية ، وهى ليست نظرية سلوكية لانه لم يؤكد على السلوك وعلى علاقته العلية بالبيئة ولا تدخل فى اطار التحليل النفسى لانه لا يؤكد على أهمية الحيل الدفاعية أو الخبرة المبكرة فى تحديد شخصية الراشد ، وهى ليست نظرية سمات لانه لم يحاول أن يصنف الأفراد على أساس سماتهم . انها نظرية معرفية لانها تؤكد على طريقة رؤية الأفراد أو نظرة الأفراد للواقع وطريقتهم فى التفكير فيه .

ويمكن ايضا أن تعتبر نظرية كيلى وجودية لانها تؤكد على المستقبل بدلا من تأكيدها على الماضى ، ولانها تفترض أن الناس جميعا أحرار فى اختيار قدرهم . وبصفة عامة فان الوجودية تفترض أن الناس احرار ذوو توجه نحو المستقبل ، وأن مشاعرهم الذاتية وخبرتهم الشخصية هامة جدا وانهم يهتمون بمعنى الحياة . ويعتقد الوجوديون أيضا انه طالما أن الناس احرار ، فانهم مسئولون عن اقدارهم . وبصفة عامة يفحص الوجوديون مشكلات الوجود الانسانى ، وعبارة جان بول سارتر المشهورة : « الانسان هو ما يريد أن يكون » (1956, p. 291) تلخص موقف كيلى والموقف الوجودى .

واخيرا فان نظرية كيلى يمكن اعتبارها نظرية انسانية لانها تؤكد على قدرة الناس المبدعة . وتقلل من أهمية الوراثة والبيئة فى تحديد الشخصية والانسانيون عادة متفائلون فى نظرتهم الى الانسان ويؤكدون على قدرته على حل المشكلات التى يسببها الانسان فى المقام الأول . وهناك علاقة قرابة وثيقة بين الوجودية والانسانية وتداخل بين الفلسفتين . وكلاهما يؤمن بان البحوث التى تجرى على الحيوان وسيلة لا معنى لها لدراسة الانسان وفهمه .

ويمكن أن تعتبر نظرية كيلى فنومنولوجية لانها تركز على الخبرة الذاتية البكر ، وهى معرفية لانها تؤكد على دراسة الوقائع العقلية ، وهى وجودية لانها تؤكد على المستقبل وعلى قدرة الناس على اختيار اقدارهم ، وانسانية لانها متفائلة حيث تؤكد على قدرات الانسان المبدعة التى يمكن أن توجه لحل مشكلات الفرد والمشكلات السوسيولوجية .

الانسان عالم مبتدئ :

يذهب كيلى (1955, p.p. 4-5) الى ان العلم ما هو الا صقل للغايات والاجراءات التى يعيش بها كل منا حياته . واغراض العلم هى التنبؤ بالوقائع وتغييرها وفهمها . وهذه الغايات والمقاصد ليست غايات العالم وحده بل هى غايات ومقاصد كل انسان . فنحن جميعا نتنبأ بالمستقبل ولدينا توقعات معينة ونضع خططا تستند الى ذلك . ونحن جميعا نحاول ان نضبط الأحداث والوقائع فى حياتنا ونغيرها ونرتبا ونفهمها .

ولا تتفق مقاصد الانسان والعالم فحسب بل يتفقان ايضا فى الأساليب لتحقيق تلك المقاصد . فينظر العالم الى الوقائع التى تتاح له بمساعدة التجريدات وهى تكويناته العلمية Constructs ونظرياته الاكثر احكاما وتفصيلا . وبالمثل يحاول كل انسان ان يعالج عالمه من خلال تناوله لافكار ومبادىء وفلسفات للحياة . وليس من شك فى أن وسائل الانسان فى التصور لا تتخذ الصيغة الشكلية التى نجدها عند العالم . بل وفى كثير من من الحالات لا يعبر عنها وهى خاصة بالشخص الذى يستخدمها . ولقد طور العلم طرائق كل انسان وذلك بتحديده للأغراض وبتصميمه لتفاصيل نظرياته .

والعالم لا يغزل تكويناته لينسج منها نظريات . انه يختبر كفاءتهـا التنبؤية وذلك من خلال صياغة الفروض ، وتصميم البحوث وتنفيذها . وكذلك يختبر الانسان تصوراته عن العالم ، ولكنه يفعل ذلك بدقة اقل من الباحث العلمى وبطريقة غير شكلية . وكثيرا ما تكون اختبارات الانسان لآرائه وتوقعاته مثقلة بالاطناب والاسهاب . انه يقع فى دائرة لا تنتهى لتحقيق الذات وفقا للنبوءة . فاذا قلنا ان انسانا لديه اعتقاد راسخ بان جاره يكرهه . ان هذا الفرد اذا اقتنع بهذا ، فان احتمال ان يتحقق هذا كبير جدا وذلك لان سلوك الانسان نحو جاره ليس بمعزل عن آرائه ومعتقداته . انه يسلك بطريقة تتسق مع توقعه عن كيفية استجابة جاره ، وذلك بدلا من ان يخضع هذه التوقعات لاختبار غير متحيز فى دنيا الواقع . ولكى يتجنب هذه المصيدة . فان الباحث العلمى المحنك يحدد اجراءات متقنة ومفصلة لكى يضمن الا تؤثر

آراءه فى نتائج بحثه . ان الاجراءات قد صممت للتخلص من التحيزات للآمال وعدم تأثيرها فى تنفيذ البحث . ان الطريقة العلمية ما هى الا نسخة منقحة ومدققة من محاولات كل انسان ليتصدى لعالمه . وكيلى يرى ان كل انسان ما هو الا عالم مبتدىء .

الشخص ليس عبدا لماضيه :

اعتقد كيلى وهو في هذا يتسق مع كثير من النظريات الادراكيـــة ان النظر الى ماضى الفرد كمحدد لسلوكه فى الحاضر والمستقبل قول مضلل . فالماضى كما حدث فعلا ليس محددا للسلوك ، وانما الذى يحدده هو كيفية نظر الفرد الى ماضيه وكيفية تصوره له . ولقد اعتقد كيلى ان الشخص ليس ضحية لتاريخ حياته ولكنه يمكن أن يكون عبدا لتفسيره له (1955, p. 208)

غير انه حتى تفسير الفرد للوقائع الماضية قد لا يتصل بســـلوكه فى الحاضر والمستقبل . فالتكوينات والتصورات التى يفسر بها الفرد وقائع ماضيه معينة قد تكون رصيدا مغلقا ولا يمكن اختراقه بحيث لا يمكن اســتخدامه لتشكيل بنية الحاضر أو المستقبل .

وعلى الرغم من أن سيكولوجية التكوينات الشخصية عند كيلى معارضة للتاريخ من الناحية النظرية ، الا ان هذا لا يعنى انه غير مهتم بتاريخ الفرد . وكثيرا ما يكون من الصعب أن نتحقق بالتجربة والاختبار من الطريقة الحالية لادراك الانسان للعالم . ومن هنـــا يصبح من الضرورى منهجيا أن ندرس الطرق التى استخدمها بنجاح فى النظر الى حياته بحيث يستطيع أن يستنتج منها آراءه ونظراته التى تؤثر فى حاضره . وهكذا فانه يمكن القول ان كيلى يستخدم التاريخ استخداما سليما وصحيحا . (W.B. Arndt, Jr, p. 60)

الانسان يسعى للتنبؤ :

لقد رأينا ان الانسان عالم مبتدىء ، وان العالم والانسان لديهما دافع لكى يصبح كل منهما قادرا على التنبؤ بالوقائع . ويترتب على ذلك أن التوقع عند كيلى هو الواقع الأساسى عند الانســان . وسلوكنا يتضمن سواء أكان بسيطا ام معقدا ما يترتب عليه من نتائج فحين ندير مفتاح الاشــــعال فى

السيارة نتوقع أن يبدأ محرك السيارة فى العمل. وحين يحيينا شخص نعتبره صديقا ونتوقع لقاء وديا . واذا رأينا انفسنا محاطين بعالم معاد ، فاننا نتنبأ بأننا معرضين لخطر الأذى . ويصوغ العالم تصورات وتكوينات لتمكنه من التنبؤ بالوقائع فى اطار نظريته . كذلك يسعى الانسان لاستشراف الوقائع فى عالمه الشخصى . ولا يتنبأ العلم ولا الانسان بالوقائع الحقيقية لمجرد التنبؤ ، انه يفعل هذا ليبحر ويمضى بفاعلية الى المستقبل
(1955, p: 49)

ان توقع الاحداث مسألة مركزية وهامة فى سيكولوجية كيلى عن التكوينات الشخصية . ولذلك يعتبرها مسلمة اساسية ويقول : « ان العمليات التى يقوم بها الشخص تتخذ مساراتها وقنواتها على اساس الطرق التى يتوقع بها الاحداث » (1955, p. 46) اى ان الطرق التى يستبق بها الشخص الأحداث تحدد نشاطه وهذه المسلمة تشكل الافتراض الأساسى الذى تقوم عليه نظريته . ونستطيع بطبيعة الحال أن نتشكك فى مصداقية هذه العبارة او أى عبارة أخرى ، ولكنه بمجرد أن يثير قضية الصدق هذه لا تبقى المسلمة مسلمة ، وانما تصبح فرضا يوضع موضع الاختبار ليثبت صدقه أو خطؤه . ان المسلمة تصح ليس بوضعها موضع الاختبار للتثبت من صدقها ، وانما بتحديد فائدة البنية النظرية التى تقوم عليها وصدقها .

ولقد صيغت بقية نظرية كيلى فى ١١ لازمة . واللازمات عبارات تتبع المسلمة وتكملها ، ولازمات كيلى توضح مسلمته الأساسية .

والسؤال المباشر الملح الذى يلى هذه المسلمة الاساسية هو : كيف يتوقع الفرد الأحداث ويتنبأ بها ؟ وهذا السؤال تجيب عنه لازمة الانشاء . ان الشخص يتوقع الاحداث بتفسير اعادتها « وعلى الرغم من انه لا توجد واقعة فى حياتنا تتكرر كما هى بالضبط ، الا اننا نستطيع أن ندرك او نتبين موضوعات تتكرر وتتواتر . وعلى الرغم من أن كل يوم فى حياتنا يختلف عن غيره من الأيام ، وكل شهر يختلف عن غيره من الشهور وكل سنة تختلف عن السنوات الأخرى، الا أن هناك جوانب معينة من الوقائع اليومية سوف تتكرر غدا وبعد غد . وعلى أساس تفسير هذه الجوانب المتكررة من الوقائع نحدد توقعاتنا . وليس هناك مناسبتين متطابقتين بالنسبة لادارة محرك السيارة،

ولكننا مع ذلك نتوقع أن يدور المحرك ونسمع صوت دورانه على أساس الجوانب التى تتكرر . ولا تتكرر اى تحية من صديق كما هى تماما ، ومع ذلك فنحن نتنبأ باللقاءات الودية معه بتفسيرنا للجوانب المتكررة فى هذه المواقف . وهكذا نتوقع الوقائع والاحداث بتفسير تلك الجوانب التى تتكرر. وتحدد العمليات قنواتها ومساراتها على أساس هذه التوقعات فالفرد اذن يقف فى الحاضر محاولا الربط بين جوانب من ماضيه وتوقعات من مستقبله.

ولازمة الاختيار توضح الغرض من التوقع ومقصده . وتقول هذه اللازمة « يختار الشخص لنفسه بديلا من البدائل التى تتيحها تكويناته الثنائية وتصوراته والتى من خلالها يتوقع امكانية اعظم للتوسع فى نظامه وتحديده » (1955, p. 64) وهنا كما هو الحال فى اى موضع فى نظرية كيلى من المفيد أن ننظر الى الانسان كعالم مبتدىء . وكما تتالف نظرية العالم من مجموعة من المفاهيم ، كذلك تسترشد عمليات التنسير عند الانسان بشبكة من تكويناته وتصوراته . ويسعى العالم والانسان الى ان يطور قدرته على التنبؤ بالوقائع المستقبلية ولكن السؤال هو : لماذا يبدو لنا ان عددا من الافراد يصرون على التمسك بالاختيارات الخاطئة فى حياتهم . لماذا يظهر الموظف الذى يسعى للترقية اتجاها عدائيا نحو رئيسه ؟ ولماذا يهمل الطالب الجامعى ذو الاستعداد الجيد فى دراسته حتى ولو كان على حافة الرسوب ؟ ان اجابة كيلى هى أننا لا نبحث عن اللذة ولا نسعى للحصول على مكافاة فى الحياة ، وانما نبحث ونسعى لتحسين قدرتنا على التنبؤ . فالموظف يرى بديلين امامه هما : اما العداء والخصومة او الخضوع والمسايرة . انه يقدر العداء والخصومة لانه يعرف ما يتوقع حين يعبر عن العداء نحو رئيسه . اما اختياره للخضوع فانه يعنى ان يعيش فى شك وفى غير يقين والطالب قد بنى حياته على اساس مسلمة هى انه غبى وليس ذكيا . وهو يعرف ماذا يتوقع حين يدرك نفسه على نه غبى او بليد حتى ولو لم يحب التفكير فى نفسه بهذه الطريقة . ولا يعرف الا الله ماذا يمكن أن يحدث لو اختار أن يفكر فى نفسه على انه ذكى .

وهناك طريقان يؤديان الى زيادة القدرة على التنبؤ بالوقائع المستقبلية بدقة وهما : التعريف والتحديد ، والتوسع والامتداد . فقد يحدد الفرد

ويعرف فى محاولة ليستوثق ويتيقن أو يوسع آفاقه ويمدها ليزيد من فهمه وهكذا فان التحديد أو التعريف والتوسع أو الامتداد وكذلك الأمن والمغامرة يؤديان الى نفس الغاية والى توقع وتنبؤ افضل بالمستقبل .

وفى بعض الأحيان ينبغى على العالم والانسان ان يحددا على نحو أدق تكويناتهما وتصوراتهما ولكنهما فى وقت آخر قد يوسعان ويمدان نسقيهما ليصلا الى عوالم أخرى ، وبالتالى يزيدان من مدى الملاءمة والموافقة والراحة range of convenience . ان الامتداد والتوسع فى نسق التكوينات الشخصية عندئذ يماثل التعميم فى النظرية . ولكننا اذا اردنا ان نتنبأ على نحو صحيح بالوقائع سواء اكانت على اساس مدى عريض او ضيق فان ذلك يتطلب تعريف التكوينات فى النسق الشخصى كما تعرف المصطلحات النظرية تعريفا اجرائيا ، بحيث يمكن ان تؤدى الى فروض قابلة للاختبار.وهكذا فان المقصد الأولى للانسان هو أن يستهدف التنبؤ بالوقائع المستقبلية على نحو صحيح ولكى يفعل هـذا فانه يبحث عن تعـريف أو تحديد نسـقه من التكوينات وتوسيعه .

وعلى سبيل المثال ، فان الفرد يستطيع ان يختار العيش فى ظل ظروف مستقرة لسنوات كثيرة : اى ان يعيش فى نفس البيت ونفس المنطقة السكنية والمدارس ومع نفس الاصدقاء وبالتالى ينشىء لنفسه نسقا تكوينيا أو تصوريا يوفر له يقينا مطلقا تقريبا ، او يستطيع أن يضع نفسه فى مواقف متغيرة دائما لا يتوافر لديه عنها تكوينات . وبعبارة اخرى فان الشخص قد يتوافر لديه قدر كبير من التاكد اذا اكد على تحديد نسقه التصورى ، أو قدر كبير من عدم التاكد اذا اكد على التوسع فى هذا النسق . ويبدو واضحا ان اختيار موقف وسط بين هذين الطرفين افضل الحلول .

ولنضرب مثالا لتوضيح اللازمة السابقة « اذا رأى الفرد حيوانا متوحشا يقترب منه بسرعة ، فان التصور أو التكوين خطر — آمن قد يكون مفيدا اذا استخدمه لتفسير الموقف . وواقعة التعرض للهجوم تقع فى مدى الملائمة لهذا التصور . وفضلا عن ذلك فان فكرة شدة الخطر ستكون ملائمة على وجه الخصوص لهذا التصور . وفى هذا الموقف سوف يستخدم الفرد التكوين

خطر — آمن وسوف تحتل فكرة الخطر الشديد البؤرة فى هـذا المدى من الملاءمة وتصورات أو تكوينات جو حسن ، أو جو ردىء ، أو تحرر سياسى ــ محافظة تبدو غير ملاءمة للموقف . اى أن مدى الملاءمة للتكوينين الأخيرين لا يتضمن الموقف الذى نتحدث عنه .

وكما يلاحظ فيما سبق فان لازمة الاختيار ليست فى حاجة الى مفاهيم مثل المكافأة والتعزيز واللذة والاختزال . فالانسان لا يبحث عن المكافآت او اللذة وانما يكافح باحثا عن حلول لمشكلة التنبؤ بالمستقبل وعداء الموظف واهمال الطالب لم يسفرا عن مكافأة ، وانما تأديا الى الألم والتعاسة . وبينما شعر كل منهما بالتعاسة الا انهما كانا متأكدين من المستقبل .

ان مفتاح موقف كيلى فى استخدام مفهوم الطاقة نجده فى كلمة عمليات Processes التى يستخدمها فى مسلمته الأساسية،ذلك أن مسارات عمليات الفرد تتحدد سيكولوجيا من خلال الطرق التى يتوقع بها الاحداث . لقد رأت نظرية التكوينات الشخصية أن تبدأ بكائن حى نشط وقد صيغت المسلمة الأساسية بحيث لا توجد ضرورة لتفسير كيفية تحرك الكائن الحى نفسيا . فالكائن الحى ابتداء لديه عمليات تعفيه من البحث عن مصدر لنشاطه او دافع يحركه .

ان بعض أصحاب نظريات الشخصية يبدأون تفكيرهم فى الانسان كما يفعل الفيزيائيون الذين يبدأون تفكيرهم بمادة جامدة او جوهر جامد وبالتالى فلا بد ان يبحثوا عن مفهوم كالطاقة يفسر حركة الكائن الحى ونشاطه ، اما وقد بدأ كيلى بكائن حى نشط فان السؤال الأول هو : كيف تتخذ هذه العمليات مساراتها ؟ وليس ما هو أصل هذه العمليات ومصدرها ؟

(W.B. Arndt, Jr. p.p: 174-176)

التكوينات ونسقها :

ان وحدات بناء الشخصية عند كيلى هى التكوينات أو التصورات وهى « القنوات التى تتبعها وتمضى فيها عمليات الفرد العقلية » وهى الأدوات التى تستخدم للتنبؤ بالوقائع ، وهى تقابل المفاهيم التى يستخدمها العالم لتنظيم البيانات ولعمل التنبؤات . ولقد رأى كيلى اننا لكى نفهم بنية

الشخصية ، فانه ينبغى أن نكتشف طبيعة التكوينات الشخصية والاسلوب الذى نظمت به فى نسق الفرد .

دعنا نأخذ ثلاثة افراد : مريم ، وجميلة ، ورقية . ومن المسلمة الأساسية نعرف أن عملياتنا العقلية موجهة فيما يتصل بهؤلاء البنات بجهد التنبؤ بسلوكهن . ولقد تعلمنا من لازمة التكوين اننا نتنبأ بسلوكهن فى ضوء تفسيرنا للجوانب المتكررة منه ، فمريم وجميلة تتشابهان من حيث انهما ودودتان نحونا . ولكن هذه العبارة الأخيرة ناقصة لان القول بأن شيئين يتشابهان فى ناحية يتضمن ايضا انهما مختلفان فى ناحية اخرى . وينبغى أن يضاف الى هذه العبارة القطب الآخر والطرف المقابل لكلمة ودود ، والتشابه فى جانب من سلوك مريم وجميلة والذى يتكرر لا معنى له ما لم يميز سلوكهما عن سلوك شخص آخر واحد على الأقل ففى مقابل طريقة مريم وجميلة فى السلوك نحونا ، نجد رقية التى كان سلوكها عدائيا نحونا المرة بعد المرة . والآن فان لدينا تكوينا شخصيا Personal - construct هو ودود — عدائى . فمريم وجميلة ودودتان ورقية عدائية . وهكذا فان احدى طرق تعريف أو تحديد التكوين الشخصى أن تقول حين تفسر شيئين انهما متشابهان فى جانب ومختلفان فى جانب آخر (1955, p. 105) وهذه الثنائية أو وجود قطبين ،أى طبيعة التشابه — الاختلاف للتكوينات الشخصية نجدها فى صياغة كيلى للازمة الثنائية Dichotomy Corollary « يتألف نسق الشخص التكوينى من عدد محدود من التكوينات الثنائية أو ذات القطبين » (1955, p: 59)

ومن هذا التصور أو التكوين الشخصى الخاص ودى — عدائى نتادى الى انه لكى يكون الفرد غير ودود لا بد أن يكون عدائيا . ولكن هل من المعقول أن نقول أن الأشياء غير الودية وهى كثيرة فى العالم تكون عندئذ عدائية ؟ فقطعة من الخيط واطار سيارة وما الى ذلك ليست ودودة ، ولكن هل يصدق عليها انها عدائية ؟ الاجابة هى بالنفى لان التصور أو التكوين الشخصى ودود — عدائى شأنه شأن التكوينات الشخصية جميعا يتصل ويتعلق فحسب بمجموعة محدودة من الوقائع . وهذا الجانب من التكوينات الشخصية يوصف رسميا فى لازمة المدى « التكوين مريح فى التنبؤ » أو فى توقع مدى محدود

من الوقائع فحسب » (1955, p. 68) وان قطعة الخيط ، واطار السيارة خارج المدى الميسر للتكوين ودود — عدائى ، طالما ان التكوين لا يساعد على التنبؤ بالاحداث التى تتضمن الخيط والاطار .

ولقد تعلمنا من لازمة القطبين أن النسق التكوينى للفرد يتألف من عدد محدود من التكوينات كما تعلمنا من لازمة المدى ان لكل تكوين مدى محدود من الملاءمة . والمشكلة التالية التى علينا أن نعالجها هى كيف ننظم هذا العدد المحدود من التكوينات فى نسق الشخص . وهذا السؤال هو النقطة الاساسية فى لازمة التنظيم . يتميز كل شخص بأنه سعيا للملاءمة فى التنبؤ بالاحداث ، يضع نسقا تكوينيا ، أو تصوريا يحتوى على علاقات مرئية بين التكوينات . (1955, p. 56) والفكرة هنا ان تكوينا قد يندرج تحت آخر باعتباره أحد عناصره وهو بدوره يؤدى الى انقاص عدم الاتساق الى حده الأدنى فى النسق التكوينى . (1955, p. 57)

ولنأخذ تصورين فى نسق الشخص الانسانى : حسن — ردىء ، ذكى — غبى . اذا كانت العلاقة بين هذين التصورين علاقة ترتيب فأن احدهما يسود والآخر ينضوى تحته . فاذا كان التكوين السائد هو حسن — ردىء فان جميع الوقائع الذكية ستكون حسنة ، وجميع الوقائع الغبية ستكون سيئة أو رديئة . أما اذا كان التكوين ذكى — غبى هو السائد فان جميع الأشياء الحسنة أو الخيرة ستكون ذكية ، وجميع الأشياء السيئة ستكون غبيـــة .

ان دراسة نظرية كيلى تدل على أن للوقائع وجود فعلى منفصل عن الشخص ولكنها لا تكتسب اهميتها ما لم يتم بتفسيرها . وعملية التفسير تعنى تصنيف وقائع معينة معا لانها متشابهة فيما بينها ولانهـا مختلفة عن اخرى . وهناك طرق كثيرة ممكنة لترتيب الوقائع فى فئات متشابهة ومختلفة ولكن كيلى يخفق فى تفسير الأسباب التى تدفع الناس الى ان يفسروا ويتصوروا وفقا لخطط معينة . واذا عالج كيلى السؤال الذى يتصل بسبب اختلاف اتجاهات الناس فان عليه أن ينظر فى تواريخ خبراتهم البيئيـة واختلافها . أى انهم يتصورون على هذا النحو او ذاك بسبب اشخاص لهم أهميتهم علموهم ذلك . او بسبب نمو طبيعى نتج عن نـوع الوقائع التى

اشتملت عليها خبرتهم . ويبــدو أن كيلى متحفظ فى هــذا المجال ولا يبين بالقدر الكافى .

ان عملية التفسير تؤدى الى تكوين او تصور . والتصور فكرة لهــا طبيعة ثنائية مثل حسن — ردىء ، ولكى يتكون التصـــور عليك ان تدرك تشابها بين شيئين واختلافهما عن ثالث . ومن خــلال الخبرة بالوقائع ينمى الفرد تصورات أو تكوينات كثيرة ولكنها لا تبقى منفصلة وانما تنتظم فى نسق تصورى او تكوينى ويميل هذا التنظيم الى ان يكون هرميا فى طبيعته ، ولو أن كيلى لا يوضح أسس هذا التنظيم الهرمى بالقدر الكافى .

وكيلى لا يوضح لنا فى نظريته الخطوط التى يحدث على أساسها تفسير الوقائع وتكوين التصورات ولو انه كان يستطيع ان يفعل ذلك ويظل متسقا مع فكره لو ركز على المحددات البيئية للتفسير وليس من الغريب اذن الا نجد فى اى موضع من كتابات كيلى قائمة بأنماط التصورات وطــرزها . وكان يستطيع أن يقدم لنا تحديدا لمحتوى الشخصية وذلك بوصفه لانواع التصورات التى يتوقع أن يجدها فى اشخاص لهم تواريخ معينة من التفاعل مع البيئة . وهذه نقطة قصور فى نظرية كيلى تقلل من الفهم للشخصية وتحــول دون قدرتنا على التنبؤ بالسلوك،وهى نظرية تتخذ من فكرة التنبؤ هذه محورا لها .

صحيح أننا متى التقينا بالشخص نستطيع أن نحدد ما لديه من تصورات ويتم ذلك باستخدام اختبار ذخيرة الدور . وهذا الاختبار يتطلب ان يقــوم المفحوص بتحديد اسماء الأشخاص ذوى الاهمية فى حياته كالاب والام . . . الخ . ثم يطلب منه أن يحكم عليهم فى ثنائيات متشابهة ويقــارنها بثالث مختلف . وبتحليل وتلخيص هذه الاحكام التصنيفية نستطيع ان نحدد عدد التصورات التى تؤلف نسق المفحوص ومحتواها .

استخدام التكوينات واتساقها :

وحين يفضل الناس قطبا من قطبى التصور او التكوين على آخر فى توقعهم للمستقبل فانهم يقومون باختيار مدروس والسؤال الهام من الناحية النظرية الذى ينبغى ان يطرح هنا هو : ما هو الأساس الذى يحدد هــذا

الاختيار ؟ وبدلا من أن يؤكد كيلى على أن هذا الاختيار قائم على ما ثبتت صحته فى الماضى نجده يقول « أن الشخص يختار لنفسه البديل — فى تصور ثنائى — الذى يتوقع من خلاله أعظم امكانية لامتداد نسقه وتحديده » (Kelly, 1955, p. 64)

واذا كان هدفك فى الحياة هو التنبؤ والضبط فينبغى أن تهتم باحكام واتقان النسق التصورى الذى يتوقف عليه نجاح مقصدك . ولكن ثمة غموض فى هذه النقطة ينبثق من وجود استراتيجيتين تستطيع احداهما أن تنجح فى التنبؤ بالوقائع . ان أوضح طريقة ان نطور نسقا تصوريا يؤدى عمله بنجاح بالنسبة لمجموعة من الوقائع وأن نضيق عالم الخبرة ونقصره على هذه الوقائع وما يشابهها بحيث يقل احتمال الخطأ فى التوقع أو تقل صعوبته . وأقل الطرق وضوحا للنجاح فى التنبؤ الصحيح أن نطور نسقا تصوريا شاملا وصادقا بحيث لا يلزم بالضرورة تضيق الامكانيات الخبراتية ، لانه فى الواقع يمكن التنبؤ على نحو صحيح بأى حدث أو واقعة .

والقراءة المتانية لكيلى توضح انه يدرك وجود استراتيجيتين احداهما محافظة والأخرى مغامرة ، ولكنه لا يقدم لنا اساسا عقلانيا نظريا للأسباب التى تؤدى الى تفضيل احداهما على الأخرى ، ولا التوقيت المناسب لذلك . ولقد كتب سيكرست Seckrest (1963) وهو تلميذ من تلامذة كيلى مفسرا ومحللا لموقفه فقال : « حين يشعر الشخص بالأمن وبالقدرة على التنبؤ بالوقائع على نحو صحيح فانه يختار ما يتيح لنسقه الاتساع وزيادة الامكانيات حتى ولو كان ذلك بالمخاطرة بالوقوع فى الخطأ ، ولكن سوف يلى ذلك فترة من المراجعة والتماسك حيث يختار الشخص اختيارات تقلل من التعرض للخطأ ولكنها تؤيد النسق » .

ان كيلى يخفق فى تحديد الخطوط التى تتخذها عمليات التفسير والتكوين عند الشخص وفى تحديد محتوى التكوينات والأساس الذى فى ضوئه تستخدم هذه التكوينات على نحو مغامر او محافظ . واصحاب النظريات الاخرى الذين يستخدمون مفاهيم كالصراع والاشباع حين يفسرون مواقف الاختيار بين بدائل ، يميلون الى افتراض اثر محدد للغرائز أو الامكانيات.

الفطرية ، او الانفعالات او الدوافع و الصراعات الانفعالية . ومن الطبيعى ان ندرك ان موقف كيلى متسق مع نفسه لانه يؤكد على الطبيعة المتعلمـــة للشخصية ولانه متحرر فى موقفه الفكرى من الافتراضات الدافعية او اللاذة. ان ما يحاول الانسان ان يفعله هو ان يتنبا ويضبط ، لا ان يعبر عن طبيعة داخلية او مجموعة من الحاجات او يستمتع بلذة .

ولو انتقلنا الى تحديد الفعل فاننا نجد ان موقف كيلى فيه اكثر غموضا من موقفه بالنسبة للتنبؤ . ويبدو ان موقف كيلى هو ان الفعل مكمل او امتداد للتوقع والتنبؤ . فاذا ادى بك التكوين او التصور الى ان تتوقع لقاء وديا مع صديق ، فانه ينبغى عليك أن تسلك بما يتسق مع هذا التوقع ، ولكن العالم حين يكون لديه فرض ويعمل على اختباره فان هذا الاختبار يتطلب افعالا صممت للتثبت من صدق الفرض او خطئه . ولو عممنا النموذج العلمى فاننا نتوقع الا يسلك الشخص بما يتسق مع التنبؤ وانما بما يضمن اختبار صحة الفرض او خطئه .

ان استراتيجية الاختبار تتطلب اتجاها موضوعيا خلوا من العواطف نحو الحياة ، وهذا الاتجاه يبدو جزءا لا يتجزأ من مسلمات كيلى الاساسية . فاذا كان الغرض من الحياة ان نتنبأ بالخبرة على نحو صحيح وان نضبطها والخبر مؤلفة من وقائع توجد على نحو مستقل عنك ، فانه ينبغى ان تقضى كل وقتك وانت تختبر توقعاتك ، لكى يتسق نسقك التصورى مع الواقع والحقيقة .

ويتشكك برونر (١٩٥٦) فى موقف كيلى وصـــحته ، يقول : « اننى لا اعتقد انه حين يغضب بعض الناس او يحبون او يلهون ، فانهم لن يلقوا بالا على الاطلاق ، ولن يهتموا بنسقهم التصورى كله » . وينتقد برونر عدم رغبة كيلى فى التسليم بأن للانفعالات تأثيرا فى افعالنا وتوقعاتنا .

الوقائع والتوقعات المدركة والثقافة :

ان الوقائع التى تقوم عليها الحقائق لا تحدث وعليها اسماء تحـــدد ولاءاتها وتميز ارتباطاتها بمؤسسة معينة او قسم خاص.وهكذا فانه لا يوجد

وقائع بيولوجية أو سيكولوجية ، لان الواقعة الواحدة يمكن تفسيرها بعدد من الطرق. فالتصور أو التكوين البيولوجي أو السيكولوجي أو السوسيولوجي وفقا لما يراه كيلى يمكن أن يلائم اى واقعة تتضمن سلوكا انسانيا . وكمثال يوضح هذه النقطة فلننظر الى واقعة انسان يضغط على زر فى آلة للاقتراع أو الانتخاب . هـذه الواقعة فى ذاتها ليست بيولوجيـة ولا سيكولوجية ولا سوسيولوجية ولا سياسية ولا اقتصادية. غير انه يمكن تفسيرها بواسطة تصورات او تكوينات تندرج تحت اى من هذه العلوم . وكل منها يستخدم تكوينات لها مدى محدود من الملاءمة .

وتفسير واقعة على اساس بيولوجي ليس له معنى أعمق ولا أدق من تفسيرها على اساس سيكولوجي . ومثل هذا يقال عن التفسير السيكولوجي اذا قورن بتفسير على اساس آخر . ذلك أن المصطلحات تتوقف على اهتمام الملاحظ واغراضه ، وفضلا عن ذلك فان مجموعة من التكوينات البيولوجية لا تفسر ما هو سيكولوجي على نحو افضل من تفسير التكوينات السيكولوجية لما هو بيولوجي . ولقد اختار كيلى فى دراسته للشخصية أن يقدم لنا نظرية سيكولوجية تستخدم تكوينات سيكولوجية لها مدى من الملاءمة محدود بما يتناوله علم النفس .

وقد لاحظ كيلى أن هناك ثلاثة تفسيرات عامة لمفهوم ثقافة Culture فالبعض يستخدم المصطلح ليشير الى مجموعة من الأفراد الذين نشئوا فى نفس المجتمع ، ولهم بيئات متشابهة ، وبالتالى يسلكون سلوكا متشابها . وهذه النظرة تعنى أن البيئة شديدة القوة والتأثير فى تحديد الشخصية والتأثير فى الفرد . والمدخل البيئى للثقافة تمثله عادة النظريات السلوكية فى التعلم مثل نظرية دولارد وميلر .

والتفسير الثانى ينظر الى الثقافة على أساس التشابه فى التوقعات بين اعضاء الجماعة . وهذه التوقعـات مثيرات متميزة تعمل كأمارات فى تحديد الاستجابات وزمان وقوعها . فتوقع الجماعة أن نتناول الطعام من الاناء الى الفم باستخدام الشوكة أو الملعقة امارة لتحديد سلوك تناول الطعام وآدابه . وهذا أيضا تفسير بيئى للثقافة طالما أن توقعات الآخرين ترى على انها ضوابط للسلوك .

والتفسير الثالث يعتبر نواحى التشابه الثقافى بين الأشخاص تشابها فى التوقعات المدركة . وهنا ينصرف التأكيد على مدركات الفرد بدلا من انصرافه الى البيئة . وهذا التفسير يتسق مع المسلمة الأساسية لكيلى التى تفترض أن عمليات الشخص النفسية تتخذ مساراتها وقنواتها على أساس الطريقة التى نتوقع بها الأحداث والوقائع والتشابه الثقافى لا يعزى الى التشابه فى النظرة فحسب ، بل يتحدد أيضا بمجموعة مشتركة من التوقعات أو الاستباقات تتعلق بتوقعات الآخرين .

ونحن نعرف من لازمة كيلى الخاصة بالفردية أن الاشخاص يختلف الواحد منهم عن الآخر فى نسقه التصورى . ولكن هذا النسق لو اختلف عند فرد اختلافا تاما عما لدى جميع الأشخاص الآخرين لكان معنى ذلك عدم امكانية وجود تواصل بين الناس وعدم قيام المجتمع ، اى اننا لا يمكن أن نتنبأ بوجود مجتمع أو بوجود علاقة انسجام ووئام بين فردين لو اعتمدنا على لازمة الفردية . ومن هنا نحن فى حاجة الى لازمتين اضافيتين لكى نفسر نواحى التشابه بين الناس. ان اختلاف الناس الواحد عن الآخر فى تصورهم للوقائع لا يعنى ان نسق الفرد يختلف اختلافا تاما عن نسق كل فرد آخر . ذلك أن التداخل بين التكوينات الشخصية أو التصورات يحدث كما يحدث عند أصحاب نظريات الشخصية الذين يستخدمون بعض المفاهيم المشتركة. وهذا يتضح فى لازمة الاشتراكية Commonality Corollary التى تقرر انه « بمقدار ما يستخدم شخص تصورا لخبرة يشابه ما يستخدمه آخر ، تتشابه عملياته النفسية مع العمليات النفسية لدى الشخص الآخر » (1955, p. 90) أن كيلى يؤكد على أنه ليست الخبرات المشتركة هى التى تحدث التشابه بين الناس ، وانما تفسيرهم للخبرات بطريقة مشابهة . فقد يتاح لفردين خبرات فيزيقية واحدة ولكن التفسير يختلف . وبالمثل من المعقول ان ينتج نسقان تصوريان متشابهان عن مجموعتين مختلفتين من الخبرات الفيزيقية ، اى أن يسلك شخصان على نفس النحو مع أن كلا منهما قد تعرض لمثيرات ظاهرية مختلفة . ان أساس الفعل المتشابه يكمن فى تشابه تصورنا للوقائع وليس فى تماثلها .

ولكن اشتراكية التكوينات التى تستتبع تشابها فى العمليات النفسية

لا تكفى لتفسير وجود الثقافة أو حتى لفهم شخص آخر . ان تكوين علاقات بناءة مع الآخرين لا يتطلب ان ننظر الى العالم كما ينظـرون تماما ، ولكن ينبغى أن نقدر على رؤية طريقتهم فى النظر الى العالم وكيفيتها . وحين يتبع سلوكنا ادراكنا لكيفية تفكير الآخرين ، فاننا عندئذ نقوم بدور فى علاقة مع الآخرين . وهـذا يجد تعبيرا رسميا فى لازمته الاجتماعيـة Sociality Corollary والتى تقرر « بمقدار ما يفسر الشخص التصور لدى الشخص الآخر بمقدار امكانية قيامه بدور فى عملية اجتماعية تتضمن الشخص الآخر ».
(1955, p. 95)

والدور هو « عملية نفسية تقوم على ماينشئه لاعب الدور من جوانب الاتساق التصورية لأولئك الذين يحاول ان يشاركهم فى مشروع اجتماعى». (1955, p. 97) ان الادوار التى نقـوم بها فى الاتصـال بالآخـرين ليست مجرد اقنعة نضعها ونخلعها كلما جاءت فرصة مناسبة . ان هذه التكوينات أو التصورات التى من خلالها نرى علاقتنا بتوقعـات الآخرين وتفكيرهم تشكل جوهر شخصيتنا (W.B. Arndt, Jr, p.p. 230- 232)

والدور هو نمط من السلوك يتبع فهم الشخص لكيفية تفكير الآخرين الذين يرتبطون به فى عمله . اى ان لعب الدور هو العمل بما يتفق مـع توقعات الآخرين ، ولكى يلعب الفرد دوره ينبغى عليه ان يفهم علـى الأقل نسق تكوينات الشخص ، فاذا اراد فرد ان يلعب دور الزوج بالنسبة لزوجته فينبغى ان يفهم توقعاتها القائمة على تصور الزوج ثم يعمل على هذا الأساس . ويطلق كيلى على فهمنا لوجهة نظـر الشخص الآخـر وتوقعاته تصـور الدور a role Construct ، اما كيف يعمل فى ضوء هذا الفهم فيسمى دورا .

ان هذه هى فكرة كيلى الأساسية فى السلوك الاجتماعى . فهو يقرر اننا لو أردنا أن ننغمس فى تفاعلات بناءة مع الآخرين ، فينبغى اولا ان نحدد كيف يرى الآخرون الأشياء ثم ندخل مدركاتهم فى الاعتبار حين نتعامل معهم. واعمق نوع من التفاعلات الاجتماعية هو ذلك الذى يحدث حين يكون لعب الدور متبـادلا .

الادراك والمعرفة :

ان موقف كيلى من طبيعة الواقع واضح فى عبارته التى يقـــول فيها : « نحن نفترض ان العالم فى الحقيقة موجود وأن الانسان يقترب تدريجيا من فهمه » (1955, p. 6) والواقع ليس وهما وسرابا ، وليس مختلفا عن خيال الانسان ، وليس ببساطة مايوافق الانسان على كينونته ويفهم الانسان الواقع حين ينجح فى التوصل الى أنساق تصورية افضل يطبقها عليه . ان الكون ليس استاتيكيا ، انه يتغير دائما فى علاقته بذاته . والكون موجود ومستمر فى الوجود ، وهكذا يمكن قياسه على اساس البعد الزمنى والى حد ما ، لدى كل فرد تصوره عن الواقع يستند الـــى توقعه للأحداث الواقعية ، ولكن جميع التصورات تقاربات للكون الحقيقى وليست نسخة منه .

ونحن ندرك عالم الحقائق من خلال التصورات التى وضعناها للتنبـــؤ بالوقائع فى الكون . ولم يكن كيلى فى حاجة الى أن يقدم لنا تفسيرا خاصا للادراك لانه قد تحقق على شكل تصور . ويمكن القول أن نظرية كيلى كلها نظرية فى الادراك بالفعل . فحين يدرك الفرد فانه يطبق تصـــوراته على الاحداث فى الواقع . والاسقاط ليس حالة خاصة من حالات الادراك ، لان الواقع أن الادراك كله يتضمن اسقاطا ، لان الادراك يقوم على تصور الانسان للواقع .

وكيلى لا يعالج التعلم كمجموعة خاصة من الوقائع شانه فى ذلك شان الادراك . وانما هو يتصوره على اساس انه تعديلات فى التصـــورات او التكوينات الشخصية . ونحن نعرف من مسلمته الأساسية ان هدف عملياتنا النفسية هو أن نتنبأ بالوقائع ونستبقها . ويترتب على ذلك أن الشخص قد يغير تشكيله للوقائع ليحسن ويطور صدق توقعاته . ويشتق من المســـلمة الأســاسية لازمة الخبرة ونصها : « ان نسق الشخص التصورى يتغير بتغير تفسيره للوقائع المتكررة » . وهكذا يعرف كيلى التعلم باعتباره تعديلا فى السلوك ناتجا عن الخبرة . ولما كان سلوك الفرد يتحدد بنسقه التكوينى او التصورى فالتعلم تعديل لنسق الشخص التصورى الذى يرجع الى تفسيره

للجوانب المتكررة من الوقائع والمقصد النهائى لهذا النسق التكوينى هو أنه يمكن الشخص من أن يتنبأ بالوقائع على نحو صحيح . واذا كان النسق التصورى لا يحقق هذا المقصد ، فقد يغيره الشخص (أى يتعلم) باعادة تفسير الوقائع المتكررة.واذا ثبت صدق نسق الفرد التكوينى لاتفاقه ومطابقته للتوقعات والنتائج التى يدركها فانه من غير المتوقع أن يغيره .

وفى ضوء مضمون لازمة الخبرة أصبحت المفاهيم التى ترتبط بالتعلم فى نظريات أخرى غير ضرورية . وهكذا يحل التوقع والتنبؤ الصادق محل مفاهيم كالرضا والمكافأة والتعزيز واللذة وخفض الحافز . وفى ضوء هذه الفكرة لم يعد المعلم يستطيع وكذلك الموجه النفسى أن يتجاهل النسق التصورى الذى كونه الفرد ، لاننا من خلال تفسيرنا الصحيح لنسقه نستطيع ان نفهم الوقائع التى سوف تؤدى الى التثبت من مصداقية تصور ذلك الفرد . وقد يرفض العميل بغباء ان يتنازل عن التصورات التى عرضها المعالج على أنها مازوكية . لماذا يبحث العميل عن الألم ، ولماذا لا يغير فهمه لما يفعل من سلوكه ؟ الاجابة ببساطة لان التصورات أو التكوينات المرتبطة بالسلوك المازوكى تتيح له أن يتنبأ على نحو صحيح بالوقائع ، اى أن هذه التصورات اثبتت صحتها مرارا وانه قد تم تعلمها .

ونحن لا نغير انسلتنا التصورية فى ضوء الخبرة فحسب . وقد لا يتنع المنظر بتوصله الى تفسير كيفية حدوث التعلم اذ ينبغى عليه أن يحدد الشروط التى فى ظلها لا يحدث التعلم . اى اننا لا بد أن نضع حدودا على لازمة الخبرة . ولازمة التعديل تعالج هذه النقطة ونصها ، ان التغير فى نسق الفرد التصورى محدود بقابلية التصورات للاختراق تلك التى تقع المتغيرات فى مدى ملاءمتها . ان التصور عرضة للتغير بالخبرة بمقدار قابليته للاختراق. والتصور قابل للاختراق اذا أمكن ان يحل محله تصور آخر يتغير بسهولة . أما التصور الذى لا يقبل الاختراق فلا يمكن ان يحل محله تصور آخر بسهولة.

وعلى سبيل المثال تصور الفرد عن الناس بأنهم طيبون وسيئون قد يتحدد على أساس أفراد معينين فالناس الطيبون هم أصدقاؤه المقربون والناس السيئون هم جميع الناس خارج دائرة الصداقة . ان هذا الفرد ليس متفتحا للخبرة ، وذلك لان أحد قطبى التصور هذا لا يمكن اختراقه .

وهكذا اذا التقى هذا الفرد بفرد آخر يتميز بمجموعة من الخصائص التى تدعو الى الاعجاب فانه يصعب عليه أن يتمثل هذا الجديد فى تصوره لانه لا يمكن اختراقه .

أى ان هناك قيدا آخر على لازمة الخبرة بواسطة لازمة التعديل . وهو مدى ملاءمة التصور موضع النظر . ذلك أن الخبرة لا تفعل شيئا لتعديل التصور اذا حدثت خارج مدى ملاءمة هذا التصور . فاذا لم يدرج الفرد موضوعيته تحت تصور الناس طيبون — سيئون فان خبراته بالموضوعية لن تغير هذا التصور . وهكذا فان التصور يتحدد بقابليته للاختراق ، وبكون الخبرات التى تجلب له التغيير فى مدى ملاءمة الموضوع .

وواضح انه كلما زاد عدد التصورات أو التكوينات القابلة للاختراق لدى شخص كان فى موقف افضل من حيث قدرته على توسعة وتحديد نسقه التصورى عمن يقل عنده هذا النوع من التصورات . ويمكن ان نصف الشخص الأول بأنه متفتح العقل ، ونصف الثانى بأنه مغلق العقل .

ان الفكرة الأساسية عند كيلى هى ان هناك وقائع حقيقية ، وان العمل الأساسى للحياة هو التنبؤ بها على نحو صحيح وضبطها . ويترتب على ذلك أن التكوينات تكون مفيدة فحسب حين تسمح بالتنبؤ الصحيح بالوقائع . أما حين تحول دون التنبؤ الصحيح فانها تتغير ثم تختبر التنبؤات الجديدة .

وحين يحدث قصور فى الاتساق،أى انه حين تناقض الوقائع التوقعات يخبر الشخص القلق . وتعريف القلق هو : « الوعى بأن الوقائع التى تواجه الفرد تقع خارج مدى ملاءمة نسقه التصورى أو التكوينى » ومن هذا التعريف يتضح أن محتوى التوقعات والأحداث ليس له علاقة باثارة القلق ، وانما عدم الملاءمة بينهما أو عدم الاتساق هو الذى يؤدى الى القلق .

وقد نتصور أن القلق ينتج عن التعارضات ذات المغزى والكبيرة بين الوقائع والتوقعات . ولكن الحقيقة ان كيلى يرى ان اى تعارض وتضارب بين التوقع وما يحدث يؤدى الى القلق حتى ولو كان خطأ فى مسألة جمع .

ولا يوجد فى نظرية كيلى ما يساعدنا على فهم الملل وهو حالة من حالات عدم الراحة .

وليس فى نظرية كيلى غرائز أو دفاعات أو عوامل شعورية تتدخل فى عملية المحاولة والخطأ التى يحاول بها الفرد أن يرى العالم على نحو صحيح. والجوانب الوحيدة التى تتدخل فى المحاولة والخطأ التى يحاول بها الفرد أن يعرف العالم ويراه على نحو صحيح . هى الشعور بالاثم guilt والكراهية hoslility والكراهية هى « الجهد المستمر لانتزاع شاهد على مصداقية نوع من التنبؤ الاجتماعى الذى ادركه الفرد على انه خطأ » . والشعور بالاثم هو « الوعى بارتحال الذات عن البنية الأساسية لدورها » . أى هو الشعور الذى نشعر به حين نفعل بما يتناقض مع التنبؤات بسلوكنا. وهذان المفهومان غير طبيعيين فى النظرية ليس بسبب صعوبة ادراك معناهما ، وانما لانه يصعب ربطهما ببنية النظرية. انهما يطفوان ضد تيار بنية نظرية متسقة تتغير فيها التكوينات عندما لا تتيح تنبؤا صحيحا. ولا يوجد فى موضع ما من النظرية باستثناء فكرة الكراهية طريقة تمكننا من أن نتوقع أن شخصا سوف يحتفظ بتكوين غير صادق عندما يواجه شاهدا على عدم مصداقيته . ولا يوجد موضع ما فى النظرية باستثناء فكرة الشعور بالاثم يشير الى افكار مثل الذات والى وجودها مستقلة عن النسق التكوينى للفرد . ويبدو كما لو أن كيلى أراد بتقديم هذين المفهومين ان يقدم بعض التنازلات لطرق التفكير الشائعة والطبيعية فى النظريات التى تتبنى نماذج الحياة باعتبارها عملية غير عقلانية.

مستويات الوعى المعرفى :

ان ما هو شعورى فى سيكولوجية كيلى عن التصورات أو التكوينات الشخصية هو ما يعبر عنه رمزيا باستخدام الكلمات . وتتفاوت تصوراتنا بالدرجة التى نستطيع بها أن نصفها وصفا سليما باستخدام الكلمات ويترتب على هذا التفاوت وجود مستويات للشعور او لاوعى المعرفى . فالتعريف التام لبعض التصورات ممكن ، اما بالنسبة للتصورات الأخرى فاننا نستطيع فقط أن نستحضر كلمة حين نعبر عنها رمزيا . وهناك بعض الوقائع التى تقع خارج مدى ملاءمة تصوراتنا . وهناك أوقات ينبغى ان نقول فيها « ليس لدى

الكلمات التى أعبر بها عن أفكارى وأصفها ».وهكذا يمكن أن نرتب تصوراتنا على أساس مقياس متدرج للوعى المعرفى .

وهنا يبرز كيلى بعض أخطار الاتجـاه الدوجماطيقى الناموسى الذى يطبق على الأفراد . فالعميل الذى يراجع معالجا له هذا التوجه الناموسى قد لا يفصح له عن نزعات أو عقد معينة ، ولكن الأخير قد يفترض توافرها وأن العميل لا يعبر عنها لفظيا لانها موجودة فى لا شعوره . ماذا يحـدث حين لا يرى العميل ذات يوم أن سلوكه عدائى ، بينما تكون عداوته واضحـة للمعالج ؟ وفى اليوم التالى يفسر كثير من سلوكه على انه عدائى ؟ يجيب كيلى أن العميل لا يفسر العالم كما يفسره المعالج ، وانما يفسره على نحو مختلف. وعمل المعالج لا أن يكشف ما يعتقد بوجوده من قبل بل أن يحـاول أن يفهم النسق الذى انشأه العميل.والآن وبعد عدة جلسات حين يفسر العميل سلوكه كما يفسره المعالج ، فان كيلى لا يدعى أن كل ما كان مكبوتا قد افرج عنه . ان هذا لا يعنى بالتأيد أن اللاشعور مفهوم غير أساسى فى الشخصية ، وانما يعنى أنه ينبغى استحضاره بحرص وباحترام للفردية ولمصداقية العميل .

ويقترح كيلى عدم القدرة على التعبير عن بعض الوقائع رمزيا . وهى التكوينات قبل اللفظية والمغمورة والمعلقة . والتكوينات او التصورات قبل اللفظية تتكون قبل اكتسـاب اللغة ولا يعبر عنها رمزيا عادة لان الكلمات لم تكن ميسرة عند تكوينها . فاذا عبر عنها رمزيا فقد تكون هذه الكلمات قشرة لفظية . ومن الفروض المأمونة أن تعتبر العلاقة الرئيسية الموجودة بين الطفل والراشد قبل اكتساب اللغة علاقة اتكال وان هذه التكوينات قبل اللفظيـة تشير الى هذه العلاقات الاتكالية .

والغمر أو الحجب طريقة اخرى تمنع التكوين من الوصول الى الوعى المعرفى . فيقال أن أحد طرفى التصور او التكوين مغمور عنـدما يكون اقل توافرا للترميز عن الطرف الآخر . ولنأخذ الفـرد الذى يرى أن كل الناس كانوا دائما طيبين معه . أن الطرف الآخر للتكوين — وهو عدم طيبة الآخرين معه والذى نعرف بوجـوده لان التكوين ذا قطبين — ليس ميسرا له ؛ انه مغمور محجوب . وعمل المعالج أن ينشىء مع العميل بديلا من البدائل التى

تلائم الطرف المغمور . ان عليهما أن يملآ معا الفراغ فى العبارة : « وكل انسان كان طيبا معى دائما ما عدا . . . »

وهناك طريقة أخرى تؤدى الى عدم التعبير الرمزى عن التصور أو التكوين وذلك حين ينبذ هذا التصور لعدم اتساقه مع النسق الكلى الذى يستخدمه الشخص . ان هذا التصور قد تعرض للتعليق . وكمثال للتعليق يقدم لنا كيلى حالة المريض الذى خبر مشكلات التنافس فى البيت ، والذى كشف أثناء العلاج عن عودة خوفه الشديد من الماء . وهو يذكر بوضوح الظروف التى اكتسب فيها هذا الخوف . فهو كطفل كاد أن يغرق فى برميل من الماء . قد يكون هذا التفسير للخوف المرضى من الماء كافيا ومرضيا لبعض المعالجين كدولارد وميلر ، الا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لكيلى . وبعد مزيد من الاستقصاء ، تذكر المريض انه قبيل واقعة برميل ماء المطر كان قد أوقع أخاه الأصغر وطرحه ارضا ، بينما قالت أمه أنه لو الحق بأخيه اذى فان الله سوف يعاقبه جزاء ما يصنع ، وكاستجابة لتهديد الأم ضرب المريض أخاه . وبعد أن سقط فى برميل الماء حدث تعليق لتكوين أو تصور « التنافس بين الاخوة » ومع التنافس فى الموقف الأسرى فى الوقت الحالى ظهر الخوف من الماء على السطح كأحد عناصر تكوين التنافس .
(W.B. Arndt, Jr. p. 340).

العلاج النفسى :

وفقا لما يراه كيلى،المرضى العصابيون اشبه ما يكون بالعلماء السيئين، ذلك أنهم يستمرون فى القيام بنفس التنبؤات فى غيبة الخبرات التى تثبت صدقها . وبعبارة أخرى فان النسق التصورى للعصابى لا ينبىء على نحو سليم بالوقائع المستقبلية ، وبالتالى فانه لا يمكنه أن يتجنب القلق . ان ما يحتاجه هو نسق من التصورات أو التكوينات ملائم . والعلاج النفسى يستهدف مساعدة هذا الشخص على ان يطور نسقه التصورى . وهو يتيح للفرد الفرصة ليفحص نسقه التصورى ويعيد صياغته . وبعبارة أخرى فان العلاج النفسى يدرب الناس لكى يصبحوا علماء على نحو أفضل .

ولما كان من الواجب أن يتناول العلاج النفسى تصـورات العميل أو تكويناته ، فان على المعالج أن يكتشف أولا هذه التصورات . ولقد وضع كيلى اختبار ذخيرة تصورات الدور لكى يحدد التصورات أو التكوينات التى يستخدمها العميل لكى يلائم بين الأشخاص المختلفين وبين حياته . ومن الصيغ الشائعة للاختبار ما هو وارد فيما يلى . وعلى القارىء أن يجيب عن الاختبار بنفسه لكى يتوصل الى معرفة نسقه التصورى .

والخطوة الأولى فى تطبيق هذا الاختبار أن نطلب من العميل ان يملاء الجزء المرقم من ١ — ٢٢ فى ورقة الاجابة بأسماء ٢٢ شخصا يتصلون بحياته وذلك فى الفراغات بجوار الجدول . وبعد ان يسجل العميل الأسماء يطلب منه أن يقارن بينها فى ثلاثيات . والاسماء الثلاثة التى عليه ان يقارن بينها مبينة بالدوائر فى الشكل (١٥ — ١) وعلى سبيل المثال فان المقارنة الأولى تكون بين الاسماء التى تظهر فى المسافات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ . والمقارنة الثانية بين الأفراد الذين تظهر اسماؤهم فى المسافات أو الخانات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ . وهكذا . ويطلب من العميل ان يختار الكلمة او العبـارة التى تصف كيف يتشـابه اثنان من كل ثلاثى ، وكيف يختلف الثالث عن الاثنين الآخرين . والطريقة التى يتشابه بها شخصان تسجل اسفل كلمة تكوين (تصـور) ، والطريقة التى يختلفان فيها عن الشخص الثالث تسجل اسفل العنـوان (المقابل) Contrast ويوضع الحرف (×) فى دائرة الشخصين المتشابهين وتترك دائرة الشخص المختلف فارغة . والشكل (١٥ — ٢) يوضح ورقة اجابة سجلت فيها اجابة جزئية .

رقم المسافة الخالية : —

١ — اسم العميل الذى يجيب عن الاختبار .

٢ — الاسم الأول للأم او لزوجة الأب .

٣ — الاسم الأول للأب او لزوج الأم .

٤ — الأخ الأقرب اليك فى العمر ، واذا لم يوجد فاسم صبى عمره قريب من عمرك أقرب ما يكون للأخ .

الاسم : ____________

رقم : ______ التاريخ : ______

التصور	للتقابل

شكل (١٥ – ١) ورقة استجابة اختبار كتابي لذخيرة تصورات الدور

	٢٢	٢١	٢٠	١٩	١٨	١٧	١٦	١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١
١		○	○																			
٢				○	○	○																
٣							○		○	○												
٤															○	○	○					
٥																			○	○	○	
٦		○				○												○				
٧						○															○	
٨			○	○																○		
٩					○														○			
١٠					○													○				
١١	○								○									○				
١٢								○											○			
١٣		○						○									○					
١٤																○	○				○	
١٥																○	○			○		
١٦							○							○	○							
١٧																		○	○			○
١٨	○		○	○																		
١٩								○												○	○	
٢٠							○		○													○
٢١									○	○						○						
٢٢															○		○					○

٥ — الأخت الأقرب اليك فى العمر ، واذا لم توجد فبنت اقــرب اليك فى العمر واشبه ما تكون بأختك .

٦ — زوجتك او زوجك ، واذا لم تكن متزوجا فاقرب صديقة او صديق من الجنس الآخر .

٧ — اقرب صديق من الجنس الآخر بعد الشخص الوارد فى البند ٦ .

٨ — اقرب صديق لك من نفس الجنس .

٩ — شخص كان اقرب صديق لك ولم يعد كذلك .

١٠ — قائد دينى على سبيل المثال امام مسجد او واعظ انت على استعداد أن تناقش معه مشاعرك فيما يتصل بالدين .

١١ — طبيبك .

١٢ — الجار الذى تعرفه على افضل نحو .

١٣ — شخص تعرف الآن انه لا يحبك .

١٤ — شخص تشعر بالشفقة نحوه وتود لو تساعده .

١٥ — شخص تشعر معه انك غير مرتاح الى أقصى حد .

١٦ — شخص تعرفت عليه من مدة قصيرة تود لو تعرفه على نحو افضل .

١٧ — المعلم الذى اثر فيك الى أقصى حد عندما كنت فى سن المراهقة .

١٨ — المعلم الذى اختلفت معه اكبر اختلاف .

١٩ — الموظف او المشرف الذى عملت معه أو تحت رئاسته بينما كنت تشعر بتعرضك للضغوط .

٢٠ — انجح شخص تعرفه شخصيا .

٢١ — اسعد شخص تعرفه شخصيا .

٢٢ — افضل الناس خلقا تعرفه شخصيا .

ويمكن أن نرى من الشكل (١٥ — ٢) ان العميل شعر بأن الفردين ٢٠ ، ٢٢ لديهما دافعية عالية ولكن الفرد ٢١ كان كسولا ، وان الفردين ١٨ ، ١٩ خبيثين بينما الفرد ١٧ كان متفهما وهكذا .

شكل (١٠-٢)

التكوين	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	المقابل
١- دافعية عالية																				⊗	O	⊗	كسول
٢- خبيث																	O	⊗	⊗				متفهم
٣- يحتاجني													O	⊗		⊗							مستقل عني
٤- محب للفكاهة						⊗	⊗	O															جاد
٥- هادئ		⊗	O	⊗																			متوتر
٦- ذكي					⊗												⊗				O		غبي

مثال لورقة اجابة اختبار REP . وقد اجاب المفحوص اجابة جزئية عنه والمطلوب منه القيام باثنتين وعشرين مقارنة بدلا من الست الموضحة .

وبتحليل أداء العميل على الاختبار يستطيع المعالج أن يجيب عن عدد من الاسئلة عن نسق العميل التصوري . وعلى سبيل المثال : ما هى التصورات أو التكوينات المستخدمة ؟ وما هى الجوانب التى يؤكد عليها عند الناس ؟ وهل يؤكد على الجوانب الجسمية أو الخصائص الاجتماعية ؟ ومن هم الاشخاص الذين أدركوا على انهم متشابهين ومن هم المختلفون عن العميل ؟ وهل يتوافر لدى العميل عدد كبير من التصورات أم أن لديه عددا قليلا منها ؟

ما مدى صدق هذا الاختبار ؟ ان الاجابة تعتمد على من تسأل . ان هذا الاختبار ليس الا اداة واحدة استخدمها كيلى لكى يفهم النسق التصورى لعملائه . وكانت الأداة الأخرى التى استخدمها أن يسأل العملاء عن أنفسهم . ولقد تبنى كيلى ما سماه اتجاها ساذجا يتسم بسرعة التصديق لعملائه . وبعبارة اخرى لقد شعر ان المعلومات التى يزودونه بها عن أنفسهم يمكن الوثوق بها . « فاذا لم تكن تعرف ما هو خطأ فى العميل ، أسأله ، فقد يخبرك » .

ومما يتسق مع اتجاهه هذا ، ان كيلى كثيرا ما كان يطلب من عملائه أن يكتبوا وصفا مختصرا لانفسهم وذلك فى ضوء تعليمات سنشير اليها عند الحديث عن طرق البحث . والهدف من هذا الوصف المختصر أن يساعد

المعالج على أن يرى كيف يفسر العملاء انفسهم وتفاعلاتهم مع العالم ومع غيرهم من الناس .

علاج الدور الثابت Fixed - role Therapy

لقد اعتقد كيلى أن احد الطرق التى تؤدى بالعملاء الى استكشاف الطرق المختلفة لتفسير الأشياء ان نطلب منهم أن يتظاهروا بأنهم اناس مختلفون . وفى هذا النوع من العلاج — علاج الدور الثابت — يقدم المعالج للعميل وصفا مختصرا لشخصية ويطلب منه أن يمثلها كما يقوم الممثل بدور فى مسرحية . ولكى ييسر عليه تنمية التصورات الجديدة ، فان الشخصية التى يطلب من العميل أن يلعبها مختلفة تماما عن شخصيته . ويطلب كيلى من العميل أن يجرب هذه الشخصية الجديدة كما لو انه سيرتدى حلة جديدة . وفى ظل هذه الظروف يصبح المعالج المثل « السنيد » ولقد بين كيلى ان واجب المعالج أن يقوى ويسند العميل او الممثل الذى يتعثر باستمرار فى السطور التى ينطق بها وحين يخلط فى دوره . (1955, p. 399)

ويلعب العميل دوره لمدة اسبوعين تقريبا ويعيش خلالهما كما لو كان الشخص الذى يلعب دوره فى المسرحية . وخلال هذه الفترة يستجيب المعالج للعميل كما لو كان شريكه ويقدم له تشجيعا وخبرات تثبت صدق التصورات الجديدة التى يقوم العميل بتجريبها . وينبغى أن يقدم المعالج للعميل تشجيعا كافيا ليتغلب على التهديد المتضمن فى التخلى عن تكويناته أو تصوراته الجوهرية وتنمية تصورات جديدة .

« ان ما أقوله هو : « ليس المهم ما يكون عليه الشخص ، وانما ما يجرؤ وما يغامر على أن يعمله من نفسه . ولكى يقفز هذه القفزة لا بد أن يعمل اكثر من مجرد الافصاح عن نفسه ، ينبغى أن يخاطر بقدر معين من الخلط ، ثم بمجرد أن يفعل هذا ان يلقى بنظرة على نوع مختلف من الحياة . فانه فى حاجة الى أن يجد طريقة للتغلب على لحظة التهديد التى تشمله . لان هذه هى اللحظة التى يتساءل فيها حقيقة عما كان عليه وعما سيصبح اليه » (Kelly 1955, p. 165)

ونحن نرى أن كيلى يحافظ على نظريته المعرفية فى العلاج النفسى .. فالمشكلات الانفعالية مشكلات ادراكية . ولكى يحل المشكلة الادراكية ، ينبغى أن يكون الانسان بحيث يستطيع أن ينظر الى الأشياء نظـرة مختلفة . ان العلاج النفسى عملية يشجع بواسطتها العميل على أن ينظر الى الأشـياء نظرة مختلفة بينما يحاول المعالج أن يقلل من القلق وهو يعمل هذا .

ان كيلى يقترح علينا أن العصابيين قد فقدوا القدرة على التظاهر وأن المعالج يحاول أن يساعدهم على استعادة هذه القدرة . ان الافراد الأصحاء يتظاهرون طول الوقت . ويرى كيلى أن العلماء النابهين وكتـاب الرواية والقصة المبدعون يفعلون نفس الشىء ، انهم يتوهمون .

البحوث العلمية والطرق :

ان الطريقة الرئيسية للملاحظة عند كيلى طريقة مباشرة وتتم بالحديث مع المفحوص خلال المقابلة الشخصية . وهو يوصى بما يأتى : « اذا لم تكن تعرف مشكلة العميل فسله عنها فقد يخبر لكبما تريد » (1955, p. 201) وباستخدام طريقة المقـابلة جمع بيانات قيمة من مفحوصين وعمـلاء كانوا يترددون على مركز جامعى للارشاد النفسى .

واتجاه كيلى الذى يتسم بسرعة التصديق لما يقوله المفحوصون لا يعنى أن روايتهم لحدث أو واقعة سوف تتفق دائما مع الطريقة التى يرى بهـا الآخرون نفس الحدث او الواقعة : ذلك أن الروايات عن نفس الواقعة كثيرا ما تختلف باختلاف الراوى . وقد يدلى الفرد بأكاذيب مقصودة . وسرعة التصديق هذه معناها ان المرأ ينبغى عليه أن يحترم ما يقـوله المفحوص . وحين تختلف روايته أو تقريره عن واقعة وعما حدث فعلا ، فلا ينبغى أن نستبعد أقواله ، وانما ينبغى أن نفحص الروايتين جنبا الى جنب .

ولقد وجد كيلى أن من المفيد بالاضافة الى استخدام المقابلة الشخصية أن يطلب من عملائه أن يكتبوا وصفا مجملا لخلقهم . والعميل حين يفعل هذا يشجع على تجنب السرد الزمنى وتجنب كتـابة سلسلة من الاعترافات أو مجموعة من الشكاوى . وتتحدد طبيعة الوصف المحتملة فى ضوء ما يزود به

العميل من تعليمات وسوف نلاحظ أن هذه العمليات تحث على الموضوعية وتقلل من التهديد وتتيح للعميل حرية التعبير وهى على النحو الآتى : —

« أريد منك أن تكتب وصفا مختصرا لخلق فلان كما لو كان الشخصية الرئيسية فى مسرحية . اكتبها كما لو انها مكتوبة من قبل صديق عرفه معرفة وثيقة وبتعاطف شديد،معرفة افضل من اى شخص آخر كان يمكن ان يعرفه حقيقة . تأكد من أنك تكتب الوصف باستخدام ضمير الغائب وعلى سبيل المثال ابدأ بالقول « فلان ..... » (1955, p. 323)

والهدف من هذا الوصف المختصر أن تعرف كيف يتصور الشخص ذلك الجزء من عالمه الذى ينبغى أن تكون علاقته به محددة .

ولكى يتوصل كيلى الى التصورات التى من خلالها يرى المفحوص الآخرين وضع اختبارا سماه اختبار حصيلة تصورات الدور Role Construct Repertory TesT وهذا الاختبار من الناحية المنهجية ما هو الا اختبار على شاكلة اختبارات تكوين المفاهيم كذلك الذى وضعه فيجوتسكى Vigotsky ولكنه بدلا من أن يطلب من المفحوص أن يصنف الأشكال يطلب منه ان يصنف الناس ، فيعرض عليه ما بين ١٥ ، ٢٠ مجموعة من الأسماء تتألف كل واحدة منها من ثلاثة أسماء ، ويطلب منه ان يحدد نواحى التشابه بين اثنين منهم وكيف يختلفان عن الثالث . وهكذا فبالنسبة لمجموعة الأم — الأخت — الخطيب — قد تستجيب المفحوصة قائلة : ان الأم والأخت تتشابهان من حيث أنهما تبالغان فى النقد ، ويختلفان عن الخطيب الذى يتسم سلوكه بالود . وقد تستجيب لمجموعة الأم — الأب رئيسة العمل ، وترى ان الأم ورئيسة العمل عصبيتان ، اما الأب فهو متسامح هادىء . بأى الطرق ترى هذه الفتاة الآخرين ؟ أنها ترى امها مبالغة فى النقد ، وفى العصبية . وبصفة عامة انها ترى الآخرين اما كودودين او ناقدين لاذعين . ومتسامحين هادئين او متوترين . وبهذه الطريقة استطاع كيلى ان يحدد الاحداثيات التى يبحر الفرد فى ضوئها فى علاقاته مع الآخرين .

ولقد انتقد كيلى الاختبار النفسى المقنن لان اختبارات الشخصية المقننة تفرض خصائص وفقا لرؤى واضع الاختبار . ان المفحوص مضطر لان يسلك

تصور واضع الاختبار للشخصية ، ولا يستطيع الباحث بهذه الطريقة أن يتوصل ولا أن يتحقق من طريقة رؤية المفحوص للعالم ، وانما يستطيع أن يعرف من خلال ذلك مدى موافقته على تقييم واضعى الاختبار للعالم . ان هذه الطريقة لا تزودنا بمعلومات عن كيفية رؤية الشخص للأشياء ، وانما تزودنا بمعلومات عن مدى وفائه أو اقترابه من الشكل الذى يحدده الاختبار أو الطراز الذى يمثله . ان الاختبار غير الواضح البنية يتيح للشخص أن يعبر عن تصوره للعالم بدرجة أكبر من الاختبار المقنن وعليك أن تتذكر أن العميل الذى يجيب عن اختبار كيلى REP هو الذى يقدم تصوراته عن الآخرين ولا يجبر على الاختيار من قائمة من التصورات سبق تحديدها . وعند تحليل نتائج الاختبار REP ، لا تقارن استجابات العميل باستجابات الآخرين ، ولكن الذى يقارن هو تصوره لشخص بتصوره لآخر . وبهذا المعنى تكون الاختبارات الاسقاطية اكثر موضوعية من الاختبارات ذات البنية المحددة ، وذلك لان النوع الأول يزودنا بمعلومات أكثر عن موضوع الاختبار — أى عن العميل .

وعندما نظر كيلى الى الاختبارات النفسية فى الموقف الكلينيكى (1955, p.p. 204-206) اقترح خمس وظائف على الاختبار أن يؤديها وهى :

١ — ينبغى أن يحدد مشكلات العميل بألفاظ قابلة للاستخدام . فبالاضافة الى ارتباط الاختبار بمحك خارجى ، ينبغى أن تساعد نتائج الاختبار المعالج على أن يتناول على نحو فعال مشكلات العميل . ولم يكن كيلى مهتما بتصنيف العميل فى فئة طبنفسية تتسق مع مشكلته . ولما كان عمل المعالج ان يتناول مشكلات العميل ، فينبغى أن يكشف الاختبار عن معلومات دينامية لا استاتيكية .

٢ — ينبغى أن يحدد المسارات التى من الممكن للعميل ان يتحرك فيها ليتغير .

٣ — ينبغى أن يزودنا بفروض يمكن اختبارها فى الموقف الكلينيكى . ولا يتوقع من الاختبار ان يزودنا بكلمة نهائية أو بصورة كاملة عن حاضر العميل ومستقبله ؛ ولكن من المتوقع أن يساعد المعالج على أن يصوغ اجابات مقترحة لمشكلات العميل المميزة .

٤ — ينبغى أن يكون مفيدا فى الكشف عن امكانيات العميل التى تستخدم أو يمكن أن تستخدم من قبله. وكثيرا ما تستخدم الاختبارات لتصف ما هو خطأ أو ما ليس فى موضعه، بينما يتم تجاهل خصائص العميل الموجبة.

٥ — ينبغى أن يساعد فى التعرف على مشكلات العميل التى قد تغفل بغير ذلك . وكثير من العملاء أما غير مريدين أو عاجزين عن الكشف عن نقاط الضعف . والاختبار المفيد ينبغى أن يحقق ذلك .

البحـــوث :

لقد بين بيرى عام ١٩٦١ Bieri باستخدام اختبـــار كيلى لذخـــيرة تصورات الدور أن الناس يختلفون فى عدد التصورات الثنائية المتاحة لهم . ولكن هذه الفروق فى التعقيد السيكولوجى والتمايز ليس لها اهمية بالنسبة لموقف كيلى . وقد يكون لها هذه الأهمية فى النظريات التى تهتم بالفـــروق الفردية وبالشخصية الطرفية كما هو الحال فى علم النفس الوجودى وعند جوردن البورت .

ولقد قام سيكرست Sechrest عام ١٩٦٨م بدراسة عملية من النوع الاستقرائى اكثر منها من نوع دراسات اختبار الفروض حيث درس عينتين من طالبات التمريض بلغ حجمها ٥٧ ، ٦٧ فردا على الترتيب . ولقد اجابت كل منهن على اختبار كيلى وعلى اختبار منسوتا للشخصية المتعدد الأوجه MMPI وعلى اداة سوسيومترية تحدد من خلالها مدى دماثة كل عضوة من عضوات الجماعة . ولقد بين سيكرست أن التكوينات الشخصية — ذكى ؛ غير ذكى — قلق ، غير قلق — ودود ، غير ودود — كانت اكثر شيوعا فى الجماعة . وحاول أن يحدد ما اذا كانت التصورات الشخصية التى يستخدمها الفرد تعبر عن حقائق وجوده بمعنى من المعانى . وهذا الفرض ولو انه ليس مشتقا على نحو مباشر من نظرية كيلى الا انه متسق مع تأكيده العام على نوع المحاولة والخطأ العقلانى المطلوب للبحث عن افضل اسس للسير فى الحياة. ولقد توافر لسيكرست درجة عن قدرة كل مفحوص اللغوية مستقاة من تطبيق اختبار ACET American Council on Education Test (وهو اختبار ذكاء) ولقد حاول الباحث أن يقيم هذه الدرجات فى مقابل التصور ذكاء — لا ذكاء .

ثم ربط بين تقدير للقلق مستقى من اختبار منســوتا (مقياس السيكاثينيا) والتصور قلق — غير قلق ، وربط بين التصور ودى — غير ودي وعـــدد الاختيارات السوسيومترية التى نالتها العضوة فى الجماعة . والنتائج مبينة فى الجدول (١ — ١٥) . ومنه يتضح أن المفحوصات ذوات الذكاء المعتدل يحتمل أن يستخدمن التصور ذكي — غير ذكى بتكرار أكبر عن المفحوصات ذوات الذكاء العالى . وفى أدنى مستوى لا يوجد فرق ، وأن المفحوصات اللاتى يستخدمن قلق — غير قلق يغلب أن يكن ذوات قلق مرتفـع أو قلق منخفض على مقياس منسوتا للشخصية المتعددة الأوجه . ولكن نتائج الطرف المتدنى من المقياس فى العينة الأولى لم تظهر فى العينة الثانية وأوثق نتيجة نتأدى اليها من هذه الدراسة ، أن المفحوصات ذوات القلق العالى يستخدمن قلق — غير قلق كتصور ، وبالمثل فان المفحوصات اللاتى يستخدمن التصور ودى — غير ودى فى نسقهم يحظون بعدد كبير من الاختيارات السوسيومترية باعتبارهن أكثر العضوات دماثة . وهذه الدراسة تقدم لنا دليلا على التطابق بين تفسير الشخص للعالم وطريقة سلوكه فيه . وليس فى الامكان على أية حال أن نحدد أيهما يسبق الآخر . وهذا على الرغم من أن استخدام متغيرات غير قابلة للتأثير مثل الذكاء تقترح علينا أن التصورات تتبع الملامح الموضوعية للخبرة ، الا أن هذا الاستنباط ليس مقنعا بالنسبة للقلق وشهرة الشخص أو دماثته .

جدول (١٥ — ١ا)

يبين العلاقات بين التكوينات الشخصية ومتغيرات الشخصية التى تتفق معها

المتغيرات التى تقيسها الاختبارات	الدرجة	الفئة (١) ن = ٥٧ لا يستخدم	الفئة (١) ن = ٥٧ يستخدم	الفئة (٢) ن = ٦٧ لا يستخدم	الفئة (٢) ن = ٦٧ يستخدم
		ذكى — غير ذكى			
A C E الفترة اللغوية	٧٠ +	١٥	٤	١٦	٩
	٦٠ — ٦٩	٦	١١	٨	١٤
	٥٩ فأقل	١٢	٩	١٠	١٠
	مربع كا	٧ر٠٢ دال عند ٠٥ر٠		٣ر٥٧ دال عند ٠٢ر٠	
		قلق — غير قلق			
M M PI درجة مقياس السيكاثنيا	٢٠ +	٢	١٣	٢	١٢
	١٠ — ١٩	١٥	١٥	١٨	٢١
	٩ فأقل	١	٩	٧	٧
	مربع كا	٨ر٦٦ دال عند ٠٢ر٠		٥ر٠٣ دال عند ١ر٠	
		ودى — غير ودى			
عدد الاختيارات السوسيومترية	١٠ +	٦	٢٢	٥	٢٥
	٩ فأقل	١٤	٥	١٥	٢٢
	مربع كا	٤ر٥٢ دال عند ٠٥ر٠		٤ر٥٢ دال عند ٠٥ر٠	

ومع هذا فانه ينبغى القيام بمزيد من البحوث فى هذا المجال . ولعل البحوث التى قام بها آدمز وبير Adams - Webber عن مدى مصداقية الأشكال المختلفة لاختبار كيلى عن ذخيرة تصورات الدور فى القدرة التمييزية توحى

بأن هنالك اهتماما متزايدا بدراسة التكوينات الشخصية.ولقد استخدم جيرتن Guertin عام ١٩٧٣ الحاسب الآلى لتحليل بيانات تصف الأشخاص المهمين فى حياة المفحوص مستخدما تصوراته كمتغيرات ولقد كشف التحليل العاملى عن عوامل شخصية وأخرى ثقافية وثالثة تتصل بالناس .

المكانة الراهنة والتقويم :

بدأ كيلى ممارسته لعلم النفس الكلينيكى دون أن يتلقى تدريبا نظاميا فى مدرسة نفسية معينة ، ومع ذلك فقد انتهى به الأمر الى وضع نظرية فريدة فى الشخصية والى التوصل الى اجراءات فعالة للعلاج النفسى . ولقد اعتقد كيلى أن الحقيقة هى فى الأساس طريقة النظر الى الأشياء . وهذه الفكرة حررته من معتقدات الماضى ، وأتاحت له مرونة فى تجريب أفكاره .

ومن الانتقادات الشائعة لنظرية كيلى تجاهله لمجال الانفعالات الانسانية ، وأنه من الصعب التنبؤ بسلوك الفرد باستخدام نظريته ، وأنه لم يهتم بالبحث عن أصول التكوينات أو التصورات الشخصية ، أى أنه لا يفسر لنا لماذا يختار بعض الأشخاص الأمن والحذر ، ويختار آخرون المغامرة والمخاطرة . ولا يفسر لنا لماذا يختلف شخصان فى تفسير خبرة فيزيقية واحدة ، كما أن أساليبه العلاجية لا تصلح الا لعلاج الراشدين الأذكياء والذين يتعرضون لمشكلات انفعالية غير حادة .

وهذه الانتقادات لا ينبغى أن تثبط همم طلاب العلم ذلك أنه لا توجد نظرية فى الشخصية لم تتعرض لنقد صادق .

ان اتجاه كيلى فى تناول الشخصية يتميز بعقلانية ومن هنا فانه تعرض لنقد شديد لان مجال نظريات الشخصية تسوده النظرة الى الانسان باعتباره كائنا حيا عاطفيا غريزيا . ولكن هذا الفارق الواضح بين اتجاهه واتجاه الآخرين فى تصور الشخصية يجعله جديرا بالدراسة . هذا فضلا عن أن معالجته للشخصية معالجة تكاد تكون مستفيضة وشاملة وانها تقوم على تفكير متأمل .

ويستطيع كيلى أن يدعم جدله المنطقى بالدليل الامبيريقى . وعلماء النفس الذين يجرون بحوثا فى مجال الشخصية حساسون لامكانية تعرض قياساتهم لاثر الاشتهائية الاجتماعية . والحق انك لو القيت على مجموعة من المفحوصين عددا من الاسئلة عن انفسهم ، فسوف يميلون الى اختيار الاجابة المستحسنة اجتماعيا،او للاجابة على النحو الذى يريده عالم النفس.وواضح ايضا انهم يهتمون اهتماما شديدا بالغرض من القياس وبنتيجة مشاركتهم فى البحث.وافضل طريقة للتغلب على هذين العاملين بحيث لا يحدد المفحوصون اهداف البحث،ولا يتخيرون الاجابات المستحسنة اجتماعيا أن نضع اختبارات بطريقة تحول دون ظهور اثر هذين المتغيرين . وقد نجح كيلى فى هذا والادلة الامبيريقية المتوافرة تدعم صحة ما ذهب اليه كيلى .(Maddi : p. 144)

الفصل السادس عشر

كارل روجرز

ولد كارل روجرز فى يناير ١٩٠٢ فى أوك بارك احدى ضواحى شيكاغو بولاية الينوى ، وكان ترتيبه الرابع بين ستة أطفال . وكان والده مهندسا مدنيا ناجحا . ومقاولا ومن هنا فان روجرز لم يواجه مشكلات اقتصادية فى حياته المبكرة . ولقد وصف روجرز نفسه قائلا انه « الطفل الأوسط فى أسرة كبيرة الحجم ، علاقات أعضائها وثيقة ، يحترم فيها الاجتهاد فى العمل والاتجاهات الدينية المحافظة بدرجة متساوية » (1959, p. 186) ولقد عمل والداه على اثنائه عن تكوين صداقات خارج البيت لانهم كانوا يرون ان الأفراد خارج الأسرة ينغمسون فى أنشطة موضع شك وريبة .

يقول روجرز « اعتقد أن الاتجاهات نحو الأشخاص خارج أسرتنا الكبيرة يمكن تلخيص أساسياتها بالطريقة الآتية : الأشخاص الآخرون يسلكون بطرق مشكوك فيها لا توافق عليها أسرتنا ، فكثير منهم يلعب الورق ، ويذهب الى دور السينما ، ويدخن ويشرب وينغمس فى أنشطة أخرى غير قابلة للذكر . ولهذا فأفضل شىء يعمل هو أن نتسامح معهم ، لانهم قد لا يعرفون أفضل من هذا ، وان نبتعد عن اى تواصل وثيق معهم وأن نحيا حياتنا داخل الأسرة » (1973, p. 3)

ونتيجة لهذا الاتجاه نحو الآخرين خارج نطاق الأسرة ، قضى روجرز قدرا كبيرا من الوقت مع نفسه ، وقرأ كل ما استطاعت يداه ان تقع عليه بما فى ذلك دوائر المعارف والقاموس . وحين بلغ الثانية عشرة من عمره انتقلت اسرته الى مزرعة تبعد مسافة ثلاثين ميلا عن شيكاغو . وفى هذه المرحلة بدا اهتمام روجرز بالعلوم ونمو ويتطور ، وذلك لان أباه أصر على ان تدار المزرعة على أسس علمية ، فقرأ روجرز عن كثير من التجارب الزراعية ، كما زاد ميله واهتمامه بأنواع من العتة والسوس فسادها وربابا . وهذا الاهتمام بالعلوم لم يترك روجرز على الاطلاق اى انه لازمه طوال حياته على الرغم من انه عمل فى مجال من اكثر مجالات علم النفس بعدا عن الموضوعية .

وقد استمر ميل روجرز الى العزلة طوال دراسته بالمدرسة الثانوية ، وكان طالبا ممتازا حصل على التقدير (أ) باستمرار ، وكان اهتمامه الأساسى منصرفا الى دراسة اللغة الانجليزية والعلوم .

وفى عام ١٩١٩ م التحق روجرز بجامعة وسكنسن ، وهى الجامعة التى تعلم فيها والده من قبل بل وتعلم فيها ايضا اخوان له واخت ، ولقد اختار ان يدرس فى مجال الزراعة . وكان روجرز يشارك بهمة فى اعمال الكنيسة وانشطتها فى السنوات الأولى بالجامعة ، وفى عام ١٩٢٢ م اختير كواحد من بين عشرة طلاب جامعيين ليحضروا مؤتمرا مسيحيا عالميا ببكين بالصين . وكان لهذه الرحلة التى استغرقت ستة شهور اثرها العميق فى روجرز ، وبعد أن تفاعل واختلط مع أناس من ثقافات مختلفة وديانات متباينة كتب الى والديه معلنا استقلاله عن وجهة نظرهم المحافظة فى الدين. وعند عودته الى جامعة وسكنسن غير تخصصه الرئيسى من الزراعة الى التاريخ وحصل على بكالوريوس فى الآداب عام ١٩٢٤ م .

وبعد تخرجه تزوج من هيلين اليوت — رغم معارضة والديه — وانجبا طفلين. وقد اهتم روجرز فى هذه الفترة بمساعدة الأفراد على حل مشكلاتهم. ولقد تزايد شكه فى أن مذهبه الدينى المسيحى افضل اداة لمساعدة الفرد على التخفف من مشكلته . ولقد انتقل روجرز الى جامعة كولومبيا لدراسة علم النفس التربوى وعلم النفس الكلينيكى ، وحصل على درجة الماجستير عام ١٩٢٨ م ودرجة دكتوراه الفلسفة عام ١٩٣١ م ، وكانت رسالته عن قياس تكيف الشخصية لدى الأطفال .

وخلال عمل روجرز للحصول على درجة الدكتوراه اشتغل كعالم نفس فى قسم دراسة الطفل فى جمعية حماية الأطفال من القسوة فى روشستر بنيويورك وذلك لمدة عام . ولقد اتيح له فى هذا العمل بعض الخبرات التى اثرت تأثيرا عظيما فى نظريته فى الشخصية فيما بعد كما اثرت فى طريقته فى العلاج النفسى . ولقد تعلم اولا : أن طريقة التحليل النفسى التى سيطرت على أعضاء القسم الذى يعمل فيه غير فعالة ولا مؤثرة فى كثير من الحالات ، وتعلم ثانيا : أن الطرائق المتبعة فى العلاج النفسى التى درسها فى كولومبيا وتلك التى درسها فى قسم دراسة الطفل مختلفة اختلافا

كبيرا ، هذا فضلا عن أنه تعلم أن الثقاة فى العلاج النفسى والأعلام فيه لا يستطيعون الاتفاق على أفضل طريقة لعلاج الشخص المضطرب فى كثير من الحالات . وتعلم ثالثا : أن البحث والسعى لفهم المشكلة والاستبصار كثيرا ما قوبل بالاحباط . ولقد وصف روجرز أحد المواقف التى شعر فيها أن نبذ الأم لابنها كان السبب فى سلوكه الجانح . ولقد حاول جاهدا أن يشرك الأم فى فهم الحالة ولكنه أخفق . يقول « وفى النهاية كففت عن المحاولة » وأخبرتها بأننا فيما يبدو قد حاولنا ولكننا فشلنا .... ووافقت على ما أقول . وهكذا أنهينا المقابلة وتصافحنا وسارت الى باب المكتب ثم استدارت وسألته « هل تقوم بارشاد الكبار نفسيا هنا ؟ وعندما أجبت عن سؤالها بالايجاب قالت « حسنا اننى فى حاجة الى بعض المساعدة » وعادت فجلست على الكرسى الذى تركته وبدأت تعبر فى تدفق عن يأسها حول زواجها وعن احساسها بالفشل ، وكان هذا مختلفا تماما على تاريخ الحالة الذى أدلت به الى من قبل ولقد بدأ العلاج النفسى الحقيقى عندئذ .

ولقد كانت هذه واقعة واحدة من بين عدد من الوقائع التى ساعدتنى على أن أدرك حقيقة — ثبتت على نحو تام فيما بعد — وهى أن العميل وحده هو الذى يعرف ما يؤذيه ، والى أى الاتجاهات يذهب ، وما هى المشكلات الهامة ، وما هى الخبرات التى دفنت دفنا عميقا . ولقد بدأ يخطر على ذهنى إنى سوف أحسن عملى لو اعتمدت على العميل لتحديد اتجاه التحرك فى عملية العلاج » (Rogers 1961, p.p: 11 - 12)

ولقد ألف روجرز أول كتبه عندما كان يعمل فى قسم دراسة الطفل وكان عنوانه : The Clinical Treatment fo the Problem Child

العلاج الكلينيكى للطفل المشكل (١٩٣٩) . وفى عام ١٩٤٠ انتقل روجرز من العمل الكلينيكى الى العمل الاكاديمى حين قبل وظيفة فى علم النفس الكلينيكى فى جامعة ولاية اوهايو . وبدأ روجرز يصوغ طريقته فى العلاج النفسى ويختبرها .

وفى عام ١٩٤٢ نشر كتابه المشهور الآن : « الارشاد والعلاج النفسى : مفاهيم جديدة فى الممارسة »

Counseling and Psychotherapy : Newer Concepts in Practice

وقد رأى كثيرون فى هذا النوع من الارشاد والعلاج النفسى البديل الأساسى للتحليل النفسي . وكان الناشر مترددا فى نشر الكتاب خشية الا يباع منه الفان وهو عدد النسخ الذي يحول دون الخسارة . ولقد بيع من هذا الكتاب حتى عام ١٩٦١ ما يزيد عن سبعين الف نسخة ، وما يزال هناك اقبال على شرائه .

وفى عام ١٩٤٥ ترك روجرز ولاية اوهايو ليصبح استاذا لعلم النفس بجامعة شيكاغو ومديرا للارشاد النفسى بها . وخلال هذه المدة نشر الكتاب الذى يعتبره الكثيرون اهم كتبه : « العلاج المتمركز حول العميل : الممارسة الحالية والمضامين النظرية »

Client - centered therapy : Its Current Practice, Implications and Theory (1951)

وفى عام ١٩٥٧ ترك روجرز جامعة شيكاغو ليعود الى جامعة وسكنسن حيث احتل مركزين هما : استاذ علم النفس واستاذ الطب النفسى . وفى عام ١٩٦٣ م استقال من منصبه ليصبح عضوا فى المعهد الغربى للعلوم السلوكية .

Western Behavioral Sciences Institute (WBSI) in La olla, California

فى كاليفورنيا . وفى عام ١٩٦٨ ترك روجرز وعدة اعضاء آخرين من ذوى الاتجاه الانسانى هذا المركز ليؤسسوا مركزا لدراسات الشخص فى نفس المكان وما يزال روجرز يعمل فى هذا المركز حتى الآن .

ولقد اقترنت كثير من تنقلات روجرز بتحول فى اهتماماته واساليبه وفلسفته . ففي نقلته الأخيرة اكد على اهتمامه بالفرد من حيث خبرته بالعالم الذى يعيش فيه . ويقرر روجرز فى عمل علمى حديث نشر له عام ١٩٧٢ « اننا مهتمون اهتماما عميقا بالأشخاص ولكننا نجد الطرائق التقليدية تثنينا عن ذلك لانها تدرس الأشخاص كما لو كانوا اشياء موضع بحث »(1972, p. 67) ويعكف روجرز حاليا على دراسة عدد من الأنشطة الجماعية التى تساعد الفرد على تنمية ذاته كالتدريب على الحساسية ، وهو مهتم اساسا باكتشاف الشروط والملابسات التى يستطيع شخص ما فى ظلها ان ينمى امكانياته تنمية

شاملة . ووفقا لما يراه روجرز أن أهم مصدر لدى الأفراد وفى داخلهم هو ميلهم الى تحقيق الذات . وسوف نتناول ذلك فيما بعد .

النزعة الى تحقيق الذات :

يسلم روجرز بوجود دافع رئيسى واحد يسميه النزعة الى تحقيق الذات « ان لدى الكائن الحى نزعة أساسية واحدة تكافح ليحقق الكائن الحى الذى يعيش للخبرة ذاته ويحافظ على بقائها ويزيد من قيمتها . وهناك مصدر رئيسى واحد للطاقة فى الكائن الحى الانسانى ، وان هذه الطاقة وظيفة الكائن الحى ككل وليس لجزء منه ، ويحتمل ان افضل تصور له أن نتصوره كنزعة نحو الكمال والتحقيق ونحو المحافظة على الكائن الحى وزيادة قيمته » (Rogers, 1963. p. 6)

ويرى روجرز أن الناس جميعا شأنهم فى ذلك شأن الكائنات الحية العضوية لديهم حاجة فطرية للبقاء وللنمو ولتقوية النفس. ان جميع الدوافع البيولوجية تندرج تحت النزعة الى تحقيق الذات ، لانه لا بد من اشباعها لكى يستمر الكائن الحى فى نموه الايجابى . وهذه الدفعة الى الامام للحياة تستمر على الرغم من العقبات. وعلى سبيل المثال الست ترى الأطفال الذين يبدأون فى تعلم المشى ، يحاولون رغم تعثرهم وانتكاساتهم أثناء المشى ، ويعمدون الى المضى فى التعلم حتى يصلوا الى مستوى رفيع من التوازن والمهارة فى حركات المشى ؟ وثمة امثلة كثيرة لافراد يعيشون فى ظل ظروف حياتية قاسية ولكنهم لا يكافحون من اجل البقاء فحسب ، بل يعملون على تحسين حياتهم .

وقد يثار السؤال : الى اى وجهة تتحرك النزعة الى تحقيق الذات ونحو أى هدف ؟ واجابة روجرز تدل على أن نظرته للطبيعة الانسانية تخالف نظرة فرويد . فالأخير يرى أن للناس جميعا نفس الحاجات والدوافع شأنهم فى ذلك شأن الحيوان . وعلى هذا فلا بد أن يضبط المجتمع نزعاتهم لاشباع دوافعهم الجنسية والعدوانية . اما روجرز فيرى أن الناس خيرين فى الأساس ولذلك فانهم ليسوا فى حاجة الى ضبط اجتماعى . بل أنه يعتقد أن محاولة ضبط الانسان هى التى تجعله يسلك سلوكا سيئا . ونظرة روجرز

هذه الى الطبيعة الانسانية تجعله واحدا من دعاة الاتجاه الانسانى فى علم النفس « ان تعاطفى ضئيل مع المفهوم الشائع بأن الانسان فى أساسه غير عقلانى ، وأن نزعاته اذا لم تتم السيطرة عليها فسوف تؤدى الى تدمير غيره وتدميره هو أيضا . ان سلوك الانسان عقلانى ورائع فيتحرك فى تعقيد بالغ الدقة والنظام نحو الأهداف التى يحاول تكوينه العضوى الوصول اليها »
(Rogers, 1961, p.p. 194 - 195).

ويدرك روجرز بطبيعة الحال أن الأفراد يتصرفون فى بعض الأحيان بطرق غير ملائمة ، ولكنه يذهب الى ان مثل هـذه التصرفات لا تتسق مع الطبيعة الانسانية انها تنشأ من الخوف والأساليب الدفاعية . « وانا على وعى تام بأن الافراد نتيجة لخوفهم الداخلى ولدفاعاتهم قد يسلكون بل ويسلكون فعلا بطرق قاسية على نحو غير معقول ومدمرة تدميرا مفزعا ، وغير ناضجة ونكوصية ، ومضادة للمجتمع ومؤذية . غير انه من اكثر الخبرات التى لدى انعاشا وتنشيطا العمل مع مثل هؤلاء الأفراد واكتشاف اتجاهاتهم الايجابية القوية فى أعمق المستويات وهى تماثل ما يتوافر لدينا .
(Rogers, 1961: p: 27).

ان الميل الى تحقيق الذات هو قوة دافعة لدى كل فرد فى حياته ، تدفعه الى أن يتمايز ويزداد استقلالا ، والى ان يصبح اكثر التزاما واحساسا بالمسئولية من الناحية الاجتماعية . وسوف نتناول أهداف النزعة الى تحقيق الذات بمزيد من الايضاح حين نتناول خصائص الذين يؤدون وظائفهم على اكمل وجه .

ان جميع خبرات الكائن الحى تتعرض للتقويم باستخدام النزعة الى تحقيق الذات كاطار مرجعى . ويطلق روجرز على هذه الطريقة من طرق التقويم لخبرات الفرد عملية التقويم العضوية organismic valuing process أما الخبرات المضادة للنزعة الى تحقيق الذات فهى غير مرضية ، وبالتالى فان الفرد يتجنبها وينهيها . ان عملية التقييم العضوية اذن تخلق نظاما للتغذية الرجعية يتيح للفرد أن ينسق خبراته وميله نحو تحقيق الذات .
(Hergenhahn, pp. 304-306)

المجال الظاهرياتي وتكوين مفهوم الذات :

يرى روجرز أن الناس جميعا يعيشون في عالمهم الذاتي والذى يمكن معرفته بمعنى كامل فحسب من خلال ذواتهم . ان هذا الواقع الفنومنولوجى وليس الواقع الفيزيقى هو الذى يحدد سلوك الناس . وبعبارة أخرى فان طريقة رؤية الناس للأشياء هى الواقع الوحيد بالنسبة لهم . وهذا الواقع الخاص يتفق بدرجات مختلفة مع الواقع الفيزيقى ، ويتوقف هذا على الفرد. وهذا الواقع الذاتى الفنومنولوجى هو الذى يحاول المعالج أن يفهمه وهناك قدر كبير من التشابه فى هذه النقطة بين نظرية روجرز ونظرية كيلى . انهما يؤكدان على التفسير الذاتى الفردى للخبرة ، ولذلك يطلق عليهما فنومنولوجيان . والفرق الأساسى بينهما يقع فى الميل الى تحقيق الذات فالنقطة الأساسية عند كيلى هى أن الأفراد يحاولون باستمرار تجريب تكوينات جديدة new constructs لكى يتوصلوا الى أفضل مجموعة من التكوينات تمكنهم من التنبؤ بالمستقبل . ولا يوجد عند كيلى حالة محددة فطريا يتطور نحوها جميع البشر ، وانما يبتكر كل فرد شخصيته ، بدلا من أن تتحدد ملامحها الأساسية وراثيا .

ويميز روجرز بين الخبرة والوعى . ان الخبرة هى كل ما يدور داخل بنية الكائن الحى فى أى لحظة ، وهى متوافرة بالامكان للوعى . وحين يعبر عن هذه الخبرات الممكنة بالرمز تدخل الوعى وتصبح جزءا من مجال الشخص الفنومنولوجى . والرموز التى تستخدم كأداة لادخال الخبرات الى الوعى هى الكلمات عادة ، ولكنها لا تكون بالضرورة كلمات ، ذلك أن الرموز يمكن أن تكون صورا بصرية وصورا سمعية . والتمييز بين الخبرة والوعى هام لان هناك شروطا معينة تؤدى بالفرد الى انكار خبرات معينة او تشويهها ، وبالتالى منعها من دخول وعيه .

ويلخص روجرز (1959, p. 222) هذه النقاط حين يصف الخصائص التى يعتقد أن الطفل الانسانى الصغير يمتلكها على النحو الآتى : —

١ — ان ما يدركه الأطفال هو واقعهم وبالتالى فانهم الوحيدون الذين

يستطيعون أن يعوا واقعهم ولا يستطيع أى شخص آخر أن يدرك اطارهم المرجعى الداخلى .

٢ — يولد جميع الأطفال ولديهم نزعة الى تحقيق الذات .

٣ — يحاول الأطفال اشباع حاجاتهم لتحقيق الذات وبالتالى فان سلوكهم موجه نحو هدف .

٤ — يسلك الأطفال فى تفاعلاتهم مع البيئة ككل منظم . أى أن كل ما يفعلونه يتصل بعضه بالبعض الآخر .

٥ — يستخدم الأطفال عملية تقييم عضوية خاصة بهم كاطار مرجعى لتقييم خبراتهم . وتقييم تلك الخبرات التى تدرك على انها متفقة مع نزعتهم لتحقيق ذاتهم تقييما موجبا ، اما الخبرات التى تدرك على أنها مضادة لنزعتهم هذه فتقييم تقييما سلبيا .

٦ — يبحث الأطفال عن الخبرات التى تيسر تحقيق الذات ويحافظون عليها ويتجنبون الخبرات التى تعوق ذلك التحقيق .

ويعتبر بزوغ مفهوم الذات اهم حدث منذ الميلاد وبعده . ويتكون من خلال تفاعل الفرد مع بيئته . والتفاعل الهام الذى يؤدى الى تكوين مفهوم الذات هو ذلك الذى يتضمن طريقة تقويم الآخرين للطفل . أى ان الخبرات الذاتية المرتبطة بتلقى التقدير الموجب من الآخرين ذوى الأهمية تتمثل وتستوعب فى مفهوم الذات ، بينما تلقى الخبرات الذاتية التى تقيم تقييما سالبا والتى ترتبط بغيبة التقدير الاجتماعى الموجب النكران من وعى الفرد . فمفهوم الذات اذن هو الى حد كبير مرآة وانعكاس لتقييمات الآخرين خلال الطفولة . (Hergenhahn, pp. 306-307)

وصف روجرز للشخصية :

يقدم لنا روجرز اثنين وعشرين قضية عن تصوره للشخصية الانسانية . وعلى الرغم من أن كل قضية من هذه القضايا واضحة بذاتها كما صاغها

روجرز ألا أنه قد يكون من المفيد أحيانا اضافة بعض العبارات التى تساعد على توضيحها : —

١ — « يوجد كل فرد فى عالم دائم التغير من الخبرة ، وهو فى مركز هذا العالم » أى اننا نعيش فى عالمنا الخاص الذى يتألف من خبرات فى عالم لا يبقى على حاله من يوم الى آخر . ان هذه النظرة تؤكد على اهمية الاستبطان ، وقد تكون الخبرة شعورية أو قبل شعورية . فحين تكون الخبرة شعورية فانها تتصل بعالم الرموز ، وعالم الفرد لا يمكن أن يعرف بمعنى أصيل وكامل ألا للفرد نفسه . وقد لا يتوصل الفرد الى هذه المعرفة بالذات ولو ان لديه الاستعداد لذلك .

وعلى أساس هذه القضية يعتبر الشخص افضل مصدر للمعلومات عن نفسه . وتعبر عباراته عن الخبرة الداخلية وترمز لها ، ومن هنا فان عالم النفس لا يستطيع أن يعرف ما يدور فى عالم عميله الخاص الا بالاصغاء لما يقوله . وان موقف العلاج المتمركز حول العميل يؤكد على اهمية توفير التسامح والتقبل غير المشروط لكل ما يقوله العميل حتى يوفر جوا مواتيا يتيح له التعبير عن ذاته تعبيرا حرا صريحا .

٢ — يستجيب الكائن الحى للمجال كما يخبره ويدركه « ان المجال المدرك بالنسبة للفرد هو الحقيقة والواقع . وقد يكون هذا الواقع بالنسبة للفيلسوف مجردا ، ولكنه بالنسبة للفرد الذى يخبره واقع يختبره ويتقبله من خلال جهازه الادراكى . وحين يتوافر للفرد جهاز ادراكى متسق مع نفسه فانه يتوافر لديه درجة من القبلية للتنبؤ يستطيع أن يعتمد عليها .

٣ — « يستجيب الكائن الحى للمجال الظاهرياتى ككل منظم » ويشعر روجرز أن ثمة خاصية اساسية لحياة الفرد وهى ميله نحو اصدار استجابات منظمة او كلية يوجهها الهدف او المرمى . وهو لا يستطيع أن يتقبل تفسير السلوك على أساس من المثير والاستجابة » .

٤ — للكائن الحى نزعة واحدة اساسية وهى أن يكافح لتحقيق الكائن الحى الذى يحيا الخبرة ليحافظ على نفسه ويزيد من قيمتها » ولا يتاح للفرد

ان يحقق ذاته ما لم يستطيع تمييز مسارات السلوك التى تؤدى الى التقدم ، وعليه ان يعرف قبل ان يختار ما يناسب تحقيق ذاته حتى يختار مسار النمو ويتجنب النكوص .

٥ — « ان السلوك فى اساسه محاولة موجهة نحو هدف ، يقوم بها الكائن الحى لاشباع حاجاته كما يخبرها فى المجال كما يدركه » وجميع الحاجات فى اساسها يتصل بعضها بالبعض الآخر . وفضلا عن ذلك فان جميع استجابات الكائن الحى لا تكون للواقع كما يراه الآخرون ، ولكنها تكون للواقع المدرك من قبل الفرد . ويشعر روجرز شأنه فى ذلك شأن البورت أن الدافعية توجد فى الأساس فى الحاضر . ولا يوجد سلوك الا ذلك الذى يحدث ليشبع حاجة حاضرة .

٦ — « الانفعال يصاحب السلوك الموجه نحو هدف وييسره » . ويقصد بالانفعال ذلك النوع الذى يرتبط بالبحث ولا يقصد به ما يرتبط بالجوانب الاستهلاكية للسلوك ، وان تتصل شدة الانفعال بالمغزى المدرك للسلوك ، ليحافظ على الكائن الحى ويزيد قيمته . وتحاول الشخصية ان تحقق تكاملا بين نوعين من الانفعالات ، الانفعالات المثيرة غير السارة ، والانفعالات الهادئة المشبعة.ويحدد الادراك شدة الاستجابة الانفعالية .

٧ — « ان افضل موقع لفهم السلوك هو من خلال الاطار المرجعى الداخلى للفرد نفسه » ان ما يبدو سلوكا غريبا مفرغا من المعنى عند ملاحظ معين قد يكون سلوكا غرضيا هادفا عند الفرد ، وهناك صعوبات كبيرة ومآخذ عند محاولة التوصل الى الشعور المستبطن لأى شخص . وبما أن هناك جوانب من حياتنا تشابه جوانب حياة الشخص الآخر فقد نستطيع أن نستنتج السلوك الاستبطانى . غير ان التصورات القبلية او المشتقة لدينا قد تحطم القدرة على فهم الشخص الآخر وسبرغوره.

وتقدير الفرد عن نفسه قد لا يقدم لنا صورة كاملة عن شخصيته تكشف كل محددات سلوكه وذلك لمواجهته احدى العقبات الآتية : —

(أ) انه يعى اسباب سلوكه ولكنه يعجز عن التعبير عنها .

(ب) الا يعى الفرد جميع خبراته فيكون من المحال التعبير عنهـا للآخرين ونقلها .

(ج) أن يعى خبراته ويجبر على التعبير عنها فيعمد الى التمويه .

وعلى ذلك فان استخدام التقرير الذاتى هو افضل المداخل لفهم شخصية الفرد وسلوكه من خلال اطاره المرجعى الذاتى فى الموقف المشجع للعلاج المتمركز حول العميل (هول ولندزى — فرج : ٦١٧) .

٨ — « يتمايز جزء من المجال الادراكى الكلى على نحو تدريجى ليصبح الذات » ويرى روجرز أن من الصعب جدا أن ندرس كيفية نمو الذات وتطورها . واننا لم نحقق كثيرا من التقدم فى هذا المجال . والذات هى وعى الفرد بوجوده ونشاطه ، وهى كموضوع مجموع الخبرات التى تنسب الى ضمير المتكلم .

٩ — « تتكون بنية الذات نتيجة للتفاعل مع البيئة وخاصة التفاعل التقويمى مع الآخرين » . والذات نمط منظم مرن ولكنها نمط تصورى متسق من مدركات خصائصى انا وعلاقاتى بالاضافة الى القيم المرتبطة بهذه التطورات » .

يتعلم الطفل التمييز بين ذاته والبيئة التى يعيش فيها فيدرك أن بعض الأشياء تخصه ، وأن البعض الآخر يخص بيئته ، ويبدأ فى تكوين تصور عن نفسه ، وتتخذ بعض خبراته خاصية موجبة فيحبها ، ويتخذ البعض الآخر خاصية سالبة فلا يحبها ، ويقوم بناء الذات لديه على وعيه بذاته كشكل بارز على ارضية من البيئة والآخر .

١٠ — « القيم المرتبطة بالخبرات ، والقيم التى تشكل جزءا من بنية الذات تكون فى بعض الحالات قيم خبرها الكائن الحى مباشرة ، وفى بعض الحالات الأخرى قيم يتشربها أو يأخذها عن الآخرين ولكنها مدركة بشكل مشوه كما لو أنه خبرها على نحو مباشر » وللخبرات قيم ، وهذه القيم قد تدرك وتكتسب من الآخرين وتشوه ، ولكن مهما كان مصدرها فانهـا تصدر عن الخبرات . ويستمتع الطفل فى القيام بأنشطة منوعة يثابـ

على بعضها من الوالدين ويعاقب على البعض الآخر . ويعاقب الطفل حين يعاقب على فعل او نشاط يجده مصدر متعة له فينشأ صراع بين الحصول على اللذة وتجنب الألم ، مما يضطره الى مراجعة صورة ذاته وما لديه من قيم أو تؤدى هذه المراجعة الى تشويه قيمه ومشاعره .

١١ — « مع حدوث الخبرات فى حياة الفرد فانها اما ان » : —

(أ) يعبر عنها رمزيا وتدرك وتنظم فى علاقة ما مع الذات .

(ب) أو يتم تجاهلها لعدم وجود علاقة مدركة مع بنية الذات .

(ج) أو تنكر الصورة الرمزية بالنسبة لها وتشوه لانها لا تتسق مع بنية الذات .

ان الادراك انتقائى ، واساس الانتقاء هو مدى اتساق الخبرة مع صورة الذات لدى الفرد فى اثناء عملية الادراك . وانكار الخبرة معناه تزييف الواقع سواء اكان ذلك بالقول بعدم وجوده او بادراكه فى صورة مشوهة . فقد ينكر الفرد مشاعره العدوانية لانها تخالف صورته المسالمة الودودة وفى هذه الحالة يعبر عن مشاعره باسقاطها على الآخرين ، وعن طريق تصوير رمزى مشوه (هول لندزى — فرج ٦٢٠).

١٢ — « تتسق معظم طرائق السلوك التى يأخذ بها الكائن الحى مع مفهومه لنفسه » ومعنى ذلك أن افضل طريقة لتعديل السلوك هى البدء بتغيير مفهوم الفرد عن نفسه . وتأمل الذات بطبيعة الحال المحافظة على السلوك الذى يتسق مع صورتها عن نفسها .

١٣ — « قد يصدر السلوك فى بعض الحالات عن خبرات وحاجات عضوية لم تصل الى مستوى التعبير الرمزى » وفعل هذا السلوك قد لا يكون متسقا مع بنية الذات : غير انه فى مثل هذه الحالات لا يكون السلوك مملوكا للفرد . ذلك ان السلوك الذى لا يسيطر عليه الفرد يعتبر غير منتمى للذات . وكثيرا ما يقول الفرد حين يصدر عنه مثل هذا السلوك حين يسأل عنه « لم اكن فى طورى » أو « لقد فعلته رغما منى » أو « ليس هذا من طبعى » .

١٤— « يوجد سوء التوافق النفسى حين ينكر الكائن الحى وعيه بخبرات حسية وحشوية لها مغزاها . ويؤدي هذا بدوره الى عدم التعبير عنها رمزيا وانتظامها فى جشطلت بنية الذات . وحين يوجد هذا الموقف قد يحدث توتر نفسى أساسى أو تتوافر امكانيــة حدوثه » ولا تستطيع الشخصية أن تحقق ذاتها ما لم تكن الخبرات صادقة أى تعبيرا حقيقيا عن الذات الحقيقية .

١٥— « يوجد التوافق النفسى حين يكون مفهوم الذات بحيث تتمثل جميع خبرات الكائن الحى الحسية والحشوية فى علاقة متسقة مع مفهوم الذات ويكون هذا التمثل على المستوى الرمزى » عندئذ ينخفض التوتر ويتوافر لدى الشخصية شعور جديد عن ذاتها .

١٦— « قد تدرك أى خبرة لا تتسق مع بنية الذات أو تنظيمها كتهديد وكلما كثرت هذه المدركات زاد الجمود فى تنظيم بنية الذات لكى تحافظ على نفسها » وتنكر الذات عادة هذه الخبرات التى تهددها فيزداد ابتعادها عن واقع الكائن الحى مما يتطلب دفاعات أكثر للمحافظة على صورة زائفة تصر الذات على التشبث بها .

١٧— « فى ظل ظروف معينة تتضمن غيابا تاما لأى تهديد لبنيــة الذات ، يمكن أن تدرك خبرات لا تتسق معها وتفحص ، وتراجع بنية الذات لكى تستوعب هذه الخبرات وتشملها » .

١٨— « حين يدرك الفرد جميع خبراته الحسية والحشوية ويتقبلها فى نظام واحد متسق ومتكامل ، يصبح عندئذ بالضرورة أكثر فهما للآخرين وتقبلا لهم كأفراد منفصلين » وحين تنمى الشخصية مفهوما للذات متسقا ، فانها تقدر كنتيجة طبيعية لذلك على تكوين علاقة شخصية طيبة متبادلة مع الآخرين .

١٩— « مع ادراك الفرد لمزيد من خبراته العضوية وتقبله لها فى بنية الذات يجد أنه يستبدل نظامه القيمى الحالى — الذى يقوم على ما يستدمجه من الآخرين والذى تعرض لتشويه رمزى — بعملية تقييم عضــوية مستمرة » ومع زيادة ثقة الفرد فى عملية التقييم يجد النظام القديم غير

ضرورى ولم يعد يهدده . وكلمة نظام تحمل معنى الثبات . بينما كلمة عملية تدل على التغيير ؛ والتوافق السليم يتطلب من الفرد أن يقيم خبراته على نحو مستمر وأن يعدل فى بنيسة قيمه حين يكون ذلك ضروريا للتكيف . والسؤال وهو ما يثيره روجرز هل تسفر عمليسة التقييم المستمرة لخبرات الفرد عن فوضى اجتماعية ؟ ويجيب بالنفى لان الناس جميعا لهم نفس الحاجات وسوف ينمسكون بدرجة عالية من الاتفاق فى القيم . (هول ولندزى — فرج ٦٢٣ — ٦٢٤) .

والقضايا الثلاث التالية وردت فى عرض روجرز لتصور متطسور لنظريته فى كتاب صدر عام ١٩٥٩ وهو

Psychology . A study of Science . Vol III

والذى رأس تحسريره كوخ S. Koch وقد لا تكسون صسسياغتها بالدقة التى صاغ بها روجرز القضايا التسع عشرة السسابقة والتى قدمها عام ١٩٥١ م .

٢٠— تتناول هذه القضية رغبة الشخصية فى التقدير الاجتماعى . ففى بعض الأحيان تهيمن رغبة الفرد فى أن يكون على صواب وأن يكون جديرا بالثناء والتقدير من قبل الآخرين فى مجتمعه على قيمه الذاتية العضوية . أى أنه حين يكون من الأهمية بمكان للشخصية أن تعتبر جديرة بالاعتبار من قبل الآخرين ، فان ذلك قد يهيمن ويسسيطر على وظائف الذات العضوية الداخلية وديناميانه الباطنية .

٢١— ولقد تبين روجرز وجود رغبة قوية لتقدير الذات self - esteem موازية للرغبة فى التقدير الاجتماعى . ولما كانت هذه الحاجة تنمو مع الخبسرة فمن الممكن للشخصية أن تتجاهل ضغوط المجتمع الذى ولد لديه الرغبة فى التقدير الاجتماعى .

٢٢— ونتيجة لقوى ورغبات ومطلب التقدير الاجتماعى وتقدير الذات ينمو لدى الفرد اتجاه قوامه اعتبار الذات وجدارتها مساعده على مواجهة مواقف الحياة اليومية الصعبة وهكذا فان شعوره بأنه جدير بتقدير

يساعده على تقوية رغبته فى تقدير الذات وقدرته على الحصول على الشعور بالتقدير الاجتماعى .

الخبرة والرمز والمعرفة :

عرف روجرز « الخبرة بأنها جميع ما يجرى داخل الكائن الحى فى أى لحظة ويمكن اتاحته للوعى » (1959, p. 197) ان ما نخبـــره فى لحظة ما يشتمل على ما نعيه فى تلك اللحظة وان لم يقتصر عليه . ففى أى لحظـــة زمنية تؤثر كثير من المثيرات والاحساسات العضوية فى الكائن الحى ، ومنها تتألف خبرته ، واطاره المرجعى الداخلى فى تلك اللحظة . ويدخل فى هذا على سبيل المثال احســاسات الجوع سواء أكان الفرد على وعى بها أو سواء كان انغماسه فى العمل حائلا دون ذلك . والوقائع الماضية جزء من خبرة الفرد اذا كانت نشطة ولها تأثيرها وقت ادراك الخبرة . غير أن النشــــاط الكهربائى الكيميائى للجهاز العصبى ولبعض الأعضاء الداخلية كالبنكرياس لا يمكن أن يضمن فى الخبرة لانه من غير الممكن اتاحته للوعى .

والواقع بالنسبة للفرد هو خبرته لان هذه الخبرة هى التى تحــدد سلوكه . ولهذا فبغض النظر عن درجة سوء تغذية الفرد فانه ما لم يخبر احســاسات الجوع فهو فى الحقيقة ليس جائعا . ولم يحاول روجرز أن يحدد ما هى الحقيقة أو ما هو الواقع فى الحقيقة لانه رأى أن هذا السؤال غير هام لفهم السلوك الانسانى . ولقد رأى أنه يمكن تعريف الواقع أو الحقيقـــة للأغراض الاجتماعية بأنها الوقائع التى يتفق عليها الناس فى ثقافة معينة . وهكذا فاذا اتفق الآن على أن السماء تمطر فهذا واقع وحقيقة . ولكن روجرز كان ينبغى ان يقول ان الواقع بالنسبة للفرد هو عالمه الخاص الذى يتألف من خبراته التى يعيها .

وحين ترتبط رموز كالكلمات بالخبرة ، يمكن القول أن الفرد يعى خبرته فالخاصية المحددة للخبرة هى امكانية اتاحتها للوعى . أى ان الخبـــرة هى ما يمكن التعبير عنه رمزيا . والرموز الشائعة هى الكلمات غير أن هناك انماطا اخرى من الرموز كالصور البصرية والصور السمعية وتتميز الخبـــرة المرمزة عن الخبرة غير المرمزة فى ان الترميز يتيح للفـــرد أن يتناول عناصر

خبرته من حيث علاقتها الواحد بالآخر وأن يسقط نفسه فى مواقف جديدة وأن يفترض فروضا من نوع اذا حدث كذا فان النتيجة هى كيت وذلك بالنسبة للخبرات المستقبلية (1951, pp. 144-145)

ويستخدم روجرز لفظ ادراك باعتباره مرادفا للوعى والتعبير الرمزى تقريبا والادراك فرض أو تعبير رمزى — فى صيغة اذا حدث كذا فانه يترتب عليه كيت — يعيه الفرد ويستند الى المثيرات التى تؤثر فيه . فانا اعى ان تليفونى يدق وأقول ضمنيا لنفسى « اذا كان التليفون يدق ، فانه سوف يتوقف لو رفعت سماعته » واختبر صحة هذا الفرض برفع السماعة . وادرك صوت المتحدث على أنه صوت صديقى س ، ولكى اتحقق من صحة هذا الانطباع أرد عليه قائلا : كيف حالك يافلان . ثم اكتشف فى هذه المرة ان ادراكى لم يكن صحيحا لان الصوت ينتمى الى شخص آخر غير صديقى وهذا يصدق على جميع الادراكات فكأنها مقدمة للفعل وفرض للاختبار (1959, p. 199)

ويمكن أن يكون للمثير اثر حتى ولو لم يتم التعبير عنه فى صورة رمزية فى الوعى . اى ان الكائن الحى قد يدرك معنى المثير ادراكا قبل شعورى Subceive اى دون ان يعى ذلك . (1959, p. 200)

وتشبيه الادراك بالفرض يتيح للفرد التمييز بين الادراكات الصحيحة وغير الصحيحة فالفرض يوضع موضع التحقيق باختباره فتثبت صحته أو خطؤه.وتوهم المريض الذهانى بأن المسحوق الأحمر الذى وضع على الطعام سم ادراك غير صحيح لانه سوف يثبت خطأ التنبؤ « اذا تناولت الطعام سوف أموت » وبطبيعة الحال طالما انه سيسلك وفق ادراكه فانه سوف يرفض التحقق من صحة هذا التنبؤ او خطئه ، وبالتالى فانه لا يمكن دحض هذا الفرض .

ولا تختلف الادراكات من حيث درجة دقتها وصحتها فحسب ، وانما تتفاوت على بعد آخر هو الضيق والاتساع intensionality - extensionality فالفرد الذى يتأثر بالضيق يدرك « على أساس شروط مطلقة أو بغير شروط ويعمم تعميما زائدا ويخضع فى ذلك لمفهوم أو معتقد ويخفق فى تحديد مكان

وزمان معينين لاستجاباته . ويخلط بين الحقيقة والتقويم ويعتمد على التجريدات بدلا من اعتماده على اختبار الواقع » (1959, p. 205)

وفى الادراك الممتد تدرك الخبرة على اساس شروط تمايزها . وفى ضوء حدودها ؛ وهناك وعى بموقع الحقائق من المكان والزمان . وعلى الرغم من ان الحقائق هى التى تسود وتسيطر الا أنها تقوم بطرق كثيرة . وهناك أيضا وعى بالمستويات المختلفة للتجريدات والاستنتاجات . وهذه تختبر فى ضوء الواقع . (1959, p. 202)

فحين يسأل الشخص الذى يتميز بادراك ضيق عن أسباب الاضطرابات التى يحدثها مجموعة من العاملين فى معسكر ؛ فانه قد يجيب ببساطة « يرجع ذلك الى مجموعة من المتطرفين الذين لا يصلحون لشىء والذين يريدون كل شىء فى مقابل لا شىء » أما الشخص الذى يتميز بادراك متفتح فانه سوف يستجيب قائلا . لا أستطيع ان اجيب عن السؤال اولا لانى لا اعرف جميع حقائق الموقف ؛ وثانيا لان هناك أسبابا كثيرة تؤدى الى مثل هذه الظاهرة، وتحديد ما ينطبق فيها على هذه الواقعة يقتضى الدراسة .

واكثر الخبرات والادراكات والمعارف اهمية ومغزى هى تلك التى تتعلق بنا وبالآخرين . ويميز روجرز فى هذا المجال بين ثلاثة طرق للمعرفة (١) طريقة لمعرفة الذات وطريقتين لمعرفة الآخرين . فالخبرات المتفاوتة والمتاحة لوعى الفرد تؤلف اطاره المرجعى الداخلى . وهذا هو عالم الفرد الخاص الذاتى ، وهو عالم لا يستطيع معرفته على نحو تام الا هو . وبمقدار وعى الفرد باطاره المرجعى الداخلى يقال أن لديه معرفة ذاتية .

والطريقتان الأخريان التى يمكن أن استخدامهما لمعرفة الشخص الآخر هما طريقة المشاركة الوجدانية ، وطريقة الاطار المرجعى الخارجى . ويقصد بالمعرفة بالمشاركة الوجدانية عند روجرز ان ندرك اطار الشخص الآخر المرجعى الداخلى اى أن نعرف مدركاته ومعانيه ومشاعره . ان المشاركة الوجدانية تعنى أنك تعرف الشخص الآخر كما لو كنت أنت هو . وكلمة كما لو كنت هامة لهذا النوع من المعرفة ؛ لانها تعنى أنك فى الوقت الذى تعرف شخصا آخر معرفة دقيقة مازلت تحتفظ بهويتك . وبغير عبارة

كما لو كنت فانك لا تشارك الآخر وجدانيا ، وانما تتوحد معه . وحين تدرك شخصا آخر من خلال اطارك المرجعى الداخلى فلديك معرفة بالآخر من خلال اطار مرجعى خارجى بالنسبة له . وهكذا فانك تدرك بهذه المعرفة الموضوعية الآخر كشىء وكموضوع شبيه بك ولكنك تفعل هذا من خلال اطارك أنت وهو اطار خارجى بالنسبة للشخص الآخر المدرك .

والمعرفة الذاتية يمكن اختبار صحتها فى ضوء الاطار المرجعى الداخلى كما يحدث حين تقول لنفسك « هل أريد فعلا أن أعمل ذلك ؟ » ويمكن اختبار صحة المعرفة الوجدانية عن طريق الشخص الذى تشاركه هذه الوجدانيات وذلك حين تسأله « هل تشعر أن كل شىء يسير فى الاتجاه الخاطىء وان النقد قد حطمك ؟ » أما التثبت من صحة المعرفة الموضوعية للشخص الآخر فيتم بمراجعة الآخرين ، وليس بمراجعة الفرد نفسه . وهكذا فان القائم بتشخيص حالة قد يقول « سوف أتبين ما اذا كان زملائى يتفقون معى فى التشخيص الذى توصلت اليه بالنسبة لهذه الحالة أم لا ؟ » وجميع طرق المعرفة هذه مفيدة غير أن لكل منها مواضعه المحددة . وينشأ الخلط فقط حين نخفق فى تحديد اى هذه الطرق هو ما نعنيه .

ولقد اقترح روجرز علينا مدخلا ادراكيا (1951, pp. 142-146) للتعلم . فراى أن التعلم يؤدى الى تمايز متزايد فى المجال الادراكى . ولا يقصد بهذا التمايز تجزئة المجال الادراكى الى وحدات أصغر . وانما يقصد به اختيار عنصر ادراكى لم يلحظ من قبل والتركيز عليه . واذا نظم المجال الادراكى تنظيما يتسم بالتقييد أى على صورة فئات جامدة فلن يكون التعلم سهلا. ولكن الفرد حين يدرك المجال الادراكى على نحو متسع متفتح فان هذا معناه أن المجال الادراكى سيتألف من عناصر مفككة او قابلة للتغيير ويسهل فى هذه الحالة فصلها والالتفات اليها جميعا .

ولما كانت النزعة الى تحقيق الذات أساس كل تعلم والدافع اليه . فان العناصر التى يدركها الفرد باعتبارها ذات صلة ببقائه وتحسنه هى التى يتعلمها تعلما ذا مغزى . ويمكن تعلم الأشياء التى ليس لها مغزى تعلما آليا صما ، ولكن التعلم ذا المغزى ليس مجرد اكتساب جزئيات وحقائق واستجابات. انه ذلك التعلم الذى يستغرق الشخص كله ؛ وهو تعلم حقيقى

وحيوى ، وهو تعلم أعمق من الاكتساب العقلى للمعرفة ، وكثيرا ما يجد الفرد أن من الصعب عليه أن يتوصل الى صورة عقلية واضحة لهـذا التعلم ذى المستوى العميق . (1969b, pp. 3-5) (1953; pp: 85-88)

والنزعة الى تحقيق الذات تدفع الى الابداع والابتكار ولقد عرف روجرز الابتكار بأنه « بزوغ منتج يتميز بنمط جديد من العلاقات فى أعمالنا ، ناتج عن تفرد الفرد من ناحية وعن المواد التى يستخدمها والوقائع التى يواجهها والناس الذين يعايشهم فى حياته من ناحية اخرى (1954 b, p. 350) ووفقا لهذا التعريف فان نتاج الابتكار ينبغى أن يبزغ فى فعل ظاهر وبالتالى ينبغى أن يكون قابلا للملاحظة ، فاللحن الذى يدور فى رأسـك يكون جديدا ، ولكن لا يمكن اعتباره مبتكرا ما لم يبرز فى انتاج يمكن ملاحظته . وقد يكون هذا المنتج جديدا 'new ، ولكن هذا لا يكفى اذ ينبغى أن يكون طريفا novel وبينما نجد ان المنتج المبتكر يحمل علامة الفرد وطابعه ، الا انه يتحدد فى ضوء شخصية الفرد وفى ضوء المواد التى استخدمها وعمل بهـا . ولكى يكون الفرد مبتكرا عليه أن يعى خبرته وأن يدرك العالم ادراكا متفتحا ، وأن يقتدر على القيام بتقييماته على أسس اطاره المرجعى الداخلى والا يعتمد على أحكام الآخرين،وفى النهاية ينبغى أن يكون لديه مهارة فى معالجة عناصر خبرته معالجة رمزية (1954 b, p.p. 349-355).

العلاج النفسى :

نتجت أفكار روجرز عن الشخصية عن ممارسته العلاجية.ولقد تطورت نظريته فى الشخصية نتيجة لمحاولاته فى فهم المبادىء التى أثبتت فائدتها فى العمليات العلاجية .

لقد تغير وصف العملية العلاجية الذى قدمه لنا روجرز عبر السنوات فلقد أشار الى طريقته فى العلاج فى البداية على انها الطريقة غير المباشرة nondirective وتؤكد على قدرة العملاء على حل مشكلاتهم متى ما توافر لهم المناخ السليم ، ثم أطلق روجرز بعد ذلك على أسلوبه فى العلاج « العلاج المتمركز حل العميل "Client-centered therapy وقد أصبح العلاج النفسى الآن محاولة مشتركة تتطلب اندماجا وانغماسا عميقا من قبل كل من العميل

والمعالج ... وبدلا من أن يوفر المعالج النفسى المناخ الذى يتيح للعملاء أن يروا على نحو تدريجى وبوضوح أكبر طبيعة مشكلاتهم كما كان الحال فى مرحلة مبكرة ، فان عمل المعالج الآن هو أن يحاول على نحو نشط أن يفهم المجال الفنومنولوجى للعملاء أو اطارهم المرجعى الداخلى . وتسمى المرحلة التالية مرحلة الخبرة experiential stage وخلال هذه المرحلة تطور فكر روجرز واصبح المعالج حرا كالعميل . والآن فان للمشاعر الشخصية العميقة لكل من المعالج والعميل اهمية متساوية ، وتعتبر العملية العلاجية كفاحا لوضع هذه المشاعر فى كلمات .

ولقد سميت المرحلة الحالية من تفكير روجرز مرحلة التمركز حول الشخص person - centered stage . وخلال هذه المرحلة اتسعت نظريته فشملت مجالات كثيرة أبعد من مجال العلاج النفسى ، ومن هذه المجالات مجال التربية ، والزواج والأسرة وجماعات المواجهة ومشكلات جماعات الاقلية والعلاقات الدولية ومهما يكن من شىء فان روجرز يشعر أن اتساع مجال التطبيق وعظمه بالنسبة لنظريته ليس هو أهم القضايا فى المرحلة الراهنة ، وانما الأهم التأكيد على الشخص بدلا من أن ننظر اليه على انه مجرد عميل أو تلميذ .

« فالتحول الى التأكيد على التمركز حول الشخص اعمق فى مغزاه من اتساع مجال تطبيقات النظرية . ان هذا التحول يحاول أن يؤكد على ان الفرد هو وحدة جميع التفاعلات كشخص وكائنية وككينونة ، وليس على أساس هوية دور معين يقوم به عميلا أو تلميذا أو معلما أو معالجا . ان التغيير فى التسمية انما هو تعبير عن التعقد التام لكل شخص ، انه يبين أن كل فرد أكبر من مجموع الأجزاء التى يتألف منها »
(Holdstock & Rogers, 1922, p. 129)

وعلى الرغم من التغيرات التى طرأت على تفكير روجرز عبر السنوات الا انه بقيت مكونات أساسية من نظريته بدون تغيير . وهذه المكونات هى أهمية النزعة الى تحقيق الذات ، واهمية عملية التقييم العضوية كاطار مرجعى ليعيش الفرد حياته ، واهمية الاعتبار الموجب غير المشروط فى السماح للشخص لكى يعيش حياة غنية ممتلئة .

ويلخص روجرز الشروط التى يشعر أنها ضرورية للعلاج الفعال
(1959, p. 213)

١ — ينبغى أن يكون العميل والمعالج فى اتصال واحتكاك ، أى أن يكون لكل منهما تأثير فى المجال الفنومنولوجى للآخر .

٢ — ينبغى أن يكون العميل فى حالة عدم اتفاق ، وبالتالى قابل للتأثر أو معرض للقلق .

٣ — ينبغى أن يوفر المعالج للعميل تقديرا موجبا غير مشروط
unconditional positive regard

٤ — ينبغى أن يسعى المعالج لفهم شعورى للعميل فى اطاره المرجعى الداخلى .

٥ — ينبغى أن يدرك العميل أن المعالج يوفر له تقديرا واحتراما موجبا غير مشروط ليفهم اطاره المرجعى الداخلى فهما شعوريا .

فاذا توافرت هذه الشروط الضرورية للعلاج الفعال فان من المتوقع أن نلاحظ التغيرات الآتية فى العميل : —

١ — سوف يعبر العملاء عن مشاعرهم ازاء حياتهم بحرية اكبر .

٢ — يصبح العملاء اكثر دقة فى وصفهم لخبراتهم وللوقائع حولهم .

٣ — سوف يبدأ العملاء فى اكتشاف عدم الاتفاق بين مفهوم الذات وخبرات معينة .

٤ — سوف يشعر العملاء بأنهم مهددين حين يخبرون عدم الاتفاق ، ولكن الاعتبار الموجب غير المشروط من قبل المعالج يتيح لهم أن يمضوا فى تناول الخبرات غير المتفقة دون تشويهها أو انكارها .

٥ — سوف يقدر العملاء على التعبير الرمزى الدقيق عن مشاعرهم التى انكروها فى الماضى أو شوهوها وعلى الوعى بها ،

٦ — ويعاد تنظيم مفاهيم العملاء عن ذواتهم ، وهكذا يصبحون قادرين على تضمين هذه الخبرات فى وعيهم وقد تعرضت للانكار من قبل .

٧ — ومع استمرار العلاج يتزايد الاتفاق بين مفاهيم العملاء عن ذواتهم وبين خبراتهم . أى أن الذات الآن تتمثل كثيرا من الخبرات التى كانت تهددها من قبل ، ومع شعور العملاء بنقصان تهديد الخبرة تقل دفاعاتهم .

٨ — ومع استمرار العلاج نجد العملاء يشعرون بأنهم هم انفسهم وعلى نحو متزايد موئل التقويم فى حياتهم .

٩ — ويكون العلاج ناجحا اذا قومت خبرات العميل فى النهاية على أساس عملية التقييم العضوية وليس على أساس شروط الجدارة والقيمة .

١٠ — ويصبح كل هذا ممكنا نتيجة لادراك العملاء لاحترام المعالج غـــير المشروط لهم وجهوده التى يبذلها لفهم طريقة رؤيتهم للأشياء .

ان العميل من خلال العلاج النفسى يبدأ فى اسقاط الواجهات الزائفة أو الاقنعة أو التخلى عن الأدوار التى واجه الحياة بها ، انه يحاول فيما يبدو الكشف عن شىء أساسى بدرجة أكبر ، شىء أكثر صدقا مع نفسه .
(1961, p. 109)

ويؤكد روجرز اعتقاده بالخيرية الفطرية للناس حين يصف ما يحدث نتيجة للعلاج النفسى قائلا :

« يصبح الفرد فى العلاج كائنا حيا انسانيا حائزا لكل الخصب والغنى الذى يتضمنه هذا المعنى . انه قادر على نحو واقعى على أن ينضبط نفسه ، كما أن رغباته قد طبعت اجتماعيا ولا سبيل الى افسادها ولا يوجد وحش داخل الانسان ، وانما يوجد انسان داخل الانسان ، وقد استطعنا أن نطلق سراحه » (1953, p. 67)

فالعلاج اذن صمم للتخلص من عدم الاتفاق بين الخبرة والذات ، وحين يعيش الانسان وفقا لعملية التقييم العضوية الخاصة به ، وليس على أساس

شروط ومتطلبات الجدارة فانه لا يحتاج الى دفاعات الانكار والتشـــويه ويصبح الفرد عندئذ انسانا يؤدى وظائفه على نحو مكتمل .

وقد انبثق من هذه الفلسفة الأساسية عند روجرز آراءه عن التداعى الحر وعن استخدام الاختبارات النفسية التشخيصية ودراسة الحالة كعينات للعلاج . ولقـد اعتقد روجرز (١٩٥١) أن التداعى الحـــر والاختبارات التشخيصية وتاريخ الحالة تعوق العلاج النفسى لانها تضع العميل فى موقف اتكالى وتضع المعالج فى موضع السلطة والخبرة . ان التداعى الحر يحمل فى طياته معنى اتكالية العميل لانه يتحرر من المسئولية الشخصية حين يترك لعقله العنان بتنقل من فكرة الى أخرى وفى أى اتجاه . ان الاختبار ودراسة تاريخ الحالة ينقل للعميل انطباعا بأن المعالج يعرف كل شىء عنه ، وأن كل ما يمكن للعميل أن يقوم به هو أن يتبع توجيهات المعالج للتخلص من مشكلته.
(W.B. Arndt, JR, p. 86)

وينبغى أن يكون هناك تمييز واضح بين استخدام الاختبارات النفسية فى الموقف العلاجى ، واستخدامها فى الموقف البحثى . صحيح أن العملاء الذين يعالجون بطـــريقة التمركز حول العميل يجيبون عن اختبارات تطبق عليهم ، ولكن كموضوعات بحث ، وليس لتـــزويد المعـــالج بمعلومات عن شخصياتهم ومشكلاتهم .

خصائص الشخص الذى يقوم بوظائفه على نحو تام :

ان الشـخص الذى يقوم بوظائفه بكل ما فى الكلمة من معنى لا يكون فى حالة استاتيكية ، وانما يكون فى حالة صيرورة ، فهو يتحرك نحو المعرفة التامة بنفسه وبمدى خبراته الكامل . وفيما يلى نورد الخصائص العشر لهذا النوع من الأشـخاص مع التمثيل لبعضها : —

١ — انه متفتح لجميع خبراته . وهو ليس فى حاجة الى أن ينكر شيئا مغبة التهديد وليس فى حاجة ان يتخذ موقف الدفاع بالنسبة لخبراته .

٢ — وبناء على ذلك فان خبرته كلها قادرة على أن تجد تعبيرا رمزيا لهـــا وفيما يلى قول عميل يتحدث الى معالجه يوضح هذه النقطة .

العميل : لا يبدو لى أن فى الامكان بالنسبة لأى فرد أن يربط بين جميع التغيرات التى نشعر بها . ولكننى بالتأكيد شعرت حديثا بأن لدى احترام أكبر لتكوينى الجسمى ونظرة اكثر موضوعية نحوه. اقصد انى لا اتوقع الكثير من نفسى . وسوف أبين كيفية حدوث هذا . أشعر بأننى تعودت فى الماضى أن احارب تعبا معينا كنت أشعر به بعد تناول العشاء حسنا ، انى اشعر الآن باننى حقا متعب وبدرجة معقولة ولست مسببا لهذا التعب — اى اننى فسيولوجيا أقل نشاطا وليس أكثر من ذلك . ويبدو اننى كنت دائما انتقد تعبى وارفضه .

المعالج : اذن انت تتقبل تعبك وتتركه يتخذ مساره ، وحين تشعر بالتعب لا تتخذ من نفسك موقف الناقد له . (1954 a, p. 116)

٣ — سوف يبلغ التعبير الرمزى درجة من الدقة بمقدار ما تسمح به الخبرة دون حاجة الى تشويه الادراك والخبرة .

٤ — ولما كانت خبراته الذاتية تجد لنفسها تعبيرا رمزيا دقيقا ، فان مفهومه عن نفسه سوف يتطابق مع خبرته .

٥ — ان قدرته على الادراك والخبرة الممتدة المتسعة ، ونقصان الدفاعية يجعل مفهوم ذاته ذا بنية مرنة يتمثل كل خبرة جديدة يواجهها .

٦ — وسوف يتوافر لدى الفرد وجهة تقويم داخلية Internal locus of Evaluation ولقد وصف احد العملاء هذا الشعور قائلا :

العميل : نحن لا نستطيع ان نقوم قيمنا معتمدين على اى مصدر خارجى من الكون — علينا ان نتقبلها ثم نقومها من خلال جهازنا العصبى ، اى ان نقول ان طريقة معينة للحياة افضل من اخرى . وبالطبع فان بعض الناس يحاولون تبريرها بالقول بأنها افضل لان الانجيل يقول هذا ، وهلم جرا . ولكننا فى التحليل النهائى نقوم طرقا مختلفة للحياة — انها جيدة لاننا نشعر بأنها طيبة بالنسبة لنا ، وأن هذا هو كل ما يتعلق بالموضوع .

المعالج : هذا صحيح . (1942. p.p. 367-368)

٧ — عدم الشعور بأن خبرة ذاتية معينة جديرة باعتبار الذات عن خبرة اخرى . ان الشخص الذى يقوم بوظائفه على نحو تام ليس لديه شروط للجدارة .

٨ — سوف يقدر على تقدير وتذوق تفرد كل موقف جديد ، وسوف يعالجه على نحو مبتكر وفقا لميله نحو تحقيق قدراته .

٩ — سوف يرشد سلوك الفرد بمعيار عملية التقييم العضوية الخاصة به ، أى انه سيحكم على خبرته وسلوكه فى ضوء مدى اشباعها لدافعه لتحقيق الذات .

١٠ — سوف يقدر على فهم الآخرين وتقبلهم وسوف يعيش معهم فى اقصى وئــام .

« وقد لاحظ روجرز وجود تشابه بين مفهومه عن الشخص الذى يؤدى وظائفه على اكمل وجه ، ومفهوم ماسلو عن الشخص الذى يحقق ذاته . فالشخص الذى يؤدى وظائفه على نحو تام يثق فى مشاعره ويعتبر افعاله موجبة وبناءة . ولما كان متفتحا ازاء خبرته فانه شخص عقلانى بدرجة كبيرة. وسلوكه قانونى وموجه نحو تحقيق ذاته . غير أن سلوكه على اية حال غير قابل للتنبؤ تماما ، وليس معرضا للضبط الخارجى لانه موجــه من الداخل وليس موجها من الخارج . ان مثل هذا الشخص حر فى اختيار مســار العمل الذى يتسق على افضل نحو مع تقوية ذاته ككائن حى »
(W.B. Arndt, Jr; 455-457)

البحوث وطرق البحث :

لقد قرر كارل روجرز فى عام ١٩٥٥ أنه واجه صعوبة كبيرة فى التوفيق بين اهتمامه بالناس كمعالج نفسى وتصوره للدراسة العلمية لهم . لقد حاول روجرز كمعالج نفسى أن يفهم عملاءه ؛ ولم يستطيع ان ينظر اليهم كموضوعات عليه أن يتابعها ويدرسها . ولقد حاول بدلا من ذلك أن يفهمهم بشروطهم ،

وأن يفهمهم وهو متعاطف معهم . وبيانات روجرز كمعالج تتألف من استجاباته لخبرات عميله الانفعالية . وهو يقدمها له على مستوى المشاعر والعواطف، أما روجرز كباحث فقد رأى أنه من غير المسموح بأن ينظر الى مثل هذه البيانات كشاهد ودليل علمى . ان الباحث ينظر الى المفحوص كشىء يوضع موضع الدراسة وليس كشخص يفهم بتعاطف . فالعميل كعميل شخص علينا أن نفهمه ، والعميل كمفحوص فى بحث علمى موضوع علينا ان نقيمه . ولم يستطع روجرز لفترة من الزمان أن يوفق بين هاتين النظرتين .

ولقد قرر أن هذه الفجوة التى شعر بوجودها بين الناس والعلم لهـا جذورها فى تصوره الخاطىء عن العلم باعتباره يختلف عن الناس . ولكنه تحقق فيما بعد بأنه لا يمكن الفصل بين العلم والنـاس ، وأن الفهم العلمى لا يختلف عن الفهم الذاتى . ولقد اكتشف روجرز انه لا يوجد علم هناك فى الخارج ، وانما يوجد اناس يبحثون فى العلم ويشتغلون به . ولا يصبح العالم مهتما بحل مشكلة معينة من خلال الاجراءات العلمية . وانما هو يريد أن يتناول مشكلة لانها تهمه كشخص وهو ينغمس كلية فى المشكلة ويشعر بها بوجوده الكلى . ان العالم لا يرضى ولا يقنع بمجرد تحديد مجال المشكلة وبمقترحات لحلها . انه يريد أن يختبر افكاره فى ضوء الواقع . ولكى يقوم بهذا فانه يستخدم المنهج العلمى . وهو يختبر فروضه حتى لا يتعرض لخداع من أفكاره فالمنهج العلمى اذن هو اداة يستخدمها الناس ليشحذوا خبراتهم ومدركاتهم ولكى يتيحوا لافكارهم غير الغامضة نسبيا ولخبراتهم أن تنتقل الى الآخرين وتصل اليهم . ان ما ينتج عن اختبار صحة أو خطأ افكار الناس وفى ضوء الواقع ليس مجموعة من الحقائق التى ثبتت صحتها دون اى ظل من الشك . ان نتائج العلم معتقدات تقريبية يتمسك بها مجموعة من الأشـخاص على نحو ذاتى .

وهكذا فان البدء فى البحث العلمى ومنهجه ونتائجه ليست مسائل مستقلة عن الناس ولا معارضة لهم، وانما العلم هو طريق يستخدمه الناس ليساعدهم على أن يخبروا الوقائع التى تهمهم ويفهموها .

« فالعلم شأنه شأن العلاج وجوانب الحياة الأخرى متجذر فى خبرة

الشخص الذاتية المباشرة ويقوم عليها . انه ينبثق من الخبرة العضوية الكلية الداخلية والتى يمكن توصيلها ونقلها للاخرين على نحو جزئى وغير تام. انه مرحلة من مراحل الحياة أو العيش الذاتى »
(W.B. Arndt, Jr : 12) (1955, 222)

الفهم والتنبؤ :

التنبؤ من وجهة نظر روجرز هدف لا يمكن بلوغه فعلا لاننا لا نستطيع ان نتوصل الى الاطار المرجعى الكامل للشخص الآخر . غير أن هنك قدرا معينا من الكفاءة فى التنبؤ فيما يتصل بالعلاج النفسى . وتعتمد القابلية للتنبؤ على درجة الاستبصار الذاتى التى يقدر على بلوغها العميل خلال جلسات العلاج . وكلما ازداد استبصار الذات كلما كانت الدلالات المبشرة بتكيف جيد افضل .

ولقد وجد روجرز أن التنبؤ بالنجاح بالنسبة له كمعالج يعتمد أساسا على استيعاب الاتجاهات والاجراءات وليس على استخدام الأدوات والأساليب . ويرى روجرز أن هنك ستة مجالات يكون التنبؤ فيها ممكنا : —

١. — نحن نعرف كيف نهيىء الظروف أو الشروط التى فى ظلها يصدر افراد كثيرون احكاما صادقة مع انها معارضة للبيانات التى تتوافر لهم عن طريق حواسهم . ولعل تجربة آش عن تأثير الجماعة على ادراك الأفراد مثال لهذه الفكرة ، ذلك أنه حين يساق شخص الى الاعتقاد بأن كل افراد المجموعة التى هو احد اعضائها يرى أن الخط (أ) اطول من الخط (ب) فانه يكون لديه الميل القوى الى الأخذ بهذا الحكم رغم اعتقاده الحقيقى بأن احساساته تخالف هذا الحكم .

٢. — نحن نعرف كيف نغير آراء فرد فى اتجاه معين نختاره ، دون أن يعى قط المثيرات التى غيرت رايه . فلو عرضنا صورة ثابتة غير معبرة لانسان ، وطلبنا من المفحوصين أن يلاحظوا ما يحدث من تغيير فى تعبير الصورة . ثم قرنا هذا بعرض كلمة غاضب او سعيد على الشاشة بين الحين والحين ولفترات قصيرة جدا بحيث تكون دون مستوى وعى المفحوصين Subliminal level فان هذا يؤدى الى ميل المفحوصين الى

رؤية الوجه على انه أكثر غضبا أو أكثر سعادة .

٣ — نحن نستطيع أن نتنبا بما اذا كان الأفـــراد يميلون الى التعصب أو لا يميلون اليه من طريقة ادراكهم لحركة بقعة ضوئية فى غرفة مظلمة. فالاكثر تعصبا كانوا يرون حركة اقل ممن دونهم فى التعصب ، وكانوا اميل الى مسايرة احكام الآخرين .

٤ — نحن نعرف الاتجاهات النفسية التى حين يتقدمها المرشد النفسى أو المعالج للعميل ، فانها تكون متبوعة عادة بتغيرات معينة بنـــاءة فى شخصيته وسلوكه .

فالمعالج اذا وفر مناخا يتيح درجة اكبر من الانفتاح للخبرات ، مناخا يرى العميل فيه قادرا ذا جدارة ، مناخا يوفر للعميل التقبل والتشجيع بدون شروط أو تحفظات . مناخا يكون المعالج فيه متفهما ومدركا ادراكا متعاطفا لعالم العميل الخاص من المشاعر والاتجاهات ، اذا حدث هذا فان العميل يصبح أكثر واقعية فى ادراكه لذاته ، واكثر ثقة فيهـــا وتوجيها لها ، واكثر قدرة على تقييم نفسه علي نحو ايجابى ، واقل ميلا الى انكار أو تشويه خبراته ، واكثر اقترابا من الشخص السليم المتكامل .

٥ — نحن نعرف كيف تزود الحيوانات بخبرة اكثر اشباعا تتالف كليـــة من استثارة كهربية . لقد تبين اولدز انه حين ادخل اقطابا كهربية دقيقة فى منطقة الحاجز Septal area بالمخ لدى الفيران فى تجربة معملية قام بها . أن الفيران كانت تميل الى الضغط على الرافعة لكى تحدث تيارا كهربيا يصل الى هذا الجزء من المخ وكانت تفعل هذا حتى تصل الى مرحلة الانهاك غالبا . وكانت الفيران تفضل هذا النشاط على اى نشاط آخر . ولن نتامل فيما اذا كانت هذه النتيجة تصدق على الانسان أم لا تصدق عليه .

٦ — نحن نعرف كيف نوفر الظروف النفسية التى تحدث هلوسـات واضحة واستجابات شاذة أخرى عند الفرد السوى فى حالة يقظته . فقـــد اتضح من بحوث اجريت بجامعة ماكجيل Mcgill انه اذا تعـــرضت

جميع قنوات الاستثارة الحسية للتعطيل ، نتج عن ذلك استجابات غير سوية وهاوسات .

ولقد بين روجرز أن هذه الصورة التى قدم بعض جوانبها تبعث على الخوف وهو يشعر أن معظم علماء النفس وعلماء المجتمع لم يفكروا الا قليلا فيم يقصد بالتنبؤ بالسلوك الانسانى وضبطه وهناك أربع خطوات تمكن الانسان من أن يسيطر على انسان آخر وهى : —

اولا — اختيار الأهداف .

ثانيا — استخدام الطريقة العلمية فى الضبط التجريبى .

ثالثا — توافر السلطة التى تمكن من توفير الظروف واستخدام الطرق العلمية .

رابعا — تعريض الأفراد للطرق والشروط السابقة .

وقد التحق روجرز بالمعهد الغربى للعلوم السلوكية فى كاليفورنيا وانغمس فى خبرات جماعية كالتدريب على الحساسية وجماعات (T) وغيرها وهو متحمس لهذه الجهود ولكنه يدرك الحاجة لدراسة العمليات التى تحدث داخل مثل هذه الأنشطة الجماعية والتى يمكن ان تسفر عن قضايا فكرية يمكن اختبارها امبيريقيا .

وكثير من علماء النفس يدرسون مفهوم الذات على أساس نظرية روجرز . ولقد تراوحت الأبحاث فى هذا المجال من التحليل العاملى الى التثبت من صدق اختبارات مفهوم الذات الى تحليل البنية الأساسية لنظريات الذات نفسها .

ولقد اجريت بحوث عن صورة الذات لدى الفصاميين . وقد اتضح أن صورة الذات ليست وظيفة بسيطة لسوء التكيف . ولقد تم نشر نتائج دراسة استغرقت ست سنوات واجريت على عينة من الفصاميين وذلك تحت قيادة روجرز وهو فى جامعة وسكنسن .

(L. J. Bischof, p.p. 345-346) (Rogers, 1967 c)

أسلوب كيو فى تصنيف البطاقات : The Q - sort Technique

من أهم النقاط المثيرة للاهتمام عند روجرز تأكيده على أهمية المجال الفنومنولوجى الذاتى الكلى للفرد من ناحية وعلى أهمية المنهج العلمى من ناحية أخرى . يقول روجرز :

« فالعلاج خبرة أستطيع أن ادع نفسى فيها لتمضى بطريقة ذاتيـــة . والبحث خبرة أستطيع فيها أن اقف بعيدا ، وأن أحاول النظر الى خبـــرة ذاتية حقيقية بموضوعية ، وأن أطبق طرق العلم الأنيقة لتحديد ما اذا كنت قد خدعت نفسى . لقد نما الاعتقاد والاقتناع داخلى باننا سوف نكتشف قوانين الشخصية والسلوك التى لها مغزاها بالنسبة للتقدم الانسانى أو بالنسبة للفهم الانسانى كقانون الجاذبية وقوانين الديناميكا الحرارية »

(Rogers 1961, p. 14)

والتاكيد على الطريقة العلمية ليس هو الفيصل الذى يميز نظـــرية روجرز عن نظريات سكنر ودولارد وميلر وأمثالها بل الفيصل هو ما نجده فى اصرار روجرز على أن يوجه البحث العلمى لدراسة الخبرة الفنومنولوجية بدلا من توجيهه لدراسة السلوك الظاهر .

وكمعالج له ميل ونزعة علمية لم يستطع روجرز أن يتقبل ويصـــــدق التغيرات التى يفترض حدوثها خلال العلاج أو التغيرات التى بدا وظهر انها حدثت نتيجة له . وانما حاول شأنه فى ذلك شأن أى عالم جيد أن يجد طريقة لقياس مقدار التغير الذى طرأ على العميل نتيجة للعلاج . وكان الأسلوب الذى وجد روجرز انه اكثر الأســـاليب نفعا ذلك الذى وضـــعه ستيفنسن William Stephenson وهو زميل لروجرز فى جامعة شيكاغو واطلق على هذا الاسلوب اسلوب كيو التصنيفى .

ويمكن أن يطبق هذا الاسلوب بطرق عديدة مختلفة ، ولكنها جميـــعا تستخدم نفس المفاهيم والمسلمات وهى : —

أولا : من المفترض أن العميل يستطيع أن يصف نفسه بدقة ويطلق على هذا الوصف « الذات الواقعية » .

ثانيا : من المفترض أن الشخص يستطيع أن يصف بعض الخصائص التى يود أن يمتلكها أو يتصف بها ولكنهـا لا تتوافر لديه الآن ويطلق على مجموعها الذات المثالية ideal self . وحين يبدأ العلاج يكون هناك تعارض كبير بين ذات الشخص الواقعية وذاته المثالية .

وتتم اجراءات تطبيق اسلوب كيو التصنيفى على النحو الآتى : —

١ — يزود المفحوص بمـائة بطاقة تحتـوى كل واحدة منهـا على عبارة كالعبارات الآتية :

— انا ذكى — كثيرا ما اشعر بالذل

— لدى شعور باليأس — استطيع عادة ان اقرر شيئا وأن اتمسك به.

— احتقر نفسى — أعبر عن انفعالاتى بسهولة

— لدى اتجاه موجب نحو نفسى .

٢ — ويطلب من العميل أن يختار العبارات التى تصف ما هو عليه افضل وصف وهذا هو التصنيف لخصائص الذات الواقعية . ولتيسير التحليل الاحصائى لنتائج تصنيف البطاقات يطلب من العميل أن يصنف البطاقات بطريقة تؤدى الى توزيع تكرارى اعتيادى لها . ويتم ذلك بأن يطلب من العميل أن يضع البطاقات ويوزعها فى تسع مجموعات . وهى مرتبة بحيث تتحدد البطاقات التى تحمل الصفات التى تشبه العميل أعظم شبه فى طرف ، ويوضع فى الطرف الآخر البطاقات التى يقل انطباقها عليه الى اقصى حد ؛ أما العبارات التى توضع فى الوسط فهى التى تعبر عن السمات التى لا يستطيع العميل ان يقرر ما اذا كانت تنطبق عليه أم لا تنطبق . انها العبارات الحيادية . ويوضح الجـدول (١ — ١٦) عدد البطاقات التى وضعها احد العملاء فى كل مجموعة .

٣ — ثم يطلب من المفحوص أن يصنف البطاقات مرة أخـرى بحيث يصنف الشخص الذى يود أن يكون على مثاله . وهذا هو التصنيف المثالى .

الجدول (١ — ١٦)

يوضح توزيع البطاقات التى صنفها احد العملاء لوصف نفسه

	تشبهنى بأقل درجة			لا أعرف			تشبهنى بأعظم درجة		
رقم المجموعة	صفر	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
عدد البطاقات (العدد الكلى ١٠٠)	١	٤	١١	٢١	٢٦	٢١	١١	٤	١

وهذا الاجراء يتيح للمعالج النفسى أن يفحص عددا من خصائص العملية العلاجية . ويستطيع أن يفحص العلاقة بين الذات الواقعية والذات المثالية عند بداية العلاج وفى منتصفه وفى نهايته . والطريقة الشائعة للتعبير الكمى عن هذه المتغيرات هى باستخدام معامل الارتباط .

ولقد قدم لنا روجرز (١٩٥٤) معاملات الارتباط الآتيــة بين تصنيف العبارات التى تصف الذات الواقعية لأحد العملاء قبل العلاج وتصنيفه فى عدة نقاط خلال عملية العلاج : —

— بعد الجلسة السابعة ٥٠ر٠
— بعد الجلسة الخامسة والعشرين ٤٢ر٠
— بعد العــــلاج ٣٩ر٠
— بعد ١٢ شهرا من انتهاء العلاج ٣٠ر٠

ومعاملات الارتباط السابقة تبين أن مفهوم الذات للعميل يتزايد اختلافه كلما تقدم فى العلاج عن مفهومه لذاته عند بداية العلاج . كما أن روجـــرز

حسب معاملات الارتباط بين تقديرات مفهوم الذات الواقعية وتقديرات مفهوم الذات المثالية فى عدة مراحل من العلاج وحصل على المعاملات الآتية : —

— قبل العلاج	٣٦ر٠
— بعد الجلسة السابعة	٣٩ر٠
— بعد الجلسة الخامسة والعشرين	٤١ر٠
— بعد العـــــلاج	٦٧ر٠
— بعد ١٢ شهرا من العلاج	٧٩ر٠

ومعاملات الارتباط السابقة تبين بوضوح أن مفهوم الذات يتزايد تشابهه مع الذات المثالية مع التقدم فى العلاج ، مع استمرار هذا التشابه بعد انتهاء العلاج . وبعبارة أخرى لقد اقترب العميل أو مفهوم ذاته من مفهـــوم ذات الشخص المثالى كما يراه وذلك على نحو تدريجى . وواضح من البيـــانات السابقة أن العلاج حقق الأمل المعقود عليه من وجهة نظر روجرز .
(Hergenhahn, pp. 315 - 317)

ولقد استخدم عدة باحثين آخرين هذا الاسلوب لتقويم فاعلية العلاج . وعلى سبيل المثال فان بتلر وهيج Butler and Haigh وجـــدا عام ١٩٥٤ أن متوسط معامل الارتباط بين تقديرات الذات الواقعية وتقديرات الذات المثالية لخمس وعشرين حالة كان —١٠ر قبل العلاج ، وبلغ ٣١ر٠ بعد العلاج وهذا يوضح حدوث تغير دال احصائيا فى الذات الواقعية فى اتجـــــاه الذات المثاليـــــة .

وبالاضافة الى أن روجرز من أوائل المعالجين الذين قاسوا فعلا فاعلية العلاج . فانه أول من سجل جلسات العلاج بالصوت والصورة . وقد فعل هذا بموافقة العميل ؛ حتى لا يعتمد على الذاكرة حين يقـــوم ما حـــدث فى الجلســة . وفضلا عن ذلك فان التسجيل والتصوير مكنا من التحليل الدقيق لنواحى مثل الايماءات الفيزيقية وأساليب التحدث المميزة باعتبارها مؤشرات تدل على مدى معاناة العميل من القلق والضغط .

وقد يبدو ان هناك تناقضا ظاهريا فيما عمله روجرز ذلك انه اصر على أن الطريقة الوحيدة لمعرفة الشخص هي ان يحاول فهمه عالمـه الخاص ، عالمه الذاتي ، وفى نفس الوقت هو الذى قدم الكثير لتنشيط التقويم العلمى للعملية العلاجية .

تحليل المحتوى :

تعتمد هذه الطريقة على تصنيف تعبيرات العميل اللفظية التى تسجل فى الجلسات العلاجية فى مجموعة من الفئات . وقد قام ريمى احد تلامذة روجرز عام ١٩٤٨ بتحليل للتغيرات الأساسية التى تطرأ على الاشارات الى الذات اثناء العلاج .

وقد صنف الاستجابات فى الفئات الآتية :ـ

- الاشارات الايجابية الى الذات .
- الاشارات السلبية الى الذات .
- الاشارات المتناقضة الى الذات .
- الاشارات الغامضة الى الذات .
- الاشارات الى موضوعات واشخاص خارجيين .
- اسـئلة .

وصنفت الاشارات الواردة فى تسجيلات ١٤ حالة تمت مقابلتها فى جلسات تراوحت ما بين جلستين وعشرين جلسة . ولقد اتضح من تحليل النتائج أن العملاء يصدرون عددا كبيرا من الاشارات السالبة فى بداية العلاج ومع تقدمهم يظهرون التذبذب فى تأييد الذات والاشارات المتناقضة . وفى نهاية العلاج تزداد الاشارات الموجبة .

كما اتضح من عدة بحوث أن الشخص الذى يصبح اكثر تقبلا لنفسه يصبح اكثر تقبلا للآخرين ايضا . اى ان الشخص اذا احسن الظن بنفسه وكان راضيا عنها فالأرجح ان يحسن الظن بالآخرين ويرضى عنهم .

المكانة الراهنة والتقويم :

ــ لم يكن لأحد بعد فرويد تأثير فى العلاج النفسى يفوق تأثير كارل روجرز ولقد كان لمدخله الانسانى الايجابى فى الارشاد النفسى والعلاج وما يزال اثر كبير فى التطبيقات التربوية وفى مجال الصناعة والادارة . ويبدو أن هناك ثلاثة أسباب لهذا الذيوع والانتشار وهى :ــ

١ ــ انه مدخل فعال لفهم الانسان وقد حقق نتائج ملموسة .

٢ ــ انه لا يتطلب تدريبا طويلا مرهقا كما هو الحال فى مجال التحليل النفسى .

٣ ــ انه ينظر الى الطبيعة الانسانية نظرة ايجابية متفائلة .

ــ وكان من بين انجازات روجرز ايضا انه استطاع اكثر من أى معالج آخر فيما نعلم اخضاع العلاج النفسى ونتائجه للفحص العلمى والدراسة . فباستخدام اسلوب كيو التصنيفى Q-sort استطاع روجرز وزملاؤه وتلامذته أن يكشفوا عن نزعة الانسان الى الاتفاق والانسجام كوظيفة من وظائف العلاج النفسى وكان هذا عملا جيدا .

ــ ومع ذلك فقد تعرضت نظرية روجرز للنقد شأنها فى ذلك شأن أى نظرية اخرى . وفيما يلى أهم الانتقادات التى وجهت اليه :ــ

(أ) تجاهله للاشعور بعد ان برهن التحليل النفسى على أهميتـه وحقق قدرا من النجاح .

(ب) رفضه استخدام فئات تشخيصية مثل العصاب والذهان اثنــاء ممارساته العلاجية وهى مفاهيم شــاع استخدامها بين المعالجين النفسيين على اختلاف اتجاهاتهم .

(جـ) ان نظرته الى الطبيعة الانسانية بسيطة وهو لا يستطيع أن يفسر لماذا يؤدى بعض الناس وظائفهم على اكمل وجه دون ان يجـدوا اعتبارا لذاتهم موجبا وغير مشروط .

(د) انه يعتمد اعتمادا مكثفا على التقارير الذاتية ومعروف أن ثباتها منخفض ولا يمكن الوثوق بها ، ولا يرجع هذا الى تعمد المريض خداع المعالج وانما يرجع الى انه لا يعرف بعض جوانب نفسه .

(هـ) وهو يتجاهل حقيقة هى أن فى الامكان أن يتغير الشخص لفظيا ولا يتغير سلوكيا ، أى أن تصنيف الفرد للعبارات بأسلوب كيو قد يتغير نتيجة للعلاج ، وتبقى مشكلته السلوكية فى دنيا الواقع .

— وواضح أن موقف روجرز يختلف عن موقف دعاة التحليل النفسى من التقارير النفسية للمرضى موضع العلاج . فأصحاب التحليل النفسى يفسرون ما يقوله المريض تفسيرا لا يستند الى قيمته الظاهرة . انهم يتعدون المحتوى الظاهر لما يقوله المريض بحثا عن المحتوى الكامن فى محاولة للتوصل الى اعماق الشخصية . وهذا المحتوى الكامن لا شعورى يتم التوصل اليه بالاستنتاج وليس عن طريق الملاحظة المباشرة . اما روجرز فيرى امكانية الافادة من التقارير الذاتية للمريض كمصدر لمعرفة شخصيته ولا حاجة الى القيام بعمليات تحليل متعمقة وشاقة للاحلام ولأعماق الشخص ، فالشخص هو ما يقوله عن نفسه .

— ولقد أفاد روجرز فى بحوثه العلمية من وسائل متنوعة ولم يقصر جهوده على فحص التقارير الظاهرياتية عن الذات رغم اتساقها بدرجة اكبر مع اتجاهه النظرى . وقد أدت صياغة روجرز لنظرية الذات الى افساح مجال خصب ومتسع لبحوث كثيرة . فنظريته خصبة معطاءة .

— وحتى لو سلمنا ببعض هذه الانتقادات السابقة فان الأغلبية سوف توافق على أن روجرز ساعد على توضيح جانب من الطبيعة الانسانية كان غامضا من قبل . لقد أسهم فى تنمية القوة الثالثة فى علم النفس والتى يتزايد تأثيرها بين القوتين الأخريين السلوكيين ودعاة التحليل النفسى . وهذه القوة الثالثة تسمى علم النفس الانسانى لانها تؤكد على خيرية الطبيعة الانسانية ، وتهتم بتهيئة الظروف والشروط التى تتيح للناس ان يحققوا امكانياتهم واستعداداتهم على اكمل وجه . وواضح ان هذه الاهتمامات تظهر فى كتابات روجرز كلها .

الفصل السابع عشر

ابراهام ماسلو

ولد ابراهام ماسلو فى أول ابريل ١٩٠٨ فى بروكلين بنيويورك . كتب ماسلو عن نفسه « لقد كان من العجيب الا أكون ذهانيا فى ضوء طفولتى . لقد كنت الى حد ما شبيها بأول زنجى التحق بمدرسة كلها من البيض . ولقد كنت وحيدا منعزلا غير سعيد . ولقد كبرت ونموت فى المكتبات وبين الكتب وبغير أصدقاء » (1968, p. 37)

بدأ ماسلو يدرس القانون بالجامعة تحت تأثير ضغط والديه عليه ؛ ولكنه بعد أسبوعين قرر أن ميوله تجد اشباعاتها فى مجال آخر . ولقد ترك مدينته ليدرس موضوعات متنوعة اولا فى جامعة كورنل ، وبعد عامين انتقل الى جامعة وسكنسن حيث حصل على درجة البكالوريوس فى الآداب عام ١٩٣٠ م والماجستير فى الآداب عام ١٩٣١ م ودكتوراه الفلسفة عام ١٩٣٤م .

وقد تزوج قبيل التحاقه بجامعة وسكنسن بصديقة طفولته برثا جودمان Bertha Goodman وانجبا طفلين . ويذهب ماسلو الى أن حياته لم تبدأ حقيقة الا بعد أن تزوج وانتقل الى وسكنسن ، وكان قد بلغ من العمر عشرين عاما وقد كانت برثا حينئذ فى التاسعة عشرة من عمرها .

ويبدو من الغريب الآن ، أن ماسلو قرر أن يدرس علم النفس حين اكتشف سلوكية واطسن J.B. Watson ويصف ما تعرض له من اثارة نتيجة لاكتشافه هذا قائلا « لقد اكتشفت واطسن واقتنعت بالسلوكية . ولقد كانت بركانا من الاثارة بالنسبة لى . . . . وقد جاءت برثا لتقلنى بالسيارة ووجدتنى أرقص فى الشارع الخامس فى نيويورك بحماس مما اخجلها ، ولكنى كنت منفعلا بشدة بتفكير واطسن وبرنامجه . لقد كان فكرا جميلا . وكنت واثقا من انه يقدم لى دربا اسير عليه ، طريقا قادرا على ان يحل مشكلة بعد اخرى من المشكلات التى تحيرنى ، طريقا يغير العالم (1968, p. 37) .

لقد انتهى هذا الولع والشغف بالسلوكية حين انجب طفله الأول وقد كتب يقول « لقد غيرنى طفلنا الاول كعالم نفس . لقد ادى الى ان تبدو

السلوكية التى كنت متحمسا لها حمقاء ، ولم أعد أطيق هضمها . لقد كان هذا بمثابة قصف الرعد الذى حسم الموقف . . . ولقد ذهلت نتيجة لاحساسى بأنى فى الحقيقة لم أكن مسيطرا على ما يجرى وبسبب غموض ذلك . ولقد شعرت بصغرى وضعفى أمام هذا كله . واستطيع ان اقول ان اى فرد لديه طفل لا يستطيع ان يكون سلوكيا » (Maslow 1968, p. 55)

ولقد درس ماسلو اثناء وجوده فى جامعة وسكنسن تحت اشراف هارى هارلو Harry Harlow ، وهو من مشاهير علماء النفس التجريبيين الآن ، وكان فى ذلك الوقت يطور معملا لدراسة سلوك القردة . وكانت رسالة ماسلو تدور حول ظاهرة ارساء السيطرة والسلطة فى مملكة القردة . وقد لاحظ أن السيطرة تنتج عن نوع من الثقة الداخلية او الاحساس بالسيطرة اكثر مما تنتج من خلال العدوان الجسمى .

وبعد حصوله على الدكتوراه عام ١٩٣٤ عاد الى نيويورك الى جامعة كولمبيا حيث حصل على زمالة دراسية من مؤسسة كارنيجى ثم انتقل الى كلية بروكلين Brooklyn Colleg حيث بقى بها حتى عام ١٩٥١ م . وخلال سنوات كثيرة من هذه الفترة (الى جانب ادارته لمصنع للبراميل تملكه الأسرة من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩ م) وسع بحوثه عن السيطرة بحيث شملت الانسان . ووجد أن الأفراد ذوى السيطرة العالية يميلون الى ان يكونوا غير تقليديين واقل تدينا ومنبسطين ويميلون ايضا الى الا يكونوا قلقين غيورين او عصابيين .

ووجد ماسلو أن الاناث اللائى يتميزن بسيطرة عالية ينجذبن الى الذكور ذوى السيطرة العالية الذين وصفوا بأنهم على درجة عالية فى الذكورة ، والثقة فى النفس وعلى درجة معقولة من العدوان والثقة فيما يريدون القدرة على الحصول عليه ، وهم متفوقون بصفة عامة فى معظم الاشياء (1942, p. 126) اما الاناث المنخفضات فى السيطرة فانهن ينجذبن من ناحية اخرى الى الذكور العطوفين الودودين الرقيقين المخلصين والذين يظهرون حبا للأطفال .

وواضح من عمل ماسلو المبكر انه كان مهتما بدراسة عينات من البشر

الأصحاء غير العاديين المسيطرين . ولقد كان عليه أن يخطو خطوة قصيرة من هذه الاهتمامات المبكرة لينتقل الى الاهتمام بالبارزين والمشهورين من البشر، ولقد شجع على هذه الخطوة فى تطور اهتمامات ماسلو مأساة الحرب العالمية الثانية ووقوعها وكان ماسلو فى نيويورك فى نهايات الثلاثينات من هذا القرن وبدايات الأربعينات حين بدأت أفضل العقول الأوربية تفد على الولايات المتحدة الامريكية فى محاولة للهروب من المانيا النازية . وكان من بين هؤلاء ألفرد آدلر ، وماكس فرتيمر ، وكارين هورنى ، واريك فروم فسعى اليهم وتعلم منهم .

وكان من بين الذين اثروا فى ماسلو اقوى تأثير فى هذه الفترة رث بندكت وهى من علماء الانثروبولوجيا الامريكيين المرموقين. والحق ان اعجاب ماسلو العميق بكل من ماكس فرتيمر ورث بندكت هو الذى اثار اهتمامه فى النهاية بدراسة افراد حققوا ذواتهم. ويصف ماسلو جهوده لفهم هذين العالمين وكيف تطورت لتصبح العمل الذى شغل حياته .

« أن بحوثى فى تحقيق الذات لم تخطط لتكون بحوثا ولم تبدأ كبحوث انما بدأت كمجهود لشاب مفكر يحاول أن يفهم اثنين من معلميه أحبهم وأعجب بهم وكانا مدهشين جدا . وكان ذلك نوعا من الاخلاص العقلى العالى . ولم أكن استطيع أن اقتنع بمجرد الاعجاب بهما وحاولت أن أفهم لماذا يختلف هذان الشخصان عن بقية البشر فى العالم . وكان هذان الشخصان رث بندكت .. وماكس فرتيمر. لقد كان معلمى بعد مجيئى حاملا دكتوراه الفلسفة من الغرب الى مدينة نيويورك ، وكانا انسانين بارزين شهيرين . ولم يكن تدريبى فى علم النفس يؤهلنى على الاطلاق لفهمهما . لقد بديا لى كما لو لم يكونا من البشر ، اى كما لو انهما اكثر من ذلك . ولقد بدأ بحثى كنشاط غير علمى أو قبل علمى . لقد كتبت اوصافا وملاحظات عن ماكس فرتيمر وعن رث بندكت وحاولت أن افهمهما وان اكتب عنهما فى مجلتى . لقد كنت اتحدث عن نوع من الأشخاص وليس عن فردين لا يمكن المقارنة بين أحدهما والآخر . ولقد شعرت ببهجة عجيبة ، ولقد حاولت أن اتبين هل يمكن العثور على هذا النمط فى مكان آخر ، ولقد وجدته فى مواضع أخرى فى أشخاص الواحد بعد الآخر .

ولو استخدمنا المعايير العسادية للبحث المعملى ، اى البحث المنضبط المحبوك ، فان هذا ببساطة لا يعتبر بحثا على الاطلاق . (1971, p.p. 41-42)

وعندما ذهب ماسلو عام ١٩٥١ الى جامعة برانديز Brandeis University كان قد كرس جهده كله لدراسة الاصحاء نفسيا من الأفراد، وخلال هذه السنوات برز ماسلو كقائد للحركة الانسانية فى علم النفس ولقد مكث فى تلك الجامعة حتى عام ١٩٦٩ م . وفى هذا الوقت اصبح زميلا مقيما فى مؤسسة خيرية فى كاليفورنيا هى :
Laughlin Charitable Foundation in California
وخلال هذه الفترة اهتم ماسلو بتنمية الحساسية من خلال الجماعات ، وكان احد مؤسسى معهد ايسالن فى كاليفورنيا Esalen Institute of Californin وقد وافاه اجله فى ٨ يونيو ١٩٧٠ م .

وعلى الرغم من ان عددا من اصحاب نظريات الشخصية يندرجون فى فئة اصحاب الاتجاه الانسانى (على سبيل المثال البورت وروجرز) الا ان ماسلو كان المتحدث باسم علم النفس الانسانى . ولقد قام بهذا بحماس شديد كما لو كان يدافع عن عقيدة .

القوة الثالثة فى علم النفس :

لاحظنا من قبل ان ماسلو شعر ان تدريبه وتكوينه فى علم النفس لم يؤهله لفهم الخصائص الايجابية فى الأفراد الذين اعتبرهم بارزين ومرموقين. فدعاة التحليل النفسى حين نظروا الى الانسان باعتباره ضحية لغرائز حيوانية ولصراعات اثارتها الحضارة فى نفسه انما كانوا يحدثونا عن جانب واحد من جوانب الحقيقة . وبالمثل فان السلوكيين الذين نظروا الى الانسان باعتباره كائنا حيا شكلت البيئة سلوكه لم يلقوا الا ضوءا محدودا على غوامض الوجود الانسانى . ولقد اعتقد ماسلو فى الحقيقة ان علم النفس ركز على الجوانب المظلمة والسلبية والمريضة والحيوانية من الانسان . وبتاكيده على دراسة العجزة من الأفراد ادى الى وجود علم نفس عاجز كسيح . « ولقد اصبح من الواضح تدريجيا ان دراسة غير الناضجين وغير

الأصحاء والمقعدين والمعاقين يمكن أن تؤدى الى علم نفس كسيح والى فلسفة كسيحة » . (Maslow 1970, p. 180)

ولقد كان ماسلو يأمل أن يلتفت علم النفس الانسانى الى الجوانب الموجبة من الناس ، وأن يوفر المعلومات التى يمكن أن تستخدم لصياغة نظرية كاملة عن الدافعية الانسانية ، نظرية يمكن أن تشتمل على الجوانب الموجبة والجوانب السالبة من الطبيعة الانسانية . « وأن الصحة لا تعنى ببساطة غياب المرض كما انها ليست ضده . فأى نظرية فى الدافعية تستحق الاهتمام ينبغى أن تعالج أعلى قدرات الانسان السليم والقوى كما تتناول المناورات الدفاعية التى تستخدمها الأرواح المعاقة المعقدة » (Maslow 1970, p. 33)

لقد شعر ماسلو أن المدخل العلمى المألوف الذى يعتمد على الاختزال والتحليل reductive - analytic approach والذى يرد الانسان الى مجموعة من العادات أو الصراعات يغض الطرف عن جوهر الطبيعة الانسانية وأن المنهج الكلى — التحليلى holistic - analytic approach الذى يدرس الانسان باعتباره كلا يفكر ويشعر يحتمل أن يؤدى ويسفر عن نتائج صادقة. واذا كان من غير الممكن استخدام الاساليب العلمية المعيارية لدراسة الشخص ككل ، فعلينا أن نتخلص منها وأن نضع الاساليب التى يمكن استخدامها . ان فهم الانسان هو الأمر الهام ، واذا لم تساعدنا الاجراءات العلمية التقليدية للتوصل الى هذا الفهم ، فان هذا يعنى انها سيئة . ولقد رأى ماسلو أن بعض العلماء منشغلين بالطريقة الاختزالية التحليلية لانها حيلة دفاعية حتى لا يعرفوا طبيعتهم . وبعبارة أخرى فان بعض العلماء باسم الدقة العلمية والصراحة يعزلون انفسهم عن الجوانب الشاعرية والرومانسية والرقيقة والروحية عند الآخرين من الناس ، أى أن هؤلاء العلماء يجعلون الناس اقل جمالا مما هم عليه وأقل مثارا للاعجاب والرهبة .
(Hergenhahn, pp. 332-333)

ان الفرق الأساسى بين هذين المدخلين أو المنهجين يتلخص فى أن المنهج الاختزالى التحليلى ينظر الى الوقائع فى مجال الدراسة باعتبارها وحدات منفصلة اما المنهج الكلى التحليلى فينظر الى هذه الوقائع باعتبارها اجزاء فى كل . ويترتب على ذلك ما يأتى : —

١ ــ انه عند تفسير الظاهرة يبحث المنهج الأول عن العناصر التى تتألف منها فاذا كان لدينا طفل يعانى من التأتاة فان الباحث وفقا لهذا المنهج يبدأ بحثه بتحديد معدل حدوث التأتاة والعوامل التى تؤثر فى هذا المعدل واجزاء الكلام التى يتأتىء فيها الطفل . أما أصحاب المنهج الثانى فيبداون بدراسة مبدئية للكل ، ولسياق الظاهرة ثم ينتقلون بعد ذلك للتحليل . فقد يحاولون فهم الطفل الذى يتأتىء بالبحث عن علاقاته ببيئته ، بالوالدين ، والأخوة ، وزملائه وبدراسة العلاقة الدينامية بين التأتاة والشخصية ككل . وبعد دراسة حياة الطفل كلها ينتقلون الى المرحلة التحليلية .

٢ ــ والخطوة التالية التى يقوم بها دعاة المنهج الاختزالى التحليلى هى تصنيف عناصر الظاهرة فى فئات على أساس أن هذه العناصر مستقلة الواحد منها عن الآخر . ومعنى ذلك أن لا ينــدرج العنصر فى فئتين والتصنيف على اساس مجموعة من الفئات الثنائية يخلف المنهج الكلى التحليلى . ان التصنيف الثنائى يفصل الجزء عن جزء آخر وقد يخدمان وظيفة واحدة،وقد يعزل جزءا عن الكل الذى ينتمى اليه فيشوه الاجزاء والكل على السواء . ان استبعاد عضو من أسرة يحطم نمط التفاعل السائد فيها ويغير العلاقات الأسرية الباقية كلها . ان الأجداد ، والآباء والأطفال واقاربهم ليسوا عناصر مستقلة ولا يمكن تصنيفهم تصنيفا له معنى فى فئات منفصلة .

٣ ــ ومما يميز المنهجين أن المنهج الاختزالى التحليلى يرى فئتين منفصلتين من الوقائع فى هذا الكون العلل والمعلولات ، او الاسباب والنتائج . ودعاة هذا المنهج يطرحون اسئلة مثل : ما نوع التفاعل بين الوالدين والطفل الذى يسبب عند الأخير التعرض للشيزوفرينيا ؟ هل لقسوة أساليب التدريب على النظافة اثر فى النمو الخلقى ؟ ولكن دعاة المنهج الثانى الذى تبناه ملسلو يرفضون فكرة السبب والمسبب . وذلك لانهم يرون الوقائع يتصل بعضها بالبعض الآخر اتصالا ديناميكيا بطريقــة تجعل نفس الوقائع أسبابا ونتائج فى نفس الوقت . ويصبح السؤال : « هل النقص فى تقدير الذات يؤدى الى الشعور بعدم الأمن ، ام ان

الشعور بعدم الأمن يؤدى الى نقصان فى تقدير الذات ؟ سؤالا مختلفا يصاغ على النحو التالى . ما هى ديناميات العلاقات بين عدم الأمن وتقدير الذات ؟ » (W.B. Arndt, Jr 1974, p.p. 14-16)

كان هدف ماسلو أن يصبح علم النفس أكثر اكتمالا وتوازنا بحيث يركز على الفرد الذى تجاهله عبر السنين ، الفرد السليم الذى يقوم بوظائفه على نحو كامل . ولقد اصبح هذا الجهد يمثل القوة الثالثة فى علم النفس باعتبار التحليل النفسى والسلوكية هما القوتان الآخريان .

ولقد اسس ماسلو علم ١٩٦٢ م مع عدد من علماء النفس الآخرين (ومنهم كارل روجرز) من ذوى التوجه الانسانى ، الرابطة الامريكية لعلم النفس الانسانى التى عملت وفقا للمبادىء الآتية : —

١ — ينبغى أن يكون الموضوع الأساسى الذى يدرسه علم النفس الشخص باعتباره يخبر الوقائع والأحداث .

٢ — ينبغى الاهتمام بموضوعات الاختيار والابتكار وتحقيق الذات بدلا من الاهتمام بالاختزال الآلى .

٣ — ينبغى أن ندرس المشكلات الشخصية والاجتماعية ذات المغزى والمغزى هنا هى الكلمة الهامة وليست الموضوعية .

٤ — ينبغى أن يكون الاهتمام الرئيسى لعلم النفس هو كرامة الانسان وتقدمه .

وعلم النفس الانسانى يرى أن هذه المبادىء وما ينتج عن اتباعها سوف تؤدى الى نقصان فى التنبؤ وفى السيطرة على سلوك الانسان ، والى زيادة فى معرفة الذات .

« اذا امكن ان يقال أن للعلم الانسانى اى مرامى أبعد من مجرد الافتتان بغموض الانسان والاستمتاع به ، فان هذه سوف تستهدف تخليص الانسان من الضوابط الخارجية وجعله اقل قابلية للتنبؤ من قبل الملاحظ (اى تجعله

أكثر تدررا واعظم ابتكارية واشد قدرة على التصميم النابع من داخله) حتى ولو ترتب على ذلك ان يصبح اقل قابلية للتنبؤ بالنسبة لنفسه » .
(Maslow 1966, p. 40)

الفـــــــردية :

يرى ماسلو ان عالم النفس الذى يدرس الشخصية قد يتســـــم بذلك بطريقة الكاتب الكفء الذى يصنف ويرتب الاضابير ، أو بطريقة الفنـــــان الصادق . فاذا عمل بالطريقة الأولى فانه يهتم بتصنيف الوقائع وتسميتها كما يفعل أصحاب المنهج الاختزالى التحليلى . ولن يحتاج الى دراسة اعمق متى ما صنف الواقعة وسماها . أما حين يدرس الشخصية كفنان فانه يركز على الجوانب الفريدة ويهتم بها كما يهتم بالخصائص المشتركة . فكل انسان يشبه الآخرين فى بعض النواحى ، ولكنه يتميز ويختلف عنهم فى نواحى أخرى . ولا ينبغى التضحية بالنواحى الاخيرة سعيا وراء الانتظام والاطراد .
(1970, pp. 203 - 204)

وكثير من علم النفس الامريكى يستمد رؤيته من العلوم الفيزيقيـــــة الكلاسيكية بمعنى أن يدرس الافراد بغية التوصل الى نواحى التشـــابه ، ويميل الى اعتبار نواحى الاختلاف اخطاء قياس ، وان يبتكر فئات يصنف فيها الأفراد بدلا من أن يعطى الفرد ما يستحقه من تقدير كما لو كان فئة بمفرده . وان هذه التجريدات الناموسية والتعميمات مفيدة اذا ساعدتنا على اعطاء التفرد حقه أى اذا كانت بمثابة الأرضية أو الخلفية التى يبرز عليها الشكل . وينبغى أن نقدر على معرفة الفرد وفهمه فى تفرده الرائع . واذا عجزت مفاهيمنا الحاضرة عن اعطاء الفردية ما تستحق من اهتمام لفهمها وتقديرها فان من الواجب تنحيتها جانبا والعمل على اكتشاف طرائق جديدة للمعرفة والبحث .
(1968, p. 13)

التنظيم الهرمى للحاجات :

ان اساس فكر ماسلو هو نظريته فى الدافعية . وهو يرى ان لدى الانسان عدد من الحاجات الفطرية . ولقد فضل ماسلو استخدام كلمـــــة

instinctoid على كلمة instinctive فى وصفه للحاجات ليبرز الفرق بين الارث البيولوجى لدينا والارث البيولوجى لدى الحيوانات الدنيا . يقول ماسلو « هذا الجوهر الداخلى حتى ولو كان ذا أصل بيولوجى غريزى الا انه ضعيف أكثر من كونه قويا بمعنى معين ، ويسهل التغلب عليه وقمعه أو كبته بل ويمكن حتى وأده على نحو مستمر . فالناس لم يعد لديهم غرائز بالمعنى الحيوانى ، أى غرائز قوية ، وأصوات داخلية لا نخطئها تبين لنا بغير تردد ماذا نفعل ومتى وأين وكيف ومع من . ان كل ما بقى لدينا هو آثار الغريزة وبقاياها . وفضلا عن ذلك فهى ضعيفة ، غير مباشرة ، رقيقة يسهل أن نغرقها بالتعلم وبالتوقعات الثقافية وبالخوف وبعدم الموافقة ...... الخ . (Maslow, 1968, p. 191)

افترض ماسلو أن حاجاتنا مرتبة ترتيبا هرميا على أساس قوتها . وعلى الرغم من ان جميع الحاجات فطرية ، فان بعضها أقوى من البعض الآخر . وكلما انخفضت الحاجة فى التنظيم الهرمى كانت أكثر قوة ، وكلما ارتفعت فى التنظيم كانت أضعف وكانت مميزة للانسان بدرجة أكبر . والحاجات الدنيا أو الأساسية فى التنظيم الهرمى تماثل تلك التى تمتلكها الحيوانات الدنيا الأخرى . ولا يوجد حيوان آخر باستثناء الانسان يملك الحاجات العليا .

ولقد لخص ماسلو الفروق بين الحاجات العليا والحاجات الدنيا عام ١٩٧٠ فيما يأتى : —

١ — كلما ارتفعت الحاجة كان ظهورها متأخرا فى عملية التطور .

٢ — الحاجات العليا تحدث متأخرة نسبيا فى نمو الفرد . وبعض الحاجات العليا لن تظهر حتى يبلغ الانسان أواسط عمره وقد لا تظهر لديه على الاطلاق .

٣ — للحاجات العليا علاقة بالبقاء أقل من تلك التى للحاجات الدنيا وهذه العلاقة غير مباشرة بدرجة أكبر ، وأقل ارتباطا بالاشباع وهكذا فانها أقل الحاحا .

٤ — على الرغم من ان الحاجات العليا لا تتصل اتصالا مباشرا بالبقاء ، الا

أن اشباعها مرغوب فيه بدرجة أكبر من اشباع الحاجات الدنيا .
فاشباع الحاجات العليا يؤدى الى سعادة اعمق ، وراحة بال ، وحياة باطنية اخصب .

٥ — تتطلب الحاجات العليا شروطا مسبقة اكثر من الحاجات الدنيا حتى تبزغ وحتى تشبع ، وهى تتطلب ظروفا بيئية افضل لتؤدى وظيفتها .

ومع تسلق الفرد لهذا التنظيم الهرمى للحاجات تقل حيوانيته وتزداد انسانيته . ويتقدم الشخص من مستوى حاجة الى المستوى التالى باشباع مجموعة الحاجات التى تخص المستوى الأول فى التنظيم الهرمى . وسوف تتضح هذه النقطة بدرجة أكبر حين نناقش المستويات الخمسة للحاجات فى هذا التنظيم الهرمى .

١ — الحاجات الفسيولوجية Phsiological needs

وهى الحاجات التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالبقاء والتى تشارك فيها الحيوانات الأخرى . وتشتمل هذه على الحاجة للطعام والماء والجنس والاخراج والنوم . واذا لم تشبع واحدة من هذه الحاجات الفسيولوجية فانها تسيطر سيطرة تامة على حياة الفرد .

« يمكن أن تعرف المدينة المثالية Utopia عند الرجل الذى اضناه الجوع والذى ازمن معه بأنها ببساطة المكان الذى يتوافر فيه الطعام . وهو يميل الى الاعتقاد بأنه لو ضمن فحسب الحصول على طعام بقية حياته ، فانه سوف يكون سعيدا تماما ولن يحتاج الى شىء اكثر من ذلك . وتميل الحياة ذاتها الى أن تعرف على اساس تناول الطعام . وسوف يعتبر كل ما عدا ذلك غير ذى اهمية . وقد تنحى الحرية والحب ومشاعر الجماعة فى البيئة المحلية ، والاحترام والفلسفة باعتبارها زخارف زائفة لا فائدة فيها طالما أنها جميعا لا تستطيع ان تملاء المعدة . ويمكن أن نقول عن هذا الرجل انه يعيش بالخبز وحده » . (Maslow, 1970, p. 37)

وواضح أن مثل هذه الحاجات هامة جدا وانه ينبغى الالتفات اليها غير أنه فيما يرى ماسلو : لقد غالى علم النفس بالتأكيد على اهمية مثل هذه

الحاجات فى تحديد سلوك الانسان فى المجتمع الحديث . وهذه الحاجات يسهل اشباعها ، والسؤال الحقيقى الذى اثاره ماسلو هو « ماذا يحدث بعد اشباع الحاجات الفسيولوجية ؟ » « حقا أن الانسان يعيش بالخبز وحده — حيث لا يوجد خبز » ولكن ماذا يحدث لرغبات الانســان حين يتوافر الخبز ويمتلىء بطنه دوما ؟ » . (Maslow, 1970; p: 38) وكانت اجابة ماسلو أن مجموعة الحاجات عند المستوى الثانى تسيطر عليه عندئذ . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن ماسلو لم يشعر أن مجموعة من الحاجات لا بد أن تشبع كلية قبل أن يتحرر الفرد ليعالج المستوى التالى . ولكنه شعر أن مجموعة من الحاجات لا بد أن تشبع على نحو متسق واشباعا اساسيا . وبعبـــارة أخرى فان الشخص قد يتعرض بين الحين والآخر للجوع أو العطش ويظل مع ذلك قادرا على أن يعمل على اشباع الحاجات العليا ، ولا يخضع حياته للجوع والعطش .

٢ — حاجات الأمن Safety needs

حين تشبع الحاجات الفسيولوجية على نحو مرضى تبزغ أو تظهر حاجات الأمن كدوافع مسيطرة .وهذه تشتمل على الحاجة الى البنية والنظام والأمن والقابلية للتنبؤ . والهدف الأول للشخص الذى يعمل عند هذا المستوى هو أن ينقص الشك ويتخلص من الريبة وعدم اليقين فى حياته . ويبدو أن هذه الحاجات تعمل عملها بوضوح عند الأطفال الذين يخافون خوفا شديدا حين يواجهون الوقائع الجديدة (التى لا يمكن التنبؤ بها) واشباع حاجات الأمن تؤكد للفرد أنه يعيش فى بيئة متحررة من الخطر .

٣ — حاجات الانتماء والحب Belongingness and Love Needs

متى ما اشبعت الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمن اشباعا أساسيا فان الفرد يدفع بالحاجة الى التواد . والناس فى حاجة الى أن يكونوا موضع حب وأن يحبوا . واذا لم تشبع هذه الحاجات فان الشخص يشعر بالوحدة والخواء.ولقد اعتقد ماسلو أن الاخفاق فى اشباع الحاجات عند هذا المستوى مشكلة أساسية لدى الامريكيين فى العصر الحاضر.ويوضح ويشرح الأسباب التى تدفع كثيرا من الناس الى البحث عن الطب النفسى والمشــاركة فى

جماعات التدريب على الحساسية . ويصف ماسلو الشخص الذى يمثل هذه الفئة قائلا « انه مدفوع بجوع لايشبع للاحتكاك والصداقة الحميمة والانتماء والحاجة الى ان يتغلب على المشاعر الشائعة . مشاعر الاغتراب والوحدة والغربة والعزلة التى سادت نتيجة للحراك ، ولتحطم الجماعات التقليدية وابعثرة الأسر ، وللفجوة بين الاجيال،وللتحضر المستمر ولاختفاء علاقة الوجه للوجه التى سادت القرية » (1970, p. 44)

٤ — حاجات التقـــدير Esteem Needs

لو ان شخصا كان محظـوظا بالقـدر الكافى بحيث يشـبع حاجاته الفسيولوجية وحاجته الى الأمن والانتماء والحب ، فان الحاجة للتقدير سوف تسيطر على حياته . وهذه المجموعة من الحاجات تتطلب تقديرا من الآخرين وهذا التقدير يؤدى الى خلق مشاعر لدى الفرد بانه متقبل وذو مكانة وشهرة والى تقديره لذاته الذى يؤدى بدوره الى مشاعر الكفاءة والثقة والسداد . وهذان النوعان من المشاعر ينتجان عادة من الانغماس فى الانشـطة التى تعتبر نافعة اجتماعيا . والقصور فى اشباع حاجات التقدير يؤدى الى تثبيط الهمم ومشاعر القصور .

٥ — تحقيق الذات Self - actualization

اذا اشبعت الحاجات الدنيا اشباعا مناسبا فان الشـخص يصبح فى موقف يمكنه من أن يكون احد الافراد القلائل الذين يحققون ذواتهم.« والأصحاء من الناس اشبعوا حاجاتهم الأساسية للأمن والانتماء والحب والاحترام وتقدير الذات ، وتتوجه دوافعهم فى الاساس الى تحقيق الذات (ويقصد بتحقيق الذات التحقيق المستمر لامكانيات الفرد وقدراته ومواهبه باعتبار ذلك تحقيقا لرسالة واداء لها « او تلبية لدعوة او قدر او مصير او مهنة » وكمعرفة تامة بطبيعة الشخص وتقبله لها ، وكاتجاه لا يتوقف نحو الوحده والتـكامل والتعاون داخل الشخص) (Masloh 1968, p. 25)

فالموسيقى يؤلف مقطوعات موسيقية . والفنان يرسم لوحات،والشاعر يقرض الشعر ، اذا راد فى النهاية ان يكون فى سلام ووئام مع نفسه .

وما يستطيع الانسان أن يكونه ينبغى أن يصير اليه . وهذه الحاجة هى التى يمكن ان نطلق عليها تحقيق الذات (Maslow, 1945, p. 91) وسوف نتحدث عن خصائص هؤلاء الذين حققوا ذواتهم فيما بعد .

وينبغى أن نلاحظ أن ماسلو اعتقد أنه مع اشباع مجموعات الحاجات يتقدم الفرد صاعدا فى التنظيم الهرمى ، غير أنه مهما كانت المسافة التى تقدمها وقطعها،اذا احبطت حاجة أدنى لفترة طويلة من الزمن ، فانه سينكفىء الى ذلك المستوى فى التنظيم الهرمى الذى يلائم تلك الحاجة وسوف يبقى هناك حتى تشبع تلك الحاجة.وهكذا فانه مهما كان ما حققه الفرد فى حياته، اذا اعيق اشباع الحاجة الى الطعام فجاة ، فان هذه الحاجة سوف تسيطر على حياته مرة أخرى .

الرغبة فى المعرفة والفهم The Desire to Know and Understand

شعر ماسلو أن الرغبة فى المعرفة والفهم كانت مرتبطة باشباع الحاجات الأساسية وما زالت . وبعبارة أخرى فان المعرفة والفهم أداتان تستخدمان لحل المشكلات والتغلب على العقبات وبالتالى اتاحة الفرص لاشباع الحاجات الأساسية .

فاذا تذكرنا أن القدرات المعرفية (الادراكية والفكرية والتعلم) هى مجموعة من أدوات التكيف ولها بين وظائف أخرى وظيفة اشباع حاجاتنا الأساسية ؛ فانه من الواضح أن أى خطر يهددها ، أو حرمان منها أو اعاقة لاستخدامها الحر ينبغى أيضا أن يكون مهددا للحاجات الأساسية نفسها . ان هذه العبارة حل جزئى للمشكلات العامة لحب الاستطلاع ، والبحث عن المعرفة والحقيقة والحكمة والرغبة الملحة المستمرة دوما ولمعرفة الخفايا الكونية وحل الغازها.وتهدد السرية والرقابة وعدم الامانة واعاقة الاتصال جميع الحاجات الأساسية .

الحاجات الجمالية The Aesthetic Needs

وهذه هى الحاجة الى اشياء كالنظام والتماثل والغلق والبنية واتمام الفعل التى نراها لدى الراشدين ونكاد نراها شائعة أيضا لدى الأطفال.ولقد

تشعر ماسلو ان هنك شواهد تدل على وجود هذه الحاجات فى كل ثقافة مهما رجعنا الى الوراء فى مراحل تطور الانسان حتى ولو رجعنا الى انسان الكهوف .

وعلى الرغم من ان الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمن والحب والانتماء ، وحاجات التقدير والحاجة الى تحقيق الذات تؤلف تنظيما هرميا ، وان الحاجة الى المعرفة والفهم ترتبط وظيفيا باشباع جميع الحاجات السابقة ، الا ان صلة الحاجات الجمالية بهرم الحاجات ليست واضحة . وثمة أمران واضحان تماما على اية حال وهما : ان ماسلو اعتقد اولا بفطرية الحاجات الجمالية ، وثانيا انها تعبر عن نفسها اكمل تعبير لدى الأفراد الذين يحققون ذواتهم . (Hergenhahn, pp. 334-337).

ان القول بأن جميع الأنماط السلوكية لها دوافعها ادت بكثير من اصحاب النظريات فى مجال الشخصية الى طرق مسدودة . وهذه الفكرة لها جذورها فى الخلط بين الدافعية والحتمية . وهكذا ففى حين اننا لا نستطيع أن ننكر أن جميع الأنماط السلوكية لها اسبابها وعواملها التى تؤدى الى حدوثها ، الا أن هذا لا يعنى بالضرورة ان لجميع الأنماط السلوكية دوافعها . فالحتمية ليست مرادفا للدافعية . ويذهب ماسلو الى ان هذا الخلط بدأ عند فرويد الذى حاول أن يربط بين جميع الأنماط السلوكية بما فى ذلك الأعراض المرضية والاحلام وبين الدوافع الغريزية . ولقد أدى الاستقصاء الذى قام به فرويد بحثا عن الدافع وراء الاحلام المزعجة الى افتراض غريزة الموت . ويمكن تصحيح هذا الخطأ اذا اعتبرنا بعض الأنماط السلوكية غير مدفوعة وهى الأنماط السلوكية التعبيرية .

ولقد ميز ماسلو متبعا فى ذلك خطوات ادلر والبورت بين السلوك الذى يتصدى للمشكلات Coping behavior والسلوك التعبيرى . ولقد أشار الى فروق بين هذين النوعين من السلوك نورد فيما يأتى اهمها : —

١ — سلوك التصدى غرضى لانه يحاول تغيير البيئة: اما السلوك التعبيرى فغير غرضى ؛ ويغلب الا تثيره دوافع وهو لا يستهدف تحقيق شىء معين على وجه التحديد .

٣ — سلوك التصدى يكون عادة متعلما ويعكس آثار الثقافة التى يعيش فيها الفردوالموقف المباشر الذى يوجد فيه ، فى حين أن السلوك التعبيرى كثيرا ما لا يكون متعلما ويتحدد فى الأساس نتيجة لحالة الشخص .

٣ — سلوك التصدى يتطلب عادة بذل الجهد ويسهل السيطرة عليه وكفه أو قمعه ، أما السلوك التعبيرى فيحدث بغير جهد ويصعب السيطرة عليه وقد تكون هذه السيطرة محالة .

ومعنى هذا ان سلوك التصدى سلوك تحدده الحاجة ويستهدف حل مشكلة كالسعى الى المطعم لتناول الطعام او الانضمام الى ناد لتصبح عضوا منتميا الى جماعة لها مكانة اجتماعية عالية . أما السلوك التعبيرى فيتحدد بحالة الشخص فهو يبتسم على سبيل المثال حين يكون سعيدا ، ويبكى حين يكون حزينا ويكتب قصيدة ليعبر عن مشاعره وانفعالاته . أما سلوك التصدى فيمكن فهمه وتفسيره باستخدام مفاهيم كالحاجة والاشباع والتنظيم الهرمى . أما محددات السلوك التعبيرى فينبغى البحث عنها فى موضع آخر .

ولقد وجد ماسلو (1970, p. 233; 1968, p.p 109 - 110) أنه لا يستطيع ان يطبق النظرية الدافعية التى تقوم على سلوك التصدى على سلوك الأفراد الذين يحققون ذواتهم . فاذا استخدم مفهوم الدافعية وطبقه على المحققين لذواتهم فان هذا المفهوم لا يمكن أن يكون معناه حالة من الحرمان ، بل يجب تغيير المفهوم وتوسعته . وذلك لان الذين يحققون ذواتهم لا يكافحون للحصول على شىء . انهم يكبرون وينمون ويرتقون . انهم لا يعدون للحياة بل يحيون ويعيشون فعلا . ان سلوك الذين يحققون ذواتهم ليس مدفوعا بدوافع نقص وقصور (D - motivation) بل مدفوعا بدوافع كينونة (D - motivation) وينبغى على أصحاب نظريات الدوافع ان يمدوا من مفهومهم للدافعية بحيث يقدر على تفسير السلوك التعبيرى وتحقيق الذات .

(W.B. Arndt, Jr 1974, p. 154)

٦ **وحدة بناء الشخصية :**

وحدة بناء الشخصية عند ماسلو هى الزملة Syndrome وقد عرفها
٧ بأنها « مركب منظم من الخصائص الظاهرة التنوع (عناصر سلوكية ، وافكار ونزعات للفعل ومدركات ... الخ) التى لها وحدة مشتركة » (1954, p. 32)
فالفرد الذى ينخفض لديه تقدير الذات قد ينغمس فى افعال وافكار ومدركات تبدو فى ظاهرها منفصلة ولا رابط بينها بالمرة ، ولكن الدراســـة والتعمق
٨ تكشف على علاقة دينامية بينها وبين محاولته استعادة تقديره لذاته .

٩ وفيما يأتى بعض خصائص زملة الشخصية التى حددها ماسلو :ـــ

١ ـــ ان اجزاء الزملة يحل بعضها محل البعض الآخر اى انها قابلة للتبادل ، فاذا بذل الفرد جهدا لينال الحظوة عند رئيسه فى العمل وذلك لاشباع حاجته الى الأمن ولم يفلح فانه يستطيع ان يلجأ الى عدد من المسارات الأخرى لتوفير الأمن النفسى لذاته .

٢ ـــ تتميز الزملة بخاصية الدائرية من حيث التاثير والتاثر . اى ان الجزء لا يؤثر فى الآخر بالمعنى الاختزالى التحليلى ، وانما تتصل هذه الأجزاء كلها اتصالا ديناميا . فالخوف من الآخرين ليس ببساطة سببا للعداء نحوهم ، كما أن العداء نحوهم ليس سببا للخوف منهم . ان هـــذين الجزءين من الزملة سببان ونتيجتان الواحـــد منهما للآخر اى ان كل منهما يتصل بالآخر اتصالا ديناميا .

٣ ـــ الزملة تقاوم التغيير ، وتميل الى المحافظة على نفسها ، وان تعيـــد ترسيخ نفسها بعد التغيير غير ان الزملة حين تتغير فانها تفعل ذلك ككل وليس جزئيا لانها وحدة وجشطلت . والتغير المميز الذى يحدث للزملة هو ميلها واتجاهها الى مزيد من الاتساق . وهكذا فان الشخص غير الآمن يميل الى يصبح غير آمن فى جوانب حياتية متزايدة .

ان الزملات تتغير فى بعدين : المستوى والنوعية . فالمستوى او الشدة تتغير ارتفاعا وانخفاضا ، والنوعية تتغير فى ضوء الفروق فى المحتـــوى

الموحد للزملة . وقد وجد ماسلو ارتباطا بين تقدير الذات والأمن بلغ ٣٠ر٠ ٪ كما هو واضح من الجدول الآتى هناك علاقة محددة بين المستوى والنوعية . وانه على الرغم من أن الزملات المختلفة لا ترتبط ارتباطا عاليا احصائيا ، فان هذا لا يعنى أن العلاقة بينها ضئيلة . ومستويات الزملة لا تتغير معا تغيرا كبيرا ولكن الواحد منها يتصل بالتاكيد بالآخرى لانها أجزاء لنفس الكل وهو الشخص .

جدول (١ — ١٧)

يبين العلاقة بين مستوى الزملة ونوعيتها

الشخص	تقدير الذات	الأمن	السلوك
ا	عالى	عالى	قوة شخصية وحب علاقة رحمة للآخرين وحماية لهم
ب	عالى	منخفض	كره واحتقار وخوف من الآخرين يستخدم القوة لايذاء الآخرين والسيطرة عليهم

(Ibid, pp. 195-196)

الجبلة والثقافة :

ذهب ماسلو الى ان جميع حاجات الانسان الاساسية ذات أصل فطرى. ولذلك فان من المتوقع الا تختلف هذه الحاجات من ثقافة الى اخرى. واذا ركزنا على دراسة الحالات المرضية، أو قمنا بمقارنات عبر حضارية على المستوى الظاهر فقد تبدو لنا الحاجات النفسية مختلفة باختلاف الثقافة : اما اذا درسنا الشخصيات السوية أو الافراد الأصحاء وتعمقنا الدراسة فاننا لن نجد اختلافا فى الحاجات من انسان الى آخر ؛ ومن ثقافة الى اخرى والحق أن الثقافة تؤثر فى سلوكنا المتصدى لحل المشكلات ، اى انها تؤثر فى الوسائل التى نتبعها لاشباع حاجاتنا ، الا ان هذه الحاجات نفسها أى الغايات لا تختلف اختلافا كبيرا من ثقافة الى اخرى . والطبيعة الانسانية

ليست عجينة قابلة للتشكيل التام ، ومن هنا فان الثقافة لا تستطيع تشكيل ٦
الشخصية على نحو مطلق والمجتمع الجيد هو الذي ييسر نمـو الشخصية
ويساعد عليه بدلا من أن يكف هذا النمو ويعوقه . ٧

ولقد رفض ماسلو الفكرة القائلة بأن الانسان والثقافة أعداء بالضرورة
وأن الوظيفة الأساسية للحضارة هى ترويض النزعات الأساسية وتهذيبها.
أن هذا المفهوم الخاطىء عن العلاقة بين الانسان والثقافة تعكس الميل الشائع ٨
الى التفكير الثنائى اى التفكير على أساس وجود قوتين متعارضتين . ويرتبط
بهذه الفكرة الخاطئة القول بأن طبيعة الانسان أنه حيـوان متوحش وان
ما يتسق مع الثقافة ينبغى أن يكون خيرا وما يختلف عنها ينبغى أن يكون ٩
شرا . وترتيبا على ذلك فان الانسان المثالى هو الذى يحسن توافقه وتكيفه،
الانسان الذى تخلص من طبيعته أو طوعها ليصير على مثل الصـورة التى
يمليها المجتمع ويحددها . ولكن ماسلو يتساءل ما الذى يتكيف معه الانسان ؟
أن المجرم قد يتكيف مع قوانين عالم الجريمة وقواعدها ، والجانح قد يتكيف
ويلتزم بقواعد العصابة أو الشلة المنحرفة التى ينتمى اليها . ان القول بأن
الثقافة على صواب والانسان على خطأ لا يمكن الدفاع عنه ولقد صـور ١
هـ.ج ويلز H.G Wells هذه الفكرة تصويرا رائعا فى كتابه The Valley of the Blind « وادى الأعمى » حيث يقع انسان مبصر فى مجتمع العميان
ويعتبرونه سىء التكيف .

ويرى ماسلو أن اهتمامات الانسان واهتمامات الثقافة يمكن التوفيق
بينها . وأننا لا بد أن نبذل مزيدا من الجهد والتأكيد على أن الثقافة مصـدر
لاشباع الحاجات أكثر من كونها مشكلة للشخصية . ان الثقافة لا ينبغى أن
تكف النمو والارتقاء ، والثقافة الجيدة هى التى تيسر النمو والارتقاء وتساعد
عليهما .

لقد أعتقد ماسلو أن حاجات الانسان خيرة وليست سيئة (كما اعتقد
الفرويديون) ولذلك فانه ينبغى التشجيع على اشباعها بدلا من العمل على
قمعها .

وفكر ماسلو فى نوع المدينة الفاضلة التى يمكن أن تنشأ لو أن مائة

اسرة سوية نزحت الى جزيرة مجهولة حيث يستطيعون أن يحددوا مصيرهم. ولقد أطلق ماسلو على هذه المدينة الفاضلة كلمة Eupsychia أيوبسكيا أى بلد العقل الجيد وفى هذا البلد أو المدينة يتوافر التعاون التام فى العمل .

ما نوع التربية التى يختارونها ؟ وما نوع النظام الاقتصادى والحياة الجنسية والدين الذى ينشدونه ؟

« انا لست متأكدا جدا بالنسبة لبعض المسائل — وخاصة بالنسبة للنظام الاقتصادى ولكنى متأكد من المسائل الأخرى . واحدى هذه المسائل أن هذه الجماعة سوف تكون الى حد كبير وبالتأكيد جماعة تقوم على التعاون الطوعى دون سلطة anarchiac group ومتوجهة نحو الطبيعة وذات ثقافة محبة ، حيث يتوافر للناس بما فى ذلك الشباب حرية اختيار أكبر عما تعودنا عليه ، وحيث تحترم الحاجات الأساسية وما بعدها أكثر مما هو حادث فى مجتمعنا ، ولن يضايق الناس بعضهم بعضا كثيرا كما نفعل ، وسوف يميلون بدرجة أقل للضغوط على جيرانهم فى الآراء والديانات والفلسفات أو الأذواق فى الملابس أو الطعام أو الفن أو النساء . وفى ايجاز ان سكان هذه المدينة سوف يميلون الى أن يكونوا تايزميين غير متحمين أنفسهم على غيرهم مشبعين لحاجاتهم الأساسية (كلما كان ذلك ممكنا) وسوف يحبطون فى ظروف معينة لن أحاول وصفها ، وسوف يكونون اكثر أمانة الواحد منهم مع الآخر عما نحن عليه هنا ، وسوف يسمحون للناس بالاختيار الحر اينما كان ذلك ممكنـا . وسوف يكونون أقل ميلا للضبط والعنف والاحتقار عما نحن عليه . وفى ظل هذه الظروف سوف تظهر التكوينات العميقة للطبيعة الانسانية بسهولة أعظم » (Maslow, 1970, p.p. 277 - 278)

ولقد ذهب ماسلو عام ١٩٦٢ الى احدى الشركات الصناعية Non Linear Systems Inc ليعمل كزميل زائر ولقد اسفرت خبراته فى هذه الشركة عن كتابه عن الادارة المثالية Eupschion Management وكانت الرسالة الأساسية التى اراد أن ينقلها الكتاب الى القارىء : « اذا كانت الادارة الصناعية اكثر وعيا بحاجات الانسان ودراية بما يشبعها فان العامل يزداد صحة وكذلك الصناعة . وان الظروف التى عرضنا لها من قبل لو توافرت

للعمل لاتاحت للفرد تحقيق ذاته وأتاحت للمؤسسة الثراء والصحة ، ويصدق ٦
هـذا على كم الانتـاج ونوعه وعلى الخدمات التى توفرها المؤسسة »
(Maslow, 1971, p. 237)ان الادارة المثالية من وجهة نظره هى محاولة لخلق ٧
موقف عمل ييسر اشباع الحاجات الانسانية . وينبغى ان يكون واضحا ان
ماسلو اعتقد أن الصناعة ستزدهر اذا اصبحت اكثر انسانية ، ليس ذلك
فحسب بل أن المجتمع كله سيتطور ويزدهر على نحو افضل .

الادراك والمعرفة : Perception and Cognition ٨

ان طريقة انتباه الفرد وادراكه تتوقف على مستوى حاجاته . ويميز ١
ماسلو بين نوعين من الانتباه والادراك أحدهما يتأثر بدافعية التصور والآخر
يرتبط بدافعية الكينونة .

ووظيفة النوع الأول من الادراك ان يصل الاشياء الموجودة فى البيئة
بحاجاتنا . ولما كان الاشباع يصدر عن البيئة ، فان من الضرورى أن ننتبه
اليها من حيث صلتها بنا ، وأن نحصل على معلومات دقيقة عن الواقع وهذا ١
النوع من الادراك ضرورى ولكن الفرد عادة حين يقوم به ، فانه يصنف
المدركات ويسميها شأنه فى ذلك شأن كاتب الأضابير . فالخبز للأكل ،
والكلاب خطرة ، والأشجار مصدر للأخشاب وهذا النوع من الادراك يناسب
الطريقة الاختزالية التحليلية فى العلم . والمبدأ الاساسى للتصنيف فى هذا
النوع من الادراك هو قدرة الموضوع على اشباع الحاجات .

ولكن العالم ملىء بالأشياء الساحرة الخلابة التى يغفلها هذا النوع من
الادراك . أما النوع الثانى وهو ادراك الكينونة فهو الادراك الصادق الذى
يستكشف العالم ويتناوله ويستمتع به ويقبل عليه ويحبه . ان المسلم يرى
بعينى فنان . وينتقل الانتباه بحرية باحثا عن الشىء ذاته وما هو متفرد
وايديوجرافى ، ومدركا له .

وتحدد ظروف الحرمان والكينونة اسلوب التعلم والمعرفة كما تحدد
الادراك ففى ظل دافعية النقص والقصور تكون المعرفة للخدمة والتعلم
استرجاعا.وهدف هذا النوع من التعلم تكوين العادات التى تكرر الاستجابات

التى نجحت فى اشباع الحاجات . والعادات بالتأكيد تساعد على التوافق ولكنها ايضا رجعية تقاوم التوافق الجديد . وطالما أن مواقف الحياة لا تتغير تظل العادات فعالة ولكنها تؤدى الى سوء التوافق عندما تتغير المواقف .

ان معرفة اشباع الحاجات D - cognition ترتبط ارتباطا وثيقا بالتعلم الاسترجاعى . وفيه تصنف المشكلات واساليب حلها كما تصنف الحلول . وتصنف المشكلة الحاضرة فى فئة سبق تحديدها كما يحدث عند استخدام المدخل التاكسونومى فى التشخيص فى الطب النفسى . فالخطوة الأولى أن تحدد مشكلة المريض ، فهى أما عضوية أو وظيفية ، وأما أن تكون ذهانية أو عصابية أو اضطراب فى الخلق . وتطبق الأساليب المعتادة والنمطية والمحفوظة لحل المشكلة . ويتوافر لدى الشخص والمعالج مجموعة من الحلول الجاهزة كما يحدث فى التبرير حيث ينفق وقت اطول لتسويغ النتيجة الماضية اكثر مما ينفق للبحث عن نتيجة عميقة .

ان التعلم والتفكير يختلفان تماما فى ظروف الكينونة . فنظريات التعلم الاسترجاعى التى تستند الى دافعية النقص والحاجة لها فائدة قليلة واستخدام ضئيل فى سيكولوجية الكينونة ، وفى حياة المحققين لذواتهم. ان ماسلو يكمل تعلم العادات بتعلم الخلق حيث تؤدى خبرة الى تغيير الشخص كله ، لا أن تغير جزءا من سلوكه . اننا لا نتعلم اخذ قطعة من الحلوى من صندوقها وحسب ، اننا نتعلم الأمانة ، وتقديم المساعدة لجارنا حين يحتاجها، بل ونتعلم ايضا حسن الجوار .

تختلف معرفة الكينونة او الادراك الموجه للكينونة عن ادراك الحاجة ومعرفتها فى النوع او الكيف . انها تشير الى حالة من الادراك اكثر سلبية ، انها تتضمن أو تقتضى أن يدع الفرد نفسه لكى يبلغه الآخرون ويصلون اليه أو يتأثر بما هناك بحيث يصبح الادراك اكثر خصوبة وغناء .

وكمثال للفرق بين دافعية النقص او الحاجة ودافعية الكينونة استخدم ماسلو مفهوم الحب . لقد ميز بين حب الحاجة وحب الكينونة . الأول يثيره ويدفعه نقص اشباع الحاجة الى الحب والانتماء . والانسان فى مثل هذه الحالة يسعى الى الحب كالشخص الجائع الذى يناضل للحصول على الطعام .

وهذا الحب أنانى أثر لانه حين يتم الحصول عليه يشبع النقص الشخصى . ويقابل هذا حب الكينونة . ولقد قدم لنا ماسلو ثبتا بخصائص هذا النوع من الحب نورده فيما يأتى :—

١ — حب الكينونة ليس حب تملك .

٢ — حب الكينونة لا يصل حد التشبع ، ويمكن الاستمتاع به الى مالا نهاية انه عادة يزداد قوة بدلا من أن يختفى ، وحب الحاجة يمكن أن يبلغ التشبع .

٣ — وخبرة حب الكينونة كثيرا ما توصف بأن لها نفس الاثر كالخبرة الصوفية والخبرة الجمالية .

٤ — حب الكينونة له أثر علاجى عميق ومتسع .

٥ — حب الكينونة خبرة اغنى واسمى وقيمتها اكبر من حب الحاجة .

٦ — هناك حد أدنى من القلق والعداوة فى حب الكينونة .

٧ — الذين يتوافر لديهم حب الكينونة اكثر استقلالية الواحد عن الآخر ، واقل غيرة ، واقل حاجة واكثر اهتماما واكثر استقلالية عمن يتوافر لديهم الحب الآخر وهم اكثر شغفا بمساعدة الآخر نحو تحقيق الذات واكثر تفاخرا بانتصارات الآخر .

٨ — ان حب الكينونة يجعل الادراك الثاقب والصادق للآخر ممكنا .

٩ — حب الكينونة يتيح للشريك أن ينمو لانه يتيح له تقبل الذات والشعور بالجدارة بالحب ، ويحتمل أن النمو الانسانى التام لا يمكن أن يحدث بغير حب كينونة .

ان قيم الكينونة التى راى ماسلو انها تسيطر على الذين يحققون ذواتهم تشتمل على الصدق والخيرية والجمال والوحدة الكلية ، والبعد عن التفكير الثنائى ، والحيوية والتفرد والاتقان والاتمام والعدالة والنظام والبساطة والغنى والشمول ، والاكتفاء الذاتى واكتمال المعنى . واذا لم يعبر الفرد عن

هذه القيم يحدث حرمان مرضى ، وهذه القيم ليست مرتبة ترتيبا هرميا ولذلك فلها قيم متساوية ، ولكن بعضها يؤثر فى البعض الآخر . وأنه لكى يحقق الفرد ذاته حقا فانه فى حاجة الى أن يعبر عن هذه القيم جميعا .

« ولدى انطباع غير مؤكد بأن القيمة الكينونية تتحدد تحديدا كاملا وتعرف تعريفا سليما بقيم الكينونة الأخرى برمتها . أى أنه لكى تعرف أو تحدد الحق تحديدا وتعريفا كاملا ينبغى أن يكون الحق جميلا وكاملا وعادلا وبسيطا ومرتبا ومشروعا وشاملا وواحدا وأن يتسامى على الثنائية ، وأن يكون بغير مجهود وممتعا ... ان الامر يبدو لو كان لقيم الكينونة وحدة ، وأن كل قيمة مفردة هى جانب من هذا الكل » .

وعلى الرغم من أن قيم الكينونة حاجات عليا وسامية الا أنها ما تزال حاجات وما دامت كذلك فينبغى أن تشبع اذا أردنا للشخص أن يخبر صحة نفسية كاملة . والاخفاق فى اشباع هذا النوع من الحاجات يؤدى الى ما يسميه ماسلو ميتاباثولوجى . « ما بعد المرض » .

ان لحظات معرفة الكينونة المكثفة تحدث مشاعر البهجة ولقد أطلق ماسلو على هذه المشاعر الصوفية والشاملة خبرات الذروة peak experiences وسوف نتحدث عنها حين نتناول خصائص الذين يحققون ذواتهم .

النمـــو :

الوليد ليس صفحة بيضاء . فكل وليد يجىء الى هذا العالم وله طبيعته ، وله امكانياته الأساسية الداخلية . ان لديه امكانات موروثة وجبلية ومواهب ومزاج وحاجات . ويصف ماسلو هذه الطبيعة الداخلية بأن لهـا جذورها الغريزية instinctoid وهذه الخاصية أميل الى الضعف منها الى القوة ويسهل التغلب عليها وكبتها وقمعها من البيئات التى تكف النمو . وهذه الطبيعة الداخلية ليست سيئة ولكنها اما أن تكون حيادية أو خيرة .

والنمو الصحى المشبع للطفل وتطوره لا يصدر من خارج . انه ليس

٦ ببساطة استجابات لمتطلبات بيئته . أن الوليد أو الطفل لا يدفع الى امام .
وانما يختار الطفل السليم أن ينمو وهو يسأم من مص الأصابع والبحث عن
خبرات جديدة فى تناول الطعام . أنه لا يفطم وانما يفطم نفسه وهذا يصدق
٧ على النمو والارتقاء فى جميع المجالات (1968, p.p. 55 - 59)

وليس معنى هذا ببساطة أن النمو يتحقق بغير خوف أو ألم فكل خطوة الى الامام تعنى ترك ما هو آمن وبسيط ومألوف . وبينما تكون كل خطوة الى
٨ الامام مغامرة ، فانها تتطلب الشجاعة فى مواجهة الألم والأخطار الممكنة التى يحملها المستقبل فى طياته ، ومع ذلك فان الطفل ينمو على الرغم من الألم وليس بسببه .

الضمير :

اعتقد ماسلو أن مفهوم الانسان باعتباره ذا جانب حيوانى سىء ، أو باعتباره صفحة بيضاء عند ميلاده قد أديا الى القول بان الضمير ينبغى ان يفرض عليه من الخارج وذلك بسبب الخوف من العقاب . وهكذا نجد عند فرويد أن الأنا الأعلى هى تمثل الطفل لنواهى الوالدين خوفا من الخصاء . وأن الاخفاق فى طاعة أوامر الضمير يؤدى الى الخوف من العقاب ، والاحساس بالاثم ولكن السؤال هو : ما نوع الضمير الناتج عن التهديدات الخارجية ؟ وماذا لو أن الأب كان سيكوباثيا ، أو متسلطا جامدا ؟ وموقف ماسلو كعادته فى المسائل النظرية الأخرى يعتبر وجهة نظر فرويد لا تمثل الا نصف الحقيقة. ذلك ان ماسلو يقترح بالاضافة الى هذا الجانب من الضمير الذى ينتج عن المؤثرات الخارجية ، جانبا آخر ينبع من الداخل ومن الذات . وفى ضوء ادراك الطبيعة الداخلية يقتضى الضمير الحقيقى أن نكون صادقين مع أنفسنا ومع امكانياتنا ومواهبنا وحاجاتنا الأساسية . ويقول ماسلو : « أن الطبيعة الانسانية تحمل فى داخلها الاجابة عن الاسئلة ، كيف اكون خيرا ؟ كيف اكون سعيدا ؟ كيف اكون مثمرا ومنتجا ؟ ان طبيعتنا الحية تخبرنا بما نريد (وبالتالى بما له قيمة) وتمرضنا حين نحرم من هذا القيم والاخفاق فى تحقيق الطبيعة الأساسية، اى أن نرقى (1954, p:p. 152-153) فى عيشنا الى ما نستطيع أن نكونه يؤدى الى شعور لا مبرر له بخيانة الذات ، ورفضها ، والى شعور حقيقى بالاثم » .

ان الذين يحققون طبيعتهم الداخلية يعملون ما هو خير لانفسهم وللآخرين من منطلق الحب ، وليس من منطلق الخوف ، انهم يعملون ما هو خير لانهم يريدون عمله ، وليس لان عليهم أن يعملوه . انهم يسعون لتحقيق القيم العالية قيم الكنونة ، قيم الحق والكمال والعدل والجمال ، لان هذا السعى وهذا العمل يثيبهم فى ذاته لا لانهم يتوقعون مكافآت خارجية . ان الذين يحققون ذواتهم حين يشعرون بالاثم فانما يشعرون به بسبب نواحى القصور فى انفسهم التى لا تقبل التحسين والتطوير أو بسبب وجود هذه النواحى فى النوع الانسانى الذى ينتمون اليه . (1970, p. 157)

خصائص الذين يحققون ذواتهم :

لاحظنا من قبل أن اهتمام ماسلو بالذين يحققون ذواتهم بدا حين شعر باعجاب عظيم باستاذين من اساتذته هما رث بندكت وماكس فرتيمر . وبعد أن اكتشف ان هناك جوانب كثيرة مشتركة بين هذين العالمين بدا يبحث عن آخرين تتوافر فيهم هذه الصفات نفسها . لقد بحث عن أفراد يعملون فيما يبدو بقدرتهم الكاملة ، اى افراد يعملون افضل ما يقدرون على عمله . ولقد وجد مثل هؤلاء الأفراد بين طلابه ومعارفه كما وجدهم بين الشخصيات التاريخية المعروفة ولقد حدد مجموعة من هؤلاء فى النهاية ليقوم بدراستها بتفصيل اكبر . وتالفت هذه المجموعة من ٤٨ شخصا ، ينقسمون الى ثلاث فئات ، الفئة الأولى : تتالف من ١٢ شخصا يحتمل انهم يحققون ذاتهم فعلا والفئة الثانية وتتالف من ١٠ اشخاص وهم يحققون ذاتهم تحقيقا جزئيا . والفئة الثالثة وتتالف من ٢٦ شخصا ويمكن أن يحققوا أنفسهم . ولقد ضمن الفئة الأولى عددا ممن حققوا ذاتهم : اينشتين ، وروزفلت ، ووليم جيمس ، والدس هكسلى وسبينوزا ولنكولن وجفرسن .

ولقد ادرك ماسلو بوضوح أن بحثه عمن يحققون انفسهم ليس علميا ، وانه يمكن أن يتعرض للنقد على مستويات عديدة ، ولكنه اندهش لما توصل اليه بحيث انه شعر باضطراره الى أن يشارك الآخرين فى ملاحظاته قائلا « هذه الدراسة ... غير مألوفة على انحاء مختلفة . فهى لم تخطط لتكون بحثا عاديا ، ولم تكن مغامرة اجتماعية ، وانما كانت مغامرة خاصة ، فقد

حملتنى عليها حب استطلاع ذاتى واتجهت نحو حل مشكلات شخصية وخلقية وعلمية مختلفة . وقد حاولت أن اقنع نفسى وأن أعلمها بدلا من أن ابرهن للآخرين أو اثبت لهم شيئا » .

وعلى غير ما هو متوقع تماما ، على أية حال ، لقد اثبتت هذه الدراسات أنها مثيرة لى ومعلمة ، وأنها مليئة بالمضامين المثيرة ، وانه يبدو أن من العدل أن أكتب تقريرا من نوع ما عنها ليقرأه الآخرون على الرغم من نواحى القصور المنهجية بها . (Maslow, 1970, p. 149)

ولقد قارن ماسلو طريقته فى جمع البيانات عن الأفراد الذين يحققون ذواتهم بالتطور التدريجى للانطباع الكلى لصديق أو أحد المعارف . وبعبارة أخرى لقد كان الانطباع نتيجة لعدد كبير من الملاحظات غير الشكلية فى ظل ظروف منوعة متباينة تباينا كبيرا ، ولم يكن نتيجة ملاحظات مضبوطة فى ظل ظروف مختبرية . هذا بالاضافة الى أن نتائجه استندت الى دراسة مجموعة أو عينة صغيرة من الأفراد . وقد ترتب على هذا تعرض عمل ماسلو الى نقد مستفيض .

ولقد انتهى ماسلو من بحثه الى ان الذين يحققون ذاتهم يظهرون الخصائص الآتية : —

١ — **انهم يدركون الواقع ادراكا صحيحا وتاما** . ومدركاتهم لا تتخذ لونا بسبب حاجات معينة أو حيل دفاعية . وبعبارة اخرى ان ادراكهم للعالم يتميز بانه ادراك كينونة وليس ادراك حاجة او نقص .

٢ — **انهم يظهرون تقبلا اعظم من غيرهم لانفسهم وللآخرين وللطبيعة بصفة عامة** . ان الذين يحققون ذواتهم يتقبلون الأشياء على ما بها من خير وما بها من سوء . انهم لا ينكرون الجوانب السلبية فى أى فرد أو أى شىء . انهم اكثر تسامحا مع الأشياء والأفراد كما هى ، وكما هم .

٣ — **انهم يتميزون بالتلقائية والبساطة والطبيعية** . الذين يحققون ذواتهم صادقون مع مشاعرهم ، وما يشعرون به فى الحقيقة يعبرون عنه

قولا وعملا . وهم لا يختبئون وراء قناع ، ولا يتصرفون وفقا للأدوار الاجتماعية . انهم صادقون مع أنفسهم .

٤ — **انهم يميلون الى الاهتمام بالمشــكلات وليس الاهتمام بأنفســهم** : الذين يحققون أنفسهم يلتزمون عادة بانجاز ما يتصدون له من عمل لتحقيق هدف أو دفاع عن قضية أو خــدمة رسالة ، ويوجهون معظم طاقاتهم لهذا . ويقابل هذا الانشغال بالذات الذى كثيرا ما نجده فيمن لا يحققون ذواتهم .

٥ — **انهم يتميزون بنوع من الانعزال والحاجة الى الخصوصية** . لما كان الذين يحققون ذواتهم يعتمدون على قيمهم ومشاعرهم فى توجيــه حياتهم ، فانهم عادة لا يحتاجون الى احتكاك مستمر مع الآخرين .

« كثيرا ما يكون من الممكن بالنسبة لهم أن يظلوا فوق المعــركة هادئين ، لا يثير اضطرابهم ما يثير اضطرابا شديدا عند الآخرين . وهم يجدون أن من اليسير عليهم أن يتقدموا ويتأخروا وهم هادئين فى سكينة ، وهكذا يصبح من الممكن بالنسبة لهم أن يتقبلوا ما يتعرضون له شخصيا من سوء حظ دون أن يستجيبوا لذلك بعنف كما يفعــل الشخص العادى . ويبدو انهم قادرون على الاحتفاظ بكرامتهم حتى فى ظروف ومواقف غير مبجلة . ولعل ذلك ينتج جزئيا من ميلهم للتمسك بتفسيرهم للموقف أكثر من اعتمادهم على ما يشــعر به الآخرون فى هذه المسألة وما يفكرون بشأنها . وهذا التحفظ قد يلقى بظلاله ويظهر فى صورة تقشف وابتعاد » (Maslow, 1970, p. 160)

٦ — **وهم مستقلون ذاتيا وبالتالى يميلون الى الاستقلال عن بيئتهم وثقافتهم** . ولما كان المحققون لذواتهم مدفوعين بدوافع كينونة أكثر من كونهــم مدفوعين بدوافع حاجة وقصور فانهم أكثر اتكالا على عالمهم الداخلى منهم على عالمهم الخارجى .

« أن المدفوعين بدوافع الحاجة والقصور ينبغى أن يتــوافر حولهم أناس آخرون ؛ لان معظم اشباعات حاجاتهم (للحب والأمن والاحترام

والشورة والانتماء) تجيء من اناس آخرين . ولكن المدفوعين بدوافع الكينونة أو بدوافع النمو قد يقيدهم وجود الآخرين ويعوقهم . ان محددات الرضا أو الاشباع والحياة الخيرة تنبع من داخل الفرد بالنسبة لهم ولا تصدر عن المجتمع . لقد صاروا من القوة بحيث يستغنون عن رأى الآخرين الجيد فيهم ، أو حتى عن عاطفتهم وحبهم . أن المكانة الاجتماعية ودرجات الشرف والمكافآت والشعبية والشهرة والصحة التى يمكن أن يحرزوها تقل اهميتها بالنسبة لهم عن النمو الداخلى وتطوير الذات وارتقائها » (Maslow, 1970; p. 162)

٧ — **انهم يظهرون تذوقا مستمراً ومتجدداً** . ان المحققين لذواتهم يجدون متعة متجددة فى خبراتهم ، فكل وليد وكل شروق جميل بالنسبة لهم كانهم يرونه لأول مرة . والزواج مثير بالنسبة لهم بعد اربعين سنة كما كان عند بدايته. وبصفة عامة يجد هؤلاء الأفراد الهاما عقليا ومتعة ومرحا فى خبرات الحياة اليومية الأساسية .

٨ — **تتوافر لهم خبرات الأوج أو الذروة أو خبرات صوفية** . لقد اعتقد ماسلو ان لدى جميع الناس من الامكانيات ما يتيح لهم ان يخبروا الذروة أو الأوج ، ولكن المحققين لذواتهم هم وحدهم الذين يتمتعون بهذا النوع من الخبرات كاملا ، لانها لا تهددهم وبالتالى فانهم لا يكفون هذه الخبرة ولا يدافعون عن التمتع بها . وبصفة عامة تعتبر خبرات الذروة احتضان لقيم الكينونية .

« انه الشعور بالآفاق غير المحدودة المنفسحة ، والشعور بأن الفرد اكثر قوة واكثر ضعفا فى آن واحد عما كان عليه الفرد من قبل فى اى وقت مضى ، والشعور ببهجة عظيمة ورهبة ودهشة وفقدان التموضع فى الزمان والمكان مع الاعتقاد فى النهاية بأن شيئا هاما جدا وقيما جدا قد حدث بحيث يتحول الفرد ويقوى الى حد ما حتى فى الحياة اليومية من خلال هذه الخبرات » (Maslow, 1970, p. 164)

وينتهى ماسلو الى القول بأن بعض المحققين لذواتهم يعقلون الذروة ويبلغون الأوج أكثر من البعض الآخر . وتميل الفئة التى لا تبلغ هذه

الدرجة الى أن تكون عملية وتميل الفئة الأخرى الى أن تكون أكثر شاعرية ومتوجهة نحو الجمال ومتسامية ومتصوفة ».

٩ — **انهم يميلون الى التوحد مع الانسانية كلها** « ان اهتمامات المحققين لذواتهم بالآخرين لا تقتصر على أصدقائهم وأسرتهم بل تمتد وتتسع لتشمل الناس جميعا فى جميع الثقافات فى العالم كله. ان هذا الشعور بالأخوة يمتد أيضا الى افراد آخرين عدوانيين لا يراعون الآخرين لا أنانيين . ولدى المحققين لانفسهم رغبة حقيقية لمساعدة الجنس البشرى .

١٠ — **أنهم ينمون علاقات بين شخصية عميقة مع عدد قليل من الأفراد** «المحققون لذواتهم يصطفون أصدقاءهم من بين من على شاكلتهم وصداقاتهم عميقة . فصداقاتهم قليلة فى العدد ولكنها عميقة وخصبة».

١١ — **انهم يميلون الى تقبل القيم الديمقراطية**. المحققون لذواتهم لايستجيبون للأفراد الآخرين على أساس الجنس أو المكانة أو الدين . وهم يودون اى فرد له خلق مناسب بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية والتربية والمعتقد السياسى والجنس أو اللون . والحقيقة أنه كثيرا ما يبدو كما لو أنهم ليسوا على وعى بهذه الفروق وهى فروق واضحة جدا للشخص المتوسط وهامة جدا . (Maslow, 1920; p. 167)

١٢ — **أن لديهم احساس خلقى قوى** . على الرغم من أن أفكار المحققين لذواتهم عن الصواب والخطأ كثيرا ما لا تكون تقليدية ، فانهم مع ذلك يعرفون دائما تقريبا المضامين الخلقية لأفعالهم .

١٣ — **أن لديهم روح دعابة نامية وغير عدوانية** . ان المحققين لذواتهم يميلون الى أن يدركوا الجانب الظريف والفكه من الأشياء الخاصة بهم والتى قد يراها الآخرون محطة ومؤذية للمشاعر . اى انهم اميل الى الضحك من انفسهم أو من الانسان بصفة عامة .

١٤ — **أنهم مبتكرون** . نجد وجد مطلقا هذه السمة فى جميع المحققين لانفسهم

انها خاصية تميز بصفة عامة جميع الذين درسوا او لوحظوا من هذه الفئة . ولا يوجد استثناء .

« ان الابتكار أو الابداع لا يبدو لدى بعض الافراد فى الصورة المالوفة فى تاليف الكتب ووضع الموسيقى وانتاج الأشياء الفنية ولكنه قد يبدو فى صورة أكثر تواضعا . ان الأمر كما لو أن هذا النمط الخاص من الابتكار باعتباره تعبيرا عن شخصية سليمة مسقط على العالم او يمس كل نشاط ينغمس فيه الشخص . وبهذا المعنى يمكن أن يكون هناك صانعو أحذية أو نجارين أو كتبه مبتكرين » (Maslow, 1970, pp. 170-171) ولا غرابة فى أن تتميز هذه الفئة لانهم أكثر تفتحا للخبرة واكثر تلقائية فى مشاعرهم.والابتكارية تتصل اتصالا مباشرا بدوافع الكينونة .

١٥ــ **انهم يقاومون الاجتياح الثقافى** . فالمحتقون لذواتهم يميلون الى المغايرة لا المسايرة لانهم موجهين من الداخل . واذا كان المعيار الثقافى مضاداً لقيمهم الشخصية فانهم لن يلتزموا به .

الخصائص السلبية للذين يحققون انفسهم :

معظم الناس يعتبرون هذه الخصائص الخمس عشرة موجبة ، ولكن ماسلو يريد أن يوضح أن الذين يحققون انفسهم لن يبلغوا الكمال . « فالأفراد موضع الدراسة يظهرون كثيرا من أخطاء البشر ، لديهم عادات سخيفة متلافة لا تفكير فيها . ويمكن أن يكون هؤلاء مملين عنيدين يثيرون ضيق الآخرين . وهم ليسوا متحررين من غرور سطحى وتحيز وعجب بالنسبة لانتاجهم وأسرهم واصدقائهم واطفالهم . ونوبات الغضب ليست نادرة » (Maslow, 1970; p. 175) وعلى سبيل المثال فان احد مفحوصيه حين وجد صديقا له لم يكن مخلصا له ، قطع صلته به دون أثر من ندم . ولكونهم اقل اعتمادا على البيئة ومقاومة للاجتياح الثقافى فانهم يسلكون احيانا بطريقة قد تصل حد الوقاحة ، أى انهم قد لا يتسمون بمجاملة الآخرين فى سلوكهم احيانا .

لماذا لا يشيع تحقيق الذات ؟

اذا كان الميل الى تحقيق الذات فطريا ، فلماذا لا يحقق كل راشد ناضج ذاته اذن ؟ ان ماسلو يقدر أن الذين يحققون ذواتهم من الراشدين الناضجين يقدرون بواحد فى المائة . ويفسر هذه الحقيقة على النحو الآتى : —

١ — لما كان تحقيق الذات على رأس التنظيم الهرمى للحاجات فهو اذن أضعف هذه الحاجات ويسهل اعاقته . « ان هذه الطبيعة الداخلية ليست قوية ومسيطرة ، انها لا تشبه غرائز الحيوانات ، انها ضعيفة ورقيقة ولطيفة ويسهل أن تتغلب عليها العادة والضغط الثقافى والاتجاهات الخاطئة نحوها » (Maslow, 1968, p. 4)

٢ — معظم الناس يخافون التوصل الى معرفة النفس التى يتطلبها تحقيق الذات . ان هذه المعرفة تتطلب الاستغناء عما هو معروف والدخول فى الشك وما ليس يقينيا . « اننا نخاف معرفة أنفسنا أكثر من خوفنا أى نوع آخر من المعرفة ، تلك المعرفة التى قد تغير تقديرنا لذاتنا وصورتنا عنها . . . وبينما يحب الناس المعرفة ويبحثون عنها — لان لديهم حب استطلاع — فانهم فى نفس الوقت يخافونها . وكلما اقتربت هذه المعرفة مما هو شخصى ، ازداد خوفنا منها » (Maslow, 1966; p. 16)

٣ — يمكن أن تقمع البيئة الثقافية ميل الفرد نحو تحقيق ذاته لانها تفرض معايير معينة على قطاعات من المجتمع السكانى . وعلى سبيل المثال فان تعريف الرجولة فى ثقافتنا قد تمنع الطفل الذكر من تنمية سمات مثل المشاركة الوجدانية والشفقة والرقة وهى كلها تميز الفرد الذى حقق ذاته .

٤ — ولكى يحقق الفرد ذاته ينبغى ان يختار النمو على الأمان . ولقد لاحظ ماسلو ان الأطفال الذين نشأوا فى بيوت دافئة آمنة ودودة يغلب أن يختاروا خبرات تؤدى الى نموهم الشخصى وذلك بدرجة أكبر من الأطفال الذين ينشأون فى بيوت غير آمنة . وهكذا فان ظروف الطفولة تؤثر فى امكانية تحقيق الفرد لذاته . ولقد وصف ماسلو الظروف المثلى

التى تمكن الطفل من تحقيق ذاته فبين انها الظروف التى تتوافر له فيها
٦ الحرية فى حدود . لقد شعر ان توافر قدر كبير من التسامح مضر
كتوافر قدر كبير من الضبط . ان ما نحتاج اليه هو الخليط السليم من
٧ المكونين .

الظروف الضرورية لتحقيق الذات :

٨ بالاضافة الى اشباع الحاجات الفسيولوجيــة وحاجات الأمن والحب والانتماء ، ينبغى أن تتميز البيئة التى ينشأ فيها الفرد بخصائص اخرى لكى يحدث تحقيقه لذاته . وتشتمل هذه الخصائص فيما يرى ماسلو على حرية التعبير ، والحرية فى أن يعمل الفرد ما يريده طالما انه لا يؤذى احدا آخر ، وحرية الاستقصاء ، وحرية الدفاع عن النفس ، والنظام والعدالة والاستقامة والامانة ، وقد أضاف اليها فيما بعد « التحدى » او الاثارة المناسبة كخاصية للبيئة التى تيسر تحقيق الذات .

واذا ادركنا اهمية هذه المتطلبات البيئية ، وفهمنا الأسباب الأربعة التى تجول دون أن يحقق مزيد من البشر ذواتهم ، سهل علينا ان نفهم لماذا لا يحقق أكثر من ١٪ من البشر الناضجين ذواتهم . ومعظمنا يعيش بقية أيام حياته فى موضع ما بين حاجات الحب والانتماء وتقدير الذات .

(Hergenhahn, pp. 341-346)

تقويم النظرية :

— ليس من شك فى ان اعتقاد ماسلو أن علم النفس التقليدى قد ركز على الجانب المظلم من الطبيعة الانسانية صحيح . غير أن هناك عددا من علماء النفس كانت وما زالت لهم مواقف مشابهة لموقف ماسلو ومخالفة للاتجاه التقليدى من امثال أدلر والبورت وروجرز وكيلى . ويمكن القول بصفة عامة أن عددا كبيرا من علمــاء النفس التقليديين قد اهتموا فى الماضى

وما يزالون بابراز أهميـــة الدوافع الفسيولوجية من حيث تأثـيرها فى السلوك،كما انشغل بعض آخر ومازالوا بالشروط والملابسات التى تسهم فى تعرض البشر للعصاب والذهان . ولقد بذل ماسلو جهدا كبيرا لكى يوسع نطاق علم النفس ومجال اهتمامه بحيث يتصدى لدراسة الاصحاء والأسـوياء من البشر . ولا شك أن جهوده بالاضافة الى جهود روجـرز والبورت قد خلقت قوة ثالثة فى علم النفس .

— ولقد تعرض ماسلو لنقد مؤداه أنه لم يلتزم بالمنهج العلمى ، واستخدم أساليب بحثية غير موثوق بها وغير مضبوطة . وانه أسس نتائجه عن المحققين لذواتهم على عينة من الأفراد . وقد اتهم فضلا عن ذلك باختياره للمفحوصين فى بحوثه وفقا لمحكاته الحدسية عن الخصائص المميزة لمن يحققون ذواتهم . كما اتهم باستخدامه لمصطلحات غامضة مثل ما بعـد الحاجة metaneed وما بعد المرض metapathology

— ولقد اتهم ماسلو أيضا بأنه يخلط بين الاعتبارات الاخلاقية وبين المنطق، ولقد أدى هذا الخلط ببعض النقاد الى اعتباره مصلحا اجتماعيا أكثر منه باحثا موضوعيا .

— وقد نتج أحد الانتقـادات التى وجهت لنظريته عمـا اتضح من بعض الدراسات انه يمكن لعدد من الأفراد أن يصبحوا منتجين مبتكرين حتى ولو لم تشبع حاجاتهم الأساسية .

— وعلى الرغم من هذه الانتقادات ، فقد اتضحت فائدة نظرية ماسلو فى علم النفس وفى التربية وفى مجال الصناعة والادارة ويمكن القـول أن نظريته أكثر ملاءمة للحياة الواقعية منها لما يجرى فى معامل علم النفس .

— ولقد اتخذ ماسلو موقفا معارضا لفرويد . ذلك أن الأخير يرى الانسان

ذا طبيعة حيوانية فى صراع مع المجتمع ، الذى يضع القيود على نزعاته الفريزية . أما عند ماسلو فان الانسان فى أساسه خير وغير عدوانى يبحث عن الحق والجمال ويسعى للاتقان . ولو اعطى الانسان الحرية من وجهة نظر فرويد لاصبح عدوانيا ذا شبق عبثى . أما لو أتيحت له الحرية عند ماسلو فسوف يخلق مدينة فاضلة يسودها الحب والوئام . فوجهة نظر ماسلو تعارض وجهة نظر فرويد معارضة شديدة وكأنهما نقيضان .

الفصل الثامن عشر

الوضع الراهن والمستقبل فى نظريات الشخصية

يبدو أن هناك خلافا أساسيا فى دراسة الشخصية يقسم نظرياتها الى مجموعتين أحداهما ترى أن دراسة الشخصية فرع من العلوم الطبيعية والثانية تعتبرها وثيقة الصلة بالانسانيات . ولا بد أنه قد اتضح لدارسى الشخصية أن الباحثين فيها يعلنون ولاءهم دائما للمنهج العلمى . ومع ذلك فان طالب العلم سوف يتضح له ان بعض علماء النفس فى هذا المجال يقتربون ممن يكتبون السير ويترجمون لحياة الأشخاص اكثر من اقترابهم الى البيولوجيين ، ومن هؤلاء اريكسون وموري والبورت فنظرياتهم تأخذ بالمدخل البيوجرافى باعتباره أفضل طريقة لاكتشاف ماهية الشخصية وكيف تؤدى عملها . ويستمد يونج كثيرا من بياناته من البحث التاريخى وطرقه فهو أقرب الى الاثنوجرافيا أو الانتربولوجيا الوصفية منه الى علم النفس . ودعاوى ملسلو أقرب الى ان تكون اخلاقية ، والأخلاق فرع من الفلسفة يحاول الأجابة عن سؤال هو : كيف ينبغى أن نحيا ؟ والبيوجرافيا والتاريخ والاثنوجرافيا والأخلاق فروع من الانسانيات وليست علوما بالمعنى الوارد فى العلوم الطبيعية ومع ذلك فان علماء النفس هؤلاء جميعا يصرون على أنهم طلاب علم وملتزمون بالمنهج العلمى فى دراساتهم .

وطبيعى أن يتخذ سكنر من الاتجاهات السابقة موقف النقد لان علم النفس عنده هو ذلك العلم الذى يمكننا من التنبؤ بالسلوك وضبطه . ولا بد أن يتفق باندورا وكاتل وايزنك وميللر مع وجهة النظر هذه ، على الرغم من أن سكنر وباندورا يبحثان عن اسباب السلوك اساسا فى البيئة الخارجية ، وكاتل وايزنك يتعمقان فى الفرد للبحث عن الأسباب ودولارد وميللر قد يجمعان بين هذين الاتجاهين ، الا انهم جميعا يسعون الى ذلك النوع من التوضيح الذى يتحدث عن الظواهر قائلا : اذا حدث (س) فانه لا بد أن ينتج عنه بالضرورة (ص) أى أن النموذج العلمى المفضل هو ذلك الذى يربط النتائج بأسبابها . وواضح أن هذه ليست الطريقة الوحيدة لشرح الظواهر وتفسير الأحداث . والأمر الذى ليس واضحا تماما هو هل هذه هى الطريقة العلمية الوحيدة لتفسير الظواهر ؟

٦ ان سكنر يقول بحسم أن هذه هى الطريقة الوحيدة ، ولكن ماسلو مثلا يقول انها ليست الطريقة الوحيدة . فالتفسيرات التى تستند الى اغراض
٧ السلوك والى الخصائص البنائية والقصدية للشخصية ليست صـــادقة فحسب ولكنها ايضا علمية . وهو يرى أن نسقه الأخلاقى يقوم على اساس علمى ».

٨ وينتهى سيجمند كوخ Koch الذى اشرف على تحرير ونشر ســتة مجلدات كلاسيكية فى علم النفس بعنوان :

Psychology : A Study of A Science

١٠ الى القول « لا يمكن أن يكون علم النفس علما متماسكا » وينبغى أن ننظر الى أحد اجزائه على الأقل باعتباره فرعا من الانســانيات أو الآداب (١٩٨١) ولا احد ينكر أن العلم يشكل جزءا من علم النفس . ولكن النقطة التى يؤكد عليها كوخ هى أن علم النفس لا يمكن ان يكون كله علما متماسكا مترابطا موحدا . ولا بد أن يكون من المسائل الأساسية التى لها علاقة بعلم النفس التمييز بين الآداب والعلوم .

ولقد بحث جيورجى نفس المشكلة ، اى مشكلة وجود نوعين من علم النفس ورفض أن يقرر ما اذا كان احدهما اجدر بأن يسمى علما اذا قورن بالآخر . واقترح أن يطلق على النظريات الفنومنولوجية العلم الانســانى . وأن يطلق على النظريات التى تتخذ من الفيزياء والبيولوجيا نموذجا لهـــا العلم الطبيعى . ان لكل منهما مكانه فى علم النفس ، وأن كلاهما علمى . غير أنهما ببساطة يمثلان نوعين مختلفين من العلوم .

فهل تفضل نظريات الشخصية التى تشــبه البيوجرافيا أو الســـير وتعتبرها علمية أم ترفضها ؟ من الصعب انكار انها تختلف تماما عن نظريات الشخصية التى تتابع خطى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا . ومن العسير أن نجمع مكونات من هذه النظريات ومن تلك ونضعها فى نسق واحد ، لان هذه المكونات لا تتسق معا لان كلا منها يستند الى نوع مختلف من المسلمات . ولا بد أن يكون اختيارك لنظــرية فى الشخصية مرهــون بالمسلمات التى تستطيع أن تتعايش معها على نحو مريح .

وتستند نظريات الشخصية التى تقوم على التقاليد العلمية الطبيعيــة

الى مسلمات الحتمية والموضوعية والذرية . ولما كان هدفها هو التنبؤ بالسلوك وضبطه فلا بد أن تسلم هذه النظريات بأن السلوك يتحدد على نحو شرعى . وانها اذا افسحت المجال لحرية الارادة فانها لن تقدر على التنبؤ وكل ما تستطيعه عندئذ هو التخمين . وأصحاب نظريات العلم الطبيعى يكافحون للتوصل الى طرق موضوعية بقدر الامكان لكى يتخلصوا من التحيز الشخصى فى عملهم وليضمنوا أن جميع الملاحظات قابلة للاعادة . ان هدفهم هو الابتعاد بأكبر درجة ممكنة عن موضوع الدراسة لضمان الحيدة . ولتحقيق هذه الغاية كثيرا ما يعبرون كميا عما يلاحظونه ويسجلوه تسجيلا آليـــا باستخدام الآلات . وهم يعلون من قيمة الطريقة التجريبية ويبذلون كل جهد لانقاص التفسير الذاتى الى حده الادنى . ويتميز مدخل العلم الطبيعى بأنه ذرى تجريبى . انه يفترض أن فهم الظاهرة يتحقق بردها الى جزئياتهـــا وعناصرها الأولية . ونجاح الفيزيائيين فى تعمق طبيعة المادة وتقدمهم من العناصر الى الذرات ومن الذرات الى الالكترونيات والبروتونات .... الخ يؤخذ كدليل على حكمة هذه الاستراتيجية . وعلى الرغم من أن نظريات المجال الكلى فى الفيزياء قد حققت اسهامات لها مغزاها فى فهم المادة خلال القرن العشرين الا أن باندورا يعد من الذين تخففـــوا من المدخل التجريبى الذرى مقتربا من هذا الاتجاه . اما كاتل وسكنر فقد تمسكا بهذا الموقف الذرى . وهذه المسلمات رغم وجاهتها لم تتم البرهنة على اهميتها وقد تكون غير قابلة للبرهنة على قيمتها . فدعاوى العلم الطبيعى ببلوغه الحقيقة تستند الى اساس أقل رسوخا واستقرارا مما نظن ، رغم أن معظم العلماء ليسوا على استعداد للتسليم بهذا .

وقد لا يكون لنظريات الشخصية البيوجرافية التاريخية اساس أكثر رسوخا من النظريات السابقة . ومعروف انه لا يوجد تاريخ بغير تفسير . وما وجد فى الواقع ما هو الا تفسيرات مختلفة للتاريخ أحدها قد يكـــون التفسير الرسمى أو التفسير الذى يتفق عليه معظم العلماء . وقد تقبله على انه تاريخ ولكنه ليس كذلك ، انه تفسير للتاريخ ، بل وحتى لو توافر لديك فريق من المصورين ليصوروا كل ما يحدث وما يجرى من احداث ، فان هـــذا التسجيل الذى كثيرا ما يقبل دون تفكير على انه رصد موضـــوعى للوقائع والاحداث لا يؤلف التاريخ . لماذا ؟ لان آلات التصوير انتقائية فهى لا تصور

كلى شيء ، انها توجه عدساتها وجهة معينة ولا توجهها وجهات أخرى ، كما أن للصورة اطارا محددا وما يشتمل عليه اطار الصورة يختلف عما هو خارج هذا الاطار . والمصورون يعرفون هذا حق المعرفة لانهم يستهدفون من خلال صورهم نقل رسالة للمشاهدين،فالتاريخ لا يمكن تسجيله وانما يمكن تفسيره فحسب . والبيوجرافيا أى دراسة تاريخ حياة الفرد أو سيرته تتعرض لنفس القيود . ويستطيع البيوجرافيون أن يطوروا طرقهم كما فعل مورى ليحول دون التعرض للتحيز المنتظم . وقد يتوصل العلماء الى اتفاق فيما يتصل بتفسير تاريخ حياة فرد معين . ومع ذلك فان النتاج النهائى ما هو الا تفسير . وتعتمد التفسيرات لا محالة على مسلمات معينة . وسواء تخيرت نظرية شخصية ذات تقاليد علمية طبيعية أم ذات تقاليد انسانية ، أو بين هذه وتلك فلا سبيل الى تجنب المسلمات القبلية وبالتالى ليس هناك ضمان لبلوغ الحقيقة المطلقة .

انماط نظريات الشخصية :

لمساعدتك على اختيار نظرية تناسبك دعنا نفحص المسلمات التى تقوم عليها اربعة انماط من نظريات الشخصية وهى النظريات السيكودينامية ونظريات السمات ، والنظريات السلوكية ، والنظريات الانسانية .

تفضل النظريات السيكودينامية والنظريات الانسانية المدخل الداخلى لفهم الشخصية بينما تفضل النظريات السلوكية ونظريات السمات المدخل الخارجى لفهم الشخصية.وتتشابه الفنومنولوجيا والتحليل النفسى من حيث انهما يهتمان بالعالم العقلى الداخلى للشخص كما يراه ذلك الشخص فنظرتهما من الداخل الى الخارج . ان أصحاب نظريات السمات والنظريات السلوكية يفضلون أن تكون نظرتهم للشخصية من الخارج الى الداخل . فالسلوكيون لا يهتمون على الاطلاق بالعالم العقلى الداخلى للفرد.كما ان أصحاب نظريات السمات لا يهتمون بعالم الشخص الداخلى حين يركزون على خبرته الذاتية وكيف تفسر.وهم يفترضون أن السمات الداخلية التى يسمون الى اكتشافها خصائص للشخص ولا تختلف اختلافا له مغزى عن فصيلة دمه أو زمن الرجع عنده ، وأن هذه السمات يمكن قياسها على افضل نحو من الخارج . وهكذا

يتشابه التحليل النفسى والفنومنولوجيا من حيث أنهما يأخذان بمنظور داخلى، وتتشابه النظريات السلوكية مع نظريات السمات من حيث أنها تتخذ منظورا خارجيا للشخص .

ومن الغريب أن نتبين أن السلوكيين والفنومنولوجيين يدعون أنهم لا يختلفون من حيث أنهم امبيريقيون ، أى انهم يتناولون الخبرة على نحو مباشر ، ويحاولون الابتعاد عن التفسير ، وتفسير ما يلاحظون بالعودة الى قوى فرضية أو تجريدات نظرية . ان المعطيات العيانية للخبرة هى مادتهم . وينظر السلوكيون بطبيعة الحال الى هذه المعطيات العيانية من منظور خارجى ، بينما ينظر اليها الفنومنولوجيون من منظور داخلى . وكلاهما يختلف على اية حال اختلافا جذريا عن نظريات التحليل ونظريات السمات اللتان تستبيحان وجود القوى والبنيات فى الشخصية والتى لا يمكن ملاحظتها على نحو مباشر . فالغرائز والسمات تكوينات فرضية ويمكن ملاحظة آثارها أما هى فيمكن استنتاجها فحسب ، لانها تجريدات ومثل هذه النظريات تتطلب مسلمات اكثر من هذا النوع . وهكذا فان النظريات السلوكية والنظريات الفنومنولوجية تتشابه لانها تعالج أحداثا امبيريقية ، كما أن نظريات التحليل النفسى والسمات تتشابه من حيث انها تسلم بوجود قوى افتراضية وبنيات فى الشخصية . ويلخص الجدول (١ — ١٨) هذه المعلومات .

جدول (١ — ١٨)

يوضح ابعاد نظريات الشخصية

	أحداث أمبيريقية	قوى افتراضية وبنيات
منظور داخلى منظور خارجى	الفنومنولوجية السلوكية	التحليل النفسى السمات

وهناك بعض التشابه بين النظريات المتقابلة على المحورين فى الجدول (١ — ١٨) فالنظريات الفنومنولوجية ونظريات السمات على سبيل المثال متشـــابهة من حيث أن مدخلها لمادتها وصفى بنائى . وتحـــاول النظريات الفنومنولوجية أن تتوصل الى تحليل وصفى لبنية الخبرة الذاتية . ولا يختلف الفنومنولوجى عن عالم النبـــات الأول الذى وضـــع ورقة الشـــجر تحت الميكرسكوب ليستطلع وحدة بنائها وهى وحدة لم تكن معروفة من قبل ، اى أن الفنومنولوجى يعمل على فحص الخبرة الشعورية بإسلوب يمكنه من رؤية ملامح لها لم تكتشف من قبل . ويبحث أصحاب نظريات السمات عن الملامح البنائية ولكنهم يرونها كخصائص للشخص بدلا من اعتبارها ببســـاطة خبرة شعورية . ان منظورهم خارجى . وبالرغم من ذلك فان نظريات الســـمات تشبه النظريات الفنومنولوجية من حيث أنهما فى الأساس وصفيتان. صحيح أنهما كثيرا ما تعبران عما يقدمانه من أوصاف تعبيرا كميا ، وان هذا يظهرهما بمظهر العلمية ، ولكن هذا لا ينقلهما من مرحلة الوصف الى مرحلة التفسير . وتهتم نظريات السمات باكتشاف السمات التى تؤلف بنيـــة الشخصية ثم قياس كم كل من هذه السمات فى مختلف الأفـــراد وتتطلب وصف الملامح البنائية .

ويقع على المحور الثـــانى للجـــدول (١ — ١٨) التحـــليل النفسى والسلوكية وهما يتشابهان من حيث أنهما منغمستان فى تقديم تفســـيرات وظيفية لما يفعله الناس انهما أكثر اهتماما بالسؤال : كيف تعمل الشخصية وذلك اكثر من اهتمامها بالسؤال ما هى الشخصية ؟ ولو ان هذا بطبيعة الحال يصدق على السلوكيين بدرجة اكبر من صدقه على التحليل النفسى . وتحاول التفسيرات الوظيفية تتبع العلاقات العلية ، اى ربط الأســـباب بالنتائج . وتصور الأسباب عادة كقوى تصدر من داخل الشخصية أو من البيئة . ولما كانت هذه القوى تحدد الفعل فان استراتيجيات التحليل النفسى والسلوكية هى تحديد هذه القوى الهامة والمبادىء القانونية التى تعمل هذه القوى وفقا لها . وفى هـــذا الجانب نلاحظ قدر كبيرا من التشـــابه بين التحليل النفسى والسلوكية .

والحق ان اى تعمق من هذه الأنماط الأربعة يكشف عن نواحى تشـابه

فيها وأخرى تختلف فيها ذلك انه على الرغم من أن كل نمط يختلف عن الأنماط الأخرى اختلافا واضحا الا انه يشترك مع نمط آخر على الأقل فى ناحية هامة ، ونتيجة لذلك كان تاريخ على النفس سلسلة متتابعة من تغير الولاءات .

ومعنى هذا أن اختيار شخص معين لنظرية فى الشخصية تلائم أغراضه يمكن أن يتيسر فى ضوء الاجابة عن سؤالين أو ثلاث وهى : هل تريد نظرية ذات منظور داخلى أم نظرية ذات منظور خارجى ؟ أى هل تفضل نظرية تقوم على الاحداث الامبيريقية القابلة للملاحظة أم انك على استعداد للتسليم بقوى فرضية أو بوجود بنيات فرضية ؟ وفى الواقع لو انك أجبت عن هذين السؤالين فلا بد أن تنتهى الى اختيار نمط من أنماط نظريات الشخصية الأربعة . وقد يساعدك سؤال ثالث على مراجعة اختيارك . هل تفضل نظرية تؤكد على الجوانب البنائية والوصفية ، أم نظرية تؤكد على الجانب الوظيفى التفسيرى ؟ واذا كانت اختياراتك واضحة ومنطقية فان الاجابة عن هذا السؤال سوف تتأدى بك الى اختيار نمط من انماط النظريات الشخصية الأربع وهو النمط الذى انتهيت الى اختياره بعد اجابتك عن السؤال الأول والثانى .

اختيار نظرية معينة

حتى لو انك انتهيت الى اختيار نمط من الأنماط الاربعة من نظريات الشخصية فانك ما تزال تواجه بعض الصعوبات فى اختيار نظرية من نظريات هذا النمط . ولعلك تستطيع أن تيسر هذا الاختيار حين تقوم المسلمات الأساسية التى تستند اليها كل نظرية ، وبعض المسلمات مستساغة عقليا عن اخرى بغير شك .

ويوضح الجدول (٢ — ١٨) موقف كل نظرية بالنسبة لمسلمات ست مفيدة ، وهذه المسلمات لا تستغرق المجال كله ، فلكل نظرية مسلمات اكثر من هذه ولكن هذه المسلمات تمثل اهم الخلافات بين النظريات المختلفة . ولا يتخذ كل منظار موقفا قويا بالنسبة لكل من هذه المسلمات وبالتالى فقد ادرج اسم النظرية التى تتخذ موقفا متشددا او واضحا تماما من المسلمة بجوارها .

جدول (٢ — ١٨)

موقف النظريات بالنسبة للمسلمات الأساسية

الحرية	روجرز، ماسلو، البورت	فرويد، سكنر، كاتل أريكسون، مورى	الحتميه
اللاعقلانية	فرويد، يونج	سكنر، كيلى، البورت باندورا، روجرز، ماسلو	العقلانية
الخيرية	روجرز، ماسلو، البورت	فرويـــــد	الشرية
البيئة	سكنر، باندورا، اريكسون	فرويد، يونج	الوراثة
الذاتية	روجرز، كيلى	سكنر، كاتل، أيزنك	الموضوعية
الكلية	يونج، ماسلو، روجرز مورى، ألبورت	فرويد، سكنر، كاتل باندورا، أيزنك ميلر ودولارد	التجزيئية

دعنا نراجع هذه المسلمات الست على نحو سريع. هل تفترض الحتمية أم الحرية ؟ ويتوقف هذا على اعتقادك : هل الأشياء التى تقوم بها تصدر عن اختياراتك الشعورية وقراراتك أم تنتج عن قوى لا تسيطر عليها ؟ هل تتحكم فى مجريات الأمور أم انك تتابع ما يجرى فقط وتسايره ؟ ويعتبر روجرز من اكبر المدافعين عن حرية الارادة ، وسكنر من أكبر دعاة الحتمية .

هل تفترض أو تسلم بالعقلانية أم باللاعقلانية ؟ ان هذا يتوقف على ما اذا كان الناس يسلكون على أساس من العقل أو على أساس نزعاتهم ورغباتهم . ويمثل فرويد اللاعقلانية بينما يمثل كيلى العقلانية .

والاختيار بين الخيرية والشرية يشير الى ما اذا كانت الطبيعة الانسانية خيرة بطبيعتها أم شريرة . فالنظرة المأسوية للطبيعة الانسانية ترجع الى أيام الاغريق القدماء الذين رأوا ان هناك عيبا اساسيا فى الطبيعة الانسانية يحول دون بلوغها الكمال . ولعل خروج آدم من الجنة بسبب الخطيئة الأصلية وما يرتبط بهذا من نظريات لاهوتية يمثل هذا الاتجاه . ويعتبر فرويد متميزا بين أصحاب نظريات الشخصية لان هذه النظرة المأسوية مكون أساسى فى نظريته . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد نظريات تحقيق الذات كنظرية روجرز ، ونظرية ماسلو ترفضان هذا المسلم وتعتبران الشخصية الانسانية فى أساسها خيرة وقابلة لبلوغ الاتقان والكمال .

والمسلمات التى تتصل بالوراثة والبيئة مألوفة لنا جميعا. هل الشخصية فى أساسها نتاج للتعلم ولخبرات الحياة أم نتاج للطبيعة الفسيولوجية والجداول النمائية . ان الجدال العنيف الذى يدور حول هذه المسألة يرجع الى حد ما الى ان لها مضامين بالنسبة للسياسة التربوية والاجتماعية .

ولقد اتجه علماء النفس الامريكيون كمجموعة الى انتقاص دور العوامل الوراثية فى تحديد السلوك ومن أبرزهم سكنر . ويتخذ مورى والبورت موقفا وسطا بين الوراثة والبيئة أما المنظرون الذى جاءوا من أوربا من أمثال فرويد ويونج وكاتل فيؤكدون على الأغلب على أهمية العوامل الوراثية .

ومسألة الذاتية أو الموضوعية مسألة منهجية . والسؤال هو : هل

يمكن فهم الشخصية على أفضل نحو من منظور حيادى بعيـــدا عن الظاهرة وذلك بأن ننظر اليها من الخارج ، أم من منظور ملاحظ منغمس فيها ينظـــر اليها من الداخل . والتمييز بين الداخل والخارج ليس قاطعا ولا واضحا لانه كما يدعى الفنومنولوجيون يمكن أن ندرس الذاتية دراسة موضوعية . فكيلى على سبيل المثال يصر على أن هذا هو برنامجه . ويقاوم روجرز القول بأنه ذاتى صرف ومع هـــذا ، فانه من الواضح أن كليهما أقل موضـــوعية أو أن موضوعيته ذات معنى مختلف عن موضوعية سكنر الذى يدافع دفاعا قويا عن الطرق الموضوعية فى دراسة الشخصية .

ومسلم الكلية أو التجزيئية الذرية يعد مسألة منهجية ، على الرغم من أن له مضامين ميتافيزيقية . والسؤال المنهجى هو : هل من الأفضل اذا أردنا فهم الشخصية أن ننظر اليها ككل لا يتجزأ أم أن نجـــزئها الى مكوناتها . والسؤال الميتافيزيقى المطروح هو : هل هذه الأجزاء موجودة حقيقة أم انها مجرد تجريدات فى عقل من يقوم بعملية التحليل . وينادى ماسلو الذى أطلق على نظريته النظرية الكلية الدينامية بوجهة النظر الكلية ، ويمثل سكنر الذى يعتبر الشخصية مجموعة كبيرة من الاستجابات الشرطية أكثر المواقف الذرية تطرفا . وهذا يصدق أيضا على كاتل الذى حاول التوصل الى عناصر مماثلة لتلك التى نجدها فى الكيمياء .

ومعظم أصحاب نظريات الشخصية المعاصرين يرون الفـــرد باعتباره وحدة وظيفية . وأن عنصر السلوك قد لا يفهم بمعزل عن بقية الشخص الذى يؤدى وظائفه ، بما فى ذلك تكوينه البيولوجى . وهـــكذا فان عدد المنظرين الذين يرفضون المدخل الكلى رفضا تاما فى دراسة الشخصية قليل . ويدخل فى هذه الفئة كاتل وايزنك وسكنر ودولارد وميللر وباندورا وهم يتساءلون عن أهمية دراسة الفرد ككل وان تفاوتوا فى ذلك بعضهم عن بعض .

ويمكن القول بصفة عامة أن دعاة المدخل الكلى يرون أن النظـــرية الناجحة ينبغى أن تكون معقدة وكثيرة المتغيرات وأن تدخل فى اعتبارها الموقف الذى تحدث فيه الوقائع السلوكية والاحداث ، بل وان تدخل فى اعتبـــارها أيضا الاحداث السلوكية الأخرى التى تصدر عن الفرد . وعلى الرغم من

اصرار بعض المنظرين من أمثال ماسلو وروجرز والبورت على أن من الضرورى أن تنال جميع جوانب الفرد ما تستحق من اهتمام ودراسة وكذلك الموقف الذى يوجد فيه ذلك الفرد ، الا انهم على استعداد لتحليل السلوك وتجزئته طالما ان هذه الأجزاء سوف تجمع معا فى كل واحد .

وتواتر ظهور اسماء نظريات معينة فى الجدول (٢ — ١٨) يدل على أن بعض النظريات اكثر تعرضا من أخرى للمواقف المتطرفة فى هذه المسائل وهذا الجدول يفيد من حيث أنه يبرز بعض نواحى الاختلاف بين النظريات التى عرضنا لها كما يظهر بعض نواحى التشابه غير المتوقعة . وعلى سبيل المثال فان فرويد وسكنر اللذين نتوقع عدم اتفاقهما على أى شئ يؤكدان على الحتمية وعلى المدخل الذرى ، وهما يختلفان اختلافا كبيرا فى مسألتين : الوراثة والبيئة والعقلانية واللاعقلانية . ويختلف فرويد مع روجرز فى أربع مسلمات من المسلمات الست ، ولا يظهران معا فى نفس الخانة قط ، ففرويد يتمسك بالحتمية واللاعقلانية والشرية والذرية بينما يسلم روجرز بالحرية والعقلانية والخيرية والكلية . ويتفق روجرز وسكنر على العقلانية ومع ذلك يختلفان فى الحرية وفى الكلية .

ومما يساعد على اختيار افضل نظرية مدى وفائها بخمسة محكات هى :

١ — كيف تنظم نظرية الشخصية المعرفة ؟

٢ — ما مدى قدرتها على توليد البحوث العلمية ؟

٣ — ما مدى قدرتها على ترشيد الممارسات العملية ؟

٤ — ما مدى اتساقها الداخلى ؟

٥ — ما مدى بساطتها أو اقتصادها ؟

ولنتناول فى ايجاز هذه المحكات :

١ — فيما يتصل بمدى قدرة النظرية على تنظيم المعرفة نتساءل . هل يمكن نسبي معظم نتائج البحوث النفسية باحدى النظريات التى عرضناها

فى الفصول السابقة أو بأكثر من نظرية ؟ والاجابة عن هذا السؤال نعم . فالسلوك الانسانى سواء أكان بسيطا أو معقدا ، وسواء أكان صحيحا أو مرضيا ، أنانيا أو يؤثر الآخرين يمكن تفسيره بواسطة معظم النظريات التى عرضنا لها . ولن تكون هذه التفسيرات بطبيعة الحال واحدة فالنظريات تتفاوت فى قدرتها على ذلك بالنسبة للدارس . وهذا معقول لان لكل منا موقفه الشخصى وتفضيلاته مما يتيح له أن يرفض بعض التفسيرات لانها لا تتسق مع وجهة نظره أو مع توجيهه الفكرى أو الفلسفى .

والواقع أن نظريات الشخصية تقوم بوظيفة التفسير للأنماط السلوكية أفضل من قيامها بوظائف أخرى . فهى أكثر نفعا وأكثر دقة فى تفسير السلوك عنها فى التنبؤ به أو ضبطه . والنظريات التى تم تطويرها حديثا ربما تكون أكثر فاعلية مما سبقها فى تقديم المقترحات التى تساعد على ضبط السلوك ، ولعلها أكثر حذقا فى التنبؤ به . أما النظريات المبكرة كنظرية فرويد وأدلر ويونج فهى مفيدة فى تفسير ما نعرفه عن السلوك الانسانى وهى أقل قدرة فى التنبؤ به .

٢ — ما مدى قدرة نظريات الشخصية على توليد البحوث العلمية ؟ على الرغم من أن كثيرا من البحوث السيكولوجية المعاصرة ليس لها رؤية نظرية واضحة الا ان جانبا كبيرا منها يحاول أن يختبر فروضا مشتقة من هذه النظريات . ولقد أثارت نظرية فرويد وحدها آلافا من البحوث وما تزال تثير العديد من البحوث كل عام . ولقد اثبتت نظريات أدلر وسكنر وباندورا وماسلو قدرتها على انتاج البحوث . ويمكن القول بصفة عامة ان نظريات الشخصية قد أثارت قدرا كبيرا من البحوث وهى مسئولة الى حد كبير عن كثير مما نعرفه الآن عن السلوك الانسانى .

٣ — والمحك الثالث لتقويم نظرية الشخصية هو مدى قدرتها على افادة الممارسين فى ميدان العمل والتطبيق . وهنا نجد ان النظريات ككل تحظى بدرجة تتفاوت من حيث الكبر والصغر من حيث تحقيقها

لهذا الهدف . ان هذا المحك يفترض أن الممارس سواء أكان معالجا نفسيا ، أو مربيا أو مديرا أو سياسيا يستطيع أن يسترشد بما تقدمه نظرية أو كثر من هــذه النظريات . وينبغى الا يغيب عن بالنــا أن الممارس سوف يواجه مشكلات لا يجد لها حلولا جاهزة فى هـــذه النظريات . وعلى الرغم من نواحى القصور هـــذه ، الا أن نظريات الشخصية تقدم لنا زادا يساعدنا على فهم السلوك الانسانى والتنبؤ به وضبطه . والالمام بنظرية فى الشخصية أو أكثر قد يغنى الممارس الذى يتخذ قرارات يومية عن السلوك الانسانى عن كثير من المحاولات والاخطاء ، أى أن هذه المعرفة تساعد على ترشيد قراره فى مجال الممارسة والفعل .

٤ ـــ والمحك الرابع للنظرية الجيدة اتساقها الداخلى . ولو نظرنا لنظريات الشخصية التى عرضنا لها فاننا نتبين أنها تتفاوت فى وفائها بهـــذا المحك . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى اختلاف المواقف بل والى لجوء بعضها الى المواقف الوسط والتوفيق . فنظرية أدلر قد وضعت كفكر معارض ومخالف لفكر فرويد فى معظم المسائل . ونظرية هورنى تأخذ ببعض فكر فرويد وترفض البعض الآخر وتقدم فى مجال الاختلاف شيئا من الفكر الجديد ، وتحتل نظرية يونج موضعا وسطا بين نظرية فرويد ونظرية أدلر . ولقد تأثر دولارد وميللر بفرويد ولكنهما حاولا أن يتوصلا الى نسيج نظرية يجمع بين فكره وبين نظرية التعلم . ولقـــد توصل البورت الى نظرية كانت بمثابة رد الفعل لفـــكر دولارد وميللر وفكر فرويد ولقد قامت نظرية سكنر على التحليل العلمى للسلوك ولم تتأثر بأى نظرية شخصية أخرى . ولم يهتم باندورا بفكر فرويد اهتماما واضحا . ولقد حاول كاتل وايزنك أن يدرسا الشخصية بأســـلوب رياضى ، على الرغم من أن كاتل استخلص عدة عوامل تضاهى بعض المفاهيم الفرويدية . ولقد اتخذ ماسلو وروجرز موقفا انسانيا يختلف اختلافا واضحا عن السيكوديناميين وعن دعاة التعلم وتعديل السلوك.

٥ ـــ والمحك الخامس هو محك البساطة والاقتصاد . وقانون الاقتصـــاد لا يمكن تطبيقه حين تنظر الى نظرية الشخصية ككل لانه اذا تساوت

نظريتان او أكثر فان الابسط هى الأفضل . واذا أردنا أن نقوم نظرية الشخصية على أساس البساطة ، فلا بد أن يكون الحكم هو انها معقدة جدا ومتعددة الأشكال شأنها فى ذلك شأن الشخصية نفسها .

واخيرا فان هناك مجموعة من القضايا ينبغى أن نلفت النظر اليها . ومن اهمها :

١ — تزايد الاهتمام بدراسة العوامل البيولوجية وتاثيرها فى السلوك .

٢ — تاثير نتائج البحوث فى علم نفس النمو على نظرية الشخصية آخذ فى التزايد .

٣ — اهتمام النظريات التى تبرز دور الأنا أو الذات فى السلوك بالبحوث فى النمو المعرفى .

٤ — تزايد التاثير والتاثر بين نظرية الشخصية والاتجاه المعرفى فى دراسة السلوك .

٥ — وثمة اتجاه أكثر اعتدالا فى مواقف النظريات فى المسائل الاخلاقية ، اى أن الاستقطاب حول قضايا مثل الشخص أم البيئة والموقف قد خفت حدته .

٦ — وثمة تطورات منهجية تيسر بحوث الشخصية كالتقدم الذى طرا على الحاسب الآلى . وأساليب التحليل العاملى .

٧ — ولقد اتضح أن البحوث التى تجرى عن الذكاء الصناعى تتطلب نظريات اكثر دقة ووضوحا فى تناولها للسلوك الانسانى .

ومن السابق لأوانه ان نحاول التوصل الى نظرية اكليكتيكية فى الشخصية . فالنظريات المعاصرة بها قدر ليس بالقليل من عدم الدقة ، وهى تتصارع وتختلف على انحاء شتى ، وما تزال كثير من نتائجها تاملية . ومحاولة الخروج بنسيج نظرى واحد من هذا التنوع الخصب قد يعوق النظريات المعاصرة عن استقصاء كل السبل فى محاولة لفهم الشخصية الانسانية

المـــراجـــع

اولا : المراجع العربية :

١ ـ احمد عبد الخالق : **الأبعاد الأساسية للشخصية**،الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٣ م .

٢ ـ اسحق رمزى : **علم النفس الفردى** ، أصوله وتطبيقه ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٢ م .

٣ ـ ب . م فوس : **آفاق جديدة فى علم النفس** ، ترجمة : فؤاد ابو حطب ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٢ م .

٤ ـ جابر عبد الحميد جابر : **علم النفس التربوى**،القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .

٥ ـ : **سيكولوجية التعلم ونظريات التعليم** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨٥م.

٦ ـ جوردن البورت : **نمو الشخصية** ، ترجمة : جابر عبد الحميد جابر،محمد مصطفى الشعبيق، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٣م.

٧ ـ روبرت ودورث : **مدارس علم النفس المتعاصرة** ، ترجمة : كمال دسوقى ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .

٨ ـ س . هـ . باترسون : **نظريات الارشاد والعلاج النفسى**،ترجمة حامد الفقى ، الكويت : دار القلم ،١٩٨١م.

٩ — سيد محمد غنيم : **سيكولوجية الشخصية** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ م .

١٠ — عادل عز الدين الأشول : **سيكولوجية الشخصية** ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ، ١٩٧٨ م .

١١ — فرانك ت . سيفرين : **علم النفس الانسانى** ، ترجمة : طلعت منصور ، عادل عز الدين الأشول ، فيولا البيلاوى ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨ .

١٢ — فؤاد ابو حطب وآمال صادق : **علم النفس التربوى** ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ م .

١٣ — كالفن س . هول : **علم النفس عند فرويد** ، ترجمة : احمد عبد العزيز سلامة وسيد احمد عثمان ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٧م .

١٤ — ك . هول ، ج . لندزى : **نظريات الشخصية** ، ترجمة : فرج احمد فرج وقدرى حفنى ولطفى فطيم ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ م .

١٥ — محمد عماد الدين اسماعيل : **الشخصية والعلاج النفسى** ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ م .

١٦ — نعيمة الشماع : **الشخصية : النظرية ، التقييم ، مناهج البحث** ، القاهرة : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٧ م .

١٧— هـ . ايزنـــــــــك : **مشكلات علم النفس** ، ترجمة : جابر عبد الحميد جابر ويوسف محمود الشيخ ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٤م .

١٨— : **كراسة تعليمات قائمة ايزنك للشخصية** ، جابر عبد الحميد جابر ، وفخر الاســـلام ، القاهرة : دار النهضة العربية ، (ب.ت) .

المـراجع الاجنبيـة

1 - Arndt. W. B. Theories of Personality New York : Macmillan Publishing Co., Inc., 1974

2 - Bischof, L. J. Interpreting Personality Theories. New York : Harper & Row, 1970 .

3 — Cook, M. Levels of Personality, London : Holt, Rinehart and Winston, 1984.

4 — Feist, J. Theories of Personality New York : CBS College Publishing, 1982.

5 — Feshach, S. and Weiner, B. Personality. Toronto : Heath & Co. 1982.

6 — Ford and Urban, Ann Rev. of Psychol, 1967, 18.

7 — Fordham, F. An Int reduction to Jung's Psychology, London : Penguin Books LT D, 1954.

8 — Hall, C.S. A Lindzey, G., Theories of Personality. New York : John Wiley & Sons, Inc 1970.

9 — Hall. C.S. & Lindzey, G. Introduction to Theories of Personality: New York : John Wiley & Sons, 1985.

10 - Hergenhahn. B.R. An Introducation to Theories of Personality. Englewood Cliff, N.J. : Prentice - Hall, 1980.

11 - Hjeile, L.A. & Ziegler D.J. Personality Theories, London: McGrow - Hill Interrnational Book Co., 1981.

12 - Lindzey, G., Hall, C.S. & Manosevitz; Theories of Personality : Primary Sources and Rescasch. New York : John Wiley & Sons, Inc. 1973.

13 — Maddi, S.R. Personality Theories : A Comparative Analysis Homewood, Illinois : The Dorsey Press., 1976.

14 —Peck D. aid Whitlow D., Approaches to Personality Theory. London : Merhuen & Co Ltd. 1975.

15 — Pervin, L.A. Personality : Theory and Reseasch. New York ; John Wiley & Sons, 1984.

16 — Ryckman, R.M. Theories of Personality. Monterey, California. Brooks., Cole Publishing Company, 1985.

17 — Scroggs, J.R. Key Ideas in Personality Theory. St Paul, Minnesota : West publishing Co. 1985.

18 — Sills, D.L. Encyclopendia of the Social Scinces; Vol; I and II New York : The Macmillan Co. 1968, pp. 56-ol.

19 — Southwell, E.A. & Merbaum, M. Personality : Readings in Theory and Research. Belmmont California : Brooks; Cole Publishing Company, 1964.

20 — Wolman B., International Encylopedia of Psychiatry, Psychology Psychoanalysis & Neurology, New York : Aesculapius Publishers. Vol. II & IV. 1977.

مصـــادر أوليـــة

(ف ٢)

1 — Freud S. On Beginning The Treatment. In The standard edition (Vol 12) London : Hogarth, 1958 (Originally published 1913)

2 — Freud S. Civilization and Its Discontents. In The standard edition (Vol. 21). London : Hogarth Press 1961 (Originally published 1930).

3 — Freud S. Introductory Lectures On Psycho - analysis. In Standard edition (Vol. 15 and 16). London : Hogarth Press, 1963 (First German edition, 1916, 1917).

4 — Freud S. New Introductory Lectures on Psycho - analysis. In Standard edition (Vol. 22) London Hogarth Press, 1964. (Originally published 1933).

(ق ٣)

1 — Jung, G.G. The Psychology of the Unconscious. In Collected works (Vol. 7) (Originally published, 1917).

2 — Jung, G.G. The Relations between the Ego and the Unconscious. In collected works (Vol. 7) . Originally published; 1928 b)

3 — Jung, G.G. Psychological Aspect of the Mother Archetype. In collected works (Vol. 9, part 1) (Originally published, 1954 b).

4 — Jung, G.G. (Ed). Man and his Symbols. Approaching the Unconscious London : Aldus Books, 1964.

5 — Jung, C.G. Letters (G. Adler, Ed). Princeton, N.J: Princeton University Press, 1973.

6 — Serrano, M.C.G. Jung and Hermann Hesse. London : Routledge & Kegan Paul, 1966.

7 — McGuire, W., & Hull; R.F.C. (Eds:) G:G: Jung Speaking; Princeton, N.J: Princeton University Press, 1977.

(ق ٤)

1 — Adler, A. Individual Psychology. In C. Murchison (Ed), Psychologies of 1930. Worcester, Mass. : Clark University Press, 1930.

2 — Adler, A. What Life Should Mean to You. New York : Putnam. 1931.

3 — Adler, A. The psychology of hermaphroditism in life and in

neurosis In H.L. Ansbacher & R. R. Ansbachher (Eds) The Individual Psychology of Alfered Adler. New York : Basic Books, 1956. (Originally published, 1910).

4 — Adler, A. The use of heredity and environment. In H.L. Ansbacher (Eds.), The individual psychology of Alfred Adler. New York : Harper, 1956. (Originally published, 1935).

5 — Adler, A. The Individual Psychology of Alfred Adler : A. Systematic presentation of selections From his writings. (H.L. Ansbacher & R.R. Ansbacher, Eds). New York : Harper; 1956.

6 — Adler, A. Problems of Neurosis. New York : Harper & Row, 1964. (Originally published, 1929.)

7 — Adler, A. The Science of Living. New York : Doubleday, 1969: (Originally published, 1929).

(ف ٥)

1 — Horney, K. The Neurotic Personality of Our Time. New York : Norton, 1937.

2 — Horney, K. New Ways in Psychoanalysis. New York : Norton, 1939.

3 — Horney, K. Self - Analysis New York : Norton, 1942.

4 — Horney, K. Our Inner Conflicts. New York : Norton, 1954:

5 — Horney, K. Neurosis and Human groth. New York : Norton: 1950.

(ف ٦)

1 — Erikson, E. Childhood and Society (2d ed.) New York Norton: 1963 a.

2 — Erikson, E. (Ed). Youth : Change and Challenge. New York : Norton, 1963 b.

3 — Erikson, E. Identity : Youth and crisis. New York : Norton, 1968 .

4 — Erikson, E. Gandhi's Truth. New York : Norton, 1969:

5 — Erikson, E. Reflections on the Dissent of Contemporary Youth. Deadalus, 1970 a, 99; 154-176:

6 — Erikson, E. Autobiographic Notes on the Identity Crisis Deadalus: 1970 b, 99, 730 - 759.

7 — Erikson, E. Dimensions of a New Identity : The 1973 Jefferson lectures in the humanities. New York Norton, 1974 .

8 — Erikson, E. Toys and Reasons. New York : Norton; 1977:

9 — Erikson, E. (Ed). Adulthood. New York : Norton; 1978:

(ف ٧)

1 — Murray, H.A. Explorations in Personality : A clincal and experimental study of fifty men of college age. New York : Oxford University Press **1938.**

2 — Murray, H.A: What should psychologists do about psychoanlysis: Journal of abnormal and Social Psychology, 35, 150-175. (1940).

3 — Murray; H.A: In nomine diaboli: In E.S. Shneidman (Ed:), Endeavors in psychology : Selections from the personology of Henry A. Murray (82 - 94). New York : Harper & Row (Original work published 1951) 1981.

4 — Murray, H.A. American Icarus. In E.S. Shneidman (Ed:) Endeavors in psychology: Selections from the personology of Henry A. Murray (535-556). New York : Harper & Row. (Original work published 1955) 1981.

5 — Murray, H.A. The case of Murr. In E.S. Shneidman (Ed:), Endeavors in psychology ; Selecions from the personology of

Henry A. Murray (52-78). New York : Harper & Row. (Original work published 1967) 1981 a.

6 — Murray, H.A. Dead to the world : The passions of Herman Melville. In E. S. Shneidman (Ed), Endeavors in psychology : Selections from the personology of Henry A. Murray (498-517). New York : Harper & Row. (Original work published 1967) 1981 b.

7 — Murray, H.A., & Kluckholn; C. Outine of a conception of personality. In E.S. Shneidman (Ed.), Endeavors in psychology : Selections from the personology of Henry A. Murray (204-234). New York : Harper & Row (Original work published 1953) 1981.

8 — Murray, H.A., & the Staff of the Harvard Psychological Clinic. Thematic apperception test manual. Cambridge, MA: Harvard University Press. 1943.

(ف ٨)

1 — Cattell; R.B: Personality : A Systematic; Theoretical; and Factual New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.

2 — Allport, G.W. Becoming, Basic Considerations for a Psychology of Personality. New Haven, Conn : Yale University Press, 1955.

3 — Allport, G.W., Personality and social Encounter. Boston b Beacon Press, 1960.

4 — Allport, G.W., Pattern and Growth in Personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.

5 — Allport, G.W. Autobiography. In E. G: Boring and G: Lindzey (Eds: 1,. A History of Psychology in Autobiography (Vol. 5). New York : Appletion - Century Crofts; 1967, 1-25.

6 — Allport, G.W. The Person in Psychology : Selected Essays, Boston : Beacon Press, 1968.

7 — Allport, G.., and F.H. Allport; Personality traits : Their Classification and measurement, J. Abnorm. Sic. Psychol., 1921; 16; 6-40.

(ف ٩)

1 — Cattell, R.B. Personality : A systematic, theoretical; and Factual study. New York : McGraw-Hill, 1950:

2 — Cattell, R:B:, Prsonality structres as learning and motivation patterns-a theme for the integration of methodologies; in Learning Theory, Personality Theory and Clinical Research : The Kentucky Symposium. New York : Wiley, 1954 pp. 91-113.

3 — Cattell; R.B. Personality and Motivation Structure and Measurement, New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1957.

4 — Cattell, R.B. The Ssientific Analysis of Personality: Baltimore: Penguin Books, 1965.

5 — Cattell, R.B., Saunders; D.R.; & Stice; G:F: The 16 Personlity Factor Questionnaire. Champaign, Ill. : Institute for Personality and Ability Testing, 1950.

6 — Cattell, R.B. & Breul, H.; & Hartman; H.P. An attempt at more refined definition of the cultural dimensions of syntality in modern nations. American Sociological Review, 1952, 17; 408 - 421.

7 — Cattell, R.B. & Warburton; F.W: Objective Personality and Motivation tests. Urbana, Ill. : University of Illinois Press; 1967.

(ق ١٠)

1 — Eysenck, H.J. Dimensions of Personality. London : Routledge & Kegan Paul, 1947.

2 — Eysenck, H.J. The Scientific Study of Personality. London : Routledge & Kegan Paul, 1952.

3 — Eysenck, H.J. The Structure of Human Personality: London : Methuen, 1953 : rev. 1960.

(ق ١١)

1 — Skinner, B. F. Science and Human Behavior. New York : Macmillan, 1953.

2 — Skinner, B.F. Teaching Machines. Science, 1958; 128; 969-977.

3 — Skinner, B.F. Autobigraphy.. In E. G. Boring & G: Lindzey (Eds:), History of psychology in autobiography, Vol. 5. New York: Appleton - Century - Crofts, 1967 a. pp. 387 - 413.

4 — Skinner, B.F. About Behaviorism. New York : Knopf, 1974.

5 — Skinner, B.F· The steep and thorny way to a science of Behavior: American Psychologist, 1975, 30; 42-49.

6 — Skinner, B.F. The shaping of a behaviorist. New York : knopf, 1979.

(ق ١٢)

1 — Dollord, J., Doob; L.; Miller; M.; Mowrer; O. H.; & Sears; R: Frustration and Aggression. New Haven; Conn: : Yale University Press, 1939.

2 — Dollard, J.; & Miller; N.E: Personality and Psychotherapy : An Analysis in Terms of Learning, Thinking and Culture. New York McGrow - Hill, e1960.

(ق ١٣)

1 — Bandura, A. Behavior theory and the models of man. American Psychologist, 1974; 29 859-869.

2 — Bandura, A. Self-efficacv mechanisms in human agency. American Psychologyist, 1982. 37: 122-147.

3 — Bandura, A. Ross, D.; & Ross; S.A. Imitation of Film - mediated aggressive models: Journal of Abnorma and Social Psychology; 1963 a, 66-3-11.

4 — Bandura, A., & Walters; R.H. Social learning and personality development. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1963.

5 — Bandura, A., & Kupers, C.J. The Transmission of patterns of self - reinforcement through modeling. Journal of Abnormal and Social Psychology, 1964, 69; 1-9.

(ق ١٤)

1 — Lewin, K. ADynamic Theory of Personality. New York : McGraw-Hill, 1935.

2 — Lewin; K. Principles of Topological Psychology. New York : McGraw-Hill, 1936.

3 — Lewin, K. Resolving Social Conflicts : Selected papers on group dynamics (G.W. Lewin, ed). New York : Harr per & Row, 1948.

4 — Lewin, K. Field theory in social science : Selected theoretical papers (D. Cartwright, ed). New York : Harper & Row, 1951.

5 — Lissner, K. Die Entspannung von Bedurfnissen durch Ersatz-handlunge Psychologische Forschung, 1933; 18; 218-250.

6 — Mahler, W. Ersatzhandlange veschiedenen Realitätsgrades. Psychologische Forschung 1933, 18, 27-89.

7 — Marrow, A.J. The practical theorist : The Life and work of Kurt Leiwn New York : Basic Books, 1969.

٤ — De Rivera, J. Field theory as human science : Contributions of Lewin's Berlin group New York : Halsted Press, 1976.

(ف ١٥)

1 — Kelly, G.A: The Psychology of Personal Constructs (2 vols). New York : W. W. Norton, 1955.

2 — Kelley, G. A. A summary statement of a cognitively - oriented comprehensive theory of behavior In J. C. Mancuso (Ed.) Readings for a Cognitive theory of Personality. New York : Holt, Rinehart and Winston, 1970.

(ف ١٦)

1 — Roger's C.R, Counseling and Psychotherapy Counseling and Psychotherapy Boston : Houghton Mifflin Company 1942.

2 — Rogers C.R. Some directions and end points in therapy. In O.H. (Ed), Psychotherapy : Theory and Research New York : Ronald Press, 1953.

3 — Rogers, C.R. A theory of therapy, personality; and interpersonal relationships, as developed in the client. centered framework In S. Koch (Ed) Psychology : A Study of Science (Vol. 3) New York : McGraw - Hill, 1959.

4 — Rogers, C.R. Some directions and end points in therapy. in C.R: Rogers: on Becoming A Person, pp. 73-106 Boston : Houghton Mifflin Company, 1961.

5 — Rogers. C.R. Becoming a person In C.R. Rogers: on Becoming A Person, pp. 107-124. Boston : Houghton Mifflin Company 1961.

6 — Rogers. C. R. 1954 Toward a theory of cretivity. In C: R: Rogers. ON BECOMING A PERSON, pp. 347-59. Boston : Houghton Mifflin co. 1961 .

7 — Rogers, C.R. On becoming a person A Therapist's view of psychotherapy Boston : Houghton Mifflin, 1961.

8 — Rogers, C.R. Actualizing tendency in relation to motives and

to consciousness. In M. R. Jones (Ed) Nebraska Symposiun on Motivaion, 1963. Lincoln : University of Nebraska Press, 1963.

9 — Rogers, C. R. (ed) The Theropeutic Relation ship and its impact · A study of Psychotherappy with Schizophrenies. Madison : University ot Wisconsin Press, 1967 c.

10 — 1969 b Rogers, C.R. Learning : What kind In C.R. Rogers. Freedom to Learn PP. 3 - 5 Columbus : Charles E. Merrill Publishers, 1969.

11 — Rogers' C. R. My personal growth. In A Burton (Ed) Twelve Therapists San Francisco : Jossey - Bass, 1972:

12 — Rogers, C.R. My philosophy of interpersonal relationships and it how it grew Journal of Humanistic Psychology 1973, 13: 3-15.

13 — Holdstock, T.L., & Rogers; C.R. Person - centered theory. In R. J. Corsini (Ed) Current Personality Theories Itasca, III : Peacock Publishers, 1977.

(ف ١٧)

1 — Maslow, A.H. Motivation and Personality. New York : Harper & Row, 1954.

2 — Maslow, A.H .The Psychology of Science : A reconniassance. New York : Harper & Row, 1966.

3 — Maslow, A.H. Toward a Psychology of Being (2nd ed.). Princeton; N.J. : Von Nostrand, 1968.

4 — Masyow, A.H. Motivation and Personality (2nd ed.). New York : Harper & Row, 1970.

5 — Maslow, A.H. The Farther Reaches of Human Nature. New York: Viking, 1971.

فهرس الكتاب

		صفحة
الفصل الأول	مقدمة	٩
الفصل الثانى	سيجمند فرويد	١٩
الفصل الثالث	كارل يونج	٥٥
الفصل الرابع	الفرد ادلر	٩٥
الفصل الخامس	كارين هورنى	١٢٧
الفصل السادس	اريك اريكسون	١٥٩
الفصل السابع	هنرى مورى	٢٠١
الفصل الثامن	جوردن البورت	٢٤٣
الفصل التاسع	ريموند كاتل	٢٨٥
الفصل العاشر	هـ . ايزنك	٣٣١
الفصل الحادى عشر	ب . ف سكنر	٣٦١
الفصل الثانى عشر	دولارد وميللر	٣٩٥
الفصل الثالث عشر	ا باندورا	٤٢٧
الفصل الرابع عشر	كيرت ليفين	٤٦٧
الفصل الخامس عشر	ج كيلى	٤٩٥
الفصل السادس عشر	كارل روجرز	٥٣٥
الفصل السابع عشر	ابراهام ماسلو	٥٧٣
الفصل الثامن عشر	الوضع الراهن	٦٠٩
المراجع		٦٢٥

رقم الايداع ٢٣٢٢

الترقيم الدولى ٢٦٨٠٠ - ٩٩٧

السعر

٩٠